جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم التاريخ



العلاقات بين الجزائر والمغرب

٩٢٣ - ١٠٦٩ هـ / ١٥١٧ - ١٦٥٩ م

رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ

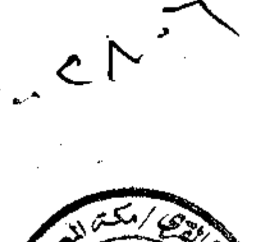
من إعداد

عمار بن خروف

بإشراف

الاستاذة الدكتورة ليلى الصباغ

دمشق ١٤٠٣ / ١٩٨٣ م





بســم اللــه الـرحمن الرحيــم

المقــدمــة

ان موضوع العلاقات أيا كان نوعها موضوع هام في التاريخ لأنه يمثل العنصر الأكثر حيوية فيه ، وبالتالي هو الذي يكون عنصر الربط بين أحداث التاريخ التي قد تبدو متناقضة ، وقد كان بحث العلاقات في التاريخ يقتصر غالبا ، وحتى الفترة القريبة على دراسة العلاقات السياسية أو الدبلوماسية بين الدول ، وهذا ناتج عن الاهتمام بالتاريخ السياسي ، دون أنواع التاريخ الأخرى ، ولكن خروج الدراسة التاريخية الى حيز مجموع حياة المجتمعات ، دفع الدراسة الى أن تأخذ مجراها في ميدان الاقتصاد ، وجميع نواحي الحياة الاجتماعية ، وعلى هذا فدراسة العلاقات بين الجزائر والمغرب لن تقتصر على العلاقات السياسية ، وانما ستشمل أيضا العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ولكن لابد لي أن أقر بحقيقة بأن الذي دفعني الى اختيار هذا الموضوع كان في بادئه المنحى السياسي ، وبالذات التساؤل الكبير الذي كان وما يزال يطرحه كثير من القراء والمؤرخين والباحثين ، وهو : لماذا لم تسيطر الدولة العثمانية على المغرب ، بعد امتداد نفوذها الى الجزائر المجاورة له ، ولكونها أي قوتها في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (1520 - 1566) ؟ فذلك التساؤل دفعني الى اعداد بحث حاولت فيه أن أجيب عليه ، ومن ثمّ زاد اهتمامي أكثر بالعلاقات بين المغرب والجزائر التي انضوت تلقائيا تحت لواء الدولة العثمانية ، وكان حكامها العثمانيون هم الذين ينفذون بل ويرسمون أيضا سياسة الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط وتجاه المغرب بالذات ، ويعملون على تحقيق مراميها فيه ، ولا سيما في المرحلة التي كانت فيها الجزائر وثيقة الارتباط بالدولة العثمانية أي في عهدي البايلربايات ، والباشاوات ، ويمتد العهدان من عام 925 - 1069 هـ/1519 - 1659 م . ولذلك فقد حرصت على أن يكون موضوع رسالتي ، في العلاقات بين الجزائر والمغرب وبالذات في الفترة التي كانت فيها الجزائر تحت حكم البايلربايات ، والباشاوات لأنّ هذين العهدين ، ويقابلهما في المغرب عهد السعديين ، مرحلة هامة فعلا في تاريخ القطرين كما يتبين ذلك من خلال الفصلين الأولين من هذه الرسالة ، ومرحلة هامة أيضا في تاريخ العلاقات بينهما . لأنّ العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة ، لم تكن ذات طابع محلي ، وانما اكتسبت طابعا دوليا ، اذ دخلت فيها قوى عديدة منها الدولة العثمانية ، ودول أوروبية كثيرة منها الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، واسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا ، وانكلترا ، وكان لهذه القوى تأثيرها الكبير في تلك العلاقات ، وهذا التعقيد فسي

المتقارنات كان أحد الدوافع لاختيار هذا الموضوع لكشف خفاياها . وما زادني رغبة في الخوض في العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة ، أنني وجدت أن العلاقات بصفة عامة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بصفة خاصة غير مدروسة ، أو لم يتطرق الى بعض جوانبها ، ولم تدرس وحدة واحدة على امتدادها . فكانت الغاية من هذا البحث هو استكشاف خفايا مجموع العلاقات بين البلدين في فترة هامة من تاريخهما ، وتوضيح تعقيداتها وغموضها ، وتأثيرها وتأثرها في بعضها .

وقد روعي بحث العلاقات بين البلدين على امتداد زمني طويل نسبيا لاعتبارين أولهما أن الامتداد الزمني الطويل يتيح امكانية ملاحظة تطور العلاقات بين البلدين في مختلف أطوارهما أي في حالات الضعف والقوة وحالات الاضطراب والاستقرار وحالات الوحدة والتجزؤ ، وملاحظة تطور العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الذي يكون عادة تطورا بطيئا . وثانيهما دراسة تلك العلاقات في مرحلة كان فيها المغرب تحت حكم السعديين متشبثا بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، بينما كانت فيها الجزائر اكثر ارتباطا بهذه الدولة ، وبخططاتها تجاه المغرب وغيره .

اما اختيار سنة 1517م/ 923هـ بداية للمرحلة المراد بحثها ، وليس سنة 925هـ/ 1519م التي اصبحت فيها الجزائر تابعة رسميا للدولة العثمانية ، فلأن سنة 923هـ/ 1517م كانت السنة التي ابتدأت فيها العلاقات بين حكام الجزائر العثمانيين - أي قبل الانضواء الرسمي للجزائر تحت لواء الدولة العثمانية - وحكام المغرب ، وذلك بالعلاقة التي انشأها عروج بربروس ، الذي نعتقد انه لم يكن مجرد مغامر يعمل لصالحه ، وانما عثماني يعمل لمد النفوذ العثماني ، بدعم من الدولة العثمانية نفسها ، مع السلطان الوطاسي المدعو محمد البرتغالي ، وذلك لما تمكن من مد النفوذ العثماني في سنة 923هـ/ 1517م حتى تلمسان باقصى الغرب الجزائري ، وهي السنة التي استطاع فيها السلطان سليم العثماني (1512 - 1520) من جهته ان يمد نفوذه الى مصر ، كما ان سنة 923هـ/ 1517م كانت السنة التي آل فيها الحكم في الجنوب المغربي الى السلطان السعدي احمد الاعرج الذي فتح باب العلاقات مع الاتراك العثمانيين .

اما سنة 1069هـ/ 1659م فتتوافق تماما مع السنة التي انهار فيها حكم السعديين في المغرب ، وحكم الباشاوات في الجزائر فيدخل البلدان بذلك في مرحلة جديدة ، فرأوي فيها سنة مناسبة للتوقف عندها على امل التطرق الى الفترة التي تليها في بحث آخر .

وقد رجعت في بحثي هذا الى مجموعة كبيرة من الوثائق المطبوعة وغير المطبوعة المغربية والعثمانية والاوربية ، كما رجعت الى مجموعة كبيرة من المصادر المطبوعة والمخطوطة المغربية والاوربية وبعض المصادر العثمانية ، شملت كتب التاريخ العام والتراجم ، والرحلات ، ورجعت

الاسبان والبرتغاليين الباقيين على شواطئ الجزائر والمغرب على تلك العلاقات، وقد ثبت من الدراسة ان العلاقات بين القوى الاربع الاسلامية المذكورة لم ترق الى التعاون الحقيقي المفترض ان يحصل بينهما . وتطرقت الى النتائج التي نجمت عن ذلك واهمهـــــا :-

- استمرار الاسبان والبرتغاليين في احتلالهم لمواقع عديدة في البلدين .
- الانهيار التدريجي للوطاسيين في المغرب والزيانيين في الجزائر .
- وعدم توحد البلدين تحت سلطة واحدة .

وتناول الفصل الرابع بالبحث العلاقات بين البلدين في الفترة 956 - 982هـ/ 1549 - 1574 م اي في الفترة التي تلت انفراد السعديين بالحكم في المغرب وانفراد الاتراك العثمانيين بالحكم في الجزائر ، تلك العلاقات التي تميزت بالحروب تارة والسلم الحذر اخرى . فبحثت في الاسباب التي جعلت العلاقات بين البلدين تتطور في اتجاه النزاع بدل التعاون . واتضح ان اهمها رفض السعديين الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية ، ورغبتهم في مد نفوذهم الى الجزائر والمشرق لتحقيق اهدافهم الاقتصادية ، والسياسية . تلك الرغبة التي اصطدمت برغبة حكام الجزائر في مد نفوذهم الى المغرب تحقيقا ايضا لاهدافهم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية .

وتطرقت بالتفصيل الى التدخلات العسكرية السعدية في الجزائر ، والتدخلات العثمانية في المغرب وما نشأ عنها من اصطدامات عنيفة بين المقبوضين الاسلاميين المتجاورتين ، وما تخللها من مفاوضات بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة ، وبين المغرب من جهة اخرى ، ومفاوضات سرية بين السعديين والاسبان كانت تستهدف التعاون للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر الذي كان خطرا مشتركا على الطرفين . وما تلا تلك التدخلات من قيام سلام قلق بين البلدين .

اما الفصل الخامس فتناول بالبحث العلاقات في الفترة 982-995هـ/ 1574 - 1587م وفيه تطرقت الى استئناف التدخل العثماني المباشر في المغرب، او التهديد القوي له ، بعد ان حسم العثمانيون صراعهم مع الاسبان على تونس لصالحهم ، واصبح طريق الامدادات من عاصمة الدولة العثمانية الى الجزائر اكثر امنا . فعرضت الى الحملة الجزائرية على المغرب سنة 984 هـ/ 1576 م - هي الثالثة - تلك الحملة التي نصبت عبد الملك السعدي سلطانا فـي فاس معترفا بالسيادة العثمانية . واشرت الى المخاوف الكبيرة التي أثارها امتداد النفوذ العثماني الى المغرب لدى الاسبان والبرتغاليين ، وتقرب عبد الملك من الاسبان تمهيدا لطمس السيادة العثمانية ، كما اشرت الى الحملة البرتغالية التي استهدفت احتلال المغرب لدفع خطر امتداد النفوذ العثماني اليه على بلادهم وعلى مواصلاتهم عبر الاطلسي . ثم تطرقت الى الحديث عن مواقف احمد المنصور خليفة عبد الملك ، الرافضة للاعتراف بالتبعية

للسلطان العثماني مراد الثالث وللتحالف معه ومناصرته . تلك المواقف التي جعلت هذا الاخير يجرد حملة ضخمة لغزو المغرب . والعمت باسباب تراجع السلطان العثماني عن غزوه بعد ان حرك الحملة، ووجهت جنده الى الجزائر . وما تلا ذلك التراجع من اعتراف الدولة العثمانية بالامر الواقع في المغرب . اي بالمغرب، دولة ذات سيادة ، والمنصور سلطانا مستقلا فيه) ومن قيام سلام حذر بين الدولتين الى ان توفي العلج علي بايلربيان الجزائر وقائد الاسطول العثماني الذي كان متحمسا لغزو المغرب وذلك في سنة 995هـ/ 1587م، واستبدل نظام البايلربايات في الجزائر بنظام الباشاوات.

وتناول الفصل السادس والاخير من باب العلاقات السياسية بالبحث العلاقات في الفترة 995-1069هـ/ 1587-1659م، اي في الفترة التي تتوافق مع عهد الباشاوات في الجزائر . وقد عرضت في هذا الفصل اولا العلاقات بين حكام الجزائر والمنصور ثم علاقاتهم مع ابناء هذا الاخير وحفدته ، وعلاقاتهم مع القوى السياسية المختلفة التي قامت في المغرب من غير السعديين كاندلسيي سلا ، والمجاهد العياشي ، وغيلان في تطوان ، ومرابطي الدلاء والاشراف العلويين . وقد بدا من دراسة تلك العلاقات ان حكام الجزائر الباشاوات الذين كان عهدهم عهد اضطراب شبه دائم في مدينة الجزائر وخارجها ايضا قد مالوا اكثر فاكثر الى اقامة علاقات سلام وحسن جوار مع المغرب خاصة في عهد المنصور . اما بعد المنصور فان حكام الجزائر الذين لم تساعدهم ظروفهم للتدخل القوي المباشر فيه ، قد مالوا الى تشجيع التجزؤ والانقسام فيه ، حتى لا تتجه انظار حكامه الى الجزائر الغارقة في اضطراب يكاد يكون مزمنا ، وذلك باقامتهم لعلاقات وطيدة مع المنشقين عن السعديين كالعياشي، واندلسيي سلا، والدلائيين ، وتحالفهم معهم . ولكن نوعا من السلام القلق ظل مرعيا حتى العقد الاخير من الفترة مدار البحث الذي شهد تجدد النزاع بين اتراك الجزائر، والاشراف العلويين الطامحين الى الملك.

اما بالنسبة لباب العلاقات الاقتصادية فلم يجر فيه السير بنفس النهج التفصيلي الذي اتبع في باب العلاقات السياسية ، لان البنية الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية، كما اتضح من استكشافها بطبيعة التحول، وعلى هذا الاساس فقد قسم باب العلاقات الاقتصادية الى فصلين فقط ، تناول الفصل الاول منهما بالبحث البنية الاقتصادية في البلدين والعوامل المؤثرة فيها . وقد تبين من الفصل ان البنية الاقتصادية في البلدين متشابهة الى حد كبير خضوعها الى عوامل داخلية وخارجية ، قديمة وجديدة ، واحدة او متشابهة ثم تناولها التفصيل في هذا الفصل . ذلك التشابه الذي جعل التبادل الاقتصادي بين البلدين ضعيفا نسبيا .

أما الفصل الثاني من باب العلاقات الاقتصادية فتناول بالعرض مظاهر تلك العلاقات في الحقول الاقتصادية المتنوعة ، الزراعية والصناعية والتجارية. وقد تبين من

الفصل وجود صلات بين العاملين في تلك الحقول في البلدين، ظهر أثرها في التطابق او التشابه الكبير في الطرق، والاساليب المتبعة في البلدين، في حقول الزراعة ، وتربية الماشية، والصنائع والحرف . اما العلاقات في المجال التجاري ، التي يبدو انها لم تاخذ صبغة سياسية ولم تخضع لاتفاقيات رسمية مثلما هو الشان في الحقول الاقتصادية الاخرى، فتم تناولها ضمن الفترات الطويلة، لطرق المواصلات بين البلدين ، والقوافل التجارية المتبادلة ، والمواد التجارية المتبادلة ، ووسائل التبادل ، واخيرا مراكز التبادل التجاري .

واما الباب الثالث والاخير من الرسالة ، المخصص للعلاقات الاجتماعية والثقافية ، فقد اتبع فيه نفس المنهج الذي اتبع في الباب السابق له . فضم فصلين ، تناولت في اولهما العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية ، القديمة والجديدة . فاشرت ضمن العوامل القديمة الى الروابط العديدة التي كانت تربط بين المجتمعين المغربي والجزائري ربطا قويا في المجالين الاجتماعي والثقافي ومنها الروابط الجغرافية (الجوار) ، والروابط التاريخية ، والروابط البشرية ، والدينية ، واللغوية ، والثقافية . وضمن العوامل القديمة الجديدة ، ذكرت حركة التنقل والهجرة من احد البلدين الى البلد الآخر للافراد والجماعات ، لمختلف الاغراض ، تلك الحركة التي كانت قائمة قبل المرحلة مدار البحث ، والتي لم تعرف الهدوء في هذه الاخيرة . وذكرت ايضا استمرار تدفق المهاجرين الاندلسيين الى البلدين حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

اما ضمن العوامل الجديدة ، فاشرت الى الغزو الاسباني للجزائر والغزو البرتغالي-الاسباني للمغرب وما نجم عنه من آثار سلبية في مجموعها ، ثم الى قيام الحكم العثماني في الجزائر ، والحكم السعدي في المغرب ، واثرهما وتاثيرهما في العلاقات الاجتماعية والثقافية .

وتناولت في الفصل الثاني مظاهر العلاقات الاجتماعية والثقافية ، فاشرت بالخصوص الى حركة الهجرة والتنقل التي لم تكن فقط عاملا من العوامل الايجابية التاثير في العلاقات ، وانما ايضا مظهر من مظاهر تلك العلاقات . والى ما نشا عن حركة الهجرة والتنقل بين البلدين من وجود جالية جزائرية في المغرب ، وجالية مغربية في الجزائر ، وتملك بعض الجزائريين في المغرب وبعض المغاربة في الجزائر للاقطاعات . وقيام المصاهرات بين هؤلاء وأولئك .

وتحدثت ايضا عما نشا عن هجرة المثقفين وتنقلهم بين البلدين للاخذ او العطاء او للغرضين معا ، او لغير ذلك من الاغراض من اعمار للمراكز الثقافية في البلدين بالعلماء ، والطلبة المغاربة والجزائريين ، ومناقشات فكرية ودينية بين علماء البلدين ، ومراسلات بين العلماء ، وبين العلماء والطلبة ، وبين المتصوفة ومريديهم .

وعرضت في الاخير الى المراكز التي كان يجري فيها التبادل الثقافي ، وهي التي كانت ايضا مراكز للتبادل في الحقول الاخرى . فحددت اهمها ، وابرز علمائها . فركزت في المغرب على المراكز التي استقطبت الكثير من علماء الجزائر ، واهمها : فاس ، ومراكش ، وتطوان ، وسجلماسة ، وتارودانت ، وفي الجزائر ركزت على المراكز الثقافية المقصودة اكثر من غيرها من قبل علماء المغرب وهي : تلمسان ، والجزائر وقسنطينة ، ومازونة . واتبعت بتراجم مختصرة لابرز العلماء ، بما تم لذلك عامة الناس وخاصتهما في تلك المراكز وعرفت تنازلت مساهماتهم . ولم اغفل الاشارة الى مركز هام للمبادلات الثقافية بين البلدين الا وهو البقاع المقدسة حيث كان علماء البلدين والبيئتها يلتقون فيه للأخذ بعضهم عن بعض ، وواضح ان هذا المركز يقع خارج البلدين .

اما الخاتمة فذكرت فيها اهم النتائج والاستنتاجات التي توصل اليها البحث .

وبعد ، ارجو ان يكون بحثي المتواضع قد اسهم في توضيح العلاقات المتنوعة بين البلدين في فترة هامة من تاريخ علاقاتهما .

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم ان اتقدم مخلصا بفائق تقديري وجزيل شكري للاستاذة الفاضلة الدكتورة ليلى الصباغ على الرعاية العلمية والتوجيه السديد طوال الفترة التي قضيتها تحت اشرافها . ذلك التوجيه الذي كان له الفضل الكبير في اتمام هذا البحث واظهاره في الصورة التي هو عليها . والحق ان توجيهاتها وتجاوبها مع الباحث كان اكبر بكثير مما تم انجازه . ولذلك فان الباحث هو الذي يتحمل مسؤولية كل النقائص والاخطاء .

كما اتقدم بخالص شكري الى الاستاذ الفاضل الدكتور محمد خير فارس الذي فتح لي باب مكتبته ، وزودني منها بالمصادر والمراجع التي تتعلق بصميم الموضوع ، وكان دوما على استعداد لمساعدتي ، ولم يبخل عليّ ابدا بالتوجيه والارشاد .

وخالص شكري ايضا الى الاستاذ الفاضل الدكتور احمد طربين لتفضله بمناقشة الرسالة ، وقبل ذلك لما افدت من توجيهاته وأنا في مرحلة الدبلوم .

واود أن أشكر كذلك قسم التاريخ ، وكلية الآداب ، وجامعة دمشق ادارة واساتذة لما وجدته لدى الجميع من تعاون وتجاوب . ولا انسى ان اشكر ايضا كل من تعاون معي وسهل مهمة بحثي وانجازه من قيمي المكتبات والوثائق في سوريا والجزائر . وشؤون الطلاب والخدمات الطلابية كما اخص بالشكر الاخ عبد الكريم مقراني الطالب الجزائري في سورية لما ابداه من تعاون وما قدمه لي من مساعدة .

((وبالله التوفيق))

التعريف بأهم المصادر المعتمدة في البحث

اعتمد البحث نا سلفا القول على وثائق ومصادر ومراجع ومقالات كثيرة عربية واوربية وعثمانية [...]نها يلي استعراض لأهمها :

[...]ـ الوثائق :

آ ـ الوثائق العثمانية :

اعتمدت على الوثائق المتداولة والمصورة الموجودة في الجزائر ، وخاصة في مركز الدراسات [ال]تاريخية الذي قام بتصوير قسم هام من الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الجزائر [(1)] ، وهو الآن بصدد [ت]عريبها تسهيلا لمهمة الباحثين الذين لا يحسنون اللغة العثمانية . وقد تم فعلا تعريب [ق]سم هام منها يتعلق بعهد البايلربايات وهو القسم الذى اخذت منه كثيرا . وسعيت ان تكون [ا]ستفادتي من الوثائق الرسمية العثمانية المتداولة كبيرة فقمت لهذا الغرض بزيارة الى استانبول [و]لكنني لم أوفق في الحصول على الرخصة التي تسمح للباحث بالاطلاع على الارشيف ، ولاحظت ان [ال]حصول عليها ليس أمرا سهلا ، ولا تعدى لذا الهيا بكل تأكيد . فحرصت ان تكون استفادتي [م]ن المطبوع من الوثائق العثمانية كبيرة قدر الامكان ، وهكذا اطلعت على عديد من الوثائق المنشورة [ض]من كتب ومجلات من اهمها : مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك في مجلدين مطبوعين [ب]تاريخ ١٢٦٤ ، يحتويان على اكثر من الف وثيقة بينها عدد من الوثائق باللغتين العربية [و]العثمانية تتعلق بالعلاقات بين الجزائر وتركيا ، وبين المغرب والدولة العثمانية ، [و]نصوص وثائق كثيرة اوردها عزيز سامح في ثنايا كتابه «الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا» [ال]ذى عربه عبد السلام ادهم . ونصوص الوثائق العثمانية التي نشرتها المجلة التاريخية المغربية [ال]تي تصدر في تونس وغيرها من المجلات ..

ب ـ الوثائق المغربية :

وكانت استفادتي بصفة خاصة من المطبوع منها في الكتب والمجلات المتخصصة . اذ تعذر [عل]ى الذهاب الى المغرب للاطلاع على المخطوط منها . ومن اهم الكتب والمجلات التي رجعت [ال]يها واستفدت من الوثائق الكثيرة المنشورة فيها ، اذكر على سبيل المثال لا الحصر :

ـ الرسائل السعدية التي نشرها عبد الله كنون في مجموع يتضمن نحو (٦٢) رسالة ، [استفد]ت منها كثيرا .

ـ كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لمؤلفه عبد العزيز الفشتالي، وزير السلطان [الس]عدى احمد المنصور ، الذى يتضمن القسم المطبوع منه نحو خمس عشرة وثيقة ، أفدت منها [كثي]را وخاصة في العلاقات الثقافية والسياسية .

(1) انظر حول الوثائق الجزائرية سعيدوني ، نظرة حول الوثائق العثمانية بالجزائر ومكانتها في تاريخ الجزائر الحديث /في/ مجلة التاريخ / عدد ٤ ، الجزائر ١٩٧٧ .

ـ وكتاب نزهة الحادي لمحمد الصغير الوفراني ، وروضة الآس العاطرة الأنفاس لأحمد المقري ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس احمد بن خالد الناصري السلاوي ، وغيرها من الكتب .

واذكر من المجلات التي رجعت اليها ، وافدت من الوثائق التي نشرتها :

ـ مجلة الوثائق التي تصدر عن مديرية الوثائق المغربية منذ سنة ١٩٧٦ .

ـ ومجلة تطوان ، ومجلة هسبريس ، وهسبريس تامودة . وأرشيف ماروكــــان (Archives Marocainnes).

ج ـ الوثائق الأوربية :

اما اهم الوثائق الأوربية التي رجعت اليها فهي المجموعة الضخمة القيمة التي جمعتها من مختلف الخزائن ودور المحفوظات الاوربية وحققها ونشرها الكونت هنري دوكاستري في سلسلتين ، الاولى تتعلق بالدولة السعدية وتغطي الفترة (١٤٨٦ـ١٦٦٠) وهي التي افدت منها كثيرا ، والثانية تتعلق بالدولة الفيلالية (العلوية) وتغطي الفترة (١٦٦١ـ١٨٤٥) وكلتاهما تحت عنوان : المصادر المغفلة لتاريخ المغرب (Sources Inédites de l'Histoire du Maroc Premiere Serie , Dynastie Sa'dienne.)

وقد استمر دوكاستري المجلدات وفي سنة ١٩٠٥ وبلغ عدد المجلدات التي نشرها من الدولة السعدية حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٢٧ ثلاثة عشر مجلدا من السلسلة الاولى . وتابع بعده بيير دوسونيفال ، وفيليب دوكوسي بريسان وشانتال دولافيرون نشر الوثائق المتعلقة بالدولتين السعدية والفيلالية فبلغ الآن مجموع المجلدات المتعلقة بتاريخ الدولة السعدية وحدها واحدا وعشرين مجلدا . الرجوع اليها والافادة منها كثيرا خاصة في العلاقات السياسية كما رجعت الى مجموعات اخرى من الوثائق المنشورة خاصة تلك التي نشرها ايلي دولا بريموداي بالجزائر سنة ١٨٧٥ في الكتاب المسمى : (Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique "1506 - 1574".)

ومجموعة الوثائق الدبلوماسية التي نشرها شاريير (Charriere : Négociations de la France dans le Levant, 4 Volumes .) بباريس سنة ١٨٥٠ وعديدا من الوثائق التي نشرتها المجلات الأوربية كمجلة الاندلس (Al- Andalus) ، ومجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) ومجلة الغرب الاسلامي والمتوسط (R.O.M.M.) وغيرها .

٢ ـ المصادر والمراجع :

آ ـ العربية :

اما المصادر العربية والمصرية التي رجعت اليها واستفدت منها كثيرا فأهمها في :

* تاريخ الدول والاسر:

ـ كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي المتقدم ذكره. وهذا الكتاب يؤرخ للدولة السعدية حتى اواخر عهد المنصور، ويمكن ان يعتبر من كتب التاريخ الرسمي للدولة السعدية بحكم علاقة مؤلفه بتلك الدولة وخاصة بالسلطان احمد المنصور الذى اتخذه من كتابه المقربين.

ـ كتاب تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية لمؤلف مجهول الذى سلك فيه صاحبه سلوكا مناقضا للفشتالي، حيث كان حريصا على عدم السكوت عن مساوئ السعديين، بل وعلى ابرازها مما جعلني آخذ منه كما آخذ من كتاب الفشتالي بحذر.

ـ كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لمحمد الصغير الوفراني المراكشي (المتوفى سنة ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م) الذى يعد اكمل كتاب عن الدولة السعدية وأوفاها واكثرها اعتمادا في تناول تاريخ الدولة السعدية والامارات التي تأسست في المغرب في اواخر السعديين. ولذلك فقد اعتمدت عليه كثيرا.

ـ كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول، وهذا الكتاب الذى يؤرخ لبداية الحكم العثماني في الجزائر من الكتب التي تم تعريبها من اللغة العثمانية الى العربية. وقد اخذت منه بحذر ايضا لميل مؤلفه الواضح الى تمجيد الحديث والثناء لخير الدين وعروج بدون اعتدال.

* التراجم: اما اهم المصادر التي اعتمدت عليها من صنف التراجم فاهمها:

ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن علي الشفشاوني المعروف بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م وكانت استفادتي منه جمة ولا سيما في العلاقات الثقافية، اذ ترجم لنخبة من علماء الجزائر الذين هاجروا الى المغرب وبعض الذين لم يهاجروا اليه.

ـ درة الحجال في اسماء الرجال، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس، وكلاهما لأبي العباس احمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي (المتوفى ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م) وفي هذين الكتابين وجدت مادة هامة لبحث العلاقات الثقافية.

ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لمحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن مريم التلمساني (كان حيا في سنة ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م)، وقد افادني كثيرا في بحث العلاقات الثقافية لغنى تراجمه.

ـ روضة الآس ونفح الطيب لأحمد بن محمد المقرى التلمساني الذى تنقل بين الجزائر والمغرب والمشرق وافدت من هذين الكتابين خاصة في بحث العلاقات الثقافية.

ـ كتاب: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون القسنطيني (المتوفى ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م) وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا، ومنه اخذت مادة هامة خاصة بعض تراجم علماء المغرب في مقدمتها ترجمة محمد بن مزيان التواتي.

ـ نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، وهو كما تدل نسبته من علماء السودان الغربي • وقد اخذ عن التنبكتي المذكور الكثيرون من علماء المغرب والمهته عندما جيء به اسيرا الى مراكش في مطلع القرن الحادي عشر الهجري /السادس عشر الميلادي، لدى غزو السعديين للمغرب • وفي كتابه المذكور تراجم كثيرة هامة لعلماء جزائريين ومغاربة •

ـ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر لأبي عبد الله محمد المحبي المتوفى سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩م الذي ذكرهو الاخر عدة تراجم لعلماء الجزائر والمغرب وهو في اربع مجلدات •

* **الرحـــــلات :**

ومن اهم كتب الرحلات التي رجعت اليها الذكـــر :

ـ النفحة المسكية في السفارة التركية لأبي الحسن علي التمجروتي الذي زار مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية في سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وهو في طريقه الى استانبول • ودون مشاهداته وانطباعاته عنها في كتابه المذكور الذي اخذت منه كثيرا من المعلومات التي تتعلق ببعـــض العلاقات السياسية وكذلك ببعض العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيـة •

ـ ماء الموائد او الرحلة العياشية لصاحبها ابي سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م وهي مطبوعة طبعة حجرية في جزئين بفاس سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م • وقد وجدت فيها مادة غزيرة فيما يخص مختلف جوانب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

اما المراجع التي افدت منها كثيرا فاهمهـا :

ـ كتاب الاستقصا للسلاوي ، والترجمان المعرب لأبي القاسم الزياني ، وكتاب الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا لعزيز سامح وتاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي ، وحرب الثلاثمئة سنة لأحمد توفيق المدني ، وتاريخ المغرب في عهد السعديين لعبد الكريم كريم وتعريف الخلـــف للحفناوي ، وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله •

ب ـ المصادر والمراجع الأوربيـة :

وقد اعتمدت ايضا على عدد من المصادر الاوربية والعربية الذكر منها :

ا ـ في صنف التاريخ •

ـ كتاب البرتغاليون وافريقيا الشمالية للويز دو سوزا البرتغالي

LUIZ DE SOUSA : Les Portugais et l'Afrique du Nord(trad,R,RICARD)

الذي قام روبير ريكارد بترجمته الى الفرنسية من البرتغالية ونشره في سنة ١٩٤٠ في لشبونة • وقد اخذت منه مادة هامة في بحث العلاقات السياسية •

ـ وكتاب الطبوغرافية والتاريخ العام لمدينة الجزائر لمؤلفه فراي دييقو دوهايدو الاسباني، المترجم الى الفرنسية من قبل مونيرو وبيربروجر ، ذلك الكتاب الذي افدت منه كثيرا في بحث العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

FRAY DIÈGO DE HAÊDO : TOPOGRAPHIE et Histoire Génrale d'ALGER, traduit de l'Espagnol par MM. le D^r MONNEREAU et A. BERBRUGGER, in Revue Africaine.

ـ وكتاب تاريخ ملوك الجزائر لنفس المؤلف السابق الذى قام بترجمته الى الفرنسية المؤرخ هنري د وقرامون (HENRI de GRAMMONT) في جزء واحد . وهذا الكتاب تناول فيه مؤلفه تاريخ الجزائر من خلال تراجم حكامه في القرن السادس عشر الميلادى وهو على غاية من الاهمية للباحث في تاريخ الجزائر في الفترة المذكورة وعلاقاتها مع الدول المجاورة لها ومنها المغرب لما يتضمنه من معلومات قيمة ولا سيما عن الفترة التي كان فيها اسيرا في الجزائر من ١٥٧٨ الى ١٥٨١ والفترة التي سبقتها . وقد اخذت كثيرا من هذا الكتاب في بحث العلاقات السياسية لا سيما في الفصل الاول .

٢ـ وفي صنف الرحلات أشير الى التي استفدت منها كثيرا وهي :

ـ كتاب وصف افريقيا (Description de l'Afrique) الذى الفه بالايطالية الحسن الوزان الاندلسي الأصل المغربي الدار المعروف لدى الغربيين بليون الافريقي (LEON l'AFRICAIN) بعد ان امتحن بالأسر والتنصير ونقل الى عدة لغات ومنها اللغة العربية .

ومن الترجمة الفرنسية للكتاب المذكور اخذت مادة هامة تتعلق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية في كل من الجزائر والمغرب .

ـ وكتاب افريقيا لمارمول كارافاخال الاسباني الذى دلاف كتابه بشمال افريقيا خلال الثلث الثاني من القرن السادس عشر الميلادى . وقد نقل مارمول الكثير من المعلومات الجغرافية حرفيا عن سلفه واضاف اليها ما استجد في عهده من الاحداث السياسية فجاء كتابه تكملة لكتاب الوزان السالف الذكر . وترجمه الى الفرنسية في ثلاثة مجلدات ضخمة (N. P. D'Ablancourt) وكانت استفادتي من تلك الاضافات غير قليلة .

٣ـ وفي صنف المذكرات ، ترجمت الى كتاب تاريخ الاشراف (Hist.des Chérifs) لدييقو د طوريس (DIEGO de TORRÈS) الذى كان مقيما في المغرب ويشتغل في افتداء الاسرى خلال الثلث الثاني من القرن ١٦م / ١٠هـ . وكتابه المذكور يتضمن معلومات في غاية الاهمية عن الحياة السياسية في المغرب والعلاقات بينه وبين الجزائر والدولة العثمانية . ومن ثم فقد كان لا غنى للباحث عن الرجوع اليه . وكانت افادتي منه كثيرة . ورجعت ايضا الى مذكرات الأب دان (Hist.de la Barbarie et ses Corsaires) المنشورة في باريس ١٦٢٧ . ومذكرات الفارس دارفيو (Mémoire D'Arvieux) الذى زار الجزائر في آخر الفترة مدار البحث ودون ملاحظاته عن الوضع الذى آلت اليه الجزائر في اواخر عهد الباشاوات وبداية عهد الآغوات .

اما المراجع الاوربية التي استفدت منها كثيرا فأهمها :

ـ كتاب تاريخ الجزائر تحت الحكم العثماني لهنري د قرامون (HENRI DE GRAMMONT : Histoire d'Alger sous la Domination Turque.)

والجزء الثالث من كتاب تاريخ افريقيا الشمالية لارنست ميرسي (ERNEST MERCIER : Histoire de l'Afrique Septentrionale.)

F. BRAUDEL : La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe 2, (2 volumes). — كتاب المتوسط وعالمه لبروديل :

A. COUR : Les Etablissements des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs Rivalitéos avec les Turcs de la Régence d'Alger, (1509 - 1830). — كتاب اوغست كور المسمى :

J. HAMMER : Histoire de l'Empire Ottoman. (trad. J.J. HELLERT).

وانتفعت كثيرا من مقالات ب . بواير ، وشانتال دولا فيرون ، وروبير ريكارد المنشورة في المجلات المبينة في الفهرس .

ـ((تنبيهـــــــــــــــــــات))ـ

للاحالة على الكتب الاجنبية كتبت ما يتعلق بتعريف الكتاب باللغة الاجنبية فاذا ما اشير الى نفس الكتاب ذكر مرة ثانية ، واقتصر على اسم المولف واسم الكتاب باختصار او الاحالة اليه بالمرجع او المصدر السابق .

وكذلك جرى الامر بالنسبة للمجلات الاجنبية ، واختصرت مجموع الوثائق الاوربية المنشورة تحت عنوان :

SOURCES INÉDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC. (S.I.H.M.)

بالرموز الاولى م م ت م وتعني المصادر المغفلة لتاريخ المغرب . ولتعيين ايتيت على مولين الوثائق فرنسا او اسبانيا او انلترا وهولندة او البرتغال الى جانب الرموز المذكورة من ذكر الجزء ايضا .

الباب الاول

العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب

من 923 هـ/ 1517م - الى 1069 هـ/ 1659م .

تمهيد : لمحة عن العلاقات بين القطرين قبل سنة 923 هـ/ 1517م .

الفصل الاول : الحياة السياسية في الجزائر .

الفصل الثاني : الحياة السياسية في المغرب .

الفصل الثالث : العلاقات بين القوى السياسية المتشعبة في القطرين 923 - 956 هـ/ 1517 - 1549م .

الفصل الرابع : صراع الاحداث السياسية بين الاستقلال والتوحيد في الفترة 956 - 982 هـ/ 1549 - 1574م .

الفصل الخامس : السلام بين تبعية المغرب للعثمانيين وترسيخ سيادته في الفترة 982 - 995 هـ/ 1574 - 1587م .

الفصل السادس : الصراع على السلطة في القطرين والسلام القلق بينهما 995 - 1069 هـ/ 1587 - 1659م .

لمحة عن العلاقات بين القطرين قبل سنة 923 هـ/ 1517 م

ان من يتأمل في تاريخ الجزائر والمغرب بين الدولة موضوع البحث يجد انه كانت بينهما ...عبر العصور صلات وعلاقات قوية في مختلف المجالات وجوانب الحياة ، ولا سيما في المجال السياسي ... ذا امر بديهي ، فالجزائر والمغرب قطران متجاوران لا حواجز طبيعية تفصل بينهما او تعيق ... الاتصال ، ولا تباين في البنية البشرية والاجتماعية والفكرية يقوم سدا في وجه التواصل والانسجام ... الاندماج ، بل كثيرا ما خضع القطران لحكم دولة واحدة ، سواء في العهد الاسلامي او قبله ، وآخر ... الدول التي حكمت القطرين فترة طويلة نسبيا بين بداية العصور الحديثة هي دولة الموحدين ... ٥٢٤ـ٦٦٨هـ/ ١١٣٠ـ ١٢٦٩م / المغربية الاصل .

ومن المعروف انه لما دب الضعف الى هذه الدولة في النصف الاول من القرن السابع الهجري ... الثالث عشر الميلادي نشأت على انقاضها ثلاث دويلات هي :

١ـ الدولة الحفصية [1] (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م في تونس والشرق الجزائري ، ومركزها مدينة ... تونس .

٢ـ الدولة العبد الوادية او الزيانية [2] (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م) في وسط الجزائر وغربها ... ومركزها مدينة تلمسان .

٣ـ الدولة المرينية [3] (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م في المغرب الاقصى ومركزها مدينة فاس .

وكانت كل دولة من هذه الدويلات تحاول بسط نفوذها على كامل المغرب الكبير ، وبالتالي ... وراثة الدولة الموحدية المنقرضة . وقد تمكنت الدولتان الحفصية والمرينية من توحيد المغرب وذلك ... بعض الوقت فقط ، اما الدولة الزيانية التي كانت تتوسطهما من حيث الموقع فقد بدت الدولة الاضعف ... وحصارها بين فكي كماشة ، ومن ثم لموقعها كان دفاعها اكثر منه هجوميا ، وكانت تحاول بصفة خاصة ... الحفاظ على وجودها من الزوال ، اذ كان الحفصيون من الشرق ، والمرينيون من الغرب لا ينفكون عن ... التدخل في شؤونها والتوسع على حسابها .

واذا كان الحفصيون لم يسعوا بجد في اثناء محاولاتهم فرض هيمنتهم على المغرب الكبير ... الى القضاء على الاسرتين الزيانية والمرينية ، وانما اكتفوا بدخول سلاطينهما تحت سيادتهم والاعتراف ... بالتبعية لهم ، فان المرينيين قد عملوا بالعكس ، ولا سيما حينما كانوا في اوج قوتهم ، في عهد ... السلطانين ابي الحسن (٧٣١ـ٧٥٢هـ/ ١٣٣١ـ ١٣٥١م) وابنه ابي عنان (٧٤٩ـ٧٦٠هـ/ ... ١٣٤٨ـ ١٣٥٨م) على ضم المملكتين الزيانية والحفصية وعلى القضاء على حكم الاسرتين الحاكمتين ... فيهما . بل ان تشبث المرينيين بضم مملكة تلمسان وازالة حكم الاسرة الزيانية فيها ، اشد من ... رغبتهم بالقضاء على الاسرة الحفصية في تونس ، وذلك لعوامل ودوافع عديدة منها ...

---

(1) نسبة الى ابي حفص عمر رئيس قبيلة هنتاته المصمودية ، كان احفاده ولاة على تونس من قبل الموحدين ثم استقلوا بالحكم فيها في عهد ابي زكريا يحيى (٦٢٥هـ ـ ٦٤٩ / ١٢٢٨ـ١٤٥١م)

(2) نسبة الى قبيلة بني عبد الوادي احدى بطون زناتة . اما تسميتها بالزيانية فنسبة الى زيان بن ثابت ومؤسس الدولة الزيانية الحقيقي هو يغمراسن بن زيان (٦٣٣ـ٦٨١هـ/ ١٢٣٥ـ١٢٨٢م)

(3) المرينيون فخذ من بطون القبيلة البربرية زناتة ومؤسس دولتهم الحقيقي هو ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق ٦٥٦ـ٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨ـ١٢٨٦م .

انظر عن قيام الدول الثلاث : ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ، الجزء السابع بيروت ١٩٧١ .

١ــ قرب تلمسان من فاس أو بمعنى آخر تواصل الحدود بين المغرب الاقصى والمغرب الاوسط .

٢ــ الخصومات والمنافسة القديمة التي كانت بين المرينيين وبين الزيانيين حول المراعي ، وحول زعامة زناتة ، وهي القبيلة التي ينتمون اليها .

٣ــ الخصومات الجديدة بين الاسرتين ، الناتجة من تحالف بني زيان مع اواخر الموحدين ضد المرينيين الذين كانوا يعملون آنذاك للقضاء نهائيا على الدولة الموحدية ، ثم تحالفهم ايضا مع خصومهم الآخرين كأمراء غرناطة من بني الاحمر ، وتدخلهم في المغرب ، وايوائهم للثائرين على المرينيين سواء كانوا من الاسرة المرينية او غيرها ، وتآمرهم معهم ضدهم .

٤ــ ضعف الدولة الزيانية النسبي ، وتهديد الحفصيين الدائم لها من الشرق ، مما اطمعهم بها ودفعهم الى التسابق مع الحفصيين على التهامها .

٥ــ ان القضاء على سلطة الزيانيين ، وضم مملكتهم اليهم ، خطوة استراتيجية هامة ، واساسية في طريق تحقيق ما كانوا يطمحون اليه وهو اعادة توحيد المغرب الاسلامي الكبير تحت سلطتهم وتامين مملكتهم من الاخطار السالفة الذكر ، التي كان يهددهم بها وجود الزيانيين الى جوارهم .

هذا بالاضافة الى انه سيضع تحت ايديهم المراكز التجارية الهامة في مملكة الزيانيين ويوسع حدودهم حتى تلامس الدولة الحفصية في اقصى الشرق ، فتخضع واقرب مثالا منهم فما يجب الا ننسى ان ضمهم لمملكة الزيانيين يدخل في قبضتهم مدينة تلمسان الهامة ، وضريح الولي الصالح ، القطب الصوفي الشهير سيدي بومدين[1] الذي كان مزارة كبرى ، وهو امر لا يمكن التغاضي عن اهميته ، في وقت اخذ فيه تيار التصوف ينتشر بقوة ليصبح في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ظاهرة العصر .

وفي الواقع لقد تمكن المرينيون بعد موت يغمراسن المؤسس الحقيقي للدولة العبد الوادية (الزيانية) من محاصرة ابنائه حصارا شديدا وطويلا في تلمسان دام ثمان سنوات ابتداء من (٦٩٨هـ / ١٢٩٩م) ، ومن التغلب على احفاده بعد ذلك ، واحتلال تلمسان مرارا خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، واخضاع مملكتهم لسلطتهم المباشرة في فترات عديدة ، متفاوتة في قصرها ، كما تمكنوا في عهد السلطانين ابي الحسن وابنه ابي عنان ، من اخضاع الشرق الجزائري ايضا ، ومن القضاء على الحكم الحفصي فيه ، وفي تونس ، وبالتالي من توحيد المغرب الكبير تحت سلطتهم . الا ان ذلك كان لفترة قصيرة ، لأن تذبذب القبائل في ولائها لهما ، وعدم صدقها في الخضوع اليهما ، سمح للحفصيين ان يستردوا بسرعة ملكهم في تونس والشرق الجزائري . كما كان التنافس القائم باستمرار على السلطة بين الامراء المرينيين ، عقب وفاة السلطان الحاكم او مقتله او حتى انهزامه ، يتيح الفرصة لفلول الزيانيين كي يستجمعوا قواهم ويستعيدوا ملكهم ، ويحيوا دولتهم من جديد ، بل لأن يتدخلوا بدورهم في المغرب الاقصى ، لتاييد هذا الثائر او ذاك ، او للاغارة على اطرافه ، كما حدث مثلا في عهد ابي حمو موسى الثاني (٧٦٠ـ٧٩١هـ / ١٣٥٩ـ ١٣٨٩م) ، وابن مالك عبد الواحد (٨١٤ـ٨٢٤هـ / ١٤١٢ـ١٤٢١م) .

---

(١) هو ابو مدين شعيب بن الحسن الغوث ، ولد في اشبيلية حوالي ١١٢٦م ، وتوفي بقرية العباد قرب تلمسان سنة ١١٩٨م ، درس في المغرب ثم حج ودرس على اعلام العلماء في المشرق ، وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني ، وقرأ عليه كثيرا والبسه خرقة الصوفية ، واودعه كثيرا من اسراره . استوطن بجاية بعد رحلته المذكورة وفيها ذاع صيته وكثر اتباعه . ... منه يعقوب المنصور على دولته فاستدعاه ، وما وصل الى قرية العباد المذكورة انتابه المرض وتوفي فيها . انظر : ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان (تحقيق ابن شنب (محمد) الجزائر ١٩٠٨ صفحة ١٠٨ــ١١٤) .

واما فشل المرينيين في القضاء بصفة نهائية على الدولة الزيانية ، واتفاقهم في الاحتفاظ
[د]ائمة بسيادتهم على تونس والشرق الجزائري لضعف اغلب سلاطينهم الذين تولوا بعد ابي عنان
[است]بداد وزرائهم ، وتلاعبهم بهم ، فقد بدوا انهم صرفوا انظارهم نهائيا من الشرق الجزائري
منذ اواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وقنعوا في اواخر هذا القرن
[ان] يكون على عرش تلمسان سلطان زياني ، شريطة ان يكون تابعا لهم . بل انه لما آل الامر الى
الحق ، آخر المرينيين ثم الى الوطاسيين ، واصبح المغرب نفسه حينئذ فريسة لتدخل الحفصيين
[و]البرتغاليين والاسبان ، وعاجزا عن الدفاع عن نفسه ، تنفس سلاطين فاس عن التدخل في
[تلم]سان ، ولم يعد لهم نفوذ او سلطة على سلاطينها وعلى مملكتها ، فساد نوع من حسن الجوار .
[غير] ان الوطاسيين ورثاء المرينيين لم يتقوا من ايواء الملتجئين اليهم من الامراء الزيانيين المناوئين
[للس]لطان الزياني ، ليكونوا ورقة رابحة بايديهم يضغطون بها على هذا الاخير ، كما حدث في
[...]الى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي في عهد محمد البرتغالي الوطاسي
(٩١٠-٩٣٢هـ / ١٥٠٤-١٥٢٦م) الذي آوى الامير يحيى بن محمد الزياني ثم سرحه فاسس
[ام]ارة مستقلة عن تلمسان في تنس .

فمن العرض السريع الذي تقدم ، يمكن القول ، ان العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب
بعد انهيار دولة الموحدين ، وقيام الدويلات الثلاث ، الحفصية والمرينية والزيانية وحتى سنة
٩٢٣هـ / ١٥١٧م قد شهدت تطورات مختلفة يمكن حصرها في اربع مراحل زمنية متميزة وهي :

١- المرحلة الاولى : من سنة ٦٥٦ الى سنة ٧٦٠هـ / ١٢٥٨-١٣٥٨م ، وفيها كانت
الدولة المرينية قوية ، وكان سلاطينها يطمحون الى توحيد المغرب الكبير تحت سلطاتهم بالقضاء على
الدولتين : الحفصية والزيانية ، ولا سيما على هذه الاخيرة . وقد تمكن السلطانان المرينيان ابو
الحسن وابنه ابو عنان كما ذكرنا من تحقيق هدفهما في اواخر العقدين : الرابع والخامس من القرن
الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

٢- المرحلة الثانية : من سنة ٧٦٠ الى سنة ٧٨٦هـ / ١٣٥٨-١٣٨٤م ، وفيها اخذ
الضعف يدب في الدولة المرينية بعد موت ابي عنان ، حيث تزايد نفوذ الوزراء ، وكثر التمرد و[...]
على السلطة المركزية ، فصرف السلاطين المرينيون انظارهم نهائيا من الشرق الجزائري وتونس ،
وركزوا جهودهم على اخضاع مملكة تلمسان لسيادتهم ، والقضاء على السلطة الزيانية فيها ان
امكن . وقد تحقق ذلك لفترات قصيرة في عهود ابي سالم (٧٦١-٧٦٢هـ / ١٣٥٩-١٣٦١م)
وابي فارس (٧٦٨-٧٧٤هـ / ١٣٦٧-١٣٧٢م) وابي العباس ٧٧٦-٧٨٦هـ/١٣٧٤-١٣٨٤م)

٣- المرحلة الثالثة : من سنة ٧٨٦-٨٢٣هـ / ١٣٨٤-١٤٢٠م ، وفيها ازداد ضعف
الدولة المرينية ، فلم يعد سلاطينها يطمعون في تلمسان ومملكتها للقضاء على حكم الزيانيين فيها ،
وانما اكتفوا بسلطان زياني موال لهم ، او مساعدته على انتزاع الملك من السلطان الحاكم ، ان مال
هذا الاخير الى الاستقلال عنهم ، كما حدث في عهد ابي سعيد [illegible] (٨٠٠-٨٢٣هـ /
١٣٩٨-١٤٢٠م) .

٤- المرحلة الرابعة : من سنة ٨٢٣-٩٢٣هـ / ١٤٢٠-١٥١٧م ، وفيها بلغ الضعف
بالدولة المرينية والدولة الوطاسية التي خلفتها في ٨٧٦هـ / ١٤٧١م اشده لاستفحال الخطر

البرتغالي والاسباني ، وكثرة المنشقين من السلالة الحاكمة الزيانية فكف المرينيون والوطاسيون عن التدخل في تلمسان وملحقاتها ، واكتفوا بايواء المعارضين للسلطان الزياني الحاكم للتلويح به ، اذا ما دعتهم الضرورة الى ذلك . وفي هذه المرحلة استأنف السلاطين الحفصيون تدخلهم في تلمسان، واجبروا خلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي على الخضوع اليهم (1).

وهكذا يبدو ان العلاقات الجزائرية ـ المغربية خلال اكثر من قرنين من الزمن ، قد غلب عليها طابع الصراع والنزاع على السلطة والنفوذ ، ورغبة حكام كل من : فاس (المغرب) وتلمسان (الجزائر) في تحقيق، حدودهم ومطامحهم ، ولو على حساب بعضهم ، دون اقتناع بامكانية التعايش السلمي ، او التعاون السياسي ، او ايمان بضرورة صرف تلك القوة الضائعة في الصراع نحو الهدف الداخلي ، وازالة مظاهر الضعف فيه ، مما انهك قوى البلدين ، واطمع بهما القوى الاوربية الناشئة المجاورة ، كاسبانيا والبرتغال ، اللتين وجدتا بهما لقمة سائغة ، تحقق لهما اذا ما التهمتاهما اهدافا كثيرة اقتصادية ودينية وقومية وثقافية .

وقد كان هذا الضعف ، وذلك التدخل البرتغالي والاسباني في البلدين عاملا في ظهور قوى سياسية جديدة على مسرح الاحداث في البلدين ، سعت للوقوف في وجه تلك التعديات ، ففي الجزائر ظهر العثمانيون ، وفي المغرب تغيرت الاسرة الحاكمة القابضة على السلطة فيه ، حيث آل الحكم الى الوطاسيين ثم الى السعديين ، وهذا بدوره ادى الى تداور العلاقات السياسية بين البلدين تداورا جديدا في الفترة الممتدة من (٩٢٣ـ١٠٦٩هـ / ١٥١٧ـ١٦٥٩م) ، في الاهداف والابعاد ، والقوى السياسية الداخلية والخارجية .

وقبل استكشاف هذا التطور يحسن التعرف على الحياة السياسية في البلدين لما لها من اثر كبير في ذلك التطور .

---

(1) انظر عن تدخلات المرينيين والحفصيين في الجزائر : ابن خلدون : المرجع السابق ، التنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل) : نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الاعيان مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وترجمته الى الفرنسية من قبل بارجيس BARGES(l'A.) Histoire des Beni-Zeiyan. Paris 1952. تاريخ ملوك بني زيان ، باريس ١٨٥٢ .
والزركشي (محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٢٨٦ .
ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق محمد الشمام ، تونس ١٩٦٧ .
ابا العباس احمد بن خالد الناصري السلاوي : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى تحقيق جعفر ومحمد ولدي المؤلف ، الدار البيضاء المغرب ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ الجزآن الثالث والرابع وغيرها من المصادر والمراجع المبينة في الفهرس .

((الفصل الاول))

(الحياة السياسية في الجزائر)

1- أوضاع الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي :

ان من يتأمل في حياة الجزائر السياسية في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وحتى سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) يجد ان الجزائر كانت تعيش في ازمة كبيرة حيث ان الدولتين الحفصية والزيانية اللتين كانتا تتقاسمان النفوذ فيها ، الاولى في القسم الشرقي منها والثانية في القسم الغربي ، قد بلغتا درجة كبيرة من الضعف ، نتيجة عوامل عديدة بعضها قديم وبعضها حديث ، ومن العوامل القديمة نذكر :

١- التنافس على السلطة بين امراء كل من الاسرتين الحاكمتين .

٢- النزاع الذي كاد يكون مستمراً بينهما وبين الاسرة المرينية الحاكمة في المغرب منذ قيام تلك الاسر في اعقاب انهيار الدولة الموحدية ، وذلك من اجل وراثة ممتلكاتها .

٣- استعانة المتنافسين والمتنازعين بالقبائل من امثال بني عامر[١] واولاد داود[٢] واولاد سعيد[٣] والشابيين[٤] ، هذه القبائل التي استغلت حاجتهم اليها ، وضعفهم لتتمرد ، وتقلص نفوذهم الى حد كبير .

٤- تدهور الوضع الاقتصادي للدولتين نتيجة نقص مواردهما ، وخروج مناطق عديدة عن سلطاتهما ، واضطرار الدولتين الى تقديم قسم كبير ، قد يبلغ نحو النصف من مدخولها القليل الى القبائل حتى تأمنا شرها ، مما كان له انعكاسه على القدرات العسكرية للدولتين ، فلم يعد بامكانهما ان تقيما الجيوش النظامية الكبيرة العدد ، ذات التجهيز القادر على اخضاع تلك القبائل والمناطق المتمردة ، او الحيلولة دون استقلالها ، وعلى مواجهة اي خطر خارجي ، حتى ان مارمول قال بهذا الصدد : ((ان سلاطين تلمسان لا يجندون الجند الا لفترة الحرب .. وهم لا يملكون الحربات ولا السهام ..وانهم فقراء جدا ...))[٥] .

٥- النفوذ المتزايد للقوى الدينية من رجال الدين المرابطين والمتصوفة لدى عامة الناس وخاصتهم ، مع تزايد ضعف الدولتين ، وعجزهما عن المحافظة على الامن والاستقرار في البلاد من ناحية ومواجهة الخطر الخارجي من ناحية اخرى ، ومساهمة تلك القوى الدينية في اضعافهما عن طريق توجيه الانتقاد لهما ، بل ومحاولة بعض كبار المرابطين والمتصوفة تأليب الرأي العام عليهما .[٦]

---

(١) هم فرع من زغبة ، واشهر قبائلهم بنو يعقوب ، وبنو حميد وبنو شافع ، ومن ابرز زعمائهم في النصف الاول من القرن العاشر ابن رضوان الذي كان يرتبط بعلاقة النسب مع الزيانيين ، انظر عنهم :
Boyer(P.):Histoire des Beni ameur. in R.O.M.M. No24, Aix-enProvence 1977. P.40 et suiv.

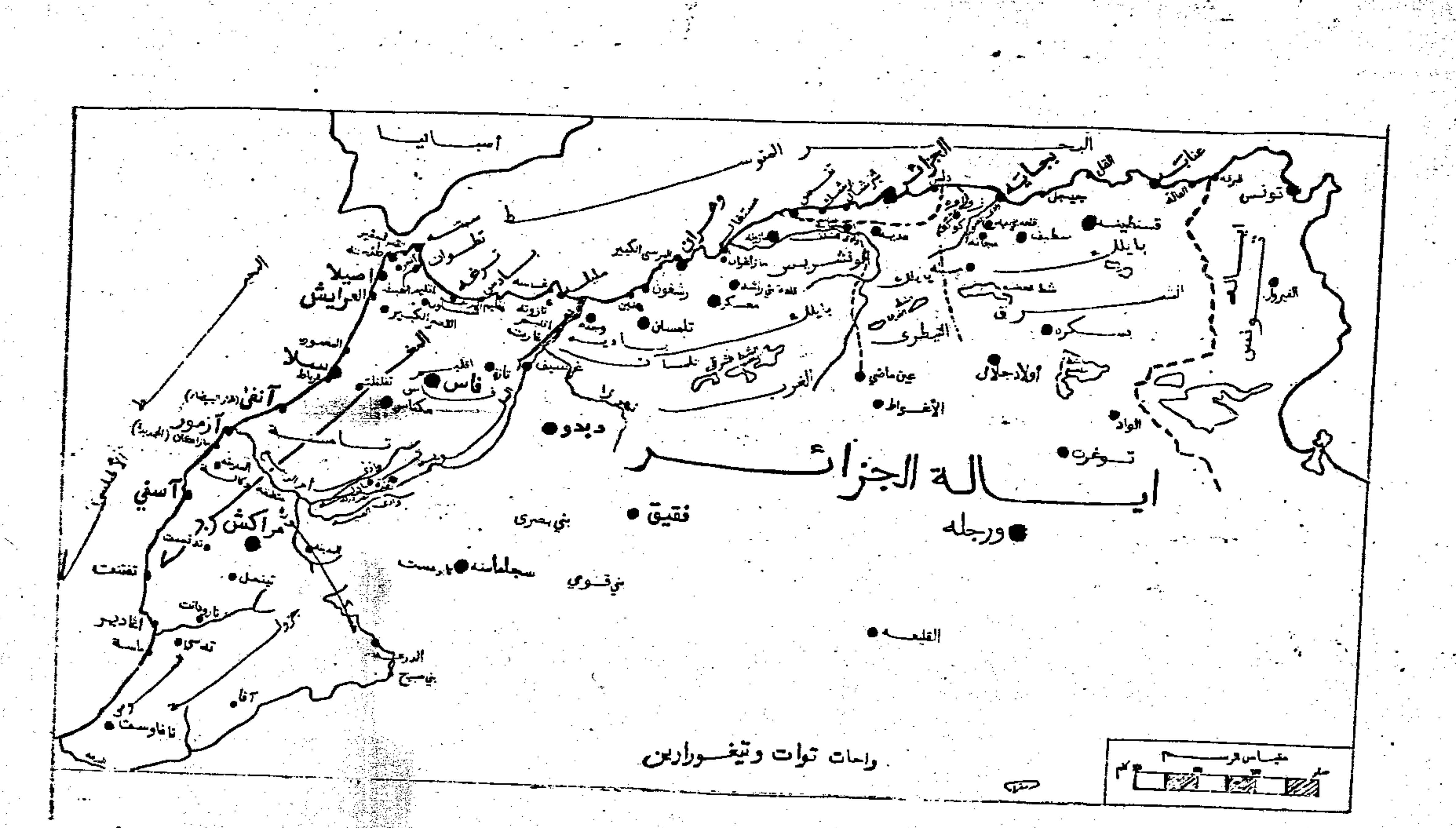
(٢) كانوا يسيطرون على جنوب قسنطينة وغربها ، انظر عنهم :
Mercier(E.):Hist. de l'Afr. Sept. t.3 Paris 1891 P.206.

(٣) كانت منتشرة في جنوب تونس وشمالها وشرقها . انظر عنهم : ابن ابي دينار : المرجع السابق .

(٤) فرع من بني المهلهل . انشأوا امارة في الشابة قرب القيروان ، ثم مدوا نفوذهم حتى اطراف تونس وشرقي قسنطينة . انظر :
Monchicourt: Etudes Kairaouanaises(1450-1592) Paris 1909.

(٥) Marmol(c.):L'Afrique. Trad.(N.P.)D'Ablancourt, t.2 Paris1667P.332

(٦) انظر محمد بوراس من اخبار الاسفار في مجلة افريقية عدد ٤٠ الجزائر ١٨٨٠ ص ١٢٠-١٤٠ .



اسبانيا
البحر المتوسط
ايالة الجزائر
الجزائر
بجاية
عنابة
تونس
القل
جيجل
قسنطينة
سطيف
بايلك
بسكرة
أولاد جلال
الأغواط
عين ماضي
التيطري
الغرب
وهران
مستغانم
تنس
شرشال
المرسى الكبير
مازغران
رشقون
ندرومة
تلمسان
معسكر
قلعة
الونشريس
مليلية
تطوان
سبتة
طنجة
أصيلا
العرائش
سلا
رباط
المعمورة
أنفي (دار البيضاء)
آزمور
آسفي
مراكش
تفنتت
أغادير
ماسة
تارودانت
تيزنيت
فاس
مكناس
تازة
وجدة
دبدو
فقيق
بني بحري
بني قومي
سجلماسة
تارمست
ورجلة
تقرت
الواد
القليعة
الدرعة
آقا
واحات توات وتيغورارين
مقياس الرسم
كم

ومساهمة آخرين في قيام الحكم العثماني في الجزائر الذي قضى عليهما (1).

وقد نجم عن ذلك الضعف الذي تردت فيه الدولتان الحفصية والزيانية ، اضطراب الجزائر وتجزؤها الى عدة وحدات سياسية صغيرة متنافرة ، لا يسود بينها الوئام. فأغلب المدن الساحلية كوهران ، وتنس ، وشرشال ، والجزائر ، ودلس ، وبجاية ، وجيجل ، والقل ، وغيرها ، كانت في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، اما تحت حكم امير زياني منشق عن الدولة الزيانية كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس ، او عن الدولة الحفصية كعبد الرحمن الحفصي في بجاية ، او تحت حكم مجلس منتخب من سكان المدينة ، كوهران ، او شيخ قبيلة كسالم التومي ، شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر .

وكانت كل المناطق الجبلية في الفترة نفسها مستقلة ، وتأسست في بعضها امارات ذات اصل مرابطي ، او شريفي من اهمها : امارة بني عباس في جبال القبائل جنوب بجاية . وامارة كوكو الواقعة الى الغرب من الامارة الاولى في الجبال ذاتها .

واستقلت المدن الداخلية كذلك ، فعاشت تحت حكم بعض الاسر كأسرة بني جلاب في تقرت ، وعلاهم في ورقلة جنوبي الجزائر وغيرها .

وسادت القبائل على المناطق السهلية كبني عامر في القطاع الوهراني والذواودة في القطاع القسنطيني (2).

اما العوامل الجديدة في المنطقة : تدفق امواج من الاندلسيين الى الجزائر ، ولا سيما عقب سقوط غرناطة آخر امارة اسلامية في الاندلس بيد الاسبان ، سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ، وما تلاها من اجبار المسلمين في الاندلس على التنصر ، ورفض الكثيرين منهم له ، وايثارهم الهجرة الى المغرب الاسلامي . وقد دعم المهاجرون الاندلسيون الى الجزائر سكان المدن ، وزادوا في ثقلهم وتأثيرهم فيها ، وكونوا في بعضها جاليات كبيرة ، ولا سيما في المدن الساحلية ، ونشطوا الغزو البحري ضد الشواطئ الاسبانية وسفنها انتقاما ممن اضطهدهم ، انطلاقا من تلك المدن ، ذلك الغزو الذي كان احد العوامل في غزو الاسبان للشواطئ الجزائرية ، واحتلالهم العديد من المدن الساحلية . مما كان له اسوأ الاثر على الدولتين الزيانية والحفصية .

2 - <u>الغزو الاسباني</u> : ان التجزؤ الذي آلت اليه الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، قد شجع الاسبان الذين استكملوا وحدتهم السياسية ، وانتزعوا غرناطة من المسلمين كما ذكرنا ، على غزو الشواطئ الجزائرية لتحقيق اغراضهم المختلفة :

---

(1) انظر دور احمد بن القاضي في : ابن عسكر ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . المغرب (١٣٠٩) ص ٩٢-٩٣ .

(2) انظر عن هذه الوحدات السياسية وغيرها : الحسن الوزان المسمى ليون الافريقي :
Léon l'Africain: La Description de l'Afrique. Trad. (E) Epaulard Paris 1956. et
Marmol (C.): OP. CIT. t.2 et 3.

١ـ الدينية : نشر المسيحية في الجزائر وتعميرها بالمسيحيين الاسبان . ومن يتنصر من المسلمين واليهود[١] ، وابعاد حدود الاسلام عن اسبانيا . هذا الى ملاحقة المسلمين في عقر دارهم ، والقضاء عليهم او تشتيتهم ما امكن .

٢ـ الامنية والاستراتيجية : كاقامة قواعد عسكرية امامية في الجزائر تحول دون الاتصال بين الجزائريين وبين بقايا مسلمي الاندلس ، ودون حصول هؤلاء على اية مساعدة من اخوانهم مسلمي الجزائر ، وتجعل الغزو البحري انطلاقا من الشواطئ الجزائرية الى الشواطئ الاسبانية غير ممكن ، وبذلك يضعون حدا للاخطار التي كان يلحقها غزاة الجزائر بشواطئهم ، ويؤمنون تداول مواصلاتهم البحرية بين اسبانيا وايطاليا ، ويتخذون من تلك القواعد الامامية منطلقا لغزو المناطق الداخلية واستغلال الاوضاع السيئة فيها .

٣ـ السياسية : كتحقيق سيادة الاسبان على الحوض الغربي للمتوسط ، والتي لا تتم بدون احتلال الشواطئ الجزائرية . وتزعم العالم المسيحي عن طريق زيادة شعبيتهم ، بغزوهم البلد اسلامي[٢]

٤ـ اقتصادية : كالسيطرة على المراكز التجارية ، والمناطق التي تتميز بغنى اقليمها بالثروات الحيوانية ، والمحاصيل الزراعية كعنابة ، ووهران . واحتكار التجارة الخارجية للجزائر ، وبسط النفوذ منها نحو اعماق افريقيا الى بلاد السودان ، الغنية بالذهب .

وقد تمكن الاسبان خلال الفترة ٩١١-٩٤٢هـ / ١٥٠٥-١٥٣٥م من ان يحتلوا ويخضعوا مراكز ومدنا عديدة في الساحل الجزائري ، كانت المرسى الكبير اولها (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)[٣] ، ثم وهران ثانيها في ٩١٤هـ / ١٥٠٩م[٤] ، وبجاية ثالثها ٩١٥هـ / ١٥١٠م[٥] . وفي اعقاب احتلالهم لهذه الاخيرة ، سارعت المدن الصغيرة الواقعة بينها وبين وهران الى اعلان خضوعها ، والقبول بشروط الاسبان مهما كانت مذلة ، خشية ان يصيبها ما اصاب سكان وهران ، وبجاية ، من قتل واسر وتشريد . ومن اهم هذه المدن : مستغانم[٦] ، والجزائر[٧] . وقد بنى الاسبان في مواجهة هذه الاخيرة في سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م حصنا منيعا على صخرة تبعد عن شاطئ المدينة بنحو مئة متر فقط ، وجعلوا فيه حامية قوية . وبذلك اصبحت مدينة الجزائر هي الاخرى شبه محتلة ، اذ غدت تحت المراقبة المباشرة للحامية الاسبانية ، وتحت رحمة مدافعها[٨] . وكانت تلمسان قد خضعت للاسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م[٩] . ولم يلبث ابو عبد الله محمد الزياني ، ملك تلمسان ، ان بعث في سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م وفدا الى اسبانيا ، يعلن خضوعه وتبعيته

1)F.Elie de la Primaudaie:Documents Inédits Sur l'Hist. de l'Occupation Espagnole en Afrique 1506-1574. Alger 1875 P.14.

2) " " " :Le Commerce et la Navgation de l'Algérie avant la Conquête Francaise. Paris 1861.

(٣) بريموداي : نفسه ص ٢٤٦-٢٤٧ ومارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٦١

(٤) مارمول : نفس المرجع ، جزء ٢ ص ٣٦٤ ، والحسن الوزان : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٢٤ .

(٥) مارمول : نفس المرجع جزء ٢ ص ٤١٥-٤١٦ ، والوزان : نفس المرجع جزء ٢ ص ٣٦٠ . وبريموداي : الوثائق ... ص ١٢-١٤

(٦) بريموداي : الوثائق ص ١٧-١٩ ، (٧) الوزان : نفس المرجع جزء ٢ ص ٣٤٨

8)F.Diègo de Haëdo:Topographia et Hist. Générale d'Alger. Trad. Monnereau&Berbrugger. in, R.A. No.83 Alger 1870 P.415. (٨)

(٩) ميرسيي : المرجع السابق جزء ٢ ص ٨ . والمدني : (احمد توفيق) حرب الثلاثمائة سنة الجزائر ١٩٦٨ ص ١٠٩ .

للملك الاسباني . وفي سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م تمكن الاسبان من احتلال مدينة مستغانم الساحلية (١) المواجهة غربي وهران (٢). وبعد ثماني سنوات تمكنوا ايضا من احتلال مدينة عنابة الساحلية (٣).

ويبدو ان السرعة التي تمكن بها الاسبان من فرض سيطرتهم على الشواطئ الجزائرية والسهولة التي احتلوا بها بعضها ، لاتعود فقط الى التفكك الذي كانت تعاني منه الجزائر خاصة في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ولكن ايضا الى تطور سلاح الاسبان بمقارنته مع سلاح الجزائريين ووسائل دفاعهم ؛ فبينما كان هؤلاء يحاربون كما يقول (بروديل) بطرق عتيقة بالسيف والرمح ، وما الى ذلك ، كان الاسبان يحاربون بالسلاح الناري والمدفعية (٤). ومع ذلك فان الاسبان لم يحققوا كل ما كانوا يهدفون اليه ، فالغزو البحري الجزائري للشواطئ الاسبانية لم يتوقف ، بل قوي وخاصة بعد ان استقر العثمانيون في الجزائر . ومن ثم فان الفصل بين مسلمي الاندلس والجزائر لم يتحقق ، كما ان الجزائر ظلت بلدا مسلما ولم يتملك لهم اسبانيا كلها ولم يستطيعوا التوغل الى اعماقها ، وظل احتلالهم مقصورا على بعض المواقع والمدن الساحلية فقط ، يشكون فيها الخوف ، والجوع ، كما تؤكد ذلك وثائق اسبانية كثيرة (٥).

ويعزو بعضهم عدم احتلال الاسبان للمدن ، والمناطق الداخلية الى انهم لم يركزوا جهودهم على غزو الجزائر دون غيرها ، فقد كانوا في الوقت نفسه منشغلين بحروبهم في المناطق الاخرى ، في اوربا ، كايطاليا ، وبغزو العالم الجديد . ويضاف الى ذلك ان المقاومة الجزائرية ، ما لبثت ان انتظمت بزعامة بعض المرابطين المجاهدين ، كابن القاضي ، ثم بزعامة الاخوة بربروس ، ومن تلاهم ، واشعرت الاسبان بالخطر الكبير عليهم حتى في المدن الساحلية القريبة من اسبانيا ، والتي يمكن تموينها عن طريق البحر ، فكيف بهم لو توغلوا او اقدموا على احتلال المدن الداخلية التي لا يمكن تموينها عن طريق البحر (٦).

ولكن الغزو الاسباني وان اقتصر على الشواطئ الجزائرية لسبب او لآخر فانه قد الحق اضرارا جسيمة ليس فقط بالمدن المحتلة ولكن ايضا بالمناطق الداخلية المجاورة لها وغير المجاورة ، اذ ان احتلال الاسبان لكل من وهران ، وبجاية ، وعنابة ، التي كانت كلها من المراكز الهامة لمختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية ، كان له انعكاسه السيء على المناطق والمدن الداخلية ، التي كانت تعتمد عليها في تلك المجالات .

ولعل النتيجة الاهم التي نجمت عن الغزو الاسباني للشواطئ الجزائرية ، هي التدخل العثماني في الجزائر لانقاذها من خطره .

---

1) Bargès (A.): Complément de l'Hist. des Beni-Zeyan. Paris 1887 P.418-420.

(٢) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص٣٦٦ ، وبريموداي : الوثائق ص٥٧-٦٠

(٣) بريموداي : نفس المرجع السابق ص ١٥٠-١٦٥ .

(٤) 4) Braudel (F.): Les Espagnoles et l'Afrique du Nord, in R.A. Alger 1928. P.216.

(٥) انظر بريموداي : الوثائق ص ٧٤ ، وغيرها . 5) Ricard (R.): Les Etablissements Européens en Afrique du Nord, du 15au 16e siècle, et la Politique Restreinte, in R.A. Alger 1936 P.688

(٦) المهدي ابوعبدلي : اضواء على تاريخ الجزائر في الاصالة عدد ٨ الجزائر ١٩٧٢ ص٢٧٨ ، وميرسيي : المرجع السابق جزء ٣ ص . Cour (A.): L'Etablissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger 1509-1830. Paris 1904, P.238.

التدخل العثماني في الجزائر وتأسيس ايالتها :

لما كان الاسبان يغزون الشواطئ الجزائرية في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، كانت طلائع غزاة البحر العثمانيين ممثلة في الاخوة بربروس : [1] عروج وخيرالدين واسحاق وآخرين ، قد وصلت الى الحوض الغربي المتوسط ، واتخذت من جربة وبعض نواحيها ، ملحقـــة بالسفن والشواطئ المسيحية خسائر كبيرة ، متخذة من الموانئ التونسية التي اذن لهم السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد ، باستعمالها مقابل دفع الخمس من الغنائم وشروط اخرى [2] ، منطلقا لها ، فذاع صيتهم وانتشرت اخبار بطولاتهم في الغزو البحري ، فتوجهت اليهم انظار المجاهدين الجزائريين ، وفي مقدمتهم ابو العباس احمد بن القاضي الزواوي الذي ((لما رأى قوة شوكة النصارى الكفار ، وانتشارهم في المغرب ، ونجدة المسلمين من مقاومتهم ، كاتب الترك ، وعرفهم عزة هذه البلاد ، لما يسمع من شدة الاتراك في المحاربة ، وجدتهم في الحروب والمضايق ومواربهم المكرة ، فقصد بحسن نيته ، ان يرفعوا من عزة الاسلام ما انخفض ويتقوا من امره ما ضعف وقال : ان بلادنا بقيت لك ولانبياء او للذئب ، فأتى الترك دعوه مسرعين ، وجعل هو يحض الناس على اتباعهم ، والانخراط في سلكهم ، والسمع والطاعة لأميرهم عروج الترجمان ، الذي هو البادي فيهم فدخل الترك الجزائر وتلمسان)) [3] .

ومن هذا النص يستخلص ان تدخل اوائل العثمانيين في الجزائر ، كان استجابة لطلب الجزائريين ، ونجدة لهم ، والمشاركة في الدفاع عن بلادهم ، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الاسباني . ولكن عروج وجماعته الاتراك ، قبل ان يدخلوا الى الجزائر او الى تلمسان ، قاموا في سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م بمحاولة لتحرير بجاية ، لم تتكلل بالنجاح ، وفيها فقد عروج ذراعه [4] . ولما شفي من اصابته وجدد بناء قوته ، حاول سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ، ثم في السنة التاليـــة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) بلدة جيجل ، التي استولى عليها الجنويون بقيادة اندري دوريا في سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ، واقاموا فيها حصنا لهم ; وبالتعاون مع اهالي جيجل وسكان المداشر المجاورة ، وابن القاضي المذكور ، تمكن عروج من القضاء على الحصن ، وتحرير البلدة التي اصبحت منذئذ قاعدة له [5] ومنها وجه هدية ثمينة الى السلطان العثماني سليم الاول [6] وبذلك ابتدأت السلطة الرسمية من العثمانيين ، والنفوذ العثماني في الجزائر .

(١) كان ابوهم يعقوب جنديا عثمانيا من جنود حامية جزيرة ميدلي المتوسطية العثمانية . اشتغل عروج في البداية بالتجارة ، ثم تحول الى الغزو البحري . كما عمل مع اخيه خيرالدين في خدمة السلطان بايزيد ، قبل انتقالهما الى الحوض الغربي المتوسط ، حيث اشتهر امرهما اكثر من اخيهما اسحاق . انظر: المجهول : غزوات عروج وخيرالدين ، نشر نورالدين عبد القادر ، الجزائر ١٩٣٤ ص ٦ - ١٢ وهارمون : المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٢ .

(٢) المجهول : المرجع السابق ص ١١

(٣) محمد الصغير الوفراني (او الافراني) : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، انجي ١٨٨٨ ص ١٧ .

(٤) F.Diègo do Haëdo: Hist. des Rois d'Alger. Trad. et Annoté par H. Degrammont. Alger 1881 PP. 10-12.

(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٢٥

Degrammont (H.): Hist. d'Alger sous la Domination Turque. Alger 1887.

(٦) المجهول : نفس المرجع السابق ص ٢٦

وفي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م قام عروج بمحاولة ثانية لتحرير بجاية ، بمشاركة سكانهـا المشردين في الجبال المجاورة ، واهالي المناطق القريبة منها ، الا انه لم يفلح .

ولم يلبث عروج في جيجل ، بعد فشله الثاني في تحرير بجاية ، غير وقت قصير حتى استدعي من قبل اهالي مدينة الجزائر ، واميرهم سالم التومي ، لتخليصهم من الحامية الاسبانية ، التي كانت تضايقهم ، وتشل حركتهم ، وتحول دون ممارستهم للغزو البحري ، فاستجاب لدعائهم ، وحاصر الحصن الاسباني ، بعد ان استولى على بلدة شرشال المجاورة ، ولكن مدفعيته لم تستطع التأثير على الحصن القوي على الرغم من انه لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من مئة متر كما ذكرنا ، وانه ظل يقصفه طوال ثلاثة اسابيع . ولم تلبث العلاقات بين سالم التومي وبين عروج ان ساءت بعد فشل هذا الاخير في القضاء على الحصن الاسباني . وتمكن عروج من قتله غيلة في الحمام ، بعد ان استمال اليه العديد من اعيان المدينة بالهدايا وغير ذلك . واعلن نفسه حاكما على الجزائر ، بينما نجح ابن سالم التومي في الفرار الى الاسبان في وهران ، ومنها الى اسبانيا ، ليطلب مساعدة الاسبان ، للانتقام من عروج قاتل والده ، واسترجاع الامارة منه .

واحتياطا لرد فعل الاسبان وغيرهم ، قام عروج باجراء التحصينات اللازمة لمدينة الجزائر ، وتوسيع نفوذه ليشمل المنطقة المجاورة للمدينة . وسلك في هذه الاثناء سياسة ، جمع فيها بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب ، لتوطيد حكمه ، وجعله مقبولا من الاهالي . وتمكن من احباط مؤامرة حاكها ضده بعض اهالي المدينة مع عرب المنطقة المجاورة "عرب متيجة" ، الموالين لسالم التومي ، والدعم سكانها (٢) ولكن الاسبان لم يرتاحوا الى الوضع الجديد في المدينة ، فجهزوا حملة ضخمة في نفس السنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، للقضاء على عروج قبل استفحاله ، واعادة الامارة الى ابن سالم التومي ، كانت تتألف من (٨٠٠٠) مقاتل نقلتهم (٨٠) سفينة ، بقيادة دييغو دوفيرا (DIÈGO DE VERRA) ولكن تلك الحملة باءت بالفشل امام خطط عروج الهجومية ، التي مكنته من القضاء على (٣٠٠٠) ممن نزلوا الى الارض واسر (٤٠٠) منهم . وتضافرت العاصفة معه ، فقضت على معظم قطع الاسطول بمن فيها غرقا في البحر (٣).

وساعد هذا الانتصار الباهر الذي حققه عروج ودهاؤه ، بالتعاون ايضا مع سكان المدينة وعرب المنطقة المجاورة ، على استقرار الامر لحاكم الجزائر الجديد ، وعلى مد نفوذه الى مدن اخرى ساحلية وداخلية ، في مقاطعة الجزائر وخارجها ، كدلس والمدية ومليانة وغيرها .

ضم تنس وتلمسان :

وتوجهت انظار عروج ، قبل القيام بمحاولة اخرى لتحرير مدينة الجزائر من الحصن الاسباني المواجه لها ، الى القضاء على الحكام الموالين للاسبان ، ومنهم سلطان تنس ، وملك تلمسان . وكان حميدة العبد ، سلطان تنس ، يعد لهجوم كبير على عروج ، بالتنسيق مع عرب المناطق الغربية لمدينة الجزائر ، الذين لم ينسجموا مع الحكم الجديد ، الذي فرض سيطرته عليهم بالقوة ،

---

(١) انظر حول الاسباب ، الوزان ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٦ والمجهول ، المرجع السابق ، وعندما كان سلطان تونس امتنع عن امدادهم بالذخيرة والآلات الحربية جميعها ، وان المدد قد وصل الى الاسبان ، كما ان فصل البذر قد حل ، الامر الذي جعل بعض الاهالي ينسحبون لفلاحة ارضهم .
(٢) انظر عن هذه الاحداث هايدو ، المرجع السابق ص ١٥-٢٢ .
(٣) نفسه ، ص ٢٤-٢٥ ، والمجهول ، المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠ .

والزمهم بدفع الضرائب ، للتخلص منه ، فاستخلف عروج على مدينة الجزائر اخاه خير الدين ، وتحرك هو على رأس (١٠٠٠) من الاتراك و (٥٠٠) من الاندلسيين ، نحو تنس ، وتمكن من الانتصار على قوات سلطان تنس الكبيرة ، في المعركة ، التي دارت بين الطرفين على مقربة من [illegible] ، في صيف ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، وذلك بفضل السلاح الناري الذي كان بحوزة قواته ، والذي لا مثيل له لدى قوات سلطان تنس ، فاضطر هذا الاخير الى الفرار الى قاعدة ملكه ، ولما وجد نفسه مطوقا ، فر منها الى اقصى الجنوب الجزائري فدخلها عروج (١) ثم تقدم الى تلمسان ، حيث كان السلطان ابو حمو الزياني الثالث الموالي للاسبان قد اغتصب الملك من ابن اخيه ابي زيان واودعه السجن ، وذلك بعد ان تلقى دعوة من بعض اعيان تلمسان يرجونه فيها المسير اليهم لينقذهم لتخليصهم من ابي حمو المذكور ، واعادة ابي زيان الى الملك . وتمكن عروج من تحقيق النصر على ابي حمو في المعركة التي دارت بين الطرفين ، ففر هذا الاخير الى فاس ثم الى وهران ، ومن هذه الاخيرة توجه الى بلاط ملك اسبانيا شارل الاول (٢) طالبا معونته . ودخل عروج تلمسان في رمضان ٩٢٣هـ / سبتمبر ١٥١٧م ، واستحوذ على الملك فيها ، وقتل ابا زيان بعد ان اعاد اليه الملك بضعة ايام ، وكذلك كل افراد الاسرة الحاكمة الا من فر منهم ، والمتعاطفين معهم من التلمسانيين وبدأ في توطيد سلطانه في المدينة ، وتحصينها . وكان قد اقام – وهو في طريقه الى تلمسان – حامية في قلعة بني راشد ، التي تتوسط الطريق بين تلمسان ومدينة الجزائر ، لتأمين خط الرجعة الى هذه الاخيرة ووصول الامدادات اليه منها او من الجزائر ، واسند قيادة تلك الحامية الى اخيه اسحاق . وسعى الى اقامة تحالف دفاعي وهجومي مع سلطان فاس (محمد البرتغالي الوطاسي) ضد النصارى ، العدو المشترك ، فرحب هذا الاخير بالعرض ووافق عليه (٣) .

وبهذه الخطوات اطمأن عروج ، وبقي في مدينة تلمسان الداخلية .

التدخل الاسباني في تلمسان والقضاء على عروج :

لم ينظر الاسبان بعين الارتياح الى النجاحات التي حققها الاخوة بربروس ، والخطوات الكبيرة التي خطوها في طريق توحيد اجزاء الجزائر تحت سلطتهم ورأوا ان خطرهم المتزايد سوف لا يتوقف عند تهديد مراكزهم على ساحل المغرب الكبير ، بعد ان يتفرغوا لها . بل سيتعداها الى اسبانيا نفسها . ولذلك فقد كان رد فعلهم التدخل السريع الى جانب السلطان المخلوع ابي حمو الثالث ، فقطعوا اولا خط الرجعة على عروج الى الجزائر ، بقضائهم على حامية قلعة بني راشد بما في ذلك اسحاق ، شقيق عروج وخير الدين ، ثم حاصروا عروج في تلمسان . وكان هذا الاخير يأمل في وصول المدد اليه من حليفه السلطان الوطاسي ، ولما طال انتظاره حاول الفرار في اتجاه الغرب مع القليل من الاتراك الذين بقوا على قيد الحياة . ولكن الاسبان ادركوه وتمكنوا بعد معركة عنيفة من القضاء عليه وعلى رفاقه في عام ١٥١٨ في بني يزناسن (٤) . واعاد الاسبان الملك في تلمسان الى ابي حمو الثالث الذي قبل ان يدفع ضريبة سنوية لهم ، مقدارها (١٢٠٠٠) دوكات

(١) هايدو ، المرجع السابق ص ٢٥-٢٧ و[illegible] ، المرجع السابق ص ٢٠-٢٢ ومارمول ، المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) تولى شارل الاول ملك اسبانيا ، امبراطورا على المانيا في ٢٨/ ٦/ ١٥١٩ باسم شارل الخامس (شارلكان) .

(٣) انظر ص 134 الاتية .

(4) Graulle(A.): La Mort et le Tombeau de BABA AROUDJ, in R.H.M. t.24, Paris 1913 P.246.

ذهبيـــة و (١٢) من الخيل وستة من اناث الحسور مكسوة على التهيئة (١) .

ويمقتل عروج واخيه اسحاق والقوات التي كانت معهما ، تعرض الوجود العثماني في الجزائر الى هزة قوية كادت تقضي عليه، وتقلصت من جديد ارجاء الدولة التي اخذ عروج في انشائها بعودة ابي حمو الى مملكة تلمسان ، وحميدة العبد الى تنس .

انضواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية :

بويع خيرالدين في مدينة الجزائر ، خلفا لأخيه عروج ، فشرع فورا في الاستعداد لمواجهـــة حملة اسبانية مترقبة ، قد يشترك فيها حليفهم ملك تلمسان . ولم تكن توقعاته وهمية ، اذ تعرضت في صيف سنة ١٥١٨ م / ٩٢٤ هـ ، اي بعد شهور قليلة من مقتل اخويه عروج واسحاق ، بقيادة نائب ملك صقلية ، هيجو دو منكاد (Hugo de Monoade) ، للقضاء على البقية الباقية مـــن الاتراك في مدينة الجزائر ، وعجز قائد الحملة الى سلطان تلمسان للتحرك بقواته الى مدينة الجزائر ولكن الجزائريين بقيادة خيرالدين تمكنوا من القضاء على الحملة الاسبانية قبل ان يصل هذا الاخير ولم يسلم من القتل او الاسر او الغرق في البحر الا العدد القليل (٢).

وفي اعقاب هذا النصر الباهر ، عزم خيرالدين على الرحيل الى اقليم الروم وترك مدينة الجزائر للجزائريين ومن يختارونه منهم . وجمع اهل الجزائر كلهم واعيانها من العلماء والصلحاء والمشايخ ليخبرهم بعزمه . ولكن هؤلاء اصروا على اقامته في الجزائر ، واتفقوا على اقتراحه بصرف الدعاية الى السلطان سليم العثماني ، وضرب السكة باسمه حتى يضمنون مساعدته ، وتزويده لهم بما يلزمهم مـــن الرجال وآلات الجهاد لحماية مدينتهم . وكتبوا كما امرهم خيرالدين ((كتابا على لسانهم الى حضرة السلطان العثماني المذكور يخبرونه بصرف الدعاء اليه ، وانهم من جملة من تنفذ فيهم احكامـــه ويقع فيهم نقضــه (٣))) . وكتب هو كتابا آخر الى السلطان سليم ، الذى رحب بطلب اهالي الجزائر وخيرالدين الانضمام تلقائيا تحت لوائه ، وسر به كثيرا (٤) لأنه كان متطلعا من جهاته ومد اطماعــه في مد نفوذه ليشمل كل العالم الاسلامي والعربي، مشرقه ومغربه ، حتى يكون اكثر قوة في صراعــه مع اوربا المسيحية ، عسكريا واستراتيجيا واقتصاديا .

ويبدو ان السلطان سليما كان يخطط اصلا لبسط نفوذه على كامل شمال افريقيا والحـــوض الغربي المتوسط ، فقد نسب اليه قوله لأحد كتمة سره .. ((ان البحر الابيض المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد الى بوغاز سبته ، فكيف يليق ان تجتمع فيه مدن مختلفة ، ثم انهم لا يكونـــون تحت حكم الدولة العلية ، فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية المقصودة هو من قصور الهمـــة المزرى بشأن الدولة ... اني آليت على نفسي وعاهدتها ان مد الله في عمري ، اني احرمهـــا الراحة والسكون ، ما لم انشيء الاساطيل الذاتية الميل المرغوبة واستولي على ثغور البحر الا بيـــض المتوســـط ...)) (٥) .

---

(١) انظر عن هذه الاحداث كلها : هايدو ، المرجع السابق ص٢٧-٢١ ، مارمول ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٩٢ ، باربروسا ، المرجع السابق ص٢١ ، المجهول ، المرجع السابق ص٢٢-٢٤ .
(٢) المجهول ، المرجع السابق ، ص٢٩-٣٢ ، هايدو ، المرجع السابق ص٢٩-٣٧ .
(٣) انظر رسالة اهالي مدينة الجزائر الى السلطان العثماني باللغة العثمانية في المجلة التاريخيـة المغربية عدد / ٦/ ، تونس ١٩٧٦ ، ص٩٦ ، وانظر المجهول ، المرجع السابق ص٤٢ .
(٤) هايدو ، المرجع السابق ص٣٥-٣٦ وكذلك تاريخ الانضمام قبل حملة (هيجو دو منكاد) .
(٥) احمد جودت ، تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر افندى ، ج١ ، بيروت ١٨٦٠ ، ص١٤٦ .

(١)
... بذل فعلا جهودا كبيرة لترقية البحرية العثمانية •

وتذكر المراجع ، ان السلطان سليما ... الى تقديمه العون للاخوة بربروسا [٢]، الذين ... مرضه ذلك • وتشير المراجع من جهة اخرى ، الى ... يعملون في الحوض الغربي المتوسط قبل انضمام الجزائر بشكل رسمي الى الدولة العثمانية • ... اعتزامه المسير بنفسه الى المغرب [٣] ولكن الاجل لم يمهلـــه •

وقد كان كتاب انضمام الجزائر تحت سيادة الدولة العثمانية بتاريخ اوائل ذى الحجـــة سنة ٩٢٥هـ / الموافق اواخر اكتوبر او اوائل نوفمبر ١٥١٩م [٤]

... الجزائر في عهد البايلربايات 925 -- 995هـ / 1519 -- 1587م :

ارسل السلطان سليم صحبة مبعوثي الجزائر اليه سنجقا ، وكتابا الى اهل الجزائر وخيرالدين ... ما كتبوه اليه ، وانهم ممن تشمله عنايته وترسم رعايته [٥] وبذلك غدت الجزائر تابعة الدولة العثمانية رسمي ، خيرالدين حاكما لها تابعا للسلطان العثماني • وقد امد السلطان سليم خيرالدين بالمساعدة العسكرية التي كان في حاجة ماسة اليها ، حيث ارسل اليه (٢٠٠٠) جندي ... يسمح بالذهاب الى الجزائر لكل من يريد ذلك من الاتراك ، ووافق ان يكون للانكشاريين في الجزائر نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها الانكشاريون في عاصمة الدولة [٦] فقصدها عدد كبير مما سمح لخيرالدين ان يقيم حاميات في الغرب الجزائري منها : مستغانم ، وتنس ، ومليانة ، وغيرها • [٧]

وهكذا غدت مدينة الجزائر وتوابعها منذ اواخر سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م تابعة الدولـــة العثمانية دون ان تتجشم هذه الاخيرة عناء غزوها ، كما حدث بالنسبة لبلاد الشام ومصر • وغدا خيرالدين حاكما تابعا للسلطان العثماني ، الا انه كان في واقع الامر يتمتع بسلطات واسعة في الجزائر لاتقل عن سلطات الملوك ، ولا سيما في الشؤون الداخلية ، وان لم يكن رسميا الا بايلربايا او امير الامراء ، وهو اللقب الذى حمله ، وحمله الحكام الاساسيون في الجزائر في الفترة الممتدة من ٩٢٥ــ٩٩٥هـ / ١٥١٩ــ١٥٨٧م ، التي تعرف بعهد البايلربايات ، وقد كان هؤلاء يعينـــون لفترة غير محدودة بزمن ، وغالبا ما كانوا يستدعون لاستلام منصب اعلى ، هو منصب وزير البحريـــة العثمانيـــة

ردود فعل سلاطين تونس وتلمسان ، وموقف خيرالدين منهم :

لم يرق السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد ولا السلطان الزياني ابوحمو الثالث للتطور الجديد الذى شهدته مدينة الجزائر ، فيما يتعلق بارتباطها بالدولة العثمانية ، واستقرار الامر فيها لخيرالدين ، وتوجسا خيفة على ملكيهما من هذا الاخير • [٨]

(١) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جزء ٢ القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٩١ •
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٢٦
(٣) احمد توفيق : المرجع السابق جزء ١ ص ٤٥
(٤) انظر هامش رقم (3) من الصفحة السابقة
(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٤٢
(٦) (٧) هايدو : المرجع السابق ص ٣٦
(٨) المجهول : المرجع السابق ص ٤٤

كان لا الرأى في امره ، واستقرا على ضرورة تأليب كل من : احمد بن القاضي الــزواوى ، ومحمد بن
ى ، عليــه (١) وكان خير الدين قد اسند الى الاول حكم القبائل الشرقية ، والى الثاني حكـــم
القبائل الغربيـــــة (٢) وتقديم مساعدتهما لهما للقضاء عليه •

آ - موقف خير الدين من سلاطين تلمسان :

تمكن عبد الله الذى خلف ابا حمو على الملك في تلمسان من تأليب عرب الغرب الجزائرى
على خير الدين ، وحركه حملة في اتجاه مدينة الجزائر ، الا انها انهزمت امام خير الدين الذى استطاع
ايضا اخضاع المناطق الغربية التي تمردت عليه (٣) ثم تدخل في شؤون تلمسان ، فكان فـــي
بادئ الامر الامير الزياني المسعود على انتزاع الملك من اخيه عبد الله ، ولكنه لم يلبث ان تمــرد
عليه ، وحينئذ اعان عبد الله المخلوع على انتزاع الملك من اخيه المسعود ، بشرط ان تكون السكة
والخطبة للسلطان سليم الاول (٤) وكان احمد الفتح هو الذى توسط بين الطرفين (٥) الا ان عبد الله
ما لبث هو الآخر ان تمرد على خير الدين ومال الى الاسبان ، فحاربه بيلرباى الجزائر وانتصر عليه
ولكنه عفا عنه وابقاه على كرسي الحكم في تلمسان ، وتعهد له عبد الله بمضاعفة ضريبة التبعية اسمـــ
غير انه لم يلبث ان تقرب مرة اخرى من الاسبان وتحالف معهم (٦) ، فحرضــه شـــــــــــــولا •
على الثورة ضد خير الدين ، وامدوه بمال عظيم ووجهوا اليه (١٤) سفينة لمساعدته واتفقوا معـــــه
على ان يهاجم الجزائر من البر في حين تهاجمها السفن الاسبانية من البحر وذلك في سنة ٩٤٠ هـ
/ ١٥٢٢ م (٧) •

وكان خير الدين قبل التاريخ المذكور قد وجه ضربات موجعة للاسبان في الجزائر وفـــي
اسبانيا ، حيث تمكن كما ذكر ، من القضاء على حملة مونكادو ومنكاد ، وتمكن في سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م
من القضاء على الحصن الاسباني المقابل لمدينة الجزائر (٨) • وزرعت غزواته البحرية للشواطئ والجزر
الاسبانية والايطالية ، الرعب في قلوب رعايا شارلكان ، فاراد هذا الاخير ان يلهيه بحرب من سلطان
تلمسان • وقد تحرك عبد الله على رأس قوات كبيرة من تلمسان نحو الجزائر ، الا ان خير الدين
الذى لم ينتظر وصوله الى مدينة الجزائر ليخرج اليه وتمكن من تحقيق الانتصار عليه بعد معركة عنيفة ،
فاضطر الى طلب العفو منه ، فعفا عنه خير الدين ورجع الى الجزائر • ويبدو ان هذا الامير الذى كان
يمكن الرحيل الى القسطنطينية في سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٢٢ م ، فلم يشأ ان يدخل تغييرا على الحكم
في تلمسان ، قد لا يساعد على استقرار الامور في الغرب الجزائرى •
واذا كان موقف خير الدين من سلاطين تلمسان هو كما اتضح التدخل في شؤون تلمســـان
لتنصيب سلطان موال له ، مع ابداء بعض المرونة تجاه السلطان المولى ولو صدر منه ما يؤاخذ عليه ،
فما كان موقفه من سلاطين تونس ومناوئيه الآخرين ؟
----
(١) نفســه ص ٤٤
(٢) نفسه ، ص ٤٤
(٣) نفسه ، ص ٤٦
(٤) نفسه ، ص ٤٦
(٥) نفسه ، ص ٤٧
(٦) الارشيف العام لسيمانكاس Archive Générale de Simancos, Legajo(2), Folio 205, España.
(٧) الجيلالي ، المرجع السابق ص ٧٩ ــ ٨٠ ، وبريمودا ، المرجع السابق ص ٤١ وبريمودا ، المرجع السابق ص ٣٢
(٨) نفســه ، ص ٦٦ ــ ٦٨ ، هايدو ، المرجع السابق

ب - موقف خيرالدين من سلطان تونس، ومنافسيه الآخرين :

لقد نجح السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد بعد محاولات عديدة في استمالة ابن القاضي الزواوي اليه[1] ، ثم ارسل قواته للهجوم على المناطق التابعة لخيرالدين في شرق الجزائر فوجه هذا الاخير قواته لصدها ، وتمكنت بالفعل من تحقيق النصر على الحملة الحفصية ، ومن مطاردة الهاربين من عسكر تونس في احد جبال القبائل المنيعة[2] وفي اثناء ذلك انقلبت قوات ابن القاضي الذي انحاز الى جانب الحفصيين على الاتراك وابادت الكثير منهم . واستولى ابن القاضي المذكور على النواحي الشرقية للجزائر . ولكن قوات جديدة بقيادة حسن قارة تمكنت من ازاحته فيها ، وحينئذ عمل احمد بن القاضي على استمالته واغراءه باقتسام حكم تلك الجهات معه فوافقه ، وتمرد على خيرالدين . ثم ان احمد بن القاضي نجح ايضا في تحريض بعض مشايخ الجزائر واعيانها على الثورة ضد خيرالدين . الا ان هذا الاخير تمكن من احباط ثورتهم بشدة .

- خيرالدين يلتجئ الى جيجل :

امام تقلص نفوذ خيرالدين في الجهة الشرقية ، وتذبذب سلطان تلمسان في ولائه ، وعدم اطمئنانه على نفسه في الجزائر ، والقوات التركية القليلة التي بقيت معه فيها ، وانشغال السلطان العثماني سليمان القانوني الذي خلف والده سليم في سنة ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م . بحروبه البرية والبحرية في الحوض الشرقي للمتوسط ، وفي اوربا[3] . آثر الالتجاء الى مدينة جيجل والاقامة فيها على البقاء في مدينة الجزائر . وقد كانت مدينة جيجل كما رأينا اول مدينة استقر فيها الاخوة بربروس ، وكان اهلها اكثر اخلاصا لهم . ومكث فيها بضع سنوات[4] قام خلالها بربط علاقات وايدة مع امير بني عباس[5] . المنافس لابن القاضي ، ومد نفوذه الى مدينة القل الساحلية الصغيرة ثم الى مدينة قسنطينة وعنابة في الفترة ٩٢٦-٩٢٨ هـ / ١٥٢٠-١٥٢٢م[6] وبذلك قلص نفوذ السلطان الحفصي في الشرق الى حد كبير ولو الى حين لأن الامر لم يستتب له تماما فيها بعد عودته منها[7] . كما قام خلال اقامته بجيجل بتنشيط الغزو البحري انطلاقا من هذه الاخيرة ، ونقل عدد غير قليل من مسلمي الاندلس[8] الى الشواطئ الجزائرية ، وظل على اتصال ببعض اعيان مدينة الجزائر التي خضعت بعد رحيله عنها لابن القاضي .

---

(١) (٢) المجهول : المرجع السابق ص ٥٠

(٣) بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية . ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٦٨ ص ٤٥٠-٤٥١ .

(٤) حسب المجهول : في المرجع السابق ص ٦٠ يكون قد بقي ٣ سنوات فقط . وحسب غيره يكون قد بقي بين ٥-٦ سنوات ، انظر دوغرامون، المرجع السابق ص ٢٢ ، وميرسي، المرجع السابق جزء ٣ ص ١٧-٢٨ .

(٥) ميرسي : نفسه : المرجع السابق جزء ٣ ص ٢٨

(٦) هايدو : المرجع السابق ص ٣٧

(٧) داغرامون : المرجع السابق ص ٢٩ ، ميرسي : المرجع السابق جزء ٣ ص ٢٨-٢٩

(٨) المجهول : المرجع السابق ص ٦٠

- عودة خير الدين الى مدينة الجزائـــر :

ولما مات السلطان الحفصي ابو عبد الله الذى تلقب لخير الدين ظهر العجز في ســـنة ٩٢٢هـ / ١٥٢٦م ، زحف هذا الاخير الى مدينة الجزائر ، ودخلها بعد ان خاض صراعا عنيفــا ضد ابن القاضي في احوازها قتل فيه هذا الاخير غدرا على يد بعض اتباعه ، وكان ذلك بسبب هزيمــة عسكره ايضا .[١] وهذا على الارجح في سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م . وقبل ان يستقر تمامــا فيها ، تعرض الى شرشال ضد خصمه الاخر ، حسن قارة ، وتمكن من القبض عليه وقتله ، وقتل مجموعة من خلصائه[٢] ، ثم انبرى لمحاربة الحسين اخي احمد بن القاضي ، وبقي في طلبه نحو سنتين الى ان طلب الصلح ، وابدى استعداده لدفع ضريبة سنوية قدرها ثلاثون حملا من الفضه[٣] ، وذلك فـي ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م .

- تحرير الجزائر من الحصن الاسباني :

تفرغ خير الدين بعد القضاء على المناوئين له ، واخضاع المناطق المتمردة للقضاء على الحصن الاسباني ، الذى كان يخنق مدينة الجزائر ، ويراقب مدخلها الى الميناء ، مما يجعل غزاة الجزائر لا يدخلونه ولا يرسون فيه . وتمكن بعد خمسة عشر يوما من القصف المدفعي العنيــف للحصن في ماى ١٥٢٩ من هدم اسواره ، وقتل او اسر جميع من بقي على قيد الحياة فيه . وبذلك حرر مدينة الجزائر من اخطار ذلك الحصن ، وحرر ميناءها فأصبح مستعملا من قبل غزاتهــا .[٤]

وقد كان لتحرير الجزائر من الحصن المذكور او البنون ، دوى كبير لدى المسلمين والنصارى نسى خير الدين خيبة كبيرة جملت المترددين في ولائهم كعبد الله سلطان تلمسان اكثر تبعيــة وانصياعا ، وعمق اقدامه رسوخا في الجزائــر .

وفي اعقاب القضاء على الحصن ((البنون)) صعد خير الدين تهديده للوجود الاسباني في المراكز الاخرى ، حيث دعا سلاطين تلمسان وفاس وبادس وغزاة البحر التونسيين الى توحيــد جهودهم ، وشن هجوم مشترك برى وبحرى على الاسبان في وهران[٥] . الا ان هذا الهجوم لــم ينفذ ، لعدم حصول تجاوب كاف من جميع الاطراف ، ولكن الحاميات الاسبانية اصبحت تعيــش في خوف دائم ، ولا سيما بعد ان قطع عبد الله سلطان تلمسان التموين عنها ، فأصبحت تعيـــش في خوف وجوع معا ، لأن وصول التموين اليها من اسبانيا كان كثيرا ما يتأخــر[٦] .

وكان رد فعل الاسبان على سقوط (البنون) وتزايد هجمات غزاة الجزائر :

أ- تكليف شارلكان لأندرى دوريا بالقيام بحملة ضد هؤلاء الغزاة ، فقام بهذا الصدد بهجــوم مفاجئ على مدينة شرشال الساحلية ٩٣٨هـ / ١٥٣١م ، الا ان اهل المدينة الذين تحصــنوا

---

(١) نفســـه : ص ٦١-٦٢ ، وبيرسي : المرجع السابق جزء ٢ ص ١٢٠ .
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٦٣-٦٤ .
(٣) نفســه : ص ٦٦
(٤) نفســه : ص ٦٦-٦٨ وبريموداى : المرجع السابق ص ٣٢ و هاى دو : المرجع السابق ص ٤
(٥) بريموداى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٥
(٦) نفســه : ص ٥٦

القصبة من الحامية ، انقضوا على المهاجمين وهم منشغلون بأعمال النهب في المدينة ، فقتلوا
وأسروا الكثيرين ، ثم ان دوريا اضطر للانسحاب على عجل من شرشال قبل ان يلحق به
خيرالدين ، الذي تحرك اليه من مدينة الجزائر ، ولما لم يلحق به في شرشال اسرع في طلبه
في الشواطئ الايطالية ، الا انه لم يظفر به ، فعاد الى الجزائر (١).

٢ــ قيام الفارو دو بازان (D. Alvaro de Bazan) بحملة في ١٠ محرم ٩٣٨هـ/ ٢٤ اوت
١٥٣٢ على مدينة هنين الساحلية ، التي كانت شبه خالية اذ لم يكن فيها الا حامية زيانية صغيرة
تمكن من احتلالها ، وكان القصد من ذلك ، هو حرمان تلمسان من منفذها البحري ، الذي كانت
تتصل من خلاله بالتجار الاوربيين ، والضغط على عبدالله سلطان تلمسان الموالي لخيرالدين
للتراجع عن ولائه ، والاستفادة بمزايا هنين الاخرى (٢).

٣ــ التفكير في القيام بحملة كبرى ، يقودها شارلكان نفسه ضد مدينة الجزائر للقضاء
على مصدر الخطر (٣) ولكن غزاة الجزائر لم يكفوا من مهاجمة الشواطئ والسفن الاسبانية ،
والحاق خسائر كبيرة بها ، وتأييد الثورات التي كان يقوم بها الاندلسيون من حين لآخر ، وتقديم
العون لهم ، ونقل الكثير منهم الى الشواطئ الجزائرية (٤) ، حتى بات نقل غزاة الجزائر للمهاجرين
الاندلسيين ، عقب كل عملية غزو للشواطئ الاسبانية من التقاليد المحترمة (٥).

ــ استدعاء خير الدين الى استانبول ، والولاية الاولى لحسن آغا :

وفي سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م ، استدعى السلطان العثماني سليمان القانوني خيرالدين
اليه ، واسند له قيادة البحرية العثمانية ، وفوض له الامر في دار الصناعة (٦) وقبل توجهه الى
استانبول استخلف على الجزائر حسن آغا .

وقد كان هذا الاخير من كبار مساعدي خيرالدين ، والمقربين اليه ، نشأ وتربى في بيته ،
وعهد له قبل استخلافه بمهمات عديدة اظهر فيها ذكاء وشجاعة ، وهو اصلا من جزيرة سردينيا (٧).

وتميزت ولايته الاولى (٩٤٠ــ٩٤٢هـ/ ١٥٣٣ ــ ١٥٣٥م) بالتدخل في شؤون تلمسان
حيث قام باعانة الامير الزياني محمد بن عبدالله ، الذي كان يقيم في مدينة الجزائر ، بعد ان
فشل في الاطاحة بوالده ، وفي الحصول على عون سلطان فاس ، او اسباني وهران ، على انتزاع
الملك في تلمسان ، من اخيه عبد الله الذي تولى بعد وفاة والدهما في اواخر سنة ٩٤٠هـ/
١٥٣٣م ، ونجح فعلا بفضل تلك الاعانة من اخذ الملك منه في ٢٨ رجب سنة ٩٤٠هـ/ ١٢/ ٢/
١٥٣٤ (٨). كما تميزت بمشاركته الى جانب خيرالدين في محاولة صد حملة شارلكان على تونس .

(١) المجهول : المرجع السابق ص ٧١ــ٧٢ ، ومارمول : المرجع السابق ص ٢٩٤ ، وهايدو المرجع السابق ص ٤٤ــ٤٥ .
(٢) بريموداي : المرجع السابق ، ص ٥٧ــ٦٠ .
(٣) نفسه ، ص ٦١
(٤) المجهول : المرجع السابق ص ٨٠ــ٨٢
(٥) نفسه :
(٦) نفسه : ص ٨٨ــ٨٩ ، وبريموداي : المرجع السابق ص ٧٠ .
(٧) هايدو : المرجع السابق ، ص ٦٢
(٨) بريموداي : المرجع السابق ص ٤٧ــ٥٠ ، و: Ruff (P.): La Domination Espagnole À Oran. 1534-1558. Paris 1900, P.36.

- استيلاء خيرالدين على تونس، عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م :

كان لتونس اهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط، وبين مقر الدولة العثمانية، وايالة الجزائر، اذ تتحكم في المضيق بينها وبين صقلية . وكان لتونس اهمية اخرى في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي كل شمال افريقيا . وقد ادرك خيرالدين اهميتها لاسيما بعد ان عانى من مؤامرات سلطان تونس، منذ كان بايلرباياً في الجزائر . فلما استلم قيادة الاسطول العثماني في سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م كما ذكرنا، كانت اولى اعماله البارزة الاقدام على ضم تونس الى السيادة العثمانية في سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م، تمهيداً لبسط السيادة العثمانية على كل المغرب الكبير .(١)

وقد استغل خيرالدين في هجومه على تونس في صيف السنة المذكورة عدة عوامل منها : اضطراب البلاد التونسية وتمزقها، وكراهية السكان للسلطان الحسن بن محمد الحفصي الذى اساء السيرة فيهم، واغتصابه السلطة من اخيه الاكبر (الرشيد) الذى اضطر الى الالتجاء اليه لطلب عونه ضد اخيه لاسترجاع ملكه، ودعوة بعض اعيان تونس واعلمها له، ووعدهم بأن يمكنوه من مدينة تونس والبلاد التونسية .(٢)

ولذلك فانه لم يجد اى صعوبة في الدخول الى تونس التي خرج منها السلطان الحسن فارا الى عرب البادية، بل ان خيرالدين لقي الترحيب من قبل سكان مدينة تونس(٣) الا ان هؤلاء مالبثوا ان ثاروا عليه لما علموا انــــــه لم يصطحب معه الامير الرشيد الحفصي لتنصيبه كما اشاع، وكما كان منتظرا ان يفعل، وانه اخذ تونس باسم السلطان العثماني سليمان القانوني . وقاد الحسن الحفصي الذى عاد الى تونس متخفيا ثورة التونسيين ضد خيرالدين، الا ان هذا الاخير تمكن من القضاء على ثورتهم بعنف . وفر الحسن ثانية الى طوائف العرب في داخل تونس، بينما قبل سكان تونس العاصمة بالامر الواقع .(٤) وضاعف خيرالدين من نشاطه لتوطيد سلطاته في المدينة، ثم في كل البلاد التونسية، مستعملا اسلوب الترغيب والترهيب، والعفو تارة والبطش اخرى(٥) . وتمكن في فترة قصيرة من الامساك بزمام الامور فيها، ودانت له القبائل بالولاء، وخضعت له المدن المختلفة، وباءت محاولات الحسن في دفع التونسيين الى الثورة ضد خيرالدين بالفشل . وحينئذ توجهت ادارته الى طلب العون من الاسبان .

- حملة شارلكان على تونس، ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م :

ماكان استيلاء خيرالدين على مدينة تونس العامة ليرضي الاسبان وسائر الايطاليين والبابا نفســه، ولذلك فقد صمم شارلكان على اقتلاعه منها، وزاد تصميمه لما اتصل بطلب السلطان

---

(١) غروول : المرجع السابق، ص ٢٤٦
(٢) ما يدور : المرجع السابق ص ٤٦، والمجهول : المرجع السابق، ص ٩٢، وابن ابي دينار المرجع السابق ص ١٦٢-١٦٤، وبريمودان : المرجع السابق، ص ٩٤-٩٥، ٦٨
(٤) بريمودان : المرجع السابق ص ٩٥-٩٦، والمجهول: المرجع السابق ص ٩٢-٩٣ .
(٥) المجهول : نفس المرجع السابق ص ٩٣ .

الحسن الحفصي المخلوع ، بطلب عونه ضد خيرالدين لاسترجاع ملكه ، فجهز حملة ضخمة في التاريخ المذكور ، تمكن بها من انتزاع تونس من خيرالدين ، بعد معارك عنيفة ، واعاد الحسن الحفصي الى عرشها بعد ان كبلـه بعدة شروط اهمها : احتفاظ الاسبان بصفة دائمة بحلق الوادي ، واقامة حصن لهم فيه ، وضريبة ابهضة له [1] ولكن الهدف الرئيسي للحملة الاسبانية الضخمة التي اشترك فيها عدة امم مسيحية لم يتحقق ، اذ لم تتمكن من القضاء على قوة خيرالدين الذى انسحب الى الجزائر ، ومنها الى جزيرة مايورقة الاسبانية ، وهاجم ماهون ، وخربها ، واحرقها بعد نهبها ، واسر اكثر من ستة آلاف اتى بهم الى الجزائر [2]. وبذلك ثأر خيرالدين من هزيمته في تونس قبل ان يعود الى استانبول ، وخفف من دوي انتصار شارلكان عليه ، وتنغص على هذا الاخير وعلى رعاياه فرحتهم بالنصر .

وكان خيرالدين يعتزم تحرير وهران [3]، حين دعاه السلطان العثماني للعودة . فاستخلف حسن آغا للمرة الثانية على الجزائر التي غادرها هو واهله وحاشيته في اواخر سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م [4] ولم يعد بعدها اليها ، وتوفي عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م مكللا بانتصارات بحرية جديدة على الاسبان وحلفائهم .

ويعتبر خيرالدين من المؤسس الحقيقي للنفوذ العثماني في الجزائر ، وواضع السياسة التي اتبعهـا من جاء بعده ورسم الاهداف التي تحقق بعضها في عهده ، وبعضها في عهود من تولوا بعده ، فتحرير الجزائر من القواعد الاسبانية ، وتوحيد البلاد الجزائرية ومد السيادة العثمانية على كامل المغرب الكبير ، بمساعدة مسلمي الاندلس . ولذلك كان لا بد من تفصيل القول قليلا بالنسبة لعهده ، وبالاضافة الى ماتقدم من جهوده ان مدينة الجزائر اصبحت منذ عهده عاصمة للبلاد الجزائرية كلها تقريبا ، وهو الذى بنى لها ميناءها ، واوقف الاوقاف العديدة على بعض مساجدها . كما انه هو الذى نهض ببناء ميناء شرشال ، وانقذ الكثير من الاندلسيين المضطهدين في اسبانيا .

ـ الولاية الثانية لحسن آغا : (٩٤٢هـ ـ ٩٥٠هـ / ١٥٣٥ ـ ١٥٤٣م) :

كان على حسن آغا في بداية ولايته الثانية ان يستعد لمواجهة حملة اسبانية تسرد دثت الانباء ان شارلكان يعتزم القيام بها بعد نجاح حملته على تونس ، مما اثار مخاوف كبيرة في الجزائر . فاجتهد اولا في تحصين مدينة الجزائر ، واجراء الترميمات اللازمة على اسوارها واعادة الهدوء والاطمئنان الى سكانها ، فاهتم بأحوال الرعية ، كما تزود بالاسلحة من فرنسا [6].

(1) بريمو داى : المرجع السابق ص ١٢٩ ـ ١٣٩ ، وابن ابي دينار المرجع السابق ص ١٦٤ ، احمد بن ابي الضياف : اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان تونس 1963 ج2 ص 13
(2) المجهول : المرجع السابق ص ٩٩ ـ ١٠٢ ، وعايدو : المرجع السابق ص ٥١
(3) بريمو داى : المرجع السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٩
(4) نفسه : ص ٢٠٣ ، وهايدو : المرجع السابق ص ٥٦
(5) نفسه : ص ٢١٤ ـ ٢١٥
(6) نفسه : ص ٢١٤ ـ ٢٢٠ ، والمجهول : المرجع السابق ص ١١٥ .

ستكثر من بناء السفن ، وتوجيه الغزاة الى الشواطئ الاسبانية المعودة بغنائم وفيرة منها .

ولكن هزيمة خيرالدين في تونس واحتمال قيام الاسبان بحملة اخرى ضد الجزائر كان لهما تأثيرها في انقلاب مواقف بعض مراكز القوى في الجزائر وهي :

ا - سلطان تلمسان :

لما وصل الانباء بهزيمة خيرالدين امام شارلكان في تونس بادر السلطان الزياني محمد بن عبد الله ، الذى كان لحسن آغا الفضل في وصوله الى الملك كما تقدمت الاشارة ، الى التقرب من الاسبان ، فعرض في نهاية شهر صفر ٩٤٢ هـ / اوت ١٥٣٥ م ان يكون معهم وتابعا لشارلكان وان يدفع الضريبة التي كان يدفعها ابوه وجده ، وان يعيد الاسرى الاسبان الذين وقعوا في قبضته في ٢ محرم ٩٤٢هـ / ٤ /٧/ ١٥٣٥ م في المعركة التي خاضها بجيشه مع القوات الاسبانية التي جاء بها اخوه عبد الله من وهران لانتزاع الملك منه [1] بل وابدى استعداده لان يقبض على خيرالدين بربروس ان التجأ اليه بعد هزيمته ، ويسلمه اليهم [2] وتوسل في رسالته المؤرخة ٧ ربيع الاول ٩٤٢هـ / ٥/ ٩/ ١٥٣٥م لشارلكان ان يقبله تابعا ، وحليفا ، ويمنحه حمايته وكانت تلك الرسالة مرفوقة بمشروع معاهدة سلام لمدة عشر سنوات موقع من قبله ، جدد فيه عروضه السابقة الذكر ، وطلب ان يكف الاسبان عن ايواء اخيه عبد الله وتأييدهم له ، وان يعيدوا له المناطق الداخلية التي اقتطعها الاتراك من مملكة تلمسان اذا ما تمكن من احتلال المدن الساحلية الجزائر ، وشرشال ، وتنس [3]

وفي ٥ ربيع الثاني ٩٤٢هـ / ٣/ ١٠/ ١٥٣٥ م ، وقع على نص المعاهدة كما اقترحه عليه حاكم وهران وفيه تنازلات وامتيازات اضافية للاسبان [4] الا ان الامبراطور شارلكان لم ير ضرورة لما يبدو لتوقيع معاهدة مع سلطان لاحول له ولا قوة ، متذبذب الولاء ، في الوقت الذى كان فيه اخوه عبد الله اللاجئ عنده ، مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل ان يجلسوه على كرسي الملك في تلمسان اسما بلا رسم [5].

ورغم انه لم يجد التجاوب لدى شارلكان ، فان السلطان محمدا لم يكف عن طرق باب الاسبان ، ويبدو انه لم يفتح له الا بعد سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١ م ، وهي السنة التي شهدت انكسار حملة شارلكان في الجزائر .

٢ - سلطان تنس [6] :

اما سلطان تنس ، حميدة العبد الذى اعاده خيرالدين الى سلطنته بعد ان جرده اخوه منها ، كما رأينا في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م ، فقد قام بدوره في اعقاب هزيمة خيرالدين

---

[1] بريموداى : المرجع السابق ص٤٧ ، ١١٢ وروف : المرجع السابق ص ٣٥ وما يليها
[2] بريموداى : نفس المرجع السابق ص ١٤٦-١٤٨
[3] نفسه : ص ١٤٨-١٥٠
[4] نفسه : ص ١٨٠-١٨٢
[5] انظر التنازلات التي قبلها عبد الله لدى تنصيبه ملكا على تلمسان من قبل الاسبان في سنة ١٥٤٣ في بريموداى نفس المرجع اعلاه ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
[6] يلقب في الوثائق الاسبانية بقائد تنس او الشيخ الرئيس للشرق ، انظر بريموداى : نفس المرجع ص ٢١٧ .

في تونس ، وتردد انباء حملة اخرى على الجزائر بالتقرب من الاسبان [1] وابدى لهم ولاء واستعداده للمساهمة في الحملة المنتظرة على الجزائر بثلاثة آلاف من حملة الرماح ، وبتوفير الاغذية للقوات الاسبانية بسعر مناسب [2] على امل ان يفوز بصداقة الاسبان ودعمهم له فيما يعرض له من قضايا [3].

٣ـ أمير كوكو :

شرع احمد بن القاضي من جهته في التقرب من الاسبان في بجاية ، مدفوعا بدون شك بحقده على الاتراك العثمانيين ، ولما كان بين هؤلاء وبين اسرته من نزاع في عهد خيرالدين ، ونزعته الاستقلالية . ولما انهزم خيرالدين في تونس بلغ شارلكان حاكم بجاية باشعار ابن القاضي حتى يتمكن هذا الاخير من ان يتدخل عليه الطريق البري الى الجزائر [4]. ولكن خيرالدين عاد عن طريق البحر ، فلم يمنعه فعل اي شيء . وحين قام شارلكان بحملته على الجزائر في سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، سار ابن القاضي على رأس قواته للمشاركة فيها ، لكن الكارثة احاطت بشارلكان قبل ان يصل هو بقواته الى مدينة الجزائر ، فعاد ادراجه الى جبله .

وحسب هايدو ، فان ابن القاضي قد زود شارلكان بالاغذية ، ولعل ذلك في بجاية عندما كان هذا الاخير في امس الحاجة اليها [5] وظل بعد فشل الحملة المذكورة على الجزائر على صلة بشارلكان واسباني بجاية ، يلح في رسائله ، عن طريق رسله على القيام بحملة اخرى ضد الاتراك في الجزائر ، ويعد بمشاركته الفعالة فيها [6] ولكنه لم يجد التجاوب المرغوب .

٤ـ سلطان تونس :

اما الحسن الحفصي سلطان تونس فقد حاول هو الآخر استغلال هزيمة خيرالدين ، فأعد في رمضان ٩٤٢هـ / مارس ١٥٣٦م حملة لاسترداد مدينة قسنطينة من الاتراك العثمانيين [7] زاعما ان سكانها قد طلبوا منه تعيين حاكم لهم [8].

ـ حملة شارلكان على الجزائر : (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) :

لم تسمح الظروف لشارلكان بالقيام بحملة على الجزائر قبل التاريخ المذكور ، وكان قد صمم على القيام بها مهما كانت الظروف ، بعد ان تزايدت شكاوى رعاياه من هجومات غزاة البحر الجزائريين [9].

---

(1) نفسه : ص ٢٢٢
(2) نفسه : ص ٢٢١
(3) نفسه : ص ٢١٨
(4) نفسه : ص ١٢٤
(5) هايدو : المرجع السابق ص ٦٥
(6) انظر صورا عن رسالة من محمد بن القاضي الى شارلكان ، ورسالتين من عمر بن احمد بن القاضي الى حاكم بجاية في ، المدني ، المرجع السابق : ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧
(7) بريموداي : المرجع السابق ص ٢١٥
(8) نفسه : ص ٢٠٢
(9) الجيلالي : المرجع السابق ص ٨٠ ، ١٠٢ .

د ان كادت التجارة الاسبانية والايطالية في المتوسط تتوقف لانعدام الامن وتزايد اخطار
ر السفن التجارية في قبضة غزاة الجزائر ، ولكن انشغال شارلكان في السنوات الماضية التي
ت حملته على تونس بحروبه في الجبهة الاوروبية مع فرنسا وغيرها ، لم يجعله يهمل قضية الوجود
ثماني في مدينة الجزائر بالذات ، فهو كما تذكر الوثائق والمصادر المعاصرة قد دخل في مفاوضات
ة مع خيرالدين بربروسا (1) ، ودخل حاكم وهران الكونت دالكوديت في مفاوضات مماثلة مع حسن
سا (2) بهدف الحصول على مدينة الجزائر دون حرب ، ولما خاب سعيه وسعي حاكمي وهران
حسن احملة عليها ، وقد كانت خطته فاشلة في ظروف غير مناسبة للابحار ، وللقيام بهجوم بحري
بري ، اذ كانت في شهر اكتوبر ، وهو شهر تستقبل فيه الامطار بكثرة ، ويأخذ فيه البحر في
يجان ، ولكن استهانة شارلكان بقوة الجزائريين بقيادة حسن آغا ، جعلته لا يستمع الى نصائح
ربين له ، كأندري دوريا وغيره بتأجيل الحملة الى فصل الربيع الصالح للابحار (3) . وقد دفع هذا
صرار بعضهم الى الاعتقاد بأن حسن آغا قد قبل بتسليم الجزائر ، شرط قيام شارلكان بحملة
رة تدفع عنه الشكوك ، وتظهره على انه كان مرغما على تسليمها (4) . ولكن الواقع كذب هذا
تقاد ، اذ كان دور حسن آغا في قيادة الجزائريين الى تحقيق اكبر انتصار على اضخم حملة مسيحية ،
دة اعظم امبراطور مسيحي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كبيرا (5) .

وقد تضافرت مع ارادة الجزائريين بقيادة حسن آغا في المقاومة والهجوم ، قوى الطبيعة من
ح وامطار وهيجان ، في الحاق الكارثة بحملة شارلكان . وقد تناول تفاصيل هذه الكارثة مصادر
ى عديدة مما يجعلنا في غنى عن الخوض فيها (6) .

اما نتائج هذه الحملة فعديدة وهامة ، اهمها الخسائر الكبيرة التي منيت بها الحملة في
تاد والأرواح ، او الغنائم الكثيرة التي حصل عليها الجزائريون ، والتي صار يضرب بها المثل
الاحزان التي تلقتها في اوروبا المسيحية ، او مانالته حسن آغا ، واعيان الجزائر ، واهلها
تقدير السلطان العثماني ، ولكن اهمها على الاطلاق ترسيخ دعائم الوجود العثماني في الجزائر
حوض الغربي للمتوسط اكثر من اي وقت مضى ، اذ كان فشل حملة شارلكان امام الجزائر بداية مرحلة
لة جديدة هذا موقف الاسبان فيها موقف الدفاع بعد ان كانوا في موقف الهجوم ، اذ مالبثوا
فقدوا بجاية ، واصبحت وهران والمرسى الكبير كما مغرى موضع حملات عديدة ، وتفرغ فيها
م الجزائر العثمانيون لتوطيد نفوذهم في الجزائر ، وتوسيعه نحو الغرب والشرق ، الى المغرب
تونس ، ونحو الجنوب ليشمل الصحراء الجزائرية ، بعد ان كان نفوذهم محصورا في شمال الجزائر
سواحلها .

---

(1)Watbled & Monneroau:Négociations de Charles-Quint avec Kheir-Edine. in R.A. Alger , t. 15, P.P. 138-141.

(2) NégociationsEntre Hassan Agha et le Comte D'Alcaudète ; in R.A. Alger 1865 P.379.

(3) الجيلالي : المرجع السابق ص ٢٢٧

(4) انظر مفاوضات حسن آغا في المرجع السابق ص ٢٢٩ ، ود غرامون : المرجع السابق ص ٥٨

(5) انظر عن دوره الكبير ، هايدو ، المرجع السابق ص ٦٣ ـ ٦٤ ، والجيلالي : نفس المرجع ص
١١٥ ـ ١٢٢ .

(6) الجيلالي : المرجع السابق ص ١١٥ . بعدها . مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٤٠٢
ـ ٤٠٨ ، هايدو : المرجع السابق ص ١٣ ، ٦٥ ، المدني : المرجع السابق ص ٢٨٠ ـ ٢٩٧
ود غرامون : المرجع السابق ص ٥٨ ـ ٦٢ ، ومقالة بلحميسي حول الحملة في مجلة تاريخ وحضارة
المغرب عدد ٦ ـ ٧ الجزائر ص ٢٤ ـ ٥٦ .

... موقف حسن آغا من المتذبذبين في ولائهم للحكم العثماني :

١ـ موقفه من امير كوكو :

لم يغفر حسن آغا لبني القاضي تعاطفهم مع الاسبان ، بمناسبة حملة شارلكان ، فتحصرت ... في ربيع ٩٤٨ هـ / ١٥٤٢ م ، وخرب اراضيهم ، واضعف شوكتهم ، دون ان يصحب شارلكان ... ثم رغم النداءات المتكررة له ولا سيما في بجاية[1].

٢ـ موقفه من سلطان تلمسان :

ثم تحول الى تلمسان لاخضاع محمد بن عبد الله المتذبذب في ولائه ، ولم يجرؤ هذا الاخير ... الى الاصطدام معه ، فقام باسترضائه ، وتعهد له ... بقطع كل صلة له مع الاسبان ، فقفل راجعا ... مدينة الجزائر دون ان يترك في تلمسان حامية ، كما كان يعتزم ان يفعل[2].

٣ـ موقفه من سلطان تنس :

اما حميدة العبد الذي اكتفى بالوعد فقط بالمشاركة في الحملة على الجزائر دون التنفيذ ، ... ابقاه حسن آغا في مركزه ايضا واظهر ولاءه بالمشاركة في صد حملة اسبانية على مستغانم كما ... سيأتي .

... رد فعل الاســــبان :

... الحملة على تلمسان : (٩٤٩هـ / ١٥٤٢ م)

كان الاسبان حريصين دوما على ان لا يمتد النفوذ العثماني الى الغرب الجزائري ما امكن ذلك ، ... يستقر الامر للأتراك في تلمسان المجاورة لوهران ، ولذلك فانهم سرعان ما قاموا بحملة لاستبدال ... السلطان محمد الموالي لحسن آغا ، وتنصيب اخيه عبد الله الموالي لهم بدلا عنه ، وتضمنت الحملة ... قادها دالكوديت حاكم وهران بنفسه في مطلع ٩٥٠هـ / ١٥٤٣ م من احتلال مدينة ... تلمسان التي تخلى عنها السلطان محمد والكثير من سكانها ، ونهبها والقضاء فيها ... ، ثم العودة بعد تنصيب عبد الله ملكا تابعا للاسبان فيها . ولكن هذا الاخير ... من التلمسانيين لانه كان تابعا للاسبان من جهة ، ولأن الحملة ، التي جاء بها ... ارتكبت في تلمسان من الافعال الشنيعة ما جعلهم ينفرون منه ، ويوصدون ابواب المدينة في ... عودته ، عقب اول خروج له لمحاربة اخيه محمد ، ويتعقبونه في وجه هذا الاخير . وانتهى ... عبد الله بان التجأ الى عرب انكاد في صحراء تلمسان الذين قتلوه ، فضاعت بذلك جهود الاسبان ... تلمسان هباء[3] ولكن التدخلات الاسبانية في تلمسان لم تتوقف مما جعل المدينة تعيش في ... اضطراب دائم تقريبا ، الى ان حسم الامر فيها الاتراك العثمانيين وقضي على حكم السلاطين الزيانيين ... كما سيأتي .

(1) انظر رسالة محمد بن القاضي الى شارلكان في المدني : المرجع السابق ص ٣٠٢ ، وفيها ان الحصار استمر شهرين ونصفا .
(2) هايدو : المرجع السابق ص ٦٦ـ٦٧ .
(3) نفسه : ص ٦٨ ، ومارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٤٦ـ٣٤٨ ، وروف : المرجع السابق ص ٩٢ وما بعدها .

ـ الحملة على مستغانـم :(٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م)

وفي اطار مقاومة امتداد النفوذ العثماني في الغرب الجزائري ، قام الكونت دالكوديت في ٤ اذي الحجة
هـ/ ٢١/ ٢/ ١٥٤٢ م ، بحملة على مستغانم بهدف انتزاعها من ايدي الاتراك العثمانيين ،
لما من اهميـة استراتيجية ، اذ هي قريبة من وهران ، وتشرف على الطريق بينها وبين مدينـة
ئر ، الا انه فقل رغم ما من مقارنة الوصول تعزيزات عثمانيـة كبيرة اليها • ووجد صعوبـة
في التراجع الى وهران ، لتعرضه الى هجومات عرب الغرب الجزائري من جهة البر وقصـف
ن الجـزائرية من جهة البحر • بحيث تكبد خسائر كبيرة (١) وكان من بين من ساهـم
ع من مستغانم سلطان تنس (٢) •

ـ الحملة على مستغانـم :

رغبـة في اعادة هيبة الاسبان التي تعرضت لهزة كبيرة في مستغانم ، قام دالكوديت بشـن
م على حامية معسكر العثمانية ، واضطرت هذه الاخيرة الى الانسحاب من المدينة الى حصـن
ـه (٣) والى هذه الحملة انضم المنصور بن ابي غانم قائد بني راشد • وكان المنصور شخصية
ة في بلاط محمد الزياني (٤) ، سلطان تلمسان الموالي لاتراك الجزائر ، ومما يخفى انه تحـول
عد ولهولاء ، وسنرى انه كان من اعداء الاتراك الاشداء في المواقف التي سنذكرها •

ولم يكتف حسن آغا بتوطيد سلطاته في الشمال والغرب ، بعد ان تأثرت في اعقاب هزيمـة
الدين في تونس ، ولكنه سعى ايضا الى مد حكم الاتراك العثمانيين في الجزائر الى الجنـوب ،
بهذا الصدد بحملة الى بسكرة (٥) وما جاورها من بلاد الزيبان ، ولا يخفى ما لبسكرة مـن
ية اقتصادية فهي محطة لقوافل التجارة الذاهبة الى بلاد السودان والآتية منه ، كما انهـا
سـة هامة للسكان الجزائريين والمغاربة • (٦)

وقد شهدت ولاية حسن آغا الثانية جلاء الاسبان عن عنابة في اواخر سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م
ـ ان كانوا كثيرا من هجمات قبائل الشرق الجزائري ، واتراك قسنطينة • وكانت ولايته الاولى
شهدت جلاء الاسبان عن حصين في اواخر سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ، بعد تخريبهم لهـا (٧) •

ولم يطل عمر حسن آغا كثيرا بعد سلسلة الانتصارات التي احرزها ، اذ توفي على الارجح في
ر سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م (٨) •

(١) الكار عن حملة مستغانم / دوفرامون : المرجع السابق ص ٥٧١ روف : المرجع السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٨ •
(٢) روف : المرجع السابق ص ١٠٥
(٣) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٥٦ ، روف : المرجع السابق ص ١١٢
(٤) انظر عنه : ... : اسبانيا جزء ١ ص ٢٠٢ حاشية ٦
(٥) مارمول / المرجع السابق جزء ٣ ص ٢٤
(٦) بريمودا ي / المرجع السابق ص ٢٤٧ حاشية ١
(٧) روف / المرجع السابق ص ٣٥
(٨) هايدو / المرجع السابق ص ٦٨ ، وانظر حاشية ١

الولاية الاولى لحسن بن خيرالدين :
ـــ ٩٥١ـ٩٥٨هـ/١٥٤٤ـ١٥٥١م ـــ

عين حسن بن خيرالدين بيلربايا على رأس حكومة الجزائر في سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م خلفا لحسن آغا ، تلبيـة لرغبة والده ، وتقديرا لمجهود "آل بربروس" في مد النفوذ العثماني علـى افريقيـا .

ولما وصل الى الجزائر في ٢٩ ربيع الاول ٩٥١هـ / ٢٠ جوان ١٥٤٤م ، كان حاجي باشا يتولى الامور في الجزائر مؤقتا بعد حسن آغا ، قد تمكن من القضاء على ثورة الشيخ بوطريق ، قبائل نواحي مليانه ، الذي ثار في اعقاب موت حسن آغا ، وزحف بقوات كبيرة من القبائل للقضاء على الاتراك في الجزائر (١) فتفرغ البايلرباي الجديد لقضية تلمسان التي اشتد التنافس في عهده ، اولا بين الاسبان ، واتراك الجزائر العثمانيين ثم بين هؤلاء والاشراف السعديين .

الصراع الاسباني العثماني على تلمسان :

كان الاسبان كما تقدم حريصين على عدم استقرار الامور في تلمسان للاتراك العثمانيين ، ... امراء الزيانيين الموالين لهم . ولذلك كان السلطان محمدا بن عبد الله الذي استرجع الملك ... تلمسان من اخيه عبد الله ، كما تقدم ، ما لبث ان اطاح به اخوه الآخر احمد ، الذي كان يدعمه ... المنصور بن ابي غانم . وكان هذا الاخير قد صار مواليا للاسبان ، وربما تم هذا بدعم من ... ، مما جعل ابن خيرالدين لا يتأخر كثيرا عن المسير الى تلمسان لازاحة احمد وخالعه الحكم .

وقد تمكن في ربيع الثاني من سنة ٩٥٢هـ / جوان ١٥٤٥م من الدخول الى المدينة التي ... منها المنصور وابن اخته احمد واتباعهما متوجهين الى دبدو في شرق المغرب ، ومنها الى ... كان في وهران ، بعد فترة من الاسر في المدينة المغربية من قبل اميرها مولاي عمار (٢) اما ... حسن الاثر على العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر كما سنرى . ونصب حسن بن خيرالدين ... تلمسان آغا احمد العلوج ، المدعو المنتصر (MONTAREZ) وترك له عند عودته الى ... حامية تحميه . ولكن الاسبان تدخلوا من جديد في سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م لتقديم ... السلطان احمد المخلوع والمنصور ، وتحركت حملتهم نحو تلمسان ، وسار حسن بدوره ... الحيلولة دون تحقيق غرضهم ، الا انه اضطر في هذه الاثناء ان وصله نبأ وفاة والده ... الى الجزائر قبل ان يصطدم بالحملة الاسبانية التي تحركت في اتجاه تلمسان . واضطر ... ... والى حامية تلمسان العثمانية للانسحاب منها الى مستغانم ، مما سمح لاحمد وخاله ان ... ثانية الى تلمسان ، وان يسترجعا الملك فيها دون صعوبة (٣).

---

(١) ... انظر عن ثورة بوطريق : عابد ، المرجع السابق ص ٧٠ـ٧١
(٢) ... نفسه ، الصفحة ٧٤ ، والسلاوي : الاستقصا جزء ٤ ص ١٦٢
(٣) ... روث : المرجع السابق ، ص ١١٥ ، هامش ١ نقلا عن ب . موريليس : حوار عن حروب وهران ... نفسه ، ص ١١٦ ، وماروك : المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٤٨ـ ٢٥١ وعابد : المرجع ... السابق ص ٧٤ . وتاريخ حملة حسن بن خيرالدين هذه ليس متفقا عليه ، فبعضهم ... يجعل الحملة في سنة ١٥٤٦ وآخرون في سنة ١٥٤٧ وبعضهم في سنة ١٥٤٨ .

- حملة الاسبان الثانية على مستغانم : (٩٥٤هـ / ١٥٤٧م) :

حاول الاسبان استغلال ظروف حسن ابن خيرالدين المذكورة للقيام بمحاولة ثانية لانتزاع مدينة مستغانم من ايدى الاتراك ، ولكن حامية مستغانم التي انضمت اليها حامية تلمسان ، وبلغتها إمدادات من الجزائر استطاعت الصمود ، ووجد الاسبان صعوبة كبيرة في الانسحاب الى وهران كالمرة الاولى ، وتكبدوا خسائر كبيرة •

وكان من نتائج فشلهم الثاني امام مستغانم انحصارهم في وهران ، واكتفاؤهم بالدفاع عن نفسهم فقد كاد عقد من السنين تقريبا ، مما سمح لاتراك الجزائر ان ينهوا قضية تلمسان لصالحهم •

- نهاية حكم الزيانيين في تلمسان :

تقدم ان الزيانيين فقدوا استقلالهم في حكم مملكتهم التي ما انفكت تتقلص حتى باتت تكاد تكون مقصورة على مدينة تلمسان فقط ، وذلك منذ العقد الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادى ، واصبحوا اما تابعين للاسبان ، او لاتراك الجزائر العثمانيين ، واستمر وضعهم يتدهور باستمرار تمهيدا لزوالهم نهائيا عن المسرح السياسي •

وفي اعقاب الفشل الاسباني الاخير امام مستغانم ، تدخل حسن بن خيرالدين في تلمسان مرة اخرى ، ونصب سلطانا مواليا له[1] [2] وذهب احمد وخالد يطالبون عون الاسبان وعرب تلمسان لاستعادة الملك ، بدون جدوى[3]

- التدخل السعدى في تلمسان : (٩٥٧-٩٥٨هـ / ١٥٥٠-١٥٥١م) :

وفي الوقت الذى بدا فيه وكأن امر تلمسان قد خلص لاتراك الجزائر العثمانيين ، واستتب لهم ، اذا بالاشراف السعديين الذين قضوا على الدولة الوطاسية ، واستكملوا توحيد المغرب ، يوجهون انظارهم لضم تلمسان الى مملكتهم • وتمكنوا من احتلالها فعلا في سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، ولكن حسن بن خيرالدين تمكن من اجلائهم عنها في السنة التالية بعد صراع عنيف ، سنه ولديه بالتفصيل في الفصل الرابع ، وابعدوهم الى ماوراء نهر الملوية •

وازاء الاطماع السعدية من جهة ، والتدخلات الاسبانية من جهة اخرى ، قرر حسن بن خير الدين في سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م ان يكون حكم مدينة تلمسان بيد قائد تركي ، دون ان يكون الى جانبه سلطان زياني ، مهما كان ضعيفا ، وان يقيم فيها حامية تركية قوية • فوضع بقراره ذلك نهاية لحكم الاسرة الزيانية التي غدت منذ عدة عقود بلا قوة ولا شعبية •[4]

١) دوغرامون : المرجع السابق ص٧٥ وروف : المرجع السابق ص٢٢٠-٢٢٤
٢) نصب خلال سنة ١٥٤٨ السلطانين معدا في افرين ثم الحسن في اكتوبر ، وكلاهما من ابناء عبدالله ابن ... انظر : ... اسبانيا جزء ١ (المقدمة) ص٢٠٢ ...
٣) ... : اسبانيا جزء ١ ص٦٤٢-٢٤٤ •
٤) انظر عن نهايتها : المصدر السابق ص٥٩٩-٦٠٢ •

— صالح رايس يخلف حسن بن خير الدين :
٩٥٩–٩٦٣هـ / ١٥٥٢–١٥٥٦م

وفي اعقاب الصدام بين اتراك الجزائر العثمانيين واشراف المغرب السعديين ، استدعي حسن بن خير الدين الى استانبول للأسباب الاتي ذكرها في الفصل الرابع . وفي انتظار وصول البايلرباي الجديد استخلف حسن على الجزائر القائد صفا ، الذي قاد جيش الجزائر الى النصر على السعديين[1] . وكان البايلرباي الجديد هو صالح رايس . وهو من اصل مرسي ، ولد في الاسكندرية[2] ، وفور استلامه الحكم في الجزائر في ربيع الثاني سنة ٩٥٩هـ/افريل ١٥٥٢م ، عمل على تحسين علاقاته مع السعديين ، وتوصل الى اتفاق سلم معهم لم يدم طويلا كما سنرى مفصلا في فصل العلاقات السياسية الرابع . وبعد الاطمئنان من جهة السعديين قام بحملة الى توقرت وورقلة في الجنوب الجزائري لاخضاع امرائها الذين تمردوا على دفع الضريبة المعتادة ، ورافقه في تلك الحملة عبد العزيز امير بني عباس .

وقد تمكن صالح رايس من تثبيت نفوذه على المنطقتين ، واخذ العهود من اعيانها ، وامرهما بأداء الضريبة المفروضة لحكومة الجزائر . وحسب ما يبدو ، فان امراء توقرت ، وورقلة كانوا اوفياء للعهد ، خوفا من بطش الاتراك[3] .

ويضيف مارمول[4] ، بأن صالح رايس عاد من توقرت وورقلة بخمسة عشر جملا محملا بالذهب ، ولا عجب فقد كانت المدينتان مركزين تجاريين هامين للتجارة بين الجزائر وتونس في الشمال وبلاد السودان في الجنوب . ويظهر ان تحرك صالح رايس الى الجنوب لم يكن فقط من اجل الضريبة التي امتنع من ادائها امراء المدينتين المذكورتين ، ولكن ايضا من اجل استعادة السيطرة على الطريق التجاري الذي تتحكم فيه ورقلة وتوجهه اما الى تونس وطرابلس او الى الجزائر الشمالية .

وفي اثر رجوع صالح رايس وعبد العزيز ، امير بني عباس ، دب النزاع بينهما . لأن صالح رايس كان يريد اخضاع الزعامات المحلية اليه ، وهو امر لم يكن لينسجم مع طموح امير بني عباس على استقلاله ، فثار عليه . وحسب مارمول فان سبب النزاع هو الغنيمة التي عادا بها من الجنوب ، والتي شعر امير بني عباس انه لم يحصل على نصيبه العادل منها ، بالاضافة الى دسائس حسن قورصو ضد الامير المذكور ، الذي ابدى بطولة كبيرة في صد السعديين عن تلمسان ، فاقت بطولة حسن المذكور[5] .

وقد حصلت بين الطرفين عدة معارك قاد احداها صالح رايس بنفسه ، والاخرى ولده محمد والثالثة سنان رايس ، انتهت جميعها بانهزام الاتراك[6] مما جعل خطره يستفحل وشهرته تزداد ، واتباعه يكثرون . ومما زاد امره خطرا ، انه كان يقيم علاقات مع القوى المعادية للحكم التركي في الجزائر ، كالاسبان والسعديين ، تستهدف التعاون للقضاء على الحكم المذكور[7] .

١) هايدو : المرجع السابق ص ٨٢–٨٤ و م. ت. م : اسبانيا جزء ١ ص ٢٠٦ هامش ٥
٢) هايدو : نفس المرجع ص ٨٥
٣) نفسه : ص ٨٦–٨٨ و : Féraud: Les Beni-Djellab, in R.A., No. 136.
٤) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٤٢٥–٤٢٦
٥) (٦) نفسه : ٤٢٦–٤٢٧
٧) م. ت. م : اسبانيا جزء ٢ ص ٢٧٦ .

ولذلك فان صالح رايس توجه الى القضاء على القوى التي كان يسعى الى التحالف معهما
سبان وسعديين ، كما توجه الى انتزاع الثغر من امير كوكو احتفاظا بالتقليدي لامير بني عباس ، فبعد
عقد الصلح معه في سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م اشركه في حملته على المغرب في السنة التاليـــة (1) •
الحملة التي مكنته من تنصيب ابي حسون الوطاسي سلطانا على فاس في صفر ٩٦١هـ/ يناير
١٥٥ م ، ومن احتلال حجر بادس بشمال المغرب ، واعادة الامارة الى مولاي عمار في دبدو ،
تالي من مد النفوذ العثماني الى المغرب • وسنعود الى تفاصيل هذه الحملة في الفصـــــل
ـــــع •

تحرير بجايـة : (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) :

بعد ان وجه صالح رايس ضربته الى السعديين في المغرب ، فانه انصرف الى تحرير الشواطئ
زائرية من بقية القواعد الاسبانية • وذلك ليس فقط بهدف دحر الاسبان ، واخراجهم مـــن
راضي الاسلامية ، ولكن ايضا لدعم وحدة الجزائر ، بحرمان بعض الزعامات المحلية كبني عباس
الحون الذي كانوا يجدونه لدى اسبانيي بجاية ووهران ، او من المحتمل ان يجدوه عندهم ،
م يبدا للقضاء على مابقي من الزعامات المحليـة • وقد اخذت هذه في التناقص بعد ان اخضعهم
زيانيين في تلمسان وحوض حوضه العهد سلطان تنس في العقد السادس من القرن العاشر الهجري/
سادس عشر الميلادي ، الذي خلفه القائد سفا التركي (2) ، فقام بهذا الصدد باعلان الجهـاد
ريربجايـة ، فتجمعت لديه قوات كثيرة من المجاهدين الجزائريين الى جانب القوات التركيـة
وثمانيـة ، وتمكن من تحريرها في ١٢ ذي القعدة ٩٦٢هـ/ ٢٨/ ٩/ ١٥٥٥م ، بعـد ان
ستسلمت حاميتها له •

ويظهـر من خلال الوثائق الاسبانية انها كانت حامية صغيرة تتالف من (٥٠٠) جنـدى
وخباز موزعين على ثلاثة حصون (3) وقد كان تحرير بجاية بعد نحو (٤٦) سنة من الاحتـلال
الاسباني ، كانت كافية لتفقدها كل اهميتها السياسية والثقافية والاقتصادية لفترة طويلة •

ـ الحملة على وهران : (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م) :

اخذ صالح رايس فور رجوعه من بجاية في الاعداد لحملة كبيرة على وهران والمرسى الكبير
وارسل في طلب العون من الدولة العثمانية ، وجاءه المدد المطلوب (4) وكان على اهبة التحرك حين
وافاه اجله في شعبان سنة ٩٦٣هـ/ حوان ١٥٥٦م ، بعد اربع وعشرين ساعة فقط من اصابتـه
بوباء الطاعـون (5) ، فاكمل حسن قورصو الذى انتخبه الانكشاريون خليفة له ، تسيير الحملة •

(1) ... المرجع السابق ص ٩٠ (لم يشترك اميرهم القاضي شخصيا في الحملة وانما شاركت
قواته فقـ ـ ـط) •
(2) نفسه ص ٨٤ •
(3) نفسه : ص ٩٢ـ٩٥ ، ومارمول المرجع السابق جزء ٢ ص ٤١٨ ، بريمودا ى : المرجع السابق
ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ •
(4) حسب هايدو : كان المدد يتالف من (٤٠) غاليرة (سفينة حربية كبيرة) و (٦٠٠٠) من
الجند الترك ، انظر ملوك الجزائر : ص ٩٦
(5) نفسه : ص ٩٦ـ٩٧ ، وهو الوباء الذى قضى على كثير من العلماء ايضا •

ما كاد يحكم الحصار على وهران حتى جاءته الاوامر من السلطان العثماني بالانسحاب وعودة
الاسطول العثماني ، وذلك فيما يبدو لعدم الاطمئنان الى قيادة حسن قورصو من جهة ، ولأن
... دوريا قد توجه الى الحوض الشرقي من جهة اخرى ، مما يتطلب وجود الاسطول العثماني
... لصد هجماته . وقد يكون السلطان العثماني قد خشي ايضا من اصابة جيشه بالوباء الذي
... منتشرا في الجزائر[1]

وهكذا انجت وهران ومرساها الكبير من خطر حقيقي ، وكانت هذه اهم محاولة لتحرير
... ان في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ،
وكانت المحاولات الاخرى الجديدة ، ومنها محاولة حسن بن خيرالدين في سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م
... صغرى تفتقر الى دعم الاسطول العثماني من جهة الجنوب .

ومما تقدم يتضح ان جهود صالح رايس في المجال الداخلي كانت ترمي الى توطيد الحكم
العثماني بالقضاء على الزعامات المحلية ، او اخضاعها الى سلطاته ، واستكمال تحرير الشواطئ
الجزائرية ، ومن ثم تحقيق الوحدة السياسية للجزائر .

اما في المجال الخارجي فكانت جهوده موجهة الى مد النفوذ العثماني الى المغرب ، واستغلال
... المتاحة للتدخل في هذا الاخير .

... اضطراب الحكم في الجزائر بعد موت صالح رايس :

ما كاد حسن قورصو يعود من وهران الى الجزائر حتى وصل محمد تاكرلي الباليرباي الجديد ،
... عين لخلافة صالح رايس ، فلم يبدأ استقباله وتسليم السلطة له . ولكن محمدا تاكرلي الذي قدر
... الرجوع عدل عن ذلك ، ونجح في استمالة طائفة الرياس (رجال البحر) ، وكانت بين هذه
الطائفة والجند الانكشاري الذي كان ينتمي اليه حسن قورصو خلاف جعلها لا تتحمس لتأييد
... الاخير . وعن طريق الطائفة دخل تاكرلي الى المدينة وتمكن من استلام السلطة والقبض على
... حسن قورصو وعلى كبار انصاره ، وقتلهم ، وذلك في اواخر ذي القعدة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٦م ،
... بقية اتباعه يتحينون الفرصة للتخلص منه ، وبعد بضعة اشهر فقط تمكن يوسف قائد تلمسان
... وقتله وانتخبته الانكشارية حاكما . الا ان حكمه لم يستمر الا ستة ايام ، حيث مات بالطاعون
... الاختيار بعده على القائد يحيى الذي عمل على اعادة الهدوء الى المدينة[2] .

وقد كان الاضطراب الذي شهدته مدينة الجزائر فرصة ذهبية للسعديين والاسبان للتدخل
... المغرب الجزائري ، وتحقيق اطماعهم ، فأقدم السعديون على احتلال تلمسان في شعبان ٩٦٤هـ /
... ان ١٥٥٧م ، ثم انسحبوا منها بعد حين للسبب الذي ذكره ، في حين ذهب ... الكوند ...
... من وهران الى اسبانيا لاحضار القوات اللازمة لاحتلال مستغانم .

(1) انظر عن الاسباب : هايدو : نفس المرجع السابق ص ٩٩ ، ومارمول : المرجع السابق ص ٣٦٦
(2) انظر عن هذه الاضطرابات : هايدو : نفس المرجع ص ٩٩ـ١١٢ ، وبريمودای : المرجع
السابق ص ٢٧٥ـ٢٧٨ .

- الولاية الثانية لحسن بن خيرالدين :
(٤) ٩٦٤هـ - ٩٦٨هـ / ١٥٥٧ - ١٥٦١م)

قبل ان يعود د الكوديت من اسبانيا ويتمكن السعديون من اخضاع العامية الترنية فسي تلمسان ، وصل حسن بن خيرالدين الذي عين المرة الثانية على رأس حكومة الجزائر ، الى مدينة الجزائر ، واستلم الحكم فيها دون اى معارضة في شعبان سنة ٩٦٤هـ / يوان ١٥٥٧م . ثم سرع الى تلمسان لاسترجاعها ولفك الحصار عن حاميتها ، ولم ينتظر السعديون وصوله لانسحا ب من المدينة . ولكن حسن بن خيرالدين لم يكتف بذلك ، فأرسل من يغتال السلطان السعدى محمدا الشيخ ، ويأتيه برأسه . فكان له ما اراد في شهر ذى الحجة ٩٦٤هـ / اكتوبر ١٥٥٧م . ثم اقدم على شن هجوم على المغرب لاحتلال فاس ، الا ان هجومه باء بالفشل ، وسنعود الى هذه الاحداث بالتفصيل في الفصل الرابع . وقد عاد من المغرب وهو لاهف منهم عن طريق البحر ، واستعد لحملة د الكوديت التي استهدفت مستغانم المرة الثالثة .

- حملة د الكوديت الثالثة على مستغانم :
ذو القعدة ٩٦٥هـ / اوت ١٥٥٨م

فاتت د الكوديت فرصة التدخل في مستغانم او في الجزائر ، حين كان الوضع في هذه الاخيرة مضطربا قبل عودة حسن بن خيرالدين الى الجزائر ، وذلك لتأخر حصوله على القوة الكافية . فأراد ان يغتنم هزيمة ابن خيرالدين في المغرب ، في ربيع ٩٦٥هـ / افريل ١٥٥٨م ، فشن حملة كبيرة على مستغانم (١) في محاولة ثالثة لاحتلال هذه المدينة الهامة التي كان يتخذها الاتراك العثمانيون قاعدة لعملياتهم في الغرب الجزائرى ، وضد وهران على الخصوص . الا ان المحاولة الثالثة لم تكن افضل من سابقتيها ، بل هي اسوأ بكثير ، ذلك انه لم يتمكن من اقتحام المدينة قبل وصول الامدادات الكبيرة اليها من الجزائر وتلمسان ، الامر الذى جعله يأمر بعد وصول تلك الامدادات بالانسحاب ، وكان ذلك في فوضى واضطراب . وما كاد يصل الى قرية مازاغران المجاورة لمستغانم ، حتى وجد نفسه محاصرا من جميع الجهات ، ومضطرا الى القتال في فوضى واضطراب ، وفي اعياء وجوع وعطش ، فلقي مصرعه وقتل او اسر كل جيشه في ١٢ ذى القعدة سنة ٩٦٥هـ / ٢٦/ ٨/ ١٥٥٨م (٢) . ولم يبق احد ليوصل خبر الكارثة الى بقية الاسبان في وهران والمرسى الكبير

وكانت الفرصة مواتية لتحرير وهران والمرسى الكبير لو ان حسن بن خيرالدين اقدم على السير اليهما مباشرة من مستغانم ، اذ لم يبق فيهما غير الحرس والنساء والاطفال والعجزة ، ولكنه لم يغتنمها ، وذلك فيما يبدو راجع لعدد الاسرى الكبير الذى قدر بنحو (١٢٠٠٠) ، وربما لنقص المدفعية ايضا لاقتحام اسوار وهران الحصينة .

(١) كانت تتألف حسب هايدو من اكثر من (١٢٠٠٠) جندى ، انظر ملوك الجزائر ص ١١٧ - ١١٩ .

(٢) روفد ، المرجع السابق ص ١٦٢ .

- موقف حسن بن خير الدين من امير بني عباس :

لم يهتم حسن بن خير الدين بجيرانه السعديين ، وبالاعداء الاسبان فحسب ، بل سعى للقضاء على الزعامات المحلية المتمردة ، او استمالتها ، ومن هؤلاء : امير بني عباس ، وامير كوكو .

وقد اصبح عبد العزيز امير بني عباس يشكل خطرا كبيرا على العثمانيين ، اذ لم يكتف برفض الخضوع لهم ، وانما كان يقوم ايضا بمهاجمة المناطق الخاضعة لسيطرتهم ، ويهددهم في بجاية ، كما يهدد مواصلاتهم مع قسنطينة ، ويظهر استعدادا للتعاون مع السعديين . ومما كان يزيد من قلق حكام الجزائر ، ان قوته العسكرية كانت في تزايد مستمر ، بما كان يضمه الى صفوفه من الاسبان الهاربين من سجون اتراك الجزائر ، ومن مسلمة النصارى[1] ، الامر الذي جعل حسن يقرر محاربته ، فجهز لهذا الغرض حملتين[2] الاولى ، في سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م ، وفيها اهتم على الخصوص ببناء بعض الابراج في المناطق المجاورة لمقر عبد العزيز كبرج مجانه وبرج زمورة ، بغية محاصرته في قلعته ، وتوفير الامن لحرب سهول مجانة وغيرها ، وتأمين طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة . الا انه ما كاد يعود الى مدينة الجزائر حتى هجم عبد العزيز على الابراج والحاميات التركية فيهما فأبادها واستأصل شأفة من فيهما .

وقبل ان يقوم حسن بحملته الثانية حاول استمالة امير بني عباس عن طريق المصاهرة ، ولكن عبد العزيز رفض ان يزوجه من ابنته ، وحينئذ مال الى ابن القاضي امير كوكو ، وتزوج من ابنته واشركه معه في الحملة على خصمهما المشترك . وبعد معارك عنيفة شديدة ، كان النصر بها الى عبد العزيز ، ثم قتل ، واستلم القيادة اخوه " امقران " ، واستمر في المقاومة ، الامر الذي جعل ابن خير الدين ينسحب بعد ثمانية ايام من القتال دون ان يحقق انتصارا حاسما وكان ذلك اثر وصول انباء بتحرك السلطان السعدي الى تلمسان ، وتحرك حملة مسيحية ضخمة مؤلفة من الاسبان وحلفائهم الى طرابلس الغرب تستهدف القضاء على الوجود العثماني في الحوض الغربي المتوسط ، بعد قطع طريق الامدادات عن الاتراك العثمانيين فيه . وهي الحملة التي تحطمت في جربة سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م[3] امام الاسطول العثماني ، فنجت بذلك الجزائر من خطر جسيم ، كما انسحب السعديون في اعقاب ذلك من تلمسان دون قتال . ولكن امير بني عباس الجديد بقي محتفظا باستقلاله ، ونفوذه ، ليس فقط على منطقته ، ولكن ايضا على المناطق المجاورة لها من جهة الجنوب والشرق ، ومستعدا للاقتراب من خصومه الاتراك[4] .

ويذهب عايد والى ان حسن بن خير الدين اعترف بامير بني عباس اميرا تابعا دون ان يكون مجبرا على دفع الضريبة له ، وان هذا الاخير اقام معه تحالفا دفاعيا وهجوميا[5] .

---

(١) عايد و : المرجع السابق ص ١١٩
(٢) نفسه ، وهو لا يتحدث الا عن حملة واحدة في سنة ١٥٥٩ في حين يتحدث مارمول عن اثنتين ، انظر افريقيا جزء ٢ ص ٤٢٨
(٣) مارمول : نفس المصدر ص ٥٥٢-٥٦٠
(٤) نفسه : جزء ٢ ص ٤٢٧-٤٣٠
(٥) عايد و : المرجع السابق ص ١٢٠ .

وكان حسن بن خير الدين قد اتخذ بعد حملته على السعديين في المغرب ، حين القى قادة الجند الانكشاري عليه القبض وارسلوه مقيدا الى استانبول في ذي القعدة ٩٦٨هـ/ جويلية ١٥٦١ ، بدعوى انه كان يتقرب كثيرا من القبائل ويريد الاعتماد عليهم تمهيدا للاستقلال عن الدولة . (١)

وهذا الموقف من الجند الانكشاري ، وقادته يدل على تزايد خطرهم على حكام الجزائر هذا الخطر الذي ما انفك يكبر ، كما سنرى ليبلغ الذروة في نهاية المرحلة موضوع الدرس .

- الولاية الثالثة لحسن بن خير الدين :
٩٦٩-٩٧٤هـ / ١٥٦٢-١٥٦٧م

تمكن حسن بن خير الدين من تبرئة ذمته مما اتهمه به قادة الانكشارية . وبعد وفاة خلفه الباي لرباي احمد بعد بضعة اشهر ، عهد اليه بحكومة الجزائر للمرة الثالثة في شوال ٩٦٩هـ/ جوان ١٥٦٢م ، اي بعد نحو سنة فقط من غيابه عن الجزائر (٢) .

وقد وجه حسن بن خير الدين في ولايته الثالثة اهتمامه الى تحرير وهران ، والمرسى الكبير من الاسبان لتأكده مرارا ان لا امتداد على مستغانم ، وتلمسان ، وكل الغرب الجزائري ، ومدينة الجزائر نفسها ، طالما بقي الاسبان فيهما ، وان الاقدام على اية حملة على المغرب السعدي ، والاسبان في وهران ومرساها الكبير مغامرة كبيرة ، لأن خط الرجعة يكون مهددا بالقطع من قبلهم (٣) الا ان حملته عليهما في سنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م قد باءت بالاخفاق بعد حصار دام شهرين لاستبسال الاسبان في المقاومة حتى جاءهم مدد كبير من اسبانيا ، الامر الذي جعله يأمر برفع الحصار عنهما على مضض (٤) على امل القيام بمحاولة اخرى .

وكان رد الاسبان على هذه الحملة قيامهم في ذي القعدة ٩٧٠هـ/ جويلية ١٥٦٣م بحملة ضد حجر بادس الذي كان بيد الاتراك العثمانيين منذ ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م ، فانتهت حملتهم الاولى بالفشل ، ولكنهم اعادوا الكرة في السنة التالية وتمكنوا من احتلاله في ٢٨ محرم ٩٧٢هـ/ ٦ سبتمبر ١٥٦٤م (٥) .

وبينما كان يريد حسن بن خير الدين التخلص نهائيا من الاسبان في وهران والمرسى الكبير وأعد لهذا الغرض الاسطول العثماني ، رأى السلطان سليمان البدء اولا باحتلال جزيرة مالطه التي كان فرسانها وقراصنتها يشكلون خطرا على المواصلات بين الجزائر والدولة العثمانية ،

(١) عابد . المرجع السابق ص ١٢٢
(٢) نفسه ص ١٢٥-١٢٦ .
(٣) كانت حملته على فاس في افريل ١٥٥٨ خشية ان يكون الاسبان قد قطعوا الطريق البحري على حسن من طريق البحر .. دوغرامون . المرجع السابق ص ٨٧
(٤) مارمول : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧١-٢٨٤ ، وعابد : المرجع السابق ص ١٢٨-١٢٩ (دام الحصار من ٣/ ٤ الى ٧/ ٦/ ١٥٦٣ .
(٥) [illegible] : فرنسا ج ١ ، ص ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ويذكر صاحب تاريخ الدولة السعدية ان احتلال بادس وحجرها كان بتواطؤ من عبد الله الغالب بالله ، انظر المجهول . تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية . الرباط 1934 ص 37 .

لى الاسطول العثماني لتحتشد في المضيق الواقع بين الحوضين الشرقي والغربي . فدعما سن ابتداء من سبتمبر ١٥٦٤ الاستعدادات المحطة عليها [١]. وكانت مشاركة الجزائر في الحملة ى مالطة في شوال ٩٧٢ - صفر ٩٧٣هـ / ماي وسبتمر ١٥٦٥م مشاركة فعالة بقيادته [٢] ، ولكن ن الفشل كان مصير هذه الحملة .

وقد قام حسن بن خيرالدين قبيل ذهابه للاسهام في حصار مالطة ، بتحسين علاقته مع د الله بن محمد الشيخ السعدي حتى يأمن هجومه على الغرب الجزائري في اثناء غيابه عن الجزائر ، حسن نبأ تحول الطرفين الى تحالف ضد الاسبان ، الأمر الذي دفع الملك فيليب الى ارسال ن - نزلات الى وهران [٣]

وكافأة من السلطان سليم بن سليمان لخدمات حسن بن خيرالدين التي قدمها للدولة نفسه بعد موت بياله باشا اميرالا للبحرية العثمانية في رجب ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م فغادر الجزائر نهائيا [٤] بعد ان كان قد ثبت الحكم العثماني فيه ، وخلف وراءه تنظيما اداريا لها ، ففي بعده تم تقسيم البلاد الجزائرية الى ثلاثة اقسام رئيسية ، كل قسم كان تحت اشراف باي ، ولذلك ان هذا القسم يدعى بايلك ، وهذه الاقسام او البيالك هي :

١- بايلك الغرب : وقد استحدثه اثر عودته من حصاره لوهران والمرسى الكبير ٩٧١هـ/١٥٦٣م جعل مقره في مدينة مازونة القديمة الداخلية الواقعة بين تنس ومستغانم ، وبفضل موقعها هذا نت غير مهددة من قبل الاسبان ، كما ان هذا الموقع كان يسمح للباي ان يقدم مساعدته على تال السرعة لكل من حاميات تنس ومستغانم وقلعة بني راشد وحتى الى تلمسان .

٢- بايلك الجنوب : وهو اقدم من الاول ، اذ استحدث في سنة ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م، نت قاعدته مدينة المدية الداخلية (٨٥ كلم جنوب مدينة الجزائر) ، وحده من الشمال سهل يجة ، ومن الشرق وطان بني سليمان ، وسور الغزلان ، ويمتد جنوبا الى اعماق الصحراء .

٣- بايلك الشرق : وكانت قاعدته مدينة قسنطينة ، ولا يعرف بالضبط متى استحدث ، ذلك ن مدينة قسنطينة ظلت موضع تنافس بين الاتراك العثمانيين في الجزائر والحفصيين في تونس ، الى ن خضعت نهائيا لنفوذ الجزائر ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م . وحسب احمد الحراجي [٥] فان اول باي قسنطينة هو : رمضان الذي تولى في حدود سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣-١٥٤٤م) ، وعليه فيكون هذا بايلك اول البيالك المستحدثة .

٤- وهناك قسم صغير رابع كان يمتد بين دلس شرقا ، وشرشال غربا ، وبين البحر شمالا والحدود لشمالية لبايلك الجنوب ، وكانت ادارته تحت الاشراف المباشر للبايلرباي وهو الذي كان يعرف دار السلطان .

---

١) (٢) كايد و : المرجع السابق ص ١٢٠ .
٣) . . . : انظر . . . ، انظلترا ، جزء ١ ص ٨٥ .
٤) كايد و : المرجع السابق ، ص ١٢١ ، ميرسي : المرجع السابق ، جزء ٣ ص ١٠١ .
٥) انظر محمد المهدي : ام الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ قسنطينة) ، قسنطينة ١٩٨٠ ، ص ١٥٢ ، وهو ينقل عن الكبيري : مفتاح السفينة في بحر قسنطينة .

وقد كان كل بايلك يشتمل على عدد من الاوطان ، وكل وطن على عدة قرى وقبائل . وكان حكم الوطن يسند عادة الى تركي او كرغلي ، والحكم في القرى والقبائل لشيوخ من اهلها .

والقبائل حسب علاقتها بالسلطة ثلاثة انواع :

١ـ قبائل مخزنية متعاونة مع الدولة المركزية تساعدها وتحفظ الامن وجمع الضرائب .

٢ـ وقبائل الدايرة وكانت هذه تمد الدولة بعونها المادي والبشري عند الحاجة ، وكان الموجود منها معفيا من اداء الضرائب مقابل خدماته .

٣ـ قبائل الرعية ، وهي التي كانت تدفع الضرائب ، ولا تتمتع بأي اعفاء .

وهناك عدد من رؤساء القبائل والاسر الكبيرة ، كبني القاضي ، وبني عباس ، وبني جلاب وغيرهم ، ظلوا يحتفظون بنفوذهم مع التبعية للاتراك العثمانيين .(1)

وقد انشأ حسن بن خيرالدين كذلك ، مجموعة من الابراج والحصون في مدينة الجزائر والمقاطعات ، اهمها : البرج الذي يحمل اسمه في مدينة الجزائر والذي بناه في سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م في الموقع الذي خيم فيه الامبراطور شارلكان لدى حملته على الجزائر ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ، ولهذا كان يحمل ايضا اسم برج الامبراطور ، وقد كان هذا البرج صغيرا ثم وسعه حسن فنزيانو سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م وهو لا يبعد عن مدينة الجزائر الا بنحو ١٧٠٠ خطوة نحو الجنوب (2) ومن مبانيه برج زمورة وغيرهما .(3)

ومدينة للاندلسيين في القليعة (٣٠كلم غربي الجزائر) سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م كان يسكنها الشرفون (٣٠٠) عائلة من مختلف نواحي الاندلس .(4)

وبنى مستشفى في مدينة الجزائر (5) وحماما كبيرا فيها ايضا (6) . وساهم في بناء مرسى مدينة الجزائر (7) ، وغيرها كثير .(8)

محمد بن صالح رايس ، خليفة حسن بن خيرالدين :
٩٧٥ـ٩٧٦هـ / ١٥٦٧ـ١٥٦٨م

استلم محمد بن صالح رايس الحكم في الجزائر خلفا لحسن بن خيرالدين في رجب ٩٧٤هـ/ جانفي ١٥٦٧م . ولم يكن غريبا عن الجزائر ، فقد كان فيها في عهد والده ، وساهم في الحملات الحربية في عهده كتابع وقائد ، اذ كرمها قيادته حملة لاخضاع امير بني عباس في ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م ، ولكن حملته تلك باءت بالفشل .(9)

(1) انظر عن التنظيم الاداري عموما في عهد البايلربايات ، الفصل الثامن من كتاب تاريخ افريقية الشمالية لمرسيي ، جزء ٣ ص ٢٨ وما يليها .
(2) هايدو ، الطوبوغرافيا في المرجع السابق ، عدد ٨٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٠ .
(3) مارمول ، افريقيا ، جزء ٢ ص ٤٢١ـ٤٢٢ ، بناه لدى حملته ضد امير بني عباس سنة ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م .
(4) نفسه ، ص ٣٦٩ .
(5) كان يتكون من ٦ ابنية ارضي وعلوي فيه ٥ حجر غرف فقط ، انظر هايدو الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٨ ص ١٠ .
(6) انظر وصفا شاملا في هايدو في نفس المصدر السابق ، عدد ٨٩ ص ٣٨٤ـ٣٨٥ .
(7) ميرسيي ، المرجع السابق ، جزء ٣ ص ١٤٥ .
(8) بناه لشقيق امير بني عباس الذي والاه الاجل في الجزائر ، انظر هايدو والطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٦١ .
(9) مارمول ، المرجع السابق جزء ٢ ص ٤٢٧ .

- أ : اهم انجازاته على الصعيد الداخلي في ولايته فهي :

١- حل الخلاف المزمن الذي كان بين رياس البحر او طائفة الرياس والانكشاريين ، بتوصله الى التوفيق بينهم ، بحيث يقبل رياس البحر يسمحون للانكشاريين بالمساهمة معهم في عمليات الغزو البحري ، حتى يحصلوا على نصيب من الغنائم ، وقد كانوا يرفضون ان يشركوهم معهم . وفي مقابل ذلك فتح ابواب الدخول الى صفوف الانكشارية (او الجيش البري) لكل من يرغب في ذلك من رياس البحر الاتراك ، ومسلمة النصارى[1] الا ان الخلاف لم يزل تماما لأن رياس البحر ظلوا يحرصون على ألا يشاركهم الانكشارية في عمليات الغزو البحري بل سيشتد اكثر في الفترة مابعد ولاية محمد بن صالح رايس .

٢- تعزيزه للقدرة الدفاعية لمدينة الجزائر ، بانشاء برجين آخرين اتم انجاز احدهما في عهده واكمل الآخر خلفه العلج علي[2].

٣- قمعه لثورة قام بها اهالي مدينة قسنطينه بشدة في سنة ٩٧٦هـ/ مارس ١٥٦٨م مما[3] جعل السلطان العثماني الذي تلقى شكاوى منه من اهالي المدينة يعزله ويعين بدله العلج عليا .

٤- انشاؤه لحمام آخر في مدينة الجزائر على غرار حمام حسن بن خيرالدين[4]

واما اهم حدث وقع في عهده على صعيد العلاقات الخارجية ، فمحاولة خوان غاسكون (Juan Gascon) الاسباني الفاشلة لاحراق السفن الجزائرية واطلاق سراح الاسرى المسيحيين في اواسط عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م احتلال المدينة واحتلالها بمساعدتهم . ويبدو انه كان على صلة بالأسرى النصارى وكان عددهم كبيرا في الجزائر .

وقد حاول الفرار ببعض الاسرى بعد فشل محاولته ، ولكن بحارة الجزائر القوا عليه القبض في عرض البحر ، وقضي عليه تحت التعذيب[5].

- عهد العلج علي[6]: (٩٧٥-٩٩٥هـ/ ١٥٦٨-١٥٨٧م) :

هو واحد من الاعلاج الذين استطاعوا بعد اسلامهم ان يرتقوا الى اعلى المراتب في الدولة العثمانية بفضل نشاطهم وهمتهم . عين بايلرباي على الجزائر في رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨م خلفا لمحمد بن صالح رايس في اعقاب اخماد هذا الاخير لثورة قسنطينه وحله للخلاف الذي كان قائما بين الانكشارية والبحرية كما مر ، ولذلك فان العلج عليا صرف اكثر اهتمامه الى توسيع النفوذ العثماني في الحوض الغربي للمتوسط ، فسعى الى ضم تونس ، ومساعدة ثورة الاندلسيين

(١) هايدو ، ملوك الجزائر ، ص ١٢٣-١٢٥ .
(٢) انظر عنهما : هايدو ، الطوبوغرافيا ، في المجلة الافريقية عدد ٨٣ ص ٤٢٥-٤٢٨ .
(٣) هايدو ، ملوك الجزائر ، ص ١٢٤-١٢٥
(٤) هايدو ، الطوبوغرافيا : عدد ٨٩ ، ص ٢٨٦ وما يليها
(٥) بيار فلنسي : انظر عن مغامرته : دوغرامون ، المرجع السابق ص ١٠١-١٠٢
(٦) هايدو ، ملوك الجزائر ، ص ١٢٦ وما يليها .

وقد اعد العلج علي حملة كبيرة ، كان ينوي توجيهها في الواقع لتحرير وهران ، في الوقت الذي كانت ستندلع فيه ثورة عارمة في الاندلس ، اعد لها بالتنسيق مع الجزائر ، فينشغل الاسبان عن تقديم العون لوهران ، ويحقق الاندلسيون بعون الجزائر ما يبغونه من حرية واستقلال . الا ان الاسبان اكتشفوا امر الثورة قبل قيامها ، وتنبهوا الى ما عزم عليه العلج علي ، فاتخذوا احتياطاتهم . ومن ثم تأخر اندلاع الثورة قليلا ، وحول العلج علي اتجاه حملته من وهران في الغرب الى تونس في الشرق .

ـ ضم تونس : ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م

كانت تونس كما اوضحنا ذات اهمية حيوية بالنسبة لتأمين الوجود العثماني في الحوض الغربي للمتوسط ، ولذلك كان احتلالها دوما نصب اعين حكام الجزائر منذ عهد خير الدين ، وكما اغتنم هذا الاخير اوضاعها السيئة لشن حملة عليها في سنة ١٥٣٤ ، اغتنم العلج علي الاوضاع المتردية فيها في عهد السلطان حميدة بن الحسن الحفصي والدعوة التي تلقاها من بعض الناقمين على الوضع من اعيان تونس ، من الاتها كأبي الطيب الخضار وغيره [1] وانشغال الاسبان بثورة الاندلسيين التي اندلعت في شعبان ٩٧٦هـ / جانفي ١٥٦٩م ، فشن حملة برية على تونس في جمادى الاولى ٩٧٧هـ / اكتوبر ١٥٦٩م وتمكن من احتلالها في رجب / ديسمبر من نفس العام ، بعد انتصاره على السلطان الحفصي المذكور في معركتي باجة وسيدي علي الحطاب ، وفرار هذا الاخير الى الاسبان ، طالبا عونهم لاسترجاع ملكه ، كما تمكن من اخضاع المدن الساحلية والمناطق الداخلية [2] ، وارسل في طلب الاسطول العثماني وقوات عثمانية كبيرة للقضاء على الحصن الاسباني القوي في حلق الوادي ، اذ بدون القضاء على هذا الحصن تظل تونس مهددة ويظل النفوذ العثماني فيها معرضا للمخاطر [3]

ولكن السلطان العثماني كان في حاجة الى الاسطول لفتح قبرص فلم يوجهه بالتالي الى البهة وعاد العلج علي الى الجزائر ، وتأخر الهجوم على حلق الوادي الى سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م كما سنرى واستخلف على تونس القائد رمضان مع حامية من الاتراك والزواويين ...

ـ مساعدته لثورة الاندلسيين :

(٤)

تدم العلج علي لثورة الاندلسيين التي اندلعت في الايام الاولى من سنة ١٥٦٩ م عون الجزائر المادي والبشري غير المحدود [5] . فارسل الاسطول الجزائري محملا بالمتطوعين والاسلحة والذخيرة ، رغم ان الفصل الذي اندلعت فيه الثورة كان غير مناسب للابحار ، وقد شتتت العاصفة اثنتين وثلاثين سفينة منه ، ولم تتمكن سوى ست سفن من تفريغ حمولتها ، مما حرم الثورة من مدد كبير .

(١)(٢) انظر عن اوضاع السلاطين : ابن ابي دينار : المؤنس ص ١٦٩ وما يليها ، وعايد ورد الملوك ص ١٤١

(٣) عزيز سامح : المرجع السابق ص ١٣٦ وهامش ١

(٤) انظر عن هذه الثورة : رسالة فوركوفو السفير الفرنسي في اسبانيا الى كاترين الميديتشية بتاريخ ٦ / ١ / ١٥٦٩ في مجلة تداول عدد ٧ ص ٩٠ ، وانظر محمد عبد الله عنان / نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص٣٦٦ ، ومقالة د . ابيان الصباغ : ثورة مسلمي الاندلس في مجلة الاصالة عدد ٢٧ الجزائر ١٩٧٥ .

(٥) عن العون الذي قدمته الجزائر للثورة : رسائل فوركوفو الى كاترين بتاريخ ٦ / ١ / و١٢ / ١ / ١٢ / ١٥٦٩ في مجلة تداول عدد / ٧ / . وعايد ورد ملوك الجزائر ص ١٣٩ـ١٤٠ امون : المرجع السابق ص ١٠٤ـ١٠٥ .

ولو ان المدد الجزائري لم ينقطع بعد ذلك عن الثوار رغم انشغال العلج علي في تونس ، وتشديد الاسبان الحراسة على شواطئهم للحيلولة دون وصول اية امدادات للثوار .

- ففي جمادى الاولى ٩٧٧هـ / اكتوبر ١٥٦٩ م ، ارسلت الجزائر نجدة اخرى للثائرين كانت تتألف من (٤٠٠٠) مقاتل ونحو (٥٠٠) من قدامى الانكشاريين قادة لهم .

- وفي ديسمبر من نفس العام تمكنت سفينتان جزائريتان من انزال الذخيرة والاسلحة للثـــوار .

الا ان انشغال العلج علي في تونس ، والسلطان العثماني في قبرص ، ثم انشغالهما معا بالاستعداد لصد حملة صليبية كبيرة اعدها الاسبان والبنادقة وحلفاؤهما قد حرم الاندلسيين من دعم حقيقي ، وان لم يفقد هـــؤلاء الامل في هذا الدعم [1] ، الا بعد ان تحطم الاسطول العثماني في ليبانتــو في جمادى الاولى ٩٧٩هـ / اكتوبر ١٥٧١ امام الحملة الصليبيــة المذكــورة .

- مشاركة الجزائر في معركة ليبانتــو :
١٧ جمادى الاولى ٩٧٩هـ / ٧ / ١٠ / ١٥٧١م

وقد كانت مشاركة الجزائر في معركة ليبانتو مشاركة ملحوظة ، وفيها برز بحارتها بقيادة العلج علي كاحسن ربان البحر ، وكانت السفن الحربية الجزائرية هي الوحيدة تقريبا التي نجت من الكارثــة التي لحقت الاسطول العثماني في هذه المعركة البحرية الهامة . [2]

وتقديرا من السلطان العثماني (سليم الثاني) لدور العلج علي في هذه المعركة ، وفضله في انقاذ ما تبقى من الاسطول العثماني ، اسند له مقاليد هذا الاسطول مع الاحتفاظ بمنصب بايلرباي الجزائــر ، وذلك في ٧ ذي القعدة ٩٧٩هـ / ٢٢ / ٣ / ١٥٧٢م [3]

وقد نجح العلج علي في اعادة بناء الاسطول العثماني في ظرف قصير ، مما فوت على المنتصرين الاستفادة من انتصارهم [4] . وقدم للدولة العثمانية خدمات جليلة من موقع منصبه الجديد ، الا انه لا يهمنا منها الا ما تعلق بالجزائر او ما جاورها ومنها :

١ - تحريضه للسلطان العثماني (سليم الثاني) على استرجاع تونس ، والقضاء على الحصن الاسباني في حلق الـــوادي .

وكان دون خوان قائد الحملة الصليبية التي انتصرت في ليبانتو ، قد احتل تونس في ٩٨١هـ/ ١٥٧٢م ، وانتزعها من ايدي العثمانيين ، وتقاسم الحكم فيها مع السلطان محمد بن الحسن الحفصي [5]

---

(١) انظر جواب السلطان العثماني سليم الثاني الى اعيان (مندجل) بالاندلس الذين طلبوا ارسال الاسطول العثماني ، وهو بتاريخ ١ صفر ٩٧٩هـ / ٢٥ / ٦ / ١٥٧١م في مهمة دفتري رقم ١٤ / ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) انظر عن الدور البارز للعلج علي في المعركة عابدو : المرجع السابق ص ١٤٧ .

(٣) مهمة دفتري رقم ١٦ ص ٥٧٦ ، وعابدو ، نفس المرجع ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(4) Braudel(F.):La Méditerranée et le Monde Mediterranéen. Paris 1936 t.2, P.P.395-396.

(٥) ابن ابي دينار / المؤنس ص ١٧٤ - ١٧٥ .

فوافق السلطان العثماني على تجهيز حملة ضخمة لتحرير تونس وحلق الوادى في سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م . وكان العلج علي هو قائد الاسطول ، وسنان باشا قائد الحملة . وقد نجحت هذه الحملة في تحقيق اهدافها ، حيث تمكنت من القضاء على الوجود الاسباني في جميع البلاد التونسية ، كما تمكنت من القضاء نهائيا على الدولة الحفصية . وبذلك خلص امر تونس للعثمانيين [1] وازداد اطمئنان الجزائر على مواصلاتها مع عاصمة الدولة العثمانية .

٢- تحريضه للسلطان العثماني (مراد الثالث) على ضم المغرب في ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م وقبل ذلك على التدخل فيه لصالح الامير السعدى عبد الملك ، الذى كان لاجئا عند الاتراك . وسنعود للحديث بالتفصيل عما تم عمله بهذا الصدد في الفصل الخامس .

وخلاصة القول ، فان العلج عليا كان احد اشهر البايلربايات ، وآخرهم ايضا ، اذ انه لما توفي في ٢٨ رجب ٩٩٥هـ / ٢٧/ ٦/ ١٥٨٧م ، انهى السلطان مراد الثالث العمل بنظام البايلرباى في الجزائر . واصبحت الجزائر مجرد باشاوية مثلها مثل تونس وطرابلس وغيرها من الباشاويات في الدولة العثمانية ، يحكمها باشا لمدة ثلاث سنوات او اقل ، كما سنرى عند الحديث عن سمات عهد الباشاوات .

وقد كان العلج علي ايضا احد ابرز القادة العثمانيين البحريين ، واشتهر كذلك بنبوغه . ومما يشهد على نبوغه انه فكر في فتح قناة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر (قناة السويس) . وباشر في العمل في عهد السلطان العثماني سليم الثاني ، ولكن هذا الاخير كان شحيحا فيما يبدو في الانفاق عليها ، فتأخر فتحها ثلاثة قرون [2] .

وقد تداول على خلافة العلج علي في الجزائر بعد استلامه مقاليد البحرية العثمانية خلال الفترة (٩٨٠-٩٩٥ هـ / ١٥٧٢-١٥٨٧م) عدة باشاوات ، كان لكل واحد منهم جهوده ونشاطاته المتميز .

ولذلك يمكن ان يعتبر عهد الباشاوات الفعلي قد بدأ من عام ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م بدل ٩٩٥هـ / ١٥٨٧م ، وهؤلاء الباشاوات هم :

أ- احمد باشا المصري [3] : (١٥٧٢-١٥٧٤م) :

عربي الاصل من اسكندرية مصر ، تولى على الجزائر [4] ، بعد الضربة القاضية التي تلقاها الاسطول العثماني في ليبانتو ، وما كان من تهديد دون جوان بحملة على شمال افريقيا فاهتم داوان عهده .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة ونجاحها في بريمودا ، المرجع السابق ص ٢٨٥-٢٩٨ وابن ابي دينار : المؤنس . ص ١٨٦ وما يليها .

(٢) د ونرامون : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) انظر عنه هايدو ، ملوك الجزائر ص ١٥٤-١٥٧ .

(٤) وصل الى الجزائر في ٦/ ٥/ ١٥٧٢ وصحبته عبد الملك السعدى : انظر : (م) مختصر اسبانيا جزء ٣ ص ١٨٤-١٨٥ .

اولا : باجراء المزيد من التحصينات في مدينة الجزائر تحسبا لهجومه ، فبنى لهذا الغرض عددا من الحصون والقلاع والأسوار ، ووسع الخندق المحيط بالمدينة ، ودعم الابواب وجدد ما زال من حول القصبة المباني التي كانت ملتصقة بسورها ، والبساتين القريبة منها حتى لا يتخذها العدو متاريس له .(1)

وثانيا : باخماد او اخضاع الثورات التي قامت هنا وهناك اغتناما منها للظروف الصعبة ،(2) وربما بتحريض من الاسبان تمهيدا لحملتهم التي وجهت اخيرا الى ترنس في جمادى الثانية 980هـ/ اكتوبر 1573م ، كثورة الفريق الموالي للحفصيين ، والمعارض للحكم العثماني في قسنطينة بزعامة عبد المومن شيخ الاسلام ، واولاد ساحله ، وذلك في سنة 980هـ/ 1572م ، وقد تمكن من القضاء عليها بقتل عبد المومن ، وتقوية الفريق الموالي للحكم العثماني فيها بزعامة عبد الكريم بن الفكون ،(3) وثورة امير بني عباس في السنة التالية 981هـ / 1573م التي لم يتمكن من القضاء عليها قضاء مبرما بالرغم من الحاق الهزيمة بزعيمها في معركتين .(4)

وثالثا : بالاحتياط لهجوم محتمل من قبل عبد الله بن محمد الشيخ السعدي على تلمسان .(5) بعد ان تمكن من اغتيال اخيه عبد المومن فيها .(6)

ورابعا : بالاستعداد للمشاركة في الحملات العثمانية لتحرير تونس وحلق الوادي سنة 982هـ/ 1574م .
وقد كانت علاقته مع الانكشاريين حسنة ، على العكس من علاقة الـ[illegible] علي بهم .(7) الا انه مات مقتولا في سنة 986هـ/ 1578م على يد زملائهم انكشاريي جزيرة قبرص حتى اصبح واليا عليها في سنة 985هـ/ 1577م بعد استدعائه من الجزائر ،(8) في سنة 982هـ/ 1574م .(9)

---

(1) انظر عن هذه المنشآت : هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق ، عدد 83 ص 419 .

(2) حاول ايضا ملك فرنسا اغتنام ظروف ما بعد ليبانتي ليطلب من السلطان العثماني اسناد حكومة الجزائر لاخيه انجو ، انظر ميرسي : المرجع السابق ج3 ص113 .

(3) اسندت المناصب الدينية التي كان يتولاها عبد المومن كامارة ركب الحج ، منذ العهد الحفصي ، وشيخ الاسلام له . انظر عن عبد الكريم هذا : منشور الهداية لحفيده عبد الكريم (مخطوط) .

(4) مهمة دفتري رقم 22 ص 317 ، حكم رقم 418 بتاريخ 13/ 4/ 981هـ

(5) كانت الجزائر قد حاولت عقب معركة ليبانتي عقد حلف مع عبد الله السعدي في سنة 1572م ، لكن سفيرها حاجي مراد لم يستقبل ، انظر الفصل الرابع .

(6) كان عبد المومن واخوته قد التجأوا الى الجزائر خوفا من بطش اخيهم عبد الله بهم منذ سنة 1559م ، اما اغتيال عبد المومن فكان قبيل فيفري 1572 . انظر اعلام عبد الملك للسلطان بوفاته في : مهمة دفتري رقم 18 ص 150 بتاريخ 27/ 9/ 979هـ .

(7) حسب هايدو : يكون الانكشاريون قد هددوا العلج علي بالقتل ، وانه ذهب من الجزائر كالهارب ، لما دعي للمشاركة في معركة ليبانتي ، انظر ملوك الجزائر ص 145 .

(8) حسب هايدو ايضا : فان الاهالي في الجزائر هم الذين طلبوا تبديله برمضان باشا . انظر ملوك الجزائر ص 159 ، وهامش 2

(9) هايدو : نفس المصدر السابق ص 157

٣ـ الولاية الأولى لرمضان باشا : (٩٨٢ـ٩٨٥هـ/ ١٥٧٤ـ١٥٧٧م)

تركي الأصل ، وقيل من جزيرة سردينيا ، [1] تولى الحكم في الجزائر بعد الباشا احمد السابق الذكر باعتباره خليفة لعلج علي الذي احتفظ بمنصب البايلرباي ، كما تقدمت الاشارة ، وقد سبق لرمضان باشا ان كلفه العلج علي حاكما على تونس بعد ان ضمها هذا الأخير الى الدولة العثمانية في ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م ، وساهم في استعادة تونس في سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م [2] وهو الذي قاد حملة في ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م على المغرب لتنصيب عبد الملك السعدي في فاس ، وكانت حملة ناجحة كما سنرى في الفصل الخامس ، وفي سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م نقل الى باشوية تونس ، ثم كلف بمهمة خاصة تتعلق بشؤون المغرب في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م ، ويرجأ الحديث عنها الى الفصل الخامس .

ويبدو انه عين للمرة الثانية على رأس حكومة الجزائر في سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م بعد جعفر كما الآتي ذكره ، ولكن الأجل لم يمهله فيها فنقل الى ولاية طرابلس سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م [3] .

٤ـ حسن فينزيانو (الولاية الأولى) [4] : ٩٨٥ـ٩٨٨هـ/ ١٥٧٧ـ١٥٨٠م

خلف رمضان باشا على رأس حكومة الجزائر ، وكان من المقربين للعلج علي ، وعلى يده اسلم ، ورقاه بسرعة الى خلافته في الجزائر .

كان في سياسته الداخلية ميالا ومناصرا لرجال الانكشارية ، ورجال البحر وعامة الناس فكانوا وأحبوا له رؤوسهم ، ثم انه اتخذ سلسلة من الاجراءات الاقتصادية في وقت كان يسود فيه ثالوث الجفاف والمجاعة والطاعون ، كالزيادة في الضرائب ، وفرض رسوم جديدة ، والتدخل في مختلف العمليات التجارية ، واحتكار التجارة في كثير من المواد ، فلم تزد هذه الاجراءات الا ان ضاق الجميع منه وشكوه الى السلطان العثماني (مراد الثالث) الذي استبدل بجعفر باشا بسبب في سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م [5] .

اما في علاقاته الخارجية ، فكان كسيده العلج علي يحبذ التدخل في المغرب واراد استغلال الخلاف بين عبد الملك في والده التدخل ضده ، ولكنه لم يحصل على موافقة السلطان العثماني .

في حين استطاع الفرنسيون ان يقيموا في عهده اول قنصلية لهم في الجزائر ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م وكان عرضوا من قبل من سبقوه ، وسمح للفرنسيين ايضا بصيد المرجان في الساحل الشرقي في السنة التالية ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م امتثالا لأوامر السلطان العثماني [6] .

(١) انظر هنا : هايدو / المرجع السابق ص ١٥٨ وما بعدها .
(٢) بريمودا : المرجع السابق ص ٢٩١ .
(٣) دوغرامون : المرجع السابق ص ١٢٠ــ١٢١ .
(٤) (٥) انظر هنا : هايدو ، المرجع السابق ص ١٦٨ــ١٨١ .
(٦) مهمة دفتري رقم / ٣٥/ ص ٢٢ بتاريخ ٢/ ٦/ ٩٨٦هـ وميرسي / المرجع السابق جزء ٢ ص ١٥٠ .

واما استعدادات فيليب الثاني الضخمة لغزو جارته البرتغال في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م اجرى حسن فينزيانو مزيدا من التحصينات في المدينة (١) خشية ان تكون تلك الحملة موجهة ضد الجزائر. اذ كان لايعلم وجهتها . وكان قد قام هو على رأس غزاة الجزائر بحملة بحرية على مايورقة والبليار وغيرها والشواطئ الاسبانية في صيف سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م ، وشجع غزاة الجزائر على الغزو البحري (٢)

وقد غادر الجزائر في شعبان ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٨٠م بعد وصول جعفر باشا ، في اثر الشكوى التي تقدم بها اهالي الجزائر ، وعندما الانكشارية ضده ، كما اسلفنا — الى اسطنبول العثمانيـــة .

د — جعفر باشا (٩٨٨—٩٩٠هـ/ ١٥٨٠—١٥٨٢م) :

اصله من المجر ، تقلب في مناصب عديدة قبل ان يعينه السلطان العثماني على رأس حكومة الجزائر التي اضطربت الاوضاع فيها . ولم يكن من المقربين من العلج علي ، كان حاكما عادلا يهتم بادارة شؤونها والذي كان في الجزائر حينئذ ، وكتبها ، ولد بنا (٣) ، وقد تمكن جعفر باشا من اعادة الامور الداخلية الى مجاريها ، وقضى على مؤامرة حاكها ضده قادة الجند الانكشارية .

اما سياسته الخارجية ، فتميزت بتشجيعه للتجارة في الجزائر مع الدول الاوروبية عن طريق دعوة التجار الاوروبيين ، والمسيحيين كان عندهم في الجزائر ان يكتبوا الى آخرين في اسبانيا ، وفي كل البلاد المسيحية للمجيء بكل حرية ، ووعد بان تكون معاملته حسنة (٤).

كما اتسمت سياسته بميله الى اقامة علاقات حسن جوار مع حكام المغرب ، ولذلك لم يتحمس لحملة العلج علي ضد مولاي . وكان هذا الاخير قد جاء الى الجزائر في ربيع الثاني ٩٨٩هـ/ ماي ١٥٨١م على رأس الاسطول العثماني بغية غزو المغرب ، وسنرى ذلك في الفصل الخامس ، ولذلك ما كاد العلج علي يعود من الجزائر الى استانبول حتى استدعي جعفر باشا ، واعيد حسن فينزيانو الى الجزائـــر .

— الولاية الثانية لحسن فينزيانو :
(٩٩١—٩٩٥هـ/ ١٥٨٣—١٥٨٧م)

اهتم في ولايته الثانية بتنشيط الغزو البحري على اوسع نطاق ، وشاركت العثمانية فيه (٥) ، وباستمرار تدفق بقايا مسلمي الاندلس وبروز عدد من غزاة الجزائر ، ابتعت شهرتهم الآفاق كمامي ارناؤوط ، ومراد رايس على سبيل المثال (٦) وقد وسع هذا الاخير من نشاطه ليشمل ايضا المحيط الاطلسي ، وبحار غربي اوروبا .

ولما توفي العلج علي في ٢١ رجب ٩٩٥هـ/ ٢٧/ ٦/ ١٥٨٧م دعي حسن لخلافته وقد اظهر في هذا المنصب مقدرة لاتقل عن مقدرة سلفه ، واحتفظ بالمنصب الجديد الى ان توفي في ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م .

(١) انظر عن هذه التحصينات : هايدو ، التحرير الصابق ص ١٧٧ والجوغرافيا ، عدد ٨٢ ، ص ٤٢٠—٤٢١
(٢) هايدو ، ملوك الجزائر ص ١٧٦ .
(٣) (٤) نفسه ، ص ١٨٢—١٨٦ .
(٥) نفسه ، ص ١٩١ .
(٦) انظر عنهما وعن نشاطهما ، هايدو / نفس المرجع ص ١٩٦ وما يليها .

الجـــزائـــر في عهد الباشـــاوات
٩٩٥–١٠٦٩هـ/ ١٥٨٧–١٦٥٩م

x=x=x=x=x=x=x=x=x=x

دأب المؤرخون الذين تناولوا العهد العثماني في الجزائر بالكتابة على تسمية الفترة الممتدة من سنة ١٥٨٧ الى ١٦٥٩ بعهد الباشاوات ، واعتبارها مرحلة متميزة عن الفترة السابقة المسماة بعهد البايلربايات ، فما هو مبرر هذه التسمية ، وما هي مميزات هذه المرحلة ؟ .

ادخلت الدولة العثمانية في اعقاب موت العلج علي في رجب ٩٩٥هـ / جوان ١٥٨٧م تعديلا على ادارة البلاد التابعة لها في غربي شمال افريقية ، فالغيت بيلربكية الجزائر التي ظل العلج علي يحتفظ بلقبها حتى وفاته ، وجعلت هذه الاخيرة مجرد باشوية مثلها مثل تونس وطرابلس وغيرها من الباشاويات التابعة للدولة العثمانية ، يديرها موظف برتبة باشا يعينه السلطان العثماني لمدة ثلاث سنوات ، وقد يعزله قبل انتهائها ، ولا اشراف لهذا الباشا على الباشويتين المجاورتين للجزائر كما كان الامر في عهد العلج علي .

وكان الهدف فيما يبدو من وراء هذا التعديل ، هو زيادة نفوذ السلطان العثماني في بلاد شمال افريقيا ، وتقوية ارتباط هذه الاخيرة به عن طريق تجزئتها الى ثلاث باشاويات مستقلة ، وتعيين حكام مؤقتين لها ، لاتسمح لهم فترة حكمهم القصيرة بالتفكير في الاستقلال من الدولة كما كان الامر في عهد البايلربايات الاقوياء .

الا ان هذا التعديل لم يحل دون اضعاف نفوذ السلاطين العثمانيين في شمال افريقيا ، وظهور ميول استقلالية فيها ، وذلك راجع الى ان الباشاوات الذين كانوا يرسلونهم لادارتها لم يستطيعوا المسك بزمام الامور فيها مسكا محكما ، وبالتالي فانهم لم يستطيعوا الحفاظ على نفوذ الباب العالي قويا . ويعود عجز الباشا واحجامه عن التحكم في زمام الامور في باشوية الجزائر الى ان الباشاوات الذين كانوا يعينون لادارتها ، لم يعرفوا بكفاءاتهم العسكرية او الادارية ، كما كانوا بدون سند محلي فيها يعتمدون عليه ، اذ كانوا غرباء عنها ، لم يولدوا ولم ينشأوا فيها ، ولم يلتفوا بعد حول زعامة من قبل الجند الانكشاري ، ورجال البحر الذين كانوا يرون فيهم مجرد موظفين مؤقتين لا اساس لهم في البلاد ، ولا تأثير لهم فيها . [(1)] في حين تمكن الانكشارية على الارض الجزائرية بتزاوجهم من السكان ، وانخراطهم في مختلف مصالحهم .

لقد كانت الدولة العثمانية حين كان الصراع بينها وبين الدول الاوربية في البحر المتوسط قويا خلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن السادس عشر ، تختار حكام الجزائر بعناية من بين الشخصيات القوية التي اظهرت كفاءتها في الحروب البرية والبحرية على الخصوص ، المعروفة لدى بعد الجزائر وسكانها ذلك ان البايلربايات كانوا معدوين لمساعدة الدولة في رسم سياستها في الحوض الغربي للمتوسط والاسهام في تنفيذ خططها فيه ، اما بعد ان خفت حدة الصراع في الربع الاخير من القرن المذكور ، ولاسيما بعد معركة ليبانتي سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وضم العثمانيين لتونس سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، ومالت الدولة الى الضعف ، وبسالمة اعدائها التداعي ، فلم يعد اختيارهم

(1) محمد خير فارس/ تاريخ الجزائر الحديث، دمشق / 1969 ص 59 – 60

لحكام الجزائر ((الباشاوات)) دقيقا ومؤقتا دائما ، حيث يحصل على الباشوية من كان غير معروف فيها ولا مشهود له بالكفاية عن طريق بذل المال[1] ، وابتداء للمقربين من السلطان على امل الحصول على اضعاف مابذلوا من باشوية الجزائر ، ولذلك كان الاهتمام بجمع المال احد الاهتمامات الرئيسية للباشاوات وربما صرف بعضهم كل اهتمامهم الى اشباع رغبتهم واهملوا الشؤون الاخرى ، الامر الذى اسقط هيبتهم واحترامهم ، لاسيما في نظر جند الجزائر وبحارتها .

ولما كان هؤلاء وأولئك متعودين على عدم الامتثال والخضوع الا لحكام اقوياء يفرضون عليهم طاعتهم فرضا ، ويفتقرون عدم احترامهم اقتراما ، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في منحدر قوتها ، يمنعها التدخل لردعهم ، فانهم مالبثوا ان اظهروا روحا تمردية تجاه الباشاوات الذين لا يحبون الباطرنايات ، واستقلالية تجاه السلاطين العثمانيين ، في وقت مالت فيه الدولة العثمانية نحو الضعف ، فقد حدث مرات عديدة في عهد الباشاوات ان رفض او اعترض الجند الانكشارى حينا ، والبحارة الغزاة حينا آخر ، او هما معا على اوامر السلطان العثماني ، او توجيهات الباشا ، وان اتخذ ديوان الجند او طائفة الرياس موقفا لا يتماشى مع رغبة هذا الاخير او مشيئة الباب العالي .

وهذه المواقف الرافضة او المعترضة كثيرة نذكر على سبيل المثال منها :

- رفض رجال الطائفة الامتثال لتوجيهات الباشا حسن بوريشة (١٠٠٧-١٠٠٩هـ / ١٥٩٨-١٦٠٠م) بعدم التعرض للسفن الفرنسية او السفن الحاملة للراية الفرنسية بسوء .

- رفض رجال الطائفة وديوان الجند معا التقيد بالاتفاقية التي ابرمتها الدولة العثمانية مع فرنسا في ١٠١٢هـ / ١٦٠٤م وحملهم هذه الاخيرة على ان توقع معهم اتفاقية حسب شروطهم هم في سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م .

- عدم الاستجابة لمساعي الدولة العثمانية الصلحية والتوفيقية بين الجزائر وفرنسا .

- الرفض المتكرر لرجال الطائفة الاسهام في الحملات والحملات التي كانت الدولة العثمانية تحددها مالم يستجب الباب العالي لشرط التعويض عن الخسائر التي تلحقهم نتيجة لمشاركتهم في حملاتها وانشغالهم عن الغزو البحرى الاعتيادى الذى تشكل مغانمهم فيه موردهم الرئيسي[2] .

ولما لم يجد الباب العالي التهديد ، فانه رضخ لشروط غزاة الجزائر ابتداء من سنة ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م ، حيث بعث في هذه السنة (١٦٠٠٠) سلطاني ذهبي لتشغيل رئيس الطائفة في مقابل اسهامه بست عشرة سفينة ، وبعث في سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م الى رياس الجزائر بستين الف سلطاني[3] وفي سنة ١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م بخمسين الف سلطاني ، وهكذا كان الباب العالي يبعث بالتعويضات سلفا ليضمن اسهام غزاة الجزائر في الاسطول العثماني .

كما حدث مرات عديدة ان اقدم ديوان الجند الانكشارى في الجزائر على تهديد مبعوث السلطان العثماني ومحاصرة باشا الجزائر في قصره او وضعه في السجن ان حاول مسايرتهم او عدا

(١) انظر ... عابد وغيره ظاهرة شراء الباشاوات لمناصبهم ، وما بعدها ، انظر تاريخ ملوك الجزائر ص ٢٠٢ ، ٢٢١ .

(٢) انظر عن المواقف الرافضة او المعترضة المذكورة : د وغرامون / المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠١ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٤ ، ٢٠٢ .

ـهم منه تذمير واو ماياءالقرنصب جهتهم • ومن هذه الحوادث نذكر :

ـ تهديد الديوان لمصطفى آغا قابجي مبعوث السلطان العثماني الى الجزائر في سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٤م وحصارهم لمحمد كوسه باشا الجزائر آنئذ في قصره لانه أسرع مع المبعوث المذكور على تنفيذ الاتفاقية التي ابرمتها الدولة العثمانية مع فرنسا في السنة المذكورة • وقد مات الباشا تحت تأثير انفعاله من الحصار •

ـ ثورة الانكشارية على الباشا يونس سنة ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م لميله الى مسالمة فرنسا ومنعهم قبل ذلك الباشا سليمان قطانيا سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م من الدخول الى ديوانهم لميله ايضا الى مسالمة فرنسا •

ـ ثورة الانكشارية على الباشا حسين في سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م لخلاف نشأ بين الطرفين حول دفع رواتب الجند من مال الباشا الذي كان يحصل عليه عن طريق الامتيازات التي كان يتمتع بها ، وزجهم به في السجن •

ـ ثورة الانكشارية على الباشا يوسف ابو الجمال في سنة ١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م واتهامهم اياه بالتسبب في اعقاب فشله في اخماد ثورة بلاد القبايل •

ـ ثورة طائفة الرياس على الباشا محمد بوريطا لي في سنة ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م لاتهامها اياه بالتآمر على رئيس الطائفة علي بتشنين وغيره من زعمائهم واضطرار الباشا الى الاحتماء بحرمة احدى الزوايا مع مبعوثي السلطان العثماني اللذين جاءا للتخلص من رئيس الطائفة لرفضه الاسهام في الحملة العثمانية على مالدالسية •

وان دلت كل المواقف المذكورة على شيء فانما تدل على ان نفوذ السلاطين العثمانيين (1) وممثليهم الباشاوات في الجزائر قد غدا ضعيفا الى حد كبير امام ديوان الانكشارية وطائفة الرياس • وأن الانكشارية والرياس غدوا يشعرون انهم في منأى من ان ينالهم عقاب الدولة لبعد الجزائر عن مركز الدولة ، ولكن ايضا لضعف هذه الدولة •

وقد نجم عن ضعف الباشاوات ، وعجزهم عن السيطرة على ديوان الجند الانكشاري ، وطائفة الرياس أو رجال البحر ، وتزايد نفوذ هاتين القوتين في الجزائر ، حصول فتن ، واضطرابات وثورات كثيرة في داخل مدينة الجزائر وخارجها نذكر منها :

١ـ ثورة بني عباس جنوبي بجاية في عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠ـ١٥٩١م في عهد خضر باشا ، وسيطرتهم على الطريق الرابط بين مدينتي الجزائر وقسنطينة شهر ونصف • الا ان الباشا المذكور نجح بعد شهرين من المناوشات مع الثائرين في اخماد ثورتهم ، واجبارهم

---

(1) انظر عنها ، دوغرامون ، المرجع السابق ص١٤٦ـ١٩٣ ، ومرسيي / المرجع السابق ج ٣ ص ١٨١ وما بعدها •

...س بالمسحب المستسلم (١)

٢- ثورتي الكراغلة في سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٦م و ١٠٤٢هـ / ١٦٣٣م : كان الكراغلة (٢)
...شعرون بالظلم ويحسون بالحيف لأن الاتراك الذين كانوا يخشون من تزايد عددهم ، ومن
...حتمال اقدامهم على انتزاع السلطة منهم بالتعاون مع اخوالهم الجزائريين ، كانوا يحولون بينهم
...ين المناصب العليا في الادارة والجيش (٣) ولذلك كانوا يتحينون الفرصة للثورة على الاتراك
...نتزاع حقوقهم في المساواة بآبائهم . وقاموا في سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م بأول ثورة لهم ، مستغلين
...نزاع الذي كان قائما بين الجند الانكشارية ، وخضر باشا ، واسفرت هذه الثورة التي سالت
...يها دماء كثيرة في مدينة الجزائر عن تخفيف الانكشاريين لغلوائهم . ولكن هؤلاء ماثبتوا ان انتقموا
...نهم ، وطاردوهم من المدينة . وفي سنة ١٠٤٢هـ / ١٦٣٣م قدر الكراغلة ان الظرف مناسب
...عودة اليها ، واشعال نار الثورة فيها بالتعاون مع سكانها من الاهالي ، لأن الاوضاع فيها
...انت مضطربة ، نتيجة طغيان الجند الانكشارية ، وتمرده على الباشا حسين (١٠٤٠ - ١٠٤٤هـ/
١٦٣١ - ١٦٣٤م) ، وعادوا الى مدينة الجزائر متنكرين في زي فلاحين . وفاجأوا الاتراك بثورتهم
...ي شهر يوليه ١٦٣٣م ، وحققوا في بادىء الامر بعض النجاح ، ولكن الاتراك فيها سرعان
...ا استعادوا زمام المبادرة وتمكنوا من القضاء على الثائرين بعنف شديد ، ولم يبق منهم الا من
...ر الى بلاد القبايل (٤) .

٣- ثورة بلاد القبايل التي استمرت تقريبا طوال عهد الباشاوات بحدة متفاوتة
وقد هددت هذه الثورة التي اندلعت في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / اواخر القرن السادس
عشر الميلادي ، بزعامة بني القاضي ، الحكم العثماني في الجزائر ، تهديدا قويا ، وخطيرا ، لأن
حملات هؤلاء ، وصلت مرات عديدة الى متيجة ، والى اسوار مدينة الجزائر نفسها . ولأن
الثائرين كانوا على صلة بالقوى الخارجية من اسبان وسعديين ، بهدف التعاون معهم ضد
اتراك الجزائر العثمانيين . وانحصرا لأن استمرار ثورة بلاد القبايل فترة طويلة ، واخفاق
حكام الجزائر العثمانيين في القضاء عليها بصفة نهائية قد شجع جهات اخرى في الشرق

---

(١) انظر عن ثورة بني عباس: هايدو : المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، ودوغرامون : المرجع السابق ص ١٢٩

- Féraud: Notice sur les MOKRANI, in Recueil de la société Archéologique de Constantine. 1871-1872 P.232 et suiv.

- Berbrugger: Epoques militaires de la Grande Kabylie. Alger 1847, P.101 et suiv.

(٢) الكراغلة هم ابناء الاتراك من الامهات الجزائريات .

(٣) يعتبر حسن بن خير الدين ، الذي تولى رئاسة حكومة الجزائر ثلاث مرات كما ذكرنا ، من انه من ام جزائرية استثناء لا يقاس عليه ، ومن المناصب العليا التي كان الكراغلة لا يرتقون اليها : منصب الآغا او رئيس البحرية الكبرى ، ومنصب الخزناجي او امين المال ووكيل الخرج ، وخوجة الخيل ..

(٤) انظر عن ثورتي الكراغلة : دوغرامون : المرجع السابق ص ١٤٠ ، ١٥٢ ، ميرسي / المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
وانظر بحث: Boyer(P.): Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger. 2e Congrès International et Nord Africain 1970, P.P. 79 - 94.

والحرب الجزائريين على الثورة ايضا على الاتراك العثمانيين (١).

٤ـ ثورة تلمسان : (في الفترة ١٠٣٥ـ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٦ـ١٦٢٨م) :

وقد كانت نتيجة تعسف الاتراك العثمانيين في المدينة ، وطغيان قائدهم محمد بن سورى فيها وربما كانت ايضا نتيجة تحريض من بعض القوى المغربية المجاورة لتلمسان ، وهو ما يوحي به اسم قائد الثورة المدعو السوسي المغربي ، ولم يدخر الاتراك جهدا لقمع هذه الثورة بشدة (٢).

٥ـ ثورة الشرق الجزائري : وقد اندلعت في سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م في اعقاب قتل مراد باي حاكم قسنطينة محمد بن الصخرى شيخ عرب الذواودة والحنانشة غدرا في سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م ، متهما اياه بالخروج عن الطاعة ، وقد تزعم الثورة احمد بن الصخرى ، وكان هدفه الانتقام من قتلة اخيه . وتضافرت ثورته مع ثورة قبائل شمالي قسنطينة وشرقيها التي تضررت تجارتها من جراء تخريب الاتراك العثمانيين في سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م للمراكز التجارية الفرنسية التي كانت تتعامل معها ، وتعاون الناقمون على الاتراك في الشرق الجزائري ، فالحقوا هزيمة كبيرة بهم في واقعة قجال ، وذلك في ٢٠/ ٩/ ١٦٣٨ ، تدهور في اثرها نفوذ العثمانيين في الشرق الجزائري تدهورا كبيرا ، اذ باءت المحاولات العديدة التي قام بها حكام الجزائر باستعادة نفوذهم وسيطرتهم عليه بالفشل . واخيرا استعان حاكم الجزائر يوسف باشا بنفوذ المرابطين والعلماء مثل محمد ساسي البوني . وابن مهدى عيسى الثعالبي لتهدئة الثورة في الشرق الجزائري ، وحمل الثائرين يقبلون بالعودة الى طاعة الحكم التركي العثماني . وتضافرت جهود هؤلاء مع تعب الثائرين ومع الخسائر والاضرار الكبيرة التي خلفها وباء الطاعون الذى استفحل في العقد السادس من القرن الحادى عشر الهجري / الخامس من القرن السابع عشر الميلادى على اعادة الهدوء الى القطاع الشرقي من الجزائر (٣).

٦ـ اضطرابات في مدينة الجزائر في سنة ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م ، وسببها ان غزاة الجزائر رفضوا الاسهام في حملة جديدة اعدها السلطان العثماني لانهم لم يحصلوا منه على تعويضات عن الخسائر التي لحقتهم في معركة فيلونه (VELONE) فأرسل مبعوثين للقضاء على زعمائهم ، وفي مقدمتهم

---

(١) انظر عن ثورة بني القاضي واتصالاتهم الخارجية : دوفراموند : المرجع السابق ص ١٤٠ وما يليها ، وميرسيي : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٧٠ وما يليها و :-
Boyor (P.): Espagne ot Kouko,los négociations (do 1598 a 1610) in R.O.M.M.,No. 8, 1970 P.P. 25 - 40.

(٢) انظر عن ثورة تلمسان : ابن المفتي : تاريخ باشاوات الجزائر في / المجلة الآسيوية عام ١٩٢٢ ص ٢٠٢ ، ومحمد بن سليمان / كعبة الطائفين في ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث لسعد الله . الجزائر ١٩٧٨ ، ودوفراموند : المرجع السابق ص ١٥٩ ، وميرسيي المرجع السابق ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٣) انظر عن هذه الثورة : Vayssettos:Rocueil. Constantino1867, P.P. 333 ot suiv.

ودوفراموند : المرجع السابق ص ١٨٤ ، ١٨٦ـ١٨٧ . ومقالة :
Boyor (P.):La politique roligiouse dos Turcs, in R.O.M.M.,No.1, 1966 P.34.

ومجلة الثقافة الجزائرية عدد ٥١ الجزائر ١٩٧٩ .

علي بتشنين، رئيس طائفة الرياس، فثار هؤلاء، واستولوا على السلطة في مدينة الجزائر، وحل رئيس الطائفة المذكور محل الباشا. ولكن الانكشارية مالبثوا ان ثاروا وطالبوه بدفع رواتبهم وأمهلوه فترة قصيرة لتدبير المال. ولما لم يكن لديه المال الكافي، ولا القوة الكافية لاخضاعهم، فقد آثر الفرار الى اصهاره بني القاضي في بلاد القبائل. فاضطربت الامور في المدينة. وكانت ستضطرب اكثر لولم يسرع السلطان العثماني الى تعيين باشا جديد، وارسال التعويضات لغزاة الجزائر، ويبدو ايضا انه كلف الباشا الجديد بالقضاء على رئيس الطائفة اذ مات هذا الاخير بعد فترة وجيزة من عودته الى الجزائر.

وهكذا كان عهد الباشاوات تميز بالاضطراب الشديد في مدينة الجزائر وخارجها، على ان اهم ماتميز به عهد الباشاوات ايضا هو تجدد الاطماع والتدخلات الخارجية في الجزائر، حيث تعرضت مدنها الساحلية وفي مقدمتها مدينة الجزائر العاصمة الى حملات اوربية عديدة: اسبانية وتوسكانية، وفرنسية، وانكليزية، وهولندية. اهمها الحملات التي وقعت في السنوات الآتية: (1)

١٠١٠هـ/ ١٦٠١م حملة اسبانية على الجزائر انتهت بالفشل.

١٠١١هـ/ ١٦٠٢م حملة اسبانية لاحتلال ((تامنفوست)) قرب آزفون بين الجزائر وبجاية.

١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م هجوم التوسكانيين على ميناء الجزائر.

١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م حملة توسكانية على عنابة. انتهت بتخريب المدينة.

١٠١٩هـ/ ١٦١٠م حملة توسكانية على برشك، وجيجل، انتهت بتخريب مدينة برشك.

١٠٢٠هـ/ ١٦١١م حملة اسبانية على جيجل، انتهت بالفشل.

١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م، ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م محاولتان فرنسيتان لاحتلال بعض المواقع على الشواطئ الشرقية الجزائر.

١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م حملة انكليزية على الجزائر، انتهت بالفشل.

١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م حملة هولندية على مدينة الجزائر، انتهت بحصول الهولنديين على اسراهم.

١٠٤٧هـ/ ١٦٢٧م حملة فرنسية على مدينة الجزائر انتهت بالفشل.

١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م حملة هولندية على الجزائر انتهت بتوقيع معاهدة سلام.

١٠٦٥هـ/ ١٦٥٥م حملة انكليزية على الجزائر، انتهت بتوقيع معاهدة سلام.

كما تعرضت حدودها الشرقية والغربية الى تحرشات وهجومات من حكام تونس والمغرب (2) في اعوام ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م، ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م (3)، ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م ـ ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م

وقام الاسبان في وهران والمرسى الكبير بتوسيع نطاق نفوذهم في الغرب الجزائري بمساعدة بعض قبائل بني عامر، وتمكنوا من احباط عدد من الهجومات والمحاولات التي قام بها ضدهم اتراك الجزائر وقبائل الغرب الجزائري الموالية لهم، خاصة في اعوام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م، ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م، ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م، ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م. (4)

---

(1) انظر عن هذه الحملات: دوغرامون: المرجع السابق.
(2) انظر عن النزاع بين الجزائر وتونس: ابن ابي دينار: المؤنس ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(3) السلاوي: الاستقصا، ج ٧ ص ٢٠-٢٧.
(4) انظر عن الحملات التركية العثمانية: دوغرامون: المرجع السابق ص ١٤٧، وابن مريم البستان ص ١٢٢، بالنسبة لحملة ١٥٩٩م.

وقد كانت بعض الحملات الاوربية المشار اليها ردا على الغزوات التي كان غزاة البحر الجزائريين يشنونها على السفن والشواطئ الاوربية ، تلك الغزوات التي توسع نطاقها فغدت لا تقتصر فقط على الحوض الغربي للمتوسط ، ولكنها تشمل ايضا المحيط الاطلسي من جزيرة ماديرا جنوبا الى جزيرة ايسلندة شمالا مرورا بالسواحل البرتغالية والانكليزية والايرلندية .

وقد اصبحت مجهودات الغزاة الجزائريين كثيفة ايضا ، اذ غدا الغزو البحري بالنسبة لسكان الجزائر على الخصوص عملا يمارسه او يساهم فيه الجميع بشكل او آخر لما يدره عليهم من مغانم وارباح . ومنيت الدول الاوربية من جراء النشاط الكثيف والواسع النطاق ، للغزاة الجزائريين بخسائر كبيرة ، وتذكر احدى الاحصائيات ، ان الغزاة الجزائريين تمكنوا خلال الفترة ١٠٢٢ـ ١٠٣٠هـ/ ١٦١٣ـ ١٦٢١م من اسر ٩٣٦ سفينة بمن وما فيها . وتكبدت فرنسا وحدها خلال الفترة ، ١٠٣٧ـ ١٠٤٤هـ/ ١٦٢٨ـ ١٦٣٤م خسارة ثمانين سفينة ، علما انها اقل الدول الاوربية خسارة ، وبلغ عدد الاسرى في الجزائر احيانا نحو ثلاثين الف اسير من مختلف الدول الاوربية ، كانوا يستعملون في التجذيف في السفن ، وفي اعمال وخدمات اخرى لاصحابهم (1).

ومن ابرز غزاة البحر الجزائريين في عهد الباشاوات : مراد رايس ، ومامي ارناؤوط ، وسليمان رايس ، وحسن ، وعلي بتشنين (2) . وهم في معظمهم من مسلمة النصارى ، او من البلاد الاوربية التابعة للدولة العثمانية .

وقد انعكس النشاط الكبير لهؤلاء الغزاة وغيرهم على العلاقات الجزائرية مع الدول الاوربية ، فتميزت بالعداء والتوتر مع معظم الدول الاوربية ، كاسبانيا والجمهوريات الايطالية وهولندة قبل ان تمضي اتفاقية السلام مع الجزائر في سنة ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م ، وانكلترا قبل ان تمضي هي الاخرى اتفاقية سلم مع الجزائر في سنة ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٥م .

اما مع فرنسا فتميزت بالتذبذب بين السلم والحرب ، كما كانت العلاقات بين الجزائر وتونس ، وبين الجزائر والمغرب ، الا ان السبب في تذبذب العلاقات الجزائرية مع البلدين الاخيرين ، لا يعود الى الغزو البحري ، ولكن الى تدخل البلدين في حدود الجزائر ومحاولة استغلال ظروف الحكام الاتراك الصعبة في الجزائر .

واخيرا فان عهد الباشاوات قد تميز ايضا بكثرة الاوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية التي اصابت الجزائر ، والحقت بها اضرارا فادحة ، ومن اهم المجاعات والاوبئة نذكر على سبيل المثال :

ـ وباء الطاعون الذي اجتاح الجزائر في عهد شعبان باشا (١٠٠٠ـ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٢ـ ١٥٩٥م) ، وهو الوباء المعروف بطاعون تونس لانتقاله من هذه الاخيرة الى الجزائر ، والطاعون الذي اجتاح الجزائر في الاعوام الاولى من القرن السابع عشر .

ـ والمجاعة الرهيبة التي عرفتها الجزائر عقب جفاف شديد في سنتي ١٠٢٠ـ ١٠٢١هـ/ ١٦١١ـ ١٦١٢م .

---

(1) اعطى هذه الاحصائيات : دوغرامون ، في المرجع السابق ، ص ١٢٨ـ ١٣٠ .
(2) انظر عن مراد رايس ، ومامي ارناؤوط : هايدو ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، ١٩٦ ، وعن الآخرين دوغرامون ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ وغيرها .
(3) ميرسيي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

- والوباء الكبير الذي ذهب ضحيته اكثر من خمسين الفا في سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢١م والذي تجدد في سنة ١٠٣٥ـ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦ـ١٦٢٧م .

- والطاعون الذي استمر بضع سنوات ١٠٤٩ـ١٠٥٢هـ / ١٦٣٩ـ١٦٤٢م ، وتجدد في سنة ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م واستمر حتى سنة ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م ، ثم تجدد في سنة ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م

وهكذا يمكن القول ان الجزائر في عهد الباشاوات يكاد الوباء فيها يكون مزمنا . وذلك لضعف دور الدولة في التخفيف منها ، ولجهل الناس بطرق الوقاية والعلاج . مما جعله يتجدد باستمراره وفي ازمنة متقاربة جدا .(1)

تلك كانت ابرز مميزات عهد الباشاوات . وتجدر الملاحظة الى ان عدد الباشاوات الذين تداولوا على كرسي باشوية الجزائر في الفترة : ٩٩٥ـ١٠٦٩هـ / ١٥٨٧ـ١٦٥٩م ليس معروفا على وجه الدقة . اذ ان هنالك اختلافات في عددهم وفي اسماء بعضهم ، وفترات حكمهم وفي تعاقبهم لدى من أرخوا او كتبوا حول هذه الفترة(2) على انه يمكن القول : بأن عددهم على وجه التقريب كان حوالي اربعين باشا ، منهم من اتم فترة ثلاث سنوات في الحكم ، ومنهم من مات ، او عزل ، او قتل ، قبل ان يتمها ، وقليلون فقط هم الذين تولوا الباشوية فيها مرتين او ثلاثا .

* * *

- مما تقدم يمكن القول :

- ان مجيء العثمانيين الى الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي (١٠هـ) كان بداية لعهد جديد ، ذلك ان جهودهم قد تضافرت منذ عهد عروج وخير الدين على اقامة وارساء دعائم دولة جزائرية حديثة ، هي ايالة او نيابة او مملكة الجزائر ، قاعدتها مدينة الجزائر ، التي اعطت الجزائر كلها اسمها الحديث ، بعد ان كان مقصورا على المدينة فقط . ووضع لهذه الايالة تنظيم اداري جديد ، وغدت لها حدود سياسية بينة ، اخذت تتشكل وتتوضح منذ عهد البايلرباي لتأخذ شكلها النهائي فيما بعد وذلك على انقاض او حساب الوحدات السياسية العديدة التي كانت قائمة فيها ، والتي عجزت عن المقاومة او الاستمرار ، فقضوا على بعضها قضاء نهائيا كالدولتين المرمتين الزيانية والحفصية في غرب الجزائر وشرقها ، وابقوا على بعضها الآخر ، تابعا لهم كامارات بني جلاب في توقرت ، وكوكو في زواوة ، بغرب الجزائر ، وبني عباس ، وبني القاضي في شمالها ، وعلى حساب المواقع والمراكز التي احتلها او اخضعها الاسبان كمدينة الجزائر وبجاية وعنابة ، وغيرها .. فكان مجيء العثمانيين الى الجزائر عامل توحيد للأجزاء المفتتة والمستقلة المبعثرة في ارجائها ، وعامل استقرار للاوضاع التي كانت مضطربة فيها ، وعامل انقاذ وتحرير لها ،

---

(1) انظر عن الاوبئة والمجاعات والكوارث الاخرى ، د. فرادون : المرجع السابق ص ص ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٨٩ـ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

(2) انظر ابن المفتي : تاريخ باشاوات الجزائر في المرجع السابق ، وابن حمدوش : عجائب الاسفار في المرجع السابق

من الاحتلال والخضوع الى الاسبان •

وان ارتباط الجزائر القوي بالدولة العثمانية في عهد البايلربايات ، جعل منها القاعدة الامامية للدولة العثمانية في شمال افريقيا وفي الحوض الغربي للمتوسط في صراعها مع الاسبان والامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والقاعدة التي امتد منها النفوذ العثماني الى باقي شمال افريقيا ، لكن ارتباطها القوي هذا لم يمنعها من ان تتمتع بحرية واستقلال كبيرين ضمن الدولة العثمانية •

— وان يكون لها شخصيتها المتميزة ، وسيادتها المعتبرة ، وان يكون حكامها البايلربايات اشبه بالملوك المتعالين منهم بالملوك التابعين او الخاضعين ، اما كان لهم من سلطات مطلقة غير محددة بزمن ، وكلمة نافذة ، ومكانة سامية لدى الدولة العثمانية بالرغم من ان السلطان العثماني هو الذي كان يعينهم •

— وان استقلال الجزائر وحريتها ضمن الدولة العثمانية قد اعطى لها قوة مضاعفة ، قوة ناتجة عن حرية حكامها في اتخاذ القرار والمبادرة ، وقوة اخرى مستمدة من قوة الدولة العثمانية التي كانت تمد حكامها بالسلاح والرجال عند الضرورة • بحيث لم تعد فقط كما كانت ممرا ومجالا للتوسع من القادمين من الشرق او من الغرب بل انها اصبحت ايضا ولا سيما في اواخر عهد البايلربايات في موقف المهاجم على جارتيها تونس وفاس كما رأينا ، وسنرى • وبذلك اسهمت في المد للنفوذ العثماني اليهما •

— وان سياسة البايلربايات الهادفة الى توحيد البلاد وتحرير المواقع المحتلة من الاسبان كانت تمثل رغبة السكان مما دفع هؤلاء الى التجاوب والتعاون معهم ، الامر الذي ساعد على استقرارهم في الجزائر ، وخضوعهم لها ، الا ان احتكارهم المطلق للسلطة وعدم القبول بمشاركة الاهالي لهم فيها ، ومعاملتهم لهؤلاء معاملة التابع للمتبوع قد ادى الى قيام ثورات ضدهم في مختلف الفترات وكلما سنحت الفرصة ، كانوا يبادرون الى قمعها بشدة ، الامر الذي ما انفك يباعد بينهم وبين الاهالي ويتسبب في ثورات جديدة ضدهم ، لاسيما في العهود التالية التي اصبحت الشقة فيها بين الحاكم والمحكوم واسعة جدا •

وقد صحب قيام الحكم العثماني في الجزائر اشتداد نشاط الغزو البحري ضد الشواطىء والسفن الاوربية الاسبانية منها على الخصوص نتيجة الغزو الاسباني من جهة لشواطىء المغرب الكبير ، وهجرة المسلمين من الاندلس ، واضطهاد الباقين منهم فيه ، وكان دافع الجهاد لهذا الغزو اوضح في عهد البايلربايات منه في العهود التالية ، التي اختلط فيها بدافع الكسب المادي ، وربما غلب عليه هذا الاخير • وقد كانت غنائم الغزو البحري تشكل احد الموارد الرئيسية لخزينة الدولة ، مما جعل بعض البايلربايات يولونه اهتماما خاصا ، تنظيما وتشجيعا •

وان انتهاء الصراع الكبير او خفته على الاقل بين الدولة العثمانية واوربا المسيحية الذي تميز به عهد البايلربايات في الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط على السواء ، وميل الدولة العثمانية واسبانيا الى السلم بعد معركة ليبانتي وضم تونس في السبعينات قد جعل السلطان يميل ايضا الى التخفيف من اهمية قاعدته الامامية في شمال افريقيا ، والى التقليل من السلطات التي كان يتمتع بها حاكمها البايلرباي خصوصا بعد موت العلج علي في سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م الذي كان يجمع بين منصبي

البايلربای ، وقبودان باشا ان يجعل الجزائر مجرد باشوية شأنها شأن تونس وطرابلس . الا ان هذا التغيير الذی احدثه السلطان العثمانی لم يمثل تغييرا ذا معنى ايجابي للأهالي في الجزائر ، اذ ظلوا محرومين من السلطة الفعلية طوال هذا العهد وفي الوقت نفسه عاشوا الصراعات الداخلية بين هؤلاء الباشاوات والانكشارية ، وبين الانكشارية والرياس تلك الصراعات التي جعلت البلاد تعيش في اضطراب ، أعاق تطورها في مختلف المجالات نحو الافضل .

وكان حكم الباشاوات كما بينا العهد الذی خرجت فيه الجزائر وهي اكثر استقلالا عن الحكم العثماني ، الا انها بالمقابل اضعف قوة ، للصراع الداخلي على السلطة بين اطراف القوى المذكورة ، ذلك الصراع الذی انتهى باستلام الآغاوات للحكم في الجزائر في سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م .

*

الفصـــــل الثانــــــي

الحيــاة السياسيــة فــي المغــرب

أوضـاع المغــرب في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى :

قد لا يختلف مجموع الوضع في المغرب ، في هذه المرحلة عن نظيـره في الجزائر ، وان من ينظـر فيه يرى انه كان هو الآخر في محنــة ، فالوطاسيون (1) الذين آل اليهم الحكـم فـي فـاس بالمغرب في الربع الاخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادى ، قد عجزوا عن توحيد المغـرب كله تحت سلطتهم ، وعن توفيـر الامن والاستقرار له . كما عجزوا عن حماية شواطئه من الغـــزو الاسباني والبرتغالي ، فغدا المغرب في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميـــلادى

1 - مجزأ الى وحدات سياسية صغيرة كثيرة ، تحت زعامات قبلية ، او دينية ، او مجالـــس محلية ، متنافسة ، متناحرة ، مستقلة تماما عن فاس ، او لا تتبعها الا اسميا . ومـن هذه الوحـدات السياسية الكبيـرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

آ - في الشمال والشرق المغربيين : امارات شفشاون ، وآمجاو ، ودبدو .

ب - في وسط المغرب وغربـــــه : امارات ابن حدو واخيه ابي فارس في الجبل الاخضر وامارة ابن عامر في تنسيـتة ، وامارة آل فرحون في آسفي ، وجمهوريات مدن تافزه ، والجمعـــة وآزمور ، ونفوذ رؤساء القبائل في سهول دكالة وتادلا .

جـ - وفي جنوب المغرب وغربه : نذكر امارة آل شنتوف في مراكش ، وامارة مولان ادريس الهنتاتي في جبل هنتاته بالاطلس الكبير ، وجمهوريات مدن تارودانت ، وتدسي ، وتفتنت ، ونفوذ الشيـخ يحيى في شوط ، ونفوذ المرابط ابن المبارك في آقــة .

---

(1) الوطاسيون فرع صغير من بني مرين الذين ينتمون الى قبيلــة زناته البربرية . غير انهـم ليسوا من ابناء عبد الحق ، جد سلاطين بني مرين ، كانوا يرتبطون مع هـؤلاء بالاضافة الـى النسب والمصاهرة ، بالمصلحة ، والخدمــة ، حيث شغل الوطاسيون قبل عهـد سلطتهـم ١٤٧١ - ١٥٥٤ مناصب سامية ، في الجيش والدولة ، كالوزارة في عهد عبد الحق آخـر سلاطين المرينيين . وقد نكب هذا الاخير قبل مقتله ، الاسرة الوطاسية التي زاد نفوذهـا حتى طغى على نفوذه ، ولم ينج من الاسرة المنكوبة غير محمد الشيخ واخيه محمـد لحلـو . وقد نجح محمد الشيخ في تأسيس الدولة الوطاسية في سنة ١٤٧١ ، انظر السلاوى / الاستقصا جـ ٤ ص ٩٦-٩٧ ، ١١٨-١١٠

ونفوذ شيخ عرب اولاد زرقان في تافيلالت ، وغيرهم .

وقد كان امير جبل هنتاته في صراع مع امير مراكش ، كما كان امير الجبل الاخضر في صراع مع هذا الاخير ، وكان عرب دكالة وتادلا في صراع مع بربر الجبال ، وسكان المدن وكذلك كان النزاع قائما بين وحدات سياسية اخرى ، بل وبين احياء المدينة الواحدة كما هو الشأن في تفاوست ، وبين " قصور " سجلماسة ، وغيرها[1] .

٢- هدفا للغزو الخارجي : ان التجزؤ والانقسام والاضطراب الذي كان يعاني منه المغرب في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي قد شجع الاسبان والبرتغاليين على المضي قدما فيما شرعوا فيه منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من غزو للشواطئ المغربية واحتلال لمدنه ، والهجوم على ما جاورها من المناطق تحقيقا لاهدافهم الرامية الى : القضاء على قواعد غزاة البحر المغاربة الذين كانوا يهددون شواطئهم وسفنهم ، واتخاذ قواعد لهم على الشواطئ المغربية المشرفة على الطريق الى غرب افريقيا والهند ، والعالم الجديد ، وعلى الطريق البحري للمتوسط ، والى استغلال موارد المغرب وخيراته من قمح واصواف وخيول وعبيد وغير ذلك ، والى نشر المسيحية وشن حرب على المسلمين الكفار وغير ذلك من الاهداف .

وقد تمكن الاسبان في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي من احتلال بلدة غساسة في سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م[2] وحجر بادس على المتوسط في سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م[3] .
وكانوا قد خربوا في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي مدينة تطوان المتوسطية في سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م واحتلوا الموقع المسمى (Sta Cruz de Mar Pequena) على الاطلسي المواجه لجزر كناريا في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م[4] ، ومدينة مليلة في ١٤٩٧م[5] على المتوسط .

اما البرتغاليون فقد تمكنوا في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي من احتلال موقع مازاكان في سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م[6] واكادير في سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م[7] .
(Sta Cruz de Cap d'Aguer) .

---

١) انظر عن هذه الامارات والوحدات السياسية المختلفة : الوزان - المرجع السابق ج ١ ومارمول : المرجع السابق ج ٢
٢) الوزان المرجع السابق ج ١ ومارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٧
٣) الوزان نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٤ ، ومارمول نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢
٤) م.م.ت.م. البرتغال . ج ١ (التنافس البرتغالي الاسباني في جنوب المغرب)
٥) م.م.ت.م : اسبانيا جزء ١ ص ٣-٤ و الوزان المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٠
٦) الناصري : الاستقصا ج ٤ ص ١٣٦
٧) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤

وآسفي في سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨م [1]، وآزمور في سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م [2]، وكل هذه المدن والمواقع تقع على المحيط الاطلسي، وتطلعوا في سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥م الى احتلال مدينتي مراكش، وفاس [3] الداخليتين، وكانوا قد تمكنوا في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من احتلال مدن سبتة [4] في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، والقصر الصغير في سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م [5]، وطنجة في سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م [6]، وآصلا في سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م [7]، وهذه المدن تقع على المضيق او تشرف عليه، كما تمكنوا من تخريب مدينة آنفى في سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م [8]، ومن شن الهجوم على مدن العرائش والقصر الكبير وغيرها.

ويلاحظ ان الاحتلال الاسباني قد تركز على ساحل المتوسط فقط، بينما تركز الاحتلال البرتغالي على الساحل الاطلسي، ولم يكن ذلك صدفة، وانما نتيجة الاتفاقيات التي توصل اليها الاسبان والبرتغاليون، والتي حددت مجال استعمار كل منهم دفعا للنزاع والاصطدام فيما بينهم. واهم هذه الاتفاقيات، اتفاقية تورد يسيلاس في سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤م، واتفاقية سينترا في سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م. وبمقتضى هاتين الاتفاقيتين، كان مجال نفوذ الاسبان من حجر بادس، وما يليه، نحو الشرق، وكان مجال نفوذ البرتغاليين ونشاطهم يمتد من غرب بادس وحتى رأس بوجادور، وتام بأقصى الساحل الاطلسي للمغرب، باستثناء موقع سانتاكروز دومار بيكينا، الذي اعطاه الاسبان قبل التوصل الى هاتين الاتفاقيتين في سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م [9]

جـ - مسرحا لنشاط القوى الدينية :

وازاء تزايد الخطر الخارجي على المغرب، وعجز الوطاسيين عن الدفاع على كل الشواطئ المغربية، وعن فرض سلطتهم على كل اجزاء المغرب، تحركت القوى الدينية المؤلفة من رجال

---

١) الوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ١١٧ — ١٢١
٢) نفسه ص ١٢٦
٣) في هذه السنة ١٥١٥م غزوا مدينة مراكش في افريل، ثم شنوا حملة على المعمورة، انظر مارمول : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٣ — ٦٥ ، ١٤٩—١٥٣
٤) و٥) نفسه : جـ ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٦ ، والوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٥
٦) الوزان : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٦٤ ومارمول : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٣
٧) الوزان : نفس المرجع ص ٢٦٠ ومارمول : نفس المرجع ص ٢٢١—٢٢٢
٨) الوزان : نفس المرجع ص ١٦٠—١٦١ ومارمول : نفس المرجع ص ١٤٨
٩) انظر عن هاتين الاتفاقيتين : التسابق البرتغالي — الاسباني في م.م.ت.م : البرتغال جـ ١

الدين المرابطين والاشراف ، الذين كانوا ينتمون غالبا الى الطرق الصوفية المحلية منهـا كالطريقة الشاذلية [١] ، والطريقة الجازولية [٢] ، المتفرعة عنها او التي انتقلت اليه من المشرق كالطريقة القادرية [٣] ، وانتشرت تلك القوى الدينية في المغرب بعد ان كانت محصورة في المدن ، ووسعت نطاق نشاطها ، ليشمل مختلف جوانب الحياة الدينية والتعليمية والسياسية وغيرها في مناطـق وجودها . فقامت بالدعوة الى الجهاد ، وتعبئة الناس لهذا الغرض وقيادتهم ، وجمع المـال لافتداء الاسرى ، وانشأت الزوايا لتعليم الدين وغيره ، وتدخلت لحل الخلافات بين المتنازعين ، ولفرض الامن في مناطق فعاليتها ، وهذه كلها ادوار ايجابية ، ولكنها لم توظف نفوذها المتزايد في مناطق نشاطها لدعم السلطة المركزية في فاس . بل اخذت تنشىء امارات مستقلة هنا وهنـاك في مختلف انحاء المغرب ، كإمارة شفشاون [٤] ، في الشمال على سبيل المثال . بل يمكن اعتبـار كل زاوية امارة مستقلة ، اذ كانت تتمتع بنفوذ كبير في منطقتها [٥] . ولما كانت حريصة على توسيـع نطاق نفوذها والمحافظة على استقلالها ، فقد ساهمت بذلك في زيادة تفتيت السلطة في المغرب وتجزؤه ، وهذا دور من ادوارها السلبيـة .

ومما تقدم يمكن القول ان المغرب كان يعيش في ازمة شديدة في مطلع القرن العاشر الهجـري / السادس عشر الميلادي ، حيث الغزو الخارجي مستفحل ، والتجزؤ الداخلي شديد ، الامر الـذي جعل المغاربة يتطلعون الى سلطة حاكمة قادرة على توحيد شتات المغرب واجزائه وعلى توحيـد صفوف المغاربة في وجه الخطر الخارجي ، وعلى تحصين اوضاعهم ، وكانت تلك السلطة هـي سلطة السعديين ، فمن هم هؤلاء السعديون ؟

---

١) نسبة الى ابي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي تلميذ عبد السلام بن مشيش . ولد بقبيلـة غمارة في شمال المغرب سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، وتفقه وتصوف في تونس وسكن شاذلـة فنسب اليها وتوفي بصحيد مصر في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، انظر عنه الزركلي : الاعلام ج 5 ط 3 بيروت ص 120

٢) نسبة الى محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر بن سليمان صاحب دلائل الخيرات ، توفي في المغرب سنة ٨٧٠ هـ / انظر عنه ممتع الاسماع في ذكر الجازولي والتباع لمحمد المهـدي الفاسي ف...... ابن 1313 هـ والمصادر التي تتحدث عنه والتي ذكرها الزركلي في الاعلام ج ٧ ص ٢١

٣) نسبة الى عبد القادر الجيلاني احد اقطاب الصوفية في المشرق ، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ ، انظر حوله الزركلي : الاعلام ج ٤ ص ١٧١-١٧٢ والمصادر التي ذكرها

٤ و٥) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٢١-٢٢ ، ص ٨٣-٨٤

- قيام دولة السعديين والسقوط التدريجي لدولة الوطاسيين :
(٩١٦ - ٩٥٦ هـ / 1510 - 1549 م)

السعديون اسرة عربية الاصل كما هو مؤكد لدى كل من ارخ لهم ، انتقل اوائلهم من ينبع بالحجاز الى درعة بجنوب المغرب ، واستوطنوا قرية تاغمادارت وذلك في المئة السادسة الهجرية على ما هو عند الزياني (١) ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة انهم من الاشراف وذكر ابن القاضي عمود نسبهم الشريف ، الا ان المنافسين ، وخاصة في ايام ضعفهم كأشراف سجلماسة الحسنيين وخصومهم ، السعديين من بقايا الوطاسيين والمرينيين وانصارهم ، كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكره ابن القاضي (٢) ، وعلى ما نقل عن المقري من ان نسب السعديين يعود الى بني سعد بن بكر بن هوازن قوم حليمة السعدية مرضعة النبي (ص) اي من غير قريش وهو قول تراجع عنه المقري نفسه ، وصرح بشرفهم في كتابه " نفح الطيب" ، واكد السلطان العلوي محمد بن عبد الله للزياني ان نسب السعديين الشريف لاغبار عليه ، واعترف انهم ينحدرون من جد واحد (٤) ويسمى السعديون ايضا بالزيدانيين نسبة الى جدهم زيدان بن احمد ، الا ان اسم السعديين هو الذي شاع استعماله ، وخاصة في المصادر الغربية والمراجع العربية التي الفت بعد زوال دولتهم .

وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يعيشون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي الا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على شطآن الجنوب المغربي ، والحقوا بهم اضرارا في انفسهم ومصالحهم الاقتصادية دون ان يتدخل الوطاسيون لحمايتهم ، او ان يكون هنالك امل في تدخلهم ، حيث كانوا منشغلين بالدفاع عن الشمال ، فالتفتت انظار اهل الجنوب الى هؤلاء السعديين لقيادة صفوفهم ضد البرتغاليين ، بعد ان رفض ابن المبارك (٥) مرابط آقة الكبير ، ان يتولى هذه المهمة ووجههم الى ابي عبد الله محمد عميد الاسرة السعدية الذي قبل ان يتولاها بعد اتصالات ومشاورات بينه وبين المرابط الآنف الذكر ، وبينه وبين بني قومه ، وفقهاء السوس واعيانه في سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م (٦) وتمت المبايعة له في مدينة تدسي بالسوس في سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م ،

---

١) ابو القاسم الزياني : الترجمان المعرب في مجلة الغرب الاسلامي والمتوسط عدد ٢٣ . ايكس ان بروفانس ٧ . ٩١٦ ص ٣٤٢
(R.O.M.M., AIX-EN-PROVENCE.)
٢) درة الحجال في اسماء الرجال تحقيق محمد الاحمدي ابو النور القاهرة وتونس ١٩٧١ ص ١٠٦
٣) الافراني المرجع السابق
٤) الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٢
٥) انظر عنه ، ابن عسكر المرجع السابق ص ٨٣-٨٤
٦) الافراني : النزهة ص ١١

وتلقّب ابو عبد الله بالقائم بأمر الله . وقدمت له كل قبيلة بايعته عشرة من رجالاتها المقاتلين فبلغ المجموع /٥٠٠/ رجل مما يعني ان عدد القبائل التي بايعته كان خمسين قبيلة . وكانت هذه القوة هي نواة الجيش السعدي النظامي. وقد اسند قيادتها لابنه الاكبر احمد الاعرج [(١)].

ومما تقدم نستخلص ان ابا عبد الله القائم بامر الله السعدي " لم يفرض نفسه على اهل السوس بجنوب المغرب فرضا ، وانما اختاره هؤلاء " اختيارا " واسندوا اليه مقاليد امورهم بمحض اراداتهم . ولم يكن هذا الاختيار على اساس العصبية القبلية حيث ان القبائل الاولى التي بايعت ابا عبد الله هي قبائل بربرية من مصمودة ، وانما وقع الاختيار عليه لشرف نسبه ، وسمعة اسرته العلمية والدينية ، وتزكية المرابط الشهير ابن المبارك وغيره من المرابطين كأبي البركات التدسي [(٢)] وابن عمر المنظري [(٣)] .

ومما تقدم ايضا يمكن ان نستنتج ان المبرر الاساسي لمبايعتهم له هو الجهاد ضد البرتغاليين واعوانهم ، وقيادة صفوف المجاهدين ضدهم ، وحماية اهل الجنوب ومصالحهم من اخطار اعدائهم . ويمكن تقسيم حياة الدولة السعدية الى اربع مراحل بحسب اوضاعها و فعالياتها .

المرحلة الاولى من قيام الدولة السعدية : 916 ـ 932 هـ/ 1510 ـ 1525 م :

صراع السعديين ضد البرتغاليين واعوانهم :

تميزت هذه المرحلة بالصراع السعدي ـ البرتغالي ، وبمد السعديين لسلطتهم على الجنوب المغربي . فبعد مبايعة اهل السوس لابي عبد الله دعاهم الى القيام بحملة على البرتغاليين في مرسى تفتنت ، وتمكن من احراز انتصار اولي عليهم ، ومن اجبارهم على الجلاء عن المرسى المذكور في سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م [(٤)]. ولكن الخلاف الذي حصل بين بعض القادة في تدسي وبين القائم بأمر الله جعل هذا الاخير يعود الى بلدته في درعة ولبث بها نحو السنتين توقف خلالهما عن قيادة اعمال الجهاد ، ولما زال ما اغضبه عاد الى تدسي في سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، وطلب من اهلها ان يبايعوا ابنه الاكبر احمد الاعرج بالامارة فاستجاب الناس لطلبه. ثم ان محمدا القائم بامر الله انتقل مع ولده المذكور الى تدنست بمقاطعة حاحة [(٥)]

---

١) الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٤
٢) الافراني : النزهة ص ١١
٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦٥-٦٦
٤) الافراني : النزهة ص ١١
٥) نفسه .

بطلب من اهلها الذين اضجر بهم البرتغاليون واعوانهم من المغاربة كيحي بن تافوفت (١) والشيخ بوجمعة (٢) والشيخ مومن (٣) وغيرهم ، بينما بقي ابنه محمد الشيخ بالسوس ينظم هذه المقاطعة ويوسعون السعديين فيها ، واتخذ من مدينة تارودانت التي دخلت في طاعته سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م قاعدة له .

وفي مقاطعة حاحة خاض المغاربة بقيادة احمد الاعرج ضد البرتغاليين واعوانهم معارك عديدة ، لم يكن النصر فيها دائما حليف السعديين ، ومن اهم المعارك التي خاضوها معركة قرب تدنيست في سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م (٤) انهزم فيها السعديون واحرق البرتغاليون تدنيست ودمروا المدن والقرى الموالية للسعديين ، وفي سنة ١٥١٥ هاجم البرتغاليون مدينة مراكش ، لكن محاولتهم لاحتلالها باءت بالفشل امام وصول امدادات الى المدينة من السعديين والوطاسيين (٥).

وفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م توفي القائم بامر الله واستمر ولده احمد الاعرج في محاربة البرتغاليين بنجاحات مختلفة ، ثم ركز جهوده وجهود اخيه محمد الشيخ في التخلص من اعوان البرتغاليين اذ بفضلهم كان البرتغاليون يتوغلون الى المناطق الداخلية ، ويلحقون اكبر الاضرار بها .

ونجح السعديون عن طريق الموالين لهم في القضاء عليهم واحدا بعد الآخر . وبمقتل يحي بن تافوفت في سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م تخلص السعديون من عقبة كبيرة ، وفقد البرتغاليون في يحي حليفا مخلصا ، قدم لهم خدمات جليلة (٦). ولم يجدوا من يعوضه فبدأ نفوذهم في التقهقر عن المناطق الداخلية واستمر في التقلص والانحسار حتى باتوا مهددين في آسفي وآزمور وآغادير وغيرها .. بينما اخذ نفوذ السعديين في التزايد والتوسع في الجنوب المغربي ، حيث توالى خضوع المدن والقرى في المقاطعات الجنوبية تماسة ، وتيوط ، وتفاوست ، بالاضافة الى تدسي وتارودانت ، وكل هذه المدن من المراكز التجارية الهامة ، ولكن اهم مدينة خضعت لهم بعد التي ذكرناها ، كانت مدينة مراكش في سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م (٧). وسواء أكان خضوع مراكش سلما ام عنوة (٨) ، فان خضوعها في النهاية لهم ، بعد موت اميرها الناصر بوشنتوف يعد انجازا كبيرا

(١) قائد عرب عبدة وكالة رجاحة . والقائم العام للقبائل الموالية للبرتغاليين ابتداء من عام ١٥١٤م
Torrès(Diogo de):Relation de l'origine et succès des Chérifs.Paris 1[illegible]
الوزان : المرجع السابق [illegible] ، ومارمول المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٣-٩٢
(٢) انظر مارمول [illegible]
(٣) قائد عرب عبدة [illegible] ، مارمول نفس المرجع جـ٢ ص ٦٥
(٤) انظر مارمول : المرجع السابق جـ٢ ص ٨-٦ [illegible]
(٥) مارمول : نفس المرجع ص ٦٥
(٦) طوريس / المرجع السابق ص ٧٣-٧٤ (قتله عرب اولاد عمران
(٧) الافراني : النزهة ص ١٦ . وعند الزياني كان الدخول ٩٢٧هـ/١٥٢١م . الترجمان ص ٣٤٥
(٨) حسب طوريس ان الاخوين احمد الاعرج ومحمد الشيخ دخلا مراكش للتشاور ورجعا سيرها في حملة على آسفي ولما اختفيا به قتلاه واعلن الاعرج سلطانا انظر المرجع السابق ص ٧٥-٧٩
اما الافراني فيذكر ان ملوك مراكش كاتبوا الاعرج ودخلوا تحت طاعته انظر النزهة ص ٩ ، بينما يذكر الزياني ان الدخول كان عنوة المرجع السابق ص ٣٤٥

في طريق توحيد كل الجنوب المغربي تحت سلطتهم وبداية لمرحلة جديدة في طريق توحيد المغرب كله

المرحلة الثانية من قيام الدولة السعدية : 932 – 956 هـ/ 1525 – 1549 م

صراع السعديين مع الوطاسيين ومع البرتغاليين

وهذه المرحلة تميزت باستمرار الصراع بين البرتغاليين ، والسعديين ، وبين هؤلاء الاخيرين والوطاسيين ، واستكمال السعديين لتوحيد اجزاء المغرب تحت سلطتهم .

وقد ... احتلال السعديين لمراكش التي كان امرها من اتباع الوطاسيين استياء السلطان محمد الوطاسي ، اذ بدا لهذا الاخير ان هدف السعديين ليس فقط الجهاد بل تأسيس د... . ولكن احمد الاعرج سارع الى التخفيف من استياءه خشية ان يهاجمه قبل ان ... ستعداداته و يتخذ احتياطاته ، بأن عرض عليه ان يكون عاملا له على مراكش ، وابدى ا... ده لان يدفع له ضعف ما كان يدفعه له سلفه [1] ، ولما كان محمد البرتغالي منشغلا ... الشمال بأصيلا التي هاجمها في ٩٣١ هـ/ ١٥٢٤ م وحدها ما لا يقل عن اربع مرات [2] ... د قبل العرض وتمهل في اتخاذ موقف حازم تجاه احمد الاعرج .

ولكن هذا الاخير بعد ان وطد نفسه في مراكش ، لم يف بالتزاماته رغم التحذير والتهديد من السلطان الوطاسي [3] ، فقرر محمد البرتغالي حينئذ ان يهاجمه ، وقبل ان ينجز خطته توفي في جمادى الآخرة ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦ م واعقب وفاته نزاع بين اخيه ابي حسون وبين ولده احمد ، ولما خلص الملك لهذا الاخير في ذي الحجة ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦ م [4] ، طالب احمد الاعرج بما استحق عليه من ضريبة التبعية ، فلم يستجب له ، بل وتحالف مع الامراء المستقلين عن فاس كابن حدو وادريس ... الهنتاتي المتقدم ذكرهما ، وحصن مدينة مراكش ، فلم يبق امام السلطان الوطاسي الا الحرب [5] .

١ ـ حصار الوطاسيين لمراكش: ١٥٢٧ م ... هادن الوطاسيون والسعديون في اواخر الاشهر الاولى من سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م البرتغاليين ليتفرغا للصراع ضد بعضهم بعض . وتحرك السلطان الوطاسي الى مراكش في جموع كبيرة ، وفرض الحصار عليها اياما ، وامام وصول مدد كبير من تارودانت بقيادة محمد الشيخ ، ووصول انباء من فاس عن تمرد ابناء عم السلطان الوطاسي ، رفع هذا الاخير الحصار وعاد على عجل الى قاعدة ملكه ، متكبدا في اثناء الانسحاب خسائر كبيرة [5]

---

(١) طوريس / المرجع السابق ص ٦٠ السلاوي / الاستقصا ص ١١
Luiz de Sousa :Les Portugais et l'afrique du nord de 1521 a 1557. trad. R. Ricard, Portugal 1940, ch. 16.

٢) طوريس / المرجع السابق ص ١

٣) لويس دو سوزا / المرجع السابق ص ٧٠ والسلاوي / الاستقصا ج ١ ص ١٤٩

٤) طوريس / المرجع السابق ص ٩٢

٥) انظر عن حصار مراكش طوريس : المرجع السابق ص ٦ . الافراني : النزهة ص ١٩ السلاوي : الاستقصا ج ٤ ص ١٤٧ – ١٤٨ وعنده ان الذي حاصر مراكش هو محمد البرتغالي .

٢ـ معركة آنماي : تمكن احمد الوطاسي من اخماد التمرد ، ومن تجهيز حملة اخرى ضد السعديين ، وكان اللقاء هذه المرة بآنماي خارج مراكش ، ولم ينته فيها بهدو بنصر حاسم لاحد الطرفين ، فافترقا على صلح ، وذلك في سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م (١) .

٣ـ معركة بوعقبة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م : ظل السلطان الوطاسي ينظر الى الاشراف السعديين على انهم مغتصبون للسلطة في مراكش ، بينما كان هؤلاء يرون انهم احق بالملك منه (٢) ولذلك فانهم ما فتئوا يوسعون سلطتهم ، الامر الذي جعل النزاع يتجدد بين الطرفين وفي سنة ٩٤٣/٣/٩هـ /١٥٣٦/٨/٢٦م حملا على بعضهم بقوات كبيرة والتقيا على نهر العبيد ، وانتهى الصراع العنيف الذي دار بينهما بهزيمة كاملة لجيش السلطان الوطاسي ، على الرغم من تفوقه العددي (٢٠٠٠٠ مقابل ١٢٠٠٠) ونجا السلطان الوطاسي بنفسه بصعوبة (٣) .

تقسيم المغرب بين الوطاسيين والسعديين : ٩٤٣هـ/١٥٣٦م : وفي اعقاب هذه الحرب التي مات فيها خلق كثير تدخل كبار علماء فاس واعيانها لعقد الصلح بين الوطاسي والاخوين الاعرج ومحمد الشيخ ، ولم تكن مهمتهم سهلة ، اذ امتنع الشريفان عن تقديم التسهيلات لابرامه ، ونص الاتفاق الذي توصلوا اليه على ان يكون للسعديين ما يلي تادلا جنوبا حتى اطراف السوس ، وللوطاسيين ما يلي تادلا شمالا الى رباط تازه ، وان تكون درعة للسعديين وسجلماسة للوطاسيين (٤) دون اي اشارة الى تبعية او خضوع الشريفين الى السلطان الوطاسي مما يعني ان المغرب غدا يتألف من مملكتين رئيسيتين لا تبعية لاحدهما للاخرى ، فتهدئت الاوطان على الرعية (٥) ، ولكن الى حين فقط ، اذ ما لبث الطرفان الوطاسي والسعدي ان اصطدما كما سنرى بعد حين ، وقبل ذلك نشير الى ان السلطان الوطاسي الذي انهزم هزيمة كاملة ، عقد هدنة جديدة مع البرتغاليين في ٢٧ صفر ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨/٧/٢٤م لمدة (١١) عاما (٦) ليأمن جانبهم ، ويستعد من جهة اخرى للجولة القادمة مع خصومه السعديين (٧) .

(١) النزهة للافراني ص ٢٠ ـ الاستقصاء للسلاوي ص ١٥
(٢) المجهول : المرجع السابق ص 6 .
(٣) طوريس / المرجع السابق ص ١٠٢-١٠٤ و م.م.ت.م : البرتغال ج١ ص ٤ . الافراني : المرجع السابق ص ٢٠ ـ السلاوي / الاستقصاء ج٤ ص ١٥٣-١٥٤
(٤) الافراني ـ نفس المرجع ص ٢١ المجهول : المرجع السابق ص٧
(٥) المجهول : نفس المرجع ص٧
(٦) م.م.ت.م : البرتغال ج٣ ص ٤٤ و م.م.ت.م : اسبانيا ج١ ص ٩٠
(٧) السلاوي : الاستقصاء ج٤ ص ١٥٤ ، وعنده ان الهدنة كانت لمدة ثلاث سنوات

ولكن هذه الهدنة سببت له متاعب داخلية كثيرة مع الامارات الشمالية التي كانت تقوم باعمال الجهاد ضد المراكز البرتغالية ، ومع امارة دبدو في شرق المغرب التي استاءت من سياسته ، الامر الذي اضطره الى استعمال القوة لاخضاع امارة بني راشد في شفشاون في محرم ٩٤٨ هـ / ماي ١٥٤١ (١) ، والى اتباع سياسة المصاهرة مع امير دبدو وعم السيدة حاكمة تطوان ، حيث اصهر الى الاول في ابنته ، وتزوج بالثانية (٢) ، كما كانت هدنته مع البرتغاليين سببا في فقد شعبيته لدى عموم المجاهدين وانصار الجهاد (٣) .

اما احمد الاعرج ومحمد الشيخ فقد استغلا الهدنة مع الوطاسيين ، وهدنة اخرى عقداها مع البرتغاليين في ١٥ ذي القعدة ٩٤٣ هـ / ٢٥/٤/١٥٣٧ م لمدة ثلاث سنوات (٤) في بسط نفوذهم على المناطق التي لم تخضع لهم بعد في الجنوب المغربي ، كأعالي درعة التي كانت تحت حكم مزوار (مقدم) موال للبرتغاليين وعلى المناطق الاخرى التي كانت تحت نفوذ القبائل الجنوبية الموالية للبرتغاليين (٥) بحيث امتد نفوذهما على كل المناطق في الجنوب المغربي ، ومقاطعات وسط المغرب فيما عدا الاطراف المجاورة للمراكز البرتغالية ، كما استغلاها في تنظيم مملكتهما التي غدت تشمل مناطق واسعة ذات اهمية اقتصادية كبيرة كدرعة ، والسوس ، ومراكش .

الا ان مملكتهما كانت لا تزال تفتقر الى ميناء كبير صالح يتناسب مع الاهمية التي اصبحت لهذه المملكة ، يمكن ان يقصده التجار الاوربيون بكل حرية لشراء السكر المغربي الذي اخذ محمد الشيخ بصفته نائبا لاخيه في السوس يستكثر من زراعته هناك (٦) ، فصمم على تحرير ميناء آغادير الهام الواسع من البرتغاليين مهما كلفه من ثمن ، فتجدد الصراع بين السعديين والبرتغاليين بعد انقضاء اجل الهدنة بهجوم كبير قام به محمد الشيخ ضد المركز البرتغالي وبعد حصار دام سبعة اشهر تمكن الامير السعدي من اقتحام المركز وقتل واسر كل من كان به متكبدا من اجل تحريره خسائر كبيرة (٧) . فكانت آغادير اول مركز هام يحرره السعديون وذلك في ذي القعدة ٩٤٧ هـ / ١٥٤١ م الامر الذي زاد هم شعبية وشهرة لدى المغاربة ، وافزع كل اعوان البرتغاليين ، واخافهم فتسارعوا الى اعلان خضوعهم للسعديين (٨) .

---

١) لوبيز وسوزا المرجع السابق ص ١٤٨ .
٢) محمد داود تاريخ تطوان المجلد الثامن تطوان ١٩٥٩ ص ٨٦
٣) ابن عسكر الدوحة ص ٤٤ (ترجمة محمد بن يحيى البهلولي) .
٤) م . م . ت . م : البرتغال ج ٣ ص ٤٤٤
٥) مارمول المرجع السابق ج ٣ ص ٣ . وتوريس : المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٧
٦) طوريس : نفس المرجع السابق ص ١٠٨
٧) مارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦

8) BOULET(l'Abbé): Histoire de l'empire des chérifs en afrique. Paris 1733. P. 128.

وغنم محمد الشيخ غنائم كبيرة من هذا المركز واخذ فورا في استغلال ميناء آغادير في التجارة مع الاوربيين ، ولا سيما مهربي السلاح منهم[1] .

وكان التجار الاوربيون يقبلون على ميناء آغادير لشراء السكر والجلود والشمع وغيرها من السلع .

وكان رد فعل البرتغاليين على سقوط آغادير بيد السعديين ، وتعرض آسفي ايضا للحصار ، قيام الحاكم البرتغالي لهذه الاخيرة ، بهجوم مفاجئ على عرب الشاطئ المجاورة[2] ، وتفكير الحكومة البرتغالية في القيام بحملة ضخمة ضد مدينة مراكش ، بمشاركة السلطان احمد الوطاسي ولكن تراجع هذا الاخير بعد ان ابدى استعداده للمشاركة في الحملة[3] جعل البرتغاليين لا يعدلون فقط عن تنفيذ مشروع الحملة بل ويقررون ايضا الجلاء من آسفي وآزمور في شعبان ٩٣٨ / دجمبر ١٥٤١م[4] والاحتفاظ فقط بمازاكان على ساحل دكالة ، مع زيادة تحصين هذه الاخيرة .

وفور جلاء البرتغاليين عن المدينتين المذكورتين قام احمد الاعرج بالاستيلاء عليهما واعاد تعمير آسفي[5] . اما آزمور فقد استمرت خربة خالية لقربها من مازاكان وقيام البرتغاليين بشن غارات عليها من حين لآخر انطلاقا من هذا المركز[6] .

وقد برر البرتغاليون انسحابهم من آسفي وآزمور برغبتهم في التخفيف من خزينة الدولة لان الاحتفاظ بهما قد فداعبئا كبيرا عليها ، اذ لم يعد للمركزين جدوى كما كانت سابقا قبل اشتداد قوة السعديين ، وتقلص هؤلاء لنفوذهم على ما جاورهما من المناطق الداخلية حتى بات لا يتجاوز اسوار المدينتين ، هذا بالاضافة الى ان آسفي ليس لها مرفأ صالح ، وتموينهما وامدادهما عن طريق البحر ليس سهلا ، وان آزمور لا يمكن ان تستقبل السفن الكبرى بسبب ضيق مصب نهر ام الربيع الخطير .

وقد كان التفكير في الجلاء عنهما منذ سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م واردا . الا ان ملك البرتغال لم يجرؤ حينئذ على الامر بذلك خشية ردود الفعل المضادة ، واتهامه بالتخلي عما حققه اسلافه بثمن غال[7] .

وبتحرير السعديين لآغادير ، وجلاء البرتغاليين تلقائيا عن آسفي وآزمور ، اخذ وجود هؤلاء على الشواطئ المغربية في الانحسار ، ولا سيما عن الشواطئ الجنوبية والوسطى للمغرب ، بحيث لم يبق لهم غير مازاكان .

(1) مارمول : المرجع السابق جـ٢ ص ٣

(2) لويز دوسوزا ـ المرجع السابق ص ٥٠ (-١٥٤

(3) نفســــــــــه ص ٤٨ (-١٤٠

(4) نفســه ص ٥٠ (و م م ت م : فرانسا جـ ١ هامش ٣ ص ١٤١

(5) مارمول / المرجع السابق جـ٢ ص ٨٥

(6) نفسه جـ٢ ـ ص ١٠

(7) نفسه جـ٢ ـ ص ٨٥ ، ١٠ لويز دوسوزا / المرجع السابق ص ١٥٦ ، ١٦٠

النزاع بين الاخوين احمد الاعرج ومحمد الشيخ :

في الوقت الذي كان من المنتظر ان يوجه السعديون جهودهم لتحرير ما زاكان التي بقيت بيد البرتغاليين ، اذا بنزاع ينشب بين الاخوين استمر بضع سنوات ، واسباب هذا النزاع كما ذكرها طوريس[1] ، اقتناع الاعرج بكلام الوشاة بأن اخاه محمدا الشيخ لم يعدل معه في القسمة للغنائم التي ظفر بها في آغادير وان هذا الاخير تصرف في اقتسامها لا كولي عهد وانما كسلطان ، الامر الذي جعله يكتب لاخيه ويأمره بالحضور اليه ، ولكن محمدا الشيخ رفض الحضور ، وحاول استعباد ظنونه بدون جدوى ويبدو ان الشخصية الكبيرة التي حصل عليها محمد الشيخ في حملته على آغادير ، والشهرة التي نالها بعد انتصاره قد جعلت احمد الاعرج يغار من اخيه ويحسده .

وتعقد الخلاف اذ رفض محمد الشيخ الحضور الى مراكش كما امره اخوه الاعرج ، وازاء الحاح هذا الاخير في اعادة قسمة الغنائم والحضور ، طلب محمد الشيخ بدوره ان يعهد اليه فقط اقتسام الغنائم ، ولكن ايضا اقتسام المملكة ، وان يعلن ابنه محمد الحران وليا للعهد بعدهما على كل المملكة باعتباره اكبر ابنائهما ، وان وصية والدهما تقضي بأن يلي الملك من بعده الاكبر فالاكبر في الاسرة من بنيه[2] ، وطالب ايضا بأمور اخرى فاستشاط احمد الاعرج غضبا ، وتطورت الامور بينهما الى نزال مسلح . وباءت جميع محاولات التوفيق بينهما بالفشل[3] .

وقد تمكن محمد الشيخ من الانتصار على اخيه واسره في احدى المعارك ثم اطلق سراحه بعد قبوله بتقسيم المملكة بينهما ، وبأن يكون محمد الحران ولي عهد لهما ، وبنود اخرى تضمنتها المعاهدة التي عقداها بينهما[4] ، ولكن احمد الاعرج نقض هذه المعاهدة بعد ان اصبح طليقا بمعزل انه وقعهما وهو اسير . فتجدد النزاع بينهما وانهزم الاعرج مرة اخرى في معركة الكاهرا الهامية سنة ١٥١هـ/١٥٤٤م (التشلي) دخل في اثرها محمد الشيخ الى مراكش قاعدة ملك اخيه واستقر بها ، وعرض على هذا الاخير الذي لجأ الى احدى الزوايا ، ان يستقر هو وعائلته ، ومن شاء في تافيلالت ، فتوجه اليها[5] واقام بها الى حين .

---

(١) طوريس / المرجع السابق ص ١١٤-١١٦ وانظر ايضا الافراني : النزهة ص ٢٢

(٢) الافراني : النزهة ص ٦٧

(٣) انظر تفاصيل النزاع في طوريس / المرجع السابق ص ١١٦-١٤٤

(٤) طوريس : نفس المرجع ص ١٤٧

(٥) نفسه ، وانظر الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٥

لم يكن نزاع الاخوين ليمضي دون ان يؤثر على سمعة السعديين ونظرة الناس اليهم ، فالقبائل السوسية التي عرفت السعديين قادة للجهاد ، قد اخذت بعد نشوب النزاع بين الاخوين من اجل السلطة والنفوذ ، واقتسام الغنائم وغير ذلك من الامور ، تغيرت نظرتها اليهم . فبدأت بالتمرد على الاخوين والثورة عليهما ، واول هذه الثورات كانت ٩٥٠هـ /١٥٤٣م بقيادة المرابط سيدي عبد الله في الاطلس الكبير (١) ثم تتالت الثورات وسنرى ان محمدا الشيخ قتل وهو يقود حملة لاخماد احدى الثورات في جبال الاطلس الكبير .

اما البرتغاليون فأرادوا انتهاز فرصة الصراع بين الاخوين لتوجيه ضربة قاضية لهما بالتعاون مع السلطان احمد الوطاسي (٢) ، الا ان هذا كان منشغلا في الشمال بتمردات الامارات الشمالية والشرقية (٣) ، فلم يتجاوب معهم ، ولعل ذلك حرصا منه ايضا على الا يفقد ما بقي له من شعبية ، بعد ما فقد الكثير منها من جراء مهادنته معهم ، وخشيته من ان يؤدي تدخلهم ضد السعديين الى ترك الاخوين لخلافاتهما وتوجيه قواتهما ضدهما .

ولكن انفراد محمد الشيخ الطموح بالملك في مراكش ، وتفوقه على اخيه الاعرج ، اشعر السلطان الوطاسي بالخطر ، ولذلك فقد رحب بطلب هذا الاخير مساعدته على استرجاع ملكه من اخيه ، وتجاوب معه (٤) .

معركة درنه في رجب ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م

لم يغفر محمد الشيخ لاحمد الوطاسي استعداده لمساعدة اخيه ضده ، فطمع لضم مملكة فاس ، ونقض الصلح الذي ابرم منذ عدة سنوات في اعقاب معركة بوعقبة ، وطالب احمد الوطاسي بأن يتخلى له عن مقاطعة تادلا ، وقبل ان يحصل على الجواب ، اخذ في جباية الضرائب منها ، وهب الوطاسي لابعاده عنها ، وزحف محمد الشيخ الى لقائه فاصطدما على نهر درن ، احد فروع نهر ام الربيع في رجب ٩٥٢ هـ / سبتمبر ١٥٤٥م وكان الصدام عنيفا لاشتراك قوات كبيرة فيه ، من المشاة والفرسان وحملة السلاح الناري ، من كلا الجانبين ، وكان النصر في النهاية حليف محمد الشيخ الذي تمكن من اسر السلطان الوطاسي وابنه ابي بكر (٥) ، وسقطت مقاطعة تادلا في قبضته ، وغدا الطريق الى فاس مفتوحا امامه ، فتقدم اليها ، وقصد الدخول اليها ، فامتنع اهل فاس (٦) بقيادة ابي حسون الوطاسي ومحمد القصري

١) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣ أ-٢٤ أ
٢) لويز وسوزا المرجع السابق ص١٤٧-١٥٠ (سفارة ملك البرتغال الى السلطان احمد الوطاسي)
٣) في سنة ١٥٤٢ ، اطمع بحكم زوجته في تطوان ، وحكم صهره في دبدو ، وكان ولاء امير شفشاون ، غير ثابت

٤) تورس / المرجع السابق ص١٢٨
٥) نفسه ص١٥٢-١٥٧ : الافراني ص٢٧-٢٨ - السلاوي : الاستقصاء ج٤ ص١٥٦
٦) تورس / نفس المرجع ص١٦٤

ابن السلطان الوطاسي الاسير ، الذي بويع سلطانا موقتا ، خلفا لوالده واستعدوا لمقاومته .
وكاتب محمد الشيخ اعضاء الاسرة الوطاسية ، واعيان فاس يطلب منه تسليمه مدينة مكناسة في مقابل
اطلاق سراح السلطان الاسير ، وهدد باستعمال القوة لتحقيق طلبه (1) .

الا ان خوفه من ان يغتنم اخوه فرصة غيابه عن مراكش بمعظم قواته فيقدم على استعادتها
جعله يعود الى مراكش ، ومعه السلطان الوطاسي الاسير دون ان ينفذ تهديده . وقد كان
الفاسيون من جهة اخرى قد استعدوا لمقاومته ، ثم ان الاسرة الوطاسية قامت بتوجيه نداء الى
السلطان العثماني سليمان القانوني يطلبون منه التدخل لدى محمد الشيخ لاطلاق سراح
السلطان الاسير (2) .
وكان رد فعل السلطان السعدي الاسراع الى القضاء على الدولة الوطاسية قبل ان يستفحل
التدخل العثماني في المغرب ، دون اهمال توجيه بعض الحملات ضد الحامية البرتغالية في
مازاكان لزيادة شعبيته ، والظهور بمظهر المجاهد الساعي الى توحيد اجزاء المغرب . ومن
اهم هذه الحملات حملة محرم ٩٥٤هـ/١٥٤٧م تمكنت من الانتصار على (لويس دولوريرو)
حاكم مازاكان ، بعد استدراجه الى خارج اسوار المدينة المنيعة وكان سيقبض عليه بعد اصابته
بجراح (3) . فهذه الانتصارات المتوالية لمحمد الشيخ على الوطاسيين والبرتغاليين جعلت هؤلاء
واولئك يسعون كل من جهته الى التقارب والتعاون ضد السعديين العدو المشترك ، ولكن
الثقة بين الطرفين والاخلاص في نواياهما كانت منعدمة فيما يبدو ، ولذلك لم تتبلور مساعيهما
الى حركة او فعل حقيقي .

ضم محمد الشيخ لفاس والقضاء على الدولة الوطاسية ٩٥٦هـ/١٥٤٩ : لم تنجح الوساطة
العثمانية ، وكل المساعي والجهود الاخرى في اطلاق سراح السلطان الوطاسي الاسير ،
لان محمدا الشيخ اصر على ان تكون مدينة مكناسة القريبة من فاس ، ليتخذها بدون شك ركابا
لاحتلال هذه الاخيرة ، فرضخ الوطاسيون لشرطه (4) . وعاد احمد الوطاسي الى ملكه في
جمادى الثانية ٩٥٤هـ / اوت ١٥٤٧م بعد نحو سنتين من الاسر في مراكش ، واخذ يعمل على تعزيز
قوته للثأر من خصمه وطلب مساعدة برتغالية ، مماثلة للمساعدة التي قدمها شارلكان

1) طوريس : المرجع السابق : ص١٦٤ وابن القاضي ، الدرة ج٢ ص٩٦
2) طوريس : نفس المرجع السابق ص ٢٠٧
3) نفسه ص١٧١-١٧٦
4) م.م.ب.ت.م فرانسا ج١ ص١٤٩
5) طوريس : المرجع السابق ص ٢١٥

لطاني تونس وتلمسان(1)، ووصل بيده بعد احمد الاعرج(2)، فاتخذ محمد الشيخ ذلك ذريعة
قضاء على الدولة الوطاسية التي تقلص نفوذها كثيرا بعد تسليم مكناسة ، اذ ان مناطق عديدة
ت قد خرجت قبلها عن طاعة سلطان فاس قبل معركة وادي درنه في سنة 1545م وبعدها
نها تطوان التي تمكن فيها محمد الحسن المنظري من الاطاحة بحكم السيدة الحرة، زوجة
سلطان الوطاسي، في اواخر سنة 949هـ/1542م، وفي نفس الفترة نجح مولاي عمار في الاطاحة بحكم
فيه في دبدو واستقل بالامارة .

ومهد محمد الشيخ لحملته على فاس بأنه بعد يطلبها من السلطان الوطاسي ، ولما كان جواب
هذا الاخير هو الرفض كما كان منتظرا اسير السلطان السعدي حملة الى فاس في 955هـ/1548م.
عد الوطاسي قوات كبيرة لمواجهتها ، وبداه عدد من حليفه احمد الاعرج بقيادة ابنه زيدان ،
كان النصر هذه المرة في المعركة التي دارت رحاها قرب فاس في 23 ربيع الاول 955هـ / في
/5/1548 حليف الوطاسيين(3)، فأعد محمد الشيخ حملة اخرى ضخمة قوامها ثلاثون الفا
من مشاة وفرسان قادها بنفسه(4) في رمضان 955هـ/اكتوبر 1548 وحاصر بها مدينة فاس(5).

وقد تخلل الحصار مناوشات واشتباكات عديدة ، خارج اسوار المدينة ثم في داخلها ، تكبد فيهما
الطرفان خسائر كبيرة كما تخللته مفاوضات بين السلطان الوطاسي ، ومحمد الشيخ ، لم يقبل
هذا الاخير فيها بغير تسليم فاس اليه . وتحمل السلطان الوطاسي ومعه اهل فاس الحصار
بضعة اشهر ، معتقدين ان فصل الشتاء كفيل باجبار السلطان السعدي على الانسحاب
الا ان هذا الاخير لم يفعل ، بل وشدد الخناق على المدينة حتى اضطر السلطان الوطاسي
الى الاستسلام له ، بعد ان اخذ منه تعهدا بعدم الحاق الاذى بأهل فاس وذلك في شهر
جانفي 1549م(6) .

ودخل السلطان السعدي فاس منتصرا، وعفا عن اهلها، وحصل على بيعتهم، وسارعت المناطق
والقبائل الى اعلان خضوعها له ، ومن لم يفعل كمولاي عمار امير دبدو وابي حسون امير بادس، وبعض
المدن في شرق المغرب كغرسيف وغيرها ، ارسل جيشه لاحتلالها أو اخضاعها ، وتحقق ذلك
بسهولة، اذ آثر امير دبدو الفرار(7) الى الاسبان في مليلة على المقاومة ، وفر ابو حسون من بادس
الى مليلة ايضا ، وخضعت غرسيف وكل مدن شرق المغرب بما في ذلك وجدة التي كانت تحت(8)

---

(1) م.م.ت.م : اسبانيا ج 1 ، ص 214 ، رسالة بتاريخ 4/11/1547
(2) القشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم ، الرباط 1972 ص 74 .
(3) م.م.ت.م : البرتغال ج 4 ص 268
(4) طوريس : المرجع السابق ص 243
(5) انظر عن حصار فاس وما تخللته نفس المرجع ص 224 - 232 الجمهون : المرجع السابق ص 15 -
(6) م.م.ت.م : اسبانيا : ج 1 ص 149
(7) نفسه : ص 421 - 423
(8) نفسه : ص 233 و طوريس : المرجع السابق ص 246 - 248

ن الاتراك ودفعت المخاوف البرتغاليين الى الرحيل عن آصيلا ، والقصر الصغير في عام ٩٥٦هـ/١٥٥٠م[1]
ذلك دان له كل المغرب ، وتوحد تحت سلطة في دولة واحدة ، فيما عدا الارسبتة وطنجة ومازاكان .

المغرب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (عهد محمد الشيخ وابنائه)

مرحلة الثالثة من دولة الدولة السعدية (٩٦١ - ١٠١٢هـ / ١٥٥٤ - ١٦٠٣م) :
خلت الدولـــة

سعدية في مرحلة جديدة بعد ان انضوت كل اجزاء المغرب تحت لوائها ، وهذه المرحلة تتميز
ى السعيد الداخلي بسعي محمد الشيخ وابنائه من بعده الى توطيد الوحدة المغربية ، وترسيخ
عائم حكم الاسرة السعدية .

وتميزت على الصعيد الخارجي، بسعي محمد الشيخ وابنائه الى التوسع نحو الشرق، ولا سيما
حو الجنوب على حساب البلاد المجاورة لهم في الجهتين المذكورتين ، مما جعل علاقاتهـــم
جيرانهم يغلب عليها العداء والتوتر ، الامر الذي دفع السعديين نحو التقرب من القوى الخارجية
وربية، كما سنرى ذلك مفصلا في الفصل الرابــــع ، وفي بعض فقرات هذا الفصل .

- جهود محمد الشيخ وسياسته على الصعيد الداخلي :

عمل محمد الشيخ بعد تقويضه لدولة الوطاسيين في فاس ، واخضاعه لكل شمال المغـــرب
شرقه على اقامة حكم مركزي قوي تكون سلطته فيه مطلقة ، لا ينافسه ولا يناوئه احد ، سواء مــن
اخل اسرته او من فلول الاسرة الوطاسية ، او من القوى الدينية او القبلية التي كانـــــت
شة فيه :

تحقيقا لهذا الغرض، ارسل كاف كرنا منذ قليل حملة الى شرق المغرب لاخضاع من لم يبــادر
ى اعلان خضوعه وولائه ، ونشيشانه ارسل ايضا حملة الى تافيلالت اجبرت اخاه احمد الاعــرج
بناءه الذين تحالفوا ضده مع السلطان الوطاسي ، على الجلاء عنها[2] ، وقمع الثــــورات
عديدة التي قامت في اعقاب انكسار حملة ابنائه في تلمسان امام اتراك الجزائر العثمانيــن ،
ي مطلع ٩٥٨هـ/١٥٥١م، واتهم بهذه المناسبة السلطان الوطاسي المخلوع بالتحريض علـــى
ثورة التي قامت ضده في الاطلس فأمر بقتله/وقتل ابنائه واقاربه[3] ، الذين كانوا موزعين على مدن
نوب المغرب في جويليه ١٥٥١ خشية على ملكه من بقائهم على قيد الحياة ، ولكن تسرعـــه
الهجوم على تلمسان ، جعل الاتراك العثمانيين يؤيدون ابا حسون بحملة زعزعت ملكه اذ استرجع
منه
سلها هذا الاخير مدينة فاس في مطلع صفر ٩٦١هـ (يناير ١٥٥٤م) وبعث الدولة الوطاسيــــة

---

(1) ســرزا : المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥
(2) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٧
(3) م. م. : اسبانيا ج ١ ، ص ٦٠٥ - ٦٠٧

بها ،كما استرجع مولاي عمار بهذه المناسبة امارته في دبدو ،وعاد بنفس المناسبة احمد الاعرج وابنه زيدان الى تافيلالت[1] مما تطلب منه بذل جهد كبير خلال بقية سنة (٩٦١هـ/١٥٥٤م) لاسترجاع فاس من ابي حسون،الذي اخذ فور عودة الاتراك منها الى الجزائر في اعداد الجيوش، تمهيدا للجولة القادمة معه،والذي جدد الاتصالات مع البرتغاليين[2] ، وعقد حلفا دفاعيا وهجوميا ضد محمد الشيخ والاعرج[3].ولاسترجاع تافيلالت من اخيه وفاس من ابي حسون ،جهز جيشين لضرب كل من الطرفين المتحالفين في نفس الوقت وكل واحد على انفراد ،احدهما بقيادة ابنه عبد اللـــه وهذا وجهه الى فاس ضد ابي حسون(رجب ٩٦١هـ/جوان ١٥٥٤) ،والاخر تولى قيادتـــه هو،وسار به ضد اخيه وابنائه وحاصرهم في تافيلالت . وبينما انكسر الجيش الاول وانهـــزم شر هزيمة[4] ، تمكن الجيش الثاني بفضل مكر محمد الشيخ وخداعه،من الدخول الى تافيلالـــت والقبض على اخيه وابنائه فيها . وبذلك تفرغ لابي حسون بكل قواته ،وعلى مقربة من فاس ،جـــرت معركة بين الطرفين السعدي والوطاسي في شوال ٩٦١هـ/ سبتمبر ١٥٥٤م استبسل فيهـــا ابو حسون قبل ان يغتاله غدرا احد اعوان محمد الشيخ الذين اندسوا في صفوفه ،فاضطـــرب جيشه وانهزم ،ولاذ اثنان من ابناء ابي حسون الى الفرار . واستقر احدهما عند الاسبان والآخر عند الاتراك في الجزائر . ودخل محمد الشيخ ظافرا الى فاس للمرة الثانية في ٢٤ شوال ٩٦١هـ ١٥٥٤/٩/٢٢[5] .

ولم يغفر هذه المرة للفاسيين تأييدهم لابي حسون وترحيبهم بعودته الى فاس فـ " تحكـــم في اهل فاس بالاذلال " والاهانة واذن حسائفه فيهم وقهر اهلها بانواع الافعال ،وولى اكثرهم للمشرق ،واجلاهم للجبال والبوادي وفصل بهم السبائب من الافعال ذوات الصائب[6] وطالبهم بتعويض ما اخذه الاتراك العثمانيون من امواله غداة دخولهم الى فاس،وكان يقتل كل من حـــاول اخفاء امواله هروبا من التعويض وبلغ عدد الذين قتلهم من اثرياء فاس الستين[7] لمحاولتهـــم اخفاء اموالهم .

لقد قضى محمد الشيخ بقتله ابا حسون،الذي كان اخطر مناوئيه — على الدولة الوطاسيـــة بصفة نهائية ، اذا لم يستطع احد من الامراء الوطاسيين الذين استقروا عند اتراك الجزائـــر العثمانيين ان يهدده،او يحيي الدولة الوطاسية من جديد .

---

1) سيأتي الحديث عن هذه الحملة في فصل العلاقات السياسية الرابع.
2) م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ١٦٥
3) طوريس / المرجع السابق ص٢٧٢-٢٧٦
4) طوريس نفس المرجع ص ٢٧٨ و : م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ١٧١ - ١٧٤
5) طوريس : المصدر السابق ص ٣٨٦ - ٣٩٠ و م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ٢٠٨ ، ٢٤٩
الافراني : المرجع السابق ص٣١ ، المجهول : المرجع السابق ص٢١
6) المجهول : المرجع السابق ص٢٢
7) طوريس : المصدر السابق ص ٣٩١-٣٩٢

ى بأسره أخاه احمد الاعرج وابناءه على المناوئين له ، من داخل اسرته ، ولكن محمدا
يخ لم يطمئن على ملكه ، الا بعد ان قتل ايضا كبار انصار الوطاسيين في فاس من العلماء
فقهاء امثال القاضي عبد الوهاب الزقاق في فاس (1) وخطيب مكناسة ابي علي حرزوز (2) والمفتي
الواحد الونشريسي (3) وغيرهم الذين كانوا يوالبون الناس عليه في خطبهم واحاديثهم
هم ويرفضون الولاء له .

قفه من القوى الدينية : وفي سبيل ارساء دعائم الملك وتوطيدها لم يتردد محمد الشيخ
ى كان يتخوف على ملكه من المرابطين والمتصوفة ايضا ، لدخول السعديين الملك من بابهم ،
امتحان ارباب الزوايا المتصدرين للمشيخة ، الذين كان يشك في حقيقة نواياهم ، وولائهم
فضع زواياهم للمراقبة وافتتش (4) فاخلى بعضها ونفى اصحابها الى اماكن معينة كسيدي عبد الله
ونى الذي اغلق زاويته في مراكش ، وامر برحيله الى فاس (5) وابي علي الحسن الصباحي (6) وغيرهما (7)
م يتردد ايضا في قتل المعارضين لسياسته التعسفية كأرباب زوايا الاطلس الكبير
يرهم .

وكان محمد الشيخ قد الغى جميع الامتيازات التي كان ارباب الزوايا يتمتعون بها كالاعفاء
ن اداء الضريبة .

ولكن هذه المواقف الصارمة التي وقفها او اتخذها محمد الشيخ تجاه القوى الدينية لم
حقق الغرض المتوخى ، اذ ان هذه القوى التي قضى على امتيازاتها ، لم تخضع ولم تستكن له
لا رهبة من بطشه ، وظلت تتحين الفرص للثورة عليه ، بل وللقضاء على حكم اسرته . واول
ذه الفرص السانحة للثورة كانت في اعقاب انهزام (محمد الشيخ) امام حملة صالح رايس
ابي حسون على فاس في سنة (961هـ/ 1554م) حيث اشتعل لهيب الثورة في مختلف جهات
لمغرب بدعم وتحريض من تلك القوى التي فقدت امتيازاتها السابقة. وهذا ما جعل
محمدا الشيخ ينفق مجهوده في السنوات الاخيرة من حكمه في التحرك لقمعها .

---

1) انظر عنه ابن عسكر ص 43-44
2) نفس المرجع ص 62-63
3) نفس المرجع ص 43-44
4) الافراني : النزهة ص 41
5) نفسه ص 41 ، ابن عسكر : دوحة الناشر ص 81-82
6- ابن عسكر : المصدر السابق ص 64 - 65
7) طورس المرجع السابق ص 141

ولا يعني هذا ان محمدا الشيخ لم يكن يحاول ابدا كسب القوى الدينية الى جانبه عن طريق اللين ، ومجاملة بعض كبار المرابطين الذين لا يتوجس خيفة منهم او من اتباعهم كسيدي حمزة المراكشي (١) ، وغيره ، فأمثال سيدي حمزة كانوا موضع التقدير لديه .

موقفه من القوى القبلية : وكما اتسم موقف محمد الشيخ بالشدة والحزم تجاه القوى الدينية كان موقفه كذلك تجاه القوى القبلية ، ولا سيما المتذبذبة في ولائها كقبائل الغرب (غرب مملكة فاس) وغيرها التي تخلت عنه في معركة كدية المخالي قرب فاس ، التي خاضها ضد حملة صالح رايس ، وابي حسون ، ومالت الى صفوف هذا الاخير فجرت عليه الهزيمة ، والتي قامت بعد ذلك بنصرة ابي حسون ضد جيشه بقيادة ولده عبد الله ، فلما تمكن من القضاء على الدولة الوطاسية للمرة الثانية ((.. انتزع خيلهم وارجلهم كافة ، وضرب عليهم الخراج ، ونظمهم في سلك الرعايا الغارمة .. وغرب اعيانهم ورؤساءهم كافة بأولادهم الى مراكش والقاهم بضيعة منها فلم يجر لهم رزقا ، ولا اقطعهم وطنا ولا ضرب لهم بسهم واغرب بهم صروف الدهر وجوب الفقر (٢))) .

وكان محمد الشيخ من جهة اخرى يقوم بنقل القبائل من جهة الى اخرى سواء لتحقيق الامن ، او لاضعاف شوكة تلك القبائل او للاستفادة من خدماتها في الموقع الجديد . وهكذا نقل على سبيل المثال عرب الرحامنة من تفاوست بأقصى جنوب المغرب ، الى تامسنا بغربي مملكة فاس (٣) ، وهذه السياسة التي اتبعها محمد الشيخ تجاه القبائل الموالية والمعادية اتبعها ايضا خلفاؤه كما سنرى .

اهتمام محمد الشيخ بالجيش :

حتى يفرض سلطته على كامل اجزاء المغرب ، ويقيم حكما مركزيا قويا في مغرب غدا متعودا على تجزؤ السلطة وتفتتها ويستطيع الدفاع عن هذا الاخير ضد التدخلات الخارجية ، ويحقق طموحاته في التوسع شرقا وشمالا وجنوبا ، اولى محمد الشيخ اهتماما كبيرا بتكوين جيش نظامي قوي كبير فعمل على الاستكثار من الجيش ، وعلى تسليحه تسليحا جيدا ، وهذا الامر جعله دوما في حاجة كبيرة الى المال وبشكل منتظم . ولتوفير هذا المال :

---

(١) قال ابن عسكر في ترجمته : كان .. قائما على العبادة في مقام الزهد والورع والتعفف عن الدنيا حتى خرج منها ، ولم يلتصق به منها شيء .. جاء الخبر الى السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ بأن الشيخ حمزة في النزاع فقال السلطان لاولاده اذهبوا لحضور وفاة هذا الولي .. انظر الدوحة ص 99

(٢) القشتالي : مناهل الصفاء ص ١٠٩

(٣) الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٧

ـ اهتم بالتجارة الخارجية فنشطها ، وعمل منذ كان ولي عهد لاخيه على استمادة الحيوية والنشاط الاقتصادي للجنوب المغربي ،الذي كان قد تأثر كثيرا بالغزو البرتغالي ، وبتحول محاور التجارة بعد اضطراب الامور فيه نحو الشرق ، وذلك بأن قام بعدة خطوات ، وضعناها في باب العلاقات الاقتصادية بحيث اوجد مدخولا هاما من التجارة في السكر وغيره من المواد مع الدول الاوربية . كان يمكنه من الانفاق على جيشه وتسليحه . وقد كان يتبادل السكر بالاسلحة الاوربية الحديثة والعتاد الحربي وغير ذلك مما يحتاجه .

ولكن موارده من التجارة في السكر والثروات الباطنية ومن الرسوم الجمركية لم تكن منتظمة ولا كافية لتغطية احتياجاته المتزايدة الى المال ، ولذلك فقد :

ـ اهتم ايضا بالضرائب وجمعها وتنظيمها فالغى الاعفاءات الكثيرة التي كانت تتمتع بها بعض الفئات الاجتماعية كالمرابطين والاشراف ، وبعض المناطق المنعمة المستعصية . وفرض ضريبة الخراج على الارض المنتجة في السهل والجبل . واستصدر بشأنها فتوى من اهل العلم والدين.(1)

وكان عبد المؤمن الموحدي ، قد سبقه الى فرض الخراج على الارض المغربية واستحدث ضريبة سماها النائبة او ضريبة الرأس ، وفيها يقول الافراني : (وكانت هذه النائبة في زمن السلطان ابي عبد الله محمد تفرض على حساب السكان ، ويفرض الشيء الخفيف في ذلك .(2)) اما طوريس المعاصر لمحمد الشيخ فيحدد مقدارها بأربعة اخماس الدوكات عن كل رجل وامرأة ابتداء من سن ١٢ سنة(3) .

وكان محمد الشيخ لا ينزه عنها احدا(4) ، وعنده " المسلمون كلهم سواء في هذا الامر(5) " .

ولكن سياسته الضريبية لم تكن دون معارضة شديدة من قبل السكان ، فالضريبة التي استحدثها ظل المغاربة ينظرون اليها على انها ضريبة غير شرعية ، كما كان ينظر اصحاب الاراضي الجبلية على الخصوص الى ضريبة الخراج على انها ايضا غير شرعية باعتبار ان الجبال في المغرب لم تفتح عنوة من قبل الفاتحين المسلمين حتى يلزمها الخراج ، بدل الزكاة فقط .

---

١) الافراني : النزهة ص ٣٦
٢) نفسه ص ٣٦
٣) طوريس : المرجع السابق ص ٤٠
٤) الافراني : النزهة ص ٤٠
٥) ابن عسكر : الدوحة ص ٨٥

وكان اصرار محمد الشيخ على تطبيق سياسته الضريبية سببا في قيام ثورات عديدة منها ثـــورة سكان جبل الاطلس الكبير في ٩٥٤هـ/١٥٤٧م. وقد حمّل السلطان مسؤولية هذه الثـــورة لشيوخ الزوايا في المنطقة الثائرة، فقتل احد عشر منهم (١)، ولكن قتلهم لم يزد سكان المناطق الجبلية الا نقمة على سياسته، فعانى كثيرا في سبيل اخضاعهم.

وبفضل الموارد الكثيرة (٢) التي حصل عليها محمد الشيخ من التجارة والرسوم الجمركيـــة والضرائب المختلفة، استطاع ان يكون جيشا نظاميا كبيرا قدر بنحو عشرة آلاف، غير ما ينضاف اليه في حالة الحرب من قبائل الجيش (٣) المخزنية". كما استطاع ان يوجد بعض المنشـــآت الهامة كبنائه لميناء آغادير (٤)، وجسر ام الربيع، ومعاصر السكر في السوس وغير ذلك.

<u>التنظيم الاداري</u>: اما ما يتعلق بتنظيم شؤون دولته الداخلية التي اختار لها مدينة مراكـــش عاصمة بدلا من مدينة فاس، هذه المدينة التي لم يشعر فيها بالاطمئنان ليس فقط خوفـــا من اهلها الذين مالت قلوبهم مع الوطاسيين، ولكن ايضا من جيرانه الاتراك العثمانيين، فقـــد استعان بخبرة الوزير الوطاسي الاسبق قاسم الزرهوني في " الذي علم السعديين " كيف يباشـــرون الامور مع اعيان القبائل وأكابر القوم، وكيف ينعقد الديوان، ومن يختص به من العلمـــاء والادباء والكتاب والعقلاء والقواد، وكيف يكون قعودهم ومنازلهم في المجالس الى غير ذلـــك من الامور ... وضبط لهم ملكهم، وزينه، وشرّف امرهم وحسنه واعلى منازلهم واتقنه (٥) .. "

ذلك ان السعديين كانوا حتى دخولهم الى فاس لا يزالون بدوا في هيئتهم وطريقـــة حياتهم، وادارتهم للأمور فتغيرت حياتهم على يد الوزير المذكور الذي علّمهم ايضا " كيف يلبســـون الثياب، وكيف يشدون الشدود والعمائم وكيف يركبون المراكب بزي عجيب، وكيف يشهـــرون السلاح (٦) .. "

الا ان جهاز محمد الشيخ الحكومي كان معظمه من اهل الجنوب حيث جعل قضاته مـــن اهل السوس وحكامه منهم، والولاة في كل خطة منهم (انهم كانوا انصاره واعوانه (٧))، وقد قسم محمد الشيخ المقاطعات المغربية ومدنه الرئيسية على اولاده. فكانت مدينة فاس تحت ادارة ولي العهد، ومدن تارودانت، وسجلماسة، ومكناسة تحت حكم اولاده الآخرين.

وكان جهازه الحكومي المركزي يتألف من الوزير الكاتب الرئيس (كاتم السر)، وحاجب القصر وامين المال، وعديد من القادة لمختلف المهمات والقضاة، وجباة الضرائب وحرس السلطان، واصحـــاب المشورة واقارب السلطان (٨).

١) طوريس: المرجع السابق، ص ١٩٤
٢) نفســه: ص ١٠٠
٣) نفسه: ص ٣١٦
٤) مرسيه: المرجع السابق ج ٣ ص ٨٧
٥و٦و٧) المجهول: المرجع السابق ص ٢٤
٨) طوريس: المرجع السابق ص ٣١٥-٣١٩

ب - العلاقات الخارجية لمحمد الشيخ :

١ - مع بلاد السودان :

توجهت انظار السعديين منذ قيامهم في جنوب المغرب نحو بلاد السودان بحكم العلاقات التجارية التي كانت بين هذه المنطقة من المغرب ، وبلاد السودان . وسعوا الى بسط نفوذهم على معادن الملح في تغازة شمالي بلاد السودان وكاتبوا بشأنها السلطان السوداني لاسكيا اسحاق الاول وطلبوا منه التنازل عنها لهم ، وهذا في عهد أحمد الاعرج ، فلم يجبهم الى طلبهم [1].

ولما آل الحكم الى أخيه محمد الشيخ في سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م كاتبه مرة أخرى في نفس الموضوع وكان رده ليس فقط الرفض وانما ارسال حملة الى درعة بجنوب المغرب فاكتسحت في احدى اسواقها ثم رجعت ، فجهز حملة استولت على المعادن المذكورة وعلى ودان . كان رد فعل السلطان السوداني ... ة طح تغازة . ثم تطور الامر بعد ذلك الى التفاهم على اساس ان يتنازل السلطان ... ي عن معادن الملح لأسكيا مقابل نصيب معلوم من المال [2].

وهكذا بدأت العلاقات ... ية - السودانية بداية صعبة تميزت بالتهديد واستخدام القوة .

ب - مع البلاد الاوربية :

كانت العلاقات مع أوربا ... بية باستثناء اسبانيا والبرتغال علاقات سلمية وتجارية بالخصوص . وشجع محمد الـ ... التجار الأوربيين على المجيء الى المغرب للتجارة بمعاملة حسنة لهم وضمان أمنهم في بلاده فأقبلوا اليه وحقق الجانبان المغربي والأوربي أرباحا كبيرة .

أما العلاقات مع اسبانيا والبرتغال فكانت سياسية وذات طابع عنيف في البداية ، وسلمي نهاية عهده حين وجد نفسه مهددا من أتراك الجزائر . وتذهب الوثائق كما سنرى في الفصل الثالث الى أنه سعى الى عقد تحالف مع الاسبان ضد هؤلاء في أعوامه الأخيرة ، كما أنه عقد هدنة مع البرتغاليين في سنة ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م لمدة ستة أشهر ثم طالت [3].

---

[1] عبد الرحمن السعدي تاريخ السودان تحقيق هوداس باريس ١٩٦٤ ص ٩٩
[2] نفسه ص ١٠٠ والفشتالي المرجع السابق ص ١٢٠ ، ومارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤
[3] ... اسبانيا ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ... البرتغال ... ج ٣ ص ٧

٣ــ أما علاقاته مع جيرانه الاتراك العثمانيين فكانت كما ورد معرضا تتميزبالعداء والعنف ، وسنرى في فصل العلاقات السياسية[أ] أسباب ذلك بالتفصيل الممكن ، ونكتفي الآن بالاضافة الى ما تقدم أن محمد الشيخ قد مات مقتولا في ذى الحجة ٩٦٤ هـ/ اكتوبر ١٥٥٧م على يد أتراك بعثهم حاكم الجزائر خصيصا لاغتياله . (١)

ويلاحظ انني اطلت الوقوف قليلا عند عهد محمد الشيخ ، وعذرى انه كان الموحـــد للمغرب ، فهو الذى ((أقعد قواعد الملك وأسس مبانيه واحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة ...)) ورسم سياستها الداخلية والخارجية ، ومنها علاقاته مع جارته الجزائر التـــي ظلت تسير طبقا[(٢)] في عهده وعهد خلفائه .

عبد الله يخلف والده ويسير على نهجه :
1 ــ سياسة الداخلية :

آل الحكم في المغرب بعد مقتل محمد الشيخ ع[...] تراك كما ذكرنا ، الى ولده عبد الله الملقب بالغالب بالله ، الذى كان يقيم في فاس وكان [...] قام بعد أن بايعه أهل فاس شـــم أهل مراكش ، دون أي معارضة ، هو الانتقام من [...] ده الذين التجأوا الى قصبة مدينـــة تارودانت . وما كان يحقق غرضه الى حتى قاد حسـ[...] ر الدين حاكم الجزائر حملة في ربيـــع سنة ٩٦٥هـ ماي ١٥٥٨م ضد فاس . ونجح عبد ا[...] صدها ، بل والانتصار عليها . وسنعود للحديث عن هذه الحملة بمزيد من التفصيل في الفصـ[...]ـــر ابـــــع . ولكن الوئام الذى كان بين عبد الله واخوته سرعان ما حل بدله الشك والظن ، مما جعل السلطان السعدى الجديد يقضـــي على اخيه عثمان[(٢)] الذى قام بدور كبيـــر في صد الحملة الجزائرية . (٢) فخافه اخوته الآخرون وهم عبد الملك ، وعبد المومن ، وأحمد ، وفروا الى الجزائر عند اتراكها العثمانيين . (٣) فخلا له الجو فعين ولده محمدا وليا للعهد ، وناثبا له على فاس ، وهذا مخالف للقاعدة التي وضعها القائم بأمر الله ، والتي تقضي بأن يلي الحكم الاكبر فالاكبر من الابناء في الاسرة . (٤)

وقد كان وجود اخوته عند الاتراك في الجزائر يثير لدى عبد الله مخاوف كبيرة . اذ كـــان يخشى أن يأتوه بحملة منها كما أتى أبو حسون من قبلهم[ربما] . ولذلك كان عبد الله اهتم كثيرا بـــ ((تربية الجيوش وترتيبها ، وادخار الذخائر ، واستعدادها ، وتكثير العدة وآلات الحـــرب ، وتعمير خزائن البارود واهرية الزرع ، وغير ذلك مما يحتاج اليه ، ويتحصن به من الوقائـــع ،

١ــ الافراني : المرجع السابق ص ٤٤

٢ ــ نفســـــه ص ٥٥

٣ــ المجهول المرجع السابق ص ٣٦

٤ ــ نفســـــه

ويحصل به الدفاع ...)) [1] ، وأبقى على النظام الضريبي الذى وضعه والده ، من أجل توفير المال اللازم لترقية هذه الجيوش واستكثارها . وأولى عناية كبيرة ايضا لزراعة قصب السكر والتجارة فيه ، فكان يحصل على مورد هام من التجارة فيه .

موقفه من القوى الدينية :

وأمام شعوره بالخطر الخارجي ، ولا سيما من جهة الشرق ، وبالخطر الداخلي على ملكه بسبب الثورات التي قامت نتيجة سياسة والده الضريبية وغيرها ، تقرب عبد الله من بعض كبار المرابطين مثل أحمد بن موسى الجزولي [2] ، وغيره . واستعان بما كان لهم من تأثير في توطيد ملكه ، وتهدئة الجنوب المغربي الذى كان ثائرا منذ عهد والده .

الا أن عبد الله كان من جهة اخرى متشددا ، حازما ، تجاه كل من يعارض سياسته أو يتشدد في ولائه له ، كموقفه على سبيل المثال من أتباع ابي العباس أحمد بن يوسف الذين كان يعتقد أنهم من الموالين للاتراك كشيخهم المذكور ، [3] فقد قتل بعضهم ، وسجن آخرين بدعوى الزندقة والضلال .

موقفه من القوى القبلية :

وفي أجواء الخطر الخارجي مال عبد الله أيضا الى تحسين علاقاته مع القبائل العربية ، بما في ذلك القبائل التي نكبها والده . فالتفت الى اعيانها الذين كان والده قد غربهم الى مراكش وأسكنهم فيها . ((وأجرى لهم رزقا ، وألحق لهم فرسانا ، فأقاموا يرتضعون أخلاف تلك الجراية الثقيلة ...)) [4] .

موقفه من القوى الاقطاعية :

هذا في حين كان موقفه في غاية الصرامة تجاه المعارضين لسياسته المهادنة والمسالمة للاسبان ، مثل امراء شفشاون ، ومقدمي تطوان ، الذين كانوا يقومون بالجهاد ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية في شمال المغرب ، ويعارضون دوما مهادنة النصارى المحتلين ، ومسالمتهم ، وهذا منذ عهد الوطاسيين . فوجه حملة في الثاني من صفر سنة ٩٦٩هـ ((١٢/١٠/١٥٦١)) بقيادة ولد أخيه محمد بن عبد القادر ، قضت على امارة بني راشد في شفشاون ، التي تأسست قبل نحو قرن من الزمان . [5] ثم أخرج بعد ذلك في ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م القائد الحسن عن

١ـ نفسه ص ٣

٢ـ الافراني : المرجع السابق ص ٤٨

٣ـ آ. كور : المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ابن عسكر المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٢ .

٤ـ الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠٠ ـ ١١٠ .

٥ـ ابن عسكر : المرجع السابق ص ٢٢ مارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧٣ السلاوى : المرجع السابق ج ٥ ص ٤١ .

تطوان بعد عزله . (1) وانتهزفرصة موت امير دبدو و مولاي عمار في سنة ٩٧٠ هـ/١٥٦٣م ليقضي نهائيا على امارة دبدو التي مضى على تأسيسها هي الاخرى نحو قرن من الزمان (٢) ، وليقيم بها حاكما مع حامية قوية لحمايتها من الاتراك العثمانيين والمتعاونين معهم من قبائل شرق المغرب.

2 ـ علاقاته الخارجيـــــة : اما علاقاته الخارجية فتميزت بسعيه الى توطيد العلاقات مع الدول الاوروبية الغربية كفرنسا وانكلترا وباستمراره في التقرب من الاسبان ، ومهادنة ملوك بلاد السودان ، في حين تميزت علاقاته مع جيرانه أتراك الجزائر العثمانيين بالتذبذب كما سنرى ذلك مفصلا في فصل العلاقات السياسية . أما الآن فنلقي مزيدا من التوضيح على علاقاته مع الدول الاوروبية المختلفة ، لما كان لبعضها من أثر في علاقاته مع الجزائر .

أ ـ علاقاته مع فرنسا ومملكة نافار :

حصل بين عبد الله وبين فرنسا تقارب عن طريق الامير انطوان دوبوربون ، أمير نافار في سنة ٩٦٧هـ / ١٥٥٩م . وقبل عبد الله ان يسلم للامير المذكور مدينة القصر الصغير الواقعة على المضيق بين سبتة وطنجة المحتلتين من قبل البرتغاليين . وقد جلا عنها هؤلاء في سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م . كما وافق على تقديم التسهيلات التجارية والامنية الممكنة للفرنسيين ، على أن يمده هؤلاء في مقابل ذلك بمساعدات عسكرية (٣) . ولكن فيليب الثاني استاء من هذا التقارب الذي ينطوي على تهديد لاسبانيا في حال تجدد النزاع بينه وبين فرنسا لقرب موقع القصر الصغير من اسبانيا وانتهى الامر بتراجع عبد الله عن عرضه السابق الذكر وبذلك فشل التقارب بينه وبين انطوان دو بوربون (٤) .

ب ـ علاقاته مع انكلترا :

سعى عبد الله الى التقرب أيضا من انكلترا التي لم تكن لها اطماع اقليمية واضحة في المغرب ، في هذه الفترة . فبعث رسالة الى اليزابيت ملكة انكلترا بتاريخ ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م يبدي لها فيها رغبته في صداقتها ، واستعداده لتلبية طلباتها .(٥) وقد كان التجار الانكليز يترددون على الشواطئ المغربية بقصد التجارة مع المغاربة حيث كانوا يحققون أرباحا كبيرة، وذلك على الرغم من حظر البرتغاليين التجارة مع المغرب

١ـ الزياني : المرجع السابق ص ٣٥

٢ـ مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٩٦

٣ـ م.م.م.ع.م : فرنسا ج ١ ص ١٧٨ - ١٨١

(4) Pierrot Desellígny (I):Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

٥ـ م.م.م.ع.م : انكلترا ج ١ ص ١٨

على الاوربيين كي لا ينافسوهم على التجارة فيه .

ب - علاقاته مع البرتغاليين :

كان السلم يغلب على علاقاته مع البرتغاليين ، اذا استثنينا حملته على مازاكان ((البريجة)) ، وحصاره لها بواسطة ابنه محمد وقائده على بن وده ، وعدد ضخم من المسلمين في ربيع سنة ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م ، ثم فكه الحصار قبل تحقيق النصر الكامل (١) . ويذهب صاحب تاريخ الدولة السعدية الى القول بأن رفع الحصار عن مازاكان والتخلي عن تحريرها ، كان لقاء تعويض مالي هام ، تلقاه عبد الله من البرتغاليين . بينما تعزو الوثائق سبب انسحاب المغاربة عن مازاكان الى صمود القوات البرتغالية، ووصول الامدادات الى القلعة المحاصرة (٢) . ولكن استلام دون سيباستيان ، الملك في البرتغال، وطموحه الى استرجاع كل المواقع التي جلا عنها البرتغاليون ، جعل عبد الله يسارع الى تحصين آغادير وغيرها، خوفا من الهجوم عليها (٣) .

د - علاقاته مع الاسبان :

ان عدم اطمئنان عبد الله على ملكه من جيرانه اتراك الجزائر، قد جعله يمضي في التقارب الذي بدأه والده مع الاسبان، واشترك فيه هو بصفته ولي عهد . وظهر اثر هذا التقارب في مواقف عديدة منها : تدخله في تلمسان في سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م في الوقت نفسه الذي تحرك فيه الاسبان وحلفاؤهم الاوربيون في حملة ضخمة لطرد الاتراك من كل شمال إفريقيا . (٤) وكذلك في موقفه السلبي من احتلال الاسبان لحجر بادس الذي كان بيد العثمانيين في سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٤م (٥) . وفي موقفه المتخاذل من ثورة مسلمي الاندلس التي اندلعت في مطلع ٩٧٦هـ/١٥٦٩م . فقد تقاعس عن مد المسلمين الثائرين في الاندلس بالمساعدة التي كان قد وعدهم بها قبل قيام الثورة، ((فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة ، وكذب عليهم، غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ...)) (٦) وكشف المؤلف المجهول ان موقفه

المجهول : المرجع السابق ص ٣٧ .

(2) Henri Torrasse: Histoire du Maroc. Casablanca 1950, t.2, P.181

مرسي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١

المجهول : المرجع السابق ص ٣٦ .

نفســـه : ص ٣٨

هذا كان يهدف تحقيق ((مصلحة لملكه الزائل ، وانه كانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات ، وانه استشار معهم واشار عليهم ان يضربوا اهل الاندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير مراسيه ، ويكون له منهم بمدينة فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه [1]))
أما المؤرخ مصطفى الجنابي [2] ، فيعزو سبب عدم تقديم عبد الله المساعدة لثورة مسلمي الاندلس الى افتقار عبد الله للسفن الناقلة حينئذ ، الامر الذى جعله يباشر في صناعتها [3]
والواقع ان الاسبان كانوا قد فرضوا رقابة مشددة على شواطئهم لئلا تأتي للثوار المساعدة ، سواء من المغرب او من الجزائر او من غيرها . وقد استغل عبد الله بالفعل المهاجرين الاندلسيين الى المغرب في اعقاب فشل ثورتهم ، فشكل منهم جيشه الاندلسي المؤلف من نحو ١٤٠٠٠ جندى سماه جيش النار وأقطعهم بمراكش اراض اغترسوها وجعلوا منها بساتين وجنات [4]. ولكن الاندلسيين لم يغفروا له تقاعسه ، وان هم لم يتمكنوا من خذلانه، فقد خذلوا فيما بعد ابنه محمد لدى محطة اتراك الجزائر العثمانيين مع عبد الملك السعدى الى المغرب كما سنرى .

د - علاقاته مع بلاد السودان :

كان اهتمام عبد الله منصرفا كليا الى الشمال ، ولا يبدو انه كانت لديه سياسة معينة بخصوص بلاد السودان ، كما كان لوالده وعمه احمد الاعرج ، فلم تذكر المصادر انه خطط او قام بحملة على بلاد السودان أو اطرافها ، او حاول ادخال تغيير عما آلت اليه الامور في عهد والده .
ومما تقدم نخلص الى القول ان عبد الله كان حريصا على مسالمة الاسبان ، وكسب ودهم وعلى اقامة علاقات حسنة مع الدول الاوروبية ، المعادية منها لجيرانه الاتراك العثمانيين ، وغير المعادية ، سعيا للحصول بذلك على الاطمئنان في مملكته . كما عمل على تحسين علاقاته مع القوى الداخلية . وبفضل ذلك تميز عهده بنوع من الهدوء والاستقرار ، قلما عرفه المغرب في عهود من سبقه ((فكانت ايامه ايام رفاهية وعافية))[5] مما سمح له بتشييد منشآت عديدة، مدنية وعسكرية وعلمية ، وان يستمر في الحكم فترة طويلة من ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م الى ٢٨ رمضان سنة ٩٨١ / ٢١ يناير ١٥٧٤م .[6]

التنافس على الملك بين محمد المتوكل على الله وعمه عبد الملك وعلاقاتهما الخارجية :

ان ايام الرفاهية والعافية التي تحدث عنها المؤلف المجهول في عهد عبد الله لم تدم طويلا بعده ، اذ ما لبث اخوه عبد الملك الذى كان لاجئا عند اتراك الجزائر العثمانيين ، ان ناوأ

١- نفسه ص٤٦
٢- هو مصطفى ابن حسن الهاشمي المتوفى سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م مؤرخ اصله من جنابة بفارس عين قاضيا في حلب سنة ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م انظر عنه الزركلي الأعلام ج ٨ ص١٣١ .
٣- مصطفى الجنابي العسر الزخار والعلم الطيار/ في/ مقتطفات مخفلة عن المغرب لفانيان الجزائر ١٩٢٤ ص٣٤٢ - ٣٤٧ .
٤- الفشتالي المرجع السابق ص٦٢ مارمول : المرجع السابق ص١١٦ م م ت م فرنسا ج١ ص٣١٨ .
٥- المجهول : المرجع السابق ص٣٣ .
٦- نفسه ص٤٠ ، دوريس المرجع السابق ص٢٣٤، الافراني المرجع السابق ص٦٥

ولده محمدا المتوكل على الله ، الذى خلفه في الملك سنة ٩٨٢ الى ٩٨٤ هـ / ١٥٧٤ الى ١٥٧٦م ، بدعوى انه الاحق به بمقتضى وصية محمد القائم بامر الله، مؤسس الدولة السعدية التي تجعل الملك ينتقل كما ذكرنا من الاكبر الى الاكبر في الاسرة من الأبناء ، باعتبار انه بات الأكبر في الاسرة بعد وفاة أخيه المذكور . وقد جرى بين الطرفين صراع عنيف ، استمر أكثر من سنتين ((بنفقت فيها أسواق الفتن وأظلم الجو بالهرج في سائر اقطار المغرب . . .)) (1) .

بدأ الصراع بهجوم عبد الملك تصحبه حملة جزائرية عثمانية في ذى الحجة سنة ٩٨٣ هـ / . مارس / ١٥٧٦ م على فاس ، وتتابع بهجوم محمد المتوكل على الله تؤازره حملة برتغالية ضخمة بقيادة ملك البرتغال دون سيباستيان في جمادى الاولى سنة ٩٨٦ هـ/أوت ١٥٧٨م ، تلك الحملة التي انهزمت شر هزيمة في الشمال المغربي ، في المعركة التي دارت بوادي المخازن في ٣٠ جمادى الاولى/الرابع من شهر أوت من السنة المذكورة، وانتهت بمقتل وموت الملوك الثلاثة عبد الملك ، ومحمد بن عبد الله ، ودون سيباستيان واعتلاء احمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور ، كرسي الملك .

وقبل التطرق الى عهد هذا الأخير ، نشير الى أن محمدا المتوكل على الله كان يتوقع من اعمامه الذين لجأوا الى الجزائر ان يناوئوه فأراد التخلص منهم وهو لا يزال ولي عهد لوالده في فاس . ونجح في اغتيال عمه عبد المؤمن الذى كان مستقرا في تلمسان (2) ولما آل اليه السلطان بعد وفاة والده أودع أخاه الناصر في السجن (3) خشية مناوأته له وقتل أخاه الآخر أبا النصر (4) وجند الاجناد ، احتياطا لمنازعة عميه عبد الملك وأحمد له . واحتياطا أيضا وتطويقا لمساعيهما حاول التقرب من الدولة العثمانية ، وتحسين العلاقات بينه وبين السلطان العثماني كما سنرى مفصلا في فصل العلاقات السياسية ، كما تقرب من اليزابيث ملكة انكلترا، وعقد معها اتفاقا أمن السفن الانكليزية من الغزاة المغاربة ، والتجار الانكليز الموجودين على الارض المغربية ، ونص على امكانية تبادل السفراء (5) . وكان يود ان يتحالف مع فيليب الثاني ملك اسبانيا ، (6) وان تكون علاقاته مع دون سيباستيان ودية . الا أن هذا الأخير كان بادا في غزو المغرب ، والعمل على استرجاع جميع القواعد التي اكره البرتغاليون على تركها ، أو التي انتزعها منهم المغاربة انتزاعا ، الامر الذى جعله يخوض ضده عدة معارك في سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م ، حالت

١- الفشتالي المرجع السابق ص ٣٩
٢- ميرسيي: المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠٠.
٣- المجهول: المرجع السابق ص ٤١ .
٤- ابن القاضي: المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٧٠ .
٥- انظر نص الاتفاقية في مجلة تطوان عدد ٣ - ٤ ص ٥١ - ٥٢ .
٦- م م ٠ م ٠ م اسبانيا جـ ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

دون تحقيق الملك البرتغالي لوطره . ولكن فشله المتكرر لم يثنه عن الاستمرار في غزو المغرب . واليه التجأ المتوكل بعد فشله أمام عميه عبد الملك وأحمد ليساعده على استرجاع ملكه ، وكانت النتيجة ليس فشلهما فقط ولكن ايضا مقتلهما في وادى المخازن كما ذكرنا .

ونشير الآن الى أن عبد الملك (٩٨٣ - ٩٨٦ هـ/١٥٧٦ - ١٥٧٨م) ، الذى نجح في العودة الى المغرب بعد اقامة طويلة في الجزائر عند اتراكها العثمانيين ، بفضل دعم هؤلاء له ، أخذ فور دخوله الى فاس في مارس ١٥٧٦ ذى الحجة ٩٨٣ هـ [1] ، وعودة الحملة الجزائرية ، في تجنيد الاجناد من مختلف القبائل بما في ذلك التي كان والده قد اقصاها من الخدمة كعرب الخلط [2] . ومن الاندلسيين الذين جنحوا اليه من صفوف المتوكل على الله ، ومن الزواوين والاتراك الذين تخلفوا من الحملة الجزائرية ، وغيرهم . وبفضل العدد الكبير الذى جنده استطاع ان يخوض نحو ٢٤ معركة ضد خصمه ، وينتصر فيها ، وان ينتزع مراكش من المتوكل هـ مما جعل هذا الاخير يلتجئ الى البرتغاليين لطلب عونهم . كما شرع عبد الملك في بناء السفن في العرائش وسلا ، لتنشيط الغزو البحرى ، ليؤمن له منه مورد يغطي به نفقاته ، ((وصار اهل الاندلس يسافرون في البحر مع اهل المغرب ، وعيثوا بالنصارى اشد تضييق ، وكثرت الغنائم ، وكان اكثر ما يستفيده مولاى عبد الملك ، ويدخل بعده من المال انما هو من غنائم النصارى ، وخمس الغنائم الجهادية ...)) [3] .

أما الخراج فقد تعطل في عهده ، مما جعله لا يصطدم بشأنه مع المعارضين والرافضين له من القوى الدينية والقبلية ، بالاضافة الى انه سلك سيرة حسنة مع الناس جعلته في نظر حتى المتشددين في احكامهم تجاه السعديين كالمجهول ، أفضل ملوك السعديين ، حيث ((نادى بالامان ، والعفو عن الجناة ، والصفح عن العصاة)) [4] .

هذا فيما يتعلق بسياسة عبد الملك الداخلية ، وقد حرص كمن سبقه على ان تكون له علاقات طيبة مع الدول الاوربية التي لم تكن لها اطماع واضحة كفرنسا وانكلترا ، ومع اسبانيا لمواجهة اى تهديد من جهة الشرق .

١- ابن القاضي، المرجع السابق جـ ٣ - المجهول: المرجع السابق ص٤٨ - ٤٩ ويعتبر هذا الاخير ان من أسباب الهزيمة نزوع الاندلسيين الى عبد الملك وتخليهم عن محمد بن عبد الله .
٢- الفشتالي، المرجع السابق ص ١١٠ - الزياني: المرجع السابق ص٣٥٢ - ٣٥٤
٣- المجهول: المرجع السابق ص٥٢ - ٥٣ .
٤- نفسه .

آ ـ علاقاته مع فرنسا :

عرف عبد الملك صداقته على هنري الثالث حتى قبل ان يستقر له الامر في مراكش ، وحمل هذا الحرز اليه صديقه الفرنسي الثاجر كابريت (1) ، في ربيع الاول ٩٨٤ هـ / جوان ١٥٧٦ م وفي السنة التالية ارفد طبيبه الفرنسي غيوم بيرار سفيرا اليه لابرام حلف بينهما ، مما يدل على تطور العلاقات بسرعة بين الطرفين ، ووافق عبد الملك على ان يكون لفرنسا قنصل في المغرب ، وكان القنصل الاول هو بيرار نفسه . (٢)

ب ـ علاقاته مع انكلترا :

ارسل عبد الملك ايضا بعد دخوله الى مراكش بقليل رسالة الى اليزابيت ملكة انكلترا ، يخبرها بجلوسه على كرسي الملك في المغرب ويعرض صداقته عليها . وجاء في رسالته المؤرخة برجب سنة ٩٨٤ هـ / سبتمبر ـ اكتوبر سنة ١٥٧٦ : ((وكل ما يعرض لك في بلادنا من الاغراض فانه مقرر على ما يوافق غرضكم ومرادكم ، الا ما منعتنا شريعتنا منه فاننا نقف فيه على مقتضى نهيها ، ومع ذلك فبنا بكم طموح بواجبه من المشية فلا تقطعوا عنا أخباركم واغراضكم ...)) (٣) . وردت عليه اليزابيت برسالة مؤرخة في ١٩ محرم ٩٨٥ هـ / ٨ افريل ١٥٧٧ م ، وبتوجيه ايدمون هوكان (Edmon Hogan) سفيرا منها اليه . وقد وصل الى مراكش في ١٣ ربيع الاول ٩٨٥ هـ / ١/٦/١٥٧٧ . ورحبت بصداقته ، وابدت استعدادها لعقد تحالف معه ، ومعاهدة سلام ، (٤) كما طلبت منه ازالة الصعوبات التي كانت تواجه التجار الانكليز في المغرب ، فقرر عبد الملك منح تسهيلات لهؤلاء كضمان الامن والسلامة لهم في المغرب ، وحرية البيع والدخول والخروج ، وحرية المرور للسفن الانكليزية عبر شواطئ المغرب نحو الشرق ... الخ . (٥) وقرر ان يرسل سفيرا الى اليزابيت لعقد معاهدة صلح و سلام بصفة نهائية . (٦) ورحبت ملكة انكلترا بما عزم عليه ، ولكنها اشترطت ان تكون وفادته سرية حتى لا يثير امر وجود السفير المغربي في بلادها متاعب لها مع جيرانها الملوك المسيحيين . كما شكرته على القرارات التي اتخذها في صالح التجار الانكليز . ووعدت من جهة اخرى بتلبية رغباته من العتاد الحربي على ان يلتزم الاحتياط والكتمان للغرض نفسه . (٧)

١ـ تعرف عليه حين كان في الجزائر في سنة ١٥٧٣ م ، وهو صاحب سفينة انظر عنه م.م.ت.م فرنسا ج ١ ص ٣٥١ هامش ٢

٢ـ جاك كايي : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا ، في ، مجلة تطوان عدد ٦ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

٣ـ ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في / مجلة تطوان عدد ٩ ص ٣٢ ـ ٣٣

٤ـ نفسه عدد ٨ ص ٦٢ ـ ٦٣

٥ـ نفسه عدد ٦ ص ١٥٢

٦ـ نفسه عدد ٨ ص ٦٣

٧ـ نفسه عدد ٦ ص ٥٤

وبحث هوكان في تقريره الذى كتبه عن سفارته في المغرب بتاريخ جمادى الاولى سنة ٩٨٥ هـ / جويلية ١٥٧٧ م ، على الاستجابة لمطالب عبد الملك من الاسلحة من أجل كسب المغرب كسوق لانجلترا ، واتخاذ هذا الاخير ممرا الى التجارة مع الدولة العثمانية بدلا من المرور من اوربا (١) .

جـ — علاقاته مع اسبانيا والبرتغال :

سعى عبد الملك الى التقرب من الاسبان منذ كان لاجئا في الجزائر ، ولما انتزع الملك في المغرب من ابن اخيه مضى في سعيه ، دفعا للمخاوف والشكوك التي اثارتها الديهم الحملة الجزائرية العثمانية التي جاء بها الى المغرب ، وعلاقاته مع الاتراك العثمانيين ، وسياسته التي مالت الى تشجيع الغزو البحرى ، وبناء السفن وتقوية الجيش ، واقامة علاقات قوية مع انكلترا للتزود منها بالاسلحة .

ورغم السفارات والرسائل العديدة التي تبادلها مع فيليب الثاني التي سنفصل الحديث حولها في الفصل الخامس لعلاقة تلك الرسائل والسفارات بالجزائر والوجود العثماني فيها ، وبعلاقات عبد الملك مع الجزائر والدولة العثمانية ، فانه لم ينجح في التوصل الى التحالف مع الملك الاسباني ضد اتراك الجزائر العثمانيين او في ازالة مخاوفه منه ، او طمأنة الملك سيباستيان البرتغالي الذى تحمس اكثر من ذى قبل لغزو المغرب واحتلال شواطئه ، خشية القوة البحرية السعدية المتنامية ، وخشية ان تقع هذه الشواطئ القريبة من البرتغال والمشرفة على الطريق الى الهند ، في قبضة الاتراك العثمانيين ، ورحب بمحمد المتوكل على الله الذى جاء في شوال ٩٨٥ هـ / ديسمبر ١٥٧٧ ، يطلب مساعدته على استرجاع ملكه من عمه عبد الملك ، والذى قبل أن يتخلى له عن كل الشواطئ المغربية ، وان يكون ملكا تابعا له في المناطق الداخلية (٢) .

وقد اعد سيباستيان حملة ضخمة تتألف حسب المصادر العربية من ثمانين ألف الى مئة وعشرين ألف مقاتل من امم مختلفة ومن ٢٤٠٠٠ ألف الى ٤٠٠٠٠ ألف مقاتل حسب الوثائق والمصادر الغربية (٣) . وهي الحملة التي حطمها المغاربة في معركة وادى المخازن في ٣٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨/٨/٤ م ونفقد فيها الملوك الثلاثة سيباستيان ومحمد المتوكل وعبد الملك حياته كما ذكرنا ، فاستحقت بذلك اسمها بمعركة الملوك الثلاثة . وتفاصيل هذه المعركة معروضة في كثير من الكتب نكتفي بالاحالة بشأنها (٤) ، ونذكر انه كان لهذه المعركة نتائج هامة بالنسبة للمغرب والبرتغال . فبالنسبة للمغرب :

١ — نفسه : ملف ٦ ص ٤ وما يليها
٢ — الافراني المرجع السابق ص ٧٤ وتيراس المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٧
(٣) (٤) — ابن القاضي : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٣ ، الافراني : المرجع السابق ص ٧٢ ، المجهول المرجع السابق ص ٥٩ [illegible] اسبانيا ج ٢ ص ٤٥

- زوال التهديد البرتغالي الذي استمر بضعة سنوات يقلق بال المغاربة ويهدد أمنهم .
- بروز المغرب بمظهر الدولة القوية ، واكتسابه هيبة كبيرة لدى القوى الخارجية المجاورة له وغير المجاورة ، وتقرب هذه الدول منه ، وتوددها اليه بما في ذلك البرتغال .
- الحصول على غنائم كثيرة متنوعة (1) واسرى ، كثيرين حصل المغاربة على أموال كثيرة من فدية قسم منهم .
- وأخيرا مبايعة المغاربة لاحمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور سلطانا ، خلفا لاخيه عبد الملك الذي وافاه اجله في ميدان المعركة .

أما البرتغاليون الذين فقدوا ملكهم وزهرة شبابهم قتلا أو أسرا ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا ايضا استقلالهم ، اذ استولى فيليب الثاني على مملكة البرتغال في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠ م في أعقاب موت الكاردينال هنري خليفة سيباستيان ، وألحقها مع مستعمراتها بمملكته (٢).

عهد المنصور : 986 – 1012 هـ/ 1578 – 1603م

1- سياسته الداخلية :

كانت جهود احمد المنصور الاولى بعد مبايعته موجهة الى :

١- تنظيم الجيش . ٢- توفير الامن . ٣- اخضاع المناطق المتمردة . ٤- اقامة حكم مركزي قوي .

أ- الجيش : نجح احمد المنصور في استرضاء الجند الذين ثاروا ضده غداة دخوله الى فاس قادما اليها من وادي المخازن ، وطالبوه بالعطاء والزيادة فيه ، جريا على العادة التي كانت متبعة في عهد اخيه عبد الملك . وهي عادة المقشيش ، التي اخذوها عن الاتراك العثمانيين . وكان استرضاؤه لهم أولا بالكلام ، ثم بالعطاء ، بعد ان تفاقم امر ثورتهم فعاد الهدوء والاستقرار الى مدينة فاس (٣) . وحسب الفشتالي فان الذي حرض الجند على الثورة ، هو القائد الاندلسي محمد زرقون (٤) . وكان غرضه فيما يبدو الاطاحة بالمنصور لتنصيب اسماعيل ابن عبد الملك ، ولي نعمته ، وربما كان ذلك بايعاز او تنسيق مع اتراك الجزائر العثمانيين (٥).

١- من هذه الغنائم : ٢٢ قطعة مدفعية ، وسهماقة مركبة بعجالها وثيرانها واشياء اخرى ذات قيمة معتبرة ، انظر مجلة تطوان عدد ٩ ص ٥٢ .
٢- الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠١
٣- انظر عن هذه الثورة الفشتالي : المرجع السابق ص ٤١ – ٥٢
٤- نفسه : ٤٤ – ٤١ للفشتالي
٥- كريم : مناهل الصفا هامش ١ ص ٤٦

ولذلك فان المنصور لم يغفر له ، ولقادة الاندلسيين الآخرين كأبي الفضل الغرى الذى كان مثل محمد زرقون في خدمة اتراك الجزائر العثمانيين قبل انتقالهما مع عبد الملك الى المغرب ، وسعيد بن فرج الدغالي ، قائد الجيش الاندلسي في عهد عبد الله ، وعهد ابنه محمد المتوكل على الله ، تآمرهم عليه ففتك بهم جميعا في يوم ١ رجب سنة ٩٨٦ هـ / ٣ / ٩ / ١٥٧٨ م [1].

وبقتله لهؤلاء الثلاثة ((استقامت احوال الجند من يومئذ رهبة ، ورغبة ، واستوت قدم امير المؤمنين في ملكه ...)) [2].

وبعد نجاحه في القضاء على تمرد الجند وفي التخلص من القادة الاندلسيين المتآمرين عليه ، ((أخذ في ترتيب الجيوش وترتيبها ، وضبطها ، الى ان تمكن امره وقوى سلطانه)) [3]. بحيث جعله اداة طيعة في يده ، ووسيلة فعالة لتحقيق اهدافه وطموحاته .

وكان المنصور في تنظيمه لجيشه متأثرا الى حد بعيد بنموذج الجيش العثماني الانكشارى في الجزائر ، الذى ظهرت لهفعاليته في حملاته على المغرب فاتخذ له مدربين من الاتراك . وقد مكنته موارده المالية الكثيرة ، وغنائمه الكبيرة من الاسلحة النارية والمدفعية في وادى المخازن ، من الاستكثار من الجيش النظامي ، وتسليحه تسليحا جيدا . وكان الجيش النظامي للمنصور ، المشاة منه والفرسان يتألف من اندلسيين ، واتراك ، واعلاج ، وهؤلاء جميعا يشكلون قوته الضاربة ، وجزائريين (زواويين) وسودانيين (بعد غزو السودان على الخصوص سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) ، بالاضافة الى المغاربة . وكان عدده حوالي ٥٠٠٠ جندى نظامي ، ولكنه عند الحاجة تدعمه القبائل المخزنية ، التي كانت تتمتع مقابل ذلك بالاعفاء من الضرائب وبالاقطاع ، بحيث يبلغ عدد جيشه نحو ٤٠ ألفا بين المشاة والفرسان .

وقد ظهرت فعالية هذا الجيش في القضاء على جميع التمردات ، والثورات القليلة التي قامت في المغرب بعد استلام المنصور للسلطة فيه ، بسهولة وسرعة ، وفي غزو بلاد السودان والاستيلاء عليه . ولم يقتصر اهتمام المنصور على الجيش البرى بل تجاوزه الى الاهتمام بالجيش والاسطول البحريين ، وخاصة في اواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، حيث كان يستكثر من قطع الاسطول في موانئ سلا والرباط والعرائش ، ومن الجيش العامل عليها . واستغل وفرة المستعبدين من السودانيين ، فضم قسما منهم للعمل في البحرية كعبيد فيها وجنود [4]. كما استغل علاقاته الحسنة مع الانكليز ليطلب مساعدتهم في هذا المجال ، كتزويده [5]

(١) (٢) الفشتالي : المرجع السابق ص ٤٧

(٣) المجهول : المرجع السابق ص ٦٦ وانظر عن الجيش في عهد المنصور مجلة تطوان عدد ٦ ص ٦٦ و:

Andrzej Dziubinski: L'armée et la flotte Marocaine de guerre, in Hesp. Tamuda, Rabat 1972, vol. 13 P.P. 61 - 94.

(٤) الزياني : المرجع السابق ص ٣٦

(٥) ابن تاويت : من زوايا التاريخ في مجلة تطوان عدد ٨ ص ٢٠ - ٣١

بالمعدات اللازمة لبناء السفن والنجارين وغير ذلك .

ب - توفير الامن : فان المنصور انتهز فرصة حضور أعيان القبائل من كل جهات المغرب الى فاس لمبايعته البيعة العامة ، ((وأخذ معه في الاتفاق على تأمين الطرق ، وكل شيخ ضمن مايضيع في ترابه ، وأخذ العهود على رؤساء القبائل بذلك ، وأصلح احوال المغرب في ايام قليلة ... فانتشرت العافية ، وظهرت الهدنة من باب تازه الى اقصى السوس ...)) [1] .

وكان حرص المنصور على توفير الامن كبيرا ، ولم يكن يتردد في تسليط اقصى العقاب على من يحاول الاخلال به . وقد لاحظ عبد الواحد الحميدي قاضي فاس قسوة اعوان المنصور ، وأبدى ملاحظته لهذا الامير فكان جوابه له ((لولا مارأيت ماأمكنك ان تجيئ من اصحابك عشرة أيام في أمن ودعة ، فان اهل المغرب مجانين مارستانهم هي المحن والسلاسل والاغلال ...)) [2] .

ومن حرصه على الامن في الداخل ، امره بتعمير الاماكن المخوفة التي لا توجد فيها العاميات ، بالسكان الرحل ، والزامهم بسكناها ، واقطاعهم الاراضي التي تكفيهم ، على أن يكونوا مسؤولين عما يضيع للمسافرين في منطقتهم . [3] وفي اطار حرص المنصور على توفير الامن الداخلي للمغرب وحمايته من تهديد القوى الخارجية العدوة له شيد حصونا عديدة في المواقع الاكثر احتمالا بأن تتعرض الى اعتداء او غزو خارجي كشمال المغرب وشرقه . فبنى بهذا الصدد حصنين كبيرين ، وعدة ابراج في مدينة فاس ، وزاد في حصن الفتح بالعرائش من جهة البحر ثم عززه بحصن ثان ، ليقطع امل الطامعين في ميناء العرائش الممتاز . وبنى حصنا كبيرا في تازه بشرق المغرب ، وحصّن المدن الساحلية كآسفي ، وآزمور ، وآصيلا وغيرها . [4]

ج - واما مايتعلق باخضاع المناطق التي خرجت عن سلطة الدولة ، او مالت الى الخروج عنها ، نتيجة للحروب الاهلية التي شهدها المغرب قبل ولاية المنصور ، فان هذا الامير ما ان حصل على البيعة ، وانهى تمرد الجند في فاس ، حتى وجه المحلات الى تلك المناطق في الشمال ، انطلاقا من فاس ، وفي الجنوب انطلاقا من مراكش ، ((لاستئصال شأفة الخوارج عليها ، وتدويخ النازعين من المحلات من رعاياها ، وتمهيد القاصية والدانية من اعمالها ...)) [5] وما توقف عن ارسال المحلات اليها الا بعد ان خضعت كل المناطق مهما كانت بعيدة اومنيعة الى سلطة الدولة .

(1) المجهول : المرجع السابق ص ٦٦ .
(2) الافراني : المرجع السابق ص ١٥٨ .
(3) أحمد بن القاضي : المنتقى المقصور ص ٩٥ نقلا من كريم المغرب في عهد الدولة السعدية ص ١١٦ - ١١٧ .
(4) انظر عن هذه المنشآت العسكرية الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٤ - ٢٦٥
(5) نفسه ص ٥١

ـ اقامة حكم مركزي :

وقد اجتهد المنصور في جعل الدولة السعدية دولة قوية محكمة التنظيم ، وفي الدول المتقدمة في عهده ، واستفاد مما وصلت اليه على الخصوص الدولة العثمانية ، تطور في مجال التنظيم الاداري ، ولكن دون ان يبقى تأثيره عند الطغاة الذي ((جنح بالدولة السيرة العجمية ، وحمل الناس عليها حملا عنيفا ، فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع ، واضطربت وال لتغير العادة ، وايناس الامور غير المعتادة ...)) (١) . ، وانما الف بين السيرتين بية والعجمية . (٢)

فمما استحدثه المنصور نذكر ، الديوان ؛ ((وقد اتخذ يوم الاربعاء للمشاورة ، وسماه يوم وان ، تجتمع فيه وجوه الدولة واعيانها ، ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الامور ، لم النوازل ...)) (٣) ونذكر ايضا الامور المتعلقة بالمراسيم التشريفية وتنظيم الاستقبالات ية والاستعراضية . و اختراعه لاشكال من الخط ((الشفره)) ، على عدد حروف المعجم بها مالا يريد ان يطلع عليه احد . (٤) وكان يستعمل الشفرة في مراسلاته المهمة بينه وبين وقادة عمالاته وابنائه . ونذكر بالاضافة الى ماتقدم اقامته لجهاز مخابرات وتجسس ، ليس لى مستوى المغرب اذ كانت عناصر مخابراته منتشرة ايضا في البلاد المجاورة للمغرب ، وحتى يدة عنه ، مبالغة في الحرص على امنه وامن المغرب في الداخل واحتياطا للاخطار الخارجية. (٥)

وكان المنصور حريصا على المحافظة على اوقات العمل الاداري ، لا يقبل التهاون فيه تابه ، كما كان لا يتراخى في قراءة مايرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب عليهم. (٦)

وقد كانت المناصب العليا المدنية بيد المغاربة ، ولاسيما من اهل الجنوب ، اما المناصب كرية فقد تقاسمها مع المغاربة الاعلاج والاندلسيون والاتراك ، وبفضل ادارته المحكمة ه المنظم ، الجيش التسليح ، وجهاز مخابراته ، وشخصيته القوية ، كان المنصور يتغلب لصعوبات التي واجهته ، واستطاع ان يحكم المغرب حكما مطلقا مدة ربع قرن ، وان يوسع الى بلاد السودان كما سيأتي .

<u>المنصور من القوى القبلية :</u>

كان النظار ايضا في شأن القبائل وتنظيمها مما استأثر باهتمام المنصور بعد ان آل اليه ، لما للقبائل من تأثير في الامن والاستقرار اللذين كان المنصور حريصا على توفيرهما مغربي باعتبارهما اساسيين لتحسين جميع الاوضاع التي تأثرت بالحرب الاهلية التي شهدها

الفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠١
قارن تنظيم الدولة السعدية في عهد المنصور : B.Harakat:Le makhzen Saâdien in R.O.M.M., No. 15 & 16, Aix-en-Provence 1973,P.149
فراني : المرجع السابق ص ٥٧ (- ٥٨)
سه : ص (، والفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وانظر نموذجا عنها في جلة هيسبيريس سنة ١٩٢٧ (ص ٢٢١ .
الفشتالي : نفس المرجع السابق ص ٢٠٧

المغرب طوال عهد عبد الملك . فقام بنقل بعض القبائل من جهة الى اخرى كنقله لعرب الجنوب : عرب مراكش وبلاد السوس ، كأولاد مطاع وغيرهم الى الشمال وانزالهم بين قبائل عرب الخلط ، واولاد حسين ، المتذبذبي الولاء ، ضغطا لهم وحذارا منهم ، واستخدم بعضها في الجيش ، كما فصل من عدد من قبائل الخلط ، وابقى بعضا منها في عداد قبائل الرعية كبقية قبائل الخلط. (١) وبنى في الجنوب عديدا من القلاع في المواقع الرئيسة التي تتحكم في الطرق ، وتسمح له بالسيطرة على القبائل المجاورة . (٢)

الا ان حرصه على توفير الامن والاستقرار ، وتنظيم القبائل وضبطها جعله يصطدم مرارا بالقبائل التي تعودت على اثارة الاضطرابات والفتن ، والميل الى التمرد والعصيان ، والتذبذب في ولائها ، كعرب أولاد حسين المعقليين ، وعرب الخلط وسفيان ، ومختار ، وكلهم من بني جشم بالرغم من محاولة المنصور استمالة هؤلاء بالخدمة والاقطاع ، واضرابهم من عداد الرعايا الغارمة فقبائل الخلط واحلافها ، وعرب اولاد حسين لم يكفوا عن تهديد الامن في الاسواق والطرق ، واثارة الفتن والاضطرابات مع عرب الجنوب الذين انزلهم المنصور بينهم ، وميلهم الى التمرد والعصيان لاوامر الدولة ، الامر الذى دفع المنصور الى ان ينتقم منهم من حين الى آخر . (٣)

موقفه من القوى الدينية :

ان أسلوب الشدة والصرامة الذى اتبعه المنصور تجاه القوى القبلية ، طبقه ايضا تجاه بعض زعماء القوى الدينية كابن قرقوش الآتي ذكره وابن احمد بن موسى الجزولي .(٤) ، مما جعل القوى الدينية ترهب جانبه ، وتستكين له ، ريثما تحين الفرصة المناسبة للثورة كما في عهد إبنائه . غير انه في الوقت نفسه الذى كان المنصور يتبع فيه اسلوب الشدة تجاه بعض المرابطين كان يتقرب من آخرين ، ويحرص على ارضائهم وكسبهم الى جانبه ، للدور الذى يمكنهم ان يساهموا به في توطيد دعائم حكمه واستقراره ، وان كان اعتماده الاساسي في هذا الامر على الجيش الذى اولاه كما اسلفنا عنايته واهتمامه ، فكان خير معين له . فالشيخ ابو عبد الله المصرى المكناسي على سبيل المثال ، الذى كان من اولياء الله الصادقين علما ، كان ممن يرغب المنصور في لقائهم رغم انه كان يطرح معه الادب المستعمل مع الملوك في القول والفعل ولا يبالي بما قال اوفعل

(١) انظر الفشتالي : المرجع السابق ص ١١
(٢) مونتانى المرجع السابق ص ٩٢
(٣) انظر عن الحملات الانتقامية ضد القبائل العربية في اعوام ١٥٨٢ ، ١٥٨٨ ، ١٥٨٩ ، ١٥٩٦) : الفشتالي : المرجع السابق ص ٦٥ ، ٩٨ ، ١١١ - ١١٢ ، ١٩١ ، ١٩٣
(٤) مات وهو في سجن تارودانت : أنظر :

Justinard: Carnet d'El-Mansour, in Archives Marocaines, vol. 29. Paris 1933 P.191.

((وكان (المنصور) . . . يخفض له جناح الذل من الرحمة ، ويلين له في القول حتى ينصرف راضيا ، ويمضي شاكرا داعيا . . .)) [1] . كما كان يزور قبور كبار الاولياء ، ولا يخفى ما تتركه زيارته لها من أثر طيب لدى اتباع اولئك الاولياء . وكان المنصور من جهة اخرى يقرب العلماء والادباء ، ويغدق عليهم بالمئات بل بالالوف من الدنانير ، حتى ينصرفوا ايضا مادحين شاكرين ، محسنين لذكره بين الناس ، مؤيدين له غاضين الطرف عن شدة وطأته على الرعية في الضرائب واعتسافه وجوره [2] .

ولكن قوة جيشه ، وكثرة مادحيه لم تحل دون قيام ثورات كبيرة وخطيرة ضده ، وان كان اكثرها بزعامة افراد من الاسرة المالكة . واهم هذه الثورات :

1- ثورة داود بن عبد المومن واهل السوس ٩٨٧ - ٩٨٨ هـ / ١٥٧٩ - ١٥٨٠ :

ثار داود ضد عمه المنصور في السوس بجنوب المغرب ، في اعقاب تعيين هذا الاخير لولده محمد الشيخ ، وليا للعهد ، واخذه البيعة له من الناس في ٢ شعبان ٩٨٧ هـ / ٢٤/٩/١٩٧٥ ، مما يعني انه كان يمني نفسه بولاية العهد فخابت امنيته . وكان المنصور يتوقع تمرده عليه ، ولذلك اتى به معه الى مراكش ، ولم يتركه في مكناسة التي عقد له على ولايتها ، واتخذ احتياطاته تجاهه .

وقد وجد داود في اهل السوس انصارا لثورته فاسرع المنصور الى توجيه الجيوش للقضاء عليه قبل استفحال خطره ، واتصل له بالقوى الخارجية ولاسيما بأتراك الجزائر العثمانيين [3] . وتمكنت قوات المنصور في ربيع سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م من محاصرة ابن عبد المؤمن في وادي هرغة ولم ينج بنفسه الا بصعوبة ، وفر الى عرب الوداية في الصحراء حيث مات هناك مقتولا [4] . ونجحت قوات المنصور في القضاء على جميع المتمردين في السوس ، وأذعن اهله (وحسنت طاعتهم وخلصت انابتهم) [5] .

---

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٤٤

(٢) المجهول : المرجع السابق ص٥٦ ، الافراني : المرجع السابق ص١٠١ ، ١٥٨ ، السلاوي : الاستقصا ج٥ ص١٨

(٣) كان الاتراك قد حاولوا الاتصال به لمساعدته انظر فصل العلاقات السياسية

(٤) انظر عن هذه الثورة الفشتالي : المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٨

(٥) نفسه : ص٥٨

٢- ثورة الحاج قرقوش :

كانت ثورة المرابط الحاج قرقوش في شمال المغرب ، بمقاطعة الهبط ، حيث دعا لنفسه ((ولبس شارة الملك واتخذ الآلة ، وتسمى في كتابه بأمير المؤمنين)) (١). وادعى انه من الاشراف . وسرى خبره في المقاطعة ، فانثالت عليه جموعها ، واشتعل لهيب ثورته، وذلك في ١٥ صفر سنة ٩٩٦ هـ / ١٥ جانفي ١٥٨٨ م ويدل العدد الكبير من القوات السعدية من حملة سلاح النار ، التي حركها المنصور وولي عهده من فاس وعددها ٦٠٠٠ مقاتل على حرص المنصور على القضاء على الثورة بسرعة ، قبل استفحالها ، كما يدل على انه لم يستهن بخصمه ، ذلك ان الثورة قامت في المنطقة القريبة من المراكز الاسبانية ، مما قد يدفع الاسبان الى مساعدته ، ولا سيما ان علاقات المنصور بهؤلاء في هذه السنة كما سنرى بعد قليل لم تكن على ما يرام .

ولكن الحاج قرقوش لم يطق في نهاية الامر فيما يبدو اي مساعدة من الاسبان أو غيرهم ، ورأى انه لن يكون له اي حظ في النصر ان واجه بامكاناته الخاصة المحدودة القوات السعدية الكثيرة المسلحة تسليحا جيدا ، فآثر ان يتوارى عن الانظار ، واختفى في أحد الملاجئ الى ان قبض عليه في ٢٨ رجب ٩٩٧ هـ / في ١٢/٦/١٥٨٨ م واخذ الى فاس حيث اعدم (٢) . وسلط المنصور على انصاره من أهل تمريزان الذين آووه وآزروه عقابا في منتهى القسوة اذ ((استباحتهم السيوف بالقتل رجالا ، ونساء ، وولدانا ... واجتمعت العساكر على عمرانهم ، فخربوا الديار . واقتلعوا الاشجار ، وعفوا الآثار ...)) (٣). ولعله قصد بهذا العقاب ان يكون عبرة لمن تسول له نفسه ان يثور او يؤيد الثائرين .

٣- ثورة الناصر بن عبد الله
1003 - 1004هـ / 1595 - 1596

نعم المنصور بالامن والاستقرار الداخلي بضع سنوات بعد القضاء على ثورة الحاج قرقوش استغلها في التوسع الى بلاد السودان الذي سيأتي الحديث عنه . ولكن ثورة ابن اخيه الناصر ابن عبد الله الغالب في ربيع 1003هـ/ 1595م في الشمال ايضا قد نغصت عليه هدوءه .

---

(١) نفسه : ص ٩٣ - ٩٤

(٢) نفسه : ص ٩٥

(٣) نفسه : ص ٩٦

واستقراره ،وأثارت لديه مخاوف كبيرة؛ لان الذى اثاره ضده هو فيليب الثاني ملك اسبانيا [1] .

ولان ثورة الناصر لقيت تجاوبا كبيرا لدى برابر جبال الريف ، وعرب شرق المغرب وغربه ،((واهتز المغرب لقيامه وتشوفت له العيون لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية [2])).

وأخيرا لانه كان يخشى ان يجد الناصر لدى الاتراك العون والمساعدة . ولذلك فقد استنفر كل قواته واتخذ ماأمكنه من الاحتياطات لتطويق الثورة قبل القضاء عليها . اما الناصر الذى تعززت صفوفه بالقوات العديدة التي انحازت اليه ، فقد تمكن من احتلال تازه في شرق المغرب ، ثم تقدم نحو فاس فخرج اليه محمد الشيخ بن المنصور ، وتمكن هذا الاخير من الانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين في سفح جبل مدغره ، وفيها اصيب الناصر برصاصه في ركبته الا انه استطاع ان ينسحب الى جبل بني يزناسن ، المتاخمة لايالة الجزائر ، واقام هناك في دار بن مشعل بصالح اصابته [3] .

وبعد ان استأذن المنصور اتراك الجزائر في ملاحقة الناصر الى مكمنه المذكور ، شن ابنه محمد الشيخ حملة اخرى ضده ، ولكن انحياز فريق من قواته الى الناصر بعد حملته بتراجع لتنظيم حملة جديدة ، حيث تشجع الناصر بمن انضم اليه، وزحف الى فاس ، وعلى مقربة من هذه الاخيرة جرت معركة عنيفه بينه وبين محمد الشيخ انتهت بانتصار هذا الاخير في رمضان ٤ ١٠٠ هـ / ماى ٦ ١٥٩ م . وحاول الناصر الفرار لكن احد قواد محمد الشيخ تمكن من اللحاق به وقتله .[4]

بمقتل الناصر انتهت الثورة التي أثارت الرعب في قلب المنصور، فأمر باقامة الافراح ، وارسل البشائر بالنصر الى مختلف جهات المغرب ، والى الملوك والامراء والشخصيات البارزة التي كان على اتصال بها في الخارج ، كباشا الجزائر ، والسلطان العثماني ، وقاضي القضاة المالكية في مصر ،وسلطان مكة وغيرهم [5] . وجاءت الوفود لتهنئته بالنصر ، ونظم له الشعراء بهذه المناسبة القصائد العديدة [6] .

(1) كان الناصر لاجئا لدى البرتغاليين منذ عشية معركة وادى المخازن ثم لدى الاسبان بعد احتلالهم للبرتغال في سنة ١٥٨٠م . وقد تم نقل الناصر من اسبانيا الى مليلا في ٧ ماى ١٥٩٥م ومنها انتقل الى الجبال المجاورة . انظر عن اقامة الناصر في البرتغال ثم في اسبانيا CH.de la Veronne: Le séjour en Andalousie des deux princes Saâdiens (1580-1595), in R.O.M.M., No.7, Paris 1970, P.187 et s.

(2) اليفرني : المرجع السابق ص١٠١

(3) الفشتالي : المرجع السابق ص١٧١ – ١٧٤ ، بيريس ص٢٢٢ – ٢٢٦

(4) الفشتالي : نفس المرجع ص١٧٤ – ١٧٦ وما بعدها ، الافراني المرجع السابق ص١٠١ – ١٠٢

(5) الفشتالي : نفس المرجع ص١٨٧ وما بعدها

(6) الفشتالي : نفس المرجع ص١٧٦ – ١٨٣

ر محمد الشيخ ، وموت المنصور :

حكم المنصور بعد أن قضى على الناصر وثورته سبع سنوات أخرى ، الا انها لم تكن أفضل

نوات حكمه ، ذلك أن وباء الطاعون قد تلا ثورة الناصر ، واجتاح المغرب كله ، واستمر سائدا

ه بضع سنوات ، لا يكاد يخف حتى يشتد من جديد (١) . وكان يقضي باستمرار على خلق كثير ،

ا نغص على المنصور راحته وأمنه أيضا ، اذ اضطر ان يقضي فترة تحت الخيام خارج عاصمته (٢) ،

يقطع الصلات ، ولا سيما عن العالم الخارجي خائفا ان يتنبه اعداؤه الاسبان او الاتراك الفرصة

يهاجموه . (٣)

ولكن ما نغص عليه اكثر راحته ، هو سوء سيرة ولده محمد الشيخ في فاس ، حيث صار

((يأكل اموال الرعية ولا يحكم بالسوية)) (٤) . والادهى من ذلك هو تقريبه من كان هو قد

بعدهم من العرب كعرب اولاد حسين ، ومن كان معروفا بولائه للاتراك العثمانيين كعرب أولاد

طلحة (٥) . و رفضه الحضور بتوجيهاته ، والحضور اليه ، وأخيرا تهديده باللجوء الى الاتراك ان

هو هاجمه (٦) . الامر الذي جعله يرجئ تحركه اليه بل ويكتب اليه لتهدئته وحثه على التراجع

عما هو عازم عليه (٧) ، في انتظار ان يتخذ الاحتياطات اللازمة لتطويق حركته كالتقرب من الاسبان

رغم ما بدر منهم من توقف معاه منذ بضع سنوات . وفي اكتوبر ١٦٠٢ تحرك بسرعة وسرية على رأس

٨٠٠٠ فارس (٨) . ووصل الى مشارف فاس دون ان يعلم به ولي عهده فلم يكن امام هذا الاخير

الا الفرار في آخر لحظة ، الى احدى الزوايا في وسط المغرب ، وهناك القي عليه القبض بعد معركة

عنيفة مع بطانته .

وقد وجد المنصور فاس في حالة سيئة فتأسف (٩) . وأمر بالصدقات ، ورد المظالم ،

ويسجن ولده في مكناسة (١٠) ، واستدعى ولده زيدان من تادلا لاستخلافه ، واستعد للعودة

الى مراكش ، ولكن الوباء الذي كان سائدا كما ذكرنا في المغرب لم يستثنه فمات بعد ايام قليلة

من اصابته به في ١٥ ربيع الاول سنة ١٠١٢هـ / ٢٣ أوت ١٦٠٣م (١١) ، قبل ان يفصل في امر

ولاية العهد مما كان له نتائج وخيمة كما سنرى . ولابد من التأكيد في نهاية المطاف في سياسة

المنصور الداخلية ان اهتمامه لم يقتصر على توفير الامن والاستقرار واخماد الثورات فقط بل كانت

له جهود في المجالات الاقتصادية والثقافية سنشير اليها في الفصول المخصصة لتلك المجالات .

---

(١) استمر الوباء من ١٥٩٧ - ١٦٠٨ : انظر روزنبرغ : المرجع السابق ص١٤١
(٢)(٣) انظر العدد الخاص من مجلة تطوان ص٦٢ - ٦٣
(٤) المجهول : المرجع السابق ص٧١
(٥) انظر رسالة المنصور الى ولي عهده في النزهة/الافراني ص١٧٤ - ١٧٦
(٦)(٧) المجهول : المرجع السابق ص٧٣
(٨) انظر العدد الخاص من مجلة تطوان ص٧٦
(٩) المجهول : المرجع السابق ص٧٤
(١٠)(١١) الإفراني : المرجع السابق ص١٨١ ، ١٨٨

علاقات المنصـــــور الخارجية :

بناءً اثر الانتصار الكبير الذي حقق المغاربة في معركة وادي المخازن ، واعتلائـــه

كرسي الملك ، وفود دول عديدة من الجزائروالقسطنطينية ، واسبانيا ، والبرتغال ،وفرنسا ،

وانكلترا وغيرها . للتهنئة بالنصر والملك ، وكان مجيء هذه الوفود مناسبة للمنصور للنظر

في العلاقات بينه وبين الدول التي أوفدت رسلها اليه . ومنذ ئذ استحكمت العلاقات بينـــه

وبين الدول المذكورة على نحو أو آخر . والمتأمل في علاقاته معها يجد انها لم تكن دوما على

نمط مستقيم ، فالتذبذب هو الصفة الغالبة عليها ! فتارة كان يطور علاقاته مع هذه الدولة

نحو الصداقة والتحالف ، وتارة يطورها مع نفس الدولة نحو الفتور او العداء والتوتر ، حسب

الظروف والمواقف ، وفي كل الاحوال كان يستغل الخلافات التي كانت قائمة بين الدول التـــي

كان يتقرب منها أو يبتعد عنها ولمـا كنا سنعود الى الحديث عن علاقاته الخارجية مع الدول

الاوربية في الفصلين الخامس والسادس لارتباط تلك العلاقات الوطيد

بعلاقات المنصور باتراك الجزائر والدولة العثمانية، فاننا نكتفي هنا بتقديم

مختصر شديد يوضح معالم سياسته المذكورة !

اتجهت علاقاته مع الجزائر والدولة العثمانية في بداية عهده نحو العداء ، وفي مقابل

ذلك طور المنصور علاقاته مع فيليب الثاني عدو الاتراك العثمانيين نحو الصداقة والتحالف ضد

هؤلاء الاخيرين . ولكن تحسن علاقاته معهم ابتداء من ٩٩٠هـ/١٥٨٢م ، جعله يطور

علاقاته مع اليزابيت ملكة انكلترا عدوة فيليب الثاني من علاقات تجارية بحتة نحو تحالف عسكري ضد

حليفه السابق الذي ترسخ نفوذه في المغرب بضمه للمراكز البرتغالية ، وبلاد البرتغال نفسها في

٩٨٨هـ/١٥٨٠م ، والذي كانت له أطماع كبيرة في ضم المراكز المغربية أيضا . وتبنـــى

مع انكلترا أيضا قضية دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال التي انتزعه منه فيليب الثاني فـــي

التاريخ المذكور ١٥٨٠م ، فتوترت العلاقات بينه وبين هذا الاخير ، ولجأ فيليب الثاني الى

اغرائه بأصيلا ان ابتعد عن القضية البرتغالية ، ومثا رجع اليزابيت العدوانية ضده ، فتقاعس

المنصور من المساهمة في الهجوم الانكليزي على لشبونة البرتغالية في شعبان ٩٩٤هـ / فـــي

جوان ١٥٨٦م وتراجع عن تقديم المساعدة لانطونيو ، وحصل مقابل ذلك على آصيلا فـــي

١٣ ذي القعدة ٩٩٤هـ/١٣/٩/١٥٨٦م دون قتال ومن ثم فترت علاقاته مع اليزابيت .

واستغل سلامه مع الاتراك العثمانيين ومع فيليب الثاني في غزو بلاد السودان ، والاغتناء

بخيراته وزيادة قوته . واضعافا له ، وانتقاما لميوله السابقة الى اعدائه سرح الملك الاسباني

الناصر بن عبد الله ضده ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م ، كما رأينا وحينئذ صح عزم المنصور على الحاق

الاذى بالاسبان في أي مكان في المغرب او في اسبانيا ، أو في مستعمراتهم الاخرى . ولهذا

الفرس تقرب ثانية من البزابيث ، وسعى للتعاون معها ضد عدوهما المشترك . لكن هذه الاخيرة ، لم تتمن تراجعه ، وتقاعسه السابقين ، فلم تكن بادئة معه ، ولم يجرؤ على الهجوم وحده على الاسبان . فعادت العلاقات بين المغرب وانكلترا تجارية فقط كما بدأت . ومال المنصور ، الى مهادنة الاسبان ، بل والتحالف معهم في (١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م ، أمام تهديد ولي عهده له بالتعاون مع أتراك الجزائر ضده .

ومن هذا العرض السريع لعلاقات المنصور الخارجية يمكن القول : أنه كان عارفا بدقائق العلاقات الدولية في عصره ، وكان واعيا تماما لمصلحته ، ومصلحة المغرب في الوحدة والاستقلال ، وعدم الانحراف نحو أية تبعية وحرصه ما أمكنه ذلك على علاقات سلام مع مختلف الدول ، ومن ثم كان متزنا ، وناجحا في تحركه في خضم العلاقات الدولية المتضاربة .

علاقات المنصور ببلاد السودان الغربي :

منذ قيام السعديين في جنوب المغرب وهم يوجهون انظارهم الى بلاد السودان الغربي ويحاولون ان يكون لهم نصيب من خيراتها ، ويسعون بجد الى تحقيق ذلك ، الا اذا شغلهم عن ذلك شاغل أهم .

وقد كان محمد الشيخ يفكر كما ذكرنا في غزو بلاد السودان للاستفادة من ذهبه وعبيده وخيراته الاخرى . ولما استقر الملك لولده أحمد المنصور ، وزالت الاخطار التي هددته من الداخل والخارج في بداية عهده ، استكثر من الجيوش المسلحة تسليحا جيدا ، وحديثا ، دون أن ينسى مشروع والده ، ((.. فامتدت عينه لذلك الى فتح الاقطار وتجهيز البعوث تحت راياته المنصورة الى الآفاق الشاسعة لانتظامها في ملكه [1])) ، وقد علق الفشتالي على ذلك بقوله :

((وهذه الاقطار والآفاق الشاسعة لا تقع في الاندلس الذى انسدت أبوابه باحتلال الاسبان ، أو في المغربين الاوسط والادنى اللذين انسدت ابوابهما باستيلاء الاتراك عليهما ، حيث الحرب مع هؤلاء واولئك تعب كثير في نفع قليل ، ولكنها في ممالك السودان [2] . (أحق وأولى بالتفات العزائم .. فانها اغزر نفعا ، وابدى منفعة وارحب مجالا ، واوسع عمرانا . وأوفر نشبا ، واقوى معادنها وكثرة المشتاق من رقيقها ، يد على الاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه ..)) [3]

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٥٧
(٢) من أهم هذه الممالك : مملكة سنغاي وقاعدتها غاو أو كاغو التي كانت في عهد المنصور تحت حكم اسرة صنهاجية مسلمة سنية منذ اواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى انظر عنها السعدي : تاريخ السودان ، وزبادية : سنغاى في عهد الاسقيين الجزائر ١٩٧١ والافراني المرجع السابق ص ٨٦ - ٩٠ .
ومملكة برنو التي كانت تقع الى الشرق من مملكة سنغاى ، وكان بين هاتين المملكتين تنافس على الامارات الواقعة بينهما . وممالك الفولن والدلفو على الساحل الاطلسي وغيرها .
(٣) الفشتالي : المرجع السابق ص١٢٨

وهذا النص يلخص اغراض المنصور من وراء تفكيره في غزو بلاد السودان وتنفيذ فكرته ، رغبة في الاستيلاء على خيرات بلاد السودان من ذهب وعبيد هي الدافع الرئيسي .

وقد مهد المنصور لغزو بلاد السودان اولا بجمع المعلومات الكافية عنها، من خلال جواسيسه الذين ارسلهم لهذا الغرض ومن خلال المعلومات التي استقاها من رسول ادريس ثالث ملك برنو الذي تردد مرارا على المغرب من أجل الحصول على المساعدة العسكرية من المنصور خلال العقد العاشر من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بدون جدوى . على الرغم من قبوله ان يبايعه ويدخل في دعوته (٢). ومن علي بن داود الامير الاسيكي الذي لجأ اليه في ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦م (٣) . وثانيا بالاستيلاء على اقليمي تواة وتيكورارين القريبين نسبيا من بلاد السودان في (٩٩١ هـ / ١٥٨٣ – ١٥٨٤ م (٤) .

وبعد ذلك وجه حملة لغزو ممالك ملوك فولن وجلفو، اذ كان هؤلاء الملوك أضعف من الاسكيه ، واقرب اليه نسبيا ، وكان ذلك في ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م وقد تمكنت هذه الحملة من اخضاع امراء تلك الممالك ، ورؤسائها دون صعوبة . وعادت بأعداد كبيرة من الابل فوق ما كان ينتظره المنصور ، وشرع منذ ئذ في الاستعداد للحملة على مملكة سنغاى (٥) .

وقام بشن هجوم في ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م احتل به تيغازه وسيطر على معدن الملح فيها (٦) . بعد ان رفض الاسيكيون ان يدفعوا له عن كل حمل ملح مثقالا كما طلب ، بدعوى الاستعانة بهذا المال في أعمال الجهاد .

وكان رد فعل الاسكيين مقاطعة ملح تيغازه، وفي سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٩ م لجأ اليه علي بن داود، اخو السلطان الاسيكي ، وطلب عونه فبعث المنصور الى السلطان السوداني سفارة تحمل رسالة . وفتوى من علماء فاس بحق الامام في التصرف في المعادن ورسالة من اخيه الى المنصور يطلب فيها عونه ضد اخيه (٧) . ولكن هذا الاخير مضى في اصراره على رفض جميع مطالب السلطان السعدي . ، واحتج ((بانه امير ناحيته وانه لا تجب عليه طاعته))(٨) .

وحينئذ عقد المنصور مجلسا للشورى فيما عزم عليه من غزو للسلطان الاسيكي في عقر داره ، ونجح في اقناع الحاضرين بامكانية توجيه حملة عسكرية الى هذا الملك البعيد وتحقيق غرضه (٩) . وتحركت الحملة في ١٦/١٢/٩٩٨ هـ/ ١٦ اكتوبر ١٥٩٠ م، بقيادة جودر باشا ،

---

(١) نفسه ص ١٢٠ – ١٢١
(٢) نفسه ص ٦٧–٧٢
(٣) نفسه ص ١٢٠
(٤) (٥) نفسه ص ٧٥–٧٨ ، ٧٩ – ٨١
(٦) (٧) نفسه ص ١٢٠ ، ١٢١ – ١٢٥
(٨) اليفرني النزهة ص ٩٠
(٩) انظر عن هذا المجلس والمشاورات فيه الفشتالي : المصدر السابق ص١٢٦–١٢٨

وهي تتألف من ٤٠٠٠ من خيرة جنود المنصور الاندلسيين والاعلاج والاتراك حملة السلاح الناري. وتمكنت الحملة من تحقيق انتصار كبير في المعركة الاولى على قوات سودانية تفوقها بكثير. ولكنها لا تملك السلاح الناري او المدافع. وذلك في ٦ جمادى الاولى سنة ٩٩٩ هـ / ١٢ مارس ١٥٩١ على مشارف كاغــو، وانسحب السلطان اسحاق الثاني الاسكي الى عاصمته، رحل منها ما تيسر قبل ان يدخلها المغاربة (١). وأمر المنصور باقامة الافراح بهذا النصر(٢). أمـــا اسحاق الثاني فلم يلبث بعد هزيمته الاولى ان تقدم الى قائد الحملة السعدية بعرض قبل فيه التبعية للمنصور، ودفع خراج كبير له مقابل البقاء في ملكه وقدم هدية كبيرة، مؤلفة من ١٠٠٠٠ مثقال ذهب. الا ان المنصور رفض العرض وعزل قائد حملته لانه لم يقض على خصمه، واصدر امره للقائد الجديد محمود باشا بعدم الكف عن قتالــه حتى يستأصل شأفته (٣). وتمكن هذا الاخير من القضاء على اسحاق الثاني بعد سلسلة من المعارك كان النصر فيها حليفه، ولكن المقاومة السودانية لم تتوقف بمقتله.

أما النتائج التي اسفر عنها غزو المنصور لبلاد السودان فلعل من أهمها :

(١)- امتداد نفوذه على مساحة واسعة من بلاد السودان. وحسب الفشتالي فان جميع الممالك السودانية الواقعة مابين المحيط غربا وبلاد الهوسة شرقا، قد انتظمت تحت لواء احمد المنصور. وبهذا الامتداد الكبير يكون هذا الاخير قد حقق لنفسه ماكان يطمح اليه من تكوين امبراطورية.

(٢)- سيطرة المغاربة على محاور التجارة المتجهة الى الشمال على الخصوص، وتوجيهها نحو المغرب، وما في ذلك من تخريب للنظام التجاري الذي كان قائما بين بلاد السودان وبلدان شمال افريقيا (٤). ويمكن النظر لحملته على السودان، وتحويله لمحاور التجارة بانها نوع من الحرب الاقتصادية ضد الجزائر التي تحولت عنها محاور التجارة السودانية الى المغرب.

(٣)- اساءة كبيرة لمسلمي السودان، ذلك ان حملات المنصور قد تسببت في سفك دماء اعداد كبيرة من مسلمي السودان باسلحتها النارية الفتاكة، ((مثلوا على الارض هضابا.. كاثروا الحصى واربوا على العدد والاحصى))(٥). ((وهم يقولون نحن اخوانكم في الدين، والظلمة مع ذلك الحال يقتلونهم)) (٦). وفي استعباد اعداد غير قليلة منهم، وأخذ اموالهم وتطليق عيالهم واولادهم (٧) بعض الشخصيات الاسلامية السودانية البارزة التي لم تسلم من اذى المنصور وقائد حملته محمود باشا،

(١) نفسه : ١٢٧ - ١٢٨

(٢) نفسه : ١٤٣

(٣) نفسه : ١٤٨ - ١٤٩

(٤) Groupe de Chorcheurs(Martinat& autres):Hist. du Maroc, Casablanca 1967, P.212.

(٥) الفشتالي : المرجع السابق ص١٢٢

(٦) المجهول : المرجع السابق ص٦٠

(٧) نفسه : ص ٧٠

الامام العلامة احمد بابا التنبكتي ، فقد القى القبض عليه في محرم ١٠٠٢ /اكتوبر ١٥٩٣ (وعلى اهل
، وارسلوا مصفدين الى مراكش حيث اودعوا السجن ، ونهبت اموالهم وذخائرهم وكتبهم ، وحاول
[المن]صور اصلاح الامر بأن افرج عليه بعد فترة بشرط الاقامة في مراكش ، ولم يعد الى بلاده الا بعد (١)
المنصور ، وقيام ابنه زيدان الذي اذن له بالعودة ، فرجع غير آسف على مغادرة مراكش وبلاد المغرب
تدهور الحياة الثقافية في بلاد السودان ، لما لحق الهيئة والاسر العلمية من اذى ، وما تعرضت
خزائن كتبها من نهب وسلب على نحو ما وقع لاسرة احمد بابا ، فقد قيل عن ابي العباس احمد
انه قال : ((انا اقل عشيرتي كتبا ، وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد)) (٢) . وربما كانت
النتيجة الاهم بالنسبة للمنصور هي : تدفق خيرات بلاد السودان اليه ، من ذهب وعاج وابنوس
بوة، وغير ذلك بالاضافة الى العبيد ، مما اغنى المنصور وسمح له بانجاز مشاريعه العمرانية ،
الاستكثار من الجيوش باستعمال العبيد السودانيين في جيوشه البرية والبحرية، والعيش في
ابهة وفخفخة ، واذا كانت الاحصائيات الاجمالية لما تحصل عليه المنصور من خيرات بلاد السودان
البهيمية والبشرية غير متوفرة، فان ما وصله في بعض الدفعات التي اشير اليها يعطي فكرة عما
يكون قد دخل الى خزائنه ودوره ، علما ان جباية السودان كانت تأتيه كل سنة (٣) .

ففي سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م بعث جودر باشا بأول دفعة ، وكانت تتألف من عشرة آلاف مثقال
[وما]ئتين من العبيد (٤) . وبعث محمود باشا الذي خلفه في القيادة بعد ذلك ١٢٠٠ من العبيد
[وا]ربعين حملا من التبر ، واحمالا كثيرة من العاج ، واربعة سروج من الذهب الخالص ، وكرر من
[ال]غالية ... وغير ذلك من ذخائر السودان (٥) .

واحضر جودر عند عودته ١٠ آلاف عبد و ١٠ آلاف جارية، كلهن في سن البلوغ ، واربعة افيال
[ح]مل منها واحد (٦) . وحسب الوثائق المعاصرة فان ما كان يدخل الى دار السلطان كل سنة من
التبر يقدر بنحو ستين قنطارا (٧) . وهذه الكمية الكبيرة تدفع الى التساؤل عما اذا لم يكن جودر
باشا قد استولى فعلا على معادن الذهب ، وهو ما ينفيه بعضهم (٨) . علما ان المنصور قد اصدر
اوامره الى جودر ((بملك امر معادن الذهب الثلاثة التي اكتنفتها هذه الممالك ، وامره بالبناء
عليها ، واختطاط الحصون الواقعة عليها ، وترتيب الجيوش فيها لحياطتها)) (٩) . ومهما يكن الامر فإن
المنصور قد حصل ونال من تبر السودان ((ما يغيظ الحاسدين ويحير الناظرين ، حتى كان المنصور لا يعطي
في الرواتب الا النضار الصافي ، والدينار الوافي ، وكان ببابه كل يوم اربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدنا[نير]
دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي وشبه ذلك ، ولاجل ذلك لقب بالذهبي ، لفيضان
الذهب في زمانه)) (١٠) . وقد كان الاقبال شديدا على العملة المغربية من قبل التجار الاوربيين الذ[ين]
كانوا يهربونها على الرغم من المراقبة الشديدة التي فرضها المنصور .

---

(١) الافراني : المرجع السابق ص ٩٧-٩٨ ، السلاوي : المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٦-١٣١
(٢) الافراني : نفس المرجع ص ٩٧ ، السعدي : المرجع السابق ص ١٧٠
(٣) المجهول : المرجع السابق ص ٧٠ ، المقري احمد : روض الآس العاطرة الانفاس المغرب ١٩٦٤ ...
(٤) الفشتالي : المرجع السابق ص ١٤٧ ، الافراني : المرجع السابق ص ٩٧
(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٧٠ ، الافراني : المرجع السابق ص ٩٧
(٦) السعدي : المرجع السابق ص ١٧٨ والزياني : المرجع السابق ص ٣٦٤
(٧) مصادر تاريخ المغرب ، انكلترا ج ٢ ص ٨٦ (٩) الفشتالي : المرجع السابق ص ١٦٥
(٨) مارتيني وغيره : المرجع السابق ص ١٢٢
(١٠) الافراني : المرجع السابق ص ٩٥

الفصل التدريجي لدولة السعديين
(المرحلة الرابعة من حياة الدولة السعدية: 1012 ـ 1069 هـ/ 1603 ـ 1659 م)

دخل المغرب بعد موت المنصور في مرحلة جديدة تتميز بـ :

١ ـ الصراع على السلطة بين ابناء المنصور وأحفاده طوال ست سنوات بلا هوادة .

٢ ـ تجدد اطماع القوى الخارجية فيه وتدخلاتها .

٣ ـ النشاط الحثيث للقوى الدينية الذي نجم عنه :

آ ـ قيام وحدات سياسية عديدة بزعامة المرابطين والمجاهدين والأشراف .

ب ـ القضاء التدريجي على الدولة السعدية .

١ ـ الصراع على السلطة :

ان موت المنصور فجأة بالطاعون كما ذكرنا في أوت ١٦٠٣ قبل ان يبت في امر ولاية العهد ، بعد ان جرد ولي عهده السابق ، واودعه السجن ، كان سببا في انقسام اهل المغرب واختلافهم فيمن هو احق بالخلافة بعده ، فبايع اهل فاس ابنه زيدان باعتبار ان والده استخلفه على فاس التي هي مقر ولي العهد ، وانه من ام عربية حرة (١) ، وخالفهم اهل مراكش حيث بايعوا ابنه الآخر أبا فارس عبد الله شقيق محمد الشيخ ، الذي استخلفه والده على مراكش لدى تحركه الى فاس ، ((فكان ذلك سبب افتراق الكلمة والجماعة ، وابتداء المخالفة ، وعدم الطاعة ، وفتح ابواب الفتنة والشرور ، وغلق ابواب الهدنة ، وذهاب السرور ..)) (٢) ، اذ أن كلا الأخوين تشبث بالملك ، وابى ان يبايع أخاه ، فانقسم المغرب الى مملكتين : مملكة فاس تحت حكم زيدان ومملكة مراكش تحت حكم ابي فارس . وامام رفض هذا الاخير المبايعة لاخيه زيدان ، ورفضه ايضا اقتسام الاموال الكثيرة التي كانت في خزائن مراكش معه ، تحرك زيدان في الايام الاخيرة من عام ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م على رأس جيش فاس نحو مراكش ، وحرك ابو فارس لمواجهته جيش مراكش بقيادة ولده عبد الملك ، ومساعدة جودر باشا ، واخيه محمد الشيخ الذي اطلق سراحه بهذه المناسبة من السجن ، بعد ان اخذ العهود عليه بالاخلاص له ، ووعده بولاية فاس ، واستبقى ولده عبد الله رهينة لديه (٣) . واشتعلت نار الحرب الاهلية التي استمرت ست سنوات تقريبا بلا هوادة ، بمعركة جرت بين المتنافسين على ضفة وادي ام الربيع في ٢٨ رجب ١٠١٢ هـ / فاتح يناير ١٦٠٤ م ، انهزم فيها زيدان ، لحيل جيشه الى محمد الشيخ (٤) ، ولاحقه هذا الاخير الى فاس ، ففر منها زيدان والتحق بتلمسان لطلب عون الاتراك (٥) ، بينما بايع اهل فاس محمدا الشيخ سلطانا (٦) ، وتمكن ابنه عبد الله في الفرار من معسكر عمه حيث كان رهينة ، فولاه ابوه قيادة حملاته ضد اخويه ابي فارس وزيدان ، واولاها حملة في شعبان ١٠١٥ هـ / ديسمبر ١٦٠٦ م . وفيها نجح في تحقيق النصر على عمه ابي فارس في ٢٠ شعبان ١٠١٥ / ٢١/ ١٢/ ١٦٠٦ ، ودخل على اثر هذا النصر الى مراكش واباحها لجيشه ، واساء السيرة فيها ، وارتكب مجزرة في قادة ابي فارس الذي فر الى جبل مسفيوة (٧) ، مما جعل اهل مراكش يبحثون في طلب زيدان لتخليصهم من طغيانه ـ وكان زيدان

---

١) الافراني : النزهة : ص ١٩٢ ـ ١٩٣ (امها مائشة من عرب الشبانات ، اما ام ابي فارس ومحمد الشيخ فهي أمة واسمها الخيزران) .

٢) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٨٠

٣) انظر تقرير (Ro. C.) الى روبرت كوتينغتون Ro.Cottington وبتاريخ ١٦٠٩ ، في مجلة تطوان عدد ٩ ص ٨٦ ، وحسبه ان ابا فارس امر قائده سرا بالقبض على محمد الشيخ بعد تحقيق النصر

٤) نفسه : ص ٨٧ . الافراني : النزهة : ص ١٩٢ المجهول المرجع السابق ص ٨٨

٥) (٦) المجهول نفس المرجع ص ٨٢ ، ٨٤

٧) راجع المرجع السابق ص ٩٩ ـ ١٠٠ والافراني : النزهة ص ١٩٣

د عاد من تلمسان بعد بضعة اشهر من الاقامة فيها ، على رأس فرقة من الفرسان انتزع بها
سجلماسة من حكم اخيه ابي فارس ، ودخل الى السوس واستقر في تارودانت بعد ان توسط في
الصلح بينه وبين اخيه المذكور المرابط ابو محمد عبدالله بن المبارك (١) ، ومنها زحف الى مراكش
تلبية لنداء اهلها وتمكن في ٢٧ ذي القعدة ١٠١٥هـ / ٢٥/ ٤/ ١٦٠٧م من الانتصار على
عبدالله ، الذي فر الى فاس بعدد قليل ، وأمر بقتل من بقي من الفاسيين في مراكش وعددهم
(٣٠٠٠) (٢) ، ثم وجه حملة الى فاس بقيادة مصطفى باشا ، لكن حملة محمد الشيخ المضادة
بقيادة ولده عبدالله تمكنت من تحقيق نصر كبير على جيش مراكش ، ومن قتل (٩٠٠٠) منه في معركة
فلفلت قرب مكناسة في جمادى الثانية ١٠١٦هـ / ١٦٠٧م (٣) ، وتقدم عبدالله الى مراكش واحرز نصرا
على زيدان في شعبان ١٠١٦هـ / ٢٦/ ١١/ ١٦٠٧ ودخل الى المدينة ، وعاث فيها اكثر
من المرة الاولى (٤) ، وبايع المراكشيون الذين فروا الى جبل جليز المطل على مراكش مولاي احمد
المسعدي (٥) ، وزحفوا معه الى هذه الاخيرة ، وفشل عبدالله في صد حملتهم عليها ، فشوال ١٠١٦هـ
/ ٢٢/ ١/ ١٦٠٨ ففر الى فاس (٦) ، ولكن عفو احمد عمن بقي من الفاسيين في مراكش اغضب اهل
مراكش ، وبعثوا ثانية في طلب زيدان ، الذي تمكن من الانتصار على احمد المذكور في اوائل شوال
١٠١٦هـ / ابريل ١٦٠٨ ودخل الى مراكش (٧) ، وانفذ حملة تحركت على رأسها الى فاس ونجح
في تحقيق النصر على الحملة المضادة بقيادة عبدالله في معركة بورقراق ٢٧ شوال ١٠١٧هـ/ ٣/ ٢/
١٦٠٩م ، ودخل على اثرها الى فاس التي فر منها محمد الشيخ الى بلدة القصر الكبير ، ومنها الى
العرائش حين لاحقه جيش زيدان ، وابحر من هذه الاخيرة في ٢٧ ذي القعدة ١٠١٧هـ/ ٤/ ٣/
١٦٠٩م الى البرتغال فاسبانيا لطلب العون من فيليب الثالث ، بينما فر ابنه عبد الله وعمه ابو فارس (٨)
الى دار ابن مشعل في جبل بني يزناسن في الحدود الغربية للجزائر (٩) .

ولكن وحدة المغرب تحت سلطة زيدان لم تستمر طويلا اذ ماكاد يعود الى مراكش حتى هاجم عبدالله وعمه ، على رأس قبائل شرق المغرب ، مصطفى باشا خليفته في فاس في ٧ ربيع الثاني ١٠١٨هـ / ١٠/ ٧/ ١٦٠٩م وتمكنا من هزمه وقتله ، والدخول الى فاس (١٠) ، ثم مالبث عبدالله ان قضى على عمه ليخلو له المجال في جمادى الاولى ١٠١٨هـ / اوت ١٦٠٩م ، ويدعو لنفسه . وتحرك زيدان مرة اخرى لاسترداد فاس وتمكن بمشقة كبيرة من استعادة نفوذه عليها لفترة قصيرة (جمادى الاولى الى رجب ١٠١٩هـ/ اوت - سبتمبر ١٦١٠م ، اذ استطاع عبدالله ان يستردها منه بعد ان هزمه هزيمة ساحقة في ١١ رجب ١٠١٩هـ / ٢٩/ ٩/ ١٦١٠م ، وعاد زيدان الى مراكش ، وقرر عدم التدخل مرة اخرى في فاس (١١) . فتلك امرها لعبدالله ، كما خلص امر مراكش له ، فبدأت الحرب

---

(١) ... ان ابن عبد الرحمن التامنارتي / الفوائد الجمة ، ترجمة جوستينار ، فرنسا ١٩٥٣ ص ٧٩ ، وعبد الرحمن ... الاحداث ...
(٢) ... المرجع السابق ص ١١١-١١٢ ، والافراني ، النزهة ص ٢٢٢
(٣) ... المرجع السابق ص ١٠٢-١٠٥ ، الافراني ، النزهة ص ١٩٣ ، المجهول المرجع السابق ص ٨٦-٨٨
(٤) ... نفس المصدر ص ١٠٥ ، الافراني ، نفسه ص ١٩٤
(٥) ... نفسه ص ١٠٩-١١٠ ، الافراني نفسه ص ١٩٤
(٦) ... المصدر السابق ص ١١١ ، وعنده هو ابن عم لزيدان وحسب الافراني ، النزهة ص ١٩٥ اسمه ... محمد بن عبد المومن ، وذكر زيدان في رسالته ... احمد الشريف ، انظر النزهة ص ٢٢٢
(٧) نفس المصدر السابق ص ١١١-١١٢ ، الافراني ، النزهة ص ١٩٥ .
(٨) ... ص ١١٤ ، الافراني نفسه ص ١٩٥ .
... انضم الى اخيه محمد الشيخ بعد ان اشتد زيدان في البحث السوس حيث كان ملتجئا بعد الاطاحة به في ديسمبر ١٦٠٦ . (٩) - انظر عن فراره محمد الشيخ وابنه وابي فارس النزهة الافراني ص ١٩٦
(١٠) الافراني نفس المصدر ص ١٩٦ - ١٩٧ والمجهول المرجع السابق ص ٩٢ .
(١١) المجهول ، المرجع السابق ص ٩٢

وعبد الله بدون قوة ومات زيدان، وافنت جيش المنصور الكبير، وخلفا كثيرا خلفا وصارما واصبحت

واصبحا عاجزين عن اخضاع الثائرين بعد سلسلة الحروب التي اشرنا اليها ومن شعبية ايضا،

• في وجه الاطماع الخارجية والمتمردين عليهما، وعن الوقوف

٢ـ تجدد اطماع القوى الخارجية في المغرب :

سنين عديدة، فرصة ثمينة للقوى الخارجية

اثار تنافس ابناء المنصور، وصراعهم على السلطة فيه • التي تتدخل، او تستعد للتدخل، ولتحقيق اطماعها القديمة

المجاورة للمغرب وغير المجاورة لضمه، ولظروفهم الخاصة المباشر في المغرب هذه الفرصة للتدخل اذا كان الاتراك لم يغتنموا

فيما يبدو، فان الاسبان تدخلوا في شهر جمادى الاولى الامبراطورية في الجزائر وانتهاء

التي كانت دوما نصب اعينهم كما كانت من قبل وحاولوا احتلال العرائش ١٠١٧هـ / اوت ١٦٠٨م،

غير ان فيليب الثالث لم يتخل عن اطماعه ولكن حملتهم باءت بالفشل[1] نصب اعين البرتغاليين،

وطلب مساعدته لاسترجاع الملك فلما التجأ اليه محمد الشيخ، ذات الميناء الممتاز •

وافق، وقدم الرهائن[2] ان يسلمه العرائش مقابل مساعدته اشترط عليه من اخيه زيدان

في فاس من اخيه زيدان ١٠١٨هـ / ٢٠ / ٢ / ١٦١٠م • ورغم ٦ ذي القعدة فعاد الى بادس في

/ ١٠ / ٧ ١٠١٨هـ / ٧ ربيع الثاني فاسترداد فاس في من هذه الاثناء من اولاده واولاد قادته،

من بعض علماء فاس الخائفين واستصدر فتوى بالتزامه، ان ابنه عبد الله قد تمكن في

وسلم العرائش[3] لابنائه الرهائن في مقابل افتداء الخليفة محمد الشيخ وفى ١٦٠٩م كما ذكرنا، فان

بواسطة قائده بعد ان اخلاها من سكانها من باشه بجواز تسليم ارض اسلامية

١٦١٠/١١/٢٠ رمضان ١٠١٩هـ / ٤ في للاسبان

• [4] وقتل من رفض الجلاء منهم

على احتلال موقع آخر على الاسبان اقدم ١٦١٤/٨/٦م ١٠٢٢هـ / وفي جمادى الثانية

فاتخذه القراصنة في غمرة حروبهم، المنصور ابناء قد اهمله سبوكان عند مصب نهر

• (المهدية حاليا) بالمعمورة

الاوروبيون من انجلترا وغيرها، وكرا لهم يسمى

او لاسترداده من الاسبان[5]. للدفاع عنه مراكش من زيدان او فاس من عبد الله ولم يهب

١٦١٤م بغرض ١٠٢٢هـ / في في المعمورة، وجاء اسطولهم

وكان الانجليز يرمون بقليل الى ذلك[6]. وقد كان الهولنديون اطماعهم

فيما يبدو، ولكن الاسبان سبقوهم سبتة ممن وانتزاع وسلا، احتلاله بموافقة زيدان

احتلال بعض المواقع الهامة على الصحراء، والمضيق، كالمعمورة

المواقع المذكورة[7] عدة تقارير تشجع على احتلال امكانية ولكن

• في هذا الشأن رفعت وقد الاسبان •

البحث موضوع الفترة في على ذلك لم تقدم العليا الانجليزية السلطات ولكن

---

(1) [illegible] في المرجع السابق ص ١١٥ Gozalin(G.H.): La remise de l'Arache aux Espagnoles en 1610, t.7, P.72.

(2) [illegible] آالنزهة، ص ١٩٧، اما المساعدة فكانت تتمثل في مئتي الف دوقات وستة آلاف بندقية • واما المساعدة البشرية فتتمثل في الاندلسيين الذين شكوا في نفيهم، انظر ايضا : ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان عدد ٩ ص ١١٨، وامينة اللوة : قضية العرائش في البحث العلمي عدد ٢٧ الرباط ١٩٧٧ •

([illegible]) الافراني : النزهة ص ١٩٨-١٩٩، والسلاوي : الاستقصا ج ٦ ص ٢٠-٢٢

(4) الافراني : نفس المرجع ص ١٩٧-١٩٨، العمر في المرجع السابق ص ٩٢-٩٣، وداندان المرجع السابق ص ٧٩-٨٦ •

(5) (٦) ابن تاويت المرجع السابق ١٢٢ • امينة اللوة المرجع السابق ١١٧-١١٨

(7) تقرير هاريسون لعام ١٦٢٥ في مجلة تطوان عدد ١٠ [illegible] المغرب ١٩٦٥ •

٣ـ تجدد نشاط القوى الدينيـة وتأسيسها للامارات المستقلة :

ان القوى الدينية ممثلة في المرابطين والاشراف والقائمين على الجهاد ، الذين أرغم المنصور قبضته عليهم عن طريق استمالة بعضهم بالمال والاحسان ، والبطش بآخرين ، قد نشطوا بعد وفاته نشاطا كبيرا ، واتخذوا من تمالك ابنائه ، واحفاده على السلطة ، ولا سيما بعد تسليم العرائش للاسبان الذي أثار استياء واستنكارا شديدين لدى عامة المغاربة ، ومن تقاعسهم واهمالهم الدفاع عن المعمورة بعد العرائش ، ومن سوء سلوك معظمهم ، الخلقي والاداري ، ذريعة للعمل على الاطاحة بحكم الاسرة السعدية في مراكش وفاس ، وتأسيس نفوذ اقليمي لهم في مختلف جهات المغرب . وقد تمكن بعضهم فعلا من تأسيس امارات كان عمر بعضها اطول من عمر بعضها الآخر . ومن ابرز هؤلاء المرابطين والمجاهدين والاشراف المؤسسين للامارات نذكر :

في الجنوب المغربي : امارات ابي محلي ، وأبي زكريا يحيى الحاحي ، وابي حسون السملالي ، واشراف تافيلالت ((العلويين)) .

وفي وسط المغرب وشماله : امارات المجاهد العياشي ، وجمهورية الاندلسيين في الرباط وسلا ، وآل النقسيس في تطاوان والدلائيين . ولما كان للامارات المشار اليها اهميتها في العلاقات بين المغرب والجزائر فلامناص من التعريف بها ولو بشكل موجز :

آـ امارة ابي محلي (١٦١٠ ـ ١٦١٣) :

انتهز المرابط ابو العباس احمد بن عبدالله المعروف بابي محلي [١] موجة السخط والاستياء التي أثارها تسليم العرائش للاسبان من قبل محمد الشيخ السعدي ، فقام في اقصى الجنوب الشرقي للمغرب [٢] ودعا الى الجهاد ضد الاسبان ، والى الاطاحة بحكم ابناء المنصور الذين تمادوا في طلب السلطة حتى فنى الناس بيدهم ، وباعوا العرائش للاسبان ، وادعى انه المهدي المنتظر الذي سيخلص البلاد من جور ابناء المنصور وفسادهم [٣] ، وتحرك على رأس اتباعه مراكش يبين لدعوته ، وقصده التقدم الى العرائش [٤] ، لطرد الاسبان منها ، ومن مراكزهم الاخرى على شواطئ المغرب ، وفتح الاندلس للمسلمين من جديد [٥] .

وتبين كل ذلك ، آثر ان يبدأ بالقضاء على حكم السعديين في الجنوب ليتقوى بطلهم على الجهاد ، فزحف اولا الى سجلماسة ، فطلبها بعد ان هزم عامل زيدان فيها ، واجبره على الفرار واظهر العدل فيها ، ونشر المناكر ، وجاءته الوفود المهنئة من كل الجهات بما في ذلك الجزائر .

---

(١) الافراني : النزهة : ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ، والحسن اليوسي : كتاب المحاضرات فاس ١٣١٧ / ص ٩٠ كان مثالته من احدى قرى بني عباس في وادي الساورة في الجنوب الغربي الجزائري . انظر العياشي : ماء الموائد ، جزء اول ص ٢٩ .

(٢) الافراني : النزهة : ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٣) مجهول المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤) انظر رسالة (D.2.S.) المؤرخة بـ ٩ / ٩ / ١٦١٢ في مجلة تطاوان عدد ٩ ص ١٢١ .

مما يدل على ان حركته كانت تلقى تأييدا في داخل المغرب وخارجه . ثم ملك درعه في اعقاب
انتصاره على حملة كبيرة وجهها ضده زيدان (1) وتقدم بعد ذلك الى مراكش ودخل في اثارتهما
زيدان في 9 ربيع الاول 1021هـ / 10/5/1612م ، واحتلها ، ودخل قصر البديع ، وفر
بذخائر الملك . ودعا لنفسه وقام بالأمر ، وسكن البلاد . ثم مالبث ان تعقب زيدان الى آسفي
ففر هذا الاخير منها الى اكادير ، ومنها الى تارودانت .

وفي آسفي ابدى ابو محلي لبعض التجار الانجليز رغبته في اقامة علاقات ودية وتجارية
مع انجلترا ومع هولندة (المعسكر البروتستانتي) وتحسين وضعيتهم في المغرب ، ولا شك ان ذلك
كان ابتغاء منه على المساعدة الذي يحتاج اليه في تحقيق طموحاته في القضاء على الاسرة السعدية
ثم تحرير المراكز المحتلة ، واسترجاع الاندلس ، وغزو فرنسا وايطاليا (المعسكر الكاثوليكي) .

الا ان ابا محلي لم ينعم طويلا بالملك والاستقرار حتى يتمكن من تحقيق رغباته . ذلك
ان الصراع مع زيدان لم يتوقف ، وتزعم هذا الاخير في اثارة المرابط الكبير ابي زكريا (الآتي ذكره)
ضده ، فتقدم ابو زكريا على رأس جموع كثيرة للقضاء على ابي محلي الذي بات نفوذه ممتدا بعد
في المغرب يشكل تهديدا خطيرا لنفوذه . وتمكن من القضاء عليه في اول صدام معه في جليز
قرب مراكش في رمضان 1022هـ / اكتوبر 1613م ، ودخل يحيى الى مراكش ، وبذلك قضى على
إمارة ابي محلي التي لم تعمر طويلا . وعاد زيدان الى قاعدة ملكه بعد انسحاب ابي زكريا منها .

ب - امارة ابي زكريا يحيى (2)

كان ابو زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الداودي الحاحي فقيها مشاركا
في الفنون المختلفة ، من بيت علم ودين ذا شهرة عظيمة بالصلاح في بلاد السوس ، واتباع كثيرين
تأتيه الوفود من مختلف انحاء المغرب كوالده مؤسس الزاوية (3) لم يلبث بعد عودته من مراكش
ان داخله الى الملك وزمن الثلاثة بعد ان لاحظ افتراقها في حواضر المغرب وبواديه ، بل اخذه
تردد في الانسحاب من مراكش وهم ان يحتفظ بها لنفسه ويتخذها دار قرار لملكه ، ولاسيما ان
اهل مراكش عرضوا عليه ان يبايعوه (4) مما جعل زيدان يكتب قائلا : ((ان كنت انما جئت
لنصرتي وتأييد ذلك الثائر علي فقد ابلغت المراد وشفيت الفؤاد ، وان كنت رمت ان تعز النار
... فاثر الله بيننا به ..)) (5) فاظهر حينئذ التعفف ، ولعله
الزهد ، وتجنب الملك من تنسك . ولعله ادرك لما رأى ان جموعه قد رجعت الى بلادها ولم يبق معه من قومه الا شرذمة قليلة فرحلها
الى ... ، فدخلها حينئذ زيدان ، واشترط على هذا الاخير ان يلتزم
بينهما ... الى بلاده ، ... الا انه لم يلبث بعد
الاستقامة في ملكه (6) ، تاركا الميدان مفتوحا امامه للتدخل في شؤونه . الا انه لم يلبث بعد
عودته الى السوس ان تعرض لاحتلال تارودانت ، وكانت بيد ابي حسون الآتي ذكره ، وتمكن من
احتلالها بعد حروب كثيرة ، واتخذها قاعدة لامارته بعد ان انتزع مراكش بدعوى ان زيدان لم يصف

---

(1) انظر عن صراع ابي محلي مع زيدان ، وعن كتاباته : رسالة ، ... المنشورة في المرجع السابق ص 126 – 127 ، الافراني : النزهة ص 200 – 201 ، الحجوي المرجع السابق ص 101 – 102 .
(2) انظر عنه : التامنارتي المرجع السابق ص 66 – 67 ، الافراني : النزهة ص 209 – 212 .
(3) زاوية تانيالت بزداغة (شمال تارودانت . انظر عبد الله ابن مسعود : دوحة الناشر ص 76 والتامنارتي المرجع السابق ص 59 – 60 .
(4) الافراني : النزهة ص 220
(5) نفسه ص 209
(6) نفسه : ص 214 ، 224 – 225
(7) نفسه : ص 212

له بما اشترط عليه[1] كما اتخذها منطلقا لتوسيع امارته في السوس ، فكان في صراع مع زيدان من جهة ومع ابي حسون من جهة اخرى ، مما انهك الطرفين من خطر حقيقي •

وقد تمكن ابو زكريا من ازعاج زيدان في مراكش مرارا[2] ، ولكن محاربته على جبهتين كان يسمح لزيدان باسترجاع حاضرته ، وان لم يستقر له امرها الا بعد وفاة ابي زكريا في ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦ م[3] ، اذ لم يكن ابناء هذا الاخير في مستواه مما مكن ابا حسون من القضاء على امارتهم •

ج — امارة ابي حسون السملالي :

انتهز حفدة المرابط الشهير احمد بن موسى الجزولي[4] واشهرهم على الاطلاق ابو الحسن علي بن محمد بن موسى المعروف بأبي حسون ، او بودميعة[5] فرصة تنافس ابناء المنصور على السلطة ، والسند الذي اكتسبه بتسليم محمد الشيخ العرائش للاسبان ، فقاموا في السوس الاقصى واسسوا امارة مستقلة في تازروالت[6] مقر زاوية جدهم • وذلك في حدود سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م ، كان اول امرائها ابراهيم بن محمد بن احمد بن موسى (١٠٢٠ — ١٠٢٢ / ١٦١١ — ١٦١٢ م[7] ، وتلاه ابو الحسن علي (١٠٢٢ — ١٠٧٠ هـ / ١٦١٣ — ١٦٥٩ م) وقد جد في توسيع امارتهم في السوس الاقصى والادنى ، وجنوب المغرب عموما ، فاصبحت تمتد الى وادي نون جنوبا ، والى تارودانت واعمالها في الشمال • ولكنهم مالبثوا ان اصطدموا بالمرابط ابي زكريا الآنف الذكر ، الذي كان يسعى هو الآخر الى بسط نفوذه على السوس والجنوب المغربي ، ووقعت بين الطرفين وقائع كثيرة ، قتل في احداها ابراهيم المذكور[8] ولم يخلص امر السوس لابي حسون الذي خلفه الا بعد موت هذا الاخير في التاريخ المذكور (١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦ م) •

ولما توفي زيدان في حوالي ١٠٣٧ هـ / سبتمبر ١٦٢٧ م مد ابو حسون نفوذه الى درعة وسجلماسة[9] فسيطر بذلك على كل الجنوب المغربي ، وكل المراكز التجارية فيه ، باستثناء مراكش وعمالتها ، كما سيطر على الدائرة التجارية بين المغرب وبلاد السودان ، وغدت امارته اهم امارات المغرب •

وقد اتخذ ابو حسون من بلدة ايليغ التي اختطها في اقصى السوس قاعدة له ، وتمكن في توفير الامن والاستقرار في امارته ، فازدهرت التجارة الداخلية والخارجية فيها ، في الوقت الذي تدهورت في الجهات الاخرى ، وقصده التجار الاوربيون ، وخاطبته دولهم تنشد صداقته وربط العلاقات ، وعقد الاتفاقيات التجارية معه ، ومنها : هولندة ، وانكلترا[10] مما زاد في تدعيم مركزه • الا ان نفوذ ابي حسون اخذ في التقلص ابتداء من ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م وهي السنة التي انتزع منه الشريف محمد بن الشريف الآتي ذكره سجلماسة ثم درعة بعد معارك عنيفة (١١) فانحسر نفوذه ، ولم يعد يتجاوزه عند وفاته في سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م بلاد السوس • ولم يلبث ان غزا الرشيد

(1) مما اشترط عليه اضافة الى الاستقامة في المعاملة ، ابعاد المور يسكيين وانتزاع القاوين ، وولد انطالذ يمن كان يمارس بهم جريمة اللواط • انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في مجلة تطوان عدد ١٠ ، ص ٦٧ ،

(2) مذكرة هريسون : لعام ١٦٢١ في المرجع السابق ص ١٠٧ •

(3) نفسه : ص ١٠٧ ، والافراني : النزهة ص ٢١٢

(4) انظر عنه ابن عسكر دوحة الناشر ص ٨٣ (5) الافراني : النزهة ص ٢٨٦

(6) انظر عن هذه الامارة : Justinard: Un petit royaume Berbère, le TAZEROUALT. Paris 1954.

(8) نفسه ص ٤٤ — ٤٦ (9) الافراني : النزهة ص ٢٨٦

(10) شوقي عطا الله : العلاقات الانكليزية المغربية في النصف الثاني من القرن / ١٦ / والنصف الاول من القرن / ١٧ / في المناهل عدد ٤ الرباط ١٩٧٥ ص ١٢٢ (11) الافراني : النزهة ص ٢٨٦ •

محمد بن الشريف، ايلي وشريها في ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م، وقضى على الامارة فيها (١).

د ـ المجاهد العياشي :

كانت الجهود الاولى للفقيه المجاهد ابي عبدالله محمد بن احمد المالكي الزياني المعروف
[بالع]ياشي (٢)، موجهة لمحاربة الوجود البرتغالي في ساحل دكالة، وليس للاطاحة بحكم السعديين.
[ذ]لك فان زيدان اسند اليه منذ ان ظهرت بطولاته قيادة آزمور وعمالتها (٣). ولكن العلاقة
[بين] الطرفين مالبثت ان تدهورت للشكوك التي ساورت زيدان في امره، ولاسيما بعد ان تزايدت
[ش]عبيته كثيرا . وقد غذى البرتغاليون هذه الشكوك لديه حتى يتخلصوا منه (٤). فبعث زيدان
[حمل]ة للقضاء عليه، ولكن قائدها محمدا السنوسي اشعر العياشي بمهمته، ففر هذا الاخير الى
[س]لا (١٠٢٣ / ١٦١٤م) . وهناك التف حوله الاندلسيون، ولم يتمكن الزعروري قائدها
[من تم]كين زيدان من القضاء عليه، كما امره وهذا الاخير. وما لبث المغاربة والاندلسيون
[ان ...]ا ان بايعوه، كما بايعه ايضا سكان المدن من تامسنا غربا الى تازه شرقا (٥) وخضعت لـه
[...]ان (٦) واقاليم شمال المغرب .

وقد تمكن العياشي من احراز انتصارات عديدة على الاسبان في مراكزهم المحتلة، وزرع
[الرعب] في قلوبهم، بحيث لم يعودوا يجرؤون على الخروج من حصونهم، كما تعودوا من قبل (٧).
[وواج]هت العياشي صعوبات متعددة منها :

[...]ضب القبائل العربية في مجال نفوذه، مما كان يضطره الى الاشتغال بقمعها .
[...] حركة السعديين لجهوده باثارة بعض الفقهاء ضده، فادعوا ان الجهاد لا يجوز الامع الامام
[...]ار باذنـه، ولكن علماء بارزين كسيدي العربي الفاسي، وعبد الواحد بن عاشر وغيرهما، فندوا
[ز]عمهم فهبت محاولة زيدان ومن تلاه بالفشل (٨)
[...]ميل الاندلسيين في سلا والرباط عنه، وتعاملهم مع الاسبان مما جعله يحكم السيف فيهم
[...] ايام بعد ان استصدر فتوى تجيز له قتلهم، لتعاملهم وتعاونهم مع العدو، وامدادهم لـه
[...] بالطعام والسلاح، وتحكمهم في البيع والشراء على الناس، واحتكارهم ذلك لانفسهم (٩).
[...] تنكر الدلائيين الذين ذكرتهم له في اعقاب تدهور علاقاته مع الاندلسيين، حيث تبنوا قضية
[...]ين التجأوا اليهم واستنجدوا بهم، وتعاونوا مع خصومه من زعماء القبائل العربية، مما جعله
[...]ين على مضض في حرب معهم . وفي اعقاب انهزامه في المعركة الثالثة لجأ الى عرب الخلط،
[...] حاربه هؤلاء وقتلوه في ١٠ محرم ١٠٥١هـ/ ٢١ / ٤ / ١٦٤١م (١٠). وبذلك حققوا ماعجز الاسبان
[و]البرتغاليون عن تحقيقه طوال اكثر من ثلث قرن، فقضوا على الجهاد ضدهم .

واما كان العياشي صاحب النفوذ في الشواطئ الشمالية والغربية للمغرب، فقد سعى الانجليز
[ا]لى الارتباط معه بمعاهدة صداقة وتعاون، وتجارة تضمن لرعاياهم الامان، والتجارة في المراسي

(١) [ال]افراني : المرجع السابق ص ٣٠٢
(٢) [نف]سه : ص ٢٦٠ (٣) (٤) (٥) نفسه : ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥
(٦) [مح]مد داود : تاريخ تطوان ج ١ ص ٢٢٢ .
(٧) [...]ار تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٥٤ والافراني : النزهة ص ٢٦٦ ـ ٢٦٩
(٨) (٩) (١٠) الافراني : نفس المرجع ص ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠ ـ ٢٧١

ربيسة ، الخاضعة لنفوذه ، وبحسب هو بهذا المصدر ، فحقد معهم اتفاقية اولى في ٢٤ (١)
بان ١٠٣٦ هـ / ١٠/ ٥/ ١٦٢٧ م ، واخرى في ١٠ ذي الحجة ١٠٤٦ هـ / ٥/ ٥/ ١٦٣٧ م
ل المعاهدة الثانية ، كان يحصل على مايحتاج اليه من بارود ومعدات حربية اخرى (٢).
رى علاقاته مع اتراك الجزائر في بحث العلاقات السياسية .

هـ ـ اندلسيو سلا والرباط :

كانت سلا والرباط ، من المدن المغربية الساحلية التي استوطنها المهاجرون الاندلسيون
رة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، وبعد فشل ثورة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م ،
تقبلتا افواجا جديدة ، كما استقبلتا افواجا اخرى في اوائل القرن الحادي عشر الهجري السابع
ـر الميلادي .

وقد كان اندلسيو سلا والرباط موالين في بادئ الامر لزيدان ، حيث كانوا يعدونه يعتمدون
م عند الحاجة ، ثم راموا خلع طاعته ، والاستقلال عنه ، فبدأوا بالامتناع عن مطاردة قائده
زروري في القبض على العياشي او اغتياله ، كما كان يريد زيدان ، ثم رفضوا ارسال مزيد من
جندين منهم له (٣) فتدهورت العلاقات بين الطرفين ثم آلت الى القطيعة ، حين عقدوا
اتفاقية مع الانكليز عن طريق سفيرهم هاريسون ، اطلقوا بموجبها سراح الاسرى الانكليز ، بما في
ذلك بعض الاطفال كانوا بين ايديهم ، في مقابل المدافع التي زودهم بها هاريسون (٥) في اوائل سنة
١٦٢٧ (٤) وحين اقدموا كذلك على طرد قائد زيدان الزروري من الرباط ، وتشكيل حكومة
دلسية مستقلة فيه (٦) متعاونة مع العياشي .

وكان رد فعل زيدان العمل على اثارة المغاربة عليهم فأشاع انهم يتآمرون مع الانكليز بنية
تسليم الرباط لهؤلاء ، والارتداد الى المسيحية ، وانهم يريدون لهذا الغرض وذلك ان يتجمع
الاندلسيين في سلا (٧) . بحيث اخذ المغاربة ينظرون اليهم على انهم في داخليتهم
مسيحيون وليسوا مسلمين (٨) . وقام بالقاء القبض على رؤساء الاندلسيين في مراكش وتفريق شمل
...رين (٩) ، وكلف قائده المدعو (حبيب) بتدبير امر مداهمة الاندلسيين في قصبة
سلا مع المغاربة هناك . ولكن الاندلسيين ثاروا على هذا القائد وقتلوه (١٠) وتوفي زيدان
في سبتمبر ١٦٢٧ م دون ان يتمكن من استرداد نفوذه على سلا ورباطها . ولكن الاندلسيين
بهما ، لم ينعموا بالهدوء والاستقرار والاستقلال . فالعلاقة الطيبة التي كانت تربطهم بالمجاهد
العياشي ماالبثت ان تدهورت كما سلف القول ، للاسباب التي تقدم ذكرها ، وتعرضوا الى امتحان
عسير . وانتهز محمد الحاج الدلائي الآتي ذكره ، الذي تبنى قضيتهم حمى بعضهم ، فرصة رفض
العياشي لشفاعته فيهم ، ليدخل في نزاع معه ، انتهى بمقتل العياشي ، وسيطرة محمد الحاج على
سلا ، واخضاع الاندلسيين لنفوذه . وهكذا استبدل هؤلاء سيدا بسيد ، وكان الامر كذلك الى ان
قاموا بثورة على السيد الجديد في ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م انتهت باسقاط نفوذه عليهم . (١١) .

(١) شوقي عطا الله الجمل ، المرجع السابق ص ١٧٠ ـ ١٧٦ .
(٢) ... ص ٤٩ ـ ٦٠ ... ٤٤
(٣) الافراني ، النزهة ص ٢٦٤ . (٤) (٥) انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٤٤ ـ
... انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٣١ في المرجع السابق ص ١١٠
(٨) (٩) انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥٢ ، ٥٦٠٦٠ ٥
... نفسه ص ٤٨ وفيه ان الذين قتلوه هم الاعراب ، وانظر النزهة للافراني ص ٢٦٥
... محمد حجي ، الزاوية الدلائية الرباط ١٩٦٤ ص ٢٢٤ .

و - امارة مرابطي الدلاء :

كان الدلائيون[1] لا يتدخلون في السياسة ، ولا يهتمون الا بالناحيتين الدينية والعلمية في عهد ابي بكر[2] ، مؤسس زاويتهم في مقاطعة تادلا ، بوسط المغرب في النصف الثاني من القرن ١٠ هـ / ١٦ م وكذلك في عهد ولده محمد[3] ١٠٢١–١٠٤٦هـ / ١٦١٢–١٦٣٦م ولما آل امر الزاوية الى حفيده محمد الحاج بن محمد بن ابي بكر ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م ، سعى الى تأسيس نفوذ اقليمي ، وخلع طاعة محمد الشيخ بن زيدان[4] واسس جيشا من بربر الاطلس المتوسط تمكن بفضله من الحاق الهزيمة بالسلطان السعدي المذكور في بوعقبة على ضفاف وادي العبيد ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م[5] ، ثم تبنى قضية الاندلسيين كما تقدمت الاشارة ودخل في النزاع مع المجاهد العياشي الذي انتهى بمقتله في ٢١/ ٤/ ١٦٤١ ، وخضوع كل شمال المغرب وغربه للدلائيين بما في ذلك مدن فاس ، ومكناسة ، وسلا ، وتطوان ، وتازه ، وفشل عبد الله بن محمد العياشي في الثأر لأبيه ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م[6] ، وتطلع محمد الحاج بعد ان امتد نفوذه شمالا وشرقا وغربا ، الى مد نفوذه الى سجلماسة ونواحيها فاصطدم بالشريف العلوي محمد بن الشريف الاتي ذكره في واقعة القاعة في ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦م ودخل سجلماسة . وكان بامكانه ان يقضي على اشراف سجلماسة العلويين ، كما كان من قبل بامكانه ان يقضي على الاشراف السعديين بعد انهزامهم امامه ، ولكنه لم يفعل حبا في آل البيت فيما يبدو ، واكتفى بتحديد مناطق النفوذ بينه وبين الاشراف العلويين[7] .

وامام سيادة محمد الحاج على موانىء شمال المغرب وغربه ، سعت الدول الاوربية الغربية وفي مقدمتها هولندة وفرنسا الى عقد معاهد اصداقة وسلم ، واتفاقيات تجارية معه ، وارسلت قناصلها الى سلا وتطوان ، ورحب الدلائيون بمبعوثيهم ، وابرموا مع الدول المذكورة معاهدات ، واتفاقيات نذكر منها : اتفاقية مع فرنسا ابرمها معهم القنصل أ . برات والاتفاقية التي ابرمها معهم ناثانيال لوك Nathaniel L. قنصل انكلترا في تطوان ١٦٥٧ والمعاهدة الاولى التي عقدت بينهم وبين هولندة في ١٠٦١هـ / ١٦٥١م ، والثانية في ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م ، ولكن استفحال الغزو والقرصنة في هذه الفترة كان كثيرا ما يتسبب في تدهور العلاقات وتوترها بين الدلائيين والدول الاوربية[8] .

وقبل ان يدب الضعف الى الدلائيين في العقد السادس من القرن ١١هـ / ١٧م ، قاموا بمحاولة لتحرير المعمورة في ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م لكنها فشلت[9] ، ونجحوا في استرداد فاس من محمد بن الشريف الذي احتلها بالتواطؤ مع اهلها في ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م[10] ولكن فشلهم

(1) انظر : حجي ، المرجع السابق ص ٢٦–٢٩ ، ينتسب الدلائيون الى قبيلة مجاط البربرية الصنهاجية/ كانت مواطنهم في الدلاء بالجنوب الغربي للاطلس المتوسط.
(2) انظر عنه الافراني : النزهة ص ٢٧٦ ، حجي : نفسه ص ٤٢
(3) الافراني : نفس المرجع ص ٢٧٦–٢٧٩ ، حجي نفسه : ص ٧٦
(4) انظر رسالة محمد الشيخ الى الدلائيين وجوابهم في النزهة ص ٢٤٦–٢٥٤ والسلاوي الاستقصا ج ٦ ص ٩٩–١٠٢
(5) الافراني : النزهة : ص ٢٥٤ ، حجي نفس المرجع السابق ص ١٥٤ .
(6) السلاوي / الاستقصا ج ٦ ص ٩٤–٩٥
(7) نفسه ج ٧ ص ١٦–١٧ ، الافراني : النزهة ص ٢٨١
(8) انظر العلاقات الدلائية مع اوربا حجي : المرجع السابق ص ١٧٩ – وما يليها ، وشوقي عطاالله الجمل المرجع السابق ص ١٨٦
(9) حجي : نفس المرجع ص ١٥٩–١٦٢
(10) الافراني : النزهة ص ٢٨٢–٢٨٤ ، السلاوي الاستقصا ج ٧ ص ١٩

ي وقف توسع الخضر غيلان ١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م في شمال المغرب ، وهو واحد من اتباع المجاهد العياشي البارزين ، ثم فشلهم امامه في ١٦٦٠م في معركة وادي بوجريره كان بداية النهاية بين، إذ انحسر نفوذهم في اعقابها عن فاس، وتطوان ، وسلا ، والرباط . ولم يلبث الرشيد ان حاصرهم في زاويتهم وقضى عليها ، وشردهم الى تلمسان في الجزائر ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م (١) .

ز ـ امارة آل النقسيس في تطـوان :
١٥٩٧ ـ ١٦٧٢

انتقلت السلطة المحلية في تطوان بشمال المغرب في مطلع القرن ١٠هـ/ ١٦م / ١٧م الى آل النقسيس من بربر نواحي تطوان . واولهم احمد بن عيسى النقسيس (٢) بعد ان كانت بيد اسرة آل المنظري الاندلسية منذ ان جدد ابو الحسن المنظري تعمير تطوان في اواخر القرن ٩هـ / ١٥م (٣) .

مالت تطوان بعد موت المنصور الى الاستقلال تحت حكم آل النقسيس ، وقد رفض احمد النقسيس ان ينزل محمد الشيخ العائد من اسبانيا في مدينته في ذي القعدة ١٠١٨هـ/ فبراير ١٦١٠م وكان موقفه هذا سببا في اقدام محمد الشيخ على احتلالها ، وتشريد النقسيس منها بعد ان نزل في بادس (٤) ولم يعد احمد النقسيس الى مدينته الا بعد ان تخلص بالتعاون مع محمد الصغير بن ابي الليف منه ومن عامله على تطوان سعو بوديبره سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م عن طريق القتل (٥) .

وامام ضعف عبد الله بن محمد الشيخ في فاس، وزيدان في مراكش استبد احمد النقسيس بالحكم في تطوان، وخلفه ابناؤه الاربعة بعد موته سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م . وقد ضمن هؤلاء المبعوث الانكليزي هاريسون في ١٦٢٥ انهم لا يعترفون بأي ملك من الملوك السعديين، وان ليس لزيدان عليهم اي نفوذ ماعدا الاسم (٦) .

وكان ابناء النقسيس يتعاملون بالانكليز ، ويتفاوضون معهم في شأن الاسرى والتجارة والتعاون ضد الاسبان ، على اساس انهم احرار من اية تبعية (٧) .

ولكن حرص ابناء النقسيس على استقلالهم ، وعدم الخضوع لأي احد دفع المجاهد العياشي المتقدم ذكره الى تجهيز حملة كبيرة ضدهم تمخضت عن احتلال المدينة ، واقصاء عبد الله النقسيس منها . وظلت تطوان تحت نفوذ العياشي الى ان اغتيل في ١٦٤١م / ١٠٥١هـ ثم تشكلت فيها لفترة قصيرة جمهورية مستقلة ، قبل ان يعود اولاد النقسيس اليها حكاما تابعين للدلائيين (٨) .

وكان امرهم كذلك الى ان ضعف هؤلاء وبان عجزهم امام الخضر غيلان فانضموا الى هذا الاخير واتفقوا معه في سنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م على اساس ان يبقى النقسيس حاكما لتطوان في مقابل مساعدة عسكرية معينة يقدمونها له . (٩) .

---

(١) انظر عن نهاية الدلائيين محمد حجي المرجع السابق ص ٢٠٣ ـ ٢٢١ .
(٢) هو الذي عاش ستة ايام احمد المنصور ، انظر عنه الفشتالي : المناهل ص ٩٦ .
(٣) هاريسون تقريره لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٦٦
(٤) المجهول : المرجع السابق ص ٩٢ ـ ٩٣
(٥) نفسه : ص ٩٧
(٦) تقرير هاريسون بتاريخ ٢٠/ ٧/ ١٦٢٥ في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٢٨
(٧) محمد داود : المرجع السابق ج ١ ص ١٧٤ وما يليها .
(٨) محمد حجي : المرجع السابق ص ١٧٠ .

ج - اشراف سجلماسة العلويون :

في الوقت الذي كان فيه نجم الاشراف السعديين في الافول في مراكش ، وفاس ، اخذ نجم اسرة شريفية اخرى في الصعود والبروز في سماء سجلماسة بالجنوب الشرقي المغربي وهذه الاسرة هي اسرة الاشراف العلويين . واصل هؤلاء من ينبوع النخيل بالحجاز كالسعديين . وكان من دخل منهم المغرب هو الحسن ابن قاسم بن محمد المدعو بالنفس الزكية ، وذلك في النصف الثاني من القرن ٧ هـ / ١٣م (1)

وكان ابرز افراد اسرته في النصف الاول من القرن ١١ هـ / ١٧م هو الشريف (امحمد) بن علي ومن ابرز اولاده محمد ، والرشيد واسماعيل وغيرهم . وكان الشريف صديقا لابي حسون السملالي المتقدم ذكره ، استصرخه على جيرانه الزبيريين أصحاب قصر (تابوعصامت) (2) الذي كسح اعدائه العلويين ، واستعان هؤلاء بعدوهم اهل الدلاء وذلك في سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م فهب ابو حسون كما هب الدلائيون كل لاغاثة من استصرخ به ، ولكن الجمع افترق دون قتال حقنا لدماء المسلمين ونزولا عند رغبة المرابط محمد بن ابي بكر الدلائي . (3) الا ان محمد بن الشريف تمكن فيما بعد من مباغتة اصحاب القصر (الحصن) وحكم فيهم السيف ، مما اغضب ابا حسون لان اهل تابوعصامت كانوا قد مالوا اليه . فأمر بالقبض على الشريف بن علي ، وبقي في الاسر الى ان افتداه ابنه محمد بمال جسيم في سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م (4) . وفي سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م ثار محمد بن الشريف في سجلماسة والتف حوله اهله ، وتمكن من طرد عمال ابي حسون الذين كانوا يرهقون الناس بالضرائب . ثم اقدم على هدم دربه واعمالها فتمكن من ذلك بعد معارك شديدة مع ابي حسون انتهت بانهزام هذا الاخير (5) ، فتوسعت بذلك امارته ، وقبل ان يستفحل امره داهمه محمد الحاج الدلائي وتمكن من الانتصار على ابن الشريف في واقعة القاعة ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م ودخل سجلماسة ، وعاث جيشه فيها . ثم انسحب بعد ان فرض اتفاقية على المنهزمين ، حددت كما ذكرنا مجال نفوذ الطرفين . ولكن هؤلاء سرعان ما خرقوها باستمالتهم الناس ثم خروجهم منهزمين امام الدلائيين (١٠ شعبان ١٠٥٩هـ / ٢٠/ ٨/ ١٦٤٩م . وقد توجهت انظار محمد بن الشريف بعد الهزيمة الجديدة الى التوسع في شرق المغرب والغرب الجزائري ، وسنرى في فصل الحق غاراته المتلاحقة ، وانعكاساتها ، وردود فعل حكام الجزائر ضدها . . وحدث في ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م ان فر الرشيد من سجلماسة خوفا من اخيه محمد بعد ان توفي والدهما في ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م وتمكن من قتل داراس بن مشعل ، وتقوى بما وجده فيها من اموال صاحبها اليهودي وحلفائه استعدادا لما حدث بعد سنة ١٦٥٩ تقول : ان الرشيد تمكن من القضاء على اخيه محمد في بداية معركة وقعت بينهما في سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م ، وضم جيشه (7) الى قواته . وتمكن الرشيد من الدخول الى فاس حفرة في ١/ ١٢/ ١٠٧٦هـ/ ٤/ ٦/ ١٦٦٦م ، من القضاء على كل الامارات التي كانت في المغرب خلال السنوات القليلة التالية .

(1) الافراني : النزهة ص ٣٨٨ ، الناصري : الاستقصاء ج ٧ ص ٤ ، ٥
(2) احد قصور سجلماسة وتقع الى الجنوب منها ، والقصر هنا يعني قرية مسورة محصنة .
(3) محمد حجي : المرجع السابق ص ١٢٩
(4) الافراني : النزهة ص ٣٠٠
(5) الافراني : نفسه ص ٣٠١ ، الناصري / الاستقصا ج ٧ ص ١٦
(6) (7) الناصري : تنوير ... ج ٧ ... ٢٠

Cenival (P.de):La légende du juif Ibn-Machâl.
In Hesp., Paris 1925.

القضاء التدريجي على حكم السعديين في فاس ومراكش :

لقد كان قيام تلك الامارات التي ذكرناها ، وامارات اخرى اصغر منها او اقل اهمية لم نذكرها ، سببا في الانهيار التدريجي لحكم السعديين في فاس واخيرا في مراكش .

ا ـ ففي فاس : التي لم يجرؤ محمد الشيخ على الدخول اليها بعد تسليمه العرائش الاسبان في ٢٠/١١/١٦١٠ ، لأن اهل فاس ، وكل المغاربة استاؤوا من فعلته اشد الاستياء ، لم يلبث الفاسيون ان ثاروا في ٢٦ ربيع الاول ١٠٢٠هـ / ٣/٦/١٦١١م بقيادة سليمان بن محمد الشريف الزرهوني ، والفقيه محمد اللعلي المعروف بالمريون ، ضد عرب الشراقة الذين كانوا سند محمد الشيخ ، وسند ولده عبد الله فيما كانوا يقومون به من اعمال مسيئة ، فقتلوا بعضهم واجلوا آخرين من فاس ، كما ثاروا ضد عبد الله نفسه ، وألقوا عليه القبض ، وفرضوا عليه الاقامة والحراسة في فاس الجديد [1] ، بينما ظل محمد والده محمد الشيخ في شمال المغرب لا يبتعد كثيرا عن المراكز الاسبانية الى ان تمكن محمد الصغير ابو الليف احد مقدمي الجهاد في تلك المناطق من قتله وقتل بطانته في فج الفرس قرب طنجه في ٢٦ رجب ١٠٢٢هـ / ١١/٩/١٦١٣م ، وتمكن احمد المنتسيين في الفترة نفسها من القضاء على عامله حمو بودبيره في تداوان [2] .

ولم يبايع عبد الله في فاس بعد مقتل والده الا جماعته ، ورفض اهل فاس الاخذ بالثار من قتلة والده ، كما اراد ، وتداروا في تعيين قيادة جديدة لها ، فالزرهوني والمريون اللذين دارا على موقفهما تبدل كبير ، اذ مالا الى تأييد عبد الله في دعوته للثأر من قتلة والده ، فاضطرب الامر في فاس مدة خمس سنوات ١٠٢٢ـ١٠٢٧هـ تخللتها مجاعة كبيرة ، جعلت الفاسيين يميلون الى مبايعة عبد الله لوقف الفتن والفوضى . وتمكن هذا الامير حينئذ من توجيه حملتين الى تداوان وانهزمتا [3] . وردا فيما يبدو على هذا الموقف بايع اهل الجهاد بشمال المغرب محمدا المعروف بزغودة ، وهو اخ لعبد الله ، وتمكن من احراز النصر على هذا الاخير في وادي الحاين والدخول مع انصاره الى فاس في شعبان ١٠٢٨هـ / جويليه ١٦١٩م ، الا ان عبد الله تمكن بعد شهر فقط من تحقيق النصر على اخيه في مكناسة والعودة الى فاس ، لكنه كان عاجزا عن فرض سلطاته على فاس التي تجددت فيها الاضطرابات ، وكثر الثائرون والمتنازعون ، ((وكاد اثرها يستولي عليها الخراب)) [4]

ومات عبد الله في ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م وسلطاته لا تكاد تتجاوز فاس الجديد لتشمل فاس البالي .

ولم يكن اخوه عبد الملك الذي خلفه ، وهو ((صغير السن ، ضعيف العقل ، مذموم الافعال ، مهمل الاحوال ، مغلوب على آرائه ، لا ينفذ له حكم في قضية ، ولا يمتثل له امر ، ولا نهي في حاضرة ولا بادية)) [5] بالرجل الذي يمكن ان يمسك بزمام الامور في فاس المضطربة . ومات في فاس سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ، والاوضاع فيها تسير من سيء الى اسوأ ، وخلفه اخوه محمد زغودة ، وكان ضعيفا ايضا ((فلم يقدر على دفع ، ولم يقدر على نفع ، وصار له الصورة بلا معنى ، والاسم بلا مسمى)) [6] وبعد نحو عام فقط من الولاية تنكد ابن عمه احمد بن زيدان في شوال ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م الا ان الامر لم يستتم له اذ القي القبض عليه بعد شهرين فقتل وسجن في تاسر [7] . وبذلك انتهى حكم السعديين في فاس ، وخضعت المدينة للعياشي [8] ثم الدلائيين ، واخيرا للعلويين .

---

(١) (٢) الافراني : النزهة ص ٢٢٣ـ٢٢٤ ، ص ١٦٩ .
(٣) (٤) نفسه ، ص ٢٢٥ـ٢٢٦ ، ص ٢٢٦ـ٢٢٨ .
(٥) (٦) المجهول : المرجع السابق ص ١٠٤ ، ص ١٠٥ .
(٧) الافراني : النزهة ص ٢٤٤ (٨) الناصري : الاستقصا ج ٦ ص ٨٥

٢- وفي مراكش : لم ينعم زيدان بالهدوء والاستقرار ، ذلك ان مرابطين اقوياء في الجنوب ، وفي مقدمتهم ابو محلي وابو زكريا ، وابو حسون ، مالبثوا ان صاروا عليه، ونخروا ملكه بقوة ، وقلصوا نفوذه في الجنوب ، وكذلك فعل المجاهد العياشي ، والاندلسيون في سلا ورباطها ، فاستقلوا عنه بالامر في شمال المغرب وغربه ، بحيث لم يعد يسيطر الا على مراكش ، ومناطق محدودة . وقد امضى زيدان معظم جهده في محاربة الخارجين عليه ، بعد ان امضى القسم الاول في الصراع ضد اخوته ، حتى انه لا تكاد تخلو سنة من السنوات دون هزيمة له ، او وقيعة بأصحابه وكان ذلك سبب خراب المغرب وخصوصا مراكش[1]

ومع ذلك فان الدول الاوربية البحرية انكلترا ، وهولندة ، وفرنسا ، الحريصة على الحفاظ على مصالح رعاياها وسلامتهم في المغرب ، ظلت تسعى الى الاتصال به ، وبمن خلفه ، راغبة في عقد معاهدات سلام ، واتفاقيات تجارية .

فانكلترا بادرت بعد موت المنصور الى الاتصال بابنائه ، وفي مقدمتهم ابو فارس[2] ثم زيدان[3] بعد ان استقر له الامر في مراكش . وكان الانكليز في اتصالاتهم الاولى مع زيدان يستهدفون حل بعض مشاكل التجار الانكليز في المغرب والحصول على امتيازات لهم ، وعلى تحرير الاسرى الانكليز والتعاون ضد اسبانيا . اما زيدان فكان هدفه الحصول على الاسلحة والخبراء ضد خصومه في الداخل ، وحمل الحكومة الانكليزية على التدخل لمنع تجارها من تهريب الاسلحة الى المغرب ، وبيعها للمتمردين عليه ، وتبادل الطرفان الرسائل والسفارات في الفترة ١٠١٩-١٠٢٤هـ/ ١٦١٠/ ١٦١٥م ثم مالت العلاقات الى التدهور لأن الانكليز لم يستجيبوا فيما يبدو لطلبات زيدان ، اذ لم يكف التجار منهم عن التعامل مع الثائرين عليه في الجنوب والشمال ، وقد اوكل هذا الاخير الاتصال بسفيرهم جون هاريسون ، الذي تعددت سفاراته الى المغرب ، وبلغ عددها في الفترة ١٠١٩-١٠٤١هـ/ ١٦١٠-١٦٣١م ثمانية ، بل انه سعى الى التآمر عليه في سلا ، حيث كان يجري اتصالات مع اندلسييها ، ومع العياشي ((١٠٣٦هـ/١٦٢٦م)) ، ويعقد وا اتفاقا زودهم بموجبه بالاسلحة وحصل على سراح الاسرى الانكليز .

اما العلاقات مع فرنسا فقد تدهورت بسبب هروب الفرنسي جان فيليب دوكاستيان بمكتبة زيدان وذخائره ، ووقوعه في قبضة القراصنة الاسبان ، ورفض الملك الفرنسي لويس الثالث عشر استقبال مبعوثي زيدان ، والتوسط لهذا الاخير لدى فيليب الثالث ، من اجل استرجاع مكتبته . وفي ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م جاء م . دورازيلي الى زيدان مبعوثا من قبل لويس الثالث عشر لحل المشاكل المختلفة معه فسجنه ، ولم يطلق سراحه الا بكفالة مالية ، مما يعني ان العلاقات بين زيدان وفرنسا ظلت متوترة[4]

وكانت هولندة (الولايات العامة) من الدول الاوربية التي تقربت من زيدان ، وعقدت معه في سنة ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م اتفاقية تجارية ، وفي السنة التالية وجه زيدان سفارة الى هولندة لالتماس

---

(١) الافراني : النزهة ص ٢٢٩
(٢) انظر عن اتصالات ابي فارس والانكليز مجلة تطاوان عدد ٩ ص ٧-٢٧ و م . س . ت . انكلترا ج ١ ص ٢٧٤
(٣) انظر عن علاقات زيدان مع انكلترا م . س . ت . انكلترا ج ٢ ص ١٤١-٤٤٨ وتقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ و ١٦٣٠ في المرجع السابق ، ومقال شوقي عطا الله الجمل العلاقات الانكليزية المغربية في مجلة المناهل ص ١٦٥-١٧٠
(٤) انظر التازي : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا في تطاوان عدد ٦ ص ١٥٨ ، هيرسي : المرجع السابق ج ٣ ص ٢١٩

مساعدتها ، على تحصين " المعمورة " قبل احتلال الاسبان لها ، ولكن كون الهولنديين تأخر حتى تمكن هؤلاء من احتلالها (١) واستغل زيدان صداقة الهولنديين ، وطلب منهم التوسط لدى لويس الثالث عشر ليتوسط له بدوره لدى فيليب الثالث الاسباني بخصوص مكتبته ، ولكن مساعي الهولنديين لم تكلل بالنجاح (٢) . وامام تدهور وضعية زيدان في المغرب ، لم تتردد هولندة ((الولايات العامة)) في الاتصال بالزعامات المحلية المنفصلة عنه ، كأبي حسون وغيره مما لم يكن ليرضي السلطان السعدي .

وقد توفي زيدان في سبتمبر ١٦٢٧ (محرم ١٠٣٧هـ) . وبموته تضعضع وضع السعديين في مراكش ومال نجمهم اكثر فاكثر الى الأفول ، فابنه عبد الملك الذي خلفه (١٦٢٧-١٦٣٠م) ، والذي لم يخلص له الملك في مراكش الا بعد صراع عنيف ضد اخويه احمد والوليد (كان فاسد السريرة ، مدمن الخمرة) (٣) فاسقا ظالما مدمنا على شرب الخمر . وانتهى امره بأن قتله احد خدمه العلوج ، انتقاما لمقتل زميله ، وذلك في ٦ شعبان ١٠٤٠هـ / ٢٠/٣/١٦٣٠م ، وقد قتل وهو سكران (٤) .

ولكن مايميز عهده على صعيد العلاقات الخارجية مع اوروبا ، تحسن العلاقات بينه وبين فرنسا ، وتوقيعه اتفاقية لصالح هذه الأخيرة (٥) . واستمرار العلاقات متدهورة بين البلاط السعدي وانكلترا .

اما ابنه الآخر الوليد الذي خلف اخاه عبد الملك فوجه كل اهتمامه الى التخلص من اقاربه حتى انه افنى اكثرهم ومنهم اخاه محمدا الشيخ . وفي عهده تقلص نفوذه وانحسر عن درعة وسجلماسة التي اخضعها ابو حسون السملالي لنفوذه ، فغدا سيد الجنوب كله باستثناء مراكش وما جاورها . وانتهى امره كأخيه ، حيث قتله العلوج لتأخره عن دفع رواتبهم ، وذلك في ١٤/٩/١٠٤٥هـ / ٢١/٢/١٦٣٦م (٦) .

وتميز عهده على الصعيد الخارجي بتحسن العلاقات مع انكلترا حيث عقدت اتفاقية بينه وبين هذه الاخيرة في ٢ ربيع الثاني ١٠٤١هـ / ١٦/١١/١٦٣١م نصت على ماكان الانكليز يسعون اليه منذ عهد زيدان كإعطاء تسهيلات تجارية للانكليز ، واطلاق سراح الاسرى منهم .. وغير ذلك (٧) . بينما استمرت علاقاته مع فرنسا حسنة .

وكان محمد الشيخ الاصغر (١٠٤٦-١٠٦٥هـ / ١٦٣٦-١٦٥٤م) الابن الثالث لزيدان الذي خلف اخاه الوليد (منكوس الراية ، مهزوم الجيش) (٨) فلم يصف له غير مراكش وعمالتها ، وذلك ان محمدا الحاج الدلائي الذي تولى كما رأينا في سنة ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م زعامة الدلائيين ، رفض البيعة له ، واستقل بالامر في وسط المغرب ، ثم شماله وغربه ، وفشل في اخضاعه اليه بالقوة حيث انهزم امامه في بوعقبة سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٤٨م ، كما تقدمت الاشارة . وقاسى كثيرا في اخضاع الثائرين عليه في الجزء المتبقي له ، كثائر مشتوكة ، وقبيلة الشبانات (٩) .

---

(١) (٢) ابن تاويت ، من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان عدد ٩ ص ١٢٠-١٢٧

(٣) الافراني ، النزهة ص ٢٤٤

(٤) العبودي ، المرجع السابق ص ١٠٥-١٠٦ .

(٥) ميرسيي ، المرجع السابق ج ٣ ص ٢١٩

(٦) الافراني ، النزهة ، ص ٢٤٥-٢٤٦ ، العبودي المرجع السابق ص ١٠٦

(٧) شوقي عطا الله ، المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٨) الافراني ، النزهة ص ٢٤٦

(٩) نفسه ، ص ٢٤٦-٢٥٧ ، العبودي المرجع السابق ص ١٠٧

وعلى الصعيد الخارجي ، عقد اتفاقية جديدة مع انجلترا نصت فيما نصت عليه على وجوب عدم قيام اي علاقات بين انجلترا واعداء السلطان السعدي ، ووجوب اخبار ملك بريطانيا رعاياه بعدم التعامل مع الخارجين عليه . وتبادل الطرفان الرسائل والسفارات .(1) ولكن مالبثت ان تدهورت لاستمرار التجار الانجليز في تزويد الاسلحة للخارجين عن السعديين ، ولانه لم يحصل من انجلترا فيما بعد على العون الذي طلبه .

كانت وفاة محمد الشيخ الاصغر في ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م . وخلفه ابنه احمد المدعو العباس ، على كرسي المملكة الصغيرة ، ولم يحاول هذا الاخير الزيادة فيها . ومع ذلك فان اخواله عرب الشبانات ، طمعوا الى انتزاع مملكة مراكش منه . وما لبثوا ان حاصروه بمدينة مراكش ، حتى اضطر الى الاستسلام لهم ، فقتلوه وكان ذلك في ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م ، وبايعوا اميرهم عبد الكريم بن ابي بكر الشباني (2) المعروف بكروم الحاج . وبمقتل السلطان احمد ، قضي على المملكة السعدية في مراكش ، وكانت مملكة فاس قد انهارت منذ ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م كما ذكرنا . وبذلك انقرض ملك السعديين في المغرب بعد نحو قرن ، وما يقرب من نصف قرن .

وخلاصة القول : فان السعديين الذين قاموا في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، في وقت كان المغرب فيه يعاني من الغزو الخارجي ، والتجزؤ والاضطراب الداخلي ، ومن التدهور الاقتصادي ، استطاعوا خلال بقية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ان :

١- يوقفوا الغزو الخارجي البرتغالي والاسباني ، بل ويحرروا بعض المواقع المحتلة من قبل البرتغاليين ، ويحافظوا على استقلال المغرب من النفوذ العثماني ، وان كان قد ظلت بعض المراكز محتلة من قبل الاسبان والبرتغاليين .

٢- يقضوا على التجزؤ والاضطراب الداخلي بتوحيد اجزائه ، وفرض الامن والاستقرار في مدنه واريافه ، وطرقه ، واسواقه ، مما ساعد على تحسين الاوضاع الاقتصادية .

٣- يبلغوا الذروة في عهد المنصور ، حيث امتد نفوذهم ليشمل في عهده اجزاء واسعة من بلاد السودان ، فانصبت مواردهم منها خزائنهم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية وكذلك جوانب الحياة الاخرى الاجتماعية والثقافية ، وطاحت هيبة الدولة السعدية في الداخل والخارج بفضل جيشها القوي الكبير ، وعلاقاتها السياسية الكثيرة مع القوى الاوربية والمشرق الاسلامي .

اما السعديون بعد المنصور (١٦٠٣-١٦٥٩) فعجزوا عن الحفاظ على المكاسب التي حققها اوائلهم ، وذلك لانهم :

١- افنوا قوتهم العسكرية في اقتتالهم على السلطة علما ان الجيش كان هو مصدر قوة السعديين الاساسية ، بعد ان اصطدموا بمعارضة القوى المرابطية لسياستهم الضريبية ، وسياستهم

---

(1) انظر عن علاقاته مع انجلترا شوقي عطا الله ، المرجع السابق ١٧٨-١٨٤
(2) الافراني ، النزهة ص٢٥٧-٢٥٨ ، العبدون المرجع السابق ص١٠٧-١٠٨ .

الخارجية المسالمة للمحتلين الاسبان والبرتغاليين ، ولم يكن لهم سند قبلي يعتمدون عليه في
اخضاع الثائرين والمتمردين عليهم ، وما اكثرهم في هذه الفترة •
3 ـ أثاروا استياء الناس منهم ، لتهالكهم على السلطة الذي فني فيه خلق كثير ، وسوء سلوكهم
وأثاروا ثائرتهم عليهم حين تجرؤوا على تسليم ارض مغربية بأيديهم الى العدو الكافر مثل العرائش
(العرائش) ، وفرطوا في الدفاع عن اخرى (المعمورة) ، وقتلوا المجاهدين وانصارهم وقاوموهم
وحاربوهم (1) ولم يكن بامكانهم ان يقضوا على الثورات والتمردات التي قامت في وجههم لانهم فقدوا
القوة العسكرية كما اوضحنا ، لانهم افتقدوا ايضا المال الضروري لاعادة بناء قوتهم العسكرية (2) ،
وخسروا موارد هم المالية الهائلة • اذ لم يعد ذهب السودان وذخائره تتدفق على المغرب كل سنة
مرة على الاقل ، كما كان الامر في عهد السلطان احمد المنصور (3) ، وذلك لاضطراب الامن في الطرق
من جهة ، ولان قادة الجند المغربي في بلاد السودان مالبثوا ان استقلوا بالأمر فيها بعد وفاة
المنصور (4) • ولم تعد الجباية وفيرة في المغرب ولا متيسرة
المناطق التي استقلت عنهم ، او تمردت عليهم • ولم تعد
اذ خربت المصانع في اثناء الصراع على السلطة ، وفني
سكر البرازيل وسكر الانتيل وغيرها قد دخل ميدان المنافسة
التجارة الداخلية والخارجية مزدهرة بحيث تشكل الرو
الكبرى باضطراب الامن في الطرق ، وتأثرت المدن و
وسجلماسة ، وتاردانت بالفتن والاضطرابات التي شه
وهكذا فان اواخر الملوك من السعديين ، كانوا
سند قبلي ، وبدون موارد مالية ، وبقاعدة محدودة اسم
الحكم • واذا كانوا قد استمروا في فاس حتى 1627
من كل ذلك الا لان الثائرين عليهم كانوا متنافسين
ضدهم بشكل رئيسي ، ولان ايا من الثائرين لم يكن مؤ
يتصور ، ومن ثم فلم يجرؤوا على القضاء عليهم نهائيا بعد ان قلصوا نفوذهم ، ولم يبقوا لهم الا
على مراكش وما جاورها ، رغم امكانية ذلك لهم ، فهذا تركهم الضربة القاضية من اقرب الناس اليهم ،
من اخوالهم عرب الشبانات الذين يئسوا من وضعهم الذي مانفك يتردى •

ذلك لان نفوذهم ما انفك ينكمش لكثرة
ة السكر ، وزراعة قصبه موردا لخزينتهم
ة قصب السكر أو كاد ، اضافة الى ان
كر المغربي منذ مدة ، ولم تستمر
مركزية موردا هاما اذ تأثرت هي
التجارية الكبرى كمراكش ، وفاس
•
قوة عسكرية ، وبدون شعبية ، وبدون
يملكون مقومات الاستمرار على كرسي
مراكش حتى 1659 ، جالسين على كرسي
ا بينهم ولم تكن جهودهم موجهة
عالية كاملة لخلافتهم او لذلك كان

ونتيجة عجز اواخر السعديين عن الحفاظ على ما حققه اوائلهم فقد عاد المغرب من جديد
في عهدهم هدفا لغزو القوى الخارجية واطماعها • وعاد الى التجزؤ والاضطراب كما كان قبل قيام
اسرتهم ، وصعودها الى كرسي الحكم • وقد كان على دولة الاشراف العلويين التي خلفتهم ان تبدأ
من حيث بدأوا ، اي ان تعمل ثانية على توحيد المغرب ، والتصدي للقوى الخارجية المختلفة التي
ازداد عددها وبشجعها الحصول على النفوذ في المغرب • ويمكن القول اخيرا ان تشتت القوة
السياسية في المغرب بعد المنصور تشبه ذلك التشتت الذي كان قائما في المغرب قبل السعديين اواسط

(1) ممن قتلهم محمد الشيخ ارضاء للاسبان مجاهد البحر مراد برتقيش الذي ضايق بغزواته البحرية الاسبان وحاول قتل احمد النقسيس ، وكان زيدان قد حاول قتل احمد العياشي ، انكارا لجهوده ضد الاسبان ، انظر المرجع السابق ص 95 ، الافراني ، النزهة ص 263 الى 264 •
(2) كثيرا ما كان محمد الشيخ يلجأ الى استعارة المال من الفاسيين لاقامة حملاته او مصادرة اموال بعض القادة • واخيرا باع مراكش مقابل مبلغ من المال •
(3) كان المنصور يحصل سنويا على نحو (10) قنطارا من التبر جباية من السودان وبعد موته لم يكن يصل قافلة واحدة كل ثلاث سنوات تقريبا • انظر مارتيني ، المرجع السابق ص 219
(4) د و لافوس ، علاقات المغرب مع السودان عبر العصور ، هسبيريس 1952 ص 168 •

الفصـــل الثالـــث

العلاقات بين القـــوى السيـاســـية المتشعبة في القطرين

٩٢٣-٩٥٦هـ / ١٥١٧-١٥٤٩م

تتميز العلاقات السياسية في هذه الفترة بالتشابك والتعقيد وذلك نتيجة العوامل التالية :

١- تعدد القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين ، وقد كان في المغرب في هذه الفترة اربع قوى رئيسية هي : الوطاسيون ، والسعديون ، والبرتغاليون ، والاسبان ، وعديد من الوحدات السياسية التي لا يستهان بشأنها ، وتأثيرها في العلاقات كامارة دبدو وفي شرق المغرب ، وامارات بادس ، وشفشاون ، وتطوان في شماله وغيرها .(١) وكان في الجزائر في الفترة نفسها عـــدد من القوى السياسية لا يقل عما كـــان في المغرب، وأهمها : الزيانيون ، والاتراك العثمانيون والحفصيون ، والاسبان ، ومن أبرز الامارات الصغيرة امارة كوكو ، وامارة بني عباس ، وامارة تنس وكلها في الشمال الجزائري ، وعدد آخر أقل اهمية وتأثيرا في العلاقات في هذه الفتره ، في الجنوب (٢) .

٢- اختلاف اهداف تلك القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين ، واختلاف مصالحها بحيث أن دراسة العلاقات السياسية في هذه الفترة بين البلدين هي دراسة للعلاقات بين القوى السياسية التي كان لها نفوذها فيهما لا سيما الكبرى منها ، ومن ثم كان لابد من دراسة العلاقات التي كانت قائمة بين :

آ- بين الزيانيين والوطاسيين . بـ- وبين الزيانيين والسعديين . جـ- وبين أتراك الجزائر والوطاسيين . د- وبين أتراك الجزائر والسعديين .

مع بيان مواقف الاسبان والبرتغاليين من العلاقات بين هذه الاطراف الاربعة ، والاشارة الى تأثرهم بها وتأثيرهم فيها وكذا الاشارة الى مواقف المتصوفين وزعماء الامارات الصغيرة في كلا البلدين كلما كان لهم موقف مؤثر في تلك العلاقات أو دور فيها .

آ- العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين :

قد يكون الزيانيون حلموا باعادة وحدة المغرب كله كما فعل بنو مرين قبلهم ، ولاسيما انهم منهم ،

(١) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .

من ثم قد يكون ضم تلمسان الى مملكتهم من انشغالاتهم، ولكن اوضاع السلطان الوطاسي محمد البرتغالي الذى تولى الحكم منذ سنة ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤م، واوضاع ولده ابي العباس احمد سنة ٩٣٢ هـ - ٩٥٦ هـ / ١٥٢٦-١٥٤٩م، كانت لا تسمح لهما بتوجيه انظارهما وجهودهما الى التدخل في مملكة تلمسان، لاستعادة ماكان للمغرب عليها من نفوذ، قبل قرن ونيف من الزمان. ان غدا المغرب نفسه مجزأً، ومضطربا، وهدفا لغزو برتغالي واسباني مركز، ولاسيما في الربع الاخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادى، والربع الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادى. فكان عليهما بالتالي ان يوجها جهودهما واهتمامهما الى مواجهة هذا الغزو ومحاولة تحرير ما احتله البرتغاليون والاسبان من المدن والمواقع على شواطىء المغرب، والى مواجهة التجزؤ والاضطراب الداخلي، كما كان عليهما، ولاسيما على السلطان احمد الوطاسي بالذات، ان يواجها السعديين المتصاعدة، ولذلك فقد صرفا انظارهما نهائيا عن التدخل في تلمسان ومملكتها التي غدت هي الاخرى مجزأة ومضطربة وهدفا لغزو الاسبان، وتدخل الاتراك العثمانيين فيها، واكتفيا بايواء الامراء الزيانيين الفارين من تلمسان، دون ان يقدما لهم العون سواء ضد بعضهم، او ضد الاسبان، او ضد الاتراك العثمانيين. ومالا الى اقامة علاقات تتميز بحسن الجوار مع سلاطين تلمسان. وتبين الحوادث التالي ذكرها بوضوح هذه المواقف وطبيعة العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين.

فغداة اطاحة عروج بابي حمو الثالث الزياني عن الملك في تلمسان سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، ذهب هذا الاخير الى فاس كعادة اسلافه، مستجيرا بسلطانها الوطاسي محمد البرتغالي، ومستعينا به على استرداد ملكه المغتصب من قبل عروج. (١) الا ان السلطان المذكور الذى كان مشغولا بحروبه ضد البرتغاليين وعملائهم في المغرب، (٢) وبمحاولاته فرض سيادته على كامل التراب المغربي، واخضاع زعماء الوحدات السياسية الجديدة التي كانت قائمة فيه، وبالتالي فقد رفض التورط في رفض التدخل في تلمسان ومملكتها لصالح السلطان الزياني، ولاسيما ان هذا الاخير ماذا صدقنا هايدو، قد ارسل سرب خالي المغرب ضد عروج، ومساعدته له للقضاء اليهسفراء في اعقاب دخوله الى تلمسان، يعرض عليه التحالف معه، ومساعدته له للقضاء على المنازعين له في المغرب. (٣) فما كان من ابي حمو حينئذ الا ان توجه الى الاسبان الذين رحبوا به، وامدوه بالعون المطلوب. (٤) اذ كانوا بدورهم غير راضين عن وجود عروج في تلمسان الى جوارهم، وحريصين على الا يستقر له الامر فيها، لما في ذلك من خطر على

(١) المجهول: غزوات عروج وخير الدين ص٣٢
(٢) قام محمد البرتغالي في سنة ١٥١٧ بحملة على البرتغاليين وعملائهم من عرب عبدة في اقليم دكالة انظر م.ت.م البرتغال ج١ ص ٧٢١
(٣) هايدو، ملوك الجزائر ص٣٠
(٤) المجهول: المرجع السابق ص٣٢ وهايدو نفس المصدر ص ٣١-٣٢ وحسب هايدو فان شارلكان قد قرر مساعدته بعشرة الاف مقاتل لمحاربة عروج واعادته الى ملكه.

...نود هم في وهران والمرسى الكبير ، وغيرها ولا سيما ان حصل التعاون بينه وبين محمد البرتغالي
...د تمكن ابو حمو بفضل المساعدة الاسبانية من استرجاع ملكه من عروج . وتمكن الاسبان مـــن
القضاء على هذا الاخير لما حاول الفرار من الحصار الذى ضربوه عليه في تلمسان . (1)
الا ان ابا حمو الثالث لم يطمئن ، اذ كان اثنان من اخوته وهما عبد الله ومسعود قد لجأ
...ى السلطان الوطاسي بعد ان اطلق عروج سراحهما من السجن . (٢) فبعث في طلبهمــــا
...ن السلطان محمد البرتغالي الوطاسي ليحول دون تآمرهما عليه وينتزع من السلطان الوطاسي
...مذ كور وسيلة من وسائل الضغط ، يمكن ان يستغلها ضده اذا اراد . ومرة اخرى لم يجد
...و حمو الثالث التجاوب المرغوب لدى سلطان فاس ، اذ رفض ان يسلمهما اليه بدعوى الخوف
...ليهما منه ، ((فبعث اليه ثانية يحلف بأيمان مؤكدة ، انه ما أراد بأخويه الا خيرا ، وانـــه
...ستاق الى لقائهما))،(٣) ولكن السلطان الوطاسي لم يوافق على ان ترك لهما حرية الاختيار بين
الذهاب اليه او البقاء عنده . فاختارا الذهاب ، لكن لا الى تلمسان كما كان يود ابو حمو وانما
الى وهران والجزائر ، فقد التجأ عبد الله الى الاسبان بينما التجأ المسعود الى الاتراك
العثمانيين في الجزائر ، ولم يلبث هذا الاخير الذى احتمى بخير الدين ان زحف بدعم منـــه
الى تلمسان ، وانتزع الملك من اخيه عبد الله الذى تولى بعد ابي حمو في حوالي ٩٢٥ هـ/
...و ٩٢٦ هـ/١٥٢٠م . وكان مواليا مثله للاسبان (٤) .

وسار ابو العباس احمد الوطاسي الذى خلف اباه في سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م على نهج هذا
الاخير في استقطاب الامراء الزيانيين وايوائهم دون التورط في اى حركة من الحركات ، او امدادهم
...بأى عون سواء أكان ذلك ضد خصومهم الاتراك العثمانيين او الاسبان او ضد بعضهم . ومن
هؤلاء الامراء الامير محمد بن عبد الله الذى قام بالثورة على والده في سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٣١م،
وفشل في انتزاع الملك منه فالتجأ اليه ، الا انه لم يقدم له اى دعم مما جعله يتوجه الى اتراك
الجزائر العثمانيين الذين ساعدوه على اخذ الملك في تلمسان في فبراير ٩٤١هـ/١٥٣٤م (٥)
كما انه لم يتدخل في نزاعه مع اخويه عبد الله واحمد . ولما اطاح به هذا الأخير في حوالـــي
(٥١ هـ / ١٥٤٤م او مطلع ٩٥٢ / ١٥٤٥م) لم يزد على ايوائه . إذ كان هو الآخر مهددا
في هذه الفترة من قبل محمد الشيخ السعدى وينفرد محمد الكراسي بالاشارة الى ان أحمـــد
الوطاسي ، استقبل الامير الزياني ابا زيان ، وامده بالرجال والاسلحة المتنوعة ، وقال لـــه :
((داري دارك وانا لك بمنزلة الوالد وابني بمنزلة اخيك (٦)))

(1) هايدو : المرجع السابق ص٣٢ – ٣٣
(٢) نفسه : ص٣٣
(٣) نفسه : ص٣٤
(٤) نفسه : ص٣٤ ، وحسب كثير من المراجع ظل بحكم تلمسان تحت نفوذ الاسبان حتى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٨م
(٥) بريموداي : الوثائق ص٧٣
(٦) محمد الكراسي : عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل . الرباط ص٣٨ – ٣٩ نقلا عن المنوني : ملامح من تاريخ المغرب الحربي / في / مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق 6 37 4 ص839

ولكن يبدو أن الأمر بقي يحيز الوعود إذ لا تثبت الوثائق أي دعم مادي قدمه أحمد الوطاسي .
ومع ذلك فقد ظل المغرب ملجأ للأمراء الزيانيين ، يتوجهون إليه كلما اضطروا إلى ذلك لحقن دمائهم ، أو لإنقاذ من سنائه إلى الأتراك في الجزائر أو الإسبان في وهران لطلب مساعدة هؤلاء أو أولئك لهم .

إلا أن الاستقبال الذي كان يخص للأمراء الزيانيين وأتباعهم في المغرب لم يكن دوما حسنا؛ فالسلطان أحمد بن عبد الله الذي اضطر إلى الخروج من تلمسان، والفرار مع وزيره المنصور بن أبي غانم وعديد من أمراء المدينة وفرارهما إلى دبدو بشرق المغرب ، فرارا من وجه حسن بن خير الدين، الذي كان قد استولى على تلمسان في سبتمبر ١٥٤٥م، كما أتى مفصلا في فصل الحياة السياسية في الجزائر، غدر به وبأصحابه عمار بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وحيث اعتقلهم ، ونهب أموالهم[1] ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد بضعة أشهر . الأمر الذي جعل السلطان أحمد ووزيره المنصور لا يتوجهان إلى المغرب ثانية حين أطاح بهما حسن بن خير الدين للمرة الثانية في أكتوبر ١٥٤٨ (رمضان ٩٥٥ هـ) ولا سيما أن الصراع في المغرب كان على أشده بين السعديين والوطاسيين؛ فظلا يجوبان بادية تلمسان وأطرافها إذ بدأ محمد الشيخ في هذه الفترة حصاره لفاس ، السعي على أمل الحصول على دعم من الإسبان، أو مصالحة بينهما وبين حسن بن خير الدين[2] . إلى أن مات أحمد الزياني في نهاية ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩، أو مطلع ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م دون أن يستجيب الإسبان أو الأتراك له . فهؤلاء الأخيرون كانوا قد قرروا الاحتفاظ بتلمسان ، وأقاموا فيها سلطانا تابعا لهم وحامية عثمانية ، كان لقائدها اليد الطولى على ذلك السلطان . وذلك تمهيدا لضمها النهائي الذي تم في سنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١م .

وهكذا يمكن القول: إن العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين في هذه الفترة ٩١٨هـ - ٩٥٦هـ/ ١٥١٢ - ١٥٤٩م قد تميزت باستمرار الوطاسيين في سياسة عدم التدخل المباشر في مملكة تلمسان، على الرغم من أن بلاطهم كان لا يكاد يخلو من المناوئين للسلطان الحاكم في تلمسان، أو من الطامعين في الحصول على الدعم الوطاسي ضد هذا الأخير، أو ضد خصومهم الإسبان أو الأتراك . وإن العلاقات بينهم كانت تتسم بحسن الجوار ، إلا أنها تتميز أيضا بعدم التعاون والتضامن على مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تهدد الطرفين، الأمر الذي كان له أسوأ العواقب على الأسرتين الحاكمتين : إذ اضطر الزيانيون أمام عدم تعاون الوطاسيين معهم إلى موالاة الإسبان أو الأتراك العثمانيين على مضض ، والاستعانة بهؤلاء ضد أولئك أو العكس لأخذ الملك أو الحفاظ عليه ، ففقدوا كل شخصيتهم ، قبل أن ينهاروا أخيرا أمام الأتراك العثمانيين ، كما اضطر الوطاسيون أمام الخطر السعدي المتزايد عليهم ،

---

(1) السلاوي : المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٣
(2) م . م . ت . م إسبانيا ج ١ ص ٢٦٨ - ٣٠٢

وشعورهم بعدم جدوى التحالف مع جيرانهم الزيانيين لضعف هؤلاء الى التقرب من الاسبان والبرتغاليين حينا ، ومن الأتراك العثمانيين حينا آخر ففقدوا هم الآخرون ثقة الشعب بهم وانهاروا أمام خصومهم السعديين . وقد كان انهيارهم في سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م في الوقت نفسه تقريبا الذي انهار فيه الزيانيون .

ب- العلاقات بين الزيانيين والسعديين :

لا يبدو أن العلاقات بين الزيانيين والسعديين كانت قوية ، ولا سيما قبل العقد الخامس من القرن السادس عشر الميلادي (السادس من القرن العاشر الهجري) ، وهو العقد الذي امتد فيه نفوذ السعديين نحو الشمال وشمل مملكة فاس ، واصبحوا فيه مجاورين لمملكة تلمسان . ويبدو ان الزيانيين الذين كان شأنهم في ادبار ، لم يسعوا الى التقرب من السعديين في أول نشأتهم ، حتى لا يغضبوا جيرانهم الوطاسيين الحكام الشرعيين في المغرب من جهة ، ولأن همّ السعديين من جهة اخرى كان في هذه الفترة اى ما قبل العقد الخامس ، منصبا على تحرير شواطئ المغرب من الاستغلال البرتغالي ، وعلى توحيد اجزاء المغرب تحت سلطتهم قبل التطلع نحو تلمسان . ولذلك فان الزيانيين الذين كانوا يبحثون عمن يساعدهم اما ضد الاتراك العثمانيين او ضد الاسبان ، وعمن يحميهم ضد هذه القوى أو تلك ، لم يجدوا في اوضاعهم ما يشجع على طلب العون منهم . ولا شك ان الزيانيين ادركوا ان قوة السعديين الفتية التي ان اتت الوطاسيين الامرين قد تهدد وجودهم كما كان عليه الامر ايام بني مرين . اذ ان السعديين كانوا يجمعون بين صفات عديدة تؤهلهم للملك ، وتجعلهم مقبولين في تلمسان اكثر من الاتراك والاسبان ! فهم اولا من الاشراف ، وثانيا من المجاهدين ، وفوق كل ذلك كانوا يحظون بتأييد الطريقة الشاذلية التي لها اتباع كثيرون في تلمسان ، مما يستحيل على الزيانيين اخراجهم منها لو تمكنوا من السيادة فيها ، بينما كان الاسبان والاتراك فيها لا يتمتعون بمثل تلك الحظوة لدى التلمسانيين . ولكن على الرغم من تهيؤ الفرصة المناسبة لتدخل السعديين فان هؤلاء لم يفعلوا قبل أن يستطيعوا توحيد المغرب .

وقد شهد العقد الخامس وهو الذي اتموا في نهايته توحيد المغرب تحت سلطتهم ، انتقال بعض علماء تلمسان وفقهائها من بلاط الزيانيين الى بلاط السعديين، حيث رحب بهم هؤلاء واسندوا اليهم مختلف الوظائف العلمية والدينية ، وفي طليعة هؤلاء ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني ، الشيخ المفتي الخطيب المدرس الذى قلده محمد الشيخ الفتوى بمدينة فاس والتدريس والخطابة بجامع الاندلس ثم القرويين [(1)] .

كما شهد اتصالات بين احمد الاعرج السعدي الذى خلعه اخوه محمد الشيخ في سنة ٩٥١هـ / ١٥٤٤م ، والسلطان احمد الزياني الذى خلعه حسن بن خير الدين ، وكان

---

(1) انظر عنه ابن عسكر دوحة الناشر ص ٤٠ - ٤١

كلاهما يسعى للحصول على دعم الاسبان له لاسترجاع ملكه مقابل تنازلات مهمة ، فحسب وثيقة اسبانية مؤرخة بتاريخ ١٢/٧/١٥٤٠ م فان احمد الاعرج قد بعث رسوله يسعى للتنظر مع مدة تلمسان احمد الزياني ، ومزواره المنصور بن ابي غانم ، في طلب الحصول عن طريقهما على المساعدة الاسبانية له ضد اخيه محمد الشيخ (١) ، ومن نفس الوثيقة يبدو ان احمد الاعرج كان على استعداد لان يحتفظ فقط بمملكة مراكش وتافيلالت ، ويترك للامبراطور شارلكان بقية المقاطعات بما في ذلك فاس (٢) .

والظاهر أن عروض أحمد الاعرج قد باءت بعد دخول محمد الشيخ الى فاس ، وما أثاره من مخاوف لدى الاسبان والبرتغاليين . وقد فشل السلطان احمد الزياني ، في الحصول على الدعم الاسباني له ، ولاحمد الاعرج المستعين به . وبقي مشردا في بادية تلمسان الى أن مات كما ذكرنا في حوالي سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م . ويبدو أن إخفاقه في الحصول على الدعم الاسباني قد جعله في اواخر ايامه يميل الى التقرب من الشريف محمد الشيخ ، فاخذ حينئذ حاكم وهران الكونت دالكوديت يسعى الى احباط هذا التقارب عن طريق اقتراحه تقديم مساعدة عاجلة للسلطان الزياني المخلوع ، ولكن هذا الاخير مات ولما يحصل على تلك المساعدة لاسترجاع ملكه . (٣)

وقد كان محمد الشيخ السعدي من طرفه يرقب بعين القلق سيطرة الاتراك العثمانيين على تلمسان ، وتنصيبهم الحسن بن عبد الله الثاني الزياني فيها سلطانا يأتمر بأمرهم ، كما كان يرصد بعين يقظة تحركات اخيه احمد الاعرج ، ومساعيه للحصول على الدعم الاسباني عن طريق الزيانيين المقربين من الاسبان كأحمد الزياني ، والمنصور بن ابي غانم ، وقد رأى ان الموقف يستدعي ان يدخل هو الآخر في مفاوضات مع هذين الاخيرين لاستمالتهما ، تقليما لاظافر تآمرهما عليه مع اخيه والاسبان ، واستغلالا لاتباعهما من القبائل ، في سيطرته على تلمسان ووهران التي كان يعتزم القيام بها (٤) . وقد اتضح فيما بعد انه نجح في استمالة المنصور بن ابي غانم الذي اصبح من المقربين للسلاطين السعديين ، وأدى لهم خدمات جليلة في حملاتهم على الغرب الجزائري (٥) . وماكاد ينجح في استمالة هذا الاخير حتى اخذ في الاعداد لحملة وجهها الى تلمسان ، قضت على سلطانها الحسن الزياني ، وقضت على حكم الزيانيين فيها في ٢٣ جمادى الاولى سنة ٩٥٧ هـ / ٩/٦/١٥٥٠ م (٦) . اذ ارسل السلطان الحسن المخلوع الى فاس دون ان ينصب سلطانا زيانيا آخر ، بل أسند الحكم فيها الى احد أبنائه الحسن

---

(١) (٢) م.ع. مستودع اسبانيا ج٣ ص٣١٢
(٣) نفسه : ص ٣٠٢ - ٣٠٣
(٤) نفسه : ص ٢٥١ - ٢٥٢ (اشارة الى المفاوضات)
(٥) الافراني : المصدر السابق ص ١٧٦
(٦) نفسه : ص٢٩

ان انضاء اتراك الجزائر منها كما سنرى ذلك بالتفصيل بعد قليل .

ومما تقدم يمكن القول ان العلاقات السياسية بين المغرب والجزائر ، بين الزيانيين وأوائل السعديين ، لم تشهد في مجملها تطورا ملحوظا . اذ اتخذ المغرب في مرحلة نشوء الحكم السعدي فيه موقفا اكثر سلبية في صلاته مع الزيانيين ، مما كان عليه الامر ايام الوطاسيين ، إى ان العلاقات الزيانية — السعدية ، اتسمت في بداية الامر بالفتور ، وافتقدت التعاون والتضامن في وجه الاخطار المحدقة بالطرفين ، ثم انها تحولت الى العنف عندما اكدت قوة سياسية اسلامية غريبة عن المنطقة وجودها الى جوار المغرب ، وتهديدها له ، فاسرع السعديون للسيطرة العسكرية على تلمسان ، وسنرى بعد قليل تفاصيل الصراع السعدي العثماني على تلمسان الذي استمر في اثنائه الاسرة الزيانية .

جـ — العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والوطاسيين :

لا ترجع بداية العلاقات بين المغرب والاتراك العثمانيين الى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فحسب بل ترتبط بداية هذه العلاقات بحادث اسلامي هام وقع في اواسط القرن التاسع الهجري على الخامس عشر الميلادي الا وهو فتح العثمانيين بقيادة محمد الثاني للقسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م . فبمناسبة هذه الحادثة ارسل السلطان عبد الحق المريني ، شأن غيره من ملوك البلاد الاسلامية الذين ابتهجوا بهذا النصر الكبير ، التهاني الى السلطان محمد الفاتح (١) . الا اننا لا نعلم معلومات عن تلك العلاقات بعد هذا التاريخ ، وان كان من المنتظر ان تكون هناك صلات ما بين الطرفين او على الاقل معرفة كل جانب باخبار الجانب الاخر ، ففتوحات محمد الثاني في شرقي اوربا ، وامتدادها حتى اترانت في جنوبي ايطاليا ، وصراعاته في الشرق الاسلامي ، واصطدام بايزيد الثاني مع البندقية في شرقي البحر المتوسط ، ثم سيادة السلطان سليم على شرقي البحر المتوسط بضمه سوريا ، فمصر ، وانضواء الديار الحجازية تحت جناحه ، والتفاته نحو الشمال الافريقي ، لا يمكن ان تمر دون معرفة الحكام المغاربة بها ، وتكوين موقف معين منها ، وكذلك فان محاولات البرتغاليين والاسبان السيطرة على اجزاء من المغرب الاقصى والاوسط والادنى ، لم تكن خافية على الدولة العثمانية ، ولا سيما انها ارتبطت بسقوط غرناطة في ايدي الاسبان ، واستغاثات المسلمين بها بالسلطان العثماني .

على ان العلاقات العثمانية المغربية لم تشهد تطورا ذا بال الا ابتداء من الربع الاول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، الذي شهد امتداد النفوذ العثماني الى شمال افريقيا وقيام حكومة في الجزائر تابعة للدولة العثمانية . وذلك امر طبيعي لانه لا يمكن

(١) محمد المنوني : علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني/في / دعوة الحق عدد ٦-٧ المغرب ١٩٦٥ ص ٥٦

اغفال عامل المنان في تلك العلاقات فالدولة العثمانية غدت علوى تنمو المغرب بعد ان كانت بعيدة عنها . ومن ثم فان العلاقات العثمانية المغربية تحولت في الجزء الاكبر منها الى علاقات مغربية - جزائرية . واذا مالوحظت خيوط هذه العلاقات فانه يلاحظ ان بداياتها تعود الى العقد الثاني من القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ، وهي الفترة التي استقر فيها اوائل الاتراك العثمانيين بقيادة الاخوة بربروس (عروج وخير الدين واسحق) اولا في جيجل ثم في مدينة الجزائر فتلمسان في سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م .

وغداة دخول عروج الى هذه المدينة الاخيرة ، واستقراره بها ، واقصائه السلطان أبا حمود الثالث الزياني منها ، ارسل على مايذكره هايدو رسله الى سلطان فاس محمد البرتغالي الوطاسي ، ليعرض عليه رغبته في التحالف معه ضد النصارى العدو المشترك بينهما ، وليبدى له استعداده لتقديم عونه له ، ضد سلطان مراكش ، وغيره من الزعماء الذين كان سلطان فاس آنذاك في صراع دائم معهم . (١) وهذه الخطوة التي خطاها عروج تجاه السلطان الوطاسي تبين رغبة عروج التركي في اقامة علاقات متينة معه ، يأمن بها جانبه ، ويؤمن حدوده ، ويدعم موقفه . ولاشك ان عروج اراد بها ايضا احباط مساعي السلطان الزياني الذى توجه الى فاس في اعقاب الاطاحة به على امل الحصول هناك على عون السلطان الوطاسي ، كما قصد عروج بهذه الخطوة الحصول على عون السلطان الوطاسي ، اذا ماتعرض لحملة اسبانية مضادة له . اذ كان يدرك ان وجوده في تلمسان لم يكن ليرضي الاسبان ، او ليجعلهم مكتوفي الايدى .

وقد كان السلطان الوطاسي المذكور يسعى بدوره الى الاتصال بالقوى المجاورة للمغرب والبعيدة عنه بهدف التعاون معها ضد الاسبان والبرتغاليين الذين استفحل خطرهم على المغرب وعلى الشمال افريقيا وغيرها . ولعل رحلات الحسن الوزان ، صاحب كتاب وصف افريقيا الذى كان يعمل في خدمته ، الى بلاد السودان والى تلمسان وتونس وبلدان اخرى في المشرق ، هذه الرحلات التي اتصل خلالها او التقى بملوك تلك البلدان او امرائها ، وبذوى الشأن فيها لم تكن مجردة من الاغراض السياسية ، وانما لتحقيق غرض السلطان الوطاسي . (٢) ومن بين من اتصل بهم الحسن الوزان وهو في البلاد الجزائرية بالاضافة الى سلطان تلمسان ، عروج بربروس كذلك حين كان هذا الاخير محاصرا لبجاية في غضون شهر سبتمبر ١٥١٥ م / (٩٢١ هـ) . وقد مكث معه الى ان رفع الحصار . (٣) وليس مستبعدا ان يكون الوزان قد اطلع عروج بهذه المناسبة على الجهود التي كان يبذلها السلطان الوطاسي من جهته في المغرب سواء من اجل تحرير المراكز المحتلة من قبل البرتغاليين والاسبان او مواجهة حملاتهم

---

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٣٠

(٢) انظر عنه مقدمة . ايبولار في وصف افريقيا لصاحبه الحسن الوزان (ليون الافريقي) ومقدمة الدكتور عبد الرحمن حميده لترجمة الكتاب المذكور . السعودية ١٣٩٩ (١)

(٣) الوزان : وصف افريقيا ص ٤١ من الترجمة العربية

الرامية الى احتلال مراقئ جديدة ، وبين لهم ضرورة التعاون من بعضهما ضد النصارى ، العدو المشترك ، وربما أبدى له ايضا استعداد محمد البرتغالي للتعاون معه ، مما قد يكون هو الذى دفع عروج وشجعه على الاتصال بالسلطان الوطاسي غداة دخوله الى تلمسان ، كما اشرنا سابقا ، وعلى عرض التحالف معه والتعاون ضد عدوهم المشترك ، وضد المناوئين لهما في الداخل .

وحسب هايدو الذي اشار الى هذا الاتصال وهذه العروض ، فان السلطان الوطاسي قد رحب ، ووافق بسرور على العروض التي تقدم بها عروج ، وعظما الى سفرائه (١) . مما يعني قيام تحالف بينهما . فهل دخل التحالف فعلا ؟ واذا كان الجواب بنعم فهل ظهر له اثر في حيز التطبيق ؟

لا يؤكد صاحب غزوات عروج وخير الدين هذا التحالف الذى ذكره هايدو ، ولا يشير الى اى اتصال بهذا الخصوص بين عروج ومحمد البرتغالي ، الا انه يذكر ان هذا الاخير رفض ان يقدم للسلطان الزياني المخلوع ، ابي حمو الثالث الذى لجأ اليه اى عون (٢) . وهذا السكوت من صاحب الغزوات عن الاشارة الى التحالف ، يدفع الى الشك في قيامه . ومما يعزز هذا الشك ان السلطان الوطاسي لم يهب للتعاون مع حليفه على صد الحملة الاسبانية التي توجهت مع ابي حمو لانتزاع تلمسان ، او القضاء عليه غيرا ، كما انه لم يسرع الى فك الحصار الذى ضربه الاسبان وابو حمو عليه في تلمسان . علما ان الحصار دام مالا يقل عن ستة وعشرين يوما حسب الغزوات (٣) ، وستة اشهر حسب غيره (٤) ، وهي فترة كافية للوصول من فاس بالمدد ، لو صح عزمه على المجيء ، وعلى تقديم العون لحليفه . واذا كان هنالك تحالف كما يؤكد ذلك هايدو ويستشهد بمجيء السلطان الوطاسي على رأس جيش كبير من المشاة والفرسان الى شرق المغرب بعد اقل من خمسة عشر يوما من مقتل عروج ، وعودته بعد ان علم بمقتل هذا الاخير (٥) . فان التأخر الكبير عن التحرك ، لتقديم المدد الى حليفه حتى فوات الاوان يدلي استفهاما كبيرا ، حول مدى جدية السلطان الوطاسي في تحالفه مع عروج ، واستعداده لتطبيق ما يستوجبه تحالف دفاعي وهجومي وافق عليه ، ولاسيما اذا علم ان عروج حسب هايدو قد أشعر حليفه باستعدادات الاسبان للهجوم عليه مع ابي حمو ، وان السلطان الوطاسي قد وعده بالمجيء اليه قريبا ، بالمدد المطلوب ، الامر الذى جعل عروج لا ينسحب من تلمسان على الرغم من انه كان يعلم ان قواته القليلة المنطعة له لا تمكنه من مواجهة الحملة ، او من الصمود طويلا ، في مدينة غدا لا يتمتع بشعبية كبيرة لدى سكانها ، نتيجة الشدة التي اتبعها في حكمه لهم (٦) .

---

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٣
(٢) المجهول : ص٤٢
(٣) نفسه : ص٤٣
(٤) د بقرامون : المرجع السابق ص٢٦
(٥) هايدو : المرجع السابق ص ٣٤
(٦) نفسه : ص ٣٢ - ٣٣ وابن عسكر دوحة الناشر ص٨٨

الذى يبدو ان السلطان الوطاسي كان حريصا على الا يتورط في حرب خارج حدود مملكته ،
وعلى الا يتدخل في تلمسان ومملكتها ، يدل على ذلك امتناعه من مساعدة ابي حمو الثالث على
استرجاع ملكه من عروج ، وامتناعه قبل ذلك من مساعدة يحيى بن محمد الزياني على انتزاع الملك
من اخيه سلطان تلمسان . وربما كان غير مطمئن تماما الى نوايا عروج،الذى لاحظ عليه انه
لا يكاد يستتب له الامر في اقليم من الاقاليم حتى يوجه نظره وجهوده الى اخضاع الاقليم الذى
يليه وهكذا ، حتى غدا نفوذه يمتد من جيجل شرقا الى تلمسان غربا دون ان يتورع عن الفتك
بأمراء الاقاليم واصحاب النفوذ فيها . ولعله خشي ان يكون الهدف التالي لعروج بعد استتباب
الامر له في تلمسان هو مملكة فاس ، التي تجاورها والتي اخذت سفنه منذ ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ،
تجوب مياه شواطئها الشمالية (١). ولذلك لم يهتم كثيرا بامر حليفه المحاصر والمهدد (٢)،
وتأخر كثيرا حتى يئس عروج من مجيئه ،فقام بمحاولة يائسة للافلات من الحصار المفروض عليه
فلحق به الاسبان وقتلوه ، وهو يتجه نحو المغرب على امل ان يلتحق بحليفه او يلتقي به .

اما التحرك المتأخر للسلطان الوطاسي بجيشه الى شرق المغرب فيمكن ان يحمل على
انه موقف احتياطي ، لسد خطر عروج او الاستفادة من دوي انتصاره بانتزاع مملكة من الاسبان ؛
وقد مر الجيش الوطاسي على مشارفها في طريقه الى شرق المغرب .

ونتيجة لعدم التعاون المخلص بين الطرفين ، تمكن الاسبان اذًا من القضاء على عروج
والقضاء عليه ،وعلى أخيه اسحاق قبله بقليل في قلعة بني راشد ، كادوا يقضون على الوجود
العثماني الوليد في المغرب الاوسط ، اذ وجهوا في اعقاب مقتل عروج حملة ضخمة للقضاء ايضا
على خير الدين آخر "البربروسيين" الذى بقي في قوة قليلة في مدينة الجزائر،الا ان هذه الحملة
انتهت بالفشل الذريع كما ذكرنا،اذ تظافرت شجاعة خير الدين ورفاقه مع عوامل الطبيعة على
العاتي النازلة بها افشال سعي الاسبان . اما محمد البرتغالي فقد فشل في فرض سيطرة على كامل
أجزاء المغرب ، وفي اخضاع القوى السياسية التي كان نفوذها وقوتها في نمو مستمر ولا سيما
نفوذ الاشراف السعديين وقوتهم في الجنوب . كما فشل في تحرير الكثير من المدن والمراكز
المحتلة من قبل البرتغاليين والاسبان،فيما عدا حجر بادس الذى تم تحريره سنة ٩٢٨ هـ /
١٥٢٢ م عن طريق استغلال خيانة احد جنود حاميتها .

ولم تشر المصادر المتوافرة لدينا الى اتصالات بينه وبين خير الدين بربروس،سواء لبحث
التحالف الذى اشار اليه هايدو ، او لاقامة غيره . وسكوتها هذا يدفع الى القول بأن العلاقات
بين اتراك الجزائر العثمانيين ، وعلى رأسهم خير الدين ، وبين الوطاسيين وعلى رأسهم السلطان

(1) Ricard(R.):Le Commerce Genois au Maroc,1415-1550.
in Annales de I.E.O.,Paris 1937, t.3 , P.62.

(٢) دوفراسون : يخلطه بدوره في قيام تحالف بين عروج ومحمد البرتغالي انظر تاريخ الجزائر ص ٢٥

محمد البرتغالي ، قد شهد فتورا ان لم يكن انقطاعا بعد مقتل دروج لبضع سنين . ولا شك ان ذلك ناتج ايضا عن الصعوبات التي واجهها خير الدين بعد مقتل اخويه ، حيث تعرض الى حملة اسبانية كبيرة ، والى تآمر سلطاني تونس وتلمسان عليه ، وتمرد احمد بن القاضي الزواوي بتحريض من السلطان الحفصي ، ونجاحه في اقصائه عن مدينة الجزائر لبضع سنين مكتفيا كما رأينا في جيجل . فتباعدت الشقة بين الطرفين . ولكن هذا الفتور او الانقطاع لم يستمر طويلا فيما يبدو ، اذ اخذت السفن الجزائرية العثمانية تتردد ابتداء من سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م على الاقل على ميناء العرائش في المغرب وتتخذه معاقلها ، وتقضي فيه فصل الشتاء (1) . مما يدل على ان العلاقات بين امراء الجزائر العثمانيين وحكام المغرب الوطاسيين قد تحسنت ، ولكن التحسن الملحوظ كان بعد عودة خير الدين من جيجل الى مدينة الجزائر ، ولا سيما بعد قضائه على الحصن الاسباني "البنون" فيها في يوم الجمعـــــة ٢٧ ماي ١٥٢٩ م الذي كان له صدى كبير لدى الاسبان والنصارى عامة ، ولدى المسلمين وبعـــــد استلام ابي العباس احمد بن محمد البرتغالي السلطة في المغرب . ففي اعقاب الانتصار الذي حققه خير الدين على الحصن الاسباني المذكور طمح الى تحرير وهران ، فارسل الى السلطان الوطاسي المذكور والى امير بادس (ابي حسون) يدعوهما كما دعا سلطان تلمسان ، وغزاة البحر في تونس الى المساهمة في الحملة على وهران بكل ما يملكون من سفن (٢) . ولكن ظروف الوطاسيين في هذه الفترة في المغرب ، لم تكن لتسمح لهم بتلبية ندائه ، اذ كانوا في نزاع عنيف مع السعديين الذين استولوا على مراكش ، ورفضوا الاعتراف للسلطان الوطاسي بالتبعية ، وتقديم فروض الولاء والطاعة . وفي سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م خاضوا معركة آنماي ضدهم ، ولم يتمكنوا من تحقيق النصر (٣) . ولذلك فان مشروع حملة خير الدين للهجوم على وهران لم ينفذ كما كان يريد ، ولكن احمد الوطاسي وابا حسون المذكور ابديا استعدادهما للتعاون وتطوير العلاقات نحو الاحسن .

وقد تجلى تحسن العلاقات بين الطرفين في : ١- قيام خير الدين في أفريل ١٥٣١ (شعبان ٩٣٧ هـ) على رأس مجموعة من السفن بالرسو في الموانئ الشمالية لمملكة فاس ، والتزود منها بما كان في حاجة اليه من حبوب ، وغيرها ، للتغلب على المجاعة التي كانت سائدة في الجزائر في هذه السنة (٤) ٢- وفي ارسال خير الدين في السنة التالية (٩٣٨ هـ/١٥٣٢م) سفيرا الى السلطان الوطاسي ليبدي لهذا الاخير استعداده الكامل لان يأتي بنفسه لمهاجمة

---

(١) أندرنز : المرجع السابق ص ١
(٢) بريمونداي : الوثائق المغفلة ص ٣٤ – ٣٥
(٣) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(٤) م.م. مدتم اسبانيا جـ ١ ص ١

أو مركز بريد مهاجمته ، وليطلب منه تزويده بطلع البارود المتوفر لديه . وقد اسرع السلطان الوطاسي المذكور الى تلبية طلبه (١) . مما يدل على قيام تعاون فعلي بين خير الدين بربروس وأحمد الوطاسي ، الامر الذي اثار قلقا ومخاوف كبيرة لدى الاسبان والبرتغاليين ، فاسرعوا الى تعزيز قواعدهم الواقعة بشمال المغرب وتعزيز شواطئهم الجنوبية ، لاتقاء هجوم تركي - وطاسي محتمل (٢) . وحتى يشغل الامبراطور شارلكان خير الدين بربروس عما كان يعتزم القيام به من تعاون مع السلطان الوطاسي ، وعما كان يلحقه من ضربات بالسفن والشواطئ الاسبانية ، وعما كان يقدمه من عون لمسلمي الاندلس فانه اغرى عبد الله الثاني سلطان تلمسان على الثورة ضد خير الدين ، ووعده بمساعدته على انتزاع مدينة الجزائر من خير الدين باسطوله (٣) فاغتر السلطان الزياني بوعده ، وقام بحملة على الجزائر باءت بالفشل الذريع ولاحقه خير الدين حتى تلمسان ، دون ان يتقدم الاسبان لمساعدته ، فطلب العفو من خصمه فعفا عنه خير الدين كما رأينا (٤) . وتمكن الوطاسيون من جهتهم تحرير غساسه الواقعة الى الشرق من مليلة في (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) (٥) ، فبدا للاسبان والبرتغاليين أن لا شيء يمنع قيام تعاون كبير بين الاتراك العثمانيين والوطاسيين ، مما اثار مزيدا من المخاوف لديهم ، ولا سيما بعد ان عاد خير الدين من القسطنطينية على رأس الاسطول العثماني ، واستولى بسهولة على تونس في صيف (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) (٦) ، لدرجة ان البرتغاليين اخذوا يفكرون في الجلاء عن بعض المراكز التي يحتلونها ، والتي من الصعب الدفاع عنها . وجرت بخصوص ذلك مشاورات بين الملك البرتغالي ، وكبار الشخصيات البرتغالية (٧) . اما شارلكان فقد أمر باخلاء هنين بعد تخريبها في (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) ، واعادة حاميتها الى وهران لتعزيزها (٨) . ثم استغل فرصة طلب السلطان الحسن الحفصي مساعدته على استرجاع ملكه المغتصب من قبل خير الدين ، فجهز حملة ضخمة للقضاء على خطر هذا الاخير . ونجح في اقصائه منها واعادة الحسن الحفصي الى ملكه تابعا له وابقى في حلق الوادي حامية اسبانية كبيرة (٩) . وقد كان احمد الوطاسي ينتظر ان يقدم له خير الدين مساعدته لاسترجاع طنجة وأصيلا من البرتغاليين بعد نجاحه في تحرير غساسه من الاسبان . الا أن خير الدين دعي للعودة الى

(١) م.م. تم اسبانيا ج١ ص٤١ - ٤٣
(٢) م.م. تم نفسه ص١
(٣) حكم من ١٥٢٠ - ١٥٣٤ م وحسب آخرين يكون قد حكم في الفترة ١٥٢٨ - ١٥٣٢ انظر روف المرجع السابق ص ١٩ - ٢١
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر وانظر المجهول : المرجع السابق ص٧٨ - ٨٠ وانظر ايضا رسالة عبد الله الى الامبراطورة بخصوص ترتيب الحملة المذكورة في عهد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام ج٢ ص٢٠٨ - ٢١٠
(٥) مارمول : أفريقيا ج٢ ص٢٨٩
(٦) استولى خير الدين على تونس في ١٦/٨/١٥٣٤ انظر بربرودي المرجع السابق ص٩٤ - ٩٦
(٧) م.م. تم البرتغال ج١ ص٦٤٥
(٨) روف المرجع السابق ص٣٥
(٩) حول حملة شارلكان على تونس انظر مارمول المرجع السابق ج٢ ص٤٦٠ وما يليها .

القسطنطينية فوراً واما يحصل على العون المنتظر منه (١). ولما كان خليفته حسن آغا مهدداً بحملة اسبانية كبيرة على غرار حملة شارلكان على تونس ، ولم يكن بامكانه تقديم العون له ، فان السلطان الوطاسي الذي مني بدوره بهزيمة ساحقة امام خصومه الاشراف السعديين في معركة وادي العبيد سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م ، رأى ان يميل الى مسالمة الاسبان والبرتغاليين ومهادنتهم ، حتى لا يستغلوا وضعه السيء . وتوصل الى اتفاق سلام مع البرتغاليين لمدة احد عشر عاما عقد في شهر مارس ١٥٣٨ ، على ان يدخل الاسبان ايضا (٢) . وكان هدف البرتغاليين فيما يبدو من وراء استجابتهم لرغبة السلطان الوطاسي في السلام معهم هو صرف هذا الاخير عن التحالف والتعاون مع الاتراك العثمانيين ضدهم ، والحيلولة دون تسرب النفوذ العثماني الى المغرب . ومما ورد في الاتفاق الذي عقد بين الطرفين شرط ينص على انه لا يحق لرعايا السلطان الوطاسي في مناطق آصيلا ، طنجة ، والقصر الصغير ، وسبتة ، وهي كلها مراكز ساحلية في حال مجيء السفن التركية العثمانية الى بلادهم ، ان يشتروا الاسرى المسيحيين ، وتصادر البضائع الاخرى ، وتعاد الى الطرف الذي اغتصبت منه ، الا اذا كانت قوة العدو لا تسمح بمهاجمته (٣) .

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما خرق ، ولم يلتزم به ، وسير الحوادث التالي ذكرها يثبت ذلك : فابو حسون الوطاسي امير بادس ، الذي كانت له علاقات طيبة مع اتراك الجزائر العثمانيين ، حيث كان يتعامل ويتعاون معهم ضد الاسبان والبرتغاليين قبل حصول الاتفاق المذكور (٤) ، لم يتوقف عن التعامل والتعاون معهم ، . ومما يؤكد ذلك مجموعة من الوثائق المعاصرة ، فاحداها تشير الى شراء عدد كبير من الاسرى النصارى من الغزاة الاتراك في سبتمبر ١٥٤٠ بمبلغ ٥٠٠٠ دوكات (٥) ، واخرى تشير الى طلبه ٤٠ سفينة من الجزائر لاجراء معركة مع اسطول دون برنارد ينو دومندوزا (Don Bernardino de Mandouza) القائد العام للبحرية الاسبانية (٦) ، وثالثة تشير الى ان حسن آغا ، ارسل في اعقاب حملة شارلكان على الجزائر مبعوثا الى بادس في نهاية عام ١٥٤١ مكلفا بشراء سفن واشياء اخرى من هناك (٧) . كما ان السيدة الحرة حاكمة تطوان ، وزوجة السلطان أحمد الوطاسي نفسه ،

---

(١) م . م . تم اسبانيا ج١ ص٧
(٢)(٣) نفسه ص٨٣ – ٨٤ وبريموداي الوثائق المغفلة ص٣٥
(٤) نفسه ص٨٠
(٥) م . م . تم اسبانيا ج١ صفحة ٨٨ – ٩٠
(٦) نفسه ص٩٠ – ٩١
(٧) بريمودااي المرجع السابق ص٢٥٣ و مفاوضات حسن آغا مع الكونت الكوديت في المرجع السابق ص٢٨١ .

لم تلتزم بدورها بالاتفاق المذكور بين البرتغاليين والوطاسيين ، اذ كانت تسمح هي الاخرى للسفن الجزائرية العثمانية بالتردد على ميناء تطوان، والتزود منها بما يلزمها ، ولم تتغافل سفنها عن القيام بالغزو البحري (١) . فهذه المواقف لا تدل فقط على خرق الاتفاق البرتغالي الوطاسي الذي الغي رسميا في سنة ١٥٤٣م ، ولكنها تدل على الخصوص على ان العلاقة التي كانت قائمة بين الوطاسيين، واتراك الجزائر العثمانيين في عهد خير الدين ، وخليفته حسن آغا ، كانت في مجملها حسنة تعتمد على بعض التعاون ضد القوتين الاسبانية والبرتغالية . وقد استمر امرها كذلك في عهد الولاية الاولى لحسن بن خير الدين (٩٥١-٩٥٨هـ/١٥٤٤-١٥٥١م) . ومن الشواهد الدالة على ذلك بالاضافة الى الاستمرار في استقبال السفن الجزائرية العثمانية في موانئ شمال المغرب ، وتزودها منها بما تشاء ، تعاون غزاة البحر الجزائريين مع غزاة تلك الموانئ . وانتقال عدد كبير من الاتراك العثمانيين للعمل بصورة فردية في بلاط الوطاسيين ، ولا سيما في صفوف جيشهم . وقد بلغ عددهم حسب رواية طوريس أكثر من اربعمئة عشية معركة درن (٢) . التي جرت بين الوطاسيين والسعديين في سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م .

ومن الادلة ايضا : عدم تعاون الوطاسيين مع الثائرين على الاتراك العثمانيين او المناوئين لهم ، فالثائر بوطريق الذي التجأ الى المغرب بعد فشل ثورته امام اتراك الجزائر في ١٥٤٤م (٣) . لم يجد لدى الوطاسيين اي عون (٤) . والسلطان احمد الزياني الذي اطاح به حسن بن خير الدين عن ملك تلمسان في سبتمبر سنة ١٥٤٥م والذي التجأ الى دبدو وقبض على امير دبدو الوطاسي، وعلى من جاء معه ، وسجن الجميع وسلب اموالهم (٥) . كما اشرنا الى ذلك سابقا ومن جهته فان السلطان العثماني الذي كانت تجرى بينه وبين الامبراطور شارلكان مفاوضات لعقد اتفاق سلام، رفض الموافقة على الاتفاق مالم يشمل سلطان فاس (٦) . على أن اهم تطور شهدته العلاقات الجزائرية العثمانية - الوطاسية في عهد حسن بن خير الدين هو الذي اعقب الهزيمة الساحقة التي مني بها الوطاسيون امام السعديين في معركة درن سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م . ففي اعقاب هذه المعركة التي وقع فيها السلطان أحمد الوطاسي وابنه اسيرين في يد محمد الشيخ السعدي ، والتي اصبح الطريق بعدها الى فاس مفتوحا امام السعديين ، وبات ملك الوطاسيين مهددا بالزوال ، لم يتردد الوطاسيون في اعلان ولائهم للسلطان العثماني على غرار ما فعل غيرهم من أجل الحصول على دعمه ومساعدته لهم ضد خصومهم السعديين ،

---

(١) م.م.ت. اسبانيا ج ١ ص١٠٧ ، هامش ٤

(٢) توريس: تاريخ الاشراف... ص٥

(٣)(٤) هايدو: ملوك الجزائر ص٧١ : ظل لاجئا في المغرب الى ان كانت حملة ابناء محمد الشيخ السعدي على تلمسان في سنة ١٥٥٠م

(٥) السلاوي: المرجع السابق ج٤ ص١٦٢

(٦) م.م.ت.م. انكلترا ج١ ص١٠ هامش ٣ (رسالة فوكان بتاريخ ١٧/٧/١٥٤٥)

الذين قبل تعويض من السلطان سليم حين وجد نفسه في وضعية سيئة بعد مقتل اخويه

عروج واسحاق . وناشد الوطاسيون السلطان سليمان التدخل لاطلاق سراح السلطان الوطاسي

وابنه الاسيرين لدى محمد الشيخ (١) .

ولا شك ان اتراك الجزائر العثمانيين قد دعموا طلب الوطاسيين وايدوه ، لما كان

بينهم وبين الوطاسيين من علاقات حسنة في مجملها كما تبين من قبل من خلال مواقف عديدة

ولاسباب اخرى اهمها : ان الاشراف السعديين الذين ما انفكت قوتهم تتعاظم ، كانوا يمثلون

في نظر المرابطين وعامة المتدينين ، الحكام الشرعيين بفضل نسبهم الشريف ، مما يجعل

بروزهم وتفوقهم في المغرب عليهم في الجزائر ، حيث كان هناك جماعات تنظر الى الحكام

الاتراك على انهم غرباء عن ، ومغتصبون للسلطة ، ولذلك كان من مصلحة الاتراك

العثمانيين ، الا يستقيم للاشراف السعديين في المغرب ، حتى لا يوجهوا انظارهم

الى الجزائر ، او يكونوا منافسة قوى لهم فيها . اضف الى ذلك ان مراكش قاعدة السعديين

غدت مأوى المناوئين لهم ... عشائر بوطريق الذي انعقد به المطاف عند

السعديين الذين آووه واصطحبوه فيما بعد في حملتهم على المغرب الجزائري . واذا

أن محمدا الشيخ ابدى اهتماما واضحا بالغزو البحري مما يجعله منافسا قويا لهم في هذا

المجال (٢) .

وقد رغب السلطان العثماني بولاء الوطاسيين الذي من شأنه ان يوطد مركز العثمانيين

في شمال افريقيا ، ويجعل نفوذه يمتد الى المغرب الاقصى دون عناء . فتتم سيطرته على

الجزء الاكبر من الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد ان ساد على شرقه ، ويصبح اكثر قربا

من المسلمين في اسبانيا الذين كانوا يوجهون له النداء تلو النداء لاغاثتهم ، ورفع الضيم

عنهم ، كما يغدو بذلك رأس العالم الاسلامي السني كله ، ويجمع في شخصه كل الرقاع التي

كانت الدولة العربية الاسلامية تضمها في عصور قوتها الاولى . فارسل سفارة الى مراكش حملت

اوامره الى محمد الشيخ باطلاق سراح السلطان الوطاسي فورا ، والتعويض له عن الاضرار

التي الحقها به تحت طائلة مهاجمته (٣) . وحسب بعض المراجع فان السلطان العثماني

يكون قد طالب منه ايضا بهذه المناسبة اقامة خطبة الجمعة في اقاليم مملكته ، مما يعني بعبارة

أخرى طلب الاعتراف بسيادته عليه والدخول تحت لوائه (٤) .

---

(١) طوريس : المرجع السابق ص٢٠٧
(٢) أ . كور : المرجع السابق ص٩٧
(٣) طوريس : المرجع السابق ص٢٠٧ - ٢٠٩
(٤) تيراس : تاريخ المغرب ... ج٢ ص١٦٥

وكان رد فعل السلطان محمد الشيخ ، الغضب الشديد من محتوى الرسالة التي قدمها له المبعوث التركي ، ومن لهجتها ، حيث ان السلطان العثماني كان فيها طلب لا يرعوه ولكن يأمره . وما أغضبه اكثر حتى كاد يخرج عن طوره ويهم بقتل المبعوث العثماني وكان هذا المبعوث هو القائد صفا الذى شغل قبل بعثته وبعدها عدة مهمات في الجزائر (١) هو مخاطبة السلطان العثماني له بشيخ العرب ، لا امير المؤمنين او الخليفة كما كان يحلو له ان يلقب نفسه . وكانت النتيجة رفض تلك المطالب ، او ذلك الانذار الضمني ، والجد في العمل للقضاء على حكم الوطاسيين ، تمهيدا لمواجهة العثمانيين في الجزائر قبل ان يهاجموه .

ولما رأى الوطاسيون ان التدخل العثماني توقف عند التهديد فقط ، وان هذا التهديد لم يجد نفعا ، اذلم يؤثر على موقف محمد الشيخ المتصلب ، الذى مضى في اعتقال السلطان الوطاسي ، ورفض كل وساطة لافتدائه بالمال ، وعندما تضاءل املهم في الحصول على دعم من اتراك الجزائر العثمانيين بعد ان اكره هؤلاء على الانسحاب من تلمسان في سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م وعاد النفوذ الاسباني اليها من خلال سلطانها احمد الزياني الموالي للاسبان ، فانهم رضخوا لشروط محمد الشيخ وسلموا له مكناسة في سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م ، في مقابل اطلاق سراح السلطان الاسير . الا ان محمدا الشيخ رام بعد امتلاك مكناسة ، مفتاح فاس ، اخذ مابقي بايدى الوطاسيين الامر الذى دفع هؤلاء الى السعي للحصول على دعم الاسبان والبرتغاليين لهم بعد ان فقدوا كل تصير لهم على غرار الدعم الذى تلقاه السلطان الحسن الحفصي او السلطان عبد الله الزياني من الامبراطور شارلكان في سنة ١٥٣٥ وفي سنة ١٥٤٣ (٢) ، ولكن محمدا الشيخ الذى كان يرصد تحركاتهم لم يمهلهم ليتوصلوا الى مثل هذا الاتفاق اذ تمراه الى فاس بسرعة وساعده الى ان استسلم له الوطاسيون فيها كما رأينا (٣) ، باستثناء قلة منهم تمكنوا من الافلات من الحصار في مطلع سنة ١٥٤٩ ، وقضى على حكم الوطاسيين فيها ، وفي شمال المغرب .

ولم يخب اتراك الجزائر الذين تمكنوا في سنة ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م من استرجاع نفوذهم على تلمسان (٤) ، الى انقاذ الوطاسيين من السقوط ، وذلك فيما يبدو لميل هؤلاء الاخيرين عنهم ، والتجائهم الى المساعدة من الاسبان والبرتغاليين (٥) . وربما لما بدا للاتراك من ضعف الوطاسيين امام السعديين ، وعدم رغبتهم في ايصال العلاقات بينهم وبين الاخيرين الى مستوى من التوتر أعلى مما كان عليه . وبذلك يفسحون المجال للتفاهم والتواصل ، وسدا على الاسبان الباب التعاون بين اتراك الجزائر وفلول الوطاسيين الذين افلتوا من قبضة السعديين

(١) [illegible] اسبانيا ج١ ص٢٠٦ هامش ٥ و ص٢٤٨ هامش ١
(٢) نفسه ص [illegible] ١٢٤ و ١٢٩ - ١٣٠
(٣) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٥) يبدو ان الوطاسيين ، لم تكن لهم ثقة في مساعدة حسن بن خير الدين لهم ولاسيما على جناح السرعة ولذلك فانهم الحوا في الحصول عليها من الاسبان والبرتغاليين الاكثر قربا منهم

وفتحا لصفحة جديدة في العلاقات مع اتراك الجزائر قام محمد الشيخ بالخطوة الاولى اى التقرب من حسن بن خير الدين ، وعرض عليه التعاون لتحرير وهران من الاسبان، وشن هجوم على هؤلاء في عقر دارهم . وكخطوة اولى استبقى محمد الشيخ الاتراك العثمانيين الذين كانوا في خدمة الوطاسيين عنده ، وهذا التقارب هو الذي جعل بعدين ... الوطاسي لا يتوجه الى اتراك الجزائر منذ البداية لطلب العون منهم لاستردان ملك الوطاسيين ، مع ما كان يربطه بهم من علاقات حسنة منذ عهد خير الدين ، وانما يتوجه الى الاسبان والبرتغاليين (٢) . مستغلا مخاوف هؤلاء وأولئك من التقارب العثماني السعدى .

وما تقدم يتضح ان العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والوطاسيين ، على الرغم من انها كانت علاقات ود يقفي محيطها ، الا انها لم ترق الى مستوى التعاون الكبير الفعال بين الطرفين ، بل يمكن القول ان الوطاسيين ذهبوا ضحية السياسة المترددة التي اتبعتها الدولة العثمانية تجاههم ، وتجاه المغرب عموما ، وهذه السياسة ان دلت على شيء فانما تدل على عدم جديتها في التدخل في المغرب بكل ثقلها ، وان المغرب لم يكن المحور الاكثر اهمية ضمن اهتماماتها ، وهو ما لمسه اواخر الوطاسيين ، وجعلهم يميلون مجددا الى الاسبان والبرتغاليين ، ولكن تذبذبهم افقدهم ثقة هؤلاء واولئك ، كما افقدهم شخصيتهم ، ففشلوا وانهاروا امام خصومهم السعديين . وقد يكون وراء تردد العثمانيين في سياستهم تجاه مغرب الوطاسيين ، هو مشاغل الدولة العثمانية في شرقي اوربا ، وبروز السعديين قوة كبيرة تتمتع بثقة اهل المغرب بل والجزائر . ومن ثم كان من الصعب أخذها بالسياسة واللين ، لا بالقوة والعنف ولا سيما أنه بدا لها واضحا ان الحكام الوطاسيين الذين كانت ستعمل من أجل دعمهم ، محكوم عليهم بالزوال لعجزهم عن معالجة قضايا المغرب الكبرى واهمها الغزو الخارجي والانقسام الداخلي .

ب - العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والاشراف السعديين :

لا نملك اي نص يشير الى صلات او علاقات مباشرة بين عروج المؤسس الاول للنفوذ التركي العثماني في الجزائر ، وبين الشريف محمد القائم بأمر الله ، رأس الاسرة السعدية في المغرب ، وقد يستنتج من ذلك ان العلاقات بينهما كانت معدومة ، او ان هذه العلاقات كانت في بداياتها ضعيفة ، فلم تحظ بالتسجيل . ولا يظن ان عرض عروج الذي تقدم به الى السلطان الوطاسي والذى ابدى فيه استعداده للتعاون ضد المتمردين عليه في الجنوب ، مقابل تحالف دفاعي وهجومي بين الطرفين كان نتيجة لسوء علاقات مع اولئك المناوئين ، ومنهم الاشراف السعديون .

---

(١) م.م.م. تتام اسبانيا ج١ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ و ٢٩٨ - ٣٠٢

(٢) نفسه ص ... وما يليها و هايدو المرجع السابق ص ٨٨

قدر ما كان نتيجة شعوره بعدم الاطمئنان على وجوده في تلمسان ، ورغبته في الحصول على حليف
يدعمه ضد مناوئيه من الزيانيين وحلفائهم الاسبان . وتعود الاشارات الاولى للعلاقات بين
اتراك الجزائر والسعديين المتوافرة بين ايدينا الى العقد الرابع من القرن العاشر الهجري
/ العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي ، اي الى عهد خلفاء عروج ومحمد القائم
بأمر الله) حيث تشير وثيقة برتغالية الى وجود اتراك عثمانيين في صفوف السعديين منذ سنة ٩٣٥هـ
/ ١٥٢٩م ، ومشاركتهم في حصار سانتاكروز في ٩٤٨هـ / ١٥٤١م (١). وتشير وثيقة اخرى
برتغالية الى ان الشريف احمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله كانت له اتصالات مع الاتراك
العثمانيين، مما يجعل البرتغاليين يتخوفون من هذه الاتصالات ، ومن تزايد قوته ، وتوسع
نفوذه (٢). ولا شك ان هذه الاتصالات كانت تستهدف التعاون، والتضامن بين القوتين
الاسلاميتين في المغرب والجزائر. وقد اخذ البرتغاليون يفكرون بجد منذ اواسط العقد الرابع
من القرن السادس عشر في الجلاء عن بعض المراكز التي يحتلونها ، ولا سيما الجنوبية والوسطى
منها ، التي كانت تتعرض باستمرار الى هجومات السعديين كآسفي ، وآزمور ، وغيرهما
لتعزيز دفاعهم عن المراكز الاخرى ولا سيما الشمالية منها ، ويعملون على احباط التقارب بين
الاتراك العثمانيين والسعديين عن طريق التقرب من هؤلاء ، والسعي الى عقد اتفاق سلام
معهم لاطول مدة ممكنة كاتفاق سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م الذي عقد لمدة ثلاث سنوات (٣) ،
املا منهم في ان يحولوا بذلك دون التسلل العثماني الى المغرب . ولما تجدد الصراع بين
الطرفين ، ونجح السعديون في تحرير آغادير سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، كما نجح اتراك
الجزائر في نفس السنة في الحاق الهزيمة بحملة شارلكان ، ازدادت مخاوف البرتغاليين من
قيام تعاون جزائري تركي ومغربي سعدي كبير ضدهم ، بعد ان لاحظوا تزايد قوات السعديين
بفضل المساعدات التركية العثمانية ، وبفضل وجود اتراك في صفوفهم كمدفعيين ومدربين ،
في حصار سانتاكروز (آغادير) سنة ١٥٤١ (٤). فجلوا تلقائيا عن بعض قواعدهم التي كان
الدفاع عنها يبدو لهم صعبا، ومكلفا، كآسفي وآزمور في نهاية سنة ١٥٤١ ، وعززوا مازاكان، وقواعدهم
في شمال المغرب .

والسؤال الهام المطروح : هل حصل فعلا تعاون بين اتراك الجزائر العثمانيين
والسعديين ؟ .

اذا استثنينا ما ذكر من وجود اتراك في صفوف السعديين كمدربين، ومعلمين في صنائع الاسلحة،

---

(١) م.م.م. البرتغال ج٣ ص٣٩١
(٢) نفسه ص١٦١
(٣) نفسه ص٤٤
(٤) نفسه ص٥٦١ (أنظر رسالة ملك البرتغال الى سفيره في مدريد بتاريخ ١٢/١٢/١٥٤١)

وهؤلاء الاتراك ... واذا استثنونا ماتقول انه قد بلغ عدد هؤلاء الاتراك
يعرف كيف تم انتقالهم الى السعديين ، كانوا يساهمون في الحركات (1)
سنة ٩٥٠ هـ/١٥٤٣م نحو سبعمئة من حملة البنادق النارية ، فانه ليس هناك
العسكرية المختلفة للسعديين ، وفي حراسة السلطان السعدي نفسه (2)
يدل على قيام تحالف مكتوب او غير مكتوب بين اتراك الجزائر واشراف المغرب في عهد احمد
الاعرج ١٥١٧ - ١٥٤٤ ، وامنيات التعاون بين الطرفين ، وينظمها على
الرغم من الحزن التركي الملموس واذا كانت علاقات احمد الاعرج والاتراك العثمانيين على مايبدو
طيبة، حيث كان نفوذ السعديين في عهده لا يزال منحصرا في جنوب المغرب ، فان تلك العلاقات
تعهدت بالخصوم في عهد محمد الشيخ (٩٥١هـ الى ٩٦٤ هـ / ١٥٤٤ - ١٥٥٧م) الذي امتد
نفوذه الى الشمال، وشمال مملكة فاس المجاورة لمملكة تلمسان، كما رأينا سابقا ، وذلك بعد ان
رفض الامتثال لاوامر السلطان العثماني باطلاق سراح السلطان احمد الوطاسي الذي وقع
اسيرا لديه في سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥م ، وتوترت تلك العلاقات الى حد العنف كما سنرى مفصلا
بعد قليل حين اقدم السعديون على غزو تلمسان والغرب الجزائري في صيف ٩٥٧ هـ/١٥٥٠م
هذا مع العلم ان تلك العلاقات كانت قد لاحت فيها بوارق التقارب في اعقاب استيلاء محمد
الشيخ على فاس والقضاء على حكم الوطاسيين فيها كما المعنا الى ذلك سابقا ، لان حسن بن
خير الدين وقف على الحياد ، ولم يتدخل في الامر ، بل ان الوثائق الاسبانية تتحدث عن
اتصالات بين الطرفين ، وبوادر قيام تحالف بينهما ضد العدو المشترك لهما ، الاسبان
والبرتغاليين (٣) ، وعن انتقال عدد غير قليل من الاتراك العثمانيين الى السعديين بحيث
بلغ عددهم حسب وثيقتين اسبانيتين معاصرتين بتاريخ ١٤ و ١٩ / ٤ / ١٥٤٦ نحو الف تركي،
معظمهم من البحارة للعمل في صفوف جيش محمد الشيخ البري والبحري وفي مصانع اسلحته
وسفنه (٤) . كما تحدثت عن كتابة محمد الشيخ الى الجزائر بطلب توظيف آخرين (٥) .
وفي مقدمة من طلب انتقاله اليه ، وابدى استعداده لتلبية جميع طلباته ، درغوث رايس
الذي كانت شهرته في الغزو البحري قد طبقت الافاق ، لانه كان يود الاستعانة به في
شن حرب على الاسبان والبرتغاليين (٦) . مستغلا هدنة الاتراك العثمانيين مع الاسبان
وغيرهم ، تلك الهدنة التي حددت تقريبا نشاطهم البحري (٧) .

---

(١) نفس المرجع السابق وانظر مارمول المرجع السابق ج ٢ ص٦٦
(٢) الزياني : الترجمان المعرب ص٩٦
(٣) م.م.ت.م اسبانيا ج١ ص٢٢٦-٢٢٨ و ٢٦٨ - ٣٠٢
(٤) نفسه ص٢٢٢-٢٣٢
(٥) نفسه ص٣٣٧ - ٣٤٠
(٦) نفسه ص٣٢١ و ٣٢٢
(٧) في ١ / ١ / ١٥٤٧ وقعت الدولة العثمانية اتفاقا من الصدر على الهدنة لمدة خمس سنوات تشمل الامبراطور والبابا وملك فرنسا والبندقية انظر م.م.ت.م اسبانيا ج١ ص١٥١ و ١٥٣
هامش ٢

وقد اثارت في سينها انباء التقارب الجزائري المغربي (التركي العثماني - السعدي) ، وانباء انتقال الاتراك العثمانيين الى المغرب قلقا كبيرا لدى الاسبان والبرتغاليين ، فبادروا الى ارسال تعزيزات الى مواقعهم على الشواطئ الجزائرية والمغربية ، والشواطئ الجنوبية الاسبانية والبرتغالية . ولكن هذه المخاوف زالت بعد ان رأوا القوتين الاسلاميتين تصطدمان ضد بعضهما في خريف سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م بعنف ، وتتحول علاقاتهما من التحالف الى العداء الشديد .

وهكذا يمكن القول ان العلاقات بين السعديين واتراك الجزائر في هذه الفترة ٩٢٣ - ٩٥١ / ١٥١٧ - ١٥٤٩ م كانت في مجملها سلمية ، وودية طوال عهد احمد الاعرج ، ثم مالت نحو العداء والعنف نتيجة رغبة الاتراك العثمانيين وفي مقدمتهم السلطان العثماني في فرض الهيمنة على المغرب ، والتبعية على محمد الشيخ السعدي ، وامتناع هذا الاخير عن الرضوخ ، ثم مبادرته الى مهاجمة الاتراك العثمانيين في الجزائر في عقر دارهم .

وخلاصة القول فان المتأمل في سيتميز العلاقات بين الجزائر والمغرب ، في الفترة المذكورة ١٥١٧ - ١٥٤٩ يجد ان حكام تلمسان كانوا يسعون كما في الفترة السابقة الى الحصول على الدعم من المغرب للحفاظ على وجودهم المهدد من قبل الاسبان والاتراك العثمانيين ، بينما كان هؤلاء يسعون في اولويات علاقاتهم مع المغرب للتقارب منه ما أمكن دون مفاجأته بالعنف او الرغبة في السيطرة عليه ، وذلك بدعوى تحقيق التضامن الاسلامي .

وهكذا يثبتون وجودهم في الجزائر من جهة ويواجهون اخطار القوى المسيحية على البلدين ، ويسعون لتحريرهما من الاحتلال المسيحي ، ثم توحيد البلدين تحت لواء الدولة العثمانية ، مع المشاركة في تحقيق مخططات هذه الدولة . في حين مضى الوطاسيون في حرصهم السابق على عدم التورط في التدخل خارج حدود المغرب سواء لمساعدة الزيانيين أو الاتراك العثمانيين ، ولكنهم سعوا من جهة اخرى الى الاستفادة من هيبة الاتراك العثمانيين أو الدولة العثمانية ، في صراعهم مع القوى الخارجية من اسبان وبرتغاليين ، ونزاعهم مع القوى الداخلية ، ولا سيما مع الاشراف السعديين من اجل الحفاظ على وجودهم ، لكنهم لم يبدوا التعاون الكافي ، والتجاوب المرغوب ، فتذبذبوا بين التقرب من القوة الاسلامية العظمى ممثلة في الدولة العثمانية وممثليها أتراك الجزائر العثمانيين ، وبين القوى المسيحية العظمى ممثلة في الاسبان والبرتغاليين .

أما السعديون فكانوا وهم في بداياتهم - وقد حملوا لواء الجهاد كما حمله العثمانيون - يهدفون في علاقاتهم مع أتراك الجزائر على الخصوص الى التعاون على تحرير شواطئهم وشواطئ

الجزائر وربما نقل ميدان المعركة بعد ذلك الى أرض العدو، ومساعدة مسلمي الاندلس ، ولكن مع الحرص الشديد على استقلالهم عن الدولة العثمانية، والرفض التام للتبعية لها، مهما كانت اخطار ذلك .

ويجد المتأمل في الاسس العامة المحركة للعلاقات في هذه الفترة بين الجزائر والمغرب دورا قويا للقوى الخارجية ، أكانت عثمانية أم اسبانية ام برتغالية : فتدخل السلطان العثماني في النزاع الوطاسي السعدي للضغط على محمد الشيخ السعدي، وتهديده، قد وتر العلاقات بين الجزائر والمغرب ، ولو الى حين ، وجعل السلطان السعدي المذكور وأبناءه من بعده لا يطمئنون ابدا الى نوايا الاتراك العثمانيين في الجزائر وسلطانهم . كما أعطى إحجام السلطان العثماني عن تنفيذ تهديده حين ذاك، انطباعا للوطاسيين بعدم جدية العثمانيين في مساعدتهم ضد خصومهم ، فمالوا الى الاسبان والبرتغاليين ، مما أضعف بالتالي الهيبة العثمانية لدى السعديين ، واشعرهم بقوتهم حيالهم ، وافسح المجال لتأثير اسباني برتغالي اقوى في العلاقات الجزائرية المغربية . ويظهر تأثير الاسبان والبرتغاليين ، الحريصين على عدم امتداد النفوذ العثماني الى المغرب ، في العلاقات بين حكام هذا الاخير وحكام الجزائر ولا سيما الاتراك العثمانيين منهم ، في : أولا ـ تغذية الشكوك والمخاوف لدى الحكام المغاربة من نوايا الاتراك العثمانيين في ضم المغرب تحت لوائهم ، وقد دعم تهديد السلطان العثماني لمحمد الشيخ مزاعمهم، رغم عدم تنفيذ السلطان العثماني لتهديده . وثانيا في مساعي التقرب من الوطاسيين والسعديين ، وتوقيع هدنات معهم، حتى يبعدوا العثمانيين في الجزائر ولا يتيحوا لهم فرص التدخل في المغرب، بل انهم ذهبوا حتى الى عدم استغلال فرص انهزام الوطاسيين مرارا امام السعديين للتدخل في المغرب ، وتحقيق اطماعهم فيه ، حتى لا يدفعوا هؤلاء الى طلب العون العثماني ، وبالتالي حتى لا يوجدوا للاتراك العثمانيين فرصة للتدخل في المغرب القريب جدا منهم . كما ذهبوا الى عدم التدخل في النزاع الوطاسي السعدي بشكل قوي ، والى جانب الوطاسيين ، حتى لا يجعلوا السعديين يندفعون الى التقرب من الاتراك العثمانيين . واوضح مثال على ذلك تقاعسهم عن مساعدة الوطاسيين قبيل حصار السعديين لهم واثناءه وبعده، رغم الحاح الوطاسيين عليهم في طلب المساعدة ، وقد رتبهم عليها .

ونتيجة لهذه السياسة البرتغالية والاسبانية ، بالاضافة الى تشبث المغرب السعدي باستقلاله ، وكشف الدولة العثمانية عن نواياها في احتوائه ، فان العلاقات بين حكام الجزائر

ممثلين في الاتراك العثمانيين ، والحكام المغاربة الوطاسيين والسعديين لم ترق الى مستوى التعاون والتضامن الفعالين بين الجزائر والمغرب مما كان له نتائج هامة منها :

- استمرار الاسبان والبرتغاليين في احتلال كثير من المواقع والمدن الساحلية .
- وتأخر توحيد اجزاء البلدين تحت حكم السعديين في المغرب والاتراك العثمانيين في الجزائر .
- وعدم تمكن الدولة العثمانية من تحقيق مبتغاها في استيعاب المغرب الاقصى ضمن امبراطوريتها ، وتكوين كتلة اسلامية ضخمة في الشمال الافريقي تقف في وجه المشروعات المسيحية الاوربية ، وبصفة خاصة البرتغال واسبانيا والامبراطورية الجرمانية المقدسة ، اكانت في حوض البحر المتوسط او في الغرب الافريقي .
- وعدم توحيد البلدين تحت سلطة واحدة ، بل وعدم تحالفهما . مما كان سينتج عنه لو تحقق اخطار فعلية على الاسبان والبرتغاليين في شمال افريقيا ، وشبه الجزيرة الايبيرية والعالم المسيحي كله ، بل وعلى طريق الهند عبر الاطلسي ، ذلك الطريق المكتشف حديثا الذى كان عاملا في الثورة الاقتصادية الاوربية في ذلك الوقت ، هذه الثورة التي قلبت موازين القوى بين العالم الاوربي المسيحي والعالم الاسلامي .

الفصل الرابع

صراع الاهداف السياسية : بين الاستقلال والتوحيد

في الفترة ٩٥٦ - ٩٨٢ هـ / ١٥٤٩ - ١٥٧٤

1- ميل العلاقات نحو النزاع وأسباب ذلك :

تتوافق بداية هذه المرحلة مع انفراد السعديين بالحكم في المغرب ، وانفراد الاتراك العثمانيين في الجزائر . ونتيجة لزوال عديد من القوى السياسية في البلدين بصفة نهائية في السنوات الاولى من هذه الفترة كالوطاسيين في المغرب والزيانيين والحفصيين في الجزائر ، فان العلاقات السياسية بين البلدين في هذه الفترة كانت اقل تشابكا من الفترة السابقة ، ويمكن دراستها من خلال العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين ، ومن ورائهم الدولة العثمانية ، واشراف المغرب السعديين ، وموقف الاسبان والبرتغاليين من هذه العلاقات ، وتأثيرهم فيهما ، بحكم مطامعهم وتربصهم ، ووجودهم على شواطئ البلدين وتأثرهم بها . دون اغفال تأثير التطورات الخارجية عليها . فكيف كان سير هذه العلاقات ؟ وكيف كانت تطوراتها ؟

كان من المنتظر ان تتطور العلاقات بين القوتين الاسلاميتين المتجاورتين السعدية في المغرب والعثمانية في الجزائر في هذه الفترة في اتجاه التعاون على الاقل لتحرير ما بقي بأيدي الاسبان والبرتغاليين من قواعد على شواطئ البلدين من جهة ، وتقديم العون للبقية الباقية من مسلمي الاندلس الذين كانوا لا ينفكون عن الاستغاثة بقادة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها من جحيم الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه ، ويتعرضون له من قبل الاسبان من جهة أخرى ، ولاسيما ان مبرر قيام السعديين في المغرب ووجود الاتراك العثمانيين في الجزائر مبدئيا هو واحد ، وهو الجهاد ضد الكفار الاسبان والبرتغاليين . ولكن العلاقات بينهما تطورت كما ألمحنا في نهاية الفترة السابقة في اتجاه النزاع والعداء[1] . وبغض النظر عن السبب المباشر لهذا النزاع الذي كان بسبب تدخل السعديين في تلمسان ، فاننا نجد في الواقع اسبابا عديدة جعلت العلاقات تتطور في ذلك الاتجاه في معظم مراحل هذه الفترة . وأهم هذه الاسباب :

آ- اختلاف الاهداف : فالاتراك العثمانيون في الجزائر كانوا يتطلعون الى توحيد المغرب الكبير تحت سيادة الدولة العثمانية ، وقد ألمحنا الى هذا الامر سابقا ، وشرعوا في تحقيق

... منذ سنة (٩٤١هـ / ١٥٣٤) ، حين اقدموا على ضم تونس على امل ضم المغرب ايضا بعد ذلك ... يتعزز وجودهم في الجزائر ويتعزز معه وجود الدولة العثمانية في شمال افريقيا ، والحوض ... الغربي للمتوسط ، ونفوذها فيه . ولا يخفى ان السيادة العثمانية على الحوض الغربي للمتوسط ، ... المغرب الكبير ، وكل البلاد العربية والاسلامية ، التي كان يطمح الى تحقيقها السلاطين ... العثمانيون [1] ، بهدف تأليف تكتل اسلامي واسع يقوى في وجه التكتل المسيحي الاوربي ، [2] ... تحقيق زعامتهم على العالم الاسلامي السني منه على الخصوص ، تظل ناقصة مالم ينضو كل ... المغرب الكبير بما في ذلك المغرب الاقصى .

ولكن السعديين كانوا يطمحون بدورهم ، وخاصة في عهد محمد الشيخ المؤسس الحقيقي ... دولتهم في المغرب ، وراسم اهدافها وسياستها الخارجية ، الى توسيع نفوذهم نحو ... الشرق حتى مصر على الاقل ، [3] مقتدين فيما يبدو بالفاطميين الذين انطلقوا من المغرب ... الكبير نحو المشرق ، واتخذوا مصر قاعدة لهم ، وفي ذلك مايدل على رغبتهم في منافسة السلاطين ... العثمانيين على زعامة العالم الاسلامي ، معتمدين على نسبهم الشريف الذي يجعلهم في نظرهم ... ونظر المتعصبين لذلك ... ، احق بالخلافة وزعامة المسلمين من السلاطين العثمانيين ، وتبدو ... هذه الفكرة واضحة فيما ذكره التمجروتي ، في النفحة المسكية في السفارة التركية التي دونها ... في ذلك العصر حيث قال : ((والعثمانيين ... انما سلطوا الامارة وتقلدوا الامر في المقيضة ... نيابة وامانة يؤدونها الى من هو أحق بها ، واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد ... المغرب ...)) [4] ، ومعتمدين ايضا على قوتهم العسكرية التي اولوها اهتماما كبيرا ... وظهرت لهم فعاليتها ضد البرتغاليين ، وعلى ماكان للمغرب من نفوذ موروث في نفوس سكان ... بقية المغرب الكبير منذ عهد المرابطين والموحدين والمرينيين ، حيث كان يمتد احيانا ... ليحتوي كل ذلك المغرب . ومن ثم فقد قابل محمد الشيخ ، رغبة السلطان العثماني سليمان ... القانوني في الاعتراف له بالتبعية ، بالرفض الشديد [5] . بل انه اتخذ موقفا هجوميا متقدما ... عندما تلقب بالامام ، وامير المؤمنين ، والمهدى [6] . في الوقت نفسه الذى كان لا يسمي فيه ... سلطان العثمانيين الا سلطان الحواته [7] . وشرع في توسيع نفوذه نحو الشرق بغزو تلمسان

---

(1) ... : المرجع السابق ص٤ وفيها يتحدث ... طموحات سليم الاول في مد نفوذه الى المغرب الكبير وكل الحوض الغربي للمتوسط .
(2) نفسه ص٤
(3) الافراني : المرجع السابق ص٢٤
(4) ص٤٦ ، السلاوي الاستقصا ج ٥ ص٣١ – ٣٢
(5) طويبر المرجع السابق ص٢٠٧ وما يليها ، المرجع السابق ص٣٤ – ٤٠
(6) الفشتالي : المرجع السابق ص٥٠ ، الافراني
(7) الافراني : المرجع السابق ص٢٤

سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م التي كانت تحت نفوذ العثمانيين ، كخطوة اولى في طريقه الى
بالامر الذي لم يكن ليجعل العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر والدولة العثمانية الا عدائية
[...]ترة . وثاني الاسباب الممهدة لتوتر العلاقات بين اتراك الجزائر والسعديين كان : تقرب
السعديين من اعداء الاتراك العثمانيين ، فمع اختلاف الاتجاه الذي كان عاملا مهما في توجيه
العلاقات نحو العداء ، قابل السلطان السعدي محمد الشيخ ، ومن خلفه رغبة العثمانيين
[...] شمال المغرب تحت نفوذهم بالتقرب من اعداء العثمانيين ، واعدائهم بالاصل ، الا وهم
[البر]تغاليون والاسبان ، للتعاون معهم على صد الخطر العثماني الذي يهدد الطرفين ،
[...] ان البرتغاليين والاسبان ما انفكوا يهجمون على الشواطئ المغربية ويحتلون مواقع عديدة
[...]ها ، ولم يتخلوا عن اطماعهم في احتلال مواقع اخرى . ورغم ان هذا التقارب يتعارض مع
[...]أ الجهاد ضد الكفار الذي قام على اساسه السعديون . فقد وصل التقارب كما سنرى بعد
[...]يل بين السعديين والاسبان الى حد التحالف ، واقامة المشاريع لطرد الاتراك العثمانيين
[...]ن الجزائر ، الامر الذي لم يكن ليزيد العلاقات الجزائرية السعدية الا توترا . وثالث الاسباب :
[...]ياسة الاستفزاز التي اتبعها كل من الاتراك العثمانيين في الجزائر ، والاشراف السعديين
[...]ي المغرب ، بعضهم لبعض ، والمتمثلة في ايواء كل طرف لمناوئي الطرف الاخر ، ومعارضيه ،
[...]تقديم العون لهم . فقد كانت هذه السياسة عاملا من عوامل التوتر بين حكام الجزائر والمغرب ،
[و]انعدام الثقة بينهما ، فالسعديون آووا الثائر بوطريق بعد فشل ثورته في الاطاحة بحكم
العثمانيين في الجزائر واصطحبوه معهم كما ذكرنا لدى غزوهم لتلمسان ، كما آووا المنصور بن
ابي غانم قائد بني راشد[1] الوزير الاسبق في عهد الزيانيين ، وكثيرا من الاسر والقبائل التلمسانية
الرافضة او الممتنعة عن الدخول في طاعة الاتراك العثمانيين ، ومجموعة من علماء تلمسان وفقهائها[2]
المعارضين للحكم العثماني فيها .

واتراك الجزائر العثمانيون آووا من جهتهم عديدا من الامراء الوطاسيين ، واصهروا
الى بعضهم مثل ابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي (٣) ، وامدوا ابا حسون منهم
بالعون لاسترجاع ملكه من السعديين كما سيأتي الحديث عن ذلك ، وآووا ايضا عديدا من الامراء
السعديين المناوئين للسلطان السعدي ، ومن هؤلاء ابناء محمد الشيخ نفسه (عبد المؤمن
وعبد الملك واحمد) ، واصهروا الى عبد الملك وأمدوه بعونهم لاخذ الملك في المغرب كما
سنرى ، واصهروا ايضا الى اخيه عبد المؤمن . ولم يكن من شأن هذه السياسة لتجعل

---
(١) الافراني : المصدر السابق ص ١٧٦
(٢) انظر تراجم بعضهم في ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧ وغيرها .
(٣) [illegible] ص ٢٤٥ – ٢٤٦

...قات بين البلدين حسنة او ذات طابع ودي . ومن الاسباب : التنافس في مجالات عديدة

...اقتصادية وثقافية :

...حول مراكز التجارة وطرقها مع بلاد السودان :

أظهر السعديون منذ بداية قيامهم في جنوب المغرب اهتماما كبيرا بالتجارة ، وسعوا ...يا حثيثا الى التحكم في التجارة بين شمال افريقيا وبلاد السودان ، وبالتالي بين هذه ...يرة واوربا ، فعملوا على تحويل محاور التجارة مع بلاد السودان الى مراكزهم التجارية ...المغرب ، وتأتى لهم ذلك بفضل بسطهم لنفوذهم في سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م على توات ، ...كز التجاري الهام الذي كان يتحكم في الطرق المتجهة الى شمالي الصحراء والى بلاد السودان ...عملوا على بسط سيطرتهم على بقية المراكز التجارية الهامة في شمال افريقيا بدءا بتلمسان ...مر الذي لم يكن ليرضي الاتراك العثمانيين في الجزائر . فقام هؤلاء باحباط جميع محاولات ...سعديين الرامية الى استغلال هذا المركز الهام (تلمسان) على الرغم مما اصابه من تدهور ... قاموا بفرض نفوذهم على المراكز التجارية في الجنوب الجزائري كتوقرت ، وورقلة ، وتلمسان ...كره (١) . ثم تدخلوا في المغرب نفسه ضد السعديين ، فأتاحوا بذلك الفرصة لتوات لكي ...طرح نفوذ السعديين عليها . فمالت من جديد محاور التجارة مع بلاد السودان نحو المراكز ...تجارية التي كانت بيد الاتراك العثمانيين ، سواء في الجزائر أو في تونس أو طرابلس . وظل ...لامر كذلك حتى اواخر الثمانينات ، حيث تمكن السعديون حينئذ من فرض سيطرتهم من جديد ...ى توات (٢) . وتوافق ذلك مع أواخر عهد البايلربايات في الجزائر .

٢- التنافس في مجال البحرية والغزو البحري :

أولى السعديون منذ عهد محمد الشيخ اهتماما كبيرا ايضا لانشاء اسطول بحري حربي ...بير ، وتشجيع الغزو البحري . وتقدم ان محمدا الشيخ قد استقدم واستقبل عددا من ...اتراك الجزائر ولاسيما من بحارتها لهذا الغرض ، مستغلا الهدنة التي كانت بين الدولة ...العثمانية وممالك الامبراطور شارلكان ، والتي كان الاتراك في الجزائر ملتزمين بها . وقدم العروض ...المغرية للغازي الشهير درغوث من أجل الانتقال لخدمته ، فبدا لاتراك الجزائر انه منافس ...خطير لهم في هذا المجال ، الامر الذي لم يكن ليجعل العلاقات بين الطرفين ودية .

٣- التنافس بين الطرق الصوفية :

كانت الطريقة الصوفية الاكثر انتشارا في المغرب وحتى في تلمسان هي الطريقة الشاذلية . وعلى اكتاف اتباع هذه الطريقة ، والطريقة الجازولية المتفرعة عنها قام السعديون في المغرب ، وتسلموا السلطة فيه . (٣) وقد كان بين اتباع هذه الطريقة المغربية الاصل ، واتباع

---

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر ... المرجع السابق ص١٩٦ – ٢٠٧

(٢) القشطالي : مناهل الصفا ص٧٤ – ٧٥ وانظر ايضا مرتيني .

(٣) الافراني : المرجع السابق ص١٢

الطريقة القادرية المشرقية الاصل التي تنتشر في الجزائر وفي بعض انحاء المغرب ومدنه كمدينة ... من نوع من التنافس (١) ، دفع هؤلاء الاخيرين الى منح تأييدهم الى الاتراك العثمانيين ... في الترحيب بقيام حكمهم في الجزائر ، والمساهمة في ارساء دعائمه فيها وتوسيع نفوذه . وقابل ... الاتراك العثمانيين في الجزائر هذا الموقف الودي بالاحسان اليهم وتكريمهم ، وتعظيمهم (٢) .

وقد انعكس هذا التنافس ايضا على مواقف السلاطين السعديين وحكام الجزائر العثمانيين ، حيث كان كل فريق يستجيب لنداء مؤيديه في البلد الآخر ، واستغل كل من السعديين والاتراك انصاره في تمهيد التدخل له في البلد الاخر ، او في اثارة المتاعب لخصمه ... كان يتسبب في توتر العلاقات بين حكام البلدين ، واصطدامهم ببعضهم :

فالسعديون تدخلوا في تلمسان ، حيث يكثر اتباع الطريقة الشاذلية تلبية لدعوة ... من اهلها ، ولم يجدوا اي صعوبة في دخولها مرارا (١٥٥٠ ، ١٥٥٧ ، ١٥٦٠) . ... بفضل انصارهم من اهل تلمسان ، اتباع هذه الطريقة الذين كانوا يمهدون لهم الطريق ... فيها ويفتحون لهم ابوابها (٣) . وقد نجم عن التدخل المتكرر للسعديين في تلمسان توتر ... يد العلاقات بينهم وبين حكام الجزائر العثمانيين وكان هؤلاء يجدون في الدخول الى ... التي ينتشر فيها اتباع الطريقة القادرية بعض السهوله أيضا بفضل تأييد اتباع الطريقة القادرية ... لهم او لمن حظي بتأييد اتراك الجزائر كأبي حسون الوطاسي (٤) . ولوجود انصار للاتراك العثمانيين في فاس وقربها من تلمسان ، والسهوله التي كان يتمكن الاتراك العثمانيون من الوصول اليها ، فان السعديين لم يتخذوها عاصمة لحكمهم ، وآثروا عليها مدينة مراكش ، ... لكثر اخلاصها في ولائها لهم ، والأبعد نسبيا عن متناول العثمانيين .

اما خامس الاسباب فيتمثل في قوة الدولة العثمانية وضعفها : التي كانت عاملا هاما في توجيه العلاقات بين البلدين نحو العنف والعداء او السلم والهدنة ، اذ يلاحظ ان ميل العلاقات بين البلدين نحو العنف والتوتر يتوافق مع الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية في أوج قوتها ، في عهد السلطان سليمان وابنه سليم الثاني ، وشطر من عهد مراد الثالث ، ... ان ميل العلاقات نحو السلم والهدنة يتوافق مع ميل الدولة العثمانية اكثرفاكثر نحو الضعف ، ... ابتداء من اواخر عهد هذا الاخير ، مما جعل اتراك الجزائر العثمانيين الذين كانوا يستمدون ... قوتهم وسلطتهم من قوة الدولة العثمانية وهيبتها ، يميلون نحو العنف في عهد قوتها ، ونحو السلم في عهد ضعفها .

---

(١) انظر عن هذا التنافس : ج . كور المرجع السابق ص ٨٧ وما يليها
(٢) يحيى : السياسة الدينية للاتراك في المرجع السابق ص ٢٤
(٣) كور المرجع السابق ص ٥٨
(٤) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ١٨

وقد نجم عن الاسباب المتقدم ذكرها ، متفرقة ومجتمعة عدة اصطدامات عنيفة بين
لقد وتين الاسلاميتين المتجاورتين ، اتراك الجزائر العثمانيين واشراف المغرب السعديين ،
سنأتي على ذكرها مفصلة بعد ان نذكر منذ الآن ان العلاقات السياسية بين البلدين في هذه
المرحلة الثانوية ١٥٤٠ - ١٥٧٤ ، لم تتخذ دوما شكل العنف والنزاع المسلح ، بل تخللتها
سفارات عديدة بين الطرفين ومحاولات للتفاهم عن طريق المفاوضات ، سنأتي على ذكرها ايضا
في الوقت المناسب لها ، جعلت العلاقات تتخذ في بعض الاحيان شكلا سلميا .

تدخلات السعديين في الجزائر والعثمانيين في المغرب :

2- التدخل السعدي الاول في تلمسان والغرب الجزائري في ٩٥٧ هـ - ٩٥٨ هـ / ١٥٥٠-١٥٥١م :

لعل ما جعل العلاقات بين الاتراك العثمانيين والاشراف السعديين في المغرب تتميز بالنزاع والعداء ، وتتسم بالعنف والقوة، هو ذلك الصراع الذي جرى بين الطرفين من اجل تلمسان، اواخر العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادي .

لقد كانت تلمسان عدا عن كونها عاصمة الزيانيين سابقا، ومركزا حضريا هاما ، بوابة ساسة بين شرق المغرب والغرب الجزائري ، من يملكها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر ، كما كانت محطة تجارية هامة بين اوربا وبلاد السودان ، وبؤرة ثقافية ودينية مشعة في المغرب الكبير كله . ولهذه المزايا العديدة بتلمسان (١) . فقد كانت دوما مطمعا لحكام المغرب وهدفا لغزوهم واحتلالهم منذ عهد المرينيين و الاسر التي حكمت المغرب قبلهم كالموحدين والمرابطين والادارسة، بحيث يمكن القول انها من السياسة التقليدية لحكام المغرب الاقوياء منهم على العصور، السعي الى فرض سيطرتهم على هذه المدينة الهامة وعلى نواحيها كلما كانت الظروف سانحة لهم، بل وينظرون اليها على انها جزء من المغرب الاقصى . ولم يشذ السعديون عن سياسة من تقدمهم كما سيتضح حيث تعددت محاولاتهم لاحتلال هذه المدينة والاحتفاظ بها ، وضمها الى مملكتهم ، خلال العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادي (١٠هـ) على ان تدخل السعديين في تلمسان ، لا يعود فقط الى الاطماع التاريخية لحكام المغرب في تلمسان ومزاياها الكثيرة ، والى مجرد طموح محمد الشيخ السعدي كما ذكر الافراني (٢) و طوريس (٣)

---

(1)Lawless(R.I.):Tlemcen Capitale du Maghreb Central, Analyse des fonctions d'une ville islamique médiéval in R.O.M.M., Aix-En-Provence, t.20, 1975.

(٢) نزهة الحادي ص ٢٤
(٣) تاريخ الاشراف ص ٢٨٥

الى توسيع ملكه او استكمال فتوحاته المغربية/أو الى جعل احد ابنائه ملكا على تلمسان (١) ،
لكن ايضا الى بغضه للاتراك وحسده لهم وهو يراهم يستولون على المغرب الاوسط بما في ذلك
تلمسان مع انهم أجانب (٢) ، كما يعود الى خوفه من ان يتخذوا من هذه الاخيرة ركابا
لغزوه في المغرب ، اذ لم ينس أبدا انه رفض الدخول تحت لواء السلطان العثماني ، وعصي
اوامره/مما لا بد انه سيجعل هذا الاخير يسعى للانتقام منه، على الرغم من بوادر التحسن الذى
شهدته العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر في ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م كما سلف القول . فتدخله
في تلمسان في الحقيقة كان لارساء دعائم حكمه في المغرب أولا/ ثم اتخاذها قاعدة امامية
في وجه التدخل العثماني المحتمل ضده وركابا للتوسع فيما بليها، إذ كان طموحه كما ذكرنا يرمي الى
تأسيس مملكة تمتد حتى مصر . فقد كان يردد دائما ان (لا بد ان اذهب الى مصر واخرج منها
الاتراك) (٣) .

وقد مهد محمد الشيخ لتدخله في تلمسان بحملة وجهها في ربيع ٩٥٦ هـ /١٥٤٩ م
الى شرق المغرب الذى اخذ النفوذ العثماني يمتد اليه ، كما رأينا في فصل الحياة السياسية
فاستولى على قرسيف ثم على وجدة ، حيث اضطر الحاكم العثماني لهذه المدينة الاخيرة الى
الفرار منها . (٤) وكان من نتائج استمرار السعديين لتوغلهم في شرق المغرب ، اولا ، مبادرة
العديد من القبائل في مملكة تلمسان كانت غير مخلصة في ولائها للاتراك العثمانيين فيها او غير
راضية عن حكم دولة ، وحكم السلطان الحسن بن عبد الله الزياني ، الخاضع لهم ، الى اعلان ولائها
وترحيبها بهم . ومن هذه القبائل ، قبائل بني يزناسن ومديونة وندرومة ، وتراره وغيرها (٥) .
ثانيا ، دعوة بعض اعيان تلمسان لابناء السلطان السعدى الى مدينتهم (٦) . الامر الذى
لا شك انه قد شجع السلطان السعدى اكثر فاكثر على التدخل في تلمسان ، وعلى الاسراع بتوجيه
حملة لاحتلالها . وقد كتب محمد الشيخ بعد القبائل التي التحقت به بالقدوم اليها قريبا (٧) .
كما كتب الى اعيان تلمسان يعدهم بانه سيعامل من يخضع اليه من اهل تلمسان معاملته لاهل
فاس ، وانه سيعفيهم من الضرائب مدة سنتين بما في ذلك اليهود . (٨) ولعل ما شجعه ايضا
على المضي قدما الى احتلال تلمسان هو تأكيد موريسكي بلنسية وآراغونه المقيمين في الجزائر
ونواحي تلمسان له بأنهم سوف يكونون الى جانبه ضد الاتراك . (٩) وذلك فيما يبدو لان

---

(١) م . م . ت . م اسبانيا ج ١ ص ٢٥٩
(٢) السلاوى : الاستقصا ، ج ٥ ص ٢٥
(٣) الافراني : المرجع السابق ص ٣٦
(٤) م . م . ت . م . ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧٠
(٥) نفسه ص ٢٠٠ - ٢٦٤ و ٢٦٨
(٦) يستفاد أيضا ان التلمسانيين كاتبوا الشريف يطلبون منه ان يرسل اليهم اخا السلطان الحسن الزياني الذى كان في المغرب انظر ملوك الجزائر ص ٧٦ وانظر م . م . ت . م اسبانيا ج ١ ص ٢٣٥
(٧)(٨) م . م . ت . م اسبانيا ج ١ ص ٢٦٤
(٩) نفسه ص ٢٦٧

...ا الشيخ كان يخشى انه سيعمل على استرجاع الاندلس، وكذلك انضمام المنصور بن ابي غانم ... بني راشد اليه (١). وقد كان له انصار كثيرون في تلمسان ، مما يكون دعما كبيرا لمحمد ... ن ، ولكن هذا الاخير لم يقدم على احتلال تلمسان على مايفهم من الوثائق الاسبانية ... اصرة الا بعد ان تقدم بعرض الى الاتراك العثمانيين في الجزائر ، اقترح فيه عليهم القيام ... ة مشتركة لتحرير وهران والمرسى الكبير ، ثم بعد ذلك مهاجمة الاسبان في عقر دارهم ، ... اساس ان يحتفظ الاتراك العثمانيون بوهران والمرسى الكبير بعد تحريرهما ، وان يحصل ... ي مقابل ذلك على تلمسان وبقية مملكتها . (٢) الا انه لا يعرف بشكل مؤكد ما اذا كان هذا ... تراح قد حظي بالقبول لدى الاتراك في الجزائر أم لا .

ويبدو من المستبعد ان يقبل اتراك الجزائر العثمانيون هذا الاقتراح بحذافيره ، ... ان قبولهم به كما ورد يقتضي منهم : آ- التنازل عن مدينة تلمسان وبقية مملكتها وهذا يعني ... هم بتقليص نفوذهم وانحساره عن الغرب الجزائري في الوقت الذي كانوا يسعون فيه الى ... يده ليشمل كل المغرب الكبير . ب- دخولهم في حرب ضد الاسبان ، وبالتالي خرقهم ... ن الهادن الذي عقدته الدولة العثمانية مع الصبر لمدة خمس سنوات في ١٩ / ٦ / ١٥٤٧ م ، ... ى كان يشمل كما ذكرنا ممالك شارلكان ايضا وغيرها . والذي كان اتراك الجزائر ملتزمين ... لتزام الدولة العثمانية (٣).

ومما يستبعد قبول الاتراك العثمانيين في الجزائر بعرض محمد الشيخ السعدي الحوادث ... ي سبقت احتلال السعديين لتلمسان ، والتي واكبته ، والتي تلته : كاحتلال السعديين ... ينة وجدة في ابريل ١٥٤٩ ، وكانت هذه تابعة لاتراك الجزائر ، وفرار الحاكم التركي منها ... (٤) ... لاق الاتراك العثمانيين بعد ذلك سراح ابني ابي حسون المناوئ للسعديين في ماي ١٥٥٠ ... ا قد وقعا في اسر احد الغزاة الجزائريين وهو الهادي رايس في ٢ / ٦ / ١٥٤٩ ، حينما ... ا متوجهين من مليلة الاسبانية الى مالقا ، ولدى اسرهما ارسل محمد الشيخ في طلبهما ، ... ن طلبه لم يحظ بالقبول (٥). واسر السعديين لافراد الحامية العثمانية في تلمسان ، ... سلطانها الزياني الحسن بن عبد الله التابع للاتراك (٦). وفرار القبائل الموالية للاتراك ... عثمانيين كقبائل بني عامر وغيرها من وجه السعديين (٧). واخيرا ما جاء في رسالة السلطان

( ) انظر مزيدا من التفاصيل عن القائد المنصور في ... ص ٢٠٢ من م م م ت م اسبانيا ج ...
( ) نفسه ص ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦
( ) نفسه : ص ٢٥٦ هامش ٢
( ) نفسه : ص ٣٤٨ - ٣٥٢ وهامش ١ ص ٤٢٩
( ) نفسه :
( ) نفسه : ص ٤٦٥
( ) نفسه : ص ٤٦٥ ومابعد والمرجع السابق ص ٧٧

سليمان القانوني الى محمد الشيخ بشأن عزل حسن ابن خير الدين من حكومة الجزائر ، (لم يحسن المجاورة مع جيرانه ، ومال الى جانب العنف والاعتساف ، ونبذ وراءه طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين .) (١) . وسواء وافق الاتراك العثمانيون في الجزائر على عرش محمد الشيخ ام لم يوافقوا ، فان اهمية تلمسان المشار اليها سابقا جعلت السلطان السعدي لا يتردد في الاقدام على احتلالها ، وانتهاز فرصة الاضطراب الذي كان قائما فيها ، وفي مملكتها ، والمشيخات المختلفة التي تلقاها . فتحركت اليها قوات سعدية كبيرة في ربيع سنة ٩٥٦ هـ ١٥٥٠م بقيادة محمد الحران كبير ابناء محمد الشيخ ، ومساعدة اخويه عبد القادر وعبد الرحمن . وفي ٢٢ جمادى الاولى سنة ٩٥٦ هـ / ٩/٦/ ١٥٥٠م دخل السعديون تلمسان (٢) . دون ان يواجهوا ايه مقاومة من حاميتها العثمانية؛ التي كانت تتألف من مئتي جندي فقط ، والتي استسلمت لهم ، فاقتادوا افرادها مع السلطان الحسن التابع للاتراك العثمانيين الى فاس (٣) . ووجدوا ترحيبا من اهل تلمسان (٤) .

وقد اثارت حملة السعديين الى تلمسان في بادئ الامر مخاوف كبيرة لدى اسبانيي وهران والمرسى الكبير ، لاعتقادهم فيما يبدو ان تدخل السعديين في تلمسان قد كان في اطار تنفيذ اتفاق توصل اليه حسن ابن خير الدين مع محمد الشيخ . ولكن عودة معظم القوات السعدية في يوليه (تموز) ١٥٥٠م مع الاخوين الحران ، وعبد الرحمن ، وبقاء عبد القادر فقط في تلمسان مع قوات قليلة بدد مخاوفهم ، فكفوا عن طلب الامدادات كما كانوا يفعلون عند بداية الحملة السعدية (٥) .

رد فعل اتراك الجزائر : لم يرض اتراك الجزائر العثمانيون احتلال السعديين لمدينة كانت تحت سيادتهم ، ولاسيما ان هذه المدينة هي مدينة تلمسان، التي طالما عانوا في سبيل فرض سيادتهم عليها كما رأينا في فصل الحياة السياسية في الجزائر، من تذبذب الامراء الزيانيين وتدخل الاسبان ، وتحملوا كل ذلك ادراكا منهم لمدى اهمية هذه المدينة في توطيد سلطتهم في الجزائر ، والغرب الجزائري ، وفي توسيع نفوذهم الى المغرب . ولذلك فقد اعدوا حملة كبيرة لاستردادها ، واقصاء السعديين عنها ، اسندوا قيادتها للقائد حسن قورصو ، اخذت في التحرك اليها في شهر رجب ٩٥٧ هـ / أوت ١٥٥٠م (٦) . وفي ٢١ شعبان سنة ٩٥٧ هـ / ٤ سبتمبر ١٥٥٠م جرت معركة كبيرة بالقرب من تلمسان انهزم فيها عبد القادر السعدي واسرع

---

(١) الساحلي ، خالص : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر ... المجلة التاريخية المغربية عدد ٢، ص ١٣١
(٢) الافراني : المرجع السابق ص ٦٢
(٣) م.م.م. اسبانيا ج ١ ص ٤٤١ و ٥٣٤
(٤) الورين : المرجع السابق ص
(٥) م.م.م. اسبانيا ج ١ ص ٤٧١ - ٤٧٤
(٦) نفسه : ٤٥٤ - ٤٥٥

الى الاحتماء باسوار المدينة (١). الا ان المدد الكبير الذي ارسله اليه والده لم يبدأ الحملة العثمانية بالتحرك قد وصل في المساء، مما اضطر حسن قورصو الى التقهقر عن تلمسان نحو الجزائر، وفرسان الجيش السعدي يناوشونه القتال، ولم يتخلوا عن ملاحقته حتى الصباح (٢). ثم توقفت العمليات العسكرية مؤقتا لحلول شهر رمضان (٣). ولكن السعديين شرعوا قبل ان ينتهي الشهر في التوغل شرقا، ووصلوا في نهاية اكتوبر ومطلع شهر نوفمبر الى مشارف مستغانم (٤). في محاولة لاخضاع القبائل التي امتنعت عن الدخول في طاعتهم في الغرب الجزائري، والتي تجمعت هناك. وبعد مناوشات عديدة مع تلك القبائل تكبد فيها السعديون بعض الخسائر اخذوا في الانسحاب الى تلمسان (٥)، لتركيز دفاعاتهم عنها، لان حسن بن خير الدين اعد حملة مضادة اخرى كبيرة اسند قيادتها للقائد صفا (٦). اخذت في التحرك نحو تلمسان. وقد انضمت الى هذه الحملة القبائل التي اضر بها الهجوم السعدي مثل قبائل بني عامر وغيرها. كان تحرك الحملة بطيئا سمح لمحمد الشيخ السعدي بان يرسل امدادات اخرى الى تلمسان (٧). ولم تجر المعركة الفاصلة بين الطرفين الا في اوائل شهر محرم سنة ٩٥٨ هـ فبراير ١٥٥١م، وذلك في بوعزون قرب تلمسان (٨). وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة كاملة ساحقة للسعديين حيث قتل فيها ثلاثة ارباع الجيش المغربي (٩) الذي كان يقدر بنحو سبعة عشر الفا (١٠). وكان من بين القتلى عبد القادر بن محمد الشيخ، ومن بين الجرحى اخوه عبد الرحمن الذي تمكن من العودة الى المغرب بمشقة كبيرة. ولاحق العثمانيون فلول السعديين حتى نهر ملويه وديدو (١١)، ثم عادوا الى تلمسان ودخلوها بدون اية صعوبة، وانزلوا العقاب الشديد بانصار السعديين فيها حيث عذبوا عذابا شديدا وصودرت أموالهم وفرضت عليهم غرامات كبيرة وبهذه الطريقة جمعوا أموالا وأشياء كثيرة (١٢). ثم اقاموا بها حامية كبيرة بقيادة القائد صفا نفسه، ونصبوا مولاي عمار بن عبد الله الزياني الذي كان قد لجأ الى الجزائر في اعقاب احتلال السعديين لتلمسان، سلطانا على هذه الاخيرة تحت نظرهم، خلفا لاخيه

---

(١) (٢) [illegible] اسبانيا جـ١ ص ٤٧٢ - ٤٧٤
(٣) بدأ شهر رمضان في ١٣ سبتمبر
(٤) انطر لورين [illegible] و يروي سير الحملة السعدية على الغرب الجزائري على نحو مختلف من الوثائق الاسبانية حيث يذكر على سبيل المثال ان السعديين احتلوا مستغانم واقاموا فيها حامية. تاريخ [illegible] ص ٢٨٨
(٥) [illegible] اسبانيا جـ١ ص ٥٢٠ - ٥٢١
(٦) القائد صفا تركي الاصل من بلاد الاناضول كان يتمتع بثقة حسن بن خير الدين والسلطان العثماني، حيث كلف بالقيام بالسفارة الاولى الى محمد الشيخ في سنة ١٥٤٦، وكلفه حسن بقيادة هذه الحملة ثم خلافته في نهاية ١٥٥١ انظر عنه هايدو المرجع السابق ص ٨٢ - ٨٤
(٧) [illegible] اسبانيا جـ١ ص ٥٣٠ - ٥٣١
(٨) نفسه : [illegible] - ٥٣٤ وبارجيس : تكملة تاريخ بني زيان ص ٥٢٨ - ٥٢٩
(٩) نفسه : [illegible] ٥٣٣
(١٠) نفسه : ص ٥٣٥
(١١) نفسه : ٥٣٥ و ٥٣٤
(١٢) لورين : المرجع السابق، ص ٣٠

محسن الذى اسره السعديون كما تقدم (١). ثم خلعوه في يوليه ١٥٥١ (رجب ٩٥٨ هـ)، وارسلوه الى الجزائر مع وزيره الاكبر (مزواره) بدعوى ان هذا الوزير كان يقيم علاقات مع القائد منصور بن ابي غانم، واخيه الذى كان عند الشريف محمد الشيخ (٢). وبذلك وضع نهاية لحكم الزيانيين في تلمسان الذى استمر ثلاثة قرون ونيف (١٢٢١ - ١٥٥١ م) (٣).

وقد كان لانهزام السعديين في بوعزون امام الاتراك العثمانيين نتائج وخيمة بالنسبة لهم، ولعل ابرزها اضافة الى الخسائر الكبيرة التي تكبدوها في الارواح والعتاد :

١- عودة تلمسان الى نفوذ الاتراك العثمانيين، وانحسار نفوذ السعديين الى ما وراء نهر الطوية، وانفتاح باب التدخل المباشر في المغرب امام الاتراك العثمانيين، مما سنبحث فيما بعد بالتفصيل.

٢- اضطراب امر المغرب على السعديين حيث قامت مناطق عديدة ولا سيما في شمال المغرب وشرقه وفي الاطلس الكبير، بالتمرد والثورة عليهم (٤). زعزعت سلطتهم. وتطلب اخضاع هذه المناطق من جديد جهودا كبيرة منهم، اذ كشفت هزيمة السعديين امام الاتراك العثمانيين ان محمدا الشيخ السعدي قد تسرع في اثارة خصم قوى عليه، قبل ان يستقر له الامر تماما في المغرب، وقبل ان يقضي نهائيا على بعض مناوئيه فيه، سواء من فلول الاسرة الوطاسية كأبي حسون امير بادس، ومولاى عمار امير دبدو والاسبانيين، وغيرهما، او من الاسرة السعدية نفسها، كاخيه احمد الاعرج وابنه زيدان، او معارضي سياسته الضريبية، كشيوخ الاطلس الكبير، وجبال الريف (٥). ولم يتردد بعض هؤلاء المناوئين كمولاى عمار وابي حسون الوطاسي، من اجل استرداد ملكهما من السعديين، في طلب المساعدة من القوى المجاورة للمغرب والمعادية للسعديين، كالاتراك العثمانيين في الجزائر الذين استجابوا لهم وتدخلوا الى جانبهم في المغرب.

٣- التدخل العثماني في المغرب :

اشير سابقا الى ان التدخل السعدى في تلمسان والغرب الجزائرى قد فتح باب النزاع المسلح بين السعديين والاتراك العثمانيين في الجزائر على مصراعيه، وكذلك باب التدخل المباشر كل في بلد الاخر. اذ فور استرجاع الاتراك العثمانيين في تلمسان من السعديين اخذوا يدبرون في التدخل السافر في المغرب. وقد بدأوا تدخلهم اولا بالاتصال بالمناوئين

(١) م.م. ستم اسبانيا جـ ١ ص ٥٣٥
(٢) نفسه : ص ٥٣٥ الى ٦٠٢
(٣) باربيه والجنتي وغيرهما يجعلون نهاية الدولة الزيانية في سنة ١٥٥٤ م على يد صالح رايس. وكوريس المرجع السابق ص ١٢٩،
(٤) م.م. ستم اسبانيا جـ ١ ص ٥٤٤، ٥٥٣، ٦٠٢، ٦٠٥ ومن هذه الثورات : ثورة في درن بالاطلس الكبير، ثورة القبائل العربية والبربر في امارة دبدو وثورة قبائل جبل تطوان، ثورة قائد بادس، ثورة في فاس البالي. الخ
(٥) انظر ف. الحياة السياسية في المغرب.

سعديين ، وفي مقدمة هؤلاء فلول الوطاسيين كمولاى عمار وابي حسون ، بقصد التعاون معهم
السعديين ، والاستفادة من التأييد والولاء الذي كانوا لا يزالون يحتفظون به لدى كثير من
قبائل ، ولاسيما في شمال المغرب وشرقه . فمن تلمسان كتب القائد صفا رسالة الى مولاى
الذي كان لاجئا عند الاسبان في مليلة،منذ ان جرده السعديون من امارته في شهر جويلية
١٥٥٠ (١). في اعقاب احتلالهم لتلمسان ، وطلب منه ان يأتي اليه على جناح السرعة
ليعيده الى امارته ، ولينصبه على فاس التي كان يعتزم المسير اليها لاقصاء محمد الشيخ منها .
كتب رسالة اخرى الى السلطات الاسبانية في مليلة،يطلب منها ان ترسله اليه لنفس الغرض(٢) ،
ثارت القبائل العربية والبربرية لمملكة دبدو وقد ثارت وطردت القائد المعين من قبل الشريف
السعدي ، وبعثت تطلب من مولاى عمار الدخول فورا الى دبدو (٣) .

وقد تمت عودة مولاى عمار بالفعل الى امارته في دبدو دون صعوبة في اوائل مارس
١٥٥١م (٤) . الا انه كان كما تصوره الوثائق الاسبانية علينا غير مخلص للاتراك العثمانيين،
بل صديقا موثوقا به لدى الاسبان ، على الرغم من مظاهر الود التي كان يتظاهر بها لهؤلاء
الاخيرين ، حيث كان يهاديهم (٥)، ويراسلهم ،ويزودهم بالمعلومات عما يجرى في المنطقة
يعتزم الاتراك العثمانيون فعله (٦) . ويتجنب كل ما من شأنه ان يثير غضبهم او شكوكهم
اضطر الى ذلك سارع الى تبرير عمله ، وابداء حسن نيته واخلاصهم (٧) . بل انه آل على
نفسه-كما جاء في احدى رسائله الى السلطات الاسبانية في مليلة-ان يؤخر الاتراك العثمانيين
المسير الى فاس،حتى يأتيه الجواب من الاسبان، بخصوص توجههم لحملة لاحتلال فاس قبل
يحتلها الاتراك (٨) . ويبدو ان هؤلاء ادركوا حقيقته فلم يخابروا بحملة الى فاس لتنصيبه
كما كانوا يعتزمون ان يفعلوا . ولم يتحمسوا حتى لانقاذه من حملة سعدية اطاحت به عن
امارته للمرة الثانية في اكتوبر ١٥٥١م (٩) . الامر الذي جعله لا يتوجه اليهم ولا الى الاسبان
في مليله كالمرة الاولى وانما الى الصحراء (١٠). في انتظار تطور الاحداث في المنطقة ،
وانتهاز الفرصة الملائمة لاستعادة امارته . الا ان الاتصالات بينه وبين الاتراك لم تنقطع تماما (١١) .
وحدثت في هذه الفترة محاولة اخرى من قبل الدولة العثمانية لكسب الشريف محمد الشيخ عن
طريق الود . فقام السلطان العثماني بعزل حسن بن خير الدين بدعوى انه ((لم يحسن

---

(١) م.م.م.ع. اسبانيا ص ٤٤٣
(٢) نفسه ص ٥٣
(٣)(٤) نفسه : ص ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠
(٥) نفسه ص ٥٤٩
(٦) نفسه ص ٥٤٠ ، ٥٥٧
(٧) نفسه ص ٥٩٩ — ٦٠٢
(٨) نفسه : ص ٥٥٧ — ٥٥٩
(٩) نفسه ص ٦١١
(١٠) نفسه ص ٦١١ — ٦١٤
(١١) نفسه ص ٦٤٤ — ٦٤٨

مجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ، ونبذ وراءه طرق الوفاق والائتلاف ، وسد باب الاتحاد مع المجاهدين ، ومعاداة الدين . . .) (١).

ولا يبدو في الواقع انه السبب الحقيقي والوحيد للعزل . ورغم صراحة الوثيقة فالمصادر المعاصرة تشير ايضا الى دسائس الصدر الاعظم رستم باشا ، والى دسائس السفير الفرنسي . وقد يكون تقاعس حسن بن خير الدين عن تقديم العون الى درغوث رايس لمواجهة الهجومات الاسبانية سببا قويا ايضا (٢) في لعزله . واخيرا فان موقف خليفة حسن بن خير الدين من السلطان السعدي لم يكن اقل تشددا ـــــــــــــــــ يضعف من اهمية السبب الذي اوردته الوثيقة العثمانية لعزل حسن بن خير الدين . وقد كان الذي حل محله هو صالح رايس الذي أمره السلطان العثماني حسب الوثيقة السابقة الذكر (باقامة الدين الشريف واحياء تواتر سيد المرسلين وصون الرعايا . . . وان يكون مع الاهالي على اكمل اتحاد واجمل اتفاق (٣) . وارسل السلطان العثماني الى الشريف السعدي ، العالم الصالح ابا عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر بقصد المهادنة وتحديد الحدود بينهما (٤) . وابدى له كما تبين ذلك من خلال رسالته اليه حرص الدولة العثمانية ، ورغبتها الاكيدة في توحيد كلمة المسلمين ضد الكفار قائلا : (على ان اقصى مراد حضرتنا العلية احياء مراسم الاسلام ، واطفاء نائرة الكفرة اللئام ، وذلك المراد يكون باتفاق امراء الاسلام واتحادهم احياء شرع سيد الانام) (٥) .

مما يعني عزما صريحا منه لاقامة تحالف مع الشريف السعدي . ولكن الامور كما سنرى فيما يلي اخذت تطورا معاكسا اذ قامت الجزائر بمهاجمة المغرب .

الحملة الجزائرية الاولى على المغرب 960 هـ - 961 هـ / 1553 - 1554م

ان علاقة ابي حسون علي الوطاسي مع اتراك الجزائر العثمانيين قديمة ، تعود الى عهد خير الدين كما رأينا . وقد كان هو المحرض للوطاسيين على تقديم ولائهم للسلطان العثماني سليمان القانوني ، في اعقاب الكارثة التي لحقتهم على يد محمد الشيخ السعدي في معركة بوعقبة سنة 1545م كما رأينا . كما كان هو المحرض لهم على توجيه دعوتهم للسلطان العثماني

(٥) انظر رسالة سليمان الى محمد الشيخ في المجلة التاريخية المغربية عدد ٢ تونس ١٩٧٤ ص ١٢٦

(٢) انظر عن اسباب العزل هايدو ملوك الجزائر ص ٨١ . دوغرامون تاريخ الجزائر ص ٧٧-٧٨ وعزيز سامح الاتراك العثمانيون . . . ص ٤٥

(٤) الافـــراني ، النزهة . . . ص ٤١ - ٤٢ وانظر عن الخروبي ابن عسكر : دوحة الناشـــر ص ٦٢

للتدخل لدى محمد الشيخ لاطلاق سراح السلطان الاسير ، ولكن عدم تحرك السلطان العثماني واتراك الجزائر بفعالية ، ضعضع ثقة الوطاسيين في العثمانيين،ولذلك فان ابا حسون الذى نجا من قبضة محمد الشيخ لدى حصاره لفاس ، لم يتوجه مرة اخرى وعلى الفور لطلب العون من الاتراك العثمانيين بل التجأ اولا الى الاسبان والبرتغاليين،وحاول استغلال مخاوفهم من تزايد خطر السعديين ، واحتمال تعاونهم مع اتراك الجزائر في خطة مشتركة ضد الاسبان في وهران والمرسى الكبير ، ثم المواقع الاخرى (١). وتشير الوثائق الى [illegible] ابا حسون قد دخل في اتصال مع مبعوث الملك البرتغالي اليه حين كان لا يزال في بادس [illegible] ٣/٤/١٥٤٩م ، وقد عرض المبعوث المذكور على ابي حسون استمداد البرتغال لمساعدته ضد محمد الشيخ (٢). ولكن قيام ثورة ضده في بادس موالية لهذا الاخير اجبرته على الا[illegible] الى طليلة لاجئا عند الاسبان فيها (٣) وعرض على الاسبان ان يسلمهم بادس (٤). ان هم ساعده [illegible] استرجاع ملك الوطاسيين ، فلم يجد اذنا صاغية ، وقرر الانتقال(٥) الى مقابلة ماكسيمليان [illegible] كان يحكم اسبانيا بالنيابة عن شارلكان الذي كان في المانيا . وفي مالقا توصل الى ا[illegible] مبعوث الملك البرتغالي في ٢٦/٩/١٥٤٩م يسلم هذا الاخير بموجبه قاعدة آصيلا التي [illegible] تم التنازل عنها ، له ، مع (٦) المدفعية وخمسمئة مقاتل وستين فارسا ، شريطة ان [illegible] ابو حسون على ألف جندى اسباني . ف[illegible] ذهب لمقابلة ماكسيمليان في بلد الوليد باسبانيا في [illegible] مساعدة بالعدد المذكور من [illegible] الجنود ، فلم يلق عنده القبول (٧). واعتقد ان [illegible] لم يكن افضل عند شارلكان فذهب لمقابلته في المانيا وهناك اصيب بخيبة اكبر لان شارلكان [illegible] في حرب ضد اللوثريين ، رفض ايضا طلبه (٨) . وذلك فيما يبدو خشية من ان يؤدى عونه له الى حصول تقارب سعدى — عثماني كبير ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية ، او رغبة منه في استمالة الشريف السعدى اليه — وقد حصل بالفعل بين الطرفين الاسباني والسعدى تقارب فيما بعد كما سنرى — او بكل بساطة لان الاسبان ، كانوا احوج مايكونون لجمع قواتهم في حروبهم القارية التي تكاد لا تنتهي ، او لانه نظر الى ان الف جندى لن تغني ابا حسون ، ولن تمكنه من استرجاع ملك الوطاسيين بل من المتوقع ان تفقد هذه المساعدة ابا حسون كل تأييد شعبي ، ((فتجتمع كلمة المسلمين عليك ويتفق رأيهم على قتالك ، فيقاتلوك ويباعدوا فيمن معك ، ويقاتلك الصديق قبل العدو))(٩).

ومهما تكن الذريعة فان البرتغاليين لم ينتظروا عودة الجزيرة عن آصيلا والقصر الصغير وموقع سينال ، في مايو سنة ١٥٥٠م (١٠). وبعد شهور قليلة من رفض شارلكان مساعدة ابي

(١) انظر حول المخاوف الاسبانية والبرتغالية م. م. وثائق اسبانيا ج١ ص١٥١-١٥٣ ، ٢٤٧-٢٤٩ — ٢٥٢ ، ولريزد و سوزا المرجع السابق ص١٠١ — ١٠٢
(٢) م. م. وثائق اسبانيا ج١ ص٢٣٢ و هامش ٢
(4)Abbé Boulet:Hist. de l'Empire des Chérifs en Afrique,P.P. 57-58
(٥) كان انتقاله في يوليه ١٥٤٩م انظر م. م. وثائق اسبانيا ج١ ص٤ هامش ١ ، نفسه
(٦) نفسه ص[illegible] و سوزا المرجع السابق ص١٠٢ — ١٠٣
(٧) م. م. وثائق اسبانيا ص٢٧٢ هامش ٢
(٨) نفسه [illegible] هامش ٢ سوزا المرجع السابق ص٤ ، طوريس المرجع السابق ص[illegible]
(٩) المجهول : المرجع السابق ص١٦-١٧ (١٠) سوزا المرجع السابق ص[illegible]

حسون بالرجال ، في حين كانت عودة هذا الامير برتغـــالية الاخير فيليب في ١٢/٧/١٥٥١م وفي هذا التاريخ كان النزاع بين محمد الشيخ واتراك الجزائر قد نشب بسبب تلمسان، وقامت في اثر انهزام السعديين ثورات عديدة في جهات مختلفة وجاءته الى اسبانيا رسائل عديدة ، تحثـــه على العودة الى بادس ، من قائدها ومن غيره لقيادة صفوف الثائرين على السعديين، فقرر الدخول الى المغرب ونقلته الى بادس خمس سفن برتغالية عليها ٣٠٠ من البرتغاليين (١) وبينما كانت هذه السفن تستعد للاقلاع ، اذا بصالح رايس الذي كان قد خرج للغزو البحري في طريقه نحو قادس (٢). يهاجمها ويتمكن من الاستيلاء عليها وأسر من بقي على قيـــد الحياة من الاعداء ، ويقتاد الجميع نحو الجزائر ، وفشل ابو حسون في الوصول الى التفاهم معه على اطلاق سراح البرتغاليين الذين رافقوه (٣).

وقبل عودة صالح رايس الى الجزائر ، دخل مدينة بادس ، وفتح له حاكمها القائد موسى التابع لمحمد الشيخ السعدي ابواب المدينة (اما خوفا من الدخول في حرب معه أوتحسبا للمستقبل . ووعد للقائد المذكور ، انه في سلام مع الشريف السعدي ، وانه لم يأت بنية الحرب او الفتح ، وقبل مغادرته لبادس ، ترك السفن البرتغالية التي استولى عليها فيها هدية لمحمد الشيخ بكل اسلحتها واجهزتها ، وابدى رغبته في استمرار المودة بينه وبيـــن السلطان السعدي ، ورجاه الا يجتاز ابدا جبال الطوية التي تفصل بين المملكتين ، وان يمنع الحرب تابعين له من الحاق اضرار بمقاطعة تلمسان التابعة للاتراك العثمانيين (٤).

ويبدو ان صالح رايس قد لام ابا حسون على التجائه الى النصارى ، وعلى طلب العون منهم بدلا من طلبه من السلطان العثماني ، واتراك الجزائر العثمانيين . ولذلك فان الوطاسي المذكور لم يلبث ان التحق بصالح رايس في الجزائر يرافقه اصغر ابنائه ، ليطلب منه مساعدتـــه على استرداد ملك الوطاسيين (٥). وكان وصوله الى الجزائر في الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر ١٥٥٢م ، في الوقت الذي كانت فيه سفارة عثمانية في المغرب برئاسة محمد بن علي الخروبي، تعقد سلاما بين محمد الشيخ السعدي والاتراك العثمانيين في الجزائر ، وتتفق معه علـــى الحدود ، وتحرص على التوصل الى التحالف بين القوتين الاسلاميتين المتجاورتين ضد الكفار.(٦) واذا صدقنا رواية المجهول، صاحب تاريخ الدولة السعدية فان سلطان النصارى هو الذي اقترح على ابي حسون ان يذهب الى الجزائر ، ويطلب المساعدة العسكرية من اتراكهـــــا (٧).

(١) م.م.م. متم اسبانيا ج٢ ص٣٦-٣٧
(٢) نفسه : ص٣٨ - ٤٠
(٣) آ. براون : المرجع السابق ص١٠٣ - ١٠٤ و م.م.م. متم ج٢ ص٣٦ - ٣٧ (معركة بادس)
(٤) عايد و : المرجع السابق ص٨ و Berbrugger: Des frontieres de l'Algerie, in R.A., No.24 Alger 1860, P.P. 401-417.
(٥) م.م.م. متم اسبانيا ج٢ ص٣٦ (معركة بادس)
(٦) نفسه : ج٢ ص٤٠ و ٤١ وحسب الوثيقة فان السلام قد عقد في ٢/١١/١٥٥٢ وانظر عايد و المرجع السابق ص٨ ونفسه أن الحدود المتفق عليها هي جبال ملوية المواجهة لطيلة
(٧) المجهول : المرجع السابق ص١٧

ي رواية لا تنسجم مع حرص الاسبان والبرتغاليين على عدم اتاحة الفرص للاتراك للتدخل في المغرب القريب بدءا من بلادهم . وقد يكون غرضهم من هذه النصيحة اثارة نزاع جديد بين السعديين والاتراك ، واحباط المساعي الرامية الى تحقيق سلام بين القوتين المتجاورتين ، التي كانت على قدم وساق ، والهائهما عن توجيه انظارهما نحو اسبانيا) التي كان امبراطورها غارقا في الحروب الدينية . ويضيف المؤلف المذكور ان سلطان النصارى وعد ابا حسون بتقديم المال اللازم لاغراء الاتراك على القيام معه بحملة ضد السعديين ، (والمال الذى تحتاجه اقسمه على ثلاثة اقسام ، القسم الاول وهو الاكبر تدخل به الى الجزائر والقسم الثاني يلقاك ويضمن ... من وهران ، والقسم الثالث يخرج لك من مليلة ...) (1) . ونجد في الوثائق ان الامير فيليب امر بأن يسلم سنويا الى ابي حسون مبلغ ثلاثة آلاف دوكات مقسمة على ثلاثة اقسام على ان يعطي اقساط عام ١٥٥٢ دفعة واحدة (٢) . مما يعزز رواية المؤلف المجهول . لكن كيف قوبل طلب ابي حسون مساعدة الاتراك العثمانيين له في الجزائر ؟

على العكس مما قد يتبادر الى الذهن فان صالح رايس لم يوافق فورا على طلب ابي حسون ، بل لقد رفضه في بادئ الامر (٣) ، ولا سيما انه كان يعتمد لحملة على الجنوب الجزائري (٤) وانه بعد عودته اصطدم بأمير بني عباس الذى كان قد اشترك معه في الحملة على الجنوب . لكن ابا حسون لم يفقد الامل ، ولجأ الى اسلوب دمج فيه بين الاغراء والاستعطاف ، (لم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسنام ، ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظمها في اعينهم ، ويقول لهم ، ان ملكها اليوم استلبني ملكي وملك آبائي ، وغصبني تراث اجدادي ، فلو تبعتم معي الى قتاله عسى الله ان يتيح لنا النصر عليه ، ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه ، ولا تعدمون انتم من ذلك منفعة من ملء ايديكم غنائم وذخائر ، وواعدهم بمال جزيل ، فاقبلوا معه في جيش حفيل (٥) . وهذا في خريف ١٥٥٣ / ٩٦٠ هـ . (٦)

الا انه لا يبدو ان الدافع الحقيقي لاستجابة اتراك الجزائر وعلى رأسهم صالح رايس لطلب ابي حسون اخيرا هو مجرد الطمع في المال والغنائم التي وعدهم بها هذا الاخير ، بل ان الدافع الحقيقي الذى كان يرمي اليه اتراك الجزائر العثمانيون من وراء تأييدهم لآخر الوطاسيين ، ومساعدتهم وتبني قضيتهم ضد السعديين ، هو اضعاف جيرانهم في المغرب

---

(١) نفسه : ص ١
(٢) م.ن.م. تشم اسبانيا : ج ٢ ص ١١ - ١٢ هامش ٢
(٣) هايدو والمرجع السابق ص ٩٤
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٥) الافراني : المرجع السابق ص ٣٠
(٦) م.م.م. تشم اسبانيا ج ٢ هامش ١

ليسهل عليهم بسط نفوذهم عليه (١). فالحملة الجزائرية العثمانية على المغرب كما اشار الى ذلك طوريس وهو من المعاصرين لها لم تكن لدعم سلطان فاس الاسبق (ابي حسون) ولكن لاغتنام الفرصة لتخريب ملك الشريف محمد الشيخ ، الذي رفض في الماضي الامتثال لاوامر السلطان العثماني سليمان القانوني (٢). ثم ان ابا حسون لم يغر أتراك الجزائر بالمال والغنائم فقط ولكن ايضا بالتبعية للدولة العثمانية (٣) ـ وهو ما كان يرفضه محمد الشيخ السعدي وما يقوة ـ وبالتنازل لهم كذلك عن المراسي والموانئ (٤). ولذلك فان اتراك الجزائر انتهزوا هذه الفرصة الشهدة التي تمكنهم من تحقيق بعض ما كانوا يهدفون اليه ، وساروا مع ابي حسون في حملة كبيرة . ولم تعوزهم المبررات لخرق اتفاق السلام الذي انعقد بينهم وبين السعديين المتوفى في نوفمبر ١٥٥٢ . فقد اتخذ صالح رايس من اجتياز عدد من المغاربة الحدود الغربية للجزائر ، واغاراتهم على مقاطعة تلمسان مبررا للقيام بحملة كبيرة على المغرب ، بغض النظر عما اذا كانت الاغارة المذكورة قد تمت بعلم الشريف محمد الشيخ السعدي وموافقته ، ام بغير ارادته ، وبدون رضاه (٥). ومن المستبعد ان تكون الاغارة المذكورة ، ان حصلت فعلا قد تمت بموافقة الشريف او تحريض منه ، ذلك انه كان منشغلا حينئذ بمحاربة ابن اخيه زيدان ابن احمد الاعرج (٦) وبتهدئة بربر الاطلس الكبير (٧) ، ولم يكن في حاجة الى اثارة الاتراك ايضا عليه ، ولاسيما انه قد خبر قوتهم العسكرية منذ سنين .

وقبل القيام بالحملة على المغرب حرص صالح رايس على اتخاذ الاحتياطات الضرورية للاطمئنان على الجزائر خلال غيابه عنها من الثائرين والمتمردين ، وفي مقدمة هذه الاحتياطات استمالته لابن القاضي امير كوكو ، وعقده السلام معه (٨). بغية اتخاذه لجاما لامير بني عباس الذي استمر ثائرا على الاتراك منذ عودته من ورجلة ، وتوفرت في الجنوب الجزائري اذ كان بين الاميرين تنافس وعداء تقليديين . كما حرص على توفير شروط النجاح لحملته على المغرب ، مما يدل على انه كان مصمما على مد نفوذه الى المغرب واستيعابه ، فاعد قوات برية كبيرة كانت تتألف من اربعة آلاف من حملة البنادق والف من الصبايحيين الفرسان ، واربعة آلاف من الفرسان العرب ، بعث امير كوكو بقسم كبير منهم وبعث غيره من رؤساء العرب القسم الآخر ، وثمانين من الجنود النصارى الاسرى لديه ، وعدهم بالحرية مقابل عنايتهم

(1) Colomb(M.):Le passé de l'Algérie.
in Initiation A l'Algérie,P.102.

(٢) طوريس : المرجع السابق ص ٣٣٤
(٣) المدني : حرب الثلاث مئة سنة ص ٣٤١
(٤) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٥١ – ١٥٣
(٥) هايدو : المرجع السابق ص٩٠

(٦) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص٤٦
(٧) طوريس المرجع السابق ص ٣١١
(٨) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٤ – ٣٥

بعد نصيحته ، واسطول مؤلف من ٢٢ سفينة محملة بالاثقال والرجال (١). وامعانا في الاحتياط اشعر ايضا الاسبان بهدف حملته ، واتجاهها عن طريق حاكم تلمسان (٢). مؤملا بذلك الا يقدموا على عمل معاكس لها . واشعر ابن ابي حسون من جهته اسبانيين، طمأنه لذات الغرض وقام حاكم تلمسان ايضا باخذ الرهائن من القبائل غير الموثوق في اخلاصها ليضمن عونها ، لمها جمايات الجزائر (٣). ولما استكمل الاعداد لحملته اخذ في التحرك برا وبحرا في اتجاه المغرب في اواخر شهر سبتمبر من عام ١٥٥٣ (ذي القعدة) (٩٦١ هـ) وبصحبته ابو حسون (٤).
وعلم خبر وصوله مع هذا الاخير الى تلمسان في فاس بالمغرب في نهاية اكتوبر ١٥٥٣ فاحدث ذلك اضطرابا في البلاد (٥)، ولاسيما في شمال المغرب ، وشرقه ، حيث كان لابي حسون فيها نحو الشمال في فاس (٦)، انصار كثيرون . فعقد الشريف محمد الشيخ، الذي جاء الى فاس من جنوب المغرب في نهاية جويليه ١٥٥٣ فور سماعه باستعدادات الاتراك للتوجه في حملة مع ابي حسون الى المغرب ، ومعه خمسة وعشرون الفا من الفرسان وكثير من المدافع (٧) ، مجلسا للشورى في فاس للنظر في امر مواجهة الحملة الجزائرية . وفي هذا المجلس تغلب الرأي القائل بضرورة التصدي للاتراك قبل توغلهم في المغرب ، حتى لا تشوه سمعة السلطان السعدي ، على الرأي الذي يفضل ترك الاتراك يتوغلون في المغرب حتى يستبد بهم التعب ثم يتم الانقضاض عليهم (٨). وكما تقرر فقد سار الشريف السعدي على رأس قواته الى ان وصل الى تازه بشرق المغرب، قبل ان تصل اليها الحملة الجزائرية، التي توقفت طويلا في تلمسان، وانتظارها هنالك . وفي ٧ /١٢/ ١٥٥٣ حصل اول اصطدام بين القوتين ، وسحقت القوات الجزائرية التي باغتت القوات السعدية بهجوم ليلي ، اول انتصار لها في (عيون سيدي ملوك) على ابواب تازه (٩). الا ان محمدا الشيخ تمكن من الانسحاب الى فاس قبل ان يمنى بهزيمة كاملة ، واخذ يعد للجولة القادمة، وينظم دفاعه عن فاس (١٠). دون ان يهمل القيام بمحاولة للتفاهم مع صالح رايس ، حيث ارسل اليه اثنين من المرابطين لهذا الغرض (١١). ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل حيث ان صالح رايس لم يتوقف عن المسير الى فاس ، بعد

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٩٠
(٢)(٣) م.م.ت.م اسبانيا ج ٢ ص ١١١ - ١١٣
(٤) طوريس : المرجع السابق ص ٣٢٥
(٥)(٦) نفسه : ٣٢٨ - ٣٢٩
(٧) نفسه : ص ٣٢٩
(٨) نفسه : ٣٣٠ - ٣٣١
(٩) نفسه : ٣٣١ و م.م.ت.م ج ٢ اسبانيا ص ١٢١ وحسب هذه الوثيقة فان المعركة قد جارت في الاسبوع الاول من نوفمبر ١٥٥٣
(١٠) م.م.ت.م اسبانيا ج ٢ ص ١٢١
(١١) نفسه ص ١٢٦ - ١٢٧

أن اتخذ الاحتياطات اللازمة للجولة القادمة فترك حامية في تازة (١). لتأمين خط الرجعة، واستقدم عشرة مدافع من رشقون (٢). كما استقدم القسم الاكبر من طاقم السفن الجزائرية (٣) التي كانت راسية في مارشيكا (٤)، وانتظر حتى جاءه ابنا ابي حسون بالقوات التي وعد بها هذا الاخير لتعزيز صفوفه (٥)، وعاد جواسيسه الذين ارسلهم في اثر محمد الشيخ (٦)، وانضم اليه امير دبدو الاسبق مولاي عمار (٧). وفي ٣/١/١٥٥٤ وصلت الحملة الجزائرية الى مشارف فاس، واقامت معسكرها قرب نهر سبو (٨)، وفي الغد هاجمها محمد الشيخ في موقعها، الا انه انهزم بعد معركة عنيفة خسر فيها الطرفان كثيرا، واظهر فيها ابو حسون شجاعة كبيرة (٩). وتجدد القتال في اليوم التالي على مقربة من فاس البالي في المكان المسمى بكدية المخالي، وانهزم السعديون مرة اخرى بعد ان كادوا يحققون النصر (١٠)، وانسحب محمد الشيخ الى فاس الجديد. ويعزو الفشتالي سبب الهزيمة الى انفضاض كتائب عرب الخلط وسفيان ومختار من حول محمد الشيخ، والتحاقهم بأبي حسون في اثناء المعركة. "فكان خذلان العصابة المرينية سبب نكوصه ولحاقه بمراكش" (١١)، وفي الوثائق الاسبانية مايؤيد ذلك، وفيها اشارة الى انتقال ٦٠٠ تركي من جيش الشريف محمد الشيخ الى جيش صالح رايس (١٢). ولما تأكد محمد الشيخ ان الفاسيين قد مالوا عنه الى ابي حسون وبعثوا في طلبه، وان هذا الاخير دخل البلد البالي مع صالح رايس وسط ترحيب كبير من اهله (١٣). انسحب ليلا من فاس الجديد حتى لا يحاصر فيه، وتوجه الى مراكش (١٤).

وقد دخل صالح رايس وابو حسون الى فاس في صباح اليوم التالي ١ صفر ٩٦١ هـ / ١/٦/١٥٥٤ (١٥). وجاءت وفود القبائل واهل فاس لتقديم التهنئة بالفتح والظفر والسلامة لهما ولمبايعة ابي حسون (١٦).

---

(١) [illegible] ١٢٧
(٢) كانت السفن الجزائرية قد انرغت في هذا الميناء الجزائري عشرين مدفعا انظر المصدر السابق [illegible] ١١٧ - ١٣١ و ١٣٦
(٣) نفسه [illegible]
(٤) مارشيكا مرسى يقع الى الغرب من مليلة تعودت السفن الجزائرية الرسو فيه انظر عنه المصدر السابق [illegible] ١٥٥ - ١٥٦
(٥) احضر ابنا ابي حسون قوة تتألف من ٦٠٠ مقاتل من حملة الرماح انظر طوريس ص ٣٣٦
(٦)(٧) نفسه
(٨) نفسه [illegible]
(٩) نفسه : [illegible] - ٣٥٦ و م.م.ع.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ - ١٣٠
(١٠) طوريس : نفس المرجع ٣٥٧ - ٣٥٨ و م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ - ١٣٠
(١١) الفشتالي : مناهل الصفا ص ١٠
(١٢) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٦٠ - ١٦١
(١٣) [illegible] : المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ وطوريس : المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢
(١٤)(١٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ - ١٣٠ وطوريس نفس المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢
(١٦) [illegible] : المرجع السابق ص ١٩

استقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده مايستولون عليه (١). واستولى هو على ما وجده في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢). وقدرها الجنابي بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبدين فيه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينما كان محمد الشيخ يرقب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب ويعد العدة لمجابهة الموقف الجديد فقد بادر بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون وفراره من فاس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين، عن طريق حاكم مازاكان، بهدف الحصول على ١٢٠٠٠ مقاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط أن يتخلى له محمد الشيخ على جميع الموانئ . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ماسنذكر رفض تسليم اي ميناء ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط، في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر، ثم طالت، فامن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسل صالح رايس بموافقة ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسبق بين الطرفين - قائدا استولى على باديس وحجرها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون ان يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين، باسم الشريف السعدي، قد فرا منهما، بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ، وانهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس بادس والبينون (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسة (١٠) وغيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانى والمراسي في مملكة فاس، قد غدت بين ايدي الاتراك، خلال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذي اثار في عينها مخاوف الاسبان، وقلقهم، ولا سيما مخاوف البرتغاليين، فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان من طريق سفير هذا الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب، قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيه،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٥٠ - ١٥٢ وانظر طوريس الذي يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص٣٦٨
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٣٦٢
(٣) الجنابي في المرجع السابق ص٢٣٨
(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص١٥١ - ١٥٣
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٣
(٦) نفسه ص ٢٥١ - ٢٥٢ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص ٢ ريكوزا المرجع السابق ص١٩٨
(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٤٦ - ١٤٨ و ١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص٣٦٦ - ٣٦٧ .
(٨) طوريس المرجع السابق ص٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٣٢ - ١٤٨ م.م
(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣
(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٥٧ - ١٥٩

استقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده ما يستولون عليه (١). واستولى وعلى ما وجده في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢). قدرها الجنابي بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبدين ... يه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينما ان محمد الشيخ يراقب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب، وبعد العدة لمجابهة الموقف الجديد فدخل بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون وفراره من فاس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين عن طريق حاكم مازاكان بهدف الحصول على ١٢٠٠٠ قاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط ان يتخلى له محمد الشيخ عن بعض الموانئ . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ما سنذكر فلم تسلم اي ميناء ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر، تم طالت فامن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسل صالح رايس بحوالي ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسبق بين الطرفين - قائدا احتل بادس وحصنها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون ان يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين باسم الشريف السعدي قد فرا منهما بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ، وانهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس بادس والمينون (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسة (١٠) وغيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانئ والمراسي في مملكة فاس قد غدت بين ايدي الاتراك خلال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذي اثار في حينها مخاوف الاسبان وقلقهم ولا سيما مخاوف البرتغاليين فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان عن طريق سفيره الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيه ،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٥٠ - ١٥١ وانظر طوريس الذي يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص٣٦٦
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٣٦٦
(٣) المصدر الزياني المرجع السابق ص٣٣
(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص١٥١ - ١٥٣
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٣
(٦) نفسه ص٢٥٠ - ٢٥١ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص٢ وسرزا المرجع السابق ص١٩٨
(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨ و١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص٣٦٦ - ٣٦٧
(٨) طوريس المرجع السابق ص٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٢٦ - ١٢٨ م.م
(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣
(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٥٧ - ١٥٩

استقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده مايستولون عليه (١). واستولى هو على ماوجده في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢). وقدرها الزياني بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبدين فيه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينما كان محمد الشيخ يراقب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب، وبعد العدة لمجابهة الموقف الجديد فقد قام بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون، وفراره من فاس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين، عن طريق حاكم مازاكان، بهدف الحصول على ١٢٠٠٠ مقاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط أن يتخلى له محمد الشيخ على بعض المراسي . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ماسنذكر رفض تسليم اي مرسى ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط، في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر، ثم طالت، تأمن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسل صالح رايس بمرافقة ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسبق بين الطرفين - قائدا استولى على بادس وحجرها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون ان يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين، باسم الشريف السعدي، قد فرا منهما بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ، وانهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس بادس والبينون (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسه (١٠) وغيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانى والمراسي في مملكة فاس قد غدت بين ايدى الاتراك، خلال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذى اثار في عينها مخاوف الاسبان، وقلقهم ولاسيما مخاوف البرتغاليين، فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان عن طريق سفير هذا الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب، قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيه،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ [illegible] ١٥٣ وانظر طوريس الذى يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص٣٦٨
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٣٦٧
(٣) الزياني : الترجمان ، المرجع السابق ص٣٣
(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص١٥١ - ١٥٣
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٣
(٦) نفسه [illegible] - ٢٥٢ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص٢ وسوزا المرجع السابق ص١٩٨
(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨ و١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص٣٦٦ - ٣٦٧ .
(٨) طوريس المرجع السابق ص٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٢٦ - ١٤٨ م.م
(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣
(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٥٧ - ١٥٩

أكثـــر (١). كما كتب الى أبي حسون الذى كانت تربطه به صداقة منذ أن كان في البرتغال يوضح له خطورة الامر (٢).

ولكن العلاقات بين اهل فاس والاتراك وبين ابـــي حسون وصالح رايس لم تلبث ان تدهورت واسباب ذلك :

ـ التصرفات السيئة للاتراك في مدينة فاس ، ومقابلة الفاسيين لها بالعنف ، فأهل فاس سرعان ما تذمروا من الاتراك ، وتضايقوا منهم لسوء فعلهم ، وقبح صنعهم (٣). حيث كانوا ينهبون ما شاؤوا ، ويعتــــدون على النسوان والصبيان ، وكثرت شكاياتهم منهم ، ولما كانت احكام ابي حسون مرفوعة عنهم ، فقد صار اهل فاس يقتلونهم ويخبؤونهم ، ويدخلون عليهم الـــلا فيقتلونهم في مواضعهم ، فمات منهم جماعة كثيرة (٤). الامر الذى كاد يؤدى الى قيام حرب بين الطرفين لولا ان ابا حسون تدخل لدى صالح رايس ، واوضح له تذمر الفاسيين من تصرفات الاتراك (٥). وفي اثر ذلك تجمع الاتراك كلهم في فاس الجديد بعد ان كانوا منتشرين في ديار المخزن ، وديار المساجد والفنادق في فاس البالي (٦).

ولكن ما اثر على العلاقات بين ابي حسون وصالح رايس هو رغبة هذا الاخير في الاحتفاظ بالسلطة والبلاد ، ومحاولته استبعاد ابي حسون من السلطة ، وتقربه من محمد الشيخ السعدى نيبالاتراك الذين شاهدوا ، وعلى رأسهم صالح رايس لما رأوا محاسن البلاد المغربية ، ومنعتها ، تحمسوا اكثر الى الاحتفاظ بها (٧) ، فارسل صالح رايس وهو في فاس سفينتين بقيادة العلج علـــي محملتين بالغنائم والهدايا الى السلطان العثماني ، والى الشخصيات الهامة في الدولة وطلب قوات كثيرة (٨) ، واسطول كبير للاستيلاء على كل المغرب ، وتحرير كل القواعد المحتلـــة من قبل الاسبان . وفي انتظار ذلك قبض على ابي حسون ، وعلى حاشيته وسد ابواب فـــاس الجديد واخرج سكانه منها (٩) ، ولكن اهل فاس البالي ثاروا وزحفوا في جموع كبيرة ، ومختلف الاسلحة الى فاس الجديد ، وطالبوا الاتراك باطلاق سراح ابي حسون ، وهددوهم بمحاربتهـــم ، فاضطر صالح رايس الى الاستجابة لطلبهم (١٠).

---

(١) (٢) م.م. متوم اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨
(٣) (٤) المجهول : المرجع السابق ص ١٩
(٥) طـــريس : المرجع السابق ص٣٧١
(٦)(٧) المجهول المرجع السابق ص١٩
(٨) م.م. متوم اسبانيا ج٢ ص١٥١ - ١٥٣ و ١٦٤ - ١٦٥
(٩) المجهـــول : المرجع السابق ص١٩ - ٢٠
(١٠) نفســـه :

في رواية اخرى للاحداث ان صالح رايس حاول ان ينصب على عرش فاس ابا بكر ابن السلطان احمد الوطاسي ، وقد كان موضع تقديرله به حتى انه اصهر اليه في ابنته . ولعله كان اقل دهاء من ابي حسون بحيث يمكن السيطرة عليه وتوجيهه . الا ان الفاسيين لم يرضوا بذلك فخلعه ونصب ابا حسون (١) . ولكن هذا الاخير لم يكن السيد الحقيقي طوال اقامة صالح رايس في فاس، اذ كانت كل الامور تسير باسم السلطان العثماني ، وموافقة صالح رايس اكانت امورا ادارية وغير ذلك . اذ كان بمثابة الملك وابو حسون بمثابة الخليفة (٢) . مما جعل هذا الاخير يبادر الى جمع المبلغ المالي الذي وعد به الاتراك، وقدره أربعمئة الف مثقال ، ثمن تكاليف الحملة حتى يعودوا وينفرد هو بالسلطة (٣) .

وبينما كان ابو حسون يجمع المال المذكور،كان صالح رايس يحاول تجديد الاتصال بالشريف محمد الشيخ ، وتحسين علاقاته به ، ولعل ذلك كان بهدف احباط المفاوضات التي كانت جارية بين هذا الاخير والبرتغاليين ، وغايتها تزويده بقوات كبيرة مقابل تنازلات مهمة كما تقدمت الاشارة اليها . ومن الخطوات التي سارها في هذا الاتجاه : ارساله محمد الشيخ ، واولاده الى مراكش معززين مكرمين ، واطلاقه سراح من كان منهم في الاسر (٤) . واطلاقه سراح المرابط آفوغـول (Afogol) وهو من كبار مؤيدي الشريف ، بعد سجنهم (٥) بسبب الاتصالات التي كان يجريها مع هذا الاخير ، وتعطلها لاثارة القبائل العربية على الاتراك . وتعهده لمحمد الشيخ بعدم التدخل او تقديم العون لخصمه ابي حسون اذا ماهاجمه بعد رحيله عن فاس (٦) .

واذا كان من المستبعد ان يتوصل صالح رايس الى اتفاق سلام او تعاون مع محمد الشيخ بعد كل ماحدث من صراع دموي، ومن تشريده عن مملكة فاس مما رسخ كراهيته للاتراك ، فان الشائعات سرت على انهما على وفاق (٧) . وانهما يخططان لعمل مشترك ضد البرتغاليين، الامر الذي لم يكن ليبعث الارتياح في نفس ابي حسون، او ليجعل العلاقات بينه وبين صالح رايس تتوثق وتتوطد . فاسرع الى اداء المال المتفق عليه ، اليه حتى يغادر فـــــاس ، وينفرد بالسلطة فيها . ويبدو ان المدد الذي طلبه صالح رايس على جناح السرعة قد تأخر وصوله او تعذر ارساله ، بينما كان قد مضى على غيابه عن الجزائر قرابة نصف عام ، وكانت ثورة امير

(١) م.م.م. ستوم اسبانيا ج٢ ص ١٣٩ - ١٤٢
(٢) نفسه ص ١٥١ - ١٥٢
(٣) طوريس : المرجع السابق ص ٣٧١
(٤) نفسه : ص ... وهايدو المرجع السابق ص ٩٢
(٥) م.م.م. ستوم اسبانيا ج٢ ص ١٦٢ - ١٦٣
(٦) نفسه ١٦١ وهامش ٢ و ٣ :
Chenier(M.de): Recherches Historiques sur Maures et Histoire de l'Empire du Maroc, t.3 P. 1787 P.P.321-322.
(٧) م.م.م. ستوم اسبانيا ج٢ ص ١٦٤ و ١٦٥ - ١٦٦

بني عباس فيها لا تزال قائمة ، ولعله تناهت اليه ايضا اتصالات الاسبان به ، اذان هولاء
لم يرتاحوا ابدا الى وجود صالح رايس في المغرب، والى سفنه التي كانت تجوب شواطئ
المتوسطية والاطلسية . ولذلك فانه قرر العودة الى مدينة الجزائر بعد ان حصل على المال
المتفق عليه من ابي حسون ، والتزم له هذا الاخير بالولاء للسلطان العثماني . وغادر صالح
رايس مع قواته فاس في اوائل ربيع الثاني سنة ٩٦١ هـ / اوائل مارس ١٥٥٤م (١) . عائدا
الى الجزائر عن طريق الهرادون ان يترك لابي حسون سوى اربعمئة من الاتراك (٢) . وكانت
عودته بخطوات بطيئة ، وفي طريق عودته اعاد مولاى عمار امور دبدو الاسبق الى امارته (٣) .
ولم يتحرك الى مليلة كما فكر ان يفعل حين كان في فاس (٤) . او الى غيرها من القواعد الاسبانية
الا انه اجرى الترميمات اللازمة لتحصينات المراكز الهامة في المغرب الجزائري كتلمسان ومستغانم
وتنس وغيرها (٥) . احتياطا لاى هجوم سعدى او اسباني عليها ، وتمهيدا لتحقيق مخططه
الكبير المتمثل في تحرير كل القواعد المحتلة من قبل الاسبان والاستيلاء على المغرب كله .

لقد كانت النتيجة التي حققتها الحملة الجزائرية الى المغرب سريعة الزوال ، حيث انه
ما ان غادرت الحملة فاس عائدة الى الجزائر حتى انقلب ابو حسون على الاتراك واخذ يحاول
استرداد بادس، وغيرها منهم (٦) ، كما اخذ يتقرب من البرتغاليين ، وينشد صداقاتهم[7] ،
تمهيدا لتأليب دولهم ضد السعديين والوقوف في وجه القوى المجاورة له . ثم ان محمدا الشيخ مالبث
ان هاجم ابا حسون (٨) ، وتمكن من القضاء عليه بسرعة في سبتمبر سنة ١٥٥٤ كما فصلنا ذلك
في فصل الحياة السياسية للمغرب (٩) . ومن استعادة سلطته ونفوذه على فاس وكل مملكتها
تقريبا ، فتقلص بذلك نفوذ الاتراك في المغرب وانحسر عنه كله تقريبا اذا استثنينا بنون بادس
الذى احتفظ به الاتراك عشر سنوات (١٠) . وعاد السعديون الذين لم يضعفهم الاقتتال مع
ابي حسون، يشكلون خطرا كبيرا من جديد على الحدود الغربية للجزائر . اذ اخفق صالح رايس
في استمالة محمد الشيخ اليه على الرغم من المواقف الودية التي ابداها له بعد دخوله الى
فاس ، واخرها عدم قيامه بنجدة ابي حسون كما وعده (١١) . وعدم الحيلولة دون استرجاع
السعديين نفوذهم على مملكة فاس . فظل محمد الشيخ ينظر الى الاتراك نظرة كراهية وحقد
وخوف الامر الذى جعله لا يرفض فقط اى تقارب معهم، ولكن لا يتورع في الوقت نفسه عن التحالف
مع الاسبان ضدهم، وهو الشريف الذى قام على اساس الجهاد ضد الكفار ، ومن وضع مشروع
مشترك بينهما للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر وكل شمال افريقيا كما سنرى .

---

(١) م.م. تشتم اسبانيا ج٢ ص ١٥٤ – ١٥٦ وانظر طوريس المرجع السابق ص٢٧٢
(٢) م.م. تشتم اسبانيا ٢ ١٥٤ – ١٥٦ والمجهول المرجع السابق ص٢٠
(٣)(٤) م.م. تشتم نفس المصدر
(٥) هايدو : المرجع السابق ص٢٠
(٦)(٧) م.م. تشتم اسبانيا ج٢ ص١٦٤ – ١٦٥
(٨) نفسه ١٦٨ – ١٧٠ وطوريس المرجع السابق ص٣٨ والافراني النزهة ص٣١ . ...
(٩) نفسه ١٨٠ ...
(١٠) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٢٥٢ – ٢٦٨ والافراني النزهة ص٤٠
(١١) م.م. تشتم ... ج٢ ص١٥٤ – ١٥٦

التقارب السعدي الاسباني في عهد محمد الشيخ يساعي العثمانيين لاحباطه :

استطاع محمد الشيخ السعدي ان يسترجع فاس ومملكتها من الوطاسيين ، وان يقضي على دولتهم للمرة الثانية بعد فترة قصيرة من عودة الحملة الجزائرية على المغرب الى الجزائر .

الا انه ظل خائفا من الاتراك العثمانيين ، غير مطمئن على ملكه منهم، ذلك لان الاتراك العثمانيين مازالوا يحتلون حجر بادس في شمال المغرب ، وعززوا وجودهم في تلمسان، بوابة شرق المغرب الامر الذي يجعل عملية تدخلهم في المغرب مرة اخرى ان شاؤوا ذلك امرا سهلا ، ولا سيما في فاس ومملكتها ، التي ظل حزب الوطاسيين الموالي للاتراك قويا ، على الرغم من سياسة العنف والتشريد التي اتبعها تجاهه ، حيث (... تحكم في أهل فاس بالاذلال والاهانة ، وادى مسائقه فيهم ، وقهر اهلها بأنواع الافعال ، ونفى اكثرهم للمشرق واجلاهم الى الجبال والبوادي ، وفعل بهم العجائب من الافعال ذوات المصائب ، وقتل الزقاق (١). لما كان ينزع ويميل الى ابي حسون (٢) .)

ولان الاتراك العثمانيين آووا فلول الوطاسيين ، كاحمد ابن ابي حسون وابي بكر بن السلطان الاسير احمد الوطاسي ، واحمد بن بوزكري ابن اخت ابي حسون ، وابناء مولاي زيان ، وغيرهم . (٣) . وقربوا بعضهم اليهم كأبي بكر الذي اصبح صهرا لبايلرباي الجزائر صالح رايس ، وصار هذا الاخير يلبي جميع رغباته ، ولا يرفض طلباته . (٤) . كما آووا شيوخ فاس ومكناسة ، وقادة الغرب المغربي الموالين للوطاسيين كالقائد عبد الحميد العروسي واحمد العطار ، وابراهيم الحسيني ، وعبد الله شقرون ، وغيرهم (٥) . ولم يكن مستبعدا ان ينجح هؤلاء في دفع الاتراك الى المسير مرة اخرى الى المغرب ضده لتنصيب احد الامراء الوطاسيين ، كما فعلوا مع ابي حسون (٦) ، او ان يستغل الاتراك وجود هؤلاء الامراء لديهم فيتدخلوا لاحتلال المغرب بدعوى تنصيب احدهم .

ولان سفارة عثمانية جاءت لتهنئته بالملك في المغرب مباشرة بعد استرجاعه مملكة فاس من ابي حسون ، ولتذكره بما كان عليه الوطاسيون من الولاء للسلطان العثماني ، وتدعوه لان

---

(١) هو ابو محمد عبد الوهاب قاضي الجماعة بفاس واحد خزائن العلم فيها انظر عنه الافراني : المرجع السابق ص ٣٠-٣٢
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٢٢
(٣) م.م.ع.تم اسبانيا ج٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٨
(٤) نفسه : ص ٢٢٢ - ٢٢٣ و ٢٤٨
(٥) نفسه ص ٢٤٦ - ٢٤٨
(٦) جاء في رسالة لسفير شارلكان في البرتغال الى هذا الاخير ان : احد ابناء احمد الوطاسي (ابو بكر قد تزوج بنت باشا الجزائر املا في مساعدته على استرجاع مملكة فاس انظر م.م.ع.تم اسبانيا ج٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣

يكون مثلهم في الميل الى هذا الاخير ، والرغبة فيه ، والود ، والهدايا والخدمة (١) فرفض مطالبهما ، بل انه لم يكتف بالرفض فقط ، وانما استنقص من قيمة السلطان العثماني نفسه ، وهدد بالهجوم عليه حيث قال لرسول السلطان العثماني بعد ان تركه ينتظر طويلا جوابه : " سلم على امير القوارب (كذا) سلطانك ، وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازعك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر ، والسلام " (٢) .

ولا ادل على تخوفه من الاتراك العثمانيين وعدم اطمئنانه الى القاسيين من نقله مقر عاصمته من فاس الى مراكش (٣) . ولما كان الاصطدام مرة اخرى بينه وبين الاتراك العثمانيين امرا متوقعا لديه ، وهو يدرك تفوق الاتراك العسكري عليه ، وضعفه عن مقارعتهم بمفرده ، وامكاناته الخاصة ، ويريد ان يبدأهم قبل ان يبدأوه ، فقد مال الى التقرب من القوى المعادية مثله للاتراك العثمانيين ، للاستعانة بها في الهجوم على هؤلاء والقضاء على وجودهم في المغرب وفي كل شمال افريقيا ، وفي منازعة السلطان العثماني نفسه على محمل مصر كما ذكر او للحصول منها على الاقل على السلام والحياد اثناء مواجهته لعدوه الاخطر ، بغض النظر عن علاقاته السابقة مع تلك القوى ، وعما اذا كان ذلك يتنافى مع المبادئ التي قامت دولته على اساسها .

وقد تقرب محمد الشيخ اولا من البرتغاليين على الرغم من انهم كانوا لا يزالون يحتلون مواقع عديدة على الشواطئ المغربية ، ولكنهم بدوا له اقل خطورة على ملكه من الاتراك ، فعقد معهم اتفاق سلام لمدة ستة اشهر في مطلع سنة ١٥٥٥م كما ذكرنا (٤) ، ثم طال مفعوله اكثر من ذلك . وطلب من الملك البرتغالي جان الثالث عونا عسكريا هاما ولكن هذا الاخير اشترط عليه في مقابل تلبية طلبه شروطا لم يقبلها ، وقد ألمحنا اليها فيما مضى . كما مال الى الاسبان على الرغم من انهم كانوا ايضا لا يزالون يحتلون مليلة في شمال المغرب ، وحاول الحصول منهم على مالم يحصل عليه من البرتغاليين . ولما كان الاسبان مهددين مثله من قبل الاتراك العثمانيين ، الذين انتزعوا بعد حملتهم على المغرب ، يعدون لانتزاع القواعد التي كانت بين ايديهم وهي بجاية ووهران والمرسى الكبير ، وحريصين على الا يمتد النفوذ العثماني الى

---

(١) المصدر : المرجع السابق ص٢٦ - ٢٦
(٢) نفسه : ص٢٦ ويبدو ان رسول السلطان العثماني في هذه السفارة هو ابو عبد الله الخروبي ايضا ، اذ ان هذا الاخير قد قام بسفارتين الاولى سنة ٩٥٩هـ/١٥٥٢م والثانية في سنة ٩٦١هـ/١٥٥٤ (انظر السلاوي . الاستقصاء ج٥ ص٢٦)
(٣) م.س : ص٢٦ م.س. اسبانيا ص٢٢٢ - ٢٢٤
(٤) نفسه .

المغرب لقربه الشديد من اسبانيا ، ولما ينجم عن استقرار الاتراك العثمانيين فيه من اخطار جسيمة عليهم ، ويرغبون مثله في القضاء على الوجود العثماني في كل شمال افريقيا ، هذا الوجود الذي ضرب اقتصادهم البحري ، وعارض مشاريعهم التوسعية في شمال افريقيا وقلص نفوذهم الى حد كبير ، وهدد اوضاعهم الداخلية بما ولده الوجود العثماني في شمالي افريقيا من آمال في نفوس الموريسك . فقد رحبوا بطلبه ووعدوه بالمساعدة على اقامة الحرب على الاتراك العثمانيين (١) ، واخذ الطرفان في التقارب من بعضهم بعضا .

وقد كان الاسبان في الواقع يحاولون استمالة محمد الشيخ اليهم منذ ان تمكن هذا الاخير من القضاء على الدولة الوطاسية اول مرة في مطلع سنة ١٥٤٩ ، بل حتى قبل ان يتمكن من ذلك ، اذ بدا لهم انه الشخصية القوية التي يمكن ان تقف في وجه الاتراك العثمانيين ، اذ هو شريف ، ويتمتع بشعبية اكثر مما كان لغيره من حكام المغرب الوطاسيين ، فتحاشوا كل ما من شأنه ان يدخلهم في نزاع معه ، اويدفعه الى التحالف مع الاتراك ضدهم كالتدخل في صراعه مع الوطاسيين . فهم لم يساعدوا السلطان احمد الوطاسي كما طلب بالحاح قبل ان يفرض عليه محمد الشيخ الحصار في فاس ، ويقضي على دولته ، على الرغم من انه ابدى استعداده لان يكون تابعا لهم اذا ما امدوه بمساعدتهم ، كما كانوا قد امدوا السلطان الحسن الحفصي والسلطان عبد الله الزياني من قبل (٢) . ولم يساعدوا بعد ذلك ابا حسون الوطاسي الذي مكث عندهم اكثر من سنتين يناشدهم ان يقدموا له المساعدة لاسترجاع ملك الوطاسيين من محمد الشيخ ، ولم يساعدوا اخيرا الناصر ابن ابي حسون الذي التجأ اليهم بعد مقتل والده في صراعه مع محمد الشيخ (٣) .

ونتيجة لهذه المواقف الودية فان محمدا الشيخ لم يتعرض بسوء الى القواعد الاسبانية سواء في المغرب او في الغرب الجزائري حين قام ابناؤه بغزو هذا الاخير في اعقاب حملته على تلمسان في الفترة ١٥٥٠ - ١٥٥١ (٤) . ولعل هذه المواقف هي التي جعلت محمدا الشيخ ايضا لا يمضي في تقربه من الاتراك الذي بدأه في اعقاب دخوله الى فاس اول مرة والتجاء ابي حسون الى الاسبان ، والذي كان يستهدف ضرب الاسبان في قواعدهم الافريقية وفي قلب اسبانيا ، فاحتل تلمسان التي كانت تحت نفوذ الاتراك العثمانيين واحجم عن مهاجمة وهران التي كانت بيد الاسبان . (٥) .

---

(١) نفسه : ص ٢٧
(٢) نفسه ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٤ و ص ١٢٩ - ١٣٠
(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٢ و [illegible]
(٤) يقول طورس ان الجيش المغربي قد تقدم من تلمسان الى مستغانم دون ان يلحق الخسائر في بلاد وهران الخاضعة للاسبان على الرغم من انه مر امامها ، وعرب الحديث على ان محمدا الشيخ قد امر بان لا تلحق اى خسارة باراضي الامبراطور شارلكان لانه يكن له احتراما كبيرا انظر تاريخ الاشراف ص ٢٨٨ .
(٥) انظر ماسبق

٦- سير المفاوضات بين السعديين والاسبان : أن التقارب بين الطرفين ، السعدي والاسباني لم يتطور من حسن الجوار نحو التحالف والتعاون، الا بعد الحملة الجزائرية على المغرب ، هذه الحملة التي اشعرت الطرفين بضرورة التقارب من بعضهما اكثر من ذى قبل ، وبضرورة تعاونهما ضد عدوهما المشترك . فبادر دا لكوديت الحاكم الاسباني لوهران بتوجيه رسائل الى عبدالله بن محمد الشيخ والى المنصور بن ابي غانم المزوار الاسبق لتلمسان الذى اصبح منذ انضمامه في سنة ١٥٥٠ الى السلطان السعدى من المقربين اليه ، وذلك في نهاية ١٥٥٤ او مطلع سنة ١٥٥٥ ، فردا عليه بعد اطلاع محمد الشيخ عليها برسالتين مؤرختين بنهاية جانفي ١٥٥٥ (١) . وقد بدا من جواب عبد الله ترحيبه بعقد اتفاق مع الاسبان ومن جواب المنصور رغبة الشريف في التفاوض مع الاسبان ، وترحيبه بمجيء غونزالو هيرنانديز (٢) (G.Hernandez) لهذا الغرض وارسل جواز مروره الى فاس (٣) . كانت رغبة محمد الشيخ في بداية اتصالاته بالاسبان كما تظهر من خلال رسالة بولو كريو (٤) (Pollo Grilla) ، وهي بتاريخ ١/٢/ ١٥٥٥ (٥) ، هي الحصول من الاسبان على دعم عسكري كبير بالرجال والسلاح، يتألف من عشرة آلاف جندي من حملة البنادق النارية ، يعزز بهم فرسانه الثلاثين الفا ، والمشاة الكبير من المشاة وقطع المدفعية التي لديه ، حتى يكون بامكانه الاستيلاء على الجزائر والثأر من الاتراك .

وفي مقابل ذلك كان على استعداد بأن يعقد سلاما دائما مع الامبراطور شارلكان ، وان يمنع الاتراك والقراصنة من التردد على جميع موانئه ، وان يتحمل نفقة القوات الاسبانية منذ يوم نزولها في وهران حيث كان متفقا ان تنزل تلك القوات الى يوم عودتها الى اسبانيا ، وان يترك مدينة الجزائر بعد اخذها من الاتراك للاسبان انما بعد تدميرها (٦) .

بل ان محمدا الشيخ الذى كانت تحدوه رغبة قوية في طرد الاتراك من تلمسان والجزائر لا سيما من حجر بادس عرض - اذا ما لبى الاسبان طلبه وامدوه باثني عشر الف جندى من المشاة والف فارس - ان يدفع مصاريف نقلهم، وان يدفع رواتبهم لمدة اربعة اشهر، او يقوم بمعاشهم كل ما يلزمهم لمدة ثمانية اشهر ، وان يدفع اخيرا ثمن الذخيرة المدفعية التي سيزوده الاسبان بها (٧) .

وقد رفع دا لكوديت عرض الشريف هذا الى السلطات العليا في اسبانيا في مارس ١٥٥٥ (٨) ، يبدى رغبته في التوصل الى اتفاق مع الشريف السعدى في اقرب وقت ممكن قبل ان يتمكن الاتراك الذين يحاولون بمساعدة المرابطين التفاهم معه لضمان وجودهم في حجر بادس من تحقيق

(١) م. ت. م اسبانيا ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ و ٢٠٨ - ٢١
(٢) اصله من الزيانيين ، تنصر واصبح من اقارب دالكوديت ومترجميه انظر عنه الحاشية المخصصة له في م. ت. م ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٧
(٣) انظر الجزائر في المرجع السابق ص ٢١١ - ٢١٢
(٤) من اسرة تجارية جنوية كان يشتغل في فاس بافتداء الاسرى
(٥) م. ت. م اسبانيا ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٧
(٦) نفسه
(٧) (٨) نفسه ص ٢٢٤ - ٢٢٦

هدفهم . (١) .

كان عرض الشريف السعدي غير كاف ليوفر له الاسبان ما طلب ، اذ كان هؤلاء يريدونــه
ن لا يلتزم فقط بتحمل كل تكاليف الحملة ، ولكن ان يدفع المال سلفا . وبغية الاتفاق مــع
لشريف السعدي على ذلك ، والحصول على المال منه ، توجهت بعثة اسبانية الوفاس
ي ماي سنة ٥٥٥ ، كانت تتألف من الاسباني ميجــل دو لازكانو (Miguel de la Zcano)
يسر العنصر الرئيسي في البعثة ، ومن المترجم اليهودي كانزينو (Cansino) ومن التاجر
ولو كريو الذي انضم الى البعثة في فاس .

كان الشريف محمد الشيخ حريصا على ان تكون المفاوضات بينه وبين الاسبان في منتهى
لسرية ، خشية ثورة الرأي العام المغربي اذا علم بتفاوضه مع النصارى ، وخشية ان يعلم الاتراك
مشروع حملته فيحتاطوا لها ، ويؤلبوا عليه الرأي العام عن طريق المرابطين الموالين لهم في المغرب ،
و يهاجموه قبل ان يتوصل الى اتفاق مع الاسبان . ومن شدة حرصه فقد امر صاحب الفندق الذي
زلت فيه البعثة بأن لا يسمح لاحد بالاتصال بها ، ولا سيما بمترجمها اليهودي كا ... (٢) ،
نعا لتسرب الاخبار ، كما امر البعثة نفسها بالتزام السرية التامة حول هدفها الحقيقي ،
تنا صرت بأنها جاءت للتفاوض مع المنصور بن ابي غانم بشأن فدية ابنه الاسير لدى الاسبان
ي وهران (٣) .

وقد مكثت البعثة الاسبانية في فاس اكثر من شهر ، (٤) وخلال هذه الفترة تقابلت مع الشريف
محمد الشيخ عدة مرات وتباحثت معه ، ومع مقربيه في امر المساعدة التي طلبها الشريف من الاسبان
تمويل القوات التي ذالها ، ولعل التعرض بشيء من التفصيل الى سير المفاوضات يعطي
رة عن مواقف الطرفين ومن درجة الثقة التي كانت بينهما ، ومدى الصحة في اساس تعاونهما :

ففي بداية المفاوضات (٥) اوضح الشريف للبعثة انه لا يزال راغبا في ان يساعده الاسبان بعشرة
لاف جندي اسباني من حملة البنادق النارية ، على ان يتكفل فقط بالتمويل طوال فترة الحملة
ن يتكفل الامبراطور بما عدا ذلك كالنقل ورواتب القوات ، باعتبار انه سيساهم في الحملة بثلاثين
لف فارس مغربي ، وأكثر من ذلك اذا دعا الامر ، اذ عرض عليه اعيان من الجزائر مساعدتهم .
ن هؤلاء امير بني عباس الذي كان ثائرا على الاتراك ، واوضح ان طرد الاتراك من الجزائر
سيكون مفيدا للاسبان ولكل المسيحية . وردت البعثة بان غزو الجزائر يهم الشريف وابناءه اكثر

---

(١) لم يتحقق التفاهم مع الشريف في هذه الفترة مما جعل صالح رايس يفكر في غزو الشريف في جنوب المغرب ، وفي تنصيب احد ابناء احمد الوطاسي (ابو بكر على عرش فاس) انظر م.م.ت.م اسبانيا ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٦ وانظر ايضا نفس المصدر ص ٢٤٥ — ٢٤٨

(٢)(٣) بريموداي الوثائق المغفلة ... ص ٢٦١

(٤) نفسه : وصلت الى فاس في 12 ماي وغادرت المدينة في 18 جوان 1555 ص 260 — 268

(٥) نفسه : بدأت المفاوضات يوم 15 ماي انظر ص 262

واستدلت بالاخطار الكبير الذي تعرضوا له منذ فترة قريبة على يد اتراك الجزائر ، وذكرت بأن دالكوديت كان دوما يوضح في مراسلاته مع عبد الله بن محمد الشيخ والمنصور بن ابي غانم بأن جميع تكاليف الحملة يجب ان يتكفل بها سلطان المغرب ، وان يوضع المال اللازم بين ايد امينة. وعليه ، فاذا اراد الشروع في اعداد القوات المطلوبة فان عليه ليس فقط ان يلتزم بجميع مصاريف الحملة ولكن ان يدفع المال سلفا . اما ما يتعلق بمصير الجزائر وسكانها ، فان الشريف أصرّ على تدمير المدينة ومصادرة اموال سكانها وقتلهم ان هم حاولوا المقاومة ، ولكنه يرفض على اى حال ان يستعبدوا من قبل الاسبان حتى ولو كان الامر يتعلق بالاتراك لمخالفة ذلك للشريعة الاسلامية (١) . ويبدو ان قصده كان منع الاتراك فقط من العودة الى الجزائر وانه كان لا يريد ان يتهم بانه سلم مدينة اسلامية للكفار . وامام تشبث الاسبان بموقفهم ، قبل محمد الشيخ في لقاء آخر مع البعثة ان يدفع ثلاثة مثاقيل ذهبية لكل واحد من العشرة آلاف جندي ، عن كل شهر ابتداء من تاريخ نزولهم على الساحل الافريقي ، ولكنه رفض ان يقدم أى مبلغ سلفا .

وكانت البعثة قد طالبت بتقديم مئة الف مثقال سلفا حتى يمكن الشروع في اعداد القوات الاسبانية المطلوبة وذكرت ان دالكوديت لا يتحرك الا على رأس اثني عشر ألف جندي ، وانه يلزمه الفين من الخيل لالفين من فرسانه . وتمسك الطرفان كل بموقفه عند هذا الحد ، ورفض محمد الشيخ الاستمرار في المفاوضات مالم يستلم التفويض الممنوح من قبل شارلكان لدالكوديت الذي يخوله التفاوض وابرام الاتفاق معه . ولما لم يكن موجودا لدى البعثة ، ولم يكن دالكوديت اصلا قد استلمه ، فقد توقفت المفاوضات ، وحاولت البعثة ان تتصل بعبد الله بن محمد الشيخ (٢) الذي كان اكثر حماسة من والده الى الاتفاق مع الاسبان والتحالف معهم (٣) . لكن محمدا الشيخ حال بينها وبين ذلك خشية ان تؤثر عليه فيما بعد فينعكس اثر ذلك عليه ، او حتى لا ترى معسكره وامكاناته العسكرية . فلم يبق امامها غير الاستئذان في العودة . ولكن عبدالله الذي علم عن طريق المنصور بن ابي غانم بما آلت اليه المفاوضات سارع بكتابة رسالة (٤) الى والده يرجوه ان لا يذهب الاسبان بدون نتيجة . وقبل استنفاد جميع الامكانات للتوصل الى اتفاق معهم يمكنهما من الثأر من اعدائهم واقترح على والده ان يدفع سلفا رواتب شهر او شهرين للقوات المطلوبة ، واذا قبل دالكوديت ان يبعث احد ابنائه الى فاس كرهينة على ان يدفع

---

(١) بريمودان : المرجع السابق ص٢٦٤
(٢) كان عبد الله [illegible] معسكر خارج مدينة فاس
(٣) [illegible] جـ٢ ص٢٣٤ - ٢٣٦
(٤) انظر الرسالة في بريمودان المرجع السابق ص ٢٦٧

ب القوات بعد ذلك شهريا عند استحقاقها ، وان يذهب المنصور بن ابي قانم الى وهران لدراسة
ة مع دا الكوديت • وكانت آخر شروط محمد الشيخ لتقديم مئة الف مثقال ناسي هي :
ا ستيم التفويض المطلوح لدا الكوديت الذى يخوله ابرام الاتفاق معه •
الحصول على ضمان قوى للمال الذى قبل بتقديمه • واحسن ضمان هو ان يقدم دا الكوديت احد
ه ليكون رهينة لديه •

ولما كانت البعثة لا تملك التفويض المطلوب ، و لا اتخاذ القرار في الشرط الثاني ، فقد اكتفت بالوعد
الشرطين الى دا الكوديت وتقديم تقرير له عن سير المفاوضات ، وعادت الى وهران دون ان تبرم اى اتفاق •
دا الكوديت اعتبر النتيجة التي توصلت اليها البعثة مرضية وتحمس لتلبية الشرطين • فكتب الى الاميرة
شارلكان ونائبته على اسبانيا في هذه الفترة رسالة مرفقة بتقرير عن المفاوضات في ١٥٥٥/٨/٩ (١) •
فيها اهمية ابرام الاتفاق مع الشريف ، ومساعدته على محاربة الاتراك • وابدى استعداده من اجل
صل الى الاتفاق معه ان يقدم احد ابنائه بكل سرور الى الشريف السعدى ليكون رهينة لديه •
طلب ، بل وان يقدم نفسه وابناءه الاخرين اذا لزم الامر • ورجاها ان تحصل له على التفويض من الامبراطور
ام الاتفاق معه • وان تاذن له بارسال فونزالو هيرنانديز الى ناس ليحمل الجواب الى السلطان
رسي ، والتفاوض معه ، اذ يبدو له ان تكليف فونزالو بذلك سيساهم في التوصل الى الاتفاق مع الشريف
سعدى ، ذلك ان هذا الاخير لا يريد التفاوض بواسطة مترجمين يهود من تلمسان او وهران ، اذ ان هؤلاء
وا على اتصال مع باشا الجزائر •

وبالفعل فقد تسرب خبر المفاوضات بين الشريف والاسبان الى صالح رايس من طريق اليهود (٢) فسارع الى
اذ التدابير اللازمة لمواجهة خطر الحلف الاسباني السعدى • فاقدم على تحرير بجاية من الاسبان ،
كن من ذلك في ١٥٥٥/٩/٢٨ (٣) قبل ان يحصل دا الكوديت على جواب رسالته (٤) • او يبرم الاتفاق
ه وبين الشريف •

بتحريره لبجاية امن ظهره ، ووجه ضربة قوية ليس فقط للاسبان ، ولكن ايضا لحلفائهم وحلفاء الشريف
المنطقة كعبد العزيز امير بني عباس الذى غدا محروما من العون الاسباني ، فتمكن الاتراك من القضاء
ه (٥) وكسب انصار الجهاد ، واستمال اليه بذلك المرابطين ورجال الدين وعامة
اس في الجزائر وحتى في المغرب • في حين اثار تقرب السعديين من

) انظر نص الرسالة في م • م • ت • م اسبانيا ج ٢ ص ٢٨٧ـ٢٩٠ وبرهوداى : المرجع السابق ص ٢٦٩ـ٢٧٠
) المدني : المرجع السابق ص ٣٥٨ـ٣٥٩ . وقد كان للاتراك شبكة تجسس على ما يجرى في وهران انظر هامش ٣
ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ م • م • ت • م ج ٢ اسبانيا
) برهوداى المرجع السابق ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤ وهايدو ، ملوك الجزائر ص ٩٢ـ٩٥
) كان الجواب من رسالته في اواخر اكتوبر انظر م • م • ت • م اسبانيا ج ٢ ص ٣٠٣ـ٣٠٤
) هايدو المرجع السابق ص ١١٩

الاسبان وسما لحتهم للبرتغاليين ، معارضة رجال الدين وعامة الناس في المغرب . ولا يستبعد ان يكون ذلك بتحريض من الاتراك العثمانيين بواسطة المرابطين الموالين لهم ، في اطار حملتهم لضرب مشروع التحالف الاسباني - السعدي ، وظهر اثر هذه المعارضة في الثورات الجديدة التي قامت ضد السعديين ، هنا وهناك، ولاسيما في جبال الاطلس الكبير (١).

وقد كان لتحرير بجاية واخبار استعدادات حكام الجزائر للتوجه في حملة اخرى نحو الغرب، اثرها في موقف الشريف السعدي من مفاوضاته مع الاسبان ، حيث قدم عروضا جديدة في اكتوبر ١٥٥٥ تفوق ما تقدم به فيما مضى سخاء فعرض ان يدفع شهريا ٣٦٠٠٠ دوكات (مثقال) وان يقدم سلفا ١٤٤٠٠٠ دوكات اخرى اذا حصل على ضمانات قوية بانها ستصرف من اجل الحملة (٢). ومن جهة اخرى عرض على حاكم مليلة بواسطة قائده على اعراس ان يقوم الاسبان بغلق او تحصين مرسى مارشيكا المتوسطي القريب من مليلة الذى كانت سفن اتراك الجزائر تتردد اليه على ان يدفع هو تكاليف ذلك ، اذ كان يخشى ان يقوم اتراك الجزائر بتحصينه والاحتفاظ به ، وهذا يدل على انه كان يؤثر احتلال الاسبان له على ان يقع في قبضة اتراك الجزائر العثمانيين ، ولكن الاسبان لم يقوموا بما طلبه، وذلك لانه بدا لهم فيما يظهر بعد دراسة الموضوع ان غلق المرسى المذكور غير مجد، او غير ممكن، (٣) بينما كان انشغال شارلكان بحروبه الاوربية ، ثم تنازله لابنه فيليب الثاني في ١٦/١/١٥٥٦ عن ملكتي قشتالة واراغونة (اسبانيا) سببا في تأخير منح د الكوديت التفويض المطلوب لاستمرار المفاوضات بين هذا الاخير ومحمد الشيخ ، وابرام اتفاق معه حتى افريل ١٥٥٦ (٤).

ونتيجة لهذا التأخير ، وصدى الانتصار الذى حققه اتراك الجزائر على الاسبان في بجاية ، وانباء الاعداد لحملة اخرى ، فان محمدا الشيخ السعدي اخذ يفقد الثقة في التوصل الى اتفاق مع الاسبان يحصل بموجبه على المساعدة العسكرية التي طلبها . كما اخذت مخاوفه في الوقت نفسه على مملكته من هجوم آخر للاتراك العثمانيين عليها تتزايد ، فدخل في مفاوضات مع هؤلاء على كره لهم بواسطة المرابطين (٥) ، تستهدف الحفاظ على مملكته المهددة .

وقد اثارت هذه المفاوضات قلقا كبيرا لدى د الكوديت اذ خشي ان ينجح الاتراك العثمانيون في استمالته اليهم وتوجيه جهود الطرفين ضد القواعد الاسبانية مما يعني انهـــا

---

(١) انظر حول موقف رجال الدين : آ . كور : المرجع السابق ص ٢٤١ و ب . بوبي: السياسة الدينية للاتراك في المرجع السابق ص ١٠٦

(٢) م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٦

(٣) نفسه: ص ٣٠٢ و ٣٠٢ - ٣٠٤

(٤) نفسه: ص ٣١١ (نص التفويض)

(٥) نفسه: ص ٣٢١ - ٣٢٣ (تاريخ الوثيقة ١٥/٦/١٥٥٦)

(١)

ستصبح مهددة للغاية ، وعرضة للهجوم ، وان الحملة على الجزائر لن يكون بالامكان القيام بها .

وفي جويلية ١٥٥٦ وردت الى دالكوديت من اسبانيا التعليمات الاساسية التي يطلب تنفيذها لابرام اتفاق مع الشريف (٢). ومن هذه التعليمات :

- ابرام اتفاق سلام مع الشريف لمدة عشر سنوات على الاقل، يتمتع خلالها رعايا الملك الاسباني بحرية الاتجار في ولايات الشريف السعدى .
- القبول بتوفير ١٢٠٠٠ من المشاة مع بعض قطع المدفعية والذخيرة ، على ان يدفع الشريف رواتبهم ابتداء من تجنيدهم الى تاريخ تسريحهم ، وان يتحمل تكاليف النقل ، ويلتزم بتوفير التموين الغذائي ، ويدفع مصاريف المدفعية .
- تقديم الشريف رهائن ، ومال يكون ضمانا للمصاريف التي ستنفق .
- حصول الاسبان على القواعد التي يريدونها ، من القواعد التي ستفتح .
- امتناع الشريف عن استقبال السفن الاجنبية (المعادية للاسبان) ، وسفن القرصنة .

كما وردت اليه تعليمات اضافية تبين التنازلات التي يمكن لدالكوديت ان يقدمها في حال عدم موافقة الشريف السعدى على بعض البنود (٣) ، كتأخير الدفع حتى نزول القوات على الشاطىء الجزائرى والاكتفاء بأخذ قواعد : الجزائر وبجاية وحجر بادس .

وقبل ان يتوصل الطرفان الى الاتفاق - وجه الاتراك العثمانيون في الجزائر ومرة اخرى - ضربة اخرى الى مشروع التحالف . الا انها لم تكن في مثل ضربة بجاية ايلاما، حيث اضطر الاتراك العثمانيون ، ومعهم الجزائريون الى فك الحصار الذى ضربوه على وهران (٤) ، في صيف ١٥٥٦ قبل ان تستسلم لهم ، لصدور اوامر السلطان العثماني الى الاسطول العثماني الذى كان يشارك في الحصار بالعودة فورا الى الشرق . مما جعل الاسبان ، بتحريض من دالكوديت حاكم وهران يتحمسون اكثر الى خوض صراع مصيرى مع الاتراك العثمانيين في الجزائر والسعي التوصل الى اتفاق مع الشريف محمد الشيخ السعدى . ويستخلص ذلك من رسالة فيليب الثاني الى دالكوديت بتاريخ ١٣/١٠/١٥٥٦ التي ابدى فيها الاستعداد لتقديم تسهيلات في الشروط المادية : كأن يدفع السلطان السعدى مرتب ٤٠٠٠ جندى نظامي فقط لمدة شهرين ، والغذاء فقط لاربعة آلاف متطوع (٥) . ومع ذلك فان عرضهم يحصل على موافقة الشريف السعدى ، فتوجه حينئذ غنزالو هيرمانديز ، الخبير في المفاوضات مع العرب للتفاوض

---

(١) نفسه : ص ٣٣١-٣٣٢
(٢)(٣) نفسه : ص ٣٤٥ - ٣٤٦
(٤) دام الحصار من ٥/٨/ الى ٢٥/٨/١٥٥٦ انظر عنه فصل الحياة السياسية في الجزائر وهايدو وطرمول في المرجعين السابقين .
(٥) [illegible] ج٢ ص ٣٧٧ الى ٣٨١ .

مع محمد الشيخ ، ومكث في فاس بضعة شهر قبل ان يعود بمقترحات سلام وتعاون جديدة من عبد الله بن محمد الشيخ في اوائل مارس ١٥٥٧ وهي :

١- الموافقة على سلام بين المغاربة والاسبان لمدة معينة يتفق عليها .

٢- التزام عبد الله بالتموين الغذائي للقوات الاسبانية البالغة عشرة آلاف (٢) ، ودفع اجورها بدءا من تاريخ نزولها على الشاطئ الافريقي في ارزيو على اساس ثلاث دبلونات (مثاقيل او دنانير) زيانية عن كل شهر لكل جندي .

٣- الالتزام بتعويض ما يتلف او يضيع من المدفعية في الحملة ، وكذا ثمن الذخيرة والعتاد والنقل ، وان تبقى الموانئ التي ستفتح بيد السعديين .

٤- التعهد بمنع السفن المغربية من مهاجمة القوارب الاسبانية ، ومنع سفن الغزاة من التموين في المغرب .

٥- اطلاق سراح الاسرى المسيحيين على الا يؤخذ المسلمون اسرى

٦- امكانية تقديم راتب شهر مسبقا ، ولكن بشرط ان يكون ابن دالكوديت رهينة ، والمصادقة على ذلك كتابيا من قبل الملك الاسباني .

٧- القيادة العامة للحملة تسند لدالكوديت .

وفي الوقت الذي كان يتوجه فيه غونزالو هيرنانديز بالمقترحات السعدية الجديدة للسلام مع الاسبان والتحالف معهم ، استقبل الشريف السعدي في مراكش رسولا تركيا ، جاء ليقترح عليه تحالفا ضد الكفار . (٣) . وهذه محاولة من المحاولات العديدة التي كان يقوم بها الاتراك المثمانيون ، لجذب السلطان السعدي اليهم وفصله عن اعدائهم الاسبان والبرتغاليين ولكن هذه المحاولة لم تنجح كما اتضح بعد ذلك ، حيث اقدم الشريف السعدي بعد فترة قصيرة من وفادة هذا الرسول على غزو تلمسان في يونيو ١٥٥٧ (٤) . اما المجلس الحربي الاسباني فقد ناقش المقترحات السبعة التي تقدم بها السعديون في مارس ١٥٥٧ ، وبدا له ان نقل عشرة آلاف جندي يكلف مئة وعشرين الفا من الدوكات على الاقل . وتقديم مثل هذا العدد الكبير من الجنود ينبغي ان تقدم عنه رهائن وضمانات اخرى كما بدا له انه في حال نجاح الحملة فان الشريف السعدي محمدا الشيخ سيصبح قويا اما يشكل خطرا على الممتلكات

---

(١) نفسه ص ٣٤٤ و ٣٤٦ - ٣٤٧

(٢) لم يرد ذكرها كتابة وانما ذكره عبد الله بن محمد الشيخ شفويا للمفاوض الاسباني غونزالو هيرنانديز انظر المصدر السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٦

(٣) نفسه ص ٣٨٨ هامش (و م م) ت م البرتغال ج ٥ ص ٥٥ - ٥٧ وفي وثيقة اخرى ليقترح سلاما باسم السلطان العثماني لمدة ثلاث سنوات وهي بتاريخ ٧/٢/١٥٥٧ انظر م م ت م اسبانيا ج ٢ ص ٣٨٢

(٤) نفسه ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ودايد والمرجع السابق ص ١٠ - ١١٤

الاسبانية . ثم ان النقطة الاولى في حاجة الى توضيح لمدة السلام المرغوبة ، وان النقطة الثانية في حاجة الى تحديد لمكان الانزال وعدد القوات ، وان النقطة الثالثة في حاجة الى توضيح موضوع المدفعية، وان النقطة الرابعة يجب ان يضاف اليها (التعهد بمنع استقبال اى اسطول) ، وبدا للمجلس ان تقديم رهينة للمسلمين امر مرفوض مبدئيا ، وعليه فان الشرط الذى ورد في النقطة السادسة امر مرفوض للمبدأ المذكور . وظهر للمجلس الحربي ان الشريف السعدى بات لا يخشى الاتراك العثمانيين كثيرا مثل السابق . كما ظهر له ان الاتفاق مع الشريف السعدى لا يكون ذا اهمية مالم يوافق عليه البابا كخطة صليبية . ونظرا الى ان تمويل الحملة بدا المجلس صعبا فقد استحسن هذا الاخير ان يترك هذا الموضوع ولا سيما انه في حال انتصار الشريف السعدى سيصبح قويا ، وخطرا على اسبانيا نفسها (١) .

على ان المجلس ابقى الباب مفتوحا لمزيد من المفاوضات ان رغب السلطان السعدى في ذلك ، وارسل فونزالو هيرنانديز الى المغرب حاملا الجواب للسلطان السعدى محمد الشيخ الذى تقدم بهذه المناسبة باقتراحات وتوضيحات اخرى اهمها : استعداده لدفع ثلاثة ايكو (دنانير) عن كل ٢٩ يوما لاثني عشر الف جندى او اكثر ، والمساهمة بنصف مصاريف النقل مع ضمانات للمدفعية المقدمة ، وتقديم مبلغ من المال سلفا عن كل ذلك . على ان يدفع كل ماالتزم به عندما تنزل القوات في ارزيو شرق وهران . اما اذا اراد فيليب الثاني الحصول على المال مسبقا فلابد من ان يبقى دون مارتان ابن دالكوديت رهينة تحت سلطة الشريف الى اقلاع الاسطول نحو ارزيو . وعندئذ سيتوجه السلطان السعدى مع الرهينة لينضما الى الجيش الاسباني (٢) .

ولعل هذه العروض كانت آخر العروض التي تقدم بها محمد الشيخ السعدى في سبيل الحصول على المساعدة العسكرية الاسبانية ضد خصومه اتراك الجزائر العثمانيين لانتزاع مدينة الجزائر وغيرها من المدن منهم ، واقصائهم منها .

ولا نعلم الجواب عن المقترحات الاخيرة هذه ، ولا الجرأة للقطع فيما اذا تم التوقيع على اتفاق ما بين محمد الشيخ السعدى والاسبان ام لا . الا اننا نميل الى الاعتقاد بأن السلطان السعدى قتل ولما يتوصل الى اتفاق نهائي مع الاسبان . ومما يدفع الى هذا الاعتقاد ان السعديين الذين هاجموا تلمسان في جوان ١٥٥٧ ، اى بعد شهور قليلة من مقتله في اكتوبر ١٥٥٧ ، ارسلوا الى وهران في طلب بعض القطع المدفعية لاتمام استيلائهم عليها فلم يجبهم الاسبان الى طلبهم (٣) .

---

(١) نفسه: ص ٤٠٤ - ٤٠٥
(٢) نفسه: ٤٠٧
(٣) هايدو: المرجع السابق ص ١١٤ و روف: المرجع السابق، ص ١٤٤ - ١٤٥

واذا تأملنا في العوائق والصعوبات التي واجهت المتفاوضين الاسباني والمغربي ، وحالت في آخر الامر طوال مايمتد دون توقيع اتفاقية بينهما ، وبدا لنا ان في مقدمتها : افتقاد كل طرف الثقة التامة في الطرف الاخر ، وان مضي سنتين ونيف في المفاوضات لم تكف ايا من الطرفين لاكتساب ثقة الطرف الاخر اولتنمية الثقة بينهما ، اذ أن الشريف السعدي كان في هذه الاثناء كما الصفنا يفاوض مع اتراك الجزائر العثمانيين عن طريق المرابطين ، واستقبل خلالها سفارة عثمانية او اثنتين . والاسبان فيما عدا دالكوديت بدوا في الشطر الاول من المفاوضات التي جرت قبل هجوم اتراك الجزائر على بجاية ثم على وهران ، اقل حماسة للتوصل الى اتفاق مع محمد الشيخ . يشهد على ذلك تأخر السلطات العليا الاسبانية في ارسال التفويض لدالكوديت بالاستمرار في المفاوضات ، وامكانية ابرام الاتفاق مع الشريف السعدي . كما بدوا مشتطين في الشروط للتوصل الى الاتفاق ، ولاسيما فيما يتعلق بمصاريف الحملة . ثم ان فيليب الثاني اتصل من جهته في ابان المفاوضات ، باتراك الجزائر وعرض في خضم الفوضى التي عرفتها مدينة الجزائر بعد موت صالح رايس على قارة مصطفى احد زعماء الاتراك في الجزائر آنذاك ، استعداده للتعاون معه ان رغب في ذلك . (1) .

والى جانب انعدام الثقة بين الطرفين الاسباني والسعدي ، فقد وقفت القضية المادية المتعلقة بتمويل الحملة المشتركة على الجزائر عائقا ايضا في وجه التوصل الى الاتفاق حيث لم يستطع الطرفان في غياب الثقة ايضا ، التغلب عليها .

واخيرا فان الاتراك العثمانيين في الجزائر لم يدخروا من جهتهم جهدا ، ولا وسيلة في سبيل ابطال التقارب السعدي - الاسباني ، من استغلال نفوذ المرابطين واثرهم الى ضرب اقوى الحليفين في بجاية ووهران ، وكانت آخر وسائلهم التخلص من محمد الشيخ نفسه في اكتوبر 1557 م ، ثم من دالكوديت في اوت 1558 على النحو الاتي ذكره ...

التدخل السعدي الثاني في تلمسان سنة 1557 ونهاية محمد الشيخ :

لم يتمكن حكام الجزائر من استمالة محمد الشيخ المهدي ، بعد حملة صالح رايس على المغرب التي دخل في اثرها كما ذكرنا في المفاوضات مع البرتغاليين ، وخاصة مع الاسبان بهدف التعاون مع هؤلاء ضدهم . وفشلت السفارة التي وجهت اليه في فبراير 1557 في التوصل الى اتفاق سلام بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة وبين محمد الشيخ من جهة اخرى لمدة ثلاث سنوات ، كما فشلت من قبل السفارة الموجهة اليه في سنة 1554 في الحصول على الاعتراف

(1) بريمودای : المرجع السابق ص 278

منه بالتبعية للسلطان العثماني .

وفي أثناء آخر المناورات العثمانية الجزائرية الموجهة اليه ، قام محمد الشيخ بشن حملة على مدينة تلمسان، في جوان سنة ١٥٥٧ كما مرت الاشارة ، كانت هي الثانية من نوعها ، لاحتلال هذه المدينة الهامة ، منتهزا فرصة اضطراب امور الاتراك العثمانيين في مدينة الجزائر منذ عدة شهور (١). وتمكنت قواته من احتلال المدينة بسهولة ، اذ كانت حاميتها التركية العثمانية صغيرة تتألف من نحو ٥٠٠ عنصر فقط ، فآثرت الانسحاب الى المشور"الحصن" والاعتصام فيه، في انتظار وصول المدد اليها من الجزائر ، وعجزت القوات السعدية التي كانت تفتقر الى المدفعية عن اقتحام المشور ، وطلبت المدفعية من وهران كما ذكرنا ، ولكن الاسبان امتنعوا عن تزويدهم بها، فاستمرت تحاصر الحامية بدون جدوى . وحدث في هذه الاثناء ان عين حسن بن خير الدين على رأس حكومة الجزائر العثمانية للمرة الثانية، ووصل الى الجزائر في شهر جوان (٢). وكان من اولى اهتماماته : اخراج السعديين من تلمسان وفك الحصار عن حاميتها ، ثم التخلص من محمد الشيخ نفسه ، هذا الجار الخطير القوى المنيف ، ومحاولة احتلال المغرب بعد ذلك ، وضمه الى الدولة العثمانية . فاعد حملة كبيرة من اتراك الجزائر واهلها كان خبرها كافيا لاثارة الرعب في قلوب السعديين في تلمسان ، جعلهم ينسحبون منها الى ماوراء الحدود قبل وصول حسن بن خير الدين اليها . وذلك في شهر اوت ١٥٥٧ (٣) وارسل فوجا من الاتراك العثمانيين، يتألف من اثني عشر رجلا، بقيادة صالح كاهية الى المغرب لاغتيال محمد الشيخ . وقد تظاهر هؤلاء الاتراك بالهروب الى السلطان السعدي، وبالرغبة في خدمته (٤).

ولما كان السلطان السعدي يستخدم الاتراك في جيشه ويرغب في الاستكثار منهم ، على الرغم من علاقاته السيئة مع حكام الجزائر الاتراك العثمانيين ، بل ويتخذ منهم حرسه الخاص ، فقد رحب بهم وادخلهم في خدمته . وفي احدى تحركات السلطان بجبل درن بالاطلس الكبير ، وجد الاتراك المرافقون له فرصة سانحة لقتله ، فقطعوا رأسه في يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٦٤ هـ / ٢٣ /١٠/ ١٥٥٧ . وتمكن بعضهم من الوصول به الى تلمسان ، ومنها الى استانبول حيث ظل معلقا بها الى ان تلاشى (٥).

وهكذا كان مصير محمد الشيخ الذى رفض بقوة الدخول تحت السيادة العثمانية ، ورفض في آخر عهده حتى السلامة معهم ، ولو لفترة محدودة ، ومضى في التقرب من الاسبان ، [illegible]

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) شايد والمرجع السابق ص١٤ -١١٦ ود وغرامون: المرجع السابق ص٨٨
(٣) [illegible] اسبانيا ج٢ ص٤٢٠-٤٢٢
(٤) الافراني : النزهة ص٤٢
(٥) المجهول : المرجع السابق ص٢٧-٢٨ والافراني: المرجع السابق ص٤٣-٤٤

وانتهاز الفرص للتدخل في الغرب الجزائري ، ولاسيما في تلمسان، مما جعل العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهده ، في منتهى التوتر ، يغلب عليها طابع العنف اكثر من طابع الدبلوماسية . فهل طرأ على العلاقات الجزائرية في عهد خلفائه تحسن ؟ .

العلاقات في عهد عبد الله بن محمد الشيخ : ٩٦٤-٩٨٢/١٥٥٧-١٥٧٤

من المنتظر الا تكون العلاقات بين عبد الله الذي خلف والده محمدا الشيخ ، وبين حكام الجزائر العثمانيين حسنة في بدايتها على الاقل بعد ان قتل الاتراك والده ، واقدم هو فور العلم بمقتله في فاس ومراكش على محاصرة بقية الاتراك ، قتلة والده الذين اعتصموا في قصبة تارودانت ، الى ان تمكن في آخر الامر من ابادتهم عند خروجهم منها (١) .

ا- الحملة الجزائرية الثانية على المغرب :

965 هـ/ 1558م

بينما كان عبدالله في الجنوب يحاصر بقية الاتراك في تارودانت، كان الحسن بن خير الدين يعد على عجل حملة لاحتلال المغرب، قبل ان يستقر الامر تماما لعبد الله فيه . ولمرغم في ذلك الوقت هذا الاخير على فك الحصار عن الاتراك في تارودانت . ولكن عبد الله تمكن من القضاء على هؤلاء قبيل بدء الحملة الجزائرية على فاس . واسرع الى شمال المغرب لصدها ، وحشد لذلك قوات كبيرة، كانت تتألف من ثلاثين الف فارس، وعشرة آلاف من المشاة العرب واربعة آلاف من الاعلاج والاندلسيين حملة البنادق النارية (٢) ، وعدد كبير من المدافع (٣) ، بينما كانت قوات الحملة الجزائرية تتراوح حسب الوثائق بين اربعة آلاف وتسعة آلاف وخمسمئة من الاتراك والاعلاج بينهم قلة من الفرسان ، هذا عدا قوات الاهالي (٤) . وحسب هايدو كانت تتألف من تسعة آلاف من الاتراك والاعلاج، بينهم ثلاثة آلاف كانوا على متن اربعين سفينة ، وستة آلاف من العرب (٥) . وفي الطريق الى فاس انضم الى الحملة الجزائرية مولاي عمار امير دبدو بشرق المغرب مع قواته القليلة (٦) ، على امل ان ينصبه حسن بن خير الدين على عرش فاس ومراكش (٧)

---

(١) كانوا قد توجهوا قبل ذلك الى ميناء آغادير على اساس ان يعودوا بعض سفن الجزائر في انتظارهم ولكن هذه كانت فيما يبدو قد عادت بعد انتظارهم طويلا فاضطروا تارودانت وانتظروا تطور الاحداث انظر عن هذه الاحداث طوريس : المرجع السابق ص ٢٠٦ وكور : المرجع السابق ص ١٢

(٢) هايدو : المرجع السابق ص ١١٥-١١٦

(٣) م . ت . م : اسبانيا ج٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٤

(٤) نفسه : ص [illegible] - ٤٣٨

(٥) هايدو : المرجع السابق ص ١١٥-١١٦

(٦) م . ت . م : اسبانيا ج٢ ص ٤٥٤-٤٥٧

(٧) نفسه : ص ٤٣٨

وفي اوائل مارس ١٥٥٨ بلغت الحملة نهر الطوية ، وواد الزيتون بشرق المغرب (١) .
وفي اوائل الشهر نفسه،وصلت القوات البرية الى تازه،بينما وصلت اربع عشرة سفينة من الاسطول الجزائري الى بادس (٢) . وفي يوم ٢/٤/١٥٥٨ جرى اول صدام بين القوات الجزائرية والقوات المغربية،على مقربة من وادى اللبن (٣) . باحواز فاس . وكان اصطداما عنيفا قويا، قتل فيه خلق كثير من الطرفين (٤) . وفي مساء هذا اليوم رجحت كفة السعديين على الرغم من الاستبسال الذي اظهرته القوات الجزائرية (٥) ، واضطر حسن بن خير الدين الى التقهقر نحو الجبال المجاورة لبادس ( ) ، وعقد مجلسا مع مستشاريه ، فنصحوه بالانسحاب وعدم استئناف المعركة للخسائر الكبيرة التي تكبدها (٧) . فقرر الانسحاب الى بادس التي كانت سيندا له بيد اتراك الجزائر ، وحيث كانت السفن الجزائرية التي حملت مدفعيته هناك ، قبل ان يمنى بهزيمة كاملة ولم يكن الانسحاب الى بادس سهلا ، اذ كان ملاحقا من القوات المغربية في ايام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ابريل (٨) . وتكبد خلالها مزيدا من الخسائر في العتاد والارواح ولكن السعديين لم يجرؤوا على ملاحقته حتى بادس ، وفاتهم في نهاية الامر تحقيق نصر حاسم على الحملة الجزائرية . وذلك لانهم ترددوا في رمي كل ثقلهم منذ اليوم الاول في المعركة ، وحتى بعد ان لاح لهم النصر . وحسب وثيقة معاصرة فان عبد الله لو رمى بكل فرسانه البالغ عددهم ستين الفا (كذا) لقضى على الاتراك (١٠) .

اما اسباب اخفاق الحملة الجزائرية،حسب مايستدل من المصادر والوثائق المعاصرة، فتعود الى ان القوات الجزائرية،التي كانت تتألف في معظمها من المشاة،لم تستطع الصمود طويلا امام فرسان المغرب الكثيرين (١١) . والى ان القوات الجزائرية دخلت المعركة بدون المدفعية ، مما يدل على ان السعديين باغتوها بهجومهم عليها،(١٢) قبل ان تحصل على المدفعية التي نقلتها السفن الى بادس ، والى نقص الذخيرة بل ونفادها ، وكذلك نقص الاغذية ، واخيرا الى انسحاب مولاى عمار امير دبدو منذ اليوم الثاني الى امارته.ولا ننسى تفاوت القوى الكبير الذى كان له اثره في رجحان كفة السعديين .

---

(١) نفسه : ص٤٣٢-٤٣٤
(٢) نفسه : ٤٤٢ - ٤٤٤
(٣) نفسه : ٤٤٦-٤٤٨
(٤) دمايدو : المرجع السابق ص١١٦
(٥) (٦) م.م.ت.م: اسبانيا ج٢ ص٤٥٨-٤٦٠
(٧) هايدو: المرجع السابق ص١١٦
(٨) (٩) م.م.ت.م: اسبانيا ج٢ ص٤٤٥-٤٤٨ و ٤٥٢ - ٤٥٤
(١٠) نفسه ص٤٥٤-٤٥٧
(١١) دمايدو : المرجع السابق ص١١٦
(١٢) م.م.ت.م: اسبانيا ج٢ ص٤٥٤-٤٥٧

وهذا كله يدل ايضا على ان الحملة لم تكن مهيأة كما يجب ، وانها اعدت كما سبقت الاشارة على عجل، بغية الاستفادة من اضطراب عبد الله بعد مقتل والده ، وانشغاله بحصار الاتراك في الجنوب . ومن بادس انتقل حسن بن خير الدين الى مارشيكا ، ومن انطلاقا منها هجوما علـى القبائل المعادية للاتراك العثمانيين في المناطق المجاورة لها القبائل غلابيـــــة التي قتلت في وقت سابق نحو مئتين من الاتراك التابعين لقائد بادس ، الذين جاؤوا لاخضاعهم (1) ، وتمكن في هذا الهجوم من قتل بضع عشرات منهم واسر بعضهم ، واخذ مااستطاع من ماشيتهم (2) ثم صرف كل فرسانه ومجموع العرب وقسما من اتراكه عن طريق البر الى الجزائر بأمانة وفقد عاد اليها مع القسم الباقي عن طريق البحر في اواخر ابريل ١٥٥٨ (3) ، احتياطا فيما يبدو ان يكون الاسبان قد قطعوا خط الرجعة عليه عن طريق البر بعد اخفاق حملته في مهمتها .

وقد كان الاسبان يعدون في هذه الفترة حملة كبيرة اتضح فيما بعد انها كانت موجهـة ضد مستغانـــم .

كان على حسن بن خير الدين بعد عودته ان يواجه هذه الحملة، وان يخضع امير بني عباس الذي استمر ثائرا متمردا على الاتراك، يهدد ظهورهم كلما حاولوا التوجه نحو المغرب ، فعمل ان يفكر في حملة اخرى على عبد اللــه يمحو بها اثر اخفاق حملته .

وقد تمكن حسن من تحقيق انتصار كبير على حملة دالكوديت الثالثة على مستغانم، في اوت ١٥٥٨، اي بعد شهور قليلة من فشل الحملة الجزائرية على المغرب، مما يدل على ان الاسبان ارادوا استغلال الهزيمة التي مني بها الجيش الجزائري في وادي اللبن، لتحقيق اطماعهـم في احتلال مدينة مستغانم الهامة .

ويبدو ان الاسبان كانوا يعتقدون ان السعديين سينتهزون بدورهم فرصة انتصارهـــم في وادي اللبن ، وفرصة هجوم دالكوديت على مستغانم ليهاجموا تلمسان والغرب الجزائري فيشتتوا جهد الاتراك وتوتهم فيسهل عليهم الانتصار . ولكن السعديين لم يجرؤوا على مهاجمة تلمسان في هذه السنة . وسنرى بعد قليل اسباب ذلك . فواجه الاسبان قوة الاتـــراك والجزائريين وحدهم ، فانكسروا واصيبوا بكارثة حيث لم يسلم احد من افراد الحملة ، فاما قتيلا او اسيرا . (4) وتحول توجه حسن الى قلعة بني عباس في اعقاب هذا الانتصار على امل استئصال شأفة المتمردين هناك بزعامة عبد العزيز امير بني عباس استمال الامير السعدي ، عبد المؤمن

(1) نفسه ص ٤٤٢ - ٤٤٤
(2)(3) نفسه : ص٤٥٤-٤٥٧
(4) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .

الذي فر من اخيه عبد الله خوفا منه على حياته ، وقربه منه وزوجه من ابنته ، وكان قد استقبل قبل ذلك اثنين من اخوته وهما عبد الملك واحمد .(1)

وفي بني عباس ببلاد القبائل جنوبي بجاية استطاع حسن بن خير الدين بعد معارك عنيفة ان يقضي على عبد العزيز ، ولكنه لم يتمكن من اخضاع اخيه امقران الذي خلفه ، اذ اضطر للعودة الى الجزائر للظروف التالي ذكرها :

التدخل السعدي الثالث في تلمسان :

968 هـ / 1560م

1- لم يغفر عبد الله بن محمد الشيخ لحسن بن خير الدين تدبير اغتيال والده ، وانتهازه الفرصة لشن هجوم كبير على المغرب، ثم ترحيبه باخوته وايوائهم وتقريبه لهم (٢) . ولكنه لم يحاول في البداية استغلال انتصاره غير الحاسم في وادي اللبن ليقوم بهجوم مضاد على تلمسان او حتى على بادس لانتزاعهما من ايدي الاتراك العثمانيين وذلك لان المغرب كان يعاني في سنة ١٥٥٨ من وباء عظيم (كسا سهل المغرب وجبله ، وافنى كماته وابطاله) (٣) ، مما لم يكن ليسمح له باعداد هجوم مضاد . ولانه كان في حاجة حينئذ الى ان يوطد سلطته في المغرب، ويثبت كرسي الحكم له ولابنائه . فقام بهذا الصدد بقتل اخيه عثمان الذي برز في المعارك ضد الحملة الجزائرية فزاد تشعبيته ، مما اثار غيرته ومخاوفه منه (٤) . وقتل ايضا اثنين من ابناء اخوته ، بدعوى انهما لم يقوما بما كلفهما به على الوجه المرضي وكان قد أسند اليهما ولايتي درعه ومكناسه . والواقع كما يذكر طوريس المعاصر لعبد الله انه كان يريد تصفية الجو لابنائه (٥) . وحاول استدراج اخيه عبد المؤمن اليه ليتخلص منه ايضا بدعوى التشاور معه في شان تحرير مازاكان ولكن هذا الاخير تنبه لغرضه فالتحق بتلمسان (١٥٥٩) ومنها الى الجزائر حيث لقي كما ذكرنا ترحيبا قويا لدى حسن بن خير الدين وحظوة كبيرة عنده ، فاق مالقيه اخواه عبد الملك واحمد لديه اذ لم يكتف باتخاذه صهرا له فقط بل اسند اليه ايضا حكم تلمسان ليكون شوكة في جنب عبد الله ، يزعجه بها (وتم تنصيب عبد المؤمن على تلمسان لان في ذلك مضرة لحاكم فاس ونفعا للجزائر ...) (٦) . الامر الذي اثار مخاوف كبيرة لديه، اذ خشي ان يأتوه من الجزائر بحملة

---

(١) انظر عن دوره : حسني عباس فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٤١٦ . البناهي المرجع السابق ص٤٢١
(٣) الافراني : النزهة ص٥٠ وابن القاضي درة الحجال ج٣ ص٢١١
(٤) طوريس المرجع السابق ص٤١٣
(٥) طوريس المرجع السابق ص٤١٣ .
(٦) مهمة دفتري رقم ١٨ ص١٥

من الترك ، فاخذ (... في تعبئة الجيوش وترتيبها ، وادخار الذخائر ، واستعدادها ، وتكثير العدة وآلات الحرب وتعمير خزائن البارود ، واهرية الزرع ، وغير ذلك مما يحتاج اليه ، ويتحصن به من الروائع ، ويحصل به الدفاع ...) (١) . وسعى للبحث عن حليف خارجي او اكثر ، فتقرب من انكلترا وملكتها اليزابيث ، ومن فرنسا عن طريق انطوان دو بوربون ملك النافار ، وتهيأ في بادئ الامر ان يسلم لهذا الاخير موقع القصر الصغير بين سبتة وطنجة مقابل مساعدات عسكرية واسلحة (٢) ، دون ان يقطع الصلة مع الاسبان ، وان مالت علاقاته معهم نحو الفتور بعض الوقت في اعقاب تقاعس الاسبان عن مد السعديين بما يلزمهم من مدفعية لاستغلال تلمسان في جوان ١٥٥٧ كما ذكرنا ، وعدم تحركهم ضد الاتراك ابان حملة هؤلاء على المغرب ، وتقاعسه هو عن المشاركة في الحملة الاسبانية على مستغانم في اوت ١٥٥٨ كما كان الاسبان يأملون ، لتتحسن بعد ذلك في السنوات الاولى من العقد السابع من القرن السادس عشر الميلادي .

ولما وطد عبد الله سلطته في المغرب ، ووطد علاقاته مع الاسبان لم يتردد حينئذ في استغلال الظروف الصعبة لخصمه حسن بن خير الدين ، الداخلية منها كانشغاله بقمع تمرد بني عباس ، والخارجية كالمخطط الذي اعده الاسبان وحلفاؤهم المسيحيون بتحريض من البابا بيو الرابع للقضاء على الوجود العثماني في الحوض الغربي للمتوسط والمتمثل في حملة ضخمة على القواعد العثمانية بدءا من طرابلس ، فالقواعد الواقعة الى الغرب منها . فحرك قواته نحو تلمسان في الوقت الذي كان فيه حسن بن خير الدين [illegible] اخوان خليفة عبد العزيز امير بني عباس ، وفي الوقت نفسه الذي تحركت فيه الحملة الاوربية المسيحية الضخمة نحو طرابلس وجربة (١٥٦٠) ، ولعل تحركه كان بالتنسيق مع الاسبان وهو ما يعتقده لوفرامون وعزيز سامح وآخرون (٣) . وكان انصار السعديين في تلمسان قد ثاروا واقتتلوا مع اتراكها في سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م (٤) . ويبدو ان ذلك كان بايعاز من السلطان عبد الله نفسه تمهيدا لتدخله في المدينة . اذ امر في اعقاب هذه الفتنة اجناده بالتدخل بدعوى انقاذ من استغاث بهم من اهلها . وقد قام اجناده فعلا بنقل بعض التلمسانيين الى فاس بينهم طائفة من علمائها وفقهائها في السنة المذكورة (٥) . ولكن السعديين لم يحتفظوا طويلا بالمدينة .

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص ٣٦
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(٣) تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١١ ؛ الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ص ٥٦ – ٥٧
(٤) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧
(٥) نفسه ص ٨٦ – ٨٧ ، ٩١ وغيرها (تراجم بعض من نقلوا من تلمسان الى فاس)

ويبدو ان انسحابهم السريع كان نتيجة عودة حسن بن خير الدين بسرعة من بلاد القبائل الى مدينة الجزائر لمواجهة الموقف الجديد في الغرب الجزائري . ونتيجة ايضا لاخفاق الحملة الاوربية المسيحية في جربة سنة ١٥٦٠ (١). وانكسارها امام الاسطول العثماني ، تلك الحملة التي كان من المتوقع ان تشغل حكام الجزائر عما يجري في الغرب الجزائري . او ان غرض عبد الله كان فقط تهديد تلمسان لجعل حسن بن خير الدين يفك الحصار عن بني عباس الذين كانوا حلفاء للسعديين ، ليس فقط بحكم العداء المشترك للاتراك العثمانيين ولكن ايضا بحكم انهم سبق وعرضوا على السعديين في عهد محمد الشيخ التعاون للقضاء على الحكم العثماني في الجزائر . وهذا الغرض قد تحقق حيث عاد حسن بن خير الدين على عجل الى مدينة الجزائر قبل ان يتم اخضاع بني عباس او القضاء على امارتهم كما كان مصمما ان يفعل

وقد قدر عبد الله في الواقع جهدا الخطر الكبير الذي كان سينجم عن القضاء على بني عباس من قبل الاتراك ، اذ سيتفرغ هؤلاء حينئذ له . ولن يكون في ظهرهم من يزعجهم . او يلهيهم عنه خصوصا بعد ان اصبح بنو القاضي اصهارا لاتراك الجزائر (٢). الا ان التدخل السعدي الثالث في تلمسان لا يزال الغموض يكتنف تفاصيله .

١٥- سبيل العلاقات بين عبد الله وحكام الجزائر نحو السلام القلق :

واذا تساءلنا الان عما كان رد فعل حسن بن خير الدين على هذا التدخل السعدي الجديد ، ومن موقف السلطان العثماني من الصراع الدائر بين ايالة الجزائر والمغرب وجدنا ان حسن بن خير الدين قد شرع فور عودته الى الجزائر من بلاد القبائل في اعداد حملة مضادة على المغرب ، ولكن ميله الى الاستعانة بأهل القبائل اصهاره الجدد بشكل مثير للانتباه ، جعل جند الجزائر الانكشارية يتشكك في حقيقة نواياه ، ولم يلبث ان القى القبض عليه (اكتوبر ١٥٦١) ، وارسله الى استانبول مقيدا بتهمة الميل الى الاستقلال عن الدولة فتأجل مشروع الحملة (٣) . اما السلطان العثماني الذي جاءه عبد الملك متحمسا لانتزاع الملك من اخيه عبد الله ، وطلب مساعدته بحملة لتحقيق هذا الغرض ، فقد آثر ان يجرب مع السلطان السعدي مرة اخرى الاسلوب الدبلوماسي الهادئ في وقف النزاع القائم بينه وبين ايالة الجزائر ، وبينه وبين اخوته الذين لجأوا الى اتراك الجزائر . فارسل اليه رسولا لهذا الغرض .

وفي مراكش لقي الرسول العثماني استقبالا حسنا ، واكراما جزيلا لدى السلطان عبد الله السعدي ، وتوصل معه الى اتفاق مبدئي التزم فيه عبد الله بارسال هدية سنوية لا ضريبة تهدية للسلطان العثماني ومنحة فصلية لاخوته في الجزائر . وعاد الرسول العثماني ، ومعه

---

(1) Monchicourt: l'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba, Paris 1913.

(٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر

(٣) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر ايضا

كاتب السلطان السعدي ابو محمد السرغيني لمناقشة شروط الاتفاق مع السلطان العثماني نفسه ، وحمله عبد الله بهذه المناسبة ، هدية ثمينة الى هذا الاخير (ودفع له مالا موفرا ونفائر من الذهب والياقوت ، ودفع له علامات وسيوفا مفضضة ومذهبة واعطاه ذخائر .... وجبر له مافي الهدية (١) .) كما ارسل من كاتبه المذكور خمسة الاف (مثقال ٢) وقال لهم (لكم علي ذلك في كل وقت وفصل من الفصول والمواسم ، بأتيكم الى تلمسان او الجزائر مع التجار ، ولا تلحقكم الفاقة ، وانا بالحياة ...) (٢). وافتح هنا قوسين قبل متابعة الرحلة مع المبعوث المغربي لا شير منذ الآن بان عبد الله لم يف بالتزاماته لاخوته . اذ لم يلبث كما تؤكد ذلك الوثائق العثمانية ان نقض التزامه الذي قطعه على نفسه لاخوته ، فاضطر هؤلاء لشكايته الى السلطان العثماني (٣) الذي امر لعبد الملك ، وعبد المؤمن بالمساعدة التي كانا يتلقيانها قبل ان ينعم عليهما اخوهما بالمنحة التي تقدمت الاشارة اليهما ثم يقطعها . وكانت المساعدة التي تقدمها الجزائر للاميرين السعديين ولمن رافقهما هي كما وردت في وثيقة عثمانية (... منذ البداية الف زياني ذهبي شهريا لعبد الملك ولاخيه عبد المؤمن ، وكان يعطى لهما ستة آلاف زياني ذهبي كمخصص عن ستة اشهر من ناتج قلعة وطن ، وما تبقى كان يعطى لهما نقدا من الحاصلات الاخرى للولاية ...) (٤) .

وفي استانبول اخذ المبعوث المغربي مع السلطان العثماني في الكلام والاتفاق ((وقبل الكاتب ما اشترطه السلطان مراد (٥) (كـــذا) من دفع المال كل سنة . واخذ الكاتب (٦) في الرجوع الى المغرب ولما رجع اعلم مولاي عبد الله بما ذكره من الشروط وقبولها فرضي بذلك كله)). واذا كان المؤلف المجهول الذي اشار الى هذه السفارة لم يفصح عن كل الشروط التي قبلها عبد الله ، فانه من المتوقع ان يكون من بين هذه الشروط الكف عن التدخل في تلمسان ، مقابل التزام السلطان العثماني بعدم التدخل ضده في المغرب او مساعدة اخوته على الهجوم ضده . اذ لوحظ توقف السلطان السعدي عن التدخل في تلمسان منذ سنة ١٥٦٠ ، وعدم قيام الاتراك العثمانيين بالتدخل في المغرب طوال عهد عبد الله وعدم مساعدتهم لاخوته علـــى التدخل ضـــــده .

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص٣٥
(٢) نفسه : ص٣٦
(٣) انظـــر شكوى عبد الملك في مهمة دفتري رقم ٤ (ص٦٦ ٠ (بتاريخ ٢٦/١/٩٧٩هـ
وانظر ايضا مهمة دفتري رقم ٦ ص ٤٥١ بتاريخ ٧/٩٦٩ ش (نقض الصلح)
انظر الامر في مهمة دفتري رقم ٧ ص ٨٩٦ حكم رقم (٤٤٢) بتاريخ ١٨/٥/٩٧٦هـ
(٤) علما لا شك ان ان عبد الله توفي في جانفي ١٥٧٤ قبل ان يتولى مراد الثالث والسلطان
(٥) المعني كما يتضح من سياق الوثائق العثمانية هو سليمان القانوني اذ ان نقض عبد الله صلحه مع اخوته كان في عهد سليمان انظر مهمة دفتري رقم ٦ ص٤٥١ والوثيقة بتاريخ ٧/٩٧٢/٩ (نقض الصلح)
(٦) المجهول : المرجع السابق ص٣٦

ومكذا نجحت الطرق الدبلوماسية في التوصل الى اتفاق مع السلطان السعدي، سمح لحسن بن خير الدين الذي عين للمرة الثالثة على رأس حكومة الجزائر في سنة ١٥٦٢ (١) بعد ان نجح في حركة نمته من الهزيمة التي ألحقها به الجند الانكشاري في الجزائر ، بأن يوجه جهوده ومركزها في ضرب الاسبان في وهران والمرسى الكبير سنة ١٥٦٣ . اما عبد الله فقد اعتبط بهذا الاتفاق مساعي اخيه عبد الملك لجر السلطان العثماني للتدخل ضده في المغرب، وبالتالي فقد جنب بلاده خطرا جسيما بفضل المرونة التي ابداها تجاه السلطان العثماني واغوته .

فهل اطمأن الجانبان الجزائري والمغربي الى بعضهما بعد هذا الاتفاق ؟ السعدي الذي ظل لا يبد و ذلك لمن يرصد حركات الطرفين ، ولا سيما حركات السلطان ... مارة هؤلاء على بادس وغيرها يتوجس خيفة من الحوة اللاجئين عند اتراك الجزائر ، ومن تر ... من ذلك وقنط منه ، وخاف ان تخرج من موانئ ومراسي شمال المغرب ، (فاهتم مولاى عبد الله من ذلك وقنط منه ، وخاف ان تخرج عمارة الترك من تلك البلاد الى المغرب ...) (٢) . ومنذه المخاوف جملته يكتب الى سلطان النصارى (واتفق معه ان يخلي له الايالة من حجر بادس ويبيع له البلاد ، ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية ...) (٣) .

وقد قام الاسبان بشن هجوم على بادس في سنة ١٥٦٣ ، مباشرة بعد فشل حملة حسن بن خير الدين في احتلال وهران والمرسى الكبير في تلك السنة . ولكن حملتهم اخفقت هي الاخرى في احتلال حجر بادس وفشلت في الاحتفاظ ببلدة بادس ، ولا يعود الفضل في احباط هذه الحملة الاسبانية التي كانت بقيادة سانشو دو مارتنازد و لنفا (SANCHE DE LEYVE) الى جهود عبد الله وجيشه وانما الى جهود اتراك الحامية وجهود المجاهدين الاحرار في بادس والمناطق المجاورة لها الذين هبوا للدفاع عنها ، وكبدوا الحملة خسائر كبيرة اضطرت قائدها في نهاية الامر الى الامر بالانسحاب (٤) في الوقت الذي انتهز فيه عبد الله موت مولاى عمار اميرد بدو في هذه السنة (١٥٦٣) المقدم على ضم امارته في شرق المغرب الى مملكته ، وسلطته المباشرة . وقد كان اميرها كما رأينا يتقرب من أتراك الجزائر كلما رأى في ذلك مصلحة له . او بـــدت لـــه فائدة من وراء تقربه (٥) .

---

(١) انظر حول ولايته الثالثة فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢)(٣) المجهول : المرجع السابق، ص ٣٦ ومارمول المرجع السابق ج٢ ص ٢٥١ - ٢٥٨
(٤) م.م. تشم. فرنسـا : ج (٥) ص ٢٤٥
(٥) مارمول : نفس المرجع السابق ص ٢٦٩

وقد عاد الاسبان في السنة التالية (١٥٦٤) الى بادس وحجرها في حملة ضخمة بقيادة دون غارسيا الدي تليدو نائب الملك في قطلونيا تتألف من ١٤٠٠٠ جندي من قوميات مختلفة اسبانية وبرتغالية والمانية وايطالية وسبعين غاليرة ، ونجحت في احتلال بادس ثم حجرها في ٦/٩/١٥٦٤ (١). وعمت الافراح اسبانيا والبرتغال (٢) ، اذ كان الوجود العثماني في حجر بادس قد الحق بسفنهم وشواطئهم ابلغ ضرر ، وقدرت خسائرهم خلال فترة احتلال العثمانيين لحجر بادس (١٥٥٤ - ١٥٦٤) بنحو مليون دوكات ، واكثر من اربعة آلاف اسير في خلال عشر سنوات (٣). فقط واستراح عبد الله من جهته (وتهنى من الترك من تلك البلاد) (٤) . وكان اهل بادس قد استنجدوا به (لعدم علمهم بصنعه سرا اى بتواطئه) ( ) وخرج ابنه محمد على رأس جموع المسلمين ، ولكن خروجه كان متأخرا ، فبلغه خبر استيلاء [illegible] ارى على بادس وحجرها عند وادي اللبن باحواز فاس فقفل راجعا ، وعاد عبد الله الى [illegible] دون ان يقوم بأى محاولة لاسترداد حجر بادس الى المغرب ما يؤكد ما ذهب اليه المؤلف المجهول .

ويبدو ان عبد الله على كسب ود الاسبان وصداقتهم في وجه خطر الاتراك المحتمل ضده جليا في قضائه عام ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م على امارة بني راشد في شفشاون التي كانت تقوم بأعمال الجهاد ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية في شمال المغرب . ثم في عزله لقائد تطوان في سنة ١٥٦٧ ، الذى كان يقلق الاسبان بأعمال الجهاد والغزو البحرى .

وقد قام الاسبان من جهة اخرى في اعقاب نجاحهم في احتلال حجر بادس للمرة الثانية بمحاولة غلق مدخل تطوان في سنة ١٥٦٤ ، للحيلولة دون تردد السفن الجزائرية اليها ، ودون خروج غزاة تطوان أو دخولهم . الا ان محاولتهم ذهبت هباء ، اذ ان التيار مالبث ان جرف حطام السفن التي اغرقوها في المدخل ، وهي محملة بالصخور وفتح مجالا لمرور سفينة كبيرة بكل سهولة (٦).

ونتيجة لهذه النجاحات التي حققها الاسبان في بادس وحجرها وتطوان ، والتي حققها هو في شفشاون وبادو ، تقلص النفوذ العثماني في شمال المغرب وشرقه فشعر عبد الله باطمئنان اكبر على مملكته ، (وتهنى من الترك من تلك البلاد) . ثم اقدم على نقض

(١) نفسه [illegible] وما يليها و م.م.ت.م فرنسا ج١ ص٢٦
(٢) [illegible] فرنسا ج١ ص٢٦٤
(٣) الناصرى : الاستقصاء نفس المصدر ص٢٤٣
(٤)(٥) المجهول : المرجع السابق ص٣٧
(٦) مارمول : المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤

الصلح الذي قام بعقده بعض الصلحاء بينه وبين اخوته في اعقاب قيام هؤلاء بحركة مناوئة ضده باءت بالفشل (١). فعاد هؤلاء للشكوى من اخيهم عبد الله (٢). وانتهز حسن بن خير الدين الفرصة ليطلب من السلطان العثماني بالحاح ارسال الاسطول العثماني الى الجزائر لضرب الاسبان في وهران والمرس الكبير، وحليفهم عبد الله الذي ظهر عداؤه للاتراك من خلال مواقف عديدة، كموقفه من احتلال بادس وحجرها من قبل الاسبان على سبيل المثال.

ولكن السلطان العثماني آثر ضرب الاسبان وحلفائهم ابتداء من جزيرة مالطة، ثم التفرغ بعد ذلك لعبد الله، وجاء في جوابه لطلب حسن بن خير الدين بهذا الصدد مايلي:

(... وحتى واجبات هذه الغزوة الشريفة بمشيئة الله الاعز، فاذا اصر حاكم فاس الموسى اليه (عبد الله) على العداء والخلاف، ولم يصل الى طريق الصلح والصلاح فان ردعه عن تصرفاته سيكون من واجبات السلطنة، ويجب الاعداد له بين اوان الوقت والفرصة المناسبة..) (٣)

ويبدو ان عبد الله شعر بالاستعدادات التي كان يجريها حسن بن خير الدين في الجزائر، تلك الاستعدادات التي كانت بقصد المشاركة في الحملة على مالطة، فخشي أن تكون موجهة ضده، لان حسن بن خير الدين تكتم عن وجهتها، تتقرب من هذا الاخير، وعقد معه تحالفا ضد الاسبان في النصف الاول من عام ١٥٦٥م. وبذلك بلغ ذروة التذبذب بين الاسبان والاتراك العثمانيين.

على ان هذا التقارب قد يكون تم بمبادرة من حسن بن خير الدين نفسه، حيث كان هذا الاخير في حاجة ماسة الى الاطمئنان على الجزائر قبل ان يخليها مع معظم قواتها للمشاركة في الحملة على مالطة، مستغلا على الارجح مخاوف عبد الله.

وقد اشارت الى التحالف الجزائري المغربي المذكور وثيقة انقليزية بتاريخ ١٥٦٥/٦/٣٠ جاء فيها: ((قد أنهى الى سمع الملك "فيليب الثاني" ان ملك الجزائر "حسن بن خير الدين" والشريف "عبد الله بن محمد الشيخ"، قد عقدا بينهما حلفا عظيما، وانهما بموجبه قد صمما العزم على محاصرة وهران. وبناء على هذا النبأ فان الملك فيليب الثاني قد عهد الى جوليان رومرو رئيس المعسكر بأن يضع في وهران ألف جندي زيادة على العدد المعتاد هناك من الجنود)) (٤)

---

(١) م.م.مثم.اسبانيا ج٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) مهمة دفتري رقم ٦ ص ٤٥١ بتاريخ ٩٧٢/٧ هـ وليس معروفا فيما لدي من الوثائق مضمون هذا الصلح الا ان يكون ماسبقت الاشارة اليه وهو تعهد عبد الله بتقديم العون المادي لاخوته في المهجر طالما هو على قيد الحياة

(٣) نفسه

(٤) م.م.مثم.انكلترا ج١ ص٨٥ و محمد بن تاويت: من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٧ المغرب ١٩٦٢ ص١٠٠-١٠١

ولكن هذا التحالف لم يظهر له اثر ملموس في عمل مشترك ضد الاسبان غير ان نوعا من حسن الجوار بين البلدين قد ساد في هذه السنة ١٥٦٥ وفي السنوات القليلة التالية ، على الرغم من أن الحملة على مالطة ، قد اخفقت . وكان من الممكن ان يستغلها السلطان المغربي ، وهذا سمح لعبد الله وللمغرب ان يعيشا في هدوء واستقرار قلما عرفاه في الماضي (وكانت ايامه ايام رفاهية وعافية) (١) . كما سمح لمحمد بن صالح رايس الذى خلف حسن بن خير الدين في مطلع سنة ١٥٦٧ بأن يلتفت الى حل النزاع الذى كان قائما بين طائفة الرياس والجند الانكشاري والى مشكلة الامن الداخلي وغير ذلك من القضايا التي كانت ما انفكت تتفاقم (٢) .

وسمح كذلك للعلج علي الذى خلف محمدا بن صالح رايس ان ينفذ حملته على تونس في سنة ١٥٦٩ ، بعد ان فشل مشروعه لتحرير وهران والمرسى الكبير ، وأن يفكر في الانتقال بعد ذلك الى الاندلس لقيادة ثورتها ، وفي مشاريع اخرى طموحة ، اتضحت فيما بعد كرغبته في ضم المغرب الاقصى ايضا تحت لواء الدولة العثمانية تمهيدا فيما يبدو للاستقلال بكل شمال افريقيا عن الدولة العثمانية (٣) .

وقد بدا عبد الله خلال السنوات الاخيرة من عهده كأنه يحرص على إبعاد انظار الاتراك العثمانيين عن المغرب ما أمكنه ، اذ لم يحاول عرقلة مشاريعهم التوسعية نحو الشرق ، ولم ينتهز فرصة انشغالهم بحملتهم على تونس ليقوم بعمل عدائي ضد الجزائر ، مما كان قد يثير جيرانه عليه . وهذا الميل المتبادل الى السلام بين اتراك الجزائر العثمانيين والسلطان عبد الله السعدي في النصف الثاني من العقد السابع ، من القرن السادس عشر لم يكن ليرضي اخوة عبد الله في الجزائر الذين كانوا يودون منازعته في الملك ، ويرغبون في مساعدة الاتراك لهم . فقام عبد الملك الذى يئس من مساعدة الاتراك له بطرق باب الاسبان هو الآخر ، وهو في الجزائر عله يحصل منهم على ما يحقق به طموحاته ولو على حساب الذين أكرموه وآووه .

وتذكر الوثائق الاسبانية انه اخذ منذ سنة ١٥٦٩ يجري اتصالات سرية مع الاسبان بواسطة أندريا غاسبارو كورسو (Andria Gasparo Corso) ، واخوته الذين كانوا يترددون على الجزائر ويتظاهرون بالاشتغال بالتجارة ، وافتداء الاسرى ، وهم يشتغلون في نفس الوقت بالجوسسة والاستخبارات . (٤) .

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص ٣٢
(٢) هايدو : المرجع السابق ص ١٣١ وانظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٤٣ والحياة السياسية في الجزائر
(٤) انظر عن الاخوة غاسبارو وهم أندريا ، فرانسيسكو ، فيليب ، وماريانو وخامس غير معروف الاسم م . م . ت . م . اسبانيا ج ٣ ص ١٥٧ - ١٥٩

ومنذ الاتصالات الاولى ابدى عبد الملك رغبته في التحالف مع فيليب الثاني ، واستعداده للتعاون معه على طرد الاتراك العثمانيين من كل بلاد البربر على ان يكون ملكا على كل (بلاد البربر الداخلية) ، وان يحصل فيليب الثاني على البلاد الساحلية وأوضح انه يكفيه اذا لم يرد فيليب الثاني القيام بحملة على بلاد البربر ، ان يوفر له المال والسلاح فقط لاخراج الاتراك من شمال افريقيا في غضون عام ، وذلك بمساعدة اميرى كوكو وبني عباس اللذين عرضا عليه مرارا ان يكون على رأس ثورة عامة ضد الاتراك ، وكان تحت امرة هذين الاميرين خمسة عشر الفا من حملة البنادق النارية وكثير من الفرسان . وعرض عبد الملك في مقابل المال والسلاح المطلوب من الاسبان ان يقدم اثنين من ابناء اخوته ليكونا رهينتين لديهم[1] .

ولكن الاسبان استفادوا في الحصول على المعلومات عن تحركات الاتراك ونواياهم[2] ، ولم يمدوه بالمال والسلاح كما كان يرغب ليحقق مآربه .

ويبدو ان عبد الله الغالب بالله السعدي قد شعر باتصالات اخيه عبد الملك مع الاسبان عبر الاخوة فاسبارو ، واتصالات اخيه عبد المؤمن بهم عبر حاكم وهران (٣) ، واتصالاتهما ببعض المغاربة ، وتآمرهما عليه مع هؤلاء وأولئك ، فأوعز الى ابنه ، وولي عهده محمد نائبه على فاس بأن يبحث عن يغتال عبد المؤمن في تلمسان . فوجد محمد احد ثقاته لهذا الغرض، وتظاهر المبعوث بأنه هارب ، من المغرب اليه ، ناقم على السلطان وابنه ، راغب في خدمته ، ولما فاز بثقته اغتاله في احد ايام الجمعة من سنة ١٥٧١ (٤) . وهو يصلي . وتمكن من العودة ثانية الى المغرب . وعوضا ان يحصل على مكافأة ، امر السلطان بقتله حتى يخفي نفسه ما فعله (٥) .

وقد منح السلطان الثاني العثماني ولاية تلمسان بعد مقتل عبد المؤمن الى اخيه عبد الملك (على الوجه الذى اعطيت لاخيه المتوفى ، وامرنا بحرية تصرفه بها كما كان ذلك لاخيه من قبله ...) (٦) . وحفظ لابناء عبد المؤمن ماكان لوالدهم من اقطاع ورواتب . (٧)

---

(١) انظر عن هذه الاتصالات الاولى المصدر السابق ص١٦٦ – ١٧٥

(٢) نفسه : ص١٨٠ – ١٨٥

(٣) نفسه : ص١٧١ – ١٧٩

(٤) لم يقتل كما يعتقد طوريس في سنة ١٥٦٧ وانما في سنة ١٥٧١ انظر مهمة دفترية رقم ١٨ ص١٥ والمصدر السابق ص١٧٦ – ١٧٩

(٥) طوريس : المرجع السابق ص١٤٢

(٦)(٧) مهمة دفتري رقم ١٨ ص١٥

وما لبثت العلاقات بين عبد الله السعدي وحكام الجزائر الاتراك العثمانيين ان تدهورت في اعقاب مقتل عبد المؤمن، الذي كان يتمتع كما تبين بمكانة خاصة لدى اتراك الجزائر ولدى السلطان العثماني نفسه ، حتى ان هذا الاخير كان قد ارسل اليه في سنة ١٥٦٢ خلعة همايونية (سلطانية) لصداقته واخلاصه المعهودين للدولة (١) .

وقد جاء مقتل عبد المؤمن لينضاف الى عامل آخر لا شك انه كان له اثره في تذمر الاتراك على عبد الله ، واعني به تضييقه وتشديده العقاب على المرابطين الموالين للاتراك العثمانيين في المغرب ، من اتباع الطائفة اليوسفية بدعوى غلوهم وبعدهم عن جادة الصواب ، فقتل بعضهم وسجن آخرين .

ونتيجة لكل ذلك فان السلطان العثماني سليم الثاني، أوعز الى العلج علي باعداد حملة للهجوم على عبد الله مع عبد الملك ، متى سنحت الظروف له . وهذا الايعاز كان بتاريخ ٢٠/٦/ ١٥٧١ (٢) .

ولم يكن بالامكان للعلج علي ان ينفذ فيما تبقى من السنة اي هجوم على المغرب ، ذلك انه مالبث ان دعي المشاركة في صد حملة صليبية ضخمة للدول الاوربية ضد الدولة العثمانية، وهي الحملة التي انهزم امامها الاسطول العثماني شر هزيمة في ليبانتي في ٧/١٠/ ١٥٧١ ، بحيث لم ينج منه غير السفن الجزائرية تقريبا بقيادة العلج علي، الذي اسند اليه السلطان العثماني سليم الثاني في اثرها مقاليد الاسطول العثماني ، ومنصب الاميراليا . فتأجل تنفيذ الحملة على المغرب .

ولم تكن ظروف احمد اعراب الذي خلف العلج عليا في الجزائر (٣) ، وهي ظروف ما بعد الهزيمة في ليبانتي وما تبعها من مخاوف في الجزائر ان تكون هدفا لحملة مسيحية ضدها لتسمح له بتنفيذ الحملة المزمعة سابقا على المغرب ، بل انه سعى للتقرب من عبد الله الغالب بالله ، فارسل اليه مبعوثا (مراد) في آخر سنة ١٥٧٢ لعقد تحالف بينهما . ولكن عبد الله رفض استقبال هذا المبعوث (٤) . وذلك فيما يبدو ، خشية أن يثير غضب فيليب الثاني والاسبان في هذه الظروف التي انهار فيها الاسطول العثماني في ليبانتي ، والتي كان فيها الاسبان وحلفاؤهم يحاولون استثمار انتصارهم المذكور . وربما ايضا لان شخصية المبعوث الجزائري لم تكن محل الرضا لدى السلطان المغربي فهو صهر لاخيه عبد الملك ، وبواسطته كان هذا الاخير يسعى للحصول على المساعدة التي تمكنه من انتزاع الملك منه .

---

(١) مهمة دفتري رقم ٧ ص ٩٠٦ بتاريخ ٢٢/٥/٩٧١ هـ
(٢) مهمة دفتري رقم ١٤ ص ١٠٦٧ - ١٠٦٨ بتاريخ ٢٦/١/٩٧٩ هـ
(٣) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٤) م.م.ت.م. اسبانيا ج٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ هامش ٣

وقد اثار رفض استقبال عبد الله للمبعوث الجزائري المذكور مخاوف كبيرة لدى احمد اعرب في الجزائر الذي توقع بهذه المناسبة ان يقدم السلطان المغربي على غزو تلمسان التي اسند حكمها لعبد الملك (١). بعد مقتل عبد المومن في الرئيس الذي كان فيه مهددا بحملة اسبانية، ومنشغلا باجراء التحصينات لمدينة الجزائر واخماد ثورة بني عباس التي اشتد لهيبها، وثورة اهل قسنطينة. ونتيجة لهذه المخاوف بعث يطلب المدد من السلطان العثماني، ويخبره بالوضع المتردي، كما اخبر ايضا العلج عليا قائد الاسطول العثماني (٢). ولكن توقعات احمد اعراب لم تتحقق كلها، فالحملة الاسبانية التي توقعها ضد الجزائر اتجهت الى تونس وانتزعت هذه الاخيرة من ايدي العثمانيين في اكتوبر ١٥٧٣، والسلطان السعدي لم يهاجم تلمسان، بل أرسل سفارة الى السلطان العثماني برئاسة ابي عبد الله محمد الدرعي التمجروتي في سنة ٩٨٠هـ / ٧٢ - ١٥٧٢، (قضى أربه ورجع الى المغرب)(٣). ولم يذكر ابن عسكر الذي اشار الى هذه السفارة ماكان هذا الأرب، ولعله كان توضيح موقفه من السفارة الجزائرية الآنفة الذكر، وابعاد الشكوك التي اثارها حوله احمد اعراب، وتجديد رغبته في السلام مع اتراك الجزائر العثمانيين، اذ كان في حاجة الى السلام ليتفرغ لأطماع الملك البرتغالي دون سيباستيان الذي كان يهدد باسترجاع جميع المواقع التي حررها السعديون، أو تخلى عنها البرتغاليون نتيجة لظروفهم الصعبة، وفي طليعتها آغادير. مما جعل السلطان عبد الله يجري تحصينات لهذه الاخيرة على جناح السرعة (٤).

وفي السنة التي بعث فيها عبد الله السفارة، كان الملك البرتغالي قد أعد حملة بحرية ضخمة لمواجهة المسلمين في المغرب. الا ان عاصفة شديدة أغرقت السفن وكل من فيها، ورمت ببعضها على ساحل آصيلا، حصل منها المغاربة على غنائم كبيرة (٥). مما يدفعنا الى احتمال ان يكون غرض السفارة ايضا طلب المساعدة العثمانية. ولم تمض فترة طويلة على توجيه السفارة المذكورة حتى مات عبد الله، متأثرا بمرض الربو الحاد في ٢٧ رمضان ٩٨١هـ / جانفي ١٥٧٤ م

---

(١) مهمة دنتيستوري رقم ١٨ ص ٥ وانظر فصال الحياة السياسية في الجزائر
(٢) تفسير رقم ٢٢ ص ٢١٧
(٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦
(٤) ... : المرجع السابق جـ٣ ص ١١٩
(٥) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٤٨

ولو شئنا تقييم العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهده لقلنا انها كانت متقلبة من العداء في السنوات الاولى (١٥٥٧ – ١٥٦١) الى السلم المشوب بالحذر خلال السنوات (١٥٦١ – ١٥٦٥) ، الى التحالف غير الفعال في السنوات (١٥٦٥ – ١٥٧٠) ، الى الفتور في السنوات الاخيرة (١٥٧١ – ١٥٧٤) . ولقررنا بشيء من اليقين ان الثقة بينه وبين حكام الجزائر كانت دوما مفقودة لانه كان متأكدا من رغبتهم العميقة في السيطرة على المغرب في اية فرصة تسنح لهم كما كانوا هم واثقين بالمقابل بأن عبد الله لن يقبل ابدا بتبعيته للدولة العثمانية ، ولا بالامتداد الجزائري الى المغرب ، بل سيتحين اية مناسبة للهجوم على الجزائر لكسر طوق الحصار الذى احاطه به من الشرق الوجود العثماني فيها ، واشعره بالعزلة في اقصى الزاوية الشمالية الغربية من افريقيا ، ولو تحالف في سبيل ذلك مع الشيطان .

ولذا فان العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهده لم تأخذ صورتها التعاونية او التي كان يجب ان تكون ، المتصدى للاحتلال الاوربي لارض البلدين ، والمطامع الاوربية المختلفة التي اخذت تتزايد .

وقد كانت وفاة عبد الله بداية لمرحلة جديدة في العلاقات بين البلدين مختلفة عن هذه المرحلة ، كما سيتضح في الفصل التالي .

الفصل الخامس

العلاقات بين تبعية المغرب للعثمانيين وترسيخ سيادته

في الفترة ٩٨٢ هـ - ٩٩٥ هـ/١٥٧٤ - ١٥٨٧ م

آ- العلاقات في عهد المتوكل وعبد الملك :

1- محاولة المتوكل التقرب من الاتراك :

لقد مال حكام الجزائر الى السلم مع عبد الله السعدي بعد ان اخفق حسن بن خير الدين في تدخله في المغرب في سنة ١٥٥٨ كما رأينا ووجهوا جهودهم على الخصوص لضرب القوى المتحالفة ، او المتضامنة معه ، جزائرية كانت ام اسبانية ، ولتوطيد سلطتهم في الداخل ، من المشاركة في مخططات الدولة العثمانية في مالطه ، ولبانتي ، وتونس .

ولما آل الحكم في المغرب الى محمد بن عبد الله المعروف بالمتوكل على الله في رمضان ٩٨١ هـ / جانفي ١٥٧٤ ، كان الاتراك العثمانيون يخططون لاسترجاع تونس ، ودعا السلطان العثماني سليم الثاني عبد الملك للمشاركة في الحملة عليها (١) ، فتوجه في صيف سنة ١٥٧٤ مع عمارة الجزائر وصحبته اخوه احمد على رأس فركاطة ، يتألف طاقمها من نيف وثلاثين رجلا (٢) . وحظر تحريرها من الاسبان (٣) . بعد ان كان يتأهب للتوجه الى المغرب (٤) في هذه السنة لانتزاع الملك من ابن اخيه ، المتوكل على الله .

اما هذا الاخير الذي كان يدرك بدون شك نوايا عمه عبد الملك واطماعه في الملك ، فقد سارع الى ارسال سفارة تتألف من خمسة أعضاء ، ذكر الجنابي ان السفير المغربي عالم جليل اسمه ابن الشين ، تحمل هدية ثمينة الى السلطان العثماني ، ورسالة تؤكد ان هذه حرصه على مودته ورغبته في توطيد العهود والاتفاقيات السابقة وفوق ذلك انه يعترف

---

(١) م.م. ت.م.[illegible] اسبانيا جـ٣ ص ١٨٩ (وثيقة بتاريخ ٣٠/٦/١٥٧٤
(٢) الناصري : المرجع السابق ص ٤٢
(٣) ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ص ١٨٠ وما يليها
(٤) م.م. ت.م. اسبانيا جـ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧

يادة اهل أن العثماني عليه (١). وهو مالم يقبل به من سبقه من السلاطين السعديين :
((... et que le prince lui meme reconnaissait la suzerainete d
notre seigneur le sultan ...)).

ير خاف ان هذه المحاولة تندرج في اطار محاولة تأويل جهود عمه عبد الملك ، الذى كان
يسعى للحصول على المساعدة العسكرية من السلطان العثماني لانتزاع ملك المغرب منه ، كما
ن يسعى من قبل الى انتزاع الملك من والده عبد الله . وهكذا فإنه في سبيل البقاء على عرش
مغرب لم يتردد المتوكل في عرض الاعتراف بالتبعية ، وهو ما كان يأمل فيه السلاطيــــــن
عثمانيون ، ويسعون الى تحقيقه منذ عهد محمد الشيخ كما رأينا ، ولم ينجحوا فــــي
تحقيقه سواء بالترغيب او الترهيب .فهل نجحت محاولة المتوكل هذه ؟

حسب الجنابي الذى اشار الى هذه السفارة،فان السفارة المغربية قد وصلت الـــــى
ستانبول ،والسلطان العثماني سليم الثاني على فراش المرض الذى مات في اعقابه ، فاعلـــن
ن وصول السفير المغربي ، والغرض من سفارته الى مراد الثالث (٢). مما يعني ان السفارة
مغربية التي كانت في مارس على الاقل في الجزائر (٣) . تأخر وصولها الى اواخر عـــــام
١٥٧٤) حيث كانت وفاة السلطان سليم في ١٢/١٢/١٥٧٤ . وقد يكون حاجي مراد
مر عبد الملك قد عمل جهده لتأخيرها ، احباطا لما فيها المضادة لمصلحة عبد الملك
تركها في الجزائر وذهب لاعلام السلطان سليم الثاني بمضمونها ، ولكن هذا الاخيـــــر
صدر امره لرمضان باشا الجزائر بوجوب ارسال السفارة المغربية على جناح السرعة ، رفقـــة
اجي مراد المذكور،الذى كان يشغل حينئذ منصب امير لواء المديه (بايلك التيطرى) (٤).
على اثر استقبال السلطان مراد الثالث للسفارة المغربية ، بحسب رواية الجنابي جاء عبــد
لملك عم المتوكل على الله، الذى مضى على لجوئه الى الجزائر نحو سبع عشرة سنة، يطلب عون
لسلطان ضد ابن اخيه ، ومسوغا ذلك بانه احق منه في الملك (٥). باعتبار انه اكبر منـــه
سنا ، وان قاعدة انتقال الملك في المغرب كما وضعها والده محمد القائم بأمر الله السعدى،
تقضي بأن يلي الملك الاكبر في الاسرة من الابناء .

وبتحريض من العلج علي، قبطان البحرية العثمانية ،وصديق عبد الملك منذ كانا في الجزائر،
وافق السلطان العثماني على مساعدة عبد الملك ، ولكن لا قتسام الملك في المغرب بينه وبيــن
ابن اخيه (٦). وصدر الامر لرمضان باشا بالتحرك معه لتنفيذ هذا القرار (٧).

---

(١) الجنابي : المرجع السابق ٣٤
(٢) نفسه
(٣)(٤) مهمة دفترى : رقم ٢٦ ص ٢٠١ بتاريخ ١/١٢/١٩٨١هـ
(٥)(٦)(٧) الجنابي : المرجع السابق ص٣٤ وانظر حول هذا : الخلافة السعدية الافراني :
النزهة : ص٦٧

وهكذا يبدو حسب هذه الرواية ان محاولة المتوكل لم تنجح تماما في اثناء السلطان العثماني عن مساعدة عمه عبد الملك . الا انها جعلت السلطان العثماني يسعى للتوفيق بين الاثنين بقسمة المغرب بينهما ، وبذلك يرضي بحسب ظنه الطرفين ، ويحقق في الوقت نفسه مد السيادة العثمانية على المغرب . وتذهب رواية اخرى الى ان عبد الملك الذى شارك في تحرير تونس وحلق الوادى في سنة ١٥٧٤ ، كما ذكر ، كان اول من بشر السلطان العثماني بالنصر عن طريق امه التي كانت تقيم بدار السلطان ، اذ نجح رسله في ايصال الخبر الهـــام قبل وصول البريد الرسمي المرسل من قبل قائد الحملة سنان باشا وعلج علي قائد الاسطول ، وانتهزت فرحته بالخبر فطلبت منه ان يصدر امرا الى باشا الجزائر بالمسير في حملة مع ولـــدها لاخذ حقوقه في ملك المغرب من ابن اخيه محمد المتوكل على الله . فلم يتردد في الاستجابــة لطلبها بعد ان تأكد من صدق النبأ من رسل قائد الحملة (١) . ولكن السلطان العثمانـي الذى كان مريضا مالبث ان توفي بعد ذلك بقليل قبل ان تنفذ الحملة على المغرب . وقـــد ذكر سابقا ان السلطان سليما الثاني كان قد اوعز للعلج علي بالتحرك الى المغرب في حملة مع عبد الملك في ٢٠ /٦/ ١٥٧١ ، اذا كانت الظروف مواتية ، ولكن الظروف لم تواته ولـــم تواته ايضا احداث اعراب الذى خلفه . واصدر بعد ذلك كما في ٢٥ /١٠/ ٩٧٩ هـ علـى ١١ /٣/ ١٥٧٢ بوضع مقاطعات فاس ومراكش والسوس تحت تصرف عبد الملك اذا تيســر له اقتران تلك الولايات به كما كانت عليه ايام والده المتوفى (٢) . مما يعني الاعتراف مـن الدولة العثمانية بعدم تجزئة المغرب .

ولكن موت السلطان قبل تنفيذ الحملة على المغرب جعل عبد الملك مضطرا لتجديد طلب العون من السلطان العثماني الجديد ، وتجديد عروض ولائه وتبعيته له ، حتى يأمر رمضـان باشا الجزائر بالتحرك معه في حملة على المغرب. ويلاحظ أن الرواية الثانية لا تشير الى ماذكره الجنابي من تقسيم المغرب بين عبد الملك وابن اخيه محمد المتوكل على الله . ولكن مجريات الامور تدل كما سنرى على ان الاتراك العثمانيين لم يساعدوا عبد الملك الا على أخذ مملكــة فاس ، مما يعزز رواية الجنابي .

---

(١) المجهـول : المرجع السابق ص٤٦ - ٤٧ والافراني النزهة ص٦٢

(٢) مهمة دفتري رقم ١٢ ص٤٤٥

الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب : ١٥٧٦ - ٨٤ هـ

كان هدف هذه الحملة كما اسلفنا مساعدة عبد الملك على اخذ حقه في الحكم ، ولكن رمضان باشا الذي تلقى امرا بالتحرك في حملة مع عبد الملك الى المغرب ، امتنع عن تجريد الحملة ، مالم يدفع عبد الملك تكاليفها ، او يتعهد هو واخوه احمد خطيا بدفع تكاليفها بعد تنفيذ نجاحها ، فما كان من عبد الملك واخيه الا ان وافقا على الحل الثاني ، اذ لم يكن لديهما مال للدفع حينئذ وقدرت تكاليف تجهيز الحملة بخمسمئة الف مثقال ، وراتب الحملة ومؤونتها عن كل يوم عشرة آلاف مثقال الى يوم رجوعها ، (واعطيا خط ايديهما) (١). على هذا الاساس . وتم تسجيل كل ذلك في دفتر بحضور القاضي والفقهاء .

وشرع الاخوان في اثر ذلك في التمهيد للعودة الى المغرب فوجها الرسل لشيعتهما فيه ، ولرؤساء القبائل يخبرانهم بامر الحملة ويدعوانهم لأن يكونوا على استعداد لمساندتها ويهددان من رفض الدخول في طاعتهما (٢). وقد كان لعبد الملك انصار من بين قادة المتوكل ، في فاس يرغبون في عودته الى المغرب ، واخذ الملك من ابن اخيه (٣). ولا سيما من بين الاندلسيين ، اذ كان هؤلاء يكرهون مولاي عبد الله ووالده محمدا لتخاذلهما عن مساعدة الاندلسيين في ثورتهم على الاسبان في الاندلس سنة ١٥٦٩ ، وكانوا على استعداد للانتقام من محمد المتوكل على الله (٤).

وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يسعى جاهدا للحصول على مساعدة الاتراك العثمانيين له بحملة على المغرب ضد ابن اخيه محمد المتوكل على الله، كان هذا الاخير (٥) يعد بدوره الترتيبات ، ويجند الاجناد اللازمة لمواجهة عمه حتى توفر لديه ستة وثلاثون الفا. كما كان يتقرب من اعداء الاتراك العثمانيين كالاسبان والبرتغاليين ، ويوطد الصداقة مع الانكليز على امل ان يستفيد من كل ذلك في تعزيز سلطته في المغرب ، وفي مواجهة الخطر الذي بات محققا ان يأتيه من جهة الشرق . فابدى رغبته للاسبان في التحالف معهم ، ورغبة مماثلة للبرتغاليين (٦). بعد ان خاض ضد ملكهم الشاب الطموح سيباستيان عدة معارك حول طنجة في سنة ١٥٧٤ (٧)، وعقد مع اليزابيث ملكة انكلترا اتفاقية نصت

(١) الزياني : المرجع السابق ص٣٥٢ - ٣٥٣
(٢) نفسه : ص٣٥٣ وهايد و المرجع السابق ص١٦١ م.م.ت.م انكلترا ج١ ص١٥٣
(٣) م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ و م.م.ت.م
(٤) المجهول : المرجع السابق ص ٤٨
(٥) نفسه : ص٤٩
(٦) م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص٢٢٥ - ٢٢٨ والسلاوي : الاستقصا ج٥ ص٨٥
(٧) م.م.ت.م فرنسا ج١ ص٣٣٩

على تأمين السفن الانكليزية من الغزاة المغاربة ، وعلى السماح للانكليز بالاتجار في المغرب ، بشرط دفع العشر مع المعاملة بالمثل للتجار المغاربة ، وعلى خضوع الانكليز لما يخضع له المغاربة من خراج وجباية ، وعلى ان يكون للانكليز سفير في المغرب وللمغاربة سفير في انكلترا (١).

كانت الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب تتألف من ستة آلاف من حملة البنادق الاتراك وألف من اهل زواوه اتباع امير كوكو ، وثمانمئة من السباهيين ونحو ستة آلاف من الفرسان العرب الاخرين ، واثني عشر مدفعا وكميات كبيرة من القذائف والذخيرة (٢) ، وترأسها رمضان باشا نفسه ، ورافقه طبعا عبد الملك الذى اصطحب أخاه أحمد ، وداود وعمرابني اخيهما المؤمن ، وغيرهم من اشياعه واتباعه (٣).

وقد اخذت الحملة في التحرك نحو فاس على طريق البر تواكبها سبع عشرة سفينة[4] على طريق البحر ، وذلك في اواخر جانفي ١٥٧٦ م (شوال ٩٨٣ هـ) . ووصلت دون اى مقاومة حتى مشارف فاس في اوائل مارس ١٥٧٦ ذى الحجة ٩٨٣ هـ وهناك وجدت في مواجهتها قوات المتوكل على الله المؤلفة من نحو ثلاثين الف فارس مغربي ، ومثلها من المشاة بينهم نحو ثلاثة آلاف من حملة البنادق النارية العلوج والاندلسيين (٥) ، وعدد كبير من الانفاض (المدافع) .

و ((لما التقى الجمعان بالركن من احواز فاس " تهل الثامن من مارس ١٥٧٦ (٦) ، مال عسكر اهل الاندلس الى عبد الملك وجروا عليه الهزيمة على سلطانهم " محمد المتوكل على الله " حسبما وقع الاتفاق على ذلك (٧) . بالمراسلات على يد ابي الفضل الغسرى (٨) ، المتوسط في ذلك)) (٩).

وممن مال ايضا عن محمد المتوكل الى عمه عبد الملك: اولاد عمران وغيرهم ، واشيع كذبا للمتوكل ان قائده وعمدته ابن شقرا قد مال ايضا الى عبد الملك . ودون ان يتحقق المتوكل من الامر فر ليلا الى فاس ومنها الى مراكش ظانا ان جنده كله سيفعل مثل الاندلسيين واولاد عمران ، وترك محلته واثقاله (١٠) . وفي الغد استولى عليها جيش الجزائر وعبد الملك

---

(١) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي . في مجلة تطوان عدد ٣ - ٤ المغرب ١٩٥٨ ١٩٥٩ ص (٥ - ٥٣)

(٢) هايدو : المصدر السابق ص (٦١) . وهناك اختلاف في الاحداث التي ذكرها هايدو والتي ذكرها غيره كالمجهول : المرجع السابق ص ٤٨ وعنده ان المحلة كانت تتألف من اربعة آلاف من الترك وشرذمة قليلة من اولاد العرب وفي وثيقة مجهولة المؤلف ايضا عدد الاتراك عشرة الاف انظر ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٩ ص ٩

(٣) المجهول : المرجع السابق ص ٤٨

(٤) م . م . ت . م : اسبانيا ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٢

(٥) هايدو : المرجع السابق ص ٦١

(٦) انظر هامش (في م . م . ت . م اسبانيا ج ٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٣) انظر تاريخ الدولة السعدية ص ٤٨ عند المجهول . ١٨ .

(٧) انظر عنه مناهل الصفا : للفشتالي ص ٤٦ - ٤٧ وهو اندلسي انتقل الى الجزائر ودخل في خدمة عبد الملك الذى اتخذه سفيرا الى اشياعه في المغرب .

(٨) نفس المرجع ص ٤٧

(٩) المجهول : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥١ والافراني النزهة ص ٦٢

(١٠)

ونادى هذا الاخير بالامان والعفو ، ورحب بمن اراد الانضمام اليه، والانضواء تحت لوائـــه فالتأمت عليه محلة ابن اخيه وجاءه اهل فاس واعيانها وهنأوه بالملازمة، وبايعوه بيعة عامة عـــن رضا منهم ، ولم يتخلف عنها احد منهم (١) . وفي اليوم التالي دخل عبد الملك مـــــع رمضان باشا الى فاس (٢) ، بدون اى معارضة ، واستقبل فيها استقبالا حسنا (٣) . ومـا كاد عبد الملك يستقر في المدينة حتى بادر الى اقتراض المال من اهلها كل حسب استطاعتــه لتسديد تكاليف الحملة وكافأة افرادها ، اذ أن ماوجده في خزينة ابن اخيه من مال وسلــع وغيرها كان غير كاف، حيث ان هذا الاخير قد اخذ قبل مغادرته لفاس ما أمكنه منها وان اهل فاس قد نهبوا ، بعيد فرار المتوكل من المدينة الكثيرة من ذخائره (٤) . ولم تمض سوى ايام قليلة (٥) على دخول عبد الملك مع جيش الجزائر الى فاس حتى دفع هذا الاخير رواتب عليه دفعه من المال لاتراك الجزائر ، وهو خمسمئة الف مثقال فضلا عن اقامة المحلة وأربعمئة وعشرين الف مثقال من عدد الايام التي استغرقتها المحلة، وهو اثنان واربعون يوما بمعدل عشرة آلاف مثقال من كل يوم (٦) ، واعطى لكل واحد من جيش الجزائر اربعين أوقيــــة (٧) ، وهدية لحكومة الجزائر تتألف من عشرين نفسا من الانفاض التي تركها محمد المتوكل في محلته، بينها مدفع ذو تسعة افواه ، وجوائح وتحف وخيول معتبرة ، وخمائل ، ودرق وسيوف ، وتلازمن (٨) ، ومئة من المستعبدين المسيحيين، الذين كانوا عند ابن اخيه فـــي فاس (٩) . فانصرفت المحلة الجزائرية عائدة الى الجزائر في اواسط شهر مارس ١٥٧٦ ، دون ان تساعده على بسط نفوذه على بقية انحاء المغرب، ولاسيما جنوبه، مما يعني ان الامر بمساعدته كان لاخذ فاس كما اشار الى ذلك الجنابي . وسار عبد الملك في وداع الحملة الجزائرية حتى اجتاز قنطرة نهر سبـــو (١٠) . وبعد ذلك مهد العدة لمطاردة ابن اخيه ، وبسط يده على المغرب ، بعد ان ضمن جانب الجزائر (١١) .

---

(١) هايدو المصدر السابق ص١٦٢ والمجهول: نفس المرجع السابق ص٥٢
(٢) حسب النزهة ودرة الحجال فان الدخول الى فاس كان في اواخر ذي الحجة سنة ٩٨٣ / اوائل مارس ١٥٧٦ ولكن حسب رسالة لعبد الملك فان الدخول يكون قد تم في ١٥٧٦/٣/٨ انظر الافراني : النزهة ص٦٢ وابن القاضي : الدرة ج٣ ص٥٧ وهامش ١ من م.م. ... اسبانيا ج٣ ص٢٢٢ - ٢٢٣
(٣) هايدو المصدر السابق ص١٦٢ والمجهول نفس المرجع السابق ص٥٢
(٤) المجهول : المرجع السابق ص...
(٥) ثلاثة ايام عند الزياني : المرجع السابق ص٢٥٢
(٦) نفسه : والمجهول المرجع السابق ص٥٢
(٧) نفسه : وعنده المثقال الواحد يساوي ٤,٥ اواق ص٤٧ ، وهناك ٤٠ وقية تساوي نحــو تسع مثاقيل ذهبيــة .

(٨) نفسه : ص٥٢
(٩) هايدو : المرجع السابق ص١٦٢
(١٠) المجهول : المرجع السابق ص٥٣
(١١) الزياني : المرجع السابق ص٢٥٣

وتلبية لطلبه ترك له رمضان باشا الفرقة الزواوية المؤلفة من الـ[illegible] عنصر ونحو ثلاثمئة من الاتراك (١)، وزعهم على جميع انحاء المغرب ولم يحتفظ بأحد منهم لحراسته. (٢)

وهكذا كانت الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب وهي الثانية التي نجحت في الوصول الى فاس، والدخول اليها، الا انها عادت ادراجها دون ان تحتفظ بها، او بغيرها من الحواضر المغربية، مكتفية بمظاهر الولاء التي ابداها عبد الملك الذي انتصب سلطانا في فاس، وبملامح التبعية التي تشهد بها من قبل مثل تقديم الهدايا للسلطان وقراءة الخطب على المنابر باسم السلطان العثماني (٣)، وهو ما تشهد به قبله ايضا ابو حسون الوطاسي.

ولا تشير الوثائق الى اية مضايقة من جنود الحملة الجزائرية الثالثة لسكان فاس ونواحيها، كما حدث في ابان الحملة الاولى سنة ١٥٥٤ اذ اتخذت الحملة معسكرا لها على بعد ميل واحد من المدينة (٤). بل ان المغاربة في المدن الساحلية التي قصدتها السفن الجزائرية رحبوا بالاتراك العثمانيين للفوائد التي يمكنهم ان يحصلوا عليها من توسيع نشاطهم البحري ومن غنائم الغزو البحري.

<u>تخوفات الاسبان والبرتغاليين من امتداد النفوذ العثماني الى المغرب:</u>

وقد اثارت الحملة الجزائرية على المغرب، وبقاء قسم منها فيه، في خدمة عبد الملك، وتردد السفن الجزائرية على الموانئ المغربية الشمالية، مخاوف كبيرة لدى الاسبان، والبرتغاليين، تردد صداها في وثائقهم، فقد كان يخشى ان يكون هدف الحملة الجزائرية ليس فقط الاستيلاء على مملكة فاس، ولكن ايضا مهاجمة اسبانيا بعد ذلك. الامر الذي جعل بعضهم يحث فيليب الثاني على اتخاذ كامل الاحتياطات لصد اي هجوم محتمل على اسبانيا، وللتدخل في المغرب اذا دعا الامر لدعم المتوكل اذا ما انهزم، ولمهاجمة الجزائر إذا انتصرت الحملة الجزائرية على المغرب، او لتقديم العون الى عبد الملك ان احتاج اليه لطرد الاتراك من بلاده (٦).

وتبدو مخاوف البرتغاليين من الاهداف الحقيقية للاتراك العثمانيين في المغرب في رسالة دون خوان دو سيلفا الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٥٧٦/٤/٢. وفيها ان البرتغاليين وفي مقدمتهم الملك سيباستيان يخشون ان يكون الاتراك العثمانيون قد جاؤوا الى المغرب ليس فقط لمساعدة عبد الملك ولكن للاستيلاء على موانئ المغرب ولا سيما ميناء العرائش الذي يمكن ان

---

(١) حسب وثيقة معاصرة ترجع له ١٥٠٠ انظر م.م.ت.م. اسبانيا ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٦١ وانظر هايدو: المصدر السابق ص ١٦٢
(٢) نفس الوثيقة السابقة
(٣) المجهول: المرجع السابق ص ٥٣
(٤) (٥) م.م.ت.م. اسبانيا ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٢
(٦) م.م.ت.م. انكلترا ج ١ ص ٦ وما يليها (هذه الوثيقة بتاريخ ٢٤ مارس ١٥٧٦ وهي رسالة من بيير وثاني باترستا الى فيليب الثاني).

...ت وعب وحده اسطولا تركيا هاما ، الامر الذى يمثل خطرا من اسبانيا والبرتغال على السواء
...ذى يستوجب من الملكين البرتغالي والاسباني اتخاذ التدبير الوقائي المناسب لهذه المواقف (1)

وكان من رأي الملك البرتغالي القيام بحملة مشتركة لاحتلال ميناء العرائش ، وتحصينه قبل
...يحتله الاتراك ، ويستولوا على كل ملاحة في المحيط ، ويهددوا سكان الشواطئ ويلحقوا
...ضاربها (2) ، ودعا دون سانشو وليفا فيليب الثاني في رسالته اليه المؤرخة بـ 23/4/
157... الى ضرورة تقوية القواعد الاسبانية ـ الافريقية كوهران والمرسى الكبير ومليله وبعض المدن
...سبانية الساحلية الجنوبية ، كقرطاجنه والمريه وجبل طارق ، وتهديم طنجه وتحصين سبته (3)

ونتيجة للمخاوف الكبيرة التي اثارتها الحملة الجزائرية على المغرب لدى الاسبان ، اصدر
...يليب الثاني اوامره بتقوية القواعد الاسبانية في المغرب والمدن الساحلية الاندلسية ، وارسال قطع
...ن الاسطول الاسباني الى مليله ، تحسبا لاى هجوم تركي عليها . واشير من جديد الحديث
...ن نقل مدخل مرسى مارشيكا وبناء حصن كبير عليه (4) .

اما سيباستيان ملك البرتغال فقد فكر جديا في غزو المغرب واحتلال العرائش ولم يلبث
...ان شرع في اعداد حملة ضخمة لتحقيق طموحه وازالة مخاوفه . ولعل مبعث مخاوف الاسبان
والبرتغاليين ما تردد لديهم قبل بدء الحملة الجزائرية من ان عبد الملك ينوى غزو وهران بطلب
من الاندلسيين قبل غزو فاس (5) . ثم شروعه في بناء السفن فور دخوله الى هذه الاخيرة .

...علاقات عبد الملك مع اتراك الجزائر والدولة العثمانية بعد احتلاله عرش المغرب : 1576-1578

لقد بادر عبد الملك كما تقدم الى دفع تكاليف الحملة الجزائرية فانصرفت هذه عائدة الى
الجزائر ولا يبدو ان استعجال عبد الملك عودة الحملة الجزائرية كان فقط بدافع التخلص من
التكاليف اذ كان ملزما بدفع عشرة آلاف عن كل يوم ، ولكن ايضا للتخلص منها حتى لا يثقل عليه
الاتراك بمطالب التعجيزية لهم (6) ، اذ كان يريد ان يسترجع استقلاله التام (7) . ولكنه
في نهاية الامر لم يجرؤ حتى بعد عودتها على قطع الصلة باتراك الجزائر والسلطان العثماني

(1) م.م.ت.م. اسبانيا : ج3 ص 221 - 224 رسالة الملك البرتغالي الى سفيره في اسبانيا وهي بتاريخ 1/4/1576
(2) م.م.ت.م. انجلترا : ج1 ص 163 - 166
(3) م.م.ت.م. اسبانيا ج3 ص 222 ـ هامش 1
(4) نفسه : ج3 ص222 هامش 1
(5) م.م.ت.م. انجلترا ج1 ص53 ويبدو ان الاندلسيين طلبوا مثل هذا الطلب ليتأكدوا من عداء الاسبان قبل ان يمنحوه تأييدهم في صراعه مع ابن اخيه .
(6) صلاح العقاد المغرب العربي ص56
(7) هنري تيراس تاريخ المغرب ج2 ص185

وذلك لان الاتراك [illegible] ، رغم مساعي التقرب منهم ومن الاسبان ، مضوا في تهديدهم لغزو المغرب واعداد العدة لحملة ضخمة لتحقيق هذا الغرض ، ولان محمدا المتوكل على الله المخلوع مازال يناوئه ، ولا ننسى ايضا ان زوجته وابنه اسماعيل بقيا في الجزائر ، مما يجعلهما عاملا ضاغطا عليه ان هو مال الى القطيعة مع الاتراك او معاداتهم. ولهذه الاسباب وغيرها فان عبد الملك ظل عن صدق او رياء حريصا على ان يبدو بمظهر التابع الوفي المخلص للاتراك العثمانيين ولا سيما للسلطان العثماني (١). وذلك بدون شك حتى يأمن على نفسه ، وعلى مملكته ، من تجاوزات اتراك الجزائر واطماعهم ، وحتى يستمد من ولائه له الهيبة والقوة لمجابهة التهديدات البرتغالية .

فبعد انصراف الحملة الجزائرية ونجاحه في انتزاع مراكش ايضا من ابن اخيه في سبتمبر ١٥٧٦ ، اعد هدية ثمينة ، قدرت قيمتها بأكثر من خمسة آلاف دوكات ، تردد انه سيبعثها الى السلطان العثماني، وانه سيطلب بهذه المناسبة منه ان يبعث اسطوله الى المغرب (٢) ، وذلك للرد نيابة عنه على التهديدات البرتغالية بغزو المغرب واحتلال ميناء العرائش الممتاز. ولكن السفن الاربع التي جاءت من الجزائر الى تطوان لحمل الهدية الى استانبول، انتظرت طويلا ثم عادت ادراجها ، لان عبد الملك لم يشأ فيما يبدو ان يحمل الهدية في سفن قبطان الجزائر لخلاف وقع بينهما من قبل (٣) . فتأخر ارسال الهدية الى ربيع سنة ١٥٧٧ كما سيأتي .

وقد شهدت الفترة التي تلت الحملة الجزائرية الى المغرب ، وحتى شهر ماي ١٥٧٧ ، تاريخ وصول سفارة عبد الملك المحملة بالهدية الى السلطان العثماني عدة اتصالات وحوادث بين حكومة الجزائر وعبد الملك، ادت الى بعض توتر في العلاقات ؛ نذكر منها ما ذكرته احدى الوثائق بتاريخ ٢٥ / ١٠ / ١٥٧٦ من ان عبد الملك اشتكى الى عامي رايس ، مهر قبطان البحرية الجزائرية الذي كان على رأس ثماني سفن جزائرية راسية بميناء العرائش ، تجاوزات الاتراك لحقوقهم ان احتلوا ادارا كبيرة بحوانيته كما رفع شكوى بذلك الى السلطان العثماني . (٤)

اما رمضان باشا فقد بعث في اواخر سنة ١٥٧٦ او مطلع سنة ١٥٧٧ الى فاس ومراكش من يبحث له عن الاسرى الفرنسيين ، لاطلاق سراحهم ، تلبية لطلب الملك الفرنسي وسفيره (لابي دي ليل L'Abbé de Lisle) لدى الدولة العثمانية ، وتمكن بفضل ماله من نفوذ

(1) Hammer (J.): Histoire de l'Empire Ottoman, trad. J.J. Hellert t.7, Paris 1837, P.251.

(٢) م . م . ت . م . انكلترا ج١ ص١٨٣ .

(٣) م . م . ت . م . اسبانيا ج٣ ص٢٥٨ – ٢٦١ . بحسب هذه الوثيقة فان عبد الملك رفض ان يدفع ... دوكات التي وعد بها قبطان الجزائر مقابل مساعدته له .

(٤) م . م . ت . م . اسبانيا ج٣ ص٢٥٨ – ٢٦١

(١)،
دى عبد الملك من تحرير العديد منهم
وفي مارس ١٥٧٧ كان في الجزائر مبعوث من عبد الملك (٢) ، الا انه لا يعرف الغرض الذى
جاء من اجله . وابداه بخصوص افتداء الاسرى الفرنسيين اذ توجه هذا المبعوث مع سليمان شاوش
رمضان باشا ، الى تطوان فاحضر هذا الاخير ، من كان هناك من الاسرى الفرنسيين وارسلهم
مع سفير جزائري الى فرنسا ، ونظر الملك الفرنسي سعى الثالث الى اطلاق سراح هؤلاء الفرنسيين
على انه علامة على قوة نفوذ السلطان العثماني في المغرب (٣) .
وقبل شهر مارس بعث رمضان باشا الى مدكة التابعة لمملكة فاس عساكره فاخذوا منها اربعة
الاف فلوري (٤) . وقد اثارت جملة هذه التدخلات من باشا الجزائر وعساكره استياء عبد الملك
مما جعله يتقدم في امرها شكاواه الى السلطان العثماني . واخذت العلاقات بينه وبين الجزائر
في عهد رمضان باشا تنحو نحو التوتر .
ولعل بعض هذه الاستفزازات والتدخلات في المغرب كانت مقصودة من رمضان باشا الذى
لا يجهل بدون [illegible] تقرب عبد الملك من الاسبان ، والاتصالات الجارية بين الطرفين في هذه الفترة

5 - تقرب عبد الملك من الاسبان :

بعث [illegible] استانف عبد الملك اتصالاته مع فيليب الثاني في مطلع سنة ١٥٧٧ برسالتين احداهما
بتاريخ ١٠ جانفي والاخرى بتاريخ ٥ فيفري عرض فيهما استعداده ورغبته في عقد اتفاق سلام معه
وحلف دفاعي وهجومي ضد الاتراك (٥) .
وكان الاسبان وجيرانهم البرتغاليون متخوفين من علاقات عبد الملك مع الاتراك ومن ثم فانه
لم يحصل على جواب من عروضه السابقة (٦) . فبعث الى فيليب الثاني رسالة اخرى بتاريخ
١٦/٤/١٥٧٧ حملها اليه سفيره الاب مارين يبدى فيها رغبته السابقة في ابرام تحالف معه ،
وحمل معه مقترحات جديدة اهمها :
- يتعهد بالا يكون له سفن حربية يمكن ان تلحق اضرارا بالشواطئ الاسبانية والبرتغالية ،
- ينتقم من القراصنة الذين يلحقون الاضرار بها اذا ما التجأوا الى موانئه بغنيمته ، واعادتها
بدون مقابل .

---
(١) (٢) (٣) م.م.ت.م: فرنسا جـ١ ص ٣٣
(٤) سهيد ... رقم ٣ ص ١٧٩ تاريخ ٢٥/٣/١٩٨٩
(٥) م.م.ت.م: اسبانيا جـ٣ ص ٣١٥
(٦) فهم فيليب الثاني على مبعوثه كابريت الفرنسي الذى حمل الرسالتين اليه لشكوكه حول حقيقة امر هذا السفير واعتقد البرتغاليون انه جاسوس فرنسي انظر م.م.ت.م: فرنسا جـ٢ ص ٣٥١ هامش ٢

ـ لا يقدم لأي ملك الدعم ضد اسبانيا ولو كان بطلب من السلطات العثماني ، وفي مقابل ذلك يتعهد له الملك الاسباني بأن يقدم له عونه اذا ما احتاج اليه في اي وقت (١).

ولكن الاسبان كانوا يرغبون في ان يطرد عبد الملك مابديه من الاتراك العثمانيين الذين استبقاهم من الحملة الجزائرية ، وان يسلم لفيليب الثاني الموانئ المغربية حتى لا يتمكن الاتراك من احتلالها (٢).

وفي انتظار هذه السفارة والعروض الجديدة وجه فيليب الثاني الى المغرب فرانسيسكو زونيجا (Francisco Zuniga) الذي كان له اتصال سابق بعبد الملك (٣)، ليوافيه بمزيد من المعلومات عن الوضع في المغرب وعن حقيقة امر عبد الملك، فكتب اليه تقريرا مفصلا عن الوضع (٤). وعاد محملا برسالتين من عبد الملك بتاريخ ٢٨/٤/و ٢٩/٤/، وكان محتواهما شبيها بمحتوى رسائله السابقة (٥). واخيرا حرر البلاط الاسباني في اوائل ماي ١٥٧٧ الشروط التي ينبغي تقبلها من قبل عبد الملك لاقامة السلام بين الطرفين، ومن هذه الشروط :

ـ ان يعلم عبد الملك ملك الاسبان عن الاعمال العدائية التي يعتزم السلطان العثماني القيام بها.

ـ الا يسند السلطان السعدي اي منصب للاتراك العثمانيين ، والا يساعدهم ضد اسبانيا.

ـ الا يستقبل في موانئه القراصنة الاتراك ، واعداء الاسبان ، (الانكليز) ؟، دون ان يكون فيليب الثاني ملزما بالمثل (مراعاة للبرتغاليين ؟).

ـ ان تمنح سفن الاسبان وسفن حلفائهم الحرية في الدخول الى الموانئ المغربية.

ـ ان يتبادل الطرفان العون ضد السلطان العثماني .... (٦).

كان من المقرر ان يحمل هذه الشروط مع رسالة لفيليب الثاني الى عبد الملك ، السفير الاسبق لهذا الاخير القبطان نابريت لو لم يعترض الملك البرتغالي على ذلك ، ويطالب بوقف هذه السفارة بدعوى ان نابريت ماهو الا جاسوس (٧). ولعله كان يخشى ان يقبل عبد الملك بالشروط المذكورة فلا يكون هنالك مبرر لتنفيذ حملته التي كان يعتزم القيام بها على المغرب. والتي قطعا شوطا بعيدا في اعدادها ، فتراجع فيليب الثاني عن ارسال السفارة المذكورة

(١) م.م. تتم. انكلترا ج١ ص٢٠٧ – ٢١٠
(٢) م.م. تتم. اسبانيا ج٣ ص٢٨٦
(٣) تعرف عليه حين كان في الجزائر
(٤) محمد العربي الخطابي: أمير سعدي في خدمة البلاط الاسباني ، في ، مجلة المناهل عدد ١٢ المغرب ١٩٧٨ ، ص٨٧ – ٨٨
(٥) م.م. تتم. اسبانيا ج٣ ص٥ ٣١
(٦) م.م. تتم. انكلترا ج١ ص٤ ٢١٨–٢١٨
(٧) نفسه : اسبانيا ج٣ ص٣٠٦ و هامش ١

لا يجد نفسه في حرج مع ... ولعل ذلك لا يعود فقط الى رغبته في ان
... شروع سلامة من عبد الملك . ولكن ايضا الى عدم ثقته التامة في صدق نوايا عبد
... البرتغال) الذي صمم على غزو المغرب ، ولكن السلطان العثماني نفسه غير خافية
... عليه ، اذ كانت اتصالات هذا الاخير مع اتراك الجزائر و ... وفي قصر السلطان نفسه و حاشيته الذين كانوا يوالونه
... بفضل جواسيسه في المغرب
... الاتراك العثمانيين وغيرهم .

وكان كاتب عبد الملك نفسه محمد ... بعث سرا الى اسبانيا بنسخ من الوثائق التي ... كانت تصدر عن البلاط الملكي في المغرب (١) . وبذلك يكون قد ثبت لفيليب الثاني دون شك ... ان عبد الملك كان يتقرب من اعداء الاسبان كالانكليز والفرنسيين (٢) ، ويحافظ على علاقات طيبة مع السلطان العثماني ، في الوقت الذي كان يحاول التحالف معه ضدهم .

... تأرجح عبد الملك بين الولاء للاتراك والحذر منهم (٣) . ففي ماي ١٥٧٧ بعث عبد الملك ... موسى بن عبد النبي رسولا الى السلطان العثماني مراد الثالث وهدية ثمينة قدرها مئتا الف ... وكانت رسالة تحمل تاريخ اواسط صفر سنة ٩٨٥هـ (حوالي ٤ ماي ١٥٧٧) جدد فيها ... امتنانه وشكره للسلطان العثماني واعترافه بسيادته وطلب حمايته ومساعدته على جيرانه الكفار (٤) ... جاء فيها : (مالنا عليه مدين به للسلطان ، فهو سيدي وسلطاني ... وبما ان الكفار يحتلون ... عديدا من المراكز الحصينة على ارضنا فنحن نريد محاربتهم والتخلص منها ، ونأمل من حضرة ... السلطان العالية ان تساعدنا في تحقيق هذا الغرض ، ونحن الآن نتوفر على اربعين سفينة ، ... لانه من الآن سوف لن نتوقف كأسلافنا بحول الله عن الجهاد برا وبحرا ، واذا كان سيدنا ... السلطان سيمدنا بعونه فاننا نستطيع ان نهزم الكفار) (٥) .

ويبدو من هذه الرسالة ان عبد الملك قد تحمس للتعاون مع الاتراك ضد الاسبان الذين ... رفضوا التحالف معه وضد البرتغاليين الذين مضوا في استعداداتهم لغزو المغرب . وقد جاء في ... شهر ماي ١٥٧٧ رسول من الجزائر لاخباره عن تحركات الاسطول العثماني (٦) ، الا ان ... حماسة عبد الملك للتعاون مع الاتراك ضد البرتغاليين ولا سيما ضد الاسبان لم يكن ... صادقا ولا قويا . اذ ظل ينشد صداقة فيليب الثاني ملك اسبانيا ، ويأمل ان يثني هذا الاخير ...

---

(١) محمد العربي الخطابي : المرجع السابق ص ٨٨
(٢) انظر عن علاقاته مع انكلترا وفرنسا مجلة تطوان عدد ٦ و ٩ وفصل السياة السياسية في المغرب
(٣) م . ت . م فرنسا ج ١ ص ٣٥٧
(٤) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٥٠
(٥) م . ت . م اسبانيا ج ٣ ص ٣١٣
(٦) م . م . ت . م

ابن اخته سيباستيان ملك البرتغال عن عزمه ، كما ظل يبدي رغبته في التحالف معه ، واستعداده بأن يتعهد بعدم دعم اي ملك ضد اسبانيا حتى ولو كان هذا الملك هو السلطان العثماني ، وهو ما تؤكده وثيقة بتاريخ مابعد ١٥٧٧/٥/٢٧ (١) ومن ثم نقض رفض لمعمره حاجي مراد المتحمس للاتيان بالاسطول العثماني الى المغرب ان يأتي به (٢).

وفي اعقاب سفارة عبد الملك الى السلطان العثماني، التي تكون قد حملت الى هذا الاخير شكاواه من تصرفات بحارة الجزائر في الموانئ المغربية ، ومن تدخلات رمضان باشا وعساكره في اطراف المغرب ، عزل السلطان رمضان باشا (٣). واصدر سلسلة من الاوامر الى حسن باشا البندقي (فينيزيانو) الذي خلفه، منها : امر باستخلاص ما استولى عليه عساكر رمضان باشا من البلدة المغربية المذكورة (٤) . وامر آخر بعدم التعرض اطلاقا لمملكة عبد الملك ، ولرعاياه لما لهذا الاخير من قدر لدى السلطان ، جاء فيه : ((نحيطكم علما بأن جناب الامير عبد الملك حاكم فاس هو محط عواطفنا العالية الكسروانية من جميع الوجوه ، وذلك لما هو عليه من صداقة واخلاص ومودة واختصاص تجاه سماداتنا العليا ، وبناء على ذلك فاننا نأمر بعدم السماح لعساكر الجزائر ولغيرهم بالتعرض والتدخل في شؤون بلاد المشار اليه ورعاياه (٥))).

وامر ثالث بتقديم العون اللازم لعبد الملك اذا ما طلبه ، واستدعاه بدون تراخ (وفيما اذا اعتدى أي باغ على بلاده والتمس المعونة منكم فلا تتوانوا عن ارسال القدر الكافي من العساكر لمعاونته ، ومظاهرته ودفع مخاطر الاعداء على دياره) (٦).

ولعل الاشارة هنا موجهة الى ملك البرتغال دون سيباستيان الذي ذكرنا انه كان يحلم بالسطة على المغرب منذ فترة ، وقد احدث هذا الاعداد مخاوف لدى عبد الملك جعلته يطلب الحماية من السلطان العثماني .

ويستدل من الامر الاخير أن السلطان العثماني اعتبر من مسؤولياته حماية المغرب من الخطر الخارجي ، لان عبد الملك يعتبر أحد أتباعه . ولاشك ان المواقف التي اتخذها السلطان العثماني استجابة لطلب عبد الملك او نتيجة لشكواه، قد اضرت الباشا حسن فينيزيانو بالمكانة التي يتمتع بها السلطان السعدي لدى السلطان العثماني ، واشعرت عبد الملك نفسه

---

(١) م.م.متم اسبانيا : ج٣ ص٣١٥

(٢) نفسه : ٣٢٦

(٣) نفســـه : ٣٢٩

(٤) مهمة دفتري رقم ٣٠ ص ١٧٩ بتاريخ ٥ / ٣ / ٩٨٥هـ

(٥)(٦) نفســـه : ص ١٨٠

بذلك . واعتمادا على ماله من قدر وجاه لدى السلطان العثماني ، ولدى باشا الجزائر لم يتردد عبد الملك في ابداء استعداده لسفير اليزابيت ملكة انكلترا (ادمون هوجان) الذى وفد عليه في جوان ١٥٧٧ ، لان يطلب من الاتراك ومن باشا الجزائر تقديم تسهيلات للسفن الانكليزية ، ومعاملة حسنة للتجار الانكليز. فجاء في تقرير السفير الى ملكته ((... فانه سيكتب الى الاتراك ، والى ملك الجزائر " الباشا" ، ويبعث رسائله بان يعاملوا سفننا وتجارنا معاملة حسنة)) (١) .

وتنفيذا لاوامر السلطان العثماني المذكورة ، ولاسيما الامر الاخير منها ، جرت بين حكام الجزائر وعبد الملك اتصالات ومشاورات مكثفة حول ما يجب عمله ، امام مضي ملك البرتغال فـي اعداده لغزو المغرب ، واقدام حاكمه في طنجة على احتلال آصيلا في يوليه ١٥٧٧ ، بتواطؤ مع حاكمها عبد الكريم بن تودة (٢) . صهر محمد المتوكل على الله المخلوع ، تمهيدا للتدخل الاكبر . وفي هذا الاطار توجه الى المغرب عدة مبعوثين للتداول مع عبد الملك في المساعدة التي يمكن ان يقدمها الاتراك العثمانيون له ، وفي الامور الاخرى التي تهم البلدين . ومن بين المبعوثين الجزائريين الذين توجهوا الى المغرب خلال النصف الثاني من العام ١٥٧٧م حاجي مراد ، صهر عبد الملك والمدعو سالم الجعفر (٣) وغيرهما .

وقد تردد في صيف هذا العام ان يجيء الاسطول العثماني الى الحوض الغربي مؤكـدا ، مالم يحصل دون ذلك حائل . وجرت الشائعات في الجزائر ان الباشا يقوم باستعدادات ضخمة بهدف غزو وهران وتنادس (٤) .

وكان حاجي مراد صهر عبد الملك ، وهو احد الشخصيات العثمانية النشيطة البارزة في الجزائر ، يهدد الاسبان اذا ما أقدموا على مساعدة محمد المتوكل على الله المخلوع ليسترجع مملكة فاس ، او ظلوا على سياسة مماثلة لسياسة ملك البرتغال المؤيد للسلطان المخلـوع ، واستربـاع بالذهاب الى القسطنطينية لاحضار الاسطول العثماني ، لغزو وهران والمرسى الكبير ، بدعوى ان موقفهم ذلك يشكل ايضا تهديدا مملكة فاس لصهره ، وعرقلة ملاحتهم مع الهند ، لولاية تلمسان والغرب الجزائرى (٥) .

ولكن عبد الملك كان غير متحمس فـي واقع الأمر لاستقدام الاسطول العثماني الـى المغرب لانه يعلم ان دعم الاتراك لا يكون خاليا من الطمع في بلاده ، ولانه لم يفقد فيما يبدو

---

(١) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٦ ص ١٥٢
(٢) محمد العربي البيلاي : المرجع السابق ص ١٨
(٣) ابن تاويت : المرجع السابق وعدد ٨ ص ٦٦ و م.م.ت.م انكلترا ج ٢ ص ٢٧ الى ٢٧٦
(٤)(٥) م.م.ت.م : اسبانيا : ج ٣ ص ٣٢٧ الى ٣٣١

الامل فيتراجع الاسبان والبرتغاليين عن تقديم العون الى ابن اخيه محمد المتوكل المخلوع وحسن التدخل في المغرب لاحتلال بعض اجزائه . عن طريق الاستمرار في محاولات التقرب منهم واستبعاد مخاوفهم منه ، بعرض التحالف معهم ضد الاتراك العثمانيين ، وابداء الاستعداد لاستبعاد ماليديه من الاتراك . ولم تكن هذه السياسة لتنال رضا صهره حاجي مراد ، وكيل اتراك الجزائر ، فقام المذكور بحملة دعائية لم تكن بدون اساس من الصحة حيث اشاع في المغرب والجزائر ان البرتغاليين تحالفوا مع محمد المتوكل على الله لغزو المغريب وطرد عبد الملك منه ، والقضاء على اى وجود عثماني في هذا البلد ، ودعا ـ للحيلولة دون ذلك ـ الى التدخل في المغرب ، واستيلاء الاتراك العثمانيين عليه (١) . مما يسمح بشن حرب على الاسبان والبرتغاليين في عقر دارهم ، ويسمح من ثم بعرقلة الملاحة الهندية ومراقبتها عن كثب (٢) . ولكن السلطان العثماني مال الى مسالمة الاسبان ، ثم بدا لعقد هدنة معهم ، كما مال الى عدم التدخل في المغرب بغرض احتلاله ، كما ورد في الامر السابق الذكر ، فاخفقت دعوته الى احتلال المغرب .

وبما ان السلام مع اسبانيا يعني تجميد نشاط غزاة الجزائر فان باشا الجزائر سعى إلى التأثير على موقف السلطان من خلال عبد الملك الذى بدا له انه يتمتع بحظوة كبيرة لدى السلطان العثماني ، وان كلمته نافذة لديه . هذا الاخير فوجه له مبعوثا حمل اليه رسالة في ٢٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، رجاه فيها ان يستعمل ماليديه من نفوذ وحظوة لدى السلطان العثماني لاثناء هذا الاخير عن توقيع الهدنة مع اسبانيا وبعث لارسال الحلق على من الاسطول لتحرير وهران ، وان يوضح له بان انشغال فيليب الثاني بحروبه في الفلاندر (٣) . سوف لا تجعله يهب لانقاذ هذه القاعدة ، وانه من الممكن انتهاز هذه الفرصة لاستخلاص شمال افريقيا من الاحتلال المسيحي . كما رجاه في حال توقيع السلطان العثماني للهدنة (٤) ، ان يهاجم القواعد البرتغالية في المغرب ، بحيث تجد اسبانيا نفسها مضطرة الى مساندة البرتغال ، وبذلك تخرق اتفاق الهدنة (٥) . وقد كانت هذه الرسالة مكتوبة بالايطالية ، وحتى يفهمها عبد الملك

(١)(٢) م.م.ت.م. اسبانيا : جـ٣ ص٣٣٢

(٣) كانت الاراضي المنخفضة قد ثارت ضد الاسبان في سنة ١٥٦٧ ثم في سنة ١٥٧٢ . اخضعت الولايات العشر الجنوبية للتاج الاسباني اما المقاطعات ال... الشمالية فاستمرت ثائرة تحت وليم دورانج ، وفي سنة ١٥٧٩ كونت اتحاد اوترانت ثم جمهوريات للمقاطعات المتحدة انظر : ليلى الصباغ : معالم تاريخ اوربا الحديث . دمشق ١٩٨١ ص١٧٩

(٤) لم توقع الهدنة الا في ١٥٧٨/٢/٧ انظر ارشيف سيمانكاس ٤٨٦ .

(٥) م.م.ت.م. انكلترا : جـ١ ص٢٦٧ ومايليها

جيدا اعطاها الى اندريا غاسبارو كورسو ليقرأها له،وكان هذا الاخير جاسوسا لفيليب الثاني ، يتظاهر بالصداقة والمحبة لعبد الملك منذ كان في الجزائر . وقد حضر الى المغرب منـــذ نهاية شهر اوت ١٥٧٧ ، واحتفى به عبد الملك ايما احتفاء (١) .

ولا يعدو ان يبادر الى اعلام فيليب الثاني بما ورد في هذه الرسالة،وما ورد في الرسالة الثانية التي تلقاها عبد الملك من باشا الجزائر،في اثر الرسالة الاولى،في شهر نوفمبر ايضا (٢) .

وفي هذه الاخيرة طلب حسن فينزيانو من السلطان السعدي ان يستقبل كل غزاة الجزائر في ميناءي العرائش وسلا اذا ما وقع السلطان العثماني الهدنة مع الاسبان . وابدى لـــه مزايا استقبالهم فقال له بهذا الصدد : ان باستطاعة هؤلاء ان يحرروا لك قاعدتي طنجة وسبتة من البرتغاليين وبوجودهم هناك ستستفيد من الغنائم التي يحصلون عليها من الاسبان ، ثم ان هذا التحول سيبعد جدا الخلج عليا،الذي يحب غزاته كاولاده،ولكنه بسبب السلام الذي يريد السلطان العثماني ان يلتزمه ، لا يجد كيف يستخدمهم (٣) .

وهذا العرض الذي تقدم به باشا الجزائر الى عبد الملك يدفع الى التساؤل عما اذا لـــم يكن قد قصد به ايضا التمهيد للاستقلال عن الدولة العثمانية ، واقامة تحالف جزائري سعـــدي في مقابل التقارب العثماني الاسباني .

وقد نصح اندريا غاسبارو كورسو عبد الملك بعدم استخدام الاسطول العثماني ، وكذا بعدم استقبال قراصنة الجزائر في ميناءي العرائش وسلا ، زاعما له ان مجيء هؤلاء الى المغرب لا يغني خزينته ، وانما يفقرها اذ ان مجيئهم سيبعد التجار المسيحيين عن مملكته . امـــا الاستيلاء على القواعد البرتغالية بمساعدة الاتراك فسيكون شاهدا على عجزه ، ونصحه ايضا بان يستبعد ما لديه من الاتراك ، وكان عددهم نحو خمسمئة بدعوى ان رعاياه يشتكون من تصرفاتهم (٤) .

وبحسب رسالة اندريا الى فاتكيث سكرتير فيليب الثاني،فان نصائحه قد جعلت عبد الملك يتريث في الجواب على رسالة الاتراك،ويؤخر عودة السفير الجزائري (٥) .

وتما يتعلق بها، الطلب دعوة السلطان العثماني،رغم إلحاح حسن باشا واستعداده للذهاب الى استانبول لاحضاره ، فقد تطلب ايضا ايواء كل غزاة الجزائر كما طلب حسن باشا ، على الرغم من ان الدولة العثمانية قد وقعت الهدنة وذلك في (٦). وليس هناك ما يشير الى انه عمل على

(١) ابن عبود : من زوايا التاريخ المغربي .. في مجلة تطوان عدد ٨ ص ٦٣-٦٥
(٢)(٣)(٤)(٥) م.ع.س : انكلتـــرا ج١ ص ٢٦٧ (رسالة اندريا الى فاتكيث في ٢٨ / ١ / ١٥٧٧)
(٦) ارشيف سيمنكاس رقم ٤٨٩ E احالة من حاشية ١ من مناهل الصفا للفشتالي تحقيق كريم ص ٦٢

احباطهما وفق المخطط الذي ذكره باشا الجزائر في رسالته الاولى .

ويستدل من كل ذلك ان عبد الملك لم يكن متحمسا للتعاون مع باشا الجزائر او حتى مع صهره ، ولاسيما اذا كان في هذا التعاون ما قد يثير غضب السلطان العثماني نفسه ، الذي كان يتخذه درعا في وجه حكام الجزائر واطماعهم ، او يحد نهائيا من فيليب الثاني ، الذي كان يريد ان يتخذه لجاما لسياسته .

ويتضح مما سبق ان لاندريا غسباروكورسو تأثيرا قويا على موقف عبد الملك ، ويتجلى تأثيره اكثر فيما سيأتي .

لقد كان الدافع الحقيقي لذهاب اندريا الى المغرب ليس تهنئة عبد الملك بالملك فقط كما تظاهر ، ولكن ايضا لتحقيق ثلاثة اهداف رئيسة :(١) هي :

١ـ دفع عبد الملك الى استقدام زوجته وابنه اسماعيل من الجزائر حتى يتسنى للاسبان جره الى معاداة الاتراك ، وحتى لا يستغل الاتراك بقاء اسرته عندهم للضغط عليه ان هو أراد ان يبتعد عنهم او يميل الى محالفة اعدائهم .

٢ـ دفعه الى صرف الاتراك الذين كانوا في خدمته ، مما يثير العداوة بينه وبين الاتراك العثمانيين فيصبح بالتالي اكثر طواعية للاستجابة الى الشروط التي يريدها الاسبان من اجل التحالف بين الطرفين .

٣ـ دفع عبد الملك الى التحالف مع فيليب الثاني من اجل فتح ايالة الجزائر على اساس ان يكون لعبد الملك السيادة على المناطق الداخلية ، ولفيليب الثاني السيادة على المناطق والمدن الساحلية . على ان يدفع عبد الملك مصاريف هذا الاحتلال .(٢) والتحالف على هذا الاساس مشروع قديم يعود الى سنة ١٥٦٦ حين كان عبد الملك لاجئا في الجزائر. فهل حقق اندريا أغراضه ؟

اذا تتبعنا ما تحقق بصدد النقاط الثلاث وجدنا ان عبد الملك قد ارسل الى الجزائر في نوفمبر ١٥٧٧ سفينة لاستقدام زوجته وولده اسماعيل منها (٤). هذا بالنسبة للنقطة الاولى ، اما بالنسبة للثانية ((فقد اعاد عبد الملك الاتراك الذين كانوا عنده في خدمته على امل الا يهاجمه البرتغاليون ...)) (٥).

---

(١)(٢) م.م. ت.م انكلترا جـ١ ص٢٥٧ (اغراض اندريا كما تبدو في رسالته الى اخيه فرانسيسكو الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ٢٢/١٠/١٥٧٧

(٣) نفسه ت.م: اسبانيا جـ٣ ص١٦٩ — ١٧٥

(٤) نفسه ، انكلترا جـ١ ص٢٦٧ .

(٥) نفسه : اسبانيا . جـ٣ ص٤٠٣ — ٤٠٦

واما بصدد النقطة الثالثة،فقد طلب عبد الملك من اندريا أن يتوجه الى البلاط الاسباني سفيرا منه . الا ان هذا الاخير اعتذر عن القيام بهذه المهمة ، ودافع بأنه لم يكن معتمدا في المغرب لامور سياسية . علما أنه كان في الجزائر غير معتمد للامور السياسية ايضا ، ومع ذلك فانه كان يقوم بنقل رسائل عبد الملك ورغباته الى البلاط الاسباني . وقد اثار اعتذار اندريا ر فاعه دهشة عبد الملك واستغرابه . ولكن جاسوس فيليب الثاني الذي لمس لدى عبد الملك ميلا قويا الى التحالف مع سيده، كتب في رسالته الى سكرتير فيليب الثاني يقول : (ان عبد الملك لا يرغب في شيء أكثر من رغبته في لقاء مع ملك اسبانيا . .) [1] .

ويبدو ان عبد الملك الذي لم يستجب لعروض باشا الجزائر كان يأمل ان يجد موقفه هذا ، الودي الغاية ، التقدير اللائق عند فيليب الثاني وسيباستيان فيمتنعان عن مساعدة محمد المتوكل على الله الذي لجأ اليهما ، طالبا دعمهما لاسترجاع ملكه في المغرب منه ، ولا يقدمان على غزو المغرب . فهل تحقق أملــــه ؟

اذا كان فيليب لم يقدم المساعدة لمحمد المتوكل على الله،الذي لجأ اليه اول مرة في (نوفمبر ١٥٧٧) لأنه كان منشغلا في تلك الفترة بحروبه في الاراضي المنخفضة ، وغير متحمس اصلا فيما يبدو لغزو المغرب،الامر الذي جعل الملك المخلوع ينصرف عنه الى البرتغاليين في سبتة وطنجة . فان سيباستيان الذي قطع شوطا بعيدا في الاعداد لحملته على المغرب ، لم يعبأ بموقف عبد الملك الودي تجاه الاسبان والبرتغاليين ، فرحب بمحمد المتوكل واتفق معه على غزو المغرب وتقسيمه (٢) . ومضى كل منهما في الاعداد جديا للحملة المشتركة .

اما موقف الدولة العثمانية من عبد الملك،فلا يبدو انه تأثر من تقرب هذا الاخير من الاسبان ، ومن تنعيم احمد حسن فنزيانو للسلطات العليا في الدولة العثمانية بمساعيه في ذلك الاتجاه [٣] . ومما يؤكد عدم تأثر العلاقات بين عبد الملك والدولة العثمانية في هذه الفترة التي سبقت وواكبت التدخل البرتغالي في المغرب في ١٥٧٨ أنـــــه :

- حين تأكد عزم البرتغاليين على غزو المغرب ارسل العلج علي رسولا الى عبد الملك يبدي له استعداده للمجيء لمساعدته على رأس ١٥٠ غاليره (٢) . وطلب منه اعداد المؤن اللازمة لتموين الاسطول (٤) .
- وصدر الامر الى باشا الجزائر بمساعدة عبد الملك بأربعة آلاف او خمسة آلاف من الاتراك . وقد غادروا الجزائر في ماي ١٥٧٨ متظاهرين انهم في حملة لجمع الضرائب . (٥)

(١) م.م.و.ت.م انكلترا ج١ ص٢٦٧
(٢) انظر تفصيله في النزهة للافراني في ص٧٤ وفي فصل الحياة السياسية في المغرب
(٣) دوغرامونو المرجع السابق ص ١١٩
(٤)(٥) م.م.و.ت.م.اسبانيا ج٣ ص٤٠٣ - ٤٠٦

وكان عبد الملك قبل معركة وادي المخازن في ١٥٧٨/٨/٤ على اتصال مع باشا الجزائر ، ومع السلطان العثماني، يخبرهما عن تطور الاوضاع في المنطقة . (١) . وفي عشية معركة وادي المخازن ، لفت عبد الملك نظر الملك البرتغالي الى انه صديق السلطان العثماني،(٢) اي أنه يمكن ان يستند على عونه اذا احتاج اليه ، وهو حليف لا يستهان به في المواقف الصعبة . ويعرض الدليل على السابق الذكر يؤكد انه كان بامكان عبد الملك ان يحصل على دعم كبير من الدولة العثمانية لو شاء ذلك ، ولكنه لم يطلبه .

ومرة اخرى اظهر السلطان السعدي حرصه الشديد حتى في اللحظات الحاسمة ، على ألا يستخدم الاسطول العثماني الى المغرب . ولا يبدو ما يبرر تمسكه بهذا الموقف غير مخاوفه من اطماع الاتراك العثمانيين في المغرب ، ولا سيما بعد أن عرفهم ، وعايشهم مدة نحو ١٨ سنة لمس خلالها بدون شك نواياهم وطموحاتهم الى ضم المغرب تحت نفوذهم . ومع ان عبد الملك ربما لم يطلب مساعدة الاسطول الجزائري ، الذي يقل بكثير عن اسطول الدولة العثمانية ، والذي لم يشأ كما اتضح استخدامه ، فان حسن فينزيانو، باشا الجزائر ، استنفر عشية الصدام بين المغاربة من جهة ، والبرتغاليين وحلفائهم من جهة اخرى ، القوات البحرية الجزائرية وخرج في ٣٠ جويليه ١٥٧٨ (قبل اربعة ايام فقط من تاريخ معركة وادي المخازن الفاصلة بين الطرفين المذكورين) على رأس اكبر عدد ممكن من السفن الحربية الكبيرة والصغيرة (٢٦ سفينة)، وتوجه نحو الشواطئ الاسبانية الجنوبية ، وشواطئ المغرب الشمالية (٣) . ومن هناك كان يرقب ما يجري في المغرب ، وعلى استعداد تام لتلبية النداء تنفيذا لاوامر السلطان ((وفيما اذا اعتدى اي باغ على بلاده وطلب المعونة منكم فلا تتوانوا عن ارسال القدر الكافي لمعاونته ومظاهرته ودفع مضار الاعداء عن دياره)) . ولم يعد الى الجزائر الا بعد انقشاع سحب معركة وادي المخازن بنصر باهر للمغاربة .

واذا كانت حملة حسن باشا لم تشارك مباشرة في المعركة فان ١٤ سفينة جزائرية بقيادة سنان رايس قد كانت بالمرصاد للسفن البرتغالية التي حاولت النجاة والافلات من الكارثة التي حلت بحملة سيباستيان ، وتمكنت من الحاق مزيد من الخسائر بالبرتغاليين . (٤) .

لقد كانت معركة وادي المخازن من المعارك التاريخية الكبيرة في المغرب ، بين المغاربة والبرتغاليين وحلفائهم بزعامة المتوكل على الله ، وفيها مني البرتغاليون بهزيمة ساحقة . وفي هذه المعركة مات ثلاثة ملوك هم: الملك سيباستيان البرتغالي ، وحليفه محمد المتوكل على الله ، والسلطان عبد الملك السعدي ، فاستحقت بذلك هذه المعركة اسم معركة الملوك الثلاثة .

---

(١) م.م.ت.م : اسبانيا ج٣٠ ص ٢٠٣ - ٢٠٤
(٢) نفسه : فرنسا ج (ص ٣٨٦ - ٣٩٠
(٣) انظر عن حملة حسن فينزيانو : هايدو : المرجع السابق ص ١٧٦
(٤) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٥٢

وقد مات الملك المرتغالي متأثرا بجراحه، و مات المتوكل غرقا في النهر بعد محاولة فراره ، اما عبد الملك فقد فارق الحياة في اثناء المعركة ، متأثرا بمرضه الذى اعتراه وهو في الطريق قبل المعركة بعدة ايام ، واشتد عليه نتيجة الاجهاد والحركة (1) ، وبينما لا تعطي الوثائق المعاصرة اى دور للاتراك ، أو للموالين لهم في موته ، يعزو ابن القاضي سبب وفاة عبد الملك الى تناوله سما ، ويعطي لقائد الاتراك دورا في ذلك فيقول : (كان سبب وفاة عبد الملك انه سقي سما ، وذلك ان قائد الاتراك الذى كان معه واسمه رضوان العلج ، بعث بعض قواده ان يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك وقت جوازهم عليه ، قصد بذلك قتله بعد اخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك فيها . . .) (٢) .

ونجد في الوثائق ان عبد الملك مرض مرضا شديدا في اواخر سنة ١٥٧٧ ومطلع سنة ١٥٧٨ حتى اشيع انه مات . (٣) ثم مرض وهو في الطريق الى مواجهة سيباستيان،كما اشرنا،بعد ان تناول شيئا من السمك ، وشرب كثيرا من الماء ، واكل قليلا من الحامض فاتخمه ذلك وصار يتقيأ بسبب ذلك شيء من الدم من الوجع في المعدة . وكان هذا الوجع يعاوده بين حين وآخر (٤) .

ويلاحظ من استعراض ماأكله حين بدأه المرض،كما ذكر ذلك طبيب عبد الملك الذى رافقه في حركته من مراكش الى وادى المخازن (٥) ، ان ليس هناك ذكر للكعك كما ذكر ابن القاضي ، لكن ماتناوله في فطور صباح يوم ١٥٧٨/٨/٤ وهو يوم المعركة كان يتألف من مرق فيه لب الخبز ، وثلاثة فصوص من البيض الطري ، وعند الساعة العاشرة امر الطبيب اليهودى له بدجاجة مطبوخة واخرى مطبوخة ، وطعام وخبز أبيض (فهل هو الكعك الذى اشار اليه ابن القاضي ؟) فأكل قليلا من كل ذلك وشرب شيئا من ماء القرفة قبل الشروع في الأكل (٦) ، ثم ارتدى لباسه وامتطى فرسه على الرغم من اعتراض الطبيب فتوجه الى ميدان المعركة لاستعراض قواته ، ولما بدأت المعركة كان على متن فرسه وقام بحركة غير منسقة ، ومال ، وكاد يسقط واخذ الى محفته حيث مات فورا (٧) ، وقيل انه مات من الفرح (٨) .

---

(١) انظر رسالة طبيب عبد الملك المرافق له في /تطوان / عدد ٩ / للمغرب ١٩٦٤ ص ٤٠
(٢) ابن القاضي : الدره ج٢ ص٢٢٤ ، الافراني : النزهة ص٧٧
(٣) انظر رسالة DON DUARTE / في / م٢٠٣٠م : اسبانيا ج٣ ص٣٧٢
(٤) انظر رسالة الطبيب فهي المرجع السابق ص٤١
(٥) نفسه : ص٤٣
(٦) نفسه :
(٧) نفسه : ص٤٤
(٨) الجنابي : المرجع السابق ص٣٥٢

ن العلاقات نحو التردي (1578 ـ 1581)

بايع الحاضرون في وادي المخازن عقب انتهاء المعركة التي دارت هناك بين ة والبرتغاليين وحلفائهم أحمد بن محمد الشيخ سلطانا خلفا لاخيه عبد الملك الذي وافاه ي اثناء المعركة . واكد له البيعة سكان فاس ومراكش وسائر المناطق المغربية . وبهذا معرفة مجريات العلاقات بينه وبين ايالة الجزائر والدولة العثمانية .

ن البداية يلاحظ انه لم يكن لاتراك الجزائر للسلطان العثماني اي فضل في وصول احمد ور الى الملك في المغرب ،كما كان الامر بالنسبة لاخيه عبد الملك ،بل انهم حاولوا كما يبدو اية الامر الحيلولة دون اعتلائه العرش المغربي ،وحين تمكن من اعتلائه ارادوا الاطاحة به ، الذي كان له تأثيره على العلاقات بين الطرفين ،ولا سيما في السنوات الاولى من ولاية احمد صور كما سيتبين من خلال هذا العرض . فحين الاعلان عن وفاة عبد الملك بعد انتهاء كة وادي المخازن ،سعى الموالون للاتراك العثمانيين من القادة الاندلسيين كمحمد ن وغيره بتحريض فيما يبدو من الاتراك لتولية اسماعيل بن عبد الملك ذي الام التركية ،بدلا من المنصور ،واخذوا ينادون بأحقية الامير الصغير الموجود في الجزائر في الخلافة (1) ، ولكن المغاربة الحاضرين لم يرضوا ،وجاءوا بمولاي احمد ،وكان قد هرب واختفى خوفا من ان يقتلوه (2) ، هموه وجردوا سيوفهم ،ونادوا في المحلة بأعلى اصواتهم " الله ينصر مولاي احمد " ،فبدأ اس وسكنوا (3) . وحتى بعد ان تمت البيعة لاحمد المنصور في وادي المخازن ،حاول الموالون لاتراك من القادة الاندلسيين الاطاحة به عن طريق اثارة الجند ،وتأليبهم عليه (4) . ويبعث قائد طائفة الاتراك في جيش احمد المنصور (ولعله محمد زرقون) الكاتبية سفينتين تركيتين كانتا وادي مارتيل بتطوان لاخبار باشا الجزائر بالوضع في المغرب ،وليقول له ان الوقت قد حان ليستحوذ على المغرب ،كما يريد ذلك السلطان العثماني ،لان السلطان المغربي الجديد ليس قادرا على الحفاظ على السلطة ،وليس هناك غيره لتعويضه ،وان الجيش التركي يمكن ان يأتي الى المغرب بدون سلاح ،لان السلاح متوافر بشكل كاف في عين المكان (5) .

وقد كان جيش من الاتراك يتألف من / ١٨٠٠ / تركي بقيادة حاجي مراد جدّ اسماعيل بن عبد الملك ينتظر في تلمسان منذ مطلع سنة ١٥٧٨ م ،الفرصة المناسبة للتدخل في المغرب لاحتلاله (6) .

ولكن المنصور تمكن من القضاء على القادة المتآمرين عليه ،ومنهم محمد زرقون ،وابو الفضل (7) الشريف ،وسعيد بن فرج الدغالي ،وذلك في رجب سنة ٩٨٦ هـ / سبتمبر ١٥٧٨ م . واستطلع احوال الاجناد ،واسترضاهم بالقول اولا ،وبالعطاء ثانيا . ((واستقامت احوال الجند من موشـ رهبة ورغبة واستوت قدم أمير المؤمنين في ملكه (8))) .

وعلى الرغم من منارأة الاتراك والموالين لهم للمنصور ،في بداية ولايته كما تبين ،فان هذا الاخير

---

(1) كريم : مناهل الصفا للفشتالي هامش ١ ص ٤١

(2و3) المجهول : المرجع السابق ص٤٦ وعبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان ص١٨٧

(4) الفشتالي : مناهل الصفا ص٤٥-٤٦

(5) انظر رسالة ل . صعيدا الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٣/٧/١٥٧٨ في م.ت.م : اسبانيا ج ٣ ص٤٥٢

(6) نفسه ج ١ ص ٣٨٠

(7) انظر عن نكبة القادة الاندلسيين : الفشتالي : مناهل الصفا ص ٤١-٤٧

(8) نفس المصدر : ص ٤٧

اقامة علاقات ودية مع جميع الدول المجاورة للمغرب ، وغير المجاورة له . وفي طليعتها الدولة العثمانية وايالة الجزائر ، ومن ثم فانه لم يتردد في ارسال سفارة الى الجزائر واخرى الى القسطنطينية في اعقابه له ، لاعلام السلطان العثماني مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٤هـ/١٥٧٧-١٥٩٥م) ، ووالي الجزائر حسن فنزيانو بالانتصار على الحملة البرتغالية ، وبجلوسه على عرش المغرب (١)

وقد جاءت الى المغرب وفود عديدة من مختلف الدول الاوربية والاسلامية لتهنئة المنصور بالنصر والملك ، وكان اول من ورد اليه رسول حسن فنزيانو باشا الجزائر ، فبلغ الرسالة ، وادى الهدية التي فيها من فساطيط الهند الغريبة الشكل والصنعة ، وزرابي مبثوثة ، وطرف نفيسة ، ما يستحسن ... (٢) ، ثم تلته رسل القس هنري خليفة سباستيان البرتغالي ، ورسل فيليب الثاني ، ثم رسل السلطان العثماني مراد الثالث ، وذلك في جمادى الاولى سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٦م ، فارسال هنري الثالث ملك فرنسا (٣) ، كما جاءته وفود من تونس وطرابلس ومصر. (٤)

وحسب الفشتالي ، فان ارسال السلطان العثماني ، كان يتألف من عدة شخصيات ، يتقدمها ابو الطيب البسكري ، مفتي الجزائر وخطيبها ، وقد اختاره السلطان العثماني ((لشهرته ومكانته في العلم والرياسة ، ليحسن اداء الرسالة ، والاعراب عما في الضمائر ، وليدل بارساله على علو محله ، وشرف مقدار المرسل اليه)). (٥)

وكان استقبال المنصور لرسل السلطان العثماني استقبالا حسنا ، قال عنه الفشتالي : ((ولقاهم مبرة التكريم ، واختار النزل والارغاد في القرى ، واقامة رسم الضيافة ، وتوسيع الجراية حتى انقلبوا الى مرسلهم محبورين)) (٦) ، واذا صدقنا ما قاله الفشتالي بهذا الصدد ، فأين يكون اهمال المنصور للسفارة العثمانية ، الذي تحدث عنه الافراني بقوله : " وتشاغل المنصور وتركهم بحضرته مهملين " (٧) الذي كان بحسبه احد اسباب غضب السلطان العثماني على المنصور . (٨)

وقد قدم رسل السلطان العثماني هديته الى المنصور ((وكان قد انتخب فيها خاقان ما انتقاه من الملابس الفاخرة ، وبعث معها بسيف محلى ، بديع الصنعة فاخر الحلي والزينة)) (٩) وعند الجنابي كانت تتضمن ايضا كمية من السلاح المرصع بالذهب وأحد اختامه (١٠) .

اما رسالته فقد تولى ابو الطيب البسكري الاعراب عن مقاصدها . ويفهم من قول الفشتالي : ((فاهتز لذلك امير المؤمنين سرورا من اعواده)) (١١) ، ان المنصور انشرح لمحتوى الرسالة . ولكن الفشتالي للاسف لم يفصح عن مضمونها ، وعند غيره ان مضمونها لا يقتصر على التهنئة بالملك والنصر ولكن تتضمن عدة مطالب السلطان العثماني ، لم تكن لتجعل المنصور يهتز سرورا من اعواده اللهم الا اذا كان ذلك على سبيل المداراة ، فقد نقلت اليه السفارة طلب السلطان العثماني فتحه

---

١) نفسه : ص ٤٨

٢) نفسه : ص ٤٩

٣) نفسه : ص ٤٩-٥١

٤) الزياني : الترجمان المعرب ص ٣٥٦

٥و٦) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٠ ، ٥١

٧) الافراني : النزهة ص ٨٥

٨) من اسباب غضب مراد الثالث على المنصور حسب الافراني ، الاستقبال السيء للسفارة والتأخير عن اجابته انظر النزهة : ص ٨٥-٨٦

٩) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٠

١٠) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٢

١١) الفشتالي : المصدر السابق ص ٥٠-٥١

ـــــال المغرب لاسماعيل ، وطلب مساعدته في تحرير وهران من الاسبان ، ودعوته الـى
الاقرار بالسيادة العثمانية، كما كان الامر سابقا (١) في عهدى المتوكل على الله وعبد الملك . وواضـح
ان القصد من الطلب الاول هو تقسيم المغرب الى مملكتين ، الامر الذى يساعد الدولة العثمانيـة
على التدخل فيـــه وبســط نفوذها عليه، وعزل المنصور عن البحر المتوسط ، وبالتالـــي
عن الاسبان . دفعا لأي تقارب او تحالف او تعاون بين الطرفين عند الاتراك العثمانيـــين .
وان القصد من الطلب الثاني هو اختبار مدى استعداد المنصور للامتثال لطلب السلطـــان
العثماني ، ومدى استعداده لمعاداة الاسبان ، الذين اخذ منذ الشهور الاولى لولايته يطـــور
علاقاته معهم سيرا على نهج اخيه عبد الملك وسياسة والده . واما القصد من الطلب الثالـــث
فاشعاره بأنه ليس ندا للسلطان العثماني . وحسب ما اورده الجنابي على لسان المنصـــور ،
فان هذا الاخير قد اقر بتقدم السلطان العثماني عليه حيث قال معقبا على قول السفير العثماني
الى الطبيب الخضر الجزائري ان السلطان العثماني لا يخشى احدا ، بل الجميع هم الذين يخشونه
((لا شك ان السلطان العثماني هو رئيسنا الكبير والمتميز بيننا ، ومجده يرفعه فـــوق
جميع الملوك الاخرين (٢))) .

ولكن هذا الامر لا يتجاوز في الحقيقة حد القول، ان صح ما ذكره الجنابي على لسان المنصور (٤)
اذ ان هذا الاخير كان يتلقب بالامام ، وبأمير المؤمنين ، وبالخليفة (٣) ، ويسك النقود باسمـــه ،
وتقرأ الخطب باسمه ايضا ، وهي امور لا تدل على اعترافه بسيادة السلطان العثماني عليـــه
أو تبعيته له . وتعني ان ما قاله لسفير السلطان العثماني ، لم يكن الا على سبيل المجاملـــة .

وقد كان المنصور حريصا على استقلاله واستقلال بلاده (المغرب) وعدم تجزئته ، ولذلك نفـــد
رفض التنازل عن شمال المغرب لابن اخيه مولاى اسماعيل ، ولم يقم بأي تحرك معاد للاسبـــان ،
او للبرتغاليين، بعد مجيء السفارة العثمانية، بوحي او يدل على استعداده لتلبية طلب السلطان
العثماني . بل ان المنصور اخذ بعد هذه السفارة العثمانية يتقرب اكثر فأكثر من الاسبـــان
بغية التعاون معهم ضد الاتراك العثمانيين الذين ازدادت مخاوفه منهم .

فقد رحب المنصور بطلب فيليب الثاني منه تسليم جثة سيباستيان للوفد الاسباني البرتغالـــي
المشترك، الذى وجهه الى المغرب في اعقاب معركة وادى المخازن ، ولباه بكل سرور ، واسلـــم

(١) Véronne (CH. de la): Relations entre le Maroc et la Turquie. in R.O.M.M., No. 1, 1973, P.395.

(٢) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٣

(٣) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢٥ وغيرها ، الافراني : النزهة ص ٨٤

(٤) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٤

... دفي قدية كبيرة فيه[2]. ...شة الملوية[1] بدون مقابل، على الرغم من استعداد الوفد المذكور ...لن كذلك سراح السفير الاسباني خوان دي سيلفا الذي وقع اسيرا في معركة وادي المخازن، ...سهد ايضا الا يتعرض ضد القواعد البرتغالية[3]، وأبدى في رسالته الموجهة اليه في نوفمبر ...ة ١٥٧٨ استعداده للاستجابة لكل اغراضه[4].[5]

وبعد كل ذلك انتهز المنصور فرصة مجيء رسل الملك الاسباني في جويلية ١٥٧٩ لتقديم ...دية ملكهم، وتهنئته له بالملك[6]، ليقترح عليهم التعاون على غرب الاتراك العثمانيين مصدر ...خطر على الطرفين[7]. وكان رسل فيليب الثاني قد تقدموا اليه بطلب التنازل لملكهم عن ميناء ...عرائش[8] الممتاز، خشية ان يقع في قبضة الاتراك الامر الذي ستنتج عنه اضرار كبيرة سواء ...تجارتهم مع الهند او مواصلاتهم مع العالم الجديد، او بأمن شواطئهم، فدخل المنصور ...نذئذ في مفاوضات مع الاسبان، دامت اكثر من خمس سنوات ١٥٧٩ - ١٥٨٢ كانت تقترب ...ن النجاح حينا، وتبتعد حينا آخر، حسب الظروف والضغوط الخارجية العثمانية والانجليزية ...لتي كان يتعرض لها المنصور. ويبدو ان المفاوضات الاولى بين هذا الاخير والاسبان حول التعاون ...ضد الاتراك، وحول العرائش، قد تناهت الى السفارة العثمانية التي كانت حينئذ في المغرب ...نقلت اخبارها الى السلطان العثماني لدى عودتها[9].

لم يكن الاتراك العثمانيون - وفي مقدمتهم السلطان العثماني - ليرضوا عن التقارب بين فيليب الثاني ...المنصور الذي بدا لهم سلطانا قويا وفعالا، وغير مستعد البتة للاعتراف ولو بتبعية اسمية ...للدولة العثمانية كما كان اخوه عبد الملك قبله، هذا التقارب الذي كان يستهدف ...القضاء على الوجود العثماني في الجزائر. وتطويقا لهذا الخطر قبل استفحاله امد السلطان ...العثماني مراد الثالث حكما في اوت ١٥٧٩م بتعيين رمضان باشا، والي الجزائر الاسبق ...والذي كان يشغل حينئذ منصب امير امراء تونس بعد تنحيته عن الجزائر، واليا على تلمسان[10] ...التي رفعت بشكل استثنائي الى لواء مستقل عن الجزائر، واعطاه الامر بأن يعمل على احباط ...اغراض المنصور، وشن الحرب عليه وطرده من مملكته، ان كانت المعلومات التي تلقاها تؤكد ...شكوكه من ان المنصور يعتزم غزو الجزائر مع الاسبان[11]، واصدر اوامره الى باشاوات الجزائر، وتونس[12]

---

(١) انظر رسالة المنصور الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٥٧٨/١١/٢ في مجلة : الاندلس المجلد ٢٣ السفر الاول، مدريد ١٩٥٨ ص ٢٩-٣١

(٢) الفشتالي : المناهل ص ٤٩

(٣) رسالة المنصور : الى فيليب الثاني في مجلة الاندلس ص ٣١

(٤) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٦٧

(٥) رسالة المنصور السابقة ص ٣١ وفيها يقول له : " فاذا تمكنت المحبة تيسرت الاغراض كل حجة فلا يمنعكم مانع من اغراضكم في هذا المقام المولوى، فنور الاعتناء بها في افق التكرمة ساطع "

(٦) الفشتالي : المرجع السابق ص ٤٩

(٧و٨) امينة اللوة : قضية العرائش من خلال كتاب (العرائش) في البحث العلمي عدد ٢٧ الرباط ص ١٩٠

(١٠) مهمة دفتري رقم ٤٠ ص ٦٢

(١١) سايدو : ملوك الجزائر ص ١٦٤

(١٢) جاء في الامر الصادر الى امير امراء الجزائر ان رمضان باشا قد منح لواء تلمسان، واوكلت اليه بعض الامور الخاصة بولاية الغرب فليباشر العمل الذي صدر له الامر بشأنه وقدم له المساعدة التي يطلبها منك : مهمة دفتري رقم ٤٠ ص ٦٣ بتاريخ ٨ رمضان ٩٨٧هـ

طرابلس بأن يقدموا لرمضان باشا كل القوات والمدفعية والذخيرة التي يحتاجها ، وان يقوم كل واحد من جهته بما يطلبه منه رمضان باشا (1).

ولا شك ان اختيار السلطان العثماني لرمضان باشا للقيام بمهمة مراقبة تحركات المنصور، ينبني على ما لرمضان باشا من خبرة في التدخل في المغرب، اذ سبق له ان تدخل في هذا البلد سنة ١٥٧٦ لتمكين عبد الملك من اخذ الملك فيه، وكلف تدخله فيه بالنجاح. وقد خرج رمضان باشا من تونس في نهاية نوفمبر ١٥٧٩ قاصدا الجزائر، فحل بها في ٤/٤/١٥٨٠ وبقي فيها حتى ٢٠/ اوت ١٥٨٠. ولم يلتحق بعد ذلك بتلمسان بل ذهب منها الى القسطنطينية (2). الا انه كان وهو في الجزائر يراقب ما يجري في المغرب، وقد بعث في ربيع سنة ١٥٨٠م / برسالة الى داود بن عبد المؤمن الذي ثار ضد عمه احمد المنصور في اكتوبر ١٥٧٩ في السوس بجنوب المغرب (3)، يبدي له استعداده لمساعدته ، ويسأله عن احتياجاته ، ومما جاء فيها : " ولما عزمنا الآن قدومنا الى مدينة تلمسان، فأول ما سألنا عن احوالكم ، واين استقر مقامكم لكي ننشي معكم عهدا تتاد م لنا مع أسلافكم، فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلمونا في جوابكم لنا ، بما عندكم من مأمول ، ومرغوب، فلا تضيعوا عنا شيئا من مقاصدكم السنية (4) ".

ولا يعرف ما اذا كان داود بن عبد المؤمن قد وصلته رسالة رمضان باشا ، ولا اذا كان قد تقدم بأي طلب مساعدة من اتراك الجزائر ، ولا اذا كان لرمضان باشا أو لاتراك الجزائر عموما أي ضلع في اثارته ضد عمه ، بهدف خلق المتاعب لأحمد المنصور الذي كان يتآمر مع الاسبان عليهم ، وان كان احتمال قيام الموالين للاتراك في المغرب بتحريض داود بن عبد المؤمن على الثورة ضد عمه بايعاز من اتراك الجزائر امر غير مستبعد اطلاقا ، ومهما يكن من امر فقد استطاع المنصور القضاء على ثورة داود ، وانتهى امر الاخير باغتياله عرب الوداية (5).

ولكن رد فعل السلطان العثماني على تقرب المنصور من الاسبان وعما تردد انه تحالف معهم ضد الاتراك ، وينوي مهاجمتهم في الجزائر ، لم يقتصر فقط على تكليف رمضان باشا باحباط هذا التحالف ومواجهة اخطار هجوم محتمل ، بل انه كما تؤكد ذلك احدث الوثائق المعاصرة أصدر ايضا امره الى القبودان باشا علج علي بالاعداد لحملة على المغرب (6)، ولكن هذه الحملة لم تتحرك في مثل 1579م - عرض مراد الثالث التحالف والمصادرة على المنصور رأى السلطان العثماني بمختلف الطرق بعد ان نجح المنصور في احباط ثورة ابن اخيه في الثلث الاول من سنة ١٥٨٠، وبعد ان تدخل

---

1) هايدو : المصدر السابق ص ١٦٤

2) نفسه : ص ١٦٦ - ١٦٧

3) انظر عن ثورة داود بن عبد المومن . الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٦-٥٨ وصورة عنها في ملحق كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريم ص354

4) انظر الرسالة في وثائق سيمانكاس ورقمها 160-ع وهي بتاريخ اواخر ربيع الاول 988هـ/ ماي =1580م

5) انظر قسم الحياة السياسية في المغرب ص ١٢

6) انظر رسالة السفير جيرميني (GERMIGNY) الى صاحب مالطه وهي بتاريخ ٨/١٠/١٥٧٩ في م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ٦٧

فيليب الثاني في البرتغال في اعقاب موت القس هنري لضم تاجها الى اسبانيا[1] ، استمالة السلطان السعدي اليه بمختلف الوسائل ، فعزل حسن فنزيانو باشا الجزائر الذي كان المنصور يخشى جانبه لاحتضانه اسماعيل بن عبد الملك، وتزويجه بأرملة هذا الاخير ، واستقدم رمضان باشا، وعين واليا جديدا هو جعفر باشا على رأس حكومة الجزائر[2] وكلفه بتحسين العلاقات بينه وبين سلطان المغرب ، وايجاد رباط مصاهرة بينهما بتزويج المنصور احدى بنات السلطان مراد[3] .

وبعث السلطان العثماني رسالتين الى المنصور في اوائل رجب ٩٨٨ هـ اوت ١٥٨٠ م ، عرض في الاولى التحالف معه ضد فيليب ، واستعداده لتقديم مساعدته الكبيرة للمنصور لتحرير الاندلس . وقبل كل ذلك امضاء معاهدة حسن جوار معه وجاء فيها على الخصوص .

((فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتيلة " فيليب الثاني " وانه احتوى على سلطنة برتغل آو كاد ، وانه جعل اهله في الاغلال والاصفاد ، وانه لكم جار ، وعدو مضرار ، حركتنا الحمية الاسلامية والمعرفة الاولية في النشأة الجنودية لاظهار الالفة الازلية في العوالم الشهورية اذا سارت قلوب الملوك جنود المجندة التعارف والتناصر والائتلاف انعقد الاجماع على خلوص المودة وارتفاع الخلاف .

فخلاصة الكلام بهذه التقدمة ، ونتيجة المرام من تلك المقدمة ، هو ان نتخذ عهدا وثيق البنيان ، وصحبة خالصة بين الاخوان ، بين الاولاد والاحفاد الى آخر الجوار مع مملكتنا الشاسعة الاقطار ، ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب والاطراف من سوء الشقاق والاختلاف ومعمورتا الارجاء بالوفاق والائتلاف ونعلق العهد بالكعبة المنورة والروضة المعظمة .

فاذا تم هذا الشأن واسس هذا البنيان صفى ما بين الاخوان/نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيشي عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس ويكون على ايديكم انقاذها من البؤس[4])).

وعرض مراد الثالث في رسالته الثانية الى المنصور تزويجه من احدى بناته لاقامة مزيد من الروابط والوئام بين السلطانين جاء فيها على الخصوص : (اخترنا لكم الانتماء والانتساب الى ابوابنا العالية الاعتاب ليحصل لكم الارتقاء على ذروة اعلى المراتب ، وقصوى المقاصد والمعارف والامتياز بين ملوك الزمان ، بعلو القدر وسمو الشأن ، وتكون اركان الموادة بيننا مرصوصة البنيان ومبان المحبة مشيد الاركان .

عهدنا الى امير الامراء الكرام ... جعفر باشا ... ان يمهر لكم على احدى بناتنا وينوب بذلك عنا اسمانا لغرضكم المنيف ، وتتميما لحظكم النبوي حتى يحلم كل مفض وفاجر ، ومسلم وكافر

---

[1]) الفشتالي : مناهل الصفا ص ١٠١

[2]) وصل جعفر باشا الى الجزائر في ١٥٨٠/٨/٢٦ وذهب حسن فنزيانو بمعيته رمضان باشا في ١٥٨٠/٦/١٦ ، انظر هايدو المصدر السابق ص ١٦٧-١٨١

[3]) من رسالة مراد الثالث الى المنصور انظر اصلها في المكتبة الوطنية بمدريد ورقمها ٧٤٥٣ ورقة ٢٤ منشورة في مجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) مج ٦ سفر ٤) ١٩٦٦

[4]) انظر نص الرسالة في المكتبة الوطنية بمدريد ، المخطوط رقم ٧٤٥٣ ورقة ٢٧ ونصها منشور في مجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) ١٩٥٧ ص ٦٣-٦٦ .

المملكتين كروحين في جسد، وساعدين في عضد، لفرط الاتحاد فبهذا ينقلب كل مؤمن الى
ه مسرورا ، وكان سعيكم مشكورا، والقفول والمسافرون يصدرون عنهما واليهما يـ دون في حرز
ن والسلامة ، يدعون بالخير الى صحائفنا الى يوم القيامة ،
ذا وصل هذا المتوقع الكريم فوجهوا لسدتنا السلطانية واعتابنا الخاقانية من يحمل لكم زوجتكم
امرائكم الكرام وكبار داركم الذين لهم فيها النقض والابرام)) [1].

د حرص السلطان العثماني على الا يخاطب السلطان السعدي في الرسالتين المذكورتين
بلقب الامير الكبير ، والحاكم ، فقد جاء في مقدمة رسالته :
((هذا كتابنا الشريف . . الى الجناب الاميري الكبير الهمامي ، النصري ، الامجدي ، الاكملي،
سعدي الاعدلي الاصيل الحسني ، النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية
ير القرآن ، ظهير المجاهدين المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين مولاي احمد الحاكم يومئذ
ية فاس ومراكش)) [2].

بينما استقل السلطان العثماني لنفسه بالسلطنة والخلافة ، قائلا في رسالته الى
منصور : ((فنبيء بأمره الى مبايعتنا بالسلطنة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة [3] . . لما
م وفضل علينا بتقليد خلافته في الارضين فخضعت لرقابنا وانقادت رقابنا سلاطين السلاطين)) [4].
فهم من قول السلطان العثماني مخاطبا المنصور ((ولما وصل كتابكم الذي على قدم الصداقة
ما وساق الاستقامة ثابتا دائما)) [5] ان السلطان السعدي قد كتب الى السلطان العثماني
ل ان يكتب هذا الاخير اليه، ويعرض عليه ما تقدم ، ولكننا نجهل مضمون رسالة المنصور
ما توحي به عبارة السلطان العثماني من الصداقة . ويظهر انه قد يكون طلب يد السعدي
اته ، ان رفض المنتظر ان يعرض السلطان العثماني المساعدة ، دون طلب من السلطان
سعدي . ولكن المنصور الذي فهم فيما يبدو ان للسلطان العثماني مقاصد بعيدة غير
مونة من وراء مرونته المتقدمة ـ كأن يكون غرضه مثلا جره الى معاداة الاسبان لينفرد به
ي المغرب ، والا كيف يطلب منه شن حرب على الاسبان ، في الوقت الذي كان يتفاوض هو فيه
ي الاسبان لابرام هدنة معهم او ان يكون غرض السلطان العثماني البعيد من وراء عرض
منا عدة عليه هو مد نفوذه الى المغرب ـ تثاقل عن اجابته بل يبدو انه آخر السفارة
العثمانية واهملها بدليل قول علج علي فيما بعد بأن اصحابنا بقوا بأبوابه كالكلاب هذا في
الوقت الذي استمر في تقربه من الاسبان ومفاوضاته معهم حول العرائش وحول مساعدتهم له ضد

اشارات الجرائد

[1] انظر الرسالة الهامش الثالث من الصفحة السابقة .
[2] مجلة الدراسات العربية والعبرية المجلد التاسع السفر الاول ص ٧٠-٧١
[3] نفس المجلد السادس ص ٦٥
[4] و [5] المجلد التاسع ص ٧١

غضب هذا ... مراد الثالث لعدم الاستجابة لعرض ... وتثاقله عن الاستجابة

حملة العلج علي : اثار تقرب المنصور من الاسبان ، ... الى ضم المغرب،

اخيراً ان العلج علياً الذي كان دوما يحلم منذ كان باشا بابا مقيما في الجزائر الى التدخل في المغرب بقوة
الدولة العثمانية، انتهز الفرصة ليحث السلطان العثماني على القضاء على دولة الاشراف السعديين فيها ، الامر الذي دفع الفشتالي المؤرخ الرسمي للمنصور
الى شن هجوم عنيف عليه ، وتشكك فيه في صدق اسلامه ، واتهمه بالعداء للاسلام في الباطن،
وبالعداء الظاهر للاشراف من آل النبي (ص) قائلاً (.. ثم ان علوج علي وزير البحر كان عند بني عثمان وقائد اساطيلهم ، لما كان حديث العهد بالكفر لتأخر اسلامه الى مجاوزة سن الاكتمال،
صار يستهلن لذلك عداوة للاسلام، ويجاهر بها خصوصا لابناء النبي عليه السلام، الخلفاء
الراشدين بالمغرب .. فشمر بذلك لاثارة الوحشة والفيضة بين الملكتين، واستهمال رحم الدين
الجامع بينهما ليفت بذلك من عضد الملة باختلاف كلمة الاسلام ... وزين له (المراد الثالث)
الانحدار للمغرب في اساطيلهم الذي القرا بعده زمانه .)) (١)

وهذا الهجوم على العلج علي ، الذي تشهد له مواقفه البطولية في ميادين الجهاد وضد
الكفار على صدق اسلامه ، لا يستغرب صدوره من مؤرخ الدولة الرسمي الذي كانت حملة العلج علي
تستهدف ولي نعمته .

وقد اذن السلطان العثماني لعلج علي بالتوجه على رأس الاسطول العثماني لمنازلة المنصور في
المغرب، والقضاء على دولته ، فتحرك علي على رأس خمسين ... ... غ... سالبره في
سنة ١٥٨١ ، وفي نهاية شهر مارس كان قد وصل الى الجزائر . (٢)

اما المنصور الذي علم عن طريق بعض قناصل انجلترا بتأهب علج علي لغزوه ، قبل تحرك
حملته نحو المغرب بستة اشهر ، فقد ((بادر ايده الله الى دفع مكيدته ، وارهف حده لنكايته ، (٣)
فجهز العساكر .. وسرحهم الى بلاد الريف، ورتبهم بمسالح المغرب، وثغوره وسرى الى بلاد
... لفحص كبير الدولة، وصدر الخاصة ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني، فخيم في العساكر
والاجناد بساحة العرائش، ودفع بذلك امير المؤمنين في صدر علي باشا)) (٤) واتام ... (٥)
نفسه معسكره على شط نهر تانسيفت، خارج مراكش منذ ١٢ صفر ٩٨٦هـ/ ١٨/٣/١٥٨١ (٦) ما
وبالاضافة الى هذه الاستعدادات العسكرية، اوفد المنصور عن طريق البحر سفارة هامة (٧)

---

١) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٦١
٢) هايدو : المرجع السابق ص ١٨٦
٣) السلاوي : الاستقصا ج ٥ ص ٩٦
٤ و٥ و٦ و٧) الفشتالي : المصدر السابق ص ٦٢

ل هدية عظيمة (1) الى السلطان العثماني بقصد الاعتذار له عن التأخير عن الجواب ، والعمل
ى ايقاف الحملة الموجهة ضده .
وقد كان من ابرز اعضاء هذه السفارة القائد ابو العباس احمد بن ودة والكاتب ابو العباس
حمد بن يحيى الهوزالي . وفي طريقهما الى القسطنطينية التقيا بعلج علي في اسطوله في عرض البحر
حاول اقناعهما بالرجوع عن مقصدهما خشية افسادهما عليه ما هو بصدده قائلا لهما : (ان الخرق
. اتسع على الراقع ، ولو كان لصاحبكم (المنصور) غرض في المسالمة لما بقي اصحابنا بأبوابه كالكلاب
لهادن الطغم (2)) .
وخشية سطوة السلطان العثماني ان هو رد هم جميعا ترك الكاتب الهوزالي يمضي لتبليغ
رسالة والهدية لأنه انه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام ، ولكن الهوزالي احسن
خاطبة مراد الثالث واعتذر له عن تأخير المنصور عن الجواب ! بما لا يعود بوهن على مرسله ، ولا
يفيد مخالفة بمخاطبه (3) . فقبل مراد الثالث الاعتذار والهدية . وكتب مع الهوزالي امره
الى العلج علي بالتوقف عما كان بصدده والعودة الى المشرق . كما ارسل مع الهوزالي سفارة الى
المنصور . فلم يتطاول علي على حملته على المغرب وعاد الى القسطنطينية واستقبل المنصور
السفارة العثمانية استقبالا حسنا وبعث بسفارة اخرى الى السلطان العثماني في السنة التالية
1582 (4) . وهكذا اخذت العلاقة بين الطرفين السعدي والعثماني في التحسن تلك رواية
الاحداث المتعلقة بحملة العلج علي حسب المصادر المغربية .
0 اسباب تراجع مراد الثالث عن غزو المغرب : تعزو المصادر المغربية كما تبين سالفا الى تلك السفارة المغربية
ولعل الحقيقة ان هناك عدة عوامل تضافرت وجعلت السلطان العثماني ينتهز فرصة تقديم
السفارة المغربية اعتذار المنصور ليتراجع عن امره بغزو المغرب بل وليعمل على تصفية الجو
بينه وبين السلطان السعدي فما هي هذه العوامل ؟
1 - التقارب الكبير بين المنصور والاسبان : كان السلطان العثماني على علم بالتقارب بين
المنصور والاسبان بحيث انه كان قد عين رضوان باشا خصيصا لاحباط هذا التقارب باستعمال
القوة ان لزم الامر ضد المنصور ، فقد رغبا يبدو ان مهاجمته قد تؤدي الى تدخل الاسبان
الذين يهمهم الا يمتد الوجود او النفوذ العثماني الى المغرب القريب جدا منهم . وقد ذهبت
بالفعل سفارة اسبانية الى المغرب سنة 1581م للتفاوض مع المنصور حول المساعد المرغوبة
منه ، وحول تسليم هذا الاخير المرائي لملك اسبانيا ، وكانت هذه السفارة الاسبانية

---

1) (2) الافراني : النزهة ص86
3) نفسه :
4) نفسه : ص86-87 والفشتالي : المناهل ص63-65 والسلاوي : الاستقصا ج5 ص95-97

المغرب حين كانت حملة علج علي في الجزائر [1] ، وقد استقبلها المنصور في معسكره بتالسيفت
يف ١٥٨١ . وذكر انــــه اعطى موافقته المبدئية على تسليم المرائش ، لما تحركت حملة علج
ي اتجاه المغرب ، وان بنود الاتفاقية بين المنصور والاسبان قد حددت ، وحرر المفاوضـان
انيان (بيدرو فنيغا ودييغو ماران (P. Veniga et D. Marcin) النسخة الاسبانيـــة [2]
باشا ، وبقيا في انتظار امضاء المنصور للنسخة العربية وتسليمها لهما . مما يعني ان تقــدم
ة العثمانية نحو المغرب كان يدفع المنصور الى امضائها ، وبالتالي فان الحملة المذكـــورة
لدم بالتحالف السعدي الاسباني ، وان انتصارها ليس مؤكدا في هذه الحالة . ولذا فـــلا
بعد ان يكون السلطان العثماني ، قد تخوف على مصير حملته ، فآثر عدم المغامرة بهـــا ،
ر امره لقائد الحملة بالتوقف والعودة .

موقف الجيش الانكشاري في الجزائر من علج علي وحملته :

قول هايدو : ((ان علج عليا كان يريد اخذ جند الجزائر الانكشاريين معه لحاجته اليهم من جهة
حملته ، وللثأر للاهانة التي تعرض لها لما كان يحكم الجزائر ، حيث كان مجبرا على الفرار امـام
يد هم له بالقتل . ولما امرهم بالركوب رفضوا خوفا من حقده عليهم واعلنوا انهم لا يمتثلون الا لامـر
ن من السلطان ، واضافوا قائلين انه ليس من العدل شن حرب على ملك طيب كشريف فاس الذي
حق بهم ابدا اي اذى او ضرر ، والذي لا يثير لديهم اي شك فيما يخص المستقبل . وطلبوا مـن
علي بأن يرسل فورا خمس غليوطات لاخطار السلطان بكل ما يجري ، فوافـــق علي على طلبهم
ل الانكشاريون مع السفن الخمسة احد المرابطين المشهورين لديهم وهو السيد بوتيكـــه
BOUTIKA) (ابو الثقة او ابو التقي ؟) محملا برسائــل الى السلطان ، وفيها شرحوا
ات سلوكهم ورجوه الا يسمح لعلج علي المحتال ، الماكر ، بأن يستولي على فاس لانه اذا مـا
هذه المملكة ، وبأمرته هذا الجيش القوي ، مع العلم ان سيد طرابلس موال له ايضـــا ،
ستطيع بسهولة ان يثور ، وان يصبح سيدا على كل بلاد البربر (شمال افريقيا)) [3] . وقـــد
درت الغليوطـــات الخمس الجزائر في نهاية شهر ماي ووصلت بسرعة الى القسطنطينية وعـــادت
نحو شهر الى الجزائر بأمر من السلطان العثماني الى علج علي بالعدول عن حملتـــــه ،
اعلن انها مخالفة لارادته ، وهدده بقطع رأسه ان خالف اوامره [4] . فما كان من علج علي الا ان
ر الجزائر ، ووصل الى القسطنطينية في شهر اكتوبر ١٥٨١ [5]

ومكذا يكون الانكشاريون في الجزائر حسب رواية هايدو هم الذين دفعوا السلطان العثماني الـى
راجع عن غزو المغرب بما اثاروه لديه من شكوك حول علج علي قائد الحملة ونواياه ، وقد ساورت
ب العالي مثل هذه الشكوك حول بعض البايلربايات السابقين لعلج علي كحسن بن خير الدين [6]
ره ، مما جعله يتخذ قرارا بتغيير نظام البايلرباي واحــلال نظام الباشاوات الثلاثيين محلـــه
د موت علج علي كما سيأتي .

الفشتالي : مناهل الصفا ص ٦
م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ هامش ٧ ص ... واسينة اللوه : المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١
هايدو : المرجع السابق ص ٨٦ - ١٦٧
نفسه
وانظر فصل الحياة السياسية في الجزائر ص ٨٨

ـ حرب الدولة العثمانية مع الصفويين في المشرق :

اذا كان العاملان السابقا الذكر لا شك في تأثيرهما علو قرار مراد الثالث بالتراجع عن غزو المغرب، ن حرب الدولة العثمانية في المشرق ضد حكام فارس الصفويين التي اندلعت سنة ١٥٧٨م والتي تمرت متقطعة حتى سنة ١٠٤٥ هـ / ١٦٤٦م كانت تشغل الدولة العثمانية كثيرا عن توجيه طاقاتها سكرية الى جبهاتها الاخرى، وتجبرها احيانا الى حشد كل طاقاتها الممكنة الى هذه الجبهة، حدث في هذه السنة ١٥٨١ ، فاثر السلطان العثماني تأجيل غزو المغرب الى وقت آخر، التخلي عنه نهائيا والتفاهم مع المنصور واقامة السلام معه ، واستدعى العلج عليا وما كان معه من ت للمشاركة في حربه مع الصفويين (١).

قد رافق تلك الحرب ايضا بدايات الازمة المالية الكبيرة الناجمة عن تدفق الفضة الامريكية الى اوربا دولة العثمانية ، وما رافقها من ارتفاع في الاسعار . وتأثر دخول الانكشارية والصباهية ، خل الخزينة نفسه ، وما نجم عنها فيما بعد من تململ في احوال الامبراطورية العثمانية .

11 - من العلاقات نحو السلام الحذر (1581 - 1587) ان تراجع العثمانيين عن غزو

مغرب، قد سمح للمنصور بأن يتراجع بدوره عن توقيع اي التزام للاسبان بتسليم العرائش لهم ، وان طل هؤلاء ، ويسوفهم الى ان يئسوا ، وفقدوا الامل في الحصول على ميناء العرائش المذكور ، عد بضع سنين من المفاوضات ، خسروا فيها مالا كثيرا (٢).

اعقب تراجع العثمانيين عن مهاجمة المغرب وتراجع المنصور عن تسليم العرائش للاسبان تحسن سح في العلاقات بين الطرفين السعدي والعثماني .

فالسلطان العثماني لم يكتف فقط باصدار الامر لعلج علي بالعدول عن منازلة المنصور ، بل ارسل لك رسله الى هذا الاخير مع الهوزالي كما سبقت الاشارة في صيف ١٥٨١ من اجل اقامة سلام بين الدولتين (٣).

وقد استقبل المنصور السفارة العثمانية في فاس في اواخر عام ١٥٨١ (٤)، واكرم وفادة ل السلطان العثماني ، واحسن نزلهم . وهذه السفارة العثمانية قد جعلت المنصور كما تقول قة معاصرة يتخلى عن التزامه بتسليم العرائش للاسبان ، ويؤكد سلامه مع السلطان العثماني أكيد ذلك ارسل المنصور سفارة اخرى اليه مؤلفة من قاضي قضاة مراكش ابي القاسم بن علي ماطبي ، ومن القائد ابي زيد عبد الرحمن بن منصور بن سعيد الشيظمي (٦). وذلك في مطلع ١٥٨٢ (٧)، كما يستنتج ذلك من المناهل ، وقد اعربت هذه السفارة المغربية للسلطان العثماني صور وزرائه عن امور هامة وجريئة ، ذات مغزى هي في الواقع الاسس التي اراد المنصور ان يبني يها علاقاته مع الدولة العثمانية والتي سعى اسلافه عبثا لجعل الدولة العثمانية تعترف بها ،

د وغرامون : المرجع السابق ص ١٢١

م . م . ت . م : فرانسا ، ج ١ ص ١١٥ وهامش ٤

نفسه ج ٢ ص ٩٦ - ١٠٠

الغشتالي : مناهل الصفا ص ٦٤

م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٠

و ٧) الفشتالي : المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٥

ي ان المغرب ليس ولاية تابعة للدولة العثمانية ، ولن يكون ، بل هي دولة مستقلة ذات سيادة ، تقل عن الدولة العثمانية ، وان حكامها ممن يعترف لهم بالمقام الرفيع ، لا بل بالخلافة ، لانهم راف . وبالفعل فقد افصحت السفارة عن حق الدولتين في الوجود والسيادة ، وفضل اهل البيت شراف وحضّت على اتحاد كلمة الاسلام . ويبدو ان السلطان العثماني تقبل هذه الاسس في ه المرة لضعف دولته النسبي ، ولما شاهده من قوة المنصور وتشعب علاقاته الاوربية ، والتفاف عه حوله . وقد عبر الافراني عن هذا القبول بقوله ((ففرح بذلك خاقان ، واهتز لسماعه (١) . مما ني موافقته عليه ، وانعقاد السلام بين الدولتين (٢) .

وذكر الفشتالي ان مراد الثالث تولى الاجابة على رسالة المنصور بخط يده ، وفي ذلك تقدير شريف للمنصور ، ودليل على معرفة مراد الثالث للغة العربية ((فأغرب في ذلك ، كما لم يسمع عن ت من ملوكهم الى ملك)) (٣) .

ولعل ما ذكره الحسن البوريني ، في كتابه تراجم الاعيان والمحبي ، في خلاصة الاثر ان السلطان د الثالث كتب الى المنصور في احد مكاتيبه قائلا له " (لك عليّ العهد ألا أمد يدي اليك للمصافحة ، وان خاطري لاينوي لك الا الخير والمسامحة) (٤) كان في هذه المناسبة .

ونتيجة لهذه السفارات المتبادلة اصبحت العلاقات بين الدولتين ودية سليمة ، فكان المنصور بعث لمراد الثالث كل سنة بسفارة ، تحمل هدية له ، فيرد عنها هذا الاخير بسفارة وهدية مناسبة ، اكد البوريني ذلك بقوله : (وهو موادع لسلطان الزمان . . فيرسل اليهم الهدايا السنية كل سنة وهم يرسلون اليه المكاتيب والخلع المستحسنة . . ورسله دائما تأتي الى القسطنطينية ن جانب البحر . ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ، ويصطحبون القضاة والامراء ، ويكاتبون ن كان له قرب من الدولة) (٥) .

ومن كاتبهم المنصور من كبار شخصيات الدولة العثمانية علج علي ، وذلك في اعقاب تراجعه ن غزو المغرب ، ردا كما يفهم من الرسالة على اعتذار علج علي عن حركته التي كانت موجهة ضده ، ك الاعتذار الذي نقله اليه سفيره الهوزالي . وقد تظاهر المنصور في رسالته باقتناعه بما ذكره ج علي لسفيره ، بأنه لم يتحرك عن عون منه ، وانه لم يكن الداعي الى هذه الحركة ، مما ازال امتعاضه دد محبته له . قائلا في رسالته : (فأنهينا اليكم خطابنا هذا صحبة رسولينا ابي الفاضل القاسم ن علي الشاطبي . . وابي زيد عبد الرحمن الشيظمي ، لتعلموا منهما ان شاء الله ، ان ربع الوداد الله ما زالت تمطره من اخلاصنا عوارض هواطل . . وتتعرفوا منهما ، ان داعي المحبة منا لداعي جفاء على الدوام مناضل ، وسيف التواصل بيننا لحبل القطيعة باتر .) (٦)

وكاتب ابا سالم (٧) ابراهيم باشا ومحمد ا امين الدفترى في الدولة العثمانية ، وطلب منه ن يبعث اليه بالكتب القيمة (٨) واخرين .

ومن الشخصيات العلمية التي كان يكاتبها ايضا : بدر الدين القرافي (٩) ، والبكري (محمد ن الحسن البكري الصديقي ، (١٠) لاغراض مختلفة . وفي الوقت الذي كان يجري فيه تبادل السفارات ن المنصور والسلطان العثماني ، لتصفية الجو بينهما ، كانت تجري بين المنصور وايالات الجزائر عثمانيين مراسلات وسفارات تستهدف توطيد العلاقات بين ايالة الجزائر والمنصور وتقويتها ، ويظهر يها المنصور في موقف لا يقل عن موقف السلطان العثماني فيها او في موقف من له نفوذ فيها .

) الافراني : النزهة ص ٨٧

) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٦٦

) انظر نص رسالة المنصور الى علج علي في الملحق رقم (2) .

) المحبي : خلاصة الاثر ج 4 ص 291-293

٢) م م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ٩٨-١٠٠

٤و٥) الحسن البوريني : تراجم الاعيان من ابناء الزمان تحقيق صلاح الدين المنجد ج ١ دمشق ١٩٥٦ ص ٢٢ والمحبي : خلاصة الاثر ج ١ - مصر ١٢٨٤هـ/ص ٢٢٢-٢٢٣

٧) انظر رسائل سعدية لعبد الله كنون تطوان 1954 ص 195-196

٩و١٠) الفشتالي : المصدر السابق ص ١٨٨-١٨٩

فقد بعث المنصور برسول الى الجزائر يدعى الحاج احمد الماسي (1) ، وتوجه من الجزائر الى المغرب رسول يدعى (مامي) (2) ، وكتب المنصور الى جند الجزائر الانكشاريين رسالة أفهمها ثناؤه عليهم لما يكنونه له من ود ، واشارة الى موقفهم من حملة علج علي الودى تجاهه ، وتقديره لهم عليه ، وفيها ايضا ذكر لمزاياهم وخصائلهم ، وجاء في مقدمة رسالته اليهم بهذا الخصوص : " العصابة التي لها من علامة المحبة لهذا الجناب الرفيع ما اشرق شموسها واقمارها ، والفئة التي اناطت بعرى القاعدة النبوية من ودها واسبابها وصلتها ما فسح اطلها وأجلّ مقدارها ، والجماعة التي عملت عزائمها فيما اجال لديها قداح مرضاتنا وادارها ، والرهط الذى له كلف بالجهاد وولوع ، والجيش الذى له الى الى اقتناص الخيرات بجوارح الرضا جنوح ونزوع (3) .

وابدى المنصور في الرسالة ذاتها استعداده لقبول ما يعن لهم من اغراض " فآرايكم بهذا الجناب الرفيع متقبولة ، وباسباب التيسير ان شاء الله موصولة . . (4) " .

وبعث الى جعفر باشا يوصيه خيرا باحد الفقهاء وهو ابو العباس احمد بن عبد الجليل ، الذى زار المغرب وقابل المنصور ثم عاد الى الجزائر ، وطلب منه ان يبوئه مكانة سامية قائلا له : " فأصعدوه من مراعاتكم مصاعد الاعظام ، وبوئوه فيها على الغارب والسنام ، واوسعوا له في جنابكم بغيته واراداته . . (5) " .

وهو خطاب يدل على ان العلاقة بين المنصور وجعفر باشا قد كانت ودية للغاية .

وقد سعى علج علي بعد عودته من الجزائر الى عزل جعفر باشا ، لان موقفه منه ومن حملته لم يكن كما يستنتج من هايدو مؤيدا ، ولانه كما قال هايدو لم يعامل حسن فنزيانو المعاملة التي طلبها منه علج علي . وكان حسن فنزيانو من موالي هذا الاخير ويتمتع بعطفه عليه . وقد نجح علج علي في تعيين حسن فنزيانو على رأس ايالة الجزائر للمرة الثانية وعزل جعفر في مات 1582 (6) .

ويبدو ان تعيين حسن فنزيانو لم يبعث الارتياح في نفس المنصور : اذ أنه كان على شاكلة سيده علج علي يرغب في التدخل في المغرب ، وكان قد تزوج بأرملة عبد الملك واحتضن ابنه ولذلك فان المنصور لم يهمل مفاوضاته مع الاسبان ، ولم يقطعها لعدم اطمئنانه التام لجيرانه الاتراك .

وفي سنة 1583 نشطت الاتصالات والمفاوضات من جديد بين المنصور والاسبان حول تسليم العرائش او مبادلتها بالبريجة ، وحول التعاون على حرب الاتراك في الجزائر والتخلص من اخطارهم على المملكتين . وفي رسالة المنصور الى فيليب الثاني المؤرخة بآخر رمضان 991هـ / 15/10/1583

(1) عبد الله كنون : رسائل سعدية ص 29

(2) نفسه : ص 60

(3) انظر نص الرسالة : المرجع السابق ص 92

(4) نفسه : ص 96

(5) انظر نفس الرسالة في المرجع السابق 87-89

(6) هايدو : ملوك الجزائر ص 188-189

بعض التفاصيل عما كان يجري بين الطرفين :
فمن هذه الرسالة : نعلم ان فليب الثاني اوفد القسيس ماربن الى المنصور وان اقامة هذا الاخير طالت كثيرا ان المنصور اضطر الى الاعتذار عن تأخير عودة السفير الاسباني . مما يدل على ان المنصور كان يتعمد التأخير في الاجابة عن رسائل السلطان العثماني ، والملك الاسباني على السواء، المستغل عامل الزمن في استيضاح الامور واستجلائها، قبل اتخاذ قرار فيهما او تقديم اجابة عنها . ولا يستبعد هنا ان يكون القصد من وراء التأخير ليس فقط الانشغال بالاعداد لحملة على بلاد توات وتيكورارين التي وجهها المنصور في سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣-١٥٨٤م (١) ولكن ايضا معرفة النوايا الحقيقية لحسن فنزيانو .. ومقاصد الدولة العثمانية من وراء تعيينه للمرة الثانية .

ومن الرسالة نفسها نعلم ان المنصور قبل بتسليم العرائش للاسبان، في مقابل تسليم سبتة الى البريجة ، وانه قد توصل الى اتفاق مع سفير فليب الثاني حول ذلك بحيث لم يبق سوى التوقيع عليه ، وانه يعتزم ارسال قائده ابراهيم السفياني مع السفير الاسباني لاستكمال ذلك : " سنبعث لكم صحبة قائدنا ابراهيم السفياني ليقضي الحاجة ، وكذلك تأمروا لاصحابكم يقبضون لاصحابنا البريجة، مثلما امرنا نحن للقائد ابراهيم يقابض لاصحابكم العرائش " .

ومن الرسالة نفسها نعلم ان المنصور لم يهمل اطلاقا اقتراحه السابق، والمتمثل في التعاون على التخلص من اتراك الجزائر لما حتلال هذه الاخيرة مصدر الخطر عليه وعلى الاسبان « وترى القسيس مرين امرناه مرارا يكلمكم ويكاتبكم في شأن الضرر الاحد لوطنكم ووطننا . وحيث هي مسألة اخذها مهمن لكم خاصة ، وكذلك اخذها مهمن لنا خاصة بحول الله وقوته وعسى يصور في هذه الساعة التي وقع الاتفاق بيننا يهون اكثر علينا جميع (كذا).... ويبعثنا القسيس مرين صحبة القائد ابراهيم على انهم يلتقوا مع العرك د ن مدينة يتكلموا جميع (كذا) ويتدبروا على شأن الحركة للجزائر ولله الحمد ما هنا ما يصعب لا عليكم ولا علينا سوى تأمروا جدامنا بألسنتنا خاصة ونقضوا فيها الحاجة ان شاء الله وتهنينا الرعية كلها بحول الله)) (٢)

وقد تناهت اخبار هذه المفاوضات الى السلطان العثماني، كما تناهت الى ملكة انجلترا ، فانزعجا منها . الاول لما سينجم عن التحالف السعدي-الاسباني من تهديد، وخطورة على الوجود العثماني في الجزائر، والثانية لما سيلحق سفنها وتجارتها من اضرار اذا ما تنازل المنصور عن العرائش للاسبان، وازاء ذلك، فقد سعى كل من السلطان العثماني، وملكة انجلترا ، الى احباط المفاوضات، والضغط بمختلف الوسائل على المنصور للتراجع عن التحالف مع الاسبان ،

---

١) الفشتالي : مناهل الصفا ص٥٦
٢) انظر نفس الرسالة في مجلة الدراسات العربية والعبرية : المجلد التاسع السفر الاول ١٩٦٠ . ص ٣٤ - ٣٦

حسن فنزيانو يتقدم هدية التنازل لهم عن المراكش ، فأوعز السلطان العثماني الى السلطان السعدي (١) ، ولمأنته من جهته ، وقامت المزايدات بحث المنصور على عدم تسليم المراكش للاسبان (٢) ، وابدت له استعدادها لمساعدته في تحصين ميناء المراكش .

ونتيجة لهذه الضغوط تراجع المنصور عن تسليم المراكش لفيليب الثاني او مبادلتها بالبريجة واستياء فيليب الثاني من ذلك ، وتوترت المفاوضات حول هذا الموضوع ، فاستاء فيليب الثاني من ذلك ، وتوترت العلاقات بين الطرفين خلال اعوام ١٥٨٥ - ١٥٨٨ وبضعة شهور من عام ١٥٨٩م ، ليس فقط نتيجة تراجع المنصور نهائيا عن التنازل عن المراكش مهما كان العرض ولكن ايضا لانه اقام علاقات واطيدة مع انجلترا التي كانت العلاقات بينها وبين اسبانيا في هذه الفترة عدائية ، وتدخل في القضية البرتغالية بابدائه الاستعداد لتقديم المساعدة لدون انطونيو (٣) الذي يطالب بالعرش البرتغالي وكان قد اغتصبه فيليب الثاني ، واستقباله لرسله ثم لولده دون كريستوبل ولان المغاربة قد تعرضوا لبعض القواعد البرتغالية التي آلت الى فيليب الثاني بعد ان ضم البرتغال الى مملكته بالهجوم او الحصار كحصارهم لطنجة سنة ١٥٨٤م (٤) ، وهجومهم على سبتة سنة ١٥٨٨م (٥) .

ولان المنصور أخيرا قد مال في السنوات الاخيرة من عهده الى اقامة علاقات عادية ، سلمية بعد ان كان يسعى الى الحصول على المساعدة الاسبانية ، والتعاون مع اسبانيا لاحتلال الجزائر .

وخلاصة القول ، فان العلاقات بين البلدين في هذه الفترة ١٥٧٤-١٥٨٧ التي تتوافق مع عهدي المتوكل على الله وعبد الملك ، وشطر من عهد السلطان احمد المنصور ، وعدد من الباشاوات العثمانيين في الجزائر ، قد تراوحت بين الحرب والتهديد بالحرب ، والسلام الحذر ، وبين تقبل حكام المغرب للعثمانيين عهدي المتوكل على الله وعبد الملك ، والحرب الشديدة على الجهاد ؟ ! بين التبعية في عهد المنصور ، ومرة اخرى كان للقوى الخارجية كالدولة العثمانية ، واسبانيا الكاملة المطلقة في عهد المنصور ، ومرة اخرى كان للقوى الخارجية كالدولة العثمانية ، واسبانيا والبرتغال ، وانجلترا ايضا ، دورها الهام في تلك العلاقات ، وتوجيهها نحو هذا الاتجاه أو ذاك ، نحو السلم او نحو الحرب او نحو التوتر او القلق والحذر ، ولم ترق العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة الى التعاون ضد اي من القوى المذكورة ولا سيما المحتلة منها لشواطئ البلدين .

---

١) م . م . ت . م : فرانسا ج ١ ص ١١٢

٢) محمد خير فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، دمشق 1982 ص72

٣) الفشتالي : مناهل الصفا ص ١٠١ ومجلة تطوان عدد ٨ / ص ٣١

٤) م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ١١٤ - ١١٦

٥) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٩٦-٩٧

((الفصل السـادس))

الصراع على السلطة في القطرين والسلام القلق بينهما

٩٩٥-١٠٦٩هـ/ ١٥٨٧-١٦٥٩م

أولا : العلاقات بين حكام الجزائر الباشاوات والسلطان أحمد المنصور : 995 ـ 1012 هـ/ 1587 ـ 1603م

كما اشرنا الى ذلك في فصل

تعتبر سنة ١٥٨٧ سنة هامة في تاريخ الجزائر العثمانية

الأوضاع السياسية في الجزائر وكذلك في تاريخ العلاقات العثمانية المغربية ، ففي هذه السنة
تولى الدليل على الذي كان يجمع بين منصبي البايلرباي ووزارة البحرية العثمانية ، فاسم تعدى
السلطان العثماني خليفته حسن تزيانو من الجزائر واسند اليه وزارة البحرية ، والغى السلطان
بنظام البايلرباي الذي ظل متبعـــــا في الجزائر منذ انضمامها الى الدولة
العثمانية حتى ذلك الحين لانتهاء اهمية الاحداث التي كانت تجري في الحوض الغربي للمتوسط
وجود شخصية قوية على رأس حكومة الجزائر القاعدة الامامية الدولة العثمانية في المنطقة ، تتمتع
بسلطات واسعة ، وكفاية عالية في قيادة الحروب ، وعدم سياسة الدولة في المنطقة وتعويضه
اميرا ، وادخل السلطان مراد الثالث نظام الباشاوات الثلاثيين بدلا منه ، حيث تكون
سلطة الباشا مقصورة على الجزائر فقط ، لا اشرافه ايضا على تونس وطرابلس ، ومحدودة بزمن
ثلاث سنوات تنقل في المصطلح العثماني .

وكانت الدوافع الى تغيير نظام البايلربايات واستبداله بنظام الباشوات عديدة .

ولعل اهمها في ميدان العلاقات السياسية :

١- تحقق هدنة الصراع بين الدولة العثمانية واسبانيا في الحوض الغربي للمتوسط بعد ان
حققت ... بعد معركة ليبانتي سنة ١٥٧١ .
تحرير تونس للاتراك العثمانيين سنة ١٥٧٤ م بعد
٢- تعيين السلطان مراد الثالث الى التقرب من السلطان السعدي احمد المنصور
وان تخليه عن مطامع الدولة العثمانية في المغرب ، والى اعترافه بالأمر الواقع فيه كبلد مستقل
عن الدولة العثمانية تحت حكم الاسرة السعدية :
٣- مخاوف الباب العالي من سعي البايلربايات الاستقلالية عن الدولة التي وصلت
فيه قوة هذه الاخيرة في الضعف . (١)

وهكذا فقد غدت الجزائر ابتداء من سنة ١٥٨٧م ، مجرد باشوية مثلها مثل تونس وطرابلس
وقد كان هذا التغيير مؤشرا لبدء مرحلة جديدة في الحياة السياسية في الجزائر ، وفي العلاقات
بين هذه الاخيرة وجارتها المغرب ، مرحلة تميزت على صعيد الحياة السياسية بالاضطراب . (٢)

---

١) انظر حول واقع تغيير نظام البايلرباي واستبداله بالباشاوات : كولومب : ماضي الجزائر ص ١٠٨
٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .

١٦٠٣–١٥٨٧ فيما تبقى من عهد المنصور

اما على صعيد العلاقات السياسية ، فانها تميزت فيما تبقى من عهد المنصور ١٥٨٧–١٦٠٣

اما على صعيد العلاقات السياسية ، فانها تميزت باستمرار الطرفين السعدي والعثماني في تبادل الرسائل والهدايا ومحافظ[ة] الجانب[ين] على جانبها السلمي ، وباستمرار الطرفين السعدي والعثماني في تبادل الرسائل والهدايا

[ج]انبين على حسن الجوار . ذلك ان اوضاع الباشاوات في الجزائر لم تكن لتسمح لهم بان [يكو]ن لديهم طموحات للتدخل في المغرب ، كما كان عليه الامر في عهد البايلربايات ، بل كانوا [حر]يصين على تجنب كل مامن شانه ان يثير السلطان السعدي عليهم ، وان اهتمامات السلطان [مر]اد الثالث ولمحمد الثالث قد انصرفت على الخصوص الى جبهتي فارس واوربا الشرقية ، [و]على القضاء على الثورات الداخلية في المشرق ، وحركات الجلالية في آسيا الصغرى .

اما المنصور الذى تخلص من الشعور بالخوف والتهديد من قبل جيرانه الاتراك العثمانيين بزوال نظام البايلرباي ، وباضطراب امور الباشاويات في الجزائر وانشغال الباب العالي بما ذكرناه ، [ف]الذى بات بامكانه ان يتدخل في الجزائر وادارات الدولة العثمانية بشكل او باخر ، فقد اختار [ب]لاد السودان الغربي مجالا لصرف طاقته العسكرية ، كما اختار التآمر مع انجلترا على حليفه الاسبق فيليب الثاني ليفتك منه ما امكنه من القواعد المحتله من قبل الاسبان في المغرب ، وجعل ذلك مجالا لمناوراته السياسية في بعض الفترات ، فكان لذلك في حاجة الى السلم مع جيرانه الاتراك ، والى حسن الجوار معهم ، وتجنب استغلال ظروفهم السيئة للتدخل في شؤونهم بشكل يجعلهم يستجمعون قواهم ضده .

ولكل ماتقدم ، فان كلا الطرفين العثماني والسعدي كان يهمه اذن ان تكون العلاقات بينه بين الطرف الآخر ودية سلمية حتى ينصرف لمعالجة مشاكله الداخلية او تحقيق مآربه .

والدليل على هذا الاتجاه السلمي لدى الدولة العثمانية ، ان السلطان العثماني بعد سنة واحدة من التغيير الذى اوقعه في نظام الحكم في الجزائر بعث في سنة ١٥٨٨ بسفارة الى المنصور ،[1] مع هدية جذابة[2] لتنقل اليه رغبته الملحة في ابرام عقد الصلح والمهادنة معه ، وهذا مايتجلى في رسالة المنصور التي خاطب بها اهل السوس في جنوب المغرب ، مفتخرا بوصول رسول ... بهذا التاريخ ٩٩٦هـ / ١٥٨٨م ... حيث يقول : ((وما اتفق ايضا في هذا التاريخ ، ورود رسول ... الى حضرتنا الامامية وعتبتنا المنيفة السامية ، مخاطبا لسلطنا وراغبا فيها القسطنطينية الذى انفذه الى حضرتنا ... وساعيا فيه غاية جهده ، بعد ان ... في عقد الصلح والمهادنة معنا ، متبوعا بطلب ذلك من عنده ... وسائر ارباب دولته ..)) .[3] وفي نفس الرسالة ما يدل على موقف المنصور من عرض السلطان العثماني حيث قال : ((ولعل في انعقاد كلمته به كما بلغنا في حضرته ، ويجمع عليه اهل مملكته وسائر ارباب دولته ... بين الدولتين ، ويعم منصبين السلطتين الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن ان ينعقد بين الدولتين ، ويعم منصبين السلطتين

(١) القشتالي ، مناهل الصفا ص ٩٩ . الصفارة التزنية ، المغرب ، 1929 ص 19 .
(٢) التمجروتي (ابوالحسن علي) ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، ص ١٥٠ – ١٥٦
(٣) انظر نص الرسالة في / رسائل سعدية لعبد الله كنون

... حتى ينجز على صرف العناية بعون الله لمجاهدة عدو الدين ، وغزو احزاب الشرك الملحدين ، واخراج ... لهذا الامر العزيز وحده في الاستيلاء على الاقطار ان شاء الله ، دانيها وقاصيها ، ... الكفر بعون الله من دارها ، وسياسيا بعز الله وعنايته)) (1) .

... فالمنصور كما يتجلى في هذه الفترة كان راغبا في السلم مع الاتراك ، وذلك ليتفرغ كما ... الم لمجاهدة عدو الدين ، ويقصد به هنا الاسبان الذين انهزموا في هذه السنة 1588 امام الانكليز ، والذين كانوا يحتلون عديدا من المراكز على الاراضي المغربية ، وليتفرغ للاستيلاء على الاقطار الدانية والقاصية ، وهي اشارة الى مشروعه التوسعي للاستيلاء على توات وتيكورارين (2) ... جديد (3) ثم بلاد السودان المترامية الاطراف .

وقد استقبل المنصور السفارة العثمانية التي كانت تنتظره في فاس في جانفي سنة 1581 . ... ردا على هذه السفارة وعلى هدية السلطان العثماني ارسل بدوره الى هذا الاخير سفارة كانت ... تتالف من ابي الحسن علي التمكروتي ، ومن الكاتب الشاعر محمد بن علي الفشتالي ، حملت اليه ... هديته وهديته ، وذلك في سنة 1589 رفقة رسل السلطان العثماني (4) .

وعلى الرغم من ان التمكروتي قد ترك لنا كتابا كاملا عن سفارته سماه ((النفحة المسكية في السفارة التركية)) (5) فانه لم يفصح عن المقاصد السياسية لهذه السفارة ، وعن نتائجها ... ... اذ اكتفى في كتابه المذكور بالاشارة الى استقبال السلطان العثماني له ولرفيقه بعيد وصولهما الى القسطانطينية في اواخر نوفمبر 1589 ، وقبيل مغادرتهما لها في ... وان 1590 ، والى تقديم هدية السلطان المنصور ورسائله ، واستلام اجوبة السلطان العثماني الموجهة الى المنصور (6) ، والى مرافقة رسولين عثمانيين لهما الى المغرب .

ولكن التمكروتي تطرق في كتابه الى قضية الخلافة ، وناقش من هو احق بها وبالتالي من هو احق بالسيادة على العالم الاسلامي . اهم السلاطين العثمانيون ام السلاطين السعديون ؟

وقد كان كل من السلطان العثماني مراد الثالث ، والسلطان السعدي احمد المنصور يتلقب بلقب الخليفة ، ولا يعترف به للآخر . فهل كانت قضية الخلافة احدى القضايا التي تناولتها سفارته الى السلطان العثماني ، او اثارتها كما اثارتها السفارة المؤلفة من الشاطبي والشيظمي قبله ؟

وحسب التمكروتي ، فان السلاطين السعديين هم احق بالخلافة من السلاطين العثمانيين ودافع عن رأيه بقوله : ((والعثمانيون من جملة المماليك والموالي ، هدا في الله بهم عن المسلمين ، وجعلهم حصنا وسورا للاسلام ، وان كان اكثرهم واكثر اتباعهم ممن يصدق عليهم قوله (ص) ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وان كانوا انما حملوا الامارة وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة ، يؤدونها الى من هو احق بها واعلم اهوائهم مواليها وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب الذين شرفت بهم الامامة والخلافة ، والشاهد لهذا انهم من الارومة السنية والدوحة المصطفية ولدتهم الرسالة فما اشرف من هذه الولادة ... وقد اجمع المسلمون على ان الامامة لا تنعقد الا لمن هو من صميم قريش)) (7) .

---

1) عبد الله كنون : رسائل سعدية ص 156
2) تدور حولها وقتلوا والي المنصور اواخر عام 994هـ / 1586م ، انظر الفشتالي : المناهل ص 100
3) نفسه ، ص 99
4) و (5) التمكروتي : النفحة ... ص 10 ، 108 - 109 .
6) نفسه ، ص 101
7) نفسه ، ص 147 -

وصل السفيران العثمانيان اللذان جاءا مع التمجروتي ورفيقه الفشتالي الى المغرب في
...ر ١٥٩٠ ، واستقبلهما المنصور في مراكش، واستلم منهما رسائل مراد الثالث وهديته اليه.
...ن في اكرامهما واسكنهما بدار الامارة . (٢)

الا ان التمجروتي التزم الصمت ايضا حول مقاصد السفارة العثمانية ، ولكن بفضل احدى
...ائق المعاصرة (٣) التي اشارت الى السفارة المذكورة ، نعلم ان احد السفيرين العثمانيين كان
...نا بالتهنئة للسلطان السعدي على الانتصار الكبير الذي احرزه مراد الثالث في فارس ضد عباس الصفوي مما
...ار هذا الاخير الى عقد الصلح معه ، والاخر لينذره بأن يرسل اليه مناب الطفل اسماعيل بن
...ه الملك من ثلاث سنوات ، وقدره / ٣٠/ الف دوكات عن كل سنة . وحسب الوثيقة نفسها فا ن
...سن فنزيانو الذي يطلق الحلق عليا في قيادة البحرية العثمانية منذ سنة ١٥٨٧ ، والذي تزوج
...رملة عبد الملك واحتضن ابنه اسماعيل كما اسلفنا القول ، كان يكن العداء للمنصور ، ويسعى في
...حاق الضرر به ، ويعمل على اثارة غضب السلطان العثماني عليه وعدائه له . ومما فعله بهذا الصدد
...ى ماتذكره الوثيقة المذكورة :

ان حسن فنزيانو سعى للحصول على رسالة من السلطان العثماني ، يأمر فيها المنصور
...تمكين الامير الصغير اسماعيل من دخل اقليم من اقاليم مملكة فاس ، ولما تحصل عليها لم يرسلها
...ليه وتظاهر بأنه فعل ، بقصد اثارة غضب السلطان العثماني على المنصور بسبب عدم امتثال هذا
...لامير لطالبه ، وقد بقي المنصور ثلاث سنوات دون ان يدفع اى مبلغ ، الامر الذي يجعل السلطا ن
...العثماني ينذره بدفع مدخول الاقليم عن ثلاث سنوات ، وكان حسن يأمل ان يجعل المبلغ الكبير
...المطلوب ، السلطا ن السعدى يعصي امر مراد الثالث فيثير ذلك غضب هذا الاخير ويجعله
...يشهر الحرب عليه . ثم ان حسن فنزيانو استغل الاشاعات القائلة بأن احمد المنصور يريد تسليم
...الامير البرتغالي دون كريستوف بن دون انطونيو الملك البرتغالي المخلوع ، الذي كان في بلاطه
...ـــ منذ مطلع سنة ١٥٨٩ الى فيليب بغية الحصول على مساعدة هذا الاخير وتأييده (٤) ، لـمـه
...عند المعاجسة ، وهو ما لا يريده حسن ان يقع ، فحرض السلطان العثماني على المنصور حتى ان مراد
...كان يرسل في طلب ابن دون انطونيو ليحتفظ به رهينة لديه تقيه في حين اسبانيا والانكلترا
...في قصر ملك فاس .

التمجروتي ... النفحة ... ص ١٢٩
نفسه : ص ١٥٧
انظر رسالة ادوارد بارتون سفير انكلترا في تركيا الى روبرت سيسيل كاتب الدولة وهي بتاريخ
٢٤/ ٦/ ١٥٩٠ . في مجلة تطوان عدد ٨ ص ٣٩ - ٤٠
الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠١

بأن تبعث الملكة اليزابيث في طلب الامير البرتغالي

وقد نصح السفير ادوارد كاتب الوثيقة، والمنصور كان يقدم اتراك

ذكور لتوقعه حصول قلاقل كبيرة في المغرب بين الاتراك العثمانيين وتأليب المغرب على المنصور[1]

زائر وتونس على مداهمته على حين غرة، وان يقوم السلطان العثماني بتأليب المغرب على المنصور

فهم من كلام السفير الانجليزي هذا ان للسلطان العثماني تأثيرا قويا في المغرب. ومما يفهم[2]

نا من رسالة الملكة اليزابيث الى السلطان العثماني، المؤرخة في ٢٤/ ٨/ ١٥٩٠م، ان لهذا

لاخير تأثيرا على المنصور نفسه، حيث ترجته فيها ان يبعث الى السلطان السعدي رسالة تحمله

تقوم بتنفيذ ما التزم به من مساعدة مادية وعسكرية لدون انطونيو[3]، ضد الملك الاسباني فيليب الثاني،

الذي يسعى الى تحقيق الهيمنة العالمية[4]. وقد بعث السلطان العثماني الى المنصور رسولا للتداول

في الامر المتعلق بمساعدة دون انطونيو[5]، كما طلب منه ارسال الامير البرتغالي دون كريستوف اليه[6]

فهل استجاب المنصور لما طلبه منه مراد الثالث ؟

من الواضح ان السلطان العثماني بعد انتصاره على الصفويين، وخلاصه من مشاكلهم، وجد مجالا

للاهتمام بقضايا المغرب، وللتدخل في شؤونه، مستغلا فيما يبدو دوي انتصاره. ولكن انتصار

العثمانيين المذكور الذي تظاهر المنصور بسروره به وانشراحه له ((فهي البشارة التي اتسرى[7]

المسرور بها نفاء، والنبأ العجيب الذي فرحنا بخبره السار فرحا لا يغيب صباحا ومساء...)) لم يجعل

المنصور اكثر طواعية للاستجابة لكل ما يطلبه منه السلطان العثماني او اكثر خشية منه.

وان كانت رسالة المنصور الجوابية عن رسالة مراد الثالث، التي نقلتها اليه السفارة العثمانية،

لم تتطرق الى قضية التعويض، او الى قضية ابن دون انطونيو، واكتفت بالتركيز فقط على وقع النصر

العثماني في نفس المنصور، وهو ما سبق ان تقدم، فاننا نعلم مما هو متوفر من الوثائق، ان مطالب

مراد الثالث لم تلق القبول لدى المنصور، لان هذا الاخير لم يخصص اي اقليم من الاقاليم المغربية

او مدخوله لابن اخيه مولاي اسماعيل، ((معتذرا بان رعاياه لا يسمحون له ابدا بأن يضع بلاده

بين أيدي الضباط الاتراك)) وليس هناك اشارة الى انه سلم المبلغ المطلوب تعويضا عن ثلث[8]

في المرجع السابق ص ٤٠ .

انظر رسالة السفير الانجليزي ادوارد بارتون في م.ت.م ، انكلترا جزء ٢ ص ٤٠ – ٤١

(٤) انظر الرسالة في: م.ت.م ، انكلترا / ١٥٠٠/ الف دوقات ، وجاء دون كريستوف ابن

كان المنصور قد وعد دون انطونيو بمساعدة مالية قدرها / ١٥٠٠/ الف دوقات ، وجاء دون كريستوف ابن دون انطونيو في مطلع سنة ١٥٨٩ ليبقى رهينة لديه في مقابل المال المذكور وقد ظل في المغرب الى ربيع سنة ١٥٩٢ بدون ان يحصل والده على اي عون من المنصور . انظر مجلة تطوان عدد / ٨/ ص ٤٢ – ٤٣

ابن تاويت ، من زوايا التاريخ المغربي، في/ تطوان عدد / ٨/ ص ٤٩

م.ت.م ، انكلترا جزء ٢ ص ١٠٢ .

من رسالة المنصور الى مراد الثالث . انظرها في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ١٨ – ٢٤

م.ت.م ، انكلترا جزء / ٢/ ص ٤٦ – ٥٥ (من رسالة ماثياس بيكود الى دون انطونيو بتاريخ ١٨/ ٤/ ١٥٩١ .

سفراء ، ولكن المنصور كما تبين مما تقدم كان يرسل هدايا الى السلطان العثماني ، مرفقة بدون شك بتحف وهدايا للأمير الصغير اسماعيل بل انه استمر على ذلك ، الا ان ماكان يقدمه لهذا الاخير لم يكن منتظما ابدا ، اذ نرى من خلال طلب السفارة العثمانية انه بقي ثلاث سنوات دون ان يبعث له بشيء .

اما بخصوص دون انطونيو البرتغالي ، فقد الحق السلطان العثماني في دفع المنصور الى تقديم المساعدة اليه (1) كما فشل في الحصول على ابنه من المنصور ، اذ ان هذا الاخير آثر ان يعيده الى انجلترا من حيث اتى على ان يسلمه اليه ، وقد تمت عودته الى لندن في ربيع 1592 (2)

ولا يبدو ان امتناع المنصور عن الاستجابة لطلبات مراد الثالث ، او الرضوخ لضغوطه قد اشعره بخطر الاتراك على ملكه . ومما يؤكد عدم تخوفه من تدخل عثماني عسكري ضده في المغرب ، اقدامه على تنفيذ حملته على بلاد السودان في نوفمبر 1590 ، في الوقت الذي وصلت فيه سفارة مراد الثالث الى المغرب ، واستمراره في ارسال الامدادات الى السودان بعد ذلك .

ولعل ماكان يطمئن المنصور من خطر تدخل عثماني في المغرب ، فضل عن رفضه لمطالبات مراد الثالث هي اوضاع الاتراك العثمانيين الداخلية التي ترددت في السنوات الاخيرة من عهد مراد الثالث .

ففي الجزائر المجاورة للمغرب ، شهدت سنة 1590 قيام بني عباس بالتمرد على الحكم العثماني وامتناعهم عن دفع الضرائب ، واستيلائهم على سهل مجانه ، فاضطر الباشا خضر الى ان يسير بنفسه على رأس ابرز قوة امكنه تجميعها من القوات النظامية ، وغير النظامية في ديسمبر 1590 وحاصر المتمردين في قلعتهم ، وعاث فيما جاورها . وكان النزاع بين الطرفين سيطول لو لم يتدخل بينهما احد المرابطين ، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي ويقنع الطرفين على وقف حالة الحرب (3) . ولكن هذه الثورة التي خمدت الى حين لم تكن سوى مقدمة لسلسلة من الانتفاضات شهدتها بلاد القبائل بدءا من 1592 تكاد تكون متواصلة طوال نصف قرن تقريبا ، مستغلة الصراع الذي كان (4)

---

1) كذب المنصور بانشغاله بحملته على السودان ، واشترط ان يعلم بالحملة على البرتغال مسبقا وان تكون المساعدة الانجليزية بعدم بضمن النصر ، انظر رسالة المنصور الى اليزابيث المؤرخة 22/6/1590 في مجلة تطاوان عدد / 8/ ص 77 — 78 .
ورسالته المؤرخة بربيع الآخر عام 1000 هـ الموافق نهاية يناير — اوائل فبفري 1592 في مجلة تطاوان عدد / 3 — 4 ص 55 — 57 .
2) ... : انكلترا جزء / 2/ ص 70
3) 4) انظر: فصل الحياة السياسية في الجزائر . ، ودو غرامون : المرجع السابق ص 129 .

دائما في مدينة الجزائر بين الجند الانكشاري وطائفة الرياس والكراغلة ، والذي غذاه بعض الباشاوات بتأليب هؤلاء على أولئك، وساعد على استفحاله ضعف الباشاوات، وحقد بعضهم على بعض.

وفي تونس ادى تسلط ديوان الجند الانكشاري الى اضطراب الامور فيها والى ثورة الانكشاريين انفسهم على ديوانهم الذي كان يتألف من كبار الضباط ((البولكباشية)) وذلك في اكتوبر 1591 ، وانقضت فترة قبل ان يتمكن الداي عثمان من اعادة الهدوء الى البلاد وتنظيم امورها.(1)

وشهدت ايالة طرابلس ثورة كبيرة بقيادة سيدي يحيى سنة 1589 ، اضطرت الدولة العثمانية الى ارسال اسطولها محملا بقوات كبيرة للقضاء على ثورته وذلك في سنة 1589 ، ولم يتأت لها ذلك بسهولة.(2)

وشهدت السنوات الاولى من العقد العاشر من القرن السادس عشر تمردات كثيرة للجند الانكشاري في كل من مصر واستانبول وبودا وتبريز وغيرها . واعلان الافلاق والبغدان وترانسيلفانيا العصيان، والتحالف مع النمسا وامبراطور المانيا .(3)

فهذه الثورات ، وهذه التمردات التي شملت معظم ولايات الدولة العثمانية ، ولم تسلم منها عاصمة الدولة نفسها، لم تكن لتسمح للسلطان العثماني بالدخول في صراع مع السلطان السعدي .

ولم تكن اوضاع الدولة العثمانية لتخفى على السلطان احمد المنصور الذي كان له مخابرات واسعة .(4)

__ـ علاقة المنصور بالاسبان :__

ان المنصور وهو يتقرب من الانجليز بعد انتصارهم على الاسبان بعد سنة 1588 على الخصوص او وهو يحسن علاقاته مع الاتراك العثمانيين بعد سنة 1581 ، لم يقطع ابدا خط الرجعة الى حليفه الطبيعي ضد هؤلاء الاخيرين ، الا وهو فيليب الثاني ملك اسبانيا ، فالمنصور لم يتقدم في نهاية الامر اي عون لدون انطونيو، الذي كان يناوئ فيليب الثاني ، على الرغم من جميع الضغوط الانجليزية والعثمانية التي كانت تحثه على مساعدته وعلى الرغم ايضا من بقاء ابنه الامير دون كريستوف رهينة لديه مدة تزيد من ثلاث سنوات .

ولم يسلم المنصور الامير البرتغالي المذكور الى السلطان العثماني ليتخذه قذى في عين اسبانيا .

---

(1) ميرسيي : المرجع السابق جزء 3 ص 168 .
(2) هايدو : ملوك الجزائر ص 205
(3) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية دمشق 1980 ص 86 ـ 87
(4) الفشتالي : المرجع السابق ص 207

وآثر التوجه الى غزو بلاد السودان ، على العمل على تحرير بقية المراكز المغربية التي كانت محتلة من قبل الاسبان • فهذه المواقف كلها جعلت خط الزجعة وطريق التقرب من الاسبان غير متداول • والواقع ان علاقاته من الاسبان قد اخذت في التحسن من جديد منذ سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وهي السنة التي قرر فيها فيليب الثاني التخلي للمنصور عن آصيلا ، حتى لا يندفع بعهدا في التدخل في القضية البرتغالية الى جانب الانجليز (١) •

وفي سنة ١٥٩٤م اصبحت العلاقات بين المنصور وفيليب الثاني كما تشهد على ذلك رسالة تلقاها هذا الاخير من المنصور ودية ، يتبادل الطرفان الرسائل والسفارات (٢) • فكيف تطورت اذن العلاقات السعدية العثمانية في العقد الاخير من القرن السادس عشر ؟

على الرغم من رفض المنصور لمطالب مراد الثالث وتدخله في شؤون المغرب فان العلاقات بين الطرفين لم تتدهور الى حد النزاع كما كاد يحصل في سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م ، ولم تنقطع تماما ، بل استمرت عادية سلمية ، يسود بين الدولتين حسن الجوار •

ولما توفي حسن فنزيانو سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م ، الذي كان متحمسا للتدخل في المغرب على غرار سلفه العلج علي ، ثم تلاه مراد الثالث في مطلع ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م ، تبادل المنصور السفارات والرسائل والهدايا مع محمد الثالث ، وكبار شخصيات دولته كوزيره سنان باشا ، ومع باشا الجزائر خضر باشا وسليمان باشا • وكان اهتمام محمد الثالث موجها لمحاربة النمسا اكثر من اهتمامه بالمغرب •

وفي الوثائق المغربية رسالة هامة من المنصور الى خضر باشا ، هي رد على رسالة هذا الاخير التي حملتها اليه سفارته ، تلقي اضواء على العلاقات بين الجزائر والمغرب من جهة ، وبين هذا الاخير والدولة العثمانية من جهة اخرى (٣) •

فمن هذه الرسالة نعلم ان المنصور احتضن سفارة عثمانية نقلت اليه خبر وفاة مراد الثالث وتولية ابنه محمد الثالث مكانه ، ورسالة من هذا الاخير ، ومن وزيره سنان باشا اليه • ومن الرسالة الجوابية للمنصور نتبين رغبته ورغبة كافة الجزائر واتراكها في اقامة علاقات حسن جوار بين البلدين • وفي مواقف الجانبين ما يؤكد حرصهما على عدم اتيان ما يعكر صفو العلاقات او يفسدها

---

١) انظر رسالة المنصور الى فيليب الثاني المنشورة في مجلة الدراسات العربية والعبرية المجلد السابع سنة ١٩٥٨ ص ١٢ـ ١٥ •
٢) انظر رسالة المنصور الجوابية الى سنان باشا في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ٩٦ـ ١٠١
٣) انظر نص الرسالة في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ٢٥٤ـ ٢٦٢

نحو العداء والنزاع وهنا نشير الى موقف باشا الجزائر من الناصر بن عبد الله الغالب الذى ثار ضد عمه المنصور في شمال المغرب وشرقه في ربيع ٢ ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م ، والذى توجه بعد انهزامه الى تلمسان في الحدود الغربية الجزائرية، وسعى الى الحصول على مساعدة اتراك الجزائر [1] . و موقف المنصور من هذا التطور، وترقبه لمآل الاوضاع في الجزائر .

ومن الرسالة نفسها نعلم ان موقف باشا الجزائر واتراكها من ثورة الناصر، كان عدم التأييد والمناصرة ، حيث رفض الباشا الاستجابة لطلب المساعدة الذى تقدم به اليه رسل الناصر ، وأوعز الى اتراك تلمسان ((بسد باب القبول في وجهه وعدم اسلام الجيش الى الالتفات اليه ، والالتفاف عليه ...)) [2] ، وبعث رسوله الى المنصور ليعرض عليه مساعدته العسكرية ان احتاج اليها. وكان السلطان السعدى خائفا من تطورات هذه الثورة كما ان تقدم الاتراك على تقديم المساعدة له فاتخذ لها كافة احتياطاته قبل انه اتصل بامير كوكو عمار بن القاضي بهدف التحالف معه ضد اتراك الجزائر [3] ولما جاء رسول باشا الجزائر رحب به وسر لهذا التطور الجديد واثنى على مواقف الباشا الودية هذه ، فخاطبه قائلا : ((فذلك هو المظنون بمكانكم المكين ، والمعتقد في عهدكم الوثيق المتين ، وودادكم الواضح المبين ، وكيف لا وانتم من اوليائنا المخلصين ، واحبائنا الذين تشد عليهم يد الظنين . ولسنا نشك في ان كل ما يسوؤنا، ولو كان اضعف مثل هذا من خيط العنكبوت، لا تساعد عليه محبتكم الراسخة القواعد ...)) [4] . وفي مكان آخر من الرسالة قال : ((ان هذه الدار ودار كم واحدة وعلى الاتحاد والامتزاج بحول الله في كل حال متعاضده ...)) [5] .

ونعلم كذلك من نفس الرسالة ان المنصور تحاشى ملاحقة الناصر الى ماوراء الحدود الشرقية المغربية قبل ان يستأذن من اتراك الجزائر ، وفي هذا دليل على حرص المنصور من جهته على عدم اتيان اعمال تعرض علاقات حسن الجوار بين الجزائر والمنصور . ((فلما رأيناه تقاصر عنكم لم نرد اقتحامه الا بعد مفاوضتكم واعلام مكانكم ...)) [6] .

ونتيجة لعدم تدخل اتراك الجزائر ضد المنصور بمناسبة ثورة الناصر ، وعدم استغلال المنصور الظروف الصعبة التي كان يعاني منها الاتراك العثمانيون في الجزائر في اواخر عهد سواء بسبب

---

(1) انظر حول الثورة : الحياة السياسية في المغرب
(2) من رسالة المنصور الى خضر باشا ، انظرها في المرجع السابق ص ٢٥٧ . (رسائل سعدية) لكنون
(3) انظر بوعزيز : اسبانيا وكوكو في المرجع السابق ص ٢٠
(4) من رسالة المنصور الى خضر باشا في رسائل سعدية لكنون ص ٢٥٨–٢٥٩
(5) نفسه : ص ٢٦٠
(6) نفسه .

نزاع الداخلي بين طوائف الجند الانكشارى والقراصنة والرياس ، او الثورات التي قامت ضدهم،
سيما ثورة بلاد القبائل/، استمرت الحال قائمة بين الطرفين السعدى والجزائرى العثماني، سلمية للتدخل ضدهم،
ية ، يتظاهر كل منهما بالاستعداد لمساعدة الآخر في التغلب على مايواجهه من الصعوبات .
على غرار ما ابداه خضر باشا من استعداد لمساعدة المنصور في القضاء على ثورة الناصر ، ابدى المنصور
من جهته استعداده لمساعدة باشا الجزائر على مواجهة خطر حملة اسبانية كانت محتملة في اواخر
قرن السادس عشر، بعد التقارب الذى حصل بين امير كوكو عمار بن القاضي وفيليب الثاني في
سنة ١٥٩٨م[1] قائلا في رسالته الجوابية الى باشا الجزائر الذى اخطره بهذا التقارب ومخاوفه
من نتائجه : ((... ثم اعلموا انه ان آنستم من جانب الكفرة دمرهم الله عمارة تنشأ او اسطولا يؤم
ناحيتكم ويخشى ، واحتجتم الينا فنحن بحمد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودون لنصرتكم
على اتم اهبة واستعداد ، واحتفال ، لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد ، وآذاننا صاغية
لداعيكم ، ووجوب صوت مناديكم ، ومتى ناديتم وافيناكم بحول الله بعساكرنا المظفرة بالله خيلا
ونارا ، واسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا ، فان كلمة الله الاسلام في النصرة على اعداء الدين
واحدة ، وعلى ارغام انوف المشركين بحول الله متعاضدة ...)) .[2]

ولكن اتراك الجزائر لم يستعينوا به سواء لمواجهة حملة دوريا على الجزائر في سنة ١٦٠١،[3]
على الرغم من علمهم بالاعداد لها ، وبخبرها قبل قيامها ، او للقضاء على ثورة القبايل التي هددت
الحكم العثماني في الجزائر في اواخر القرن السادس عشر ، ومطلع السابع عشر ، وحاصر الثائرون العاصمة
بضعة ايام ، وعاثوا فيها جوارها .[4]

والاتراك بموقفهم هذا شبيهون بموقف المنصور الذى لم يستعن بهم ايضا لاخماد ثورة الناصر
او القضاء على هذا الاخير ، او لشن حرب على الاسبان الذين اثاروه عليه . وقد كان المنصور ناقما
على هؤلاء الاخيرين، راغبا في الانتقام منهم ، واخذ يعد العدة لذلك ، ولكنه لم يجرؤ على محاربتهم
وحده ، ولم يرغب في التعاون مع الاتراك، بل رغب في التعاون مع اليزابيت ملكة انكلترا . فبعث اليها
في سنة ١٦٠٠ سفارة لتعرض عليها القيام بحملة مشتركة على الاسبان في مراكزهم في المغرب .

---

(1) ... : المرجع السابق ص ٣٠ (حول التقارب بين كوكو واسبانيا).
(2) رسائل سعدية : لعبد الله كنون ص ١٤٤
(3) انظر حول هذه الحملة دوغرامون المرجع السابق، ص ١٤١
(4) نفسه : ص ١٤٠

… عرفت تردده اعتذرت عن

… حقر دارهم ولكن ملكة انكلترا التي خبرته في قضية دون انطونيو … ان تكون في البندقية واما الاتراك

… عرضه لاعتقادها ان شن حرب على الاسبان يهمني

… هذه الاخيرة يحصلون على مصادرهم واي… في اسبانيا . وابدى المنصور اهتماما بالفكرة ، (١)

… بينه وبين البزابيت مذاكرات خلال سنتي ١٦٠٠ و ١٦٠١) لكنها باءت بالفشل في النهاية .

… المنصور يعتقد انه بالامكان … مسلمي المشرق الى التحالف ، ولعله لهذا الغرض طلب

… البزابيت ان تنقل على سفنها بعثة مغربية الى حلب .

وفي الوثائق الانكليزية رسالة من المنصور الى البزابيت بتاريخ ٢ ارمضان سنة ١٠٠٨ / ٢٧ / ٣

١٦٠٠ حملتها الى هذه الاخيرة السفارة المغربية التي توجهت الى انكلترا في صيف عام ١٦٠٠

… فيها : ((انه يرد على معلتك خدامنا ، حملة هذا الكتاب الكريم ، الذين وجهناهم الى

… لقضاء بعض مآربنا مما عنّ لنا من اغراضنا ، وقد اخترنا مرورهم على بلادك للمحبة التي

… بيننا … والصداقة التي تقررت بين جانبنا وجنابك ..)) (٢)

وفيها طلب من الملكة البزابيت ان تتوصى في نقلهم على متن سفن بلادها المتوجهة الى حلب ،

… تحملهم كتابا توصي فيه تجار بلادها باعادتهم الى المغرب على متن سفنهم بعد استيفاء …

… اغراضهم .

اما هذه المآرب والاغراض التي كان المنصور يريد قضاءها في حلب فلم يفصح عنها بما

… مجالا للاحتمالات العديدة حول اغراضه ؛ ا – سياسية كالتعرف على الاوضاع التي كانت

… سائدة هناك في تلك الفترة حيث كانت اوضاعا مضطربة (٣) واستغلالها في الدعوة لنفسه هناك ،

واقناع رؤساء الثائرين بالاعتراف به خليفة ؟ (٤)

وقد كان المنصور يوجه دعاة الى المشرق العربي ، ولا سيما الى مصر في شكل طلاب علم ،

او تجار ، او رحال ، ليقوموا بالدعوة له ، والتعريف به ، واكتساب انصار وموالين له ، ومن اشهر

هؤلاء ابو العباس احمد بن القاضي ، صاحب كتاب المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور (٥)

واصبح له في مصر دعاة من المصريين من بين الاسر العلمية كأسرة البكري (٦) والقرافي (٧)

… (١) … انكلترا جزء ٢ ص ٢٠٤

انظر رسالة المنصور الجوابية عن مذكرة البزابيت في … ص ٧٩

انظر الرسالة بالعربية في مجلة تداول عدد / ٨ / ص … تمكن منهم واليها نصوح باشا وحسين

كان الانكشاريون يعيثون فسادا في حلب وقراها … نصوح باشا قامت اثناءه حلب

باشا جانبولاد . ثم عين هذا الاخير واليا على حلب ووقع في صراع مع … ثم ثورة ابن اخيه علي جانبولاد

الامرين ، وانتهى الامر بقتل حسين باشا عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م … جزء ٣ ص ١٣٥ / ١٤٠ وجزء ٤

انظر خلاصة الاثر للمحبي جزء ٢ ص ٨٤ – ٨٧ وج ٢ ص ٢٢٤ وجزء …

ص ٤٤٨ – ٤٥١ .

انظر ابن تاويت ، من زوايا التاريخ المنسي في مجلة تداول عدد ٨ ص ٨٨ هامش ٦٧

مخطوط رقم 1153 (المكتبة الوطنية بالرباط)

(٧) الفشتالي المرجع السابق ص 189 و 272

ولعله كان له في حلب ايضا دعاة من اهل البلاد ، ولاسيما من الاشراف هناك الذين كان لهم نفوذهم وسطوتهم في المدينة .

واذا صح هذا الاحتمال فيكون غرض المنصور هو مناوأة السلطان العثماني ، وانتهاز ظروفه الصعبة لا مجرد اغراض تجارية ، ومما يدفع الى هذا الاحتمال ماورد في رسالة جون طومسن الى انجلترا المعاصرة للسفارة المغربية المذكورة ، التي عرف فيها بأعضائها الاربعة ، فقد ذكر ان الحاج ميسا (كذا) والحاج بهنيت (كذا) هما ، كما يقال هنا (في المغرب) كتاجرين ليتاجرا في بعض الجهات (حلب) .. وقد احتفظ هنا بسرية ذلك بحيث انه لايدرى احد ماهي البلاد التي سيتوجهون اليها (1) . واكد على دور هذين الشخصين التجارى في مكان آخر من رسالته قائلا : ((والشخص السيد الحاج ، والحاج الآخر اللذان سيذهبان للاتجار في بعض الجهات سيتسلمان هناك كثيرا من الاموال للسيد حميدن (كذا) وفلدا هوستونلي وهو المال الذى يعود عليهم كحصص لهم في الصفقة التي ابرموها مع الملك)) (2) .

وقد كانت حلب احدى المراكز التجارية الهامة في المشرق العربي في هذه الفترة ، فلا يستبعد ان يكون المنصور قد رغب في الحصول على بعض البضائع من هذا المركز الهام او ربط علاقات تجارية مع تجارها .

اما موقف الملكة اليزابيث من طلب المنصور المتعلق بارسال مبعوثيه الى حلب على متن سفن الشركة الشرقية التابعة لبلادها ، فكان الاعتذار عن تلبية طلبه لما في ذلك من اخطار (3) ولعله خشية من ان يؤدى ارسالهم الى اثارة غضب السلطان العثماني ، ولكنها تكفلت باعادتهم الى المغرب . وقبل المنصور اعتذارها (4) .

وقد كان رسل هذا الاخير الى الدولة العثمانية يستقلون عادة السفن العثمانية في ذهابهم وايابهم ، الامر الذى يجعل ارسالهم على متن سفن بلدان اخرى مثيرا للشكوك ولاسيما ان العلاقة كانت مضطربة .

ولا شك ان الهدوء والاطمئنان الذى نعم به المنصور في داخل مملكته بعد نجاحه في القضاء على ثورة الناصر في ماى سنة ١٥٩٦ ، طوال عدة سنين هو الذى اتاح له الفرصة للتفكير في التدخل بشكل أو آخر ضد الاسبان ، وفي استغلال الظروف الصعبة للسلطان العثماني على النحو الذى

(1) من رسالة طمسن الى ريتشارد . انظرها مترجمة الى العربية في مجلة تطاوان عدد / ٨/ ص ٥٠ـ ٥٢ . ص... انجلترا ، جزء ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٩٢ .
(2) نفسه ، ص ٢٠٤

تقدمت الاشارة اليه،ولكن هذا الهدوء ، وهذا الاطمئنان قد اضطرب، واعقبه قلق وانزعاج، بعد ان لاحظ المنصور ابنه وولي عهده محمدا الشيخ ينجذب نحو الاتراك، ويقرب القبائل المعروفة بولائها لهؤلاء ، ويتخذ منها الجند والمستشارين ، مما عده تطورا خطيرا يهدد مملكته نصا يتجلى ذلك من رسالته الى ولي عهده المذكور :

((والذى شق علينا اعظم من هذا كله ، واستنكرناه ، ولم نجد صبرا عليه هو ما وجدناه قد اطلع عليه اولاد طلحة... في اخبارهم والفيناه قد توصلوا من ذلك مالم يتوصل اليه والله احد من تبار خدامهم اهل بلادنا وخواص اهل بساطنا لان اهل بلادنا احياء مالهم بحث الا في مصالح انفسهم ، وهؤلاء انما يبحثون على القوة وعورة المملكة ، فاذا بكم تستخدمونهم بطائفة واحدة ، وتطلعونهم على اموركم واحوالكم مع ان القوم مازالوا ببلاد العدو (كذا) وبين اظهره وانما الذى بالمعونة تعالى ، نقدلهم ونحذرهم فان الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا عليه بانفسهم ..)) (1)

ويتضح من هذه الفقرة انه كان لايزال يخشى اتراك الجزائر ولا يأمنهم ، على الرغم من ان هؤلاء كانوا في هذه الفترة يعانون ظروفا صعبة من غزو الاسبان ، وثورة القبايل ، والنزاع بين طوائف الجند ، وعقد الباشاوات بعضهم على بعض ، مما لم يكن يسمح لهم بالتدخل في المغرب لدعم هذا او ذاك من الثائرين او المتمردين على المنصور .

فكيف كان تصرف المنصور لمجابهة موقف ولده ؟ ، لقد سعى الى التقرب من جديد من الحليف التابيعي ملك اسبانيا فيليب الثالث في وجه مطامع الاتراك العثمانيين ، فعقد معه تحالفا في اوت 1602 متخليا بذلك عن رغبته في توجيه ضربة مضادة للاسبان الذين ازعجوه بمولاى الناصر (2) سنة 1595 ، ثم اقدم بعد ذلك على مهاجمة ولده في فاس، وحسب الافراني فان محمدا الشيخ (3) هدد والده ان هو تحرك اليه بالتوجه في اصحابه الى تلمسان واللجوء الى اتراكها ، مما جعل المنصور يتراجع عن مهاجمته ، ويعمل على طمأنته ، ولما تحقق له ذلك فاجأه بهجوم سريع فلم يتمكن من تنظيم مقاومته في فاس، او الفرار الى تلمسان كما هدد من قبل ولكن ما استطاعه هو الخروج من فاس واللحاق بزاوية ابي الشتاء، وهناك تم القبض عليه بعد مقاومة بسيطة واقتيد

---

1) الافراني ، النزهة ص 175 .
2) ... فرنسا جزء 2 ص 218
3) الافراني ، المرجع السابق ص 180

الى سجن مكناسة (1) .

وقد حرص المنصور على اخطار باشا الجزائر فور القضاء على تمرد ولده ، مشيرا الى سبب تحويله الى فاس بقوله : ((ثم بعد يعلمكم ان سبب اقبال مقامنا .. هو استشعارنا من ولدنا (يب) الشيخ وحشته اختلجت بضميره ... تأتينا لجلاء كسوفها عن باله وغيمها وارسال ترياق الحلم الناجع على ايمها ، فلما قرب ركابنا العلي من هذه البلاد خف لنا عن فاس ومن معه من بها من الاجناد ، ومر مضاضيا في ستة نفر الى رابطة المرابط ابي الشتاء ايذانا لمقامنا العلي بالطاعة والمبرة ابانا الكريم بيد الاستطاعة ، وتوجهنا عنه فوصل وانتظم به والحمد لله الشمل وانتهى وزال عنه بحمد الله كل ماكان سبب الوحشة من الهواجس الملمه والخواطر المدلهمة)) (2) .

اما رد فعل اتراك الجزائر وباشاها فنتلمسه من خلال رسالة المنصور الجوابية الى سليمان باشا الجزائر : ((هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكم ... فتعرفنا منه ماقررتم من سروركم المتضاعف لما بلغكم من جمع الشمل بولدنا ... وقرر ماكان من عزمكم لأول مابلغكم هذا الطارق على النصب الى علي مقامنا بالاستعداد ومقابلة جانب ولدنا بوجه الصفح وجميل الاحالة (3)))

وهكذا طغت المجاملات على المراسلات بين المنصور والاتراك العثمانيين في حين ان كل جانب كان لايطمئن الى الجانب الآخر ، فالمنصور كان دوما متخوفا من الاتراك العثمانيين ، حتى بعد تغيير نظام الحكم في الجزائر ، وما تبعه من تدهور في اوضاع ايالة الجزائر . والاتراك في الجزائر كانوا يخشون استغلال المنصور لظروفهم السيئة ، ولا يطمئنون الى اقواله ، ونتيجة لذلك لم تزد العلاقات في احسن الظروف عن تقديم عروض للتعاون في مناسبات معينة ، ولم ترق ابدا الى تلاحم او تعاون حقيقي ، كما كان ينتظر ان يحصل .

ولعل مايميز العلاقات بين المنصور والاتراك في عهد مابعد البايلربايات هو اتجاههما نحو السلم وحسن الجوار وتبادل الاخبار بما يجري في البلدين . فهل استمرت كذلك في عهد ابناء المنصور ؟ .

---

1) الافراني ، المرجع السابق ص ١٨٠

2) انظر نص رسالة المنصور في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ١٦٧

3) انظر نص رسالة المنصور في المرجع السابق ص ١٨٥

ثانيا : العلاقات بين حكام الجزائر الباشاوات وحكام المغرب بعد المنصور :
1012 ـ 1069 هـ/ 1603 ـ 1659 م

دخل المغرب بعد موت المنصور في مرحلة جديدة (1603 ـ 1659 م) ، تميزت بالاضطراب والتجزؤ الى مملكتين ثم الى عدة وحدات سياسية ، وتجدد اطماع القوى الخارجية فيه ، مع ازدياد عددها ، الى جانب اجتياح الاوبئة والكوارث بين فترة واخرى (1) .

اما الجزائر في هذه المرحلة فقد استمرت الاوضاع فيها مضطربة بصفة عامة نتيجة التنافس الذي كان بين الجند الانكشاري وطائفة الرياس ، والكراغلة ، وعجز الباشاوات عن المسك بزمام الامور ، وقيام ثورات ، ولا سيما في بلاد القبائل ، وتجدد الغزو الخارجي للشواطئ والمدن الساحلية ولكن اضطراب الاوضاع في الجزائر بصفة عامة لم يحل دون توسع نشاط الغزو البحري وازدهاره في هذه الفترة (2) .

واما الدولة العثمانية فقد مالت في هذه المرحلة الى الضعف اكثر فأكثر ، اذ لم يكن خلفاء محمد الثالث الذي توفي هو الآخر في سنة ١٦٠٣ على درجة كبيرة من القوة ، بل ان ابناء مصطفى وحفيده عثمان ، كانا العوبة في ايدي الانكشارية ، يولونهما ويعزلونهما متى شاؤوا . وكثر الثائرون على الدولة من الداخل ، وتجدد صراع الدولة العثمانية مع الصفويين . وشعورها بضعفها جعلها تمضي صلحا مع النمسا قبلت فيه بالتنازل عن الجزية التي كانت تدفعها هذه الاخيرة لها . وقد خسرت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة عدة معارك بحرية امام مالطا ، وايطاليا ، ووقعت مع هولندا اتفاقية امتيازات تضاهي اتفاقية امتيازات فرنسا (3) . فكيف كانت العلاقات بين المغرب والجزائر في هذه الفترة ١٦٠٣ ـ ١٦٥٩ ، وهذه المرحلة المضطربة من تاريخ البلدين وتاريخ الدولة العثمانية ؟

تقدمت الاشارة الى ان الدولة العثمانية قد مالت منذ اواخر عهد السلطان مراد الثالث الى مسالمة المغرب ومهادنته ، والى ان باشاوات الجزائر الذين كانوا يعينون لفترة ثلاث سنوات فقط ثم يستبدلون ـ وكثيرون منهم عزلوا او قتلوا قبل انقضاء الفترة المحددة لهم ـ لم تكن لهم سياسات واضحة بعيدة المدى ، لضم المغرب . ولم تكن لديهم القوة الكافية ولا السلطة للتدخل المباشر فيه كما كان عليه الامر في عهد البايلربايات . ومن ثم كان هم الباشاوات في احسن الظروف هو الحفاظ على الجزائر كما ورثوها عن البايلربايات . بل انهم في اواخر هذه الفترة قد عجزوا حتى

1) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
2) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .
3) انظر عن اوضاع الدولة في هذه الفترة بصورة عامة، المرجع السابق جزء ١ ص ٥٣ - ٥٤ .
علي حسون تاريخ الدولة العثمانية ص ٨٩ ـ ٩٢

عن الحفاظ على حدود الجزائر الغربية كما كانت في عهد اسلافهم البايلربايات • وتقدمت الاشارة منذ قليل الى ان المغرب تجزأ واضطرب بعد المنصور مما لم يكن ليسمح لحكامه بدورهم بالتدخل في الجزائر • ولذلك فقد كانت العلاقات في العقود الخمسة الاولى من الفترة موضوع الدرس ذات طابع سلمي • اما العقد السادس منها فقد شهد كما سنرى تجدد النزاع بين الجزائر والمغرب ، واطماع المغاربة في الغرب الجزائري • وذلك عندما ظهرت في المغرب منذ العقد الخامس من القرن السابع عشر اسرة شريفية جديدة وقوية تمكنت من اخراج المغرب من ضعفه في العقود التالية •

والجدير بالملاحظة قبل الدخول في تفاصيل العلاقات في هذه الفترة ان الوثائق المنشورة والمتوافرة عن النشاط الدبلوماسي بين البلدين ، وبين المغرب والدولة العثمانية قليلة ، وقد يحلل ذلك بأن النشاط الدبلوماسي لم يكن في مثل مستوى المرحلة السابقة ، او ان تلك الوثائق مفقودة او لم توجد لاضطراب الاوضاع في البلدين آنذاك • واذا استثنينا التعاون الذي كان قائما بين غزاة البحر الجزائريين والسلاويين والتطاونيين ، فان العقود الاربعة الاولى من القرن السابع عشر لم تعرف تعاونا حقيقيا وتزيها بين حكام المغرب والجزائر ، للتغلب على الصعوبات التي كانت تواجههم ولعل ذلك لا يعود فقط الى الظروف الصعبة التي كان البلدان يعيشانها في هذه الفترة ، ولكن ايضا الى استمرار الحكام المغاربة ، ولاسيما السعديين منهم في حذرهم من التعاون مع الاتراك العثمانيين ، وميلهم الى التعاون مع القوى الخارجية الاخرى ، كالانكليز والهولنديين على الخصوص ، كما قد يعود الى حرص الاتراك العثمانيين على عدم تغلب المغرب على مشاكله التي كان يتخبط فيها ، ليبقى حكامه منشغلين بها ، بل انهم كانوا يعملون على بقائه مجزأ مضطربا ، لتحريضهم هذا على الثورة ، ومساندتهم لذلك على الاستقلال ، دفعا لما يتقي من اخطار قوة المغرب ، وحكامه عليهم في وقت كانوا هم فيه ضعافا •

ولعل في رصد مواقف اتراك الجزائر وحكام المغرب السعديين وغيرهم واستطلاع دوافعهم مايوضح بشكل جلي ، طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الطرفين في هذه الفترة •

ويمكن ان تصنف تلك العلاقات في الفترات التالية :

١- العلاقات مع ابناء المنصور •
٢- العلاقات مع القوى السياسية الاخرى غير السعدية في المغرب •
٣- العلاقات مع احفاد المنصور •
٤- العلاقات مع الاشراف العلويين •

ا ـ العلاقات مع ابناء المنصور :

لما توفي المنصور في ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م تنافس ابناؤه الثلاثة : زيدان وابو فارس ومحمد الشيخ وابن هذا الاخير على الملك . ولما انهزم زيدان في المعركة الاولى التي جرت بينه وبين عبد الملك بن ابي فارس ، واخيه محمد الشيخ في مطلع الشهر الاول من سنة ١٦٠٤ يتسادلا ، ولاحقه الجيش المنتصر الى فاس قصد تلمسان ليستعين بترك الجزائر واقام بها بضعة اشهر (١) (٢) فكيف كان موقف الاتراك منه ؟ . اجاب زيدان نفسه على هذا التساؤل في رسالته الموجهة الى منافسه يحيى الحاحي (٣) حيث قال : ((.. فاعلم ان اهل المغرب لما تمالئوا علي ، وخرجت المشرق ، والتقيت بالترك والاروام ، من السوس ، والمستوم وخاطبوني وخاطبتهم ، منهم مشافهة ومنهم مراسلة ، وكنت ايام مقامي بارضهم مقامي على سرير ملكي . لأن كبيرهم وصغيرهم ، رئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ، ويعد نشر رغبته لنعمتي ، وواسيت الجميع عطاء مترفا مع قلة الـزاد والذخيرة ، وترفعت عن مراسلات الاماثل والاكابر من العجم والعرب . ولا ركنت لأحد بحل تجودت بما قدرت عليه من الاخبية ، حتى جعلت معلة بروقها وخيلها فتراموا علي (كذا) العجم بالرغبة وبسطوا كف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم ، وعرضوا علي الاقطاع السنية والبلادات الملونية ، بلداقمتان وادي خطاب حتى قال السلطان مراد رئيس المجاهدين ، وما مثلك يكون مع العرب ، فانحن نخدمك باموالنا وانفسنا وبما لنا من السفن حيث اردت واحببت ، ولا انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بأني اني نحمل اهلي وحاشيتي وارتح اليهم الا ان تضمن لي الدخول في الملك والظلم على البلاد او بعضها ، وقد قفلت من عندهم ولم يتعلق ثوب عفافي مايشينه معهم ولا مع العرب ...)) . (٣)

فما قاله زيدان ندرك ان الاتراك قد رحبوا به كما رحبوا من قبل بعمه عبد الملك وعبد المومن ووالده احمد المنصور ، وحثوه على البقاء عندهم واغروه بالاقطاع ، ولا شك ان قصدهم من وراء ذلك هو اتخاذ ورقة يلوحون بها في وجه اخوته في المغرب ، يستغلونها حين تسنح لهم الفرصة وتواتيهم ظروفهم ، ولذلك فهم لم يسمحوا له بالعودة الى المغرب الا بعد ان تعهد لهم خطيا بالرجوع اليهم . وتظاهروا باستعدادهم لمساعدته قدر الامكان ، فهل كانت ظروفهم في الجزائر

---

(١) الافراني ، النزهة ص ١٩٣ ، رسالة ر و . من . الى روبيرت كوتنجتن ، مجلة تداول عدد ٩ ص ٩٠ / وفي رواية اخرى فرنسا والجزائر . اندارم . انكلترا جزء ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٤

(٢) ر . و . من في المكان نفسه ص ٩١ وفيه اقام (دون تلمسان) .

(٣) انظر رسالته في الافراني ، النزهة ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

تمنح لهم حقا بتقديم المساعدة اللازمة له ، او التدخل معه بشكل مباشر في المغرب ، كما فعلوا من قبل مع ابي حسون الوطاسي ، او مع عبد الملك السعدي في عهد البايلرباي ؟ وماذا قدموا له في نهاية المطاف لدى عودته الى المغرب ؟ .

لقد كان الكراغلة ابناء الاتراك من الجزائريات ، والزواويون سكان بلاد القبايل الكبرى في عداء شديد مع الانكشاريين في الجزائر ، وهؤلاء في تنافس مع طائفة الرياس ، وحكومة الجزائر في عداء مع الحكومة الفرنسية بسبب المراكز التجارية التي اقامتها هذه الاخيرة بقيادة خضر باشا في عداء مع الحكومة الفرنسية بسبب المراكز التجارية التي اقامتها هذه الاخيرة على الشواطىء الشرقية للجزائر ، مما دفع الباب العالي يتدخل لعزل الباشا المذكور والتخلص منه بتحريض من فرنسا (1)

ولذلك فانه لم يكن بالامكان تقديم مساعدة هامة لزيدان ، اضف الى ذلك ان ابا فارس بعث في نفس السنة 1013هـ / 1604م التي التجأ فيها زيدان الى الاتراك هدية ثمينة ، تتألف من 300.000 اوقية ذهبية الى السلطان العثماني ردا على السفارة التي وجهها (2) هذا الاخير (محمد الثالث) الى المنصور لوفاة الهدية هذا الاخير قبل ان تصل اليه . كما ان ابا فاس كان لايزال على درجة كبيرة من القوة لاتشجع على التدخل في المغرب والمغامرة بحملة ضده . (3)

وتذكر المصادر ان زيدان انتظر طويلا مساعدة الاتراك له حتى يئس ، وانه حين عودته الى (4) المغرب ، ودخوله الى سجلماسه ، لم يكن معه سوى / 1200 / من الفرسان من عرب العشائر ، وبعض الاتراك تردد من بينهم اسم القائد مصطفى باشا ..

وبتلك القوة الصغيرة اشعل زيدان نار الصراع بينه وبين اخيه ابي فارس بالدخول عنوة الى تافيلالت ، ثم التقدم منها الى السوس ، كما انه اذكى اوار ذلك الصراع ايضا بينه وبين اخيه محمد الشيخ ، وابنه عبد الله (5) وهو الصراع الذي استمر دون هوادة نحو عشر سنوات فاضعف المغرب وانهكه اوالذي ما كاد يفضي حتى تنقسم المغرب الى وحدات سياسية صغيرة عديدة متنافسة متناحرة ، فامن اتراك الجزائر بذلك على حدود المغربية لمدة عقود اخرى .

1) فصل الحياة السياسية في الجزائر ... في المرجع السابق ، ص 145-147
2) شانتال دولا فيرون : العلاقات ... في المرجع السابق ، ص 298
3) الافراني ، المرجع السابق ، ص 193
4) رسالة ... في المرجع السابق ، ص 91 (لم يذكر ماهي هذه العشائر ولعلها عشائر الشراقة
انظر ... نفسه ص 107
5) انظر تفاصيل هذا الصراع في فصل الحياة السياسية في المغرب

وفي خضم الصراع الذي قام بين ابناء المنصور توجهت انظار بعض القبائل الى مولاي اسماعيل بن عبد الملك، الذي كان في تركيا ، فاتصلت به ، فتحرك نحو المغرب . وفي ١٨ نوفمبر ١٦٠٤ ، كان قد وصل الى زانت ، ولكنه لم يصل الى المغرب ، ولم يشر اي مصدر الى اشتراكه في الصراع على السلطة في هذه الفترة . (1)

وذكر زيدان في رسالته السالفة الذكر ان الاتراك بعثوا الى السوس البولكباشي مصافي صولاق رسولا اليه، راغبين انجاز الوعد ، ولكنه آثر البقاء في المغرب على الرجوع اليهم ، وانه اعاد الرسول المذكور الى مرسليه ، وبعث معه من عنده رسولا اليهم ، محملا بتحف وامول (2). وفي اثناء هذه الاتصالات بين زيدان والاتراك استقبل ابو فارس في اكتوبر ١٦٠٥ بمقاربة نهيرة ، انطوني شيرلي (Anthoney Sherley) الانكليزي، الذي كان في خدمة القوى المعادية للدولة العثمانية (3) كالشاه عباس الصفوي ، وامبراطور المانيا ، وملك اسبانيا ، ويسعى الى تحقيق تعاون بين عناصر القوى المعادية لضرب الدولة العثمانية . (4)

وحسب وثيقة معاصرة هي رسالة من أدوليسل (A. DELISLE) الى مستشار الدولة الفرنسية بتاريخ ٢٠ رمضان ١٠١٤ هـ / ٢٩/ ١/ ١٦٠٦ م ، فاننا نعلم ان شيرلي قد جاء الى المغرب مبعوثا من قبل الامبراطور رودولف الثاني) محملا بهدايا كثيرة ، وفي طريقه الى المغرب مر على اسبانيا ، وانه اجرى مفاوضات مطولة مع ابي فارس خلال اقامته في مراكش (5) وحسب الوثيقة المذكورة فان شيرلي قد كلف من قبل ملك اسبانيا بعرض التحالف بينه وبين ابي فارس لشن الحرب على الاتراك في شمال افريقيا، ولطردهم من قواعدهم فيها كتلمسان ، والجزائر ، وعنابة ، وبنزرت . وباختصار من كل المراكز البحرية .. على اساس ان يكون الساحل كله للملك الاسباني، والمناطق الداخلية لملك المغرب (6)

وواضح ان هذا المشروع قديم ، فقد كان موضوع التفاوض بين الاسبان وعبد الملك في عهد فيليب الثاني ، وحسب (ر و م س) فان محادثات شيرلي مع ابي فارس كانت ايضا تتركز (7) حول امكان مساندة ابي فارس ، ومساعدته في المحافظة على ملكه ضد اخويه محمد الشيخ وزيدان

---

1) ... ... انلترا جزء اول ص ١٥٤ هامش ٢
2) انظر رسالة زيدان في النزهة للافراني ص ٢٤٣
3) انظر حول استقبال انطوني شيرلي رسالة (ر و م س) في المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٧
4) (٦) ... ... ، فرنسا جزء ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٢
5) رسالة (ر و م س) في المرجع السابق ص ٢٩٥ (اقام في آسفي ٤ اشهر وفي مراكش ٥ اشهر
7) نفسه ، ص ١٨ .

ا اسفرت عنه سفارة شيرلي ؟ .

لا يبدو ان ابا فارس الذي قال عنه شيرلي في رسالته الى الكاتب الخاص للامبراطور :
بيتيوس (BARVITIUS) بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٦٠٥ (انه يتخوف من الاتراك ، وليس له
في الاسبان ...) ، قد استجاب لعرض شيرلي ، او انجر الى امضاء اى اتفاق ضد الدولة (١)
عثمانية ، وبالتالي فان شيرلي قد اخفق في مهمته ، ولم يحصل على شيء سوى افتداء نبيلين
نقاليين بـ ١٥٠٠٠ / اوقية او مايعادل عشرة آلاف جنيه استرليني (٢) ، وغادر المغرب الى
بانيا سنة ١٦٠٦ في الوقت الذى جاء فيه الى المغرب سفير هانرى الرابع الملك الفرنسي ، لاحبهاط
اعي الامبراطور الالماني والملك الاسباني (٣) ، ولم يعد اليه الا بعد اربع سنوات . وهذه المرة
ن ضمن الحملة الاسبانية التي احتلت العرائش في سنة ١٠١٩ / ١٦١٠ (٤) .

ويستنتج من رفض ابي فارس التحالف ضد الاتراك ، ان همه الوحيد كان الحفاظ على مملكته ،
التآمر ، والتوسع الى ماجاورها ، والدخول في تحالفات قبل ان يستقر له الامر تماما في المغرب .

بعد شهور قليلة من مغادرة انطوني شيرلي المغرب ، قام الشيخ اخو ابي فارس
ساعدة ابنه عبد الله ، وتمكن هذا الاخير من الانتصار على عمه ، في المعركة التي دارت بينهما على
ربة من مراكش في ٧ شعبان ١٠١٥ هـ / ٨ / ١٢ / ١٦٠٦ م ، واضطر ابو فارس الى الفرار نحو
جبال ، تاركا مدينة مراكش قاعدة ملكه (٥) . ولم تمض سوى شهور قليلة على دخول عبد الله مراكش (٦)
يثه فيها ، حتى تمكن زيدان من انتزاعها منه في ابريل سنة ١٦٠٧ ، بعد معركة عنيفة . ثم
والت انتصارات زيدان وهزائمه امام عبد الله دون ان يتدخل الاتراك بشكل مباشر في هذا الصراع

الا ان تمرد فرقة الشراقة على زيدان في اعقاب انهزامه امام عبد الله في واقعة تهلقلمت
، اكتوبر ١٦٠٧ ، واغتيالهم لأحد قادته البارزين ، وانتقام زيدان منهم شر انتقام حيث قتل (٧)
لكثير منهم في مراكش ، واستباحهم ، واستبان اماكنهم ، لمن يقتل واحدا منهم مدة ثلاثة اشهر ،
يدفع الى الاعتقاد بانه ربما كان بتأثير تركي ، والى احتمال ان يكون الاتراك هم
الذين حرضوهم عليه ، اما لأن زيدان لم يف بما تعهد لهم به حين كان لاجئا عندهم او لرغبتهم

م منهم انظر : جزء ٢ ص ٢٧٥ ، وانظر حول سفارة شيرلي مقالة عبد الهادى التازي : سفارة
شيرلي الى المغرب / في / المناهل عدد ٩ المغرب ١٩٧٧ ص ٩٤ وما يليها .
رسالة (ر . و سبو) في المرجع السابق ص ٩٨
ابن تاويت / من زوايا ... في مجلة تطوان عدد ٩ ص ٧٢
فسه
(٦) (٧) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب . ورسالة روس في المرجع السابق
ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٤ .

اثارة مزيد من الاضطرابات في المغرب، وامعانا في اضعافه حتى لا تتجه انظار منافسه الى الجزائر
التي كانت اوضاعها الداخلية غير مستقرة. وفي هذه السنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ على الخصوص
مات الباشا مصطفى القابدي بالطاعون الذي كان سائدا في الجزائر منذ ثلاث سنوات ،
وتعرضت الشواطئ الجزائرية ولا سيما مدينة عنابه لحملة توسكانية خربتها ، وعاثت فيها وقتلت
عددا كثيرا من سكانها ، وشرع اميرتونو (١) في اجراء مذاكرات مع الاسبان بشأن الهجوم على
الجزائر (٢). ومما يعزز الاعتقاد السابق الذكر ان زيدان الذي انهزم ثانية امام عبدالله
في رجب ١٠١٦ هـ / نوفمبر ١٦٠٧ ، واضطر الى ترك مراكش لخصمه لم يلتجئ الى الاتراك وانما
الى السوس في جنوب المغرب، وبقي هناك الى ان سنحت له الفرصة بعد بضعة شهور للعودة
الى مراكش في محرم ١٠١٧ هـ (افريل ١٦٠٨) (٣).

ولكن انتقال محمد الشيخ الى اسبانيا ، بعد نجاح زيدان في الدخول الى فاس في ذي
القعدة ١٠١٧ هـ / فيفري ١٦٠٩ م لطلب مساعدة فيليب الثالث له على استرجاع ملكه (٤) ،
وعدم تقديم الاتراك يد المساعدة لعبد الله وعمه ابي فارس اللذين التجآ الى دار ابن مشعل ،
في جبال بني يزناسن الواقعة في الحدود الجزائرية المغربية (٥) ، قد قربت من جديد فيما يبدو
بين زيدان والاتراك ، اذ تشير وثيقة معاصرة بتاريخ مدريد ٤ ربيع الثاني ١٠١٨ هـ / ٧/ ٧/ ١٦٠٩ م
الى قيام الاتراك في الجزائر بتحضيرات واستعدادات عسكرية ، واضاف كاتب الوثيقة وهي
رسالة من ديكارت (DESCARTES) الى (بويسيو (PUISIEU) مستشار الدولة بفرنسا قائلا :
((لا شك ان هذا الجيش التركي قد اعد ليساعد مولاي زيدان ، لما رأى اخاه محمد الشيخ
التجأ الى الاسبان، وحتى لا يحول دون مشروع مساعدته)) (٦).

فهل حصل تعاون حقيقي بين زيدان واتراك الجزائر لاحباط تعاون محمد الشيخ مع
الاسبان ؟ .

---

(1) انظر دوغرامون : المرجع السابق، ص ١٤٨
(2) انظر حول هذه المذاكرات وثائق آرشيف سيمانكاس ١٠٢٥ وفصل الحياة السياسية في الجزائر ... ص ١١١ - ١١٤ وفصل الحياة السياسية في المغرب
(3) رسالة (ر. او. س) في المرجع السابق ... / ٤/ مارس ١٦٠٩. ونحن هنا ... احد عشر شهرا تفاوض
(4) كان انتقال محمد الشيخ الى اسبانيا في ... على ان اسبان يسلم لهم العرائش في مقابل تلك المساعدة
... لها بشأن مساعدة الاسبان له ... انظر مقال : ... جاندان : تسليم العرائش، في المرجع السابق ص ٧٢ وما يليها ، وانظر
ايضا رسالة (ر. و. س) في المرجع السابق ص ١٥١ .
(5) Cenival (P. de): OP. CIT., t.5, P.168.
(6) انظر نص الوثيقة في ... ، فرنسا الجزء الثاني ص ٥٥

ليس هناك مايدل على حصول تعاون بين زيدان واتراك الجزائر في هذه السنة ١٠١٨ هـ ١٦٠٩ م ، والسنوات القليلة التالية لها .

فالاستعدادات العسكرية التي كانت جارية في الجزائر كانت على ماتعني فيها بعد حسن لانتقام امير كوكو الذي استمر في مفاوضاته مع الاسبان بقصد القيام بهجوم على الجزائر، والتصدي للمجموعات الاخرى المعبئة على الجزائر سواء من قبل الاسبان او التوسكانيين . وقد قام هؤلاء الاخيرون فعلا في اوت جمادى الاولى ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م بالمرور امام الجزائر وهاجموا بلدة برشك الساحلية وحاميها فدمروا البلدة وقضوا على الحامية التركية فيها . وتبادلت في داريحق عرد تهرا اطلاق النيران مع حامية ... . وفي نفس الفترة اجتاز الزواويون سهول متيجة باطراف مدينة الجزائر فتحرك الباشا مصطفى الهجم وابعدهم عنها ولاحقهم الى معاقلهم ببلاد القبايل، واحتل كوكو وارغم اهلها على طلب الامان . ولكن السلم لم يدم طويلا .(١)

ولم يحصل زيدان على اي عون عسكري من الجزائر في هذه الفترة الامر الذي سمح لعبد الله ابن محمد الشيخ المؤيد من قبل قبائل الشراقة من استرداد فاس ربيع الثاني ١٠١٨ هـ / يوليه ١٦٠٩ م بعد شهور قليلة من احتلال زيدان لها . وفي الوقت نفسه لم يكن دون اتصال مشروع الاسبان مع محمد الشيخ . اذ عاد هذا الاخير في ذي القعدة ١٠١٨ هـ ، فبراير ١٦١٠ م الى المغرب بعد ان امضى اتفاقية مع الاسبان التزم فيها بتسليم العرائش لهم في مقابل مساعدة مادية (٢٠٠,٠٠٠) دوكات و ٦٠٠٠ بندقية . سلمهم بالفعل المدينة المذكورة في رمضان ١٠١٩ هـ نوفمبر ١٦١٠ م ، وهذه المدينة ذات الميناء الممتاز التي كانوا دوما يحلمون باحتلالها وحاولوا بمختلف الوسائل الاستيلاء عليها ففشلوا . وآخر محاولة لهم كانت في جمادى الثانية ١٠١٧ هـ / ١٦٠٨/٩/١٦ م وباءت بالفشل .(٢)

ويبدو ان عدم حصول زيدان على العون العسكري من الجزائر جعله يبحث عمن يمكنه ان يقدمه له من الدول الغربية ، فبعث بسفرائه قبيل احتلال الاسبان للعرائش الى الاراضي الواطئة (٣) لاستئجار بعض رجال الحرب ولطلب بعض العتاد الذي يلزمه في محاربة الاسبان وغيرهم ؟

وكان قد اخذ ابتداء من سنة ١٦٠٧ على الارجح في الاتصال بملك انكلترا جيمس الاول (٤) وفي استخدام المرتزقة الانكليز في حروبه ابتداء من السنة المذكورة . وفي صيف ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م

---

(١) انظر عن الهجوم التوسكاني والزواوي ، د وغرامون المرجع السابق ص ١٥٠
(٢) انظر مقال ... اندان في المرجع السابق وهامش ١٥٠ ص ١٩ من مجلة تطوان عدد ٩
(٣) ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان عدد / ٩ / ص ١١٨
(٤) ابن تاويت / نفسه ص ٧٢ ، ورسالة آ ر و ... في المرجع السابق ص ١٠٦

ستقبل زيدان جون هاريسون، سفير الملك جيمس الاول الى المغرب وتداول معه في القضايا
التجارية وغير التجارية . ولدى عودته في سنة ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م بعث معه سفيرا مغربيا محملا (١)
هدية الى جيمس الاول وبعث في نفس الفترة سفيرا آخر الى الاراضي الواطئــة .
ولا يبدو ان سعي زيدان لتطوير علاقاته مع دول غرب اوربا لتعزيز وضعه في المغرب
قد ارضى حكام الجزائر الذين كان يهمهم
تحسينه ، وتعاون محمد الشيخ السعدي مع الاسبان
ان يبقى المغرب عاجزا ضعيفا ، حتى لا يأتيهم منه اي شر (٢) . ولعل في موقفهم المؤيد للمرابط
ابي محلي الذي ثار بعد تسليم محمد الشيخ العرائش للاسبان في نوفمبر ١٦١٠ لاسقاط الاسرة
السعدية من الحكم ، وتحرير الثغور المحتلة من قبل الاسبان، ولاستعادة الاندلس بعد ذلك ،
بادئا هو من الجنوب الذي كان تحت حكم مولاي زيدان ، وحافزا لحقدهم تداول في الشمال بالعهد
علي التخلص من محمد الشيخ عايدن عليه وعليهم . ولا يستبعد ان يكون المرابط ابو محلي (٣)
قد ثار اصلا بتحريض من الاتراك ، اذ ان منطلق ثورته ، بعد عودته من الحج ، حيث زار الجزائر
في طريقه، كانت من الساورة الواقعة بالجنوب الغربي للجزائر حاليا ، وكان عمدة جيشه الذي
احتل به سجلماسة في ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م ثم درعة ثم مراكش ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م كان من
قبائل الشراقة ، وكان وفد من جزائريين من تلمسان وبني راشد ، كانا من اوائل المعينين لأبي محلي
بافتتاح سجلماسة ، وقد كان ضمن اعضاء وفد تلمسان سعيد قدورة، الذي تولى مناصب دينيــة (٤)
وتعليمية رفيعة في الجزائر في ظل الحكم العثماني لها . (٥)
واخيرا فان زيدان الذي انهزم امام ابي محلي، واضطر الى ترك قاعدة ملكه لخصمه لم
يلجأ الى الاتراك ، ولم يطلب مساعدة هؤلاء له على استرجاع ملكه من مغتصبه ، بل التجأ الى
مرابط آخر في السوس ، كان بينه وبين ابي محلي تنافس ، هو المرابط ابو زكريا يحي الحاحي ،
الذي تمكن من القضاء على منافسه ابي محلي في نهاية نوفمبر ١٦١٢م / اوائل شوال ١٠٢١هـ
واعاد مراكش لزيدان . في حين تمكن مقدم تطوان من القضاء على محمد الشيخ في ٥ رجب ١٠٢٢هـ (٦)
/ ٢١/ ٨/ ١٦١٣م . ولكن امر المغرب لم يستقر لزيدان ، ففاس وملحقاتها كانت لا تزال خارج نفوذه (٧)

---

(١) انظر مذكرة هاريسون في مجلة تطاوان عدد ١٠ المغرب، ١٩٦٥ ص ١٠٥
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
(٣) انظر الافراني ، النزهة ص ١٩٩
(٤) انظر عن ابي محلي وثورته ، الافراني ، النزهة ص ٢٠٠ وما يليها ، وتقرير هاريسون لعام ١٦٢٢ في مجلة تطاوان عدد ١٠ ص ١٠٥-١٠٦ في مجلة تطاوان عدد ١٠ ص ٦٦-٦٧ وتقريره لعام ١٦٢٢ ، وانظر عن جيشه رسالة ... في مجلة تطاوان عدد ٩ ص ١٢٩ وما يليها
ورسالة ... في مجلة تطاوان عدد ٩ ص ١٢٢
(٥) انظر ... سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج ٢ ، الجزائر ١٩٨١ ص 367 .
(٦) (٧) الافراني، النزهة، ص ٢٠٨-٢٠٩ ، ٢٢٦ ه وانظر فصل الحياة السياسية في المغرب .

[جنو]ب المغرب (في السوس والسوس الاقصى) اخذ يتقاسم النفوذ فيه كل من المرابطين ابي [ح]سون السملالي، وابي زكريا الحاحي ، وان هذا الاخير ما انفك يتدخل في شؤون زيدان [ب]عد ان اعاد له مراكش، ثم ما لبث ان زحف اليه . والاسبان لم يقنعوا بأخذ العرائش، فأقدموا [ف]ي رجب ١٠٢٢هـ / اوت ١٦١٤م على احتلال المعمورة . التي اشتدت فيها اعمال الغزو [ال]بحري خصوصا بعد قدوم افواج جديدة من الاندلسيين ابتداء من سنة ١٦٠٩ .
(١)

ولم تتحسن الاوضاع في الجزائر او في الدولة العثمانية حتى تستفيد الجزائر من الاوضاع [ال]مضطربة في المغرب ؛ فالجزائر اصيبت خلال سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م و ١٠٢١هـ / ١٦١٢م [ب]جفاف شديد ومجاعة رهيبة ... صحبتها عدة ثورات وما كادت تجتاز هذه المحنة حتى نشب [ن]زاع بينها وبين جارتها تونس ... الحدود بين الايالتين ، وبعد قتال بين قوات البلديين [أ]سفر عن انتصار القوات الجزائرية تم التوصل الى اتفاق حول الحدود ، كما كانت علاقاتها مع [ف]رنسا وغيرها من الدول كهولندة وانجلترا واسبانيا متدهورة مما جعل هذه الدول تقوم بين [ح]ين وآخر بغزو شواطئها وتهديد مدينة الجزائر نفسها .
(٢)

اما الدولة العثمانية في ... فكانت تزداد تدهورا بسبب الثورات الداخلية والحروب مع القوى الخارجية .
(٣)

وفي ظل هذه الظروف ... التي كان يعاني منها كل من المغرب والجزائر والدولة العثمانية ، تجددت الاتصالات ال[سي]اسية بعد توقف دام بضع سنين بين الاتراك العثمانيين ومولاى زيدان الذى ظل على الرغم [من] ضعفه ابرز الشخصيات الحاكمة في المغرب في هذه الفترة ، والتي كانت تتوجه اليها الدول لربط العلاقات مع المغرب .

ويبدو ان المبادرة كانت من جانب الاتراك العثمانيين وذلك برسالة بعث بها الى زيدان الوزير خليل باشا، امير الاسطول العثماني ، تحمل تاريخ الثاني من شهر ديسمبر ١٦١٣م / ١٩ [ش]وال ١٠٢٢ هـ ، دعاه فيها الى اتباع تقاليد اسلافه الودية ، ويستخلص من هذه الرسالة ان الاتراك العثمانيين ظلوا ينظرون الى السلطان المغربي على انه مجرد امير .
(٤)

وردا على هذه المبادرة حاول زيدان في السنة التالية ارسال سفارة الى الباب العالي ، ولكن

---

(١) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب ، الجزء السابق ص ١٥٠-١٥١ ، وفصل الحياة السياسية في الجزائر ..
(٢) انظر : د زراهون ، ...
(٣) انظر عن اوضاع الدولة العثمانية في هذه الفترة احمد جودت : تاريخ جودت جزء اول ص 54 وعلى حسون الجزء السابق ص ٨٧-٨٨ .
(٤) انظر رسالة خليل باشا (النص الاسباني) في مجلة الغرب الاسلامي والمتوسط عدد ١٥-١٦ ص ٤٠٠-٤٠١ .

رسله لم يستطيعوا بلوغ هدفهم فبعد ان ركبوا سفينة انجليزية ولفواسساذ (١)، تعرضوا لمخاطر (٢)
الطريق البحري من اساطيل العدو واساطيل اهل الطليان ، والمتوحتى اوجب انقلابهم
تقتضي قفولهم وايابهم (٣)))
وبعد ، وان زيدان قد حاول ارسال رسله من طريق الجزائر فلم يتمكن ..و ((تعذر السفر
من جهة الجزائر لمانع وقع هناك)) (٤) ، ولعل هذا المانع هو الظروف الصعبة التي كانت تعرفها
الجزائر ، فقد كانت في نزاع مع جارتها تونس بشأن الحدود ، وتعرضت في هذه الفترة لحملة
من الاسطول الفرنسي لتدهور العلاقات بينها وبين افرنسا (٥) .

ولكن رسل زيدان (٦) الذين توجهوا الى استانبول في رمضان ١٠٢٥هـ/ سبتمبر ١٦١٦م
على متن سفينة الهولندي (هيلبرنت كاست Hillberant Quast) تمكنوا من الوصول الى (٧)
استانبول في اواخر ذي الحجة ١٠٢٥هـ / ديسمبر ١٦١٦م دون التوقف في الجزائر ، كما كانوا
في بادئ الامر يريدون ، ليتزودوا منها بجميع ما يلزمهم (٧) ، ويسلموا رسالة زيدان الى باشا هنا ،
وذلك لمشاهدتهم بعض السفن التي يعتقد انها كانت اسبانية (٧) . وقابلوا السلطان العثماني
احمد بن محمد الثالث ، وسلموه هداياه اليه ، وكانت ((هدايا بهية)) (٨) ، اشتملت على اسلحة
واقمشة فاخرة وغيرها (٩) .

وحسب الافراني وآخرين فان زيدان قد بعث مع الكاتب عبد العزيز الثعالبي ، ابرز اعضاء
السفارة عشرة قناطير (كذا) من الذهب الى السلطان العثماني (١٠) ، مما يدفع الى الاعتقاد بانه
كان لا يزال يحصل على الذهب من السودان ، ولو بشكل غير منتظم .

ومن رسالة السلطان العثماني الجوابية الى زيدان ، المؤرخة باواخر صفر ١٠٢٦هـ/ اواخر
فبراير ١٦١٨م ، نعلم ان زيدان قد بعث ايضا مع عبد العزيز المذكور رسالتين الى السلطان
العثماني تذكر في الاولى بالعلاقات الودية التي كانت بين اسلافهما ، وعلل تأخيره عن مكاتبة
السلطان العثماني بالاشتغال بقتال الكفار والمجاهدة في استئصال شأفتهم ، وتأمين مملكته ...

---

(١) نفس الرسالة السابقة .
(٢) م٠ت٠م : هولندة جزء ٣ ص ٣٢٤ و ٣٥٥
(٣) (٤) من رسالة السلطان احمد الى زيدان في مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك جزء ٢ ص ١٥٥
(٥) الجيلالي : المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦
(٦) كان عددهم خمسة وهم : القائد عبد العزيز ، والقائد كافور ، والقائد احمد ، والقائد عبد الرحمن والقائد يحيى حميدة و (ILHAY TASNISDOU) يرافقهم ثلاثة عشر خادما ، انظر : م٠ت٠م : هولندة جزء ٢ ص ٤٤
(٧) نفسه : ص ٤٦ وما يليها . (٨) رسالة السلطان احمد في المرجع السابق ص ١٥٥
(٩) هامر : تاريخ الامبراطورية العثمانية جزء ٨ ص ٢٤٩ .
(١٠) الافراني : النزهة ص ٢٣٩ ، ... من تاريخ الدولة العثمانية (ذيل لمناهل الصفا) تحقيق كنون ص ٢٥٨ .

ن ان قصده من ارسا ن رسله اليه هو التقرير ما كان بين الاسرتين السعدية والعثمانية من عهود
لب العون منه لمواجهة الكفار والتغلب عليهم •

اما الرسالة الثانية فعبر فيها عن مودته للسلطان العثماني ، وذكر بمآثر السادة بني حسن
ثمانيون واشاد بهم ، واشار الى الصعوبات التي واجهتها سفارته السابقة ، وحالت دون وصولها
ى هدفها • واخطر السلطان العثماني بما يبيته ملوك الكفرة من اعتداء على البلاد الاسلامية ،
لب منه ان يقوم بقطع طريق الهند عليهم ، مصدر قوتهم وسندهم واعتمادهم (1).

وفي التقارير والرسائل التي بعث بها سفراء الدول الاوربية وقناصلها المعتمدون في استانبول
جزائر الى حكوماتهم عن هذه السفارة مزيد من التفاصيل عن مقاصدها والنتائج التي
لت اليها ، نشير فيما يلي الى بعضها :

فحسب رسالة كورنليوس هاجا (CORNELIS HAGA) سفير الولايات العامة (الاراضي
منخفضة) التي وجهها من القسطنطينية الى بلده (هولندة) المؤرخة بربيع اول 1026 هـ
واخر مارس 1617م (2) فان السفارة المغربية قد طلبت من السلطان العثماني امداد السلطان
دان بعدد من السفن والبحارة من الجزائر ، وان هذا الطلب قد حظي بالقبول ،
صدر الامر الى باشا الجزائر بتقديم هذا العون عندما يطلبه منه زيدان • وان السلطان
عثماني قد ارسل الى هذا الاخير قفطانا وسيفا ، وصولجانا ، كما تعود ان يفعل مع اتباعه
الخاضعين له • ومن الرسالة نفسها نعلم ان السفارة المغربية قد اخذت في العودة الى المغرب
ي الاول من ربيع الاول 1026هـ / 9 مارس 1617م •

اما رسالة قنصل الولايات العامة (الاراضي المنخفضة) في الجزائر الى حكومته المؤرخة (3)
في الفترة من / 7/رمضان 1026هـ / 8 سبتمبر 1617م وصفر 1027هـ / فبراير 1618م •
اشارت الى خرق ثلاث سفن من الاسطول العثماني الذي تراسه سليمان باشا الذي كان مرشحا
باشوية الجزائر ، والذي تردد انه سيأتي لمساعدة زيدان في شن حرب على فاس ، كان السفير
المغربي على متن واحدة منها • كما اشارت الى ان باشا الجزائر قد بعث بريدا على جناح
السرعة الى مراكش يخبر السلطان زيدان باستعداده لمساعدته ••

انظر نص الرسالة الجوابية باللغة العربية في الملحق الثالث من ملاحق الرسالة •

م ، هولندة ج 3 ص 26-27
نفسه ، ص 27 هامش 1

ومن رسالة السفير الفرنسي هارلي دوسوسي (HARLY DE SAUCY) الى لويس الثالث عشر المؤرخة ب ٣ ربيع الاول ١٠٢٦ هـ / ١١/٣/١٦١٧ م (١) نعلم ان موافقة السلطان العثماني على مساعدة زيدان لم تكن سهلة المنال، وان احد اعضاء السفارة المغربية قد بقي في استانبول، وأخر عودته حتى يحصل على ماجاءت السفارة من اجله، وهو المساعدة ضد الاسبان، والامر لاتراك الجزائر بعدم التدخل في الاضطرابات التي يمكن ان تحدث في ممالك السلطان زيدان، ولكنه ماعاد في النهاية الا برسالة مليئة بالكلام الجميل .

اما المصادر العربية فتتحدث عن استجابة السلطان العثماني للطلب الذى نقلته اليه السفارة المغربية من السلطان المغربي، فجهز اثني عشر الفا من الترك مختارة ،اتى بهم القائد الشعالبي، سفير زيدان عن طريق البحر، ولكن العمارة التي كانت تنقلها تعرضت لعاصفة اغرقتها، ولم ينج منها الا غراب واحد فيه شرذمة قليلة (٢) . وقد يكون من بين هذه الشرذمة السفير المغربي الذى حمل رسالة السلطان زيدان . فماذا تضمنته تلك الرسالة التي هي جواب السلطان العثماني الرسمي الى السلطان زيدان بخصوص تقربه وتودده اليه، وما تقدم به من الطلبات ؟ .

لقد جاء في رسالة السلطان العثماني الجوابية، مخاطبا السلطان زيدان، ((ولا يخفى من علمكم ان من عادتنا الجميلة الموروثة عن آبائنا واجدادنا ... ان نتلقى من يرد علينا ويرغب الينا بالترحيب .. ونستفرغ في تحصيل مايطلبونه اقصى الوسع والجهد ...)) ، واضاف قائلا : ((فما دمتم في مراعاة الحقوق ساعين، ولدولتنا الاسلامية راعين لاتلقون من سدة الحضر والاقبال سوى النظر بعين الاعزاز والاجلال (٣) .

ويفهم من هذا الكلام ان السلطان العثماني قد رحب بمخاطبة السلطان السعدي له، على الرغم من تأخره عن فعل ذلك سنوات عديدة وتودده اليه، ما يعني انه سينظر الى طلباته بعين الاعتبار . وقد يكون من الدوافع الدافعة للسلطان، موقف فيليب الثالث من المسلمين في بلاده ونفيه لهم ذلك النفي الاكبر في سنة ١٦٠٩ - ١٦١١، واستنجاد هؤلاء بالسلطان العثماني .

---

١) نفسه ، ص ٦ ، هامش ٢
٢) الافراني ، النزهة ، ص ٢٢٦
٣) انظر رسالة السلطان احمد في الملحق رقم 3 .

وقد تعهد له بالعمل على قطع الطريق الى الهند على الاسبان والبرتغاليين فقال :

((فنحن باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بأدائه ونرسل الاوامر الشريفة الى امرائنا المحافظين [1] حدود البصرة ، ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة)).

ولكن السلطان العثماني لم يكن هو الذي يبدي استعداده للاستجابة لما طلبه زيدان ، كان يذكر هذا الاخير بعجزه عن الدفاع عن الشواطئ المغربية ، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال ، ان يجب عليه عدم استعانته به فيما مضى ، وفي الوقت المناسب لمساعدته على صد الاطماع الخارجية عن شواطئه باذنه قائلا بهذا الصدد : ((وكان اللائق بكم والواجب على ذمتكم ان تستمدوا بنا ، وتستعينوا بأعتابنا قبل ان يتصادم الصفوف ويتزاحم الزحوف ، فنحن بعون الله قادرون على ايصال عسكر يضيق عليهم الطرق والمسالك ويلجئهم الى المضايق والمهالك ... يكون اعانتنا هذه مرغمة لانوف الكافرين ، ونصرة لجموع اهواء الفاسرين المتجاسرين حتى تنقطع اطماع اعدائه من تلك البلاد ، ويندفع عنها اسباب الشر ومواد الفساد ...)) [1] ، ويكرر استعداده ، لأنه يجب للدفاع عن الشواطئ المغربية ، ويجعل هذه المهمة اولى المهمات قائلا : ((ولا يشغلنا عن الامداد بعون رب العباد إشغالنا ...)) [1].

وقد كان زيدان حين احتل الاسبان العرائش سنة ١٦١٠ ، يحاول استعادة نفوذه على فاس وقبل احتلالهم للمعمورة في رجب ١٠٢٣ هـ / اوت ١٦١٤ م ، كان يحاول الحصول على العون من الاراضي الواطئة وانجلترا ، ولم يبحث في طلب العون من الدولة العثمانية الا بعد ان فشل في الحصول على دعم حقيقي من هولندة وانجلترا [2]. فهل تحقق التعاون بين زيدان والاتراك العثمانيين بعد عودة سفارته ؟ .

ليس هناك ما يدل على حصول تعاون فعلي بين زيدان واتراك الجزائر والدولة العثمانية بصفة عامة ، بعد عودة سفارته الى المغرب [2] ، اذ لا تشير الوثائق والمصادر الى حصول زيدان على المساعدة التي طلبها بواسطة سفارته ، سواء من الجزائر او من مقر الدولة العثمانية ، اذا استثنينا ما اورده الافراني في نزهته ، والذي لم تؤكده المصادر المغربية المتوفرة لدينا ، وحتى المساعدة التي اشار اليها الافراني لم تصله حسب المصدر نفسه . الا ان تجدد الاتصال بين زيدان والدولة العثمانية والعلاقات الدبلوماسية بين الطرفين قد اثارت في حينها بعض قلق الاسبان

نفسه ؛

في سنة ١٦١٦ رفض استقبال هاريسون سفير جيمس ملك انجلترا ، وظل يرفض استقباله بعد ذلك

انظر ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي ، في تطوان عدد ٩ ص ١٣٦

وبين اربعة من رسل زيدان من اصل خمسة الى آسفي عائدين من القسطنطينية في ٣ ماي ١٦١٧

انظر م . س . م هولندة ج ٢ ص ٥٠-٥١ .

وفكر حكامهم خلال سنتي ١٠٢٧-١٠٢٨هـ
وحلفاؤهم فأخذوا يفكرون في مواجهة القوة الجديدة .
١٦١٨-١٦١٩م في القيام بحملة كبيرة على الجزائر وقواعدها الساحلية الاخرى (١)
ويبدو ان مشروع التعاون بين زيدان والسلطان احمد العثماني قد مات بعد سنة واحدة
من ميلاده ، مع موت السلطان احمد في سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م[2] فظل زيدان نتيجة لذلك
عاجزا عن فرض سلطته على كل المغرب بل انه وجد صعوبة في الحفاظ على مراكش قاعدة ملكه
من هجومات خصمه المرابط ابي زكريا يحيى ، وفشل تماما في اواخر ايامه في منع الاندلسيين
من الاستقلال في سلا ، وفي اخضاع المجاهد العياشي . ولحق بالسلطان احمد بعد نحو
عشر سنوات[3] لم تزد فيها اوضاع المغرب واوضاع الدولة العثمانية الا سوءا حيث ازداد
المغرب تجزؤا واصبح السلاطين العثمانيون الذين خلفوا السلطان احمد كمصطفى
الاول ، وابنه عثمان ، ألعوبة في ايدي الانكشارية (٤) .

ولا يظهر ان اتراك الجزائر العثمانيين قد كفوا بعد السفارة المغربية وخلال السنوات
العشر الاخيرة من عهد زيدان وخلال عهود خلفائه عن التدخل بشكل او آخر في المغرب ، كما
طلب زيدان ذلك من السلطان العثماني بواسطة سفارته ، اذ استمروا في الاتصال وفي اقامة
العلاقات مع القوى الداخلية المناوئة لزيدان وخلفائه والمتصارعة معهم او الرافضة والمناهضة في
الاستقلال عنهم كاندلسيي سلا ، والمجاهد العياشي ، ومقدمي تطاوان ، ومرابطي الدلاء .

واما استمرار اتراك الجزائر في اتصالاتهم وتنمية علاقاتهم مع خصوم الاسرة السعدية
ومناوئيها ، والمتمردين عليها ، وفشل زيدان في الحصول على دعم حقيقي من الانكليز ، او من
حكومة الولايات العامة (هولندة) لمواجهة خصومه في الداخل وتدخلات القوى الخارجية
المجاورة للمغرب ، فانه قد مال في سنواته الاخيرة الى مسالمة الاسبان ومهادنتهم كما سالمهم
ومادنهم من سبقوه كما مال الى اقامة علاقات ودية مع حكام مازاغان . فيذكر بهذا الصدد انه تلقى
هدية كبيرة من حاكم مازاغان في يونيه سنة ١٦٢٤ حين وصل الى ام الفرس في دوكالة ،
وهو في طريقه الى آزمور ، ومن الى القاعدة البرتغالية فزارها وقوبل هناك بكل مظاهر
التكريم والترحاب[5] ، وفشل الانكليز في استمالتهم ثانية بواسطة السفير اريسون في السنة

---

١) انظر ارشيف سيمانكاس ورقة ٦٢ من ملف رقم ١٩٥٠ .
٢) توفي السلطان احمد في ١١ ذي القعدة سنة ١٠٢٧هـ / ٢٢/١١/١٦١٨ ، انظر ذيل مخاطل
اخذناها نقلا عن كتاب لطائف اخبار الاول ص ١٥٨ .
٣) انظر ما تقدم في فصل الحياة السياسية
٤) علي حسون : المرجع السابق ص ٩١ .
٥) ميشو بلير : مدن وقبائل المغرب (ناحية دوكالة) ٢ ص ٦

(١)
الحرب على الاسبان •
لية ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م وبره الى مثا رتحم في الحرب على الاسبان •
وفي مطلع سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م كان زيدان يتفاوض في معسكره الذى اقامه قرب آسفي
نائب اسباني) جاء من مازاكان بشأن مساعدته على التغلب على خصمه الذى ازعجه وارغمه على
فرون من قاعدة ملنه • وكان المغاربة حسب السفير الانجليزى هاريسون الذى جاء الى المنطقة
هذه الفترة يخشون ان يقدم زيدان كما اقدم اخوه من قبله على تسليم موقع من المواقع او جهة
للاسبان في مقابل مساعدتهم له (٢) وفي الوقت الذى كان فيه زيدان يحاول صلاته الودية
الاسبان فانه كان يرد على تدخلات اتراك الجزائر بالسعي الى اثارة المتاعب لهم في تلمسان حيث
امت هناك خلال هذه الفترة ثورتان الاولى : في سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م والثانية في سنة
١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م ، ولا يستبعد ان تكون بتحريض منه اذ ان هاتين الثورتين كانتا
(٣)
بزعامة احد القادة المغاربة المدعو بالسوسي الجزولي
وقد انتهت الثورتان بالفشل اذ تمكن الاتراك من اخمادهما بقوة وعنف ، وقضوا على الزعيم المغربي
(٤)
المذكور الذى تزعم الثورتين •
وهكذا يمكن القول ان العلاقات بين ابناء المنصور وبصفة خاصة زيدان من جهة وحكام الجزائر من جهة اخرى لم
تكن ودية تماما ولم ترق الى التعاون للتغلب على المشاكل الداخلية في البلدين التي كان الطرفان فيهما يعانيان منها

٢ـ العلاقات مع القوى السياسية غير السعدية في المغرب :

ظهرت في المغرب نتيجة اضطراب الاوضاع الداخلية والصراعات بين اولاد المنصور قوى
سياسية سعت الى ان يكون لها كياناتها المستقلة ، كما فصل في الحياة السياسية في المغرب ، وكان
لهذه القوى علاقاتها مع اتراك الجزائر بطريقة او باخرى ، ومن هذه القوى : اندلسيو سلا
والجزولي السملالي والمجاهد العياشي والخضر غيلان ، والدلائيون •

آ ـ العلاقات مع اندلسيي سلا :

ما لبث الاندلسيون الذين تضخم عددهم في سلا خصوصا بعد النفي الاخير الذى تعرض
له اخوانهم من اسبانيا في السنوات الاولى من العقد الثاني من القرن السابع عشر ان أسسوا في

١) انظر رسالة هاريسون الى زيدان في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٣٤ ـ ٣٥
٢) انظر تقرير هاريسون بتاريخ ١١ / ٩ / ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٤٦
٣) انظر عن هاتين الثورتين سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ص ٢١٢ وهامش ٥٢ ، وفصل الحياة
السياسية في الجزائر •
٤) نفسه :

سلا جمهورية مستقلة ١٦٢٧ في اواخر عهد زيدان بعد مالمسوا ضعف هذا الاخير ، وتشجيع الانكليز ، وربما كان ذلك بتحريض ايضا من اتراك الجزائر لتوافق المصالح بين الطرفين [1] [2] وهو مالم يكن ليرضي زيدان الذي كان يحاول اخضاعهم اليه من جديد ، ولا ابناءه من بعده .

وقد ظهر اثر هذا التقارب في تعاون غزاة البحر الجزائريين مع غزاة البحر السلاويين ، وفي التسهيلات التي كان يجدها هؤلاء وأولئك في كلتا المدينتين سواء في تصريف الاسلاب وبيع الاسرى او في التمون بما يلزمهم .

فقد كان غزاة الجزائر كثيرا مايقصدون سلا لبيع اسلابهم واسراهم حينما يكون هنالك مانع من بيعها في الجزائر كأن تكون حكومة الجزائر ملتزمة بمعاهدة سلم مع الدولة التي تعرضوا لغزو شواطئها او سفنها وحصلوا منها على غنائمهم ، وما يمنعا من بيعها في الجزائر في هذه الحالة من معاهدات بين حكومة الجزائر وحكومة البلد التي غزوها ، او التي تنتمي لها السفن والغنائم التي أسروها او حصلوا عليها ، وكذلك كان اندلسيو سلا يفعلون في مثل هذه الحالة . كما كان غزاة سلا والجزائر يتبادلون الاعلام ، دفعا لملاحقة السفن الحربية المعادية ، فكان يحمل غزاة سلا اعلام الجزائر عند ملاحقة سفن معادية لسلا ومسالمة للجزائر ، ومثل ذلك يفعل غزاة الجزائر حين تلاحقهم سفن بلد معاد للجزائر ومسالم لسلا ، حتى اتهم يدالمؤرخون غزاة سلا اتراك سلا .[3]

ولا شك ان هذا التقارب قد عاد بفوائد اخرى على اندلسيي سلا كالاستفادة من الهيبة التي كانت لاتراك الجزائر عند حكام المغرب السعديين ، اذا مافكر هؤلاء الاخيرون في شن حرب عليهم كما كان له فوائده لاتراك الجزائر ، اذ كان اندلسيو سلا بمثابة اعوان وعيون لهم في المغرب ، وبقيامهم كجمهورية مستقلة ، ساهموا في اضعاف المغرب وتجزئته ، وهو ماكان يريده الاتراك بعد ان تعذر عليهم ضمه واستعصى عليهم اخضاعه . ومع ان تلك العلاقات دعمت الصلات الاقتصادية بين سلا والجزائر ، الا ان المصادر لاتشير الى علاقات ذات طابع سياسي بين البلديين ، ولعل الجزائر لم تسع للاستفادة سياسيا من سلا اكثر مما اشير اليه .

---

(1) انظر تقرير هاريسون المؤرخ في ١١/ ٩/ ١٦٢٧ في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٩ وانظر
COINDREAU (R.): Les Corsaires de SALÉ. Paris 1948.

(2) انظر عن هذا التقارب والتعاون : أ. كور ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ و١٦٧ .

(3) انظر تقرير وليم كورت في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٢٦ وهو بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٦٢٥ .

ب ـ العلاقات مع المجاهد العياشي :

ثم استقل عنه ، وساءت علاقته

اما المجاهد العياشي الذي كان ابنا تابعا لزيدان ، ثم استقل عنه ، وساءت علاقته معه فقد كان هو الآخر على علاقة طيبة مع اتراك الجزائر ، ومما يدل على ذلك ، ان العياشي تمكن من اسر عدد كبير من الاسبان في المعركة التي انتصر فيها بحلق المعمورة على هؤلاء في سنة ١٦٢٧ على الارجح ، وكان بينهم ضابط كبير ، قام بافتداء ((طائف)) رئيس امسطل الجزائر به ، وكان طائف المذكور اسيرا عند الاسبان. (١) ولكن لاندري ماهي المساعدة التي كان يتلقاها من اتراك الجزائر في جهاده ضد المراكز الاسبانية في المغرب ، وموقفهم من صراعه مع الدلائيين ، الا انه لا يستبعد ان يكون في صفوفه بعض الاتراك . (٢) اذ كان اندلسي سلا ، ثم مع الدلائيين ، الا انه لا يستبعد ان يكون في صفوفه بعض الاتراك ، اذ كان بين صفوف صاحبه ومقدمه على الجهاد في بلاد الهبط ابي العباس الخضر غيلان الجرفطي اتراك اشتركوا الى جانبه في معركة القصر الكبير التي جرت سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م بينه وبين مولاى الرشيد العلوى ، وقتل بعضهم فيها (٣) ، فلعلهم كانوا من قبل في صفوف العياشي ، ثم انتقلوا اليه . ووجود اتراك في صفوف الخضر غيلان يدل على انه كان كرئيسه العياشي على علاقة طيبة مع اتراك الجزائر . (٤)

وقد التجأ غيلان فعلا الى الجزائر حين بدا له تفوق خصمه عليه ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م (٥) ثم عاد بعد ذلك الى المغرب وقتل في سنة ١٠٨٤ من قبل السلطان مولاى اسماعيل العلوى .

جـ ـ العلاقات مع مقدمي تطوان :

كان آل النقسيس يقومون باعمال الجهاد ضد القواعد البرتغالية والاسبانية في شمال المغرب انطلاقا من تطوان ، ولكن اضطراب المغرب بعد موت المنصور جعلهم يستقلون بالحكم فيها او لا يخضعون لابناء المنصور الا خضوعا سطحيا ، ويقيمون علاقات مع الدول المجاورة للمغرب ، وفي مقدمتها الجزائر .

وقد كانت سفن اتراك الجزائر تتردد دوما على تطوان ، اما لنقل الحجاج والمسافرين او للتموين ، او الاستراحة او لبيع الاسرى وغنائم الغزو البحري (٦) .

---

(١) تحدث تقرير ماريسون عن هذه الواقعة على اساس انها وقعت في رمضان ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م انظر تقريره في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٥٤
(٢) الافراني : النزهة ، ص ٢٦٦
(٣) أ . كور ، المرجع السابق، ص ١٩٠
(٤) الناصرى ، الاستقصاء ج ٧ ص ٣٨
(٥) نفسه ، ص ٤٧
(٦) ماثيو ، الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٥ ص ٤٦ .

وكان غزاة تداوان يشتركون احيانا مع غزاة الجزائر في اعمال الغزو البحري . وكان مقدمو تداوان من آل النقسيس على علاقة طيبة مع اتراك الجزائر ، مما لا يستبعد ان يكون لهذه العلاقة اثرها في ميل مقدمي تداوان الى الاستقلال عن نفوذ ابناء المنصور رغم على غرار ما فعله اندلسيو سلا .

د ـ العلاقات مع الدلائيين : (1)

لم يبرز الدلائيون كقوة سياسية ودينية معا في المغرب الا بعد وفاة محمد بن ابي بكر الدلائي سنة ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م ، واستلام ابنه محمد الحاج زعامة الدلائيين . اذ دخل هذا الامير بعد سنوات قليلة في نزاع مع السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر ، ثم مع المجاهد العياشي ، وغيرهما من زعماء القوى السياسية التي كانت قائمة في المغرب ، وتقاسم النفوذ فيه .. وليس معروفا على وجه الدقة متى بدأت العلاقات بين محمد الحاج وابنه عبد الله الذي تولى امارة سلا واتراك الجزائر ، أكان ذلك قبل دخول سلا وتداوان تحت نفوذ الدلائيين ، ام بعد ذلك .

على ان العلاقات بين اتراك الجزائر والدلائيين ، كانت علاقات ودية وتعاون لا سيما في ميداني التجارة والغزو البحري ، اذ ظلت السفن الجزائرية والسلاوية والتطاونية الجهادية تتعاون فيما بينها في هذا المجال كما كانت من قبل ، وتتردد على مراسي البلدين بقصد التجارة او التزود بما يلزمها او الاستراحة ، واصلاح ما تحتاج من السفن .

ولما تولى عبد الله الدلائي امارة سلا نشطت التجارة بين سلا والجزائر ، ونتيجة الفوائد التي كان يجنيها من هذه التجارة فانه رفض قبول مشروع معاهدة بين الدلائيين وهولندة لانه كان من شأنه ان يحرم على المغاربة التعامل بالبيع والشراء مع الجزائريين وغيرهم كالتونسيين والطرابلسيين ويلزم الدلائيين بألا يسمحوا للأتراك وغيرهم بحمل رسائل امتياز في سلا .

وعلى الرغم من ان اتراك الجزائر والدلائيين كان لهما خصم واحد الا وهم الاشراف العلويون الذين اتهموا الاتراك بخرقهم المخالفة للمذهب الجزائري والذين كانوا يهددون بقوة نفوذ الدلائيين فانه لا يبدو انه حصل بين الطرفين تعاون وتنسيق لضرب خصمهما المشترك . اذ اضطر الاتراك الى امضاء اتفاقية سلام كما سنرى مع العلويين . اما الدلائيون فكانت نهاية ملكهم على يد مولاي الرشيد سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م الا انها لم تجبر السلطان الرشيد العلوي محمد الحاج وبنيه على مغادرة المغرب في سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م استقروا في العاصمة تلمسان التي كانت تحت حكم احد قادة اتراك الجزائر .

انظر عن العلاقات بين اتراك الجزائر والدلائيين ، محمد حجي / الزاوية الدلائية / وزعامة العياشي الخامس .

٣ـ العلاقات مع احفاد المنصور :

حاول احفاد المنصور مرة اخرى التعاون مع الانكليز وان يكونوا حلفاء لهم ضد الاتراك في الجزائر (١)

فقدموا لهم التسهيلات التجارية التي رغبوا فيها على امل ان يحصلوا منهم على عون يساعدهم على خصومهم ومناوئيهم ، بل ان محمد الشيخ الاصغر الذى امتد حكمه فترة طويلة نسبيا من ١٠٤٥هـ ـ ١٠٦٣هـ / ١٦٣٥ـ١٦٥٢م سعى مباشرة بعد توقيع معاهدة صداقة وتجارة مع انلترا في ٢٠ ربيع الثاني ١٠٤٧هـ ، سبتمبر ١٦٣٧ الى جر انلترا للاشتراك معه في حملة على الاتراك في الجزائر وتونس ، وقال في خطابه الموجه الى الملك شارل الاول والمحرر في ١٧ جمادى الثانية ١٠٤٧هـ / الخامس من شهر نوفمبر ١٦٣٧م . ((انه يجب ان نتعاون في شن الحرب ضد السلطات الحاكمة في كل من تونس والجزائر بسبب تصرفاتهم المناهضة للانسانية ...)) (٢) .

ووجه لهذا الغرض سفارة تتالف من القائد جوذر بن عبد الله ... وروبرت بلاك لاقناعه بالاشتراك فيها باسطوله البحري القوي ..

وقد استقبل الملك شارل سفيريه بحفاوة ، وعاد السفيران في ١٠٤٨هـ/ ماي ١٦٣٨م وفي صحبتهما اربع سفن حربية لمساندة محمد الشيخ في حربه على الخارجين على حكمه (٣) .

وكان من بين الخارجين الجدد على حكمه محمد الحاج بن محمد بن ابي بكر الدلائي في وسط المغرب وذلك في سنة ١٦٣٦م ، وباءت محاولة استمالته اليه والدعوة الى الدخول في طاعته والبيعة خلال سنتي ١٦٣٦ـ ١٦٣٧ بالاخفاق، فلم يبق امامه الا استعمال القوة معه .

ويبدو ان المساعدة التي امدته بها انلترا لم تشجعه على القيام بحملة على خصم قوى كالاتراك او انه آثر قبل ان يقوم بذلك ان يأمر بحملة لاخضاع المتمرد الجديد . فحرك بالفعل جيشه الى ناحية تادلة في سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م وكان امامه محمد الحاج ، والحق الهزيمة به في المعركة الحامية الوطيس التي دارت على ضفة وادى العبيد بتادلة فلم يكرر المحاولة وقنع بمراكش وما جاورها ، ولا يبدو انه فكر ثانية بعد هزيمته هذه في تنفيذ حملة ضد اتراك الجزائر (٤) .

---

(١) انظر عن علاقاتهم مع الانكليز : شوقي عطا الله الجمل : العلاقات الانكليزية المغربية / مجلة المناهل / عدد / ٣ / الرباط ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ص ١٨٢

(٣) نفسه ، ص ١٨٠ـ ١٨٢

(٤) الافراني : النزهة ص ٢٤٦ ومحمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٥٤ .

ولم يكن ابنه احمد العباس من القوة بحيث يفوق فيها قوة فيه والده ، وقد عجز حتى عن الحيلولة دون اخواله عرب الشبانات كواستمالتهم الى جانبه ، وحين حاول ذلك قتلوه في سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م ، وبمقتله سقط نهائيا حكم الاسرة السعدية في المغرب(١) .

واذا كان عرب الشبانات اخوال زيدان وابنائه الذين استغلوا آخر السلاطين السعديين من الحكم وقضوا نهائيا على حكم اسرتهم ، فان الاتراك العثمانيين قد ساهموا في اضعاف هذه الاسرة بتدخلاتهم المختلفة: بتحريض هذا او ذاك ممن الحرابين على الثورة عليها ، او بتأييد او تشجيع هذا او ذاك من الثائرين عليها او بالتعاون معهم ....

٤ـ العلاقات بين اتراك الجزائر والاشراف العلويين في عهد الباشاوات :

لم تكن العلاقات بين اتراك الجزائر والاشراف العلويين ودية ولا سلمية في البداية على الاقل ، ذلك ان الاشراف العلويين الذين ظهروا على المسرح السياسي في المغرب بعد فشل بني ابناء المنصور كما رأينا(٢) قد اخذوا يعملون بعد قيامهم في سجلماسة بجنوب المغرب في سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٤٠ـ١٦٤١م(٣) على توسيع نفوذهم نحو بلاد الجزائر ، وفي ذلك تجديد للاطماع القديمة لحكام المغرب فيها ، ويعملون كما تدل على ذلك حركة توسيعهم لنشاطهم ونفوذهم على السيطرة على التجارة الصحراوية بين بلاد السودان والجزائر والمغرب ، الامر الذي لم يكن ليرضي حكام الجزائر او ليجعل علاقاتهم مع الاشراف العلويين ودية او سلمية كما كانت علاقاتهم مع بقية الوحدات السياسية التي كانت قائمة في المغرب في هذه الفترة .

ولفرض السيطرة على المراكز التجارية المتحكمة في التجارة الصحراوية احتل العلويون بعد سنوات قليلة من قيامهم توات ١٦٤٥(٤) هذا المركز التجاري الهام في جنوب اعماق الصحراء الجزائرية (حاليا) . ثم تطلعوا الى فاس فدخلوها في جمادى الثانية ١٠٥٩هـ/ ١٠/ ٧/ ١٦٤٩م ، لكن الدلائيين اصحاب النفوذ فيها تمكنوا من طردهم منها الى حين ، في ١٠ شعبان ١٠٥٩هـ/ ١٩/ ٨/ ١٦٤٩م ، كما تطلعوا الى تلمسان ، والمراكز الاخرى الواقعة في الجنوب الجزائري ، واستغلوا انشغال

(١) الافراني ، نفسه ص ٢٥٧ـ٢٥٨)
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب ،
(٣) انظر الافراني ، النزهة ص ٣٠٠ في هذه السنة بايع اهل سجلماسة محمد ابن الشريف وطلبوا سيادة ابي حسون السملالي عليهم .
(٤) مارتيني وآخرين ، تاريخ المغرب ص ٢٤٦

...ت الجزائر بالغزو البحري ، وهو ما جعلهم لا يردون على الدول الاوربية التي تضررت منه ، واتخذت ...اك الجزائر بالغزو البحري ، وهو ما جعلهم يردون غزو الدول الاوربية التي تضررت منه ، وانصدت
...ه اساطيلها وحملاتها لغزو مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية . كما استغلوا ايضا ما كان
...ه الاتراك حينئذ من ضعف داخلي ، نتيجة التنافس الذي كان قائما بين الجند والرياس والثورات
...يرة التي كانت تقوم ضدهم هنا وهناك ، فغزوا تلمسان وملحقاتها ، كما غزو الاغواط وعين ماضي
...يرها ، من المراكز في الجنوب الجزائري ، واحدثوا اضطرابا كبيرا في باشوية الجزائر ، وهددوا نفوذ
...الاتراك فيها تهديدا قويا . الا ان شعور العلويين بانهم ما زالوا غير قادرين على الدخول في حرب
...جابية حقيقية حاسمة مع اتراك الجزائر ، جعلهم لا يحتفظون بالمراكز التي غزوها او تمكنوا من الدخول
...اليها ، فكانوا ينسحبون منها بعد نهب ما فيها من اموال وخيرات الى وجدة او الى سجلماسه ان شعروا بخطر كبير من قبل الاتراك .

وقد بدأ الاشراف العلويون بقيادة محمد بن الشريف هجوماتهم وغاراتهم على المناطق والمدن والقبائل التابعة لباشوية الجزائر ، بدءا بالتي تلي شرق المغرب ثم التي تليها في ربيع سنة ١٦٥٠م على الارجح او ربيع السنة التالية لها مما يوافق اواخر عهد يوسف باشا واوائل عهد محمد باشا (1)
واستمرت هجوماتهم وغاراتهم بضع سنوات حتى سنة ١٦٥٤م

كانت اول هجومات محمد بن الشريف على بني يزناسن فاستولى على اموالهم ومواشيهم ، وقصد بعد ذلك مدينة وجدة واستولى عليها وشرد منها الفريق الموالي للاتراك ، واتخذها قاعدة امامية لامارته ، ومنها ينطلق للغارة ، واليها يعود لقضاء فصل الشتاء . ثم قام بعد ذلك بالغارة على القبائل الاخرى الخاضعة للاتراك كاولاد زكري واولاد علي وبني سنوس ، فانتهبهم وادخلهم في طاعته ، وامتدت غاراته بعد ذلك الى ناحية ندرومة حيث اغار على قبائلها كمطغرة وترارة وولهاصة وغيرها . وتجرأ بعد ذلك على الغارة على تلمسان وقراها ، واستولى على ما وجده من اموال وماشية سكان اسوارها وفي قراها الا ان انبه اهل تلمسان وافراد حاميتها فهزمهم شر هزيمة وقتل منهم عددا كبيرا فعاد من نجا منهم الى الاحتماء باسوار المدينة ورجع محمد بن الشريف الى وجدة حيث قضى فصل الشتاء هناك . وفي الربيع التالي شن على طريق الصحراء واغار على ((الدهافرة)) ، وانتهب اموالهم ، فسارعت قبائل حميان ودخيسة وغيرها الى اعلان خضوعها اليه والدخول في طاعته . وقام بصحبة هذه القبائل بغزو الاغواط وعين ماضي والناسون والصوانع وبني يالقيان وغيرها في الجنوب الجزائري فنهبها واستولى على اموالها وخيراتها . وفرادامه عرب الحارث وسويد ورياح الى جبل بني راشد طالبا للمتعة وتقل راجعا محملا بغنائم واسلاب كثيرة .

---

(1) دوغرامون : المرجع السابق ص 199–202

توجيه أكبر عدد ممكن من القوات الى الحدود في نحو
كان رد فعل باشا الجزائر من غاراته الاخيرة
كان رد فعل باشا الجزائر من غاراته الاخيرة توجيه أكبر عدد ممكن من القوات الى الحدود في نحو ... ولما كان هذا الاخير يعلم انه لاقبل له
... الجزائري لملاحقة محمد بن الشريف ومحاربته . ولما كان هذا الاخير يعلم انه لاقبل له
بمواجهة هذه القوات فقد استمر راجعا الى بلاده ، وهناك فرق من كان معه من القبائل على أمل اللقاء
به في الربيع القادم وتوجه الى سجلماسة ، فلم يتح بذلك الفرصة للقوات التركية لمحاربته ، فعادت
الى الجزائر بعد ان بلغت تلمسان ، ولا يبدو انها امرت بملاحقة ابن الشريف حتى سجلماسة ، او ان
امكاناتها تسمح لها بذلك ، فقد كانت تشكو من قلة التموين ، والوباء المنتشر فلم يتقدم الجيش انه
وهي في طريقها الى تلمسان بمؤونة او غيرها[1].

وقد ادت غارات محمد بن الشريف العلوي على الغرب والجنوب الجزائريين الى تعطيل التجارة
واهمال الزراعة لهروب الناس نحو الجبال المنيعة والجهات البعيدة[2].
ثم ادت غاراته الى ميل عديد من القبائل الى التمرد عن طاعة الاترك ، كأولاد طلحة وحداج
وغيرها ، والى ميل بعضها اليه كحميان ودخيسه وغيرها ، وحتى اهل تلمسان مالبثوا ان
مالوا اليه وخاطبوه ، وحرضوه على الاتراك[3] ، مما كان ينذر بخطر كبير على نفوذ هؤلاء ليس فقط في
مدينة تلمسان والغرب الجزائري ولكن في كل بلاد الجزائر .
ثم كان من باشا الجزائر بعد عودة القوات التي ارسلها الى الناحية الغربية ، دون قتال مع
محمد بن الشريف ، الا ان تشاور مع اهل ديوانه ومشورته في كيفية معالجة الموقف الخطير وطريقة
اعادة الهدوء والاستقرار الى الباشوية والتخلص من شبح الاضطراب عليهم ، فبدا لهم من الاجدى
ان يبعثوا اليه برسالة وسفارة للتفاوض معه في السلم .
كانت الرسالة بليغة ، وهي بتاريخ 15/7/1064هـ[4] الموافق في 1/6/1654م حملها
الى الشريف اربعة من الرسل ، اثنان منهم من علماء الجزائر هما الفقيه عبد الله النفزي والفقيه
الحاج محمد بن علي الحضري العنابي ، والاثنان الآخران من اركان ديوان الباشا[5]
اوضح باشا الجزائر وديوانه في بداية رسالتهم مساوىء ما اقدم عليه محمد بن الشريف من افعال واثارة
للاضطرابات في البلاد الجزائرية ، والاضرار التي نجمت من ذلك ، والفتوا نظر مخاطبهم الى انه

---

(1) السلاوي : المرجع السابق ، ص 21
(2) نفسه : ص 26
(3) انظر موقف القبائل واهل تلمسان : رسالة باشا الجزائر في المرجع السابق : ص 22-24
(4) (5) نفس الرسالة : ص 25

((والعواطف لابد أو ليه ... بهذا الصدد ،
... الثبات امام قواتهم في ... الباقية ... لا يصبرون لصواعق البارود ولا تصمد
... كذلك في المثل ... خنادق الغدر والورود
... الدروع والذوابل الا في سوق ثمن الغارات على حلل القبائل ، اما اسوار الجيش فصل
... اسوار الكتائب فلا يهدمها فيهدمها الا سيوف الدموع والرماة الرواتب ..

وحذروه بشدة وبصفتكم من مغبة الاستمرار في الاغارة على البلاد الجزائرية بقولهم :
ولا تمدن باع المغادرة الى اوطاننا تنغص مغالب سطوة سلطاننا ..)) واكدوا حرصهم
... امن القبائل العربية وطمأنينتها فقالوا : ((وما مرادنا الا امان العرب في المواطن ليطيب
... جولان الانتقال في المشاة والعراق ..)) . ونصحوه ان كان جادا في طلب الملك السعي
... بجهوده الى اخضاع حواضر المغرب التي لاتزال في قبضة زعماء البربر بقولهم : ((فان تعلقت
... همتك بالامارة فعليك بالمدن التي صدروا عليك دهن البرابر فصار يدعي لهما/بها على المنابر (1)
... اما حيازتك لتذوق حلاوة الملك المعجونة بحزم النجاة او الهلاك ..)) .

ويتبين من هذه النصيحة انهم كانوا يريدون ابعاد اهتمام محمد بن الشريف عن الجزائر
... وادخاله في نزاع مع القوى الاخرى التي كانت قائمة في المغرب فينهك قواه ويضعفه ويعجزه عن
تهديد امنهم والطمع في ايالتهم .

وختموا رسالتهم اليه بلهجة لينة حيث ناشدوه الا يتدخل مرة اخرى في مقاطعة تلمسان
... تحت اي عذر من الاعذار لتكون العلاقات بينهم وبينه حسنة طيبة وجاء في رسالتهم بهذا الصدد :
((فناشدناك جدك من الاب والام ، وما لك فيه من اخ وخال وعم الا ما تجنبت ساحات تلمسان
ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان . وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض فوجدناها ماناى
... عنا من مطلق الارض وخمسنا على الغالبا . لتعلموا ان رايهم عن معاني الصواب غائب ، اذ كلهم
... ذو جفاء ونفار ، ويصمهم عند الدول ما بهم الثقار ليبقى بيننا وبينكم المستر المديد على الدوام ويقطع ...
... الوشاة من الاقوام ..)) .

واما قرأ محمد بن الشريف الرسالة استاء ممن مضمونها ولهجتها ، وعاتب الرسل على ذلك ،
... وردوا باتهم مجرد رسل وعليه ان يجيب مرسليهم لا ان يعاتبهم . فكتب لهم كتابا لكنه لم يبعث
... بهذا الجزائر وديوانه الى ما اراد ، واعاد الباشا الرسل الى محمد بن الشريف ، ولكن هذه
المرة بدون كتاب ، وكان المطلوب هو تحديد الشريف العلوي لموقفه اما السلم معهم واما اعلان ...
... وغيرها .

---

(1) اشارة الى الدلائيين (البربر) الذين كانوا يسيطرون على فاس وسلا وتطاوان وغيرها .

وانما على الدولة العثمانية .

ولكن ليس على المستضعفين من القبائل ، كما كان يفعل ، واربحوا مشكلة النزاع القائم
رسل الجزائر في مفاوضتهم مع الشريف حججا مقنعة ، وتقف عند حدك ، فما
مؤثرا ، حيث قالوا : ((نحن بيننا لتعمل معنا شريعة جدك ، فان كان غرضك في الجهاد ، فرابط
جدك يحارب المسلمين ، ولا يأمر بغصب المستضعفين ، فان كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان ،
الكفار الذين هم معك في وسط البلاد ، وان كان غرضك في ذلك ملك ، فهذا ما بيننا
رز اليها واستعن بالرحمن الرحيم ، فلا يكن (كذا) عليك في ذلك من شيم اهل البيت الامجاد .
ه والسلام . واما ايقاد نار الفتنة بين العباد ، فليس من شيم اهل البيت الامجاد ، ولا قانون من قوانين
يخفى عليك ان ما تفعله حرام ، ولا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ، ولا قانون من قوانين
جسم)) .

ومضى رسل الجزائر في دان المغرب المقدسة ، وتوسل الاضرار التي نجمت من تدخل ابن
الشريف قائلين : ((فقد تعطلت تجارتنا ، واجفلت من وطننا رعيتنا ، فما جوابك عند الله في
هذا الذي تفعله في بلادنا ، وانت ابن رسول الله (ص) مع انه لم يجوزنا ان نفعله نحن في بلادكم
عيتكم ، على اننا معولون على الظالم والمعتدي منكم ، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا ..)) (1) .
اتتبع الشريف بعتابهم ، واثر فيه كلامهم ، وقال : ((والله ما اوقعنا في هذا المحذور الا شياطين
العرب ، انتصروا بنا على اعدائهم ، واوقعونا في معصية ، وابلغناهم غرضهم ، فلا حول ولا قوة
الا بالله)) (2) .

وقبل ان يمضي مع حكام الجزائر معاهدة سلام ، وحسن الجوار ، على ان يكون وادي التافنة
هو الحد الفاصل بين ايالة الجزائر ، وسلطان نفوذه ، وتعهد بالتزام ذلك ، واحترام الحد الجديد
قائلا : ((واني اعاهد الله تعالى لا اعرض بعد هذا اليوم ببلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وانصرف
اعدائكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، ولا قطعت وادي التافنة الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله)) (3) .

وقد وفى بما قطعه على نفسه من عهد ، وما التزم به ، وبعده اخوه الرشيد من بعده اتفاقية
العمل من اتراك الجزائر (4) ولا يدخل ضمن فترة بحثنا النزاع الذي استبد بين الطرفين بعد
تولي السلطان العلوي مولاي اسماعيل (1672 - 1727 م) ، او من جاء بعده .

والهدنا فان العلاقات بين اتراك الجزائر واوائل الاشراف العلويين لم تكن
في البداية سلمية ، او ودية ، وان اتفاق الصلح الذي توصل اليه الجانبان في سنة 1064 هـ /
1654 م ، لم يضع حدا نهائيا لاطماع الاسرة العلوية ، وتدخلاتهم في الجزائر ، وان زمام المبادرة
بالتدخل المباشر قد عاد الى يد الحكام المغاربة مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر
الميلادي بعد ان كان بيد حكام الجزائر الاتراك ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، مما
يدل دلالة واضحة على ضعف الاتراك في الجزائر في عهد الباشا واستمال ميلهم الى السلم ، وتنازلهم
من فترة عن نفوذهم خاتمة من ذلك النصف ، وان كان التدخل في شؤونه بسبب او لآخر من سياستهم .

---

(1) (2) (3) السلاوي : الاستقصا ج 7 ص 26
(4) T . كور : المرجع السابق ص 182 .

خاتمة الباب الاول :

ومن كل ماتقدم يمكن القول ان العلاقات السياسية بين البلدين في الفترة ٩٢٢ـ ١٠٦٩هـ /
ومن كل ماتقدم ، وتعاون ، كما كان
١٥١٥ ـ ١٦٥٩م كانت متذبذبة ، ولم تكن علاقات ود وحسن جوار دائما او تعاون ، كما كان
ان تكون بين بلدين متجاورين لهما نفس البنية البشرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية
ن متضامنين قاما على اسس متماثلة ومنها الجهاد ضد الكفار وتحرير ما وقع تحت الاحتلال الاوربي
الصليبي البرتغالي والاسباني ، بل كانت متذبذبة بين سلام قلق مجمد لتوازن القوتين
وكذلك . او حين كان يبدو كذلك .
رب عنيفة حين اختلال ذلك التوازن ، او حين كان يبدو كذلك .
ـ ام تتحكم في العلاقات السياسية بين البلدين المتجاورين لا الوحدة في التكوين البشري ،
الاجتماعي والديني ، ولا مصلحة البلدين في انهاء الاحتلال الاوربي المسيحي الذي كان وجوده
تحديا للشعور الديني والقومي ، واستنزافا للاقتصاد ، وانما تحكمت فيه الرغبة المتشابهة لحكام
البلدين في السيادة على البلد الاخر لتحقيق اهدافهم الاقتصادية والتوسيع نفوذهم ، ودعم
مراتبهم وهيبتهم ليس فقط في الاطار المحلي للبلدين ، ولكن ايضا في العالم الاسلامي والاوربي .
لذا كان الصراع مظهرا من مظاهر تلك العلاقات . وقد كان صراعا عنيفا احيانا تمثل في حملات
عسكرية متبادلة ، وصراعا خفيا تحت ستار السلام والمفاوضات . وفي الواقع كان الصراع عنيفا لما
لم يكن احد الطرفين عارفا تماما بقوى الفريق الاخر . وعندما شعر الطرفان بأن تلك القوى
متعادلة فان السلام ساد وان كان تارة حذرا ، واخرى متوترا الا ان كلا الطرفين اخفق في تحقيق غرضه
فالسعديون اخفقوا في محاولاتهم العديدة في اختراق سد العثمانيين في الجزائر
لتحقيق طموحاتهم في انشاء امبراطورية تشمل ليس فقط الجزائر دولة الموحدين السابقة ،
ولكن ايضا مصر وربما غيرها كما فعل اسلافهم الفاطميون فلم يبق لهم الا ان يتوجهوا نحو الجنوب الى بلاد
السودان لمد نفوذهم وهو ما فعلوه ، ونجحوا في تحقيقه في
عهد المنصور ولو ان ذلك لم يدم طويلا بعد المنصور : ومن اجل الحفاظ على الاستقلال فان حكام
لم يترددوا في التقرب من القوى الخارجية المعادية لجيرانهم الاتراك الطامعين في المغرب مما جعل العلاقات غير ودية دائما .
والعثمانيون اخفقوا في احتوائهم للمغرب رغم المحاولات العديدة ، العسكرية والسياسية

وذلك لا يعود فقط الى : ـ
ـ رفض المغرب المطلق الاستجابة المجرم لفكرة المغاربة او اغلبهم الى الاتراك على انهم
غرباء اعاجم ، بعيدون من اصالة الشرف العربي المحمدي التي تخولهم السيادة على العالم
الاسلامي .
ـ قوة الدولة السعدية نفسها المؤيدة بقوى كثيرة ، دينية وسياسية ، في المغرب وحتى في
الجزائر والمدعمة بقوة عسكرية منظمة تنظيما حديثا مقتبسا من التنظيم العثماني نفسه والاوربي .
والمستندة الى قوى اوربية محادية او مسالمة للدولة العثمانية يمكن ان تأتي لمساعدتها . وان
تمدها بالسلاح والرجال والمال اذا ما دعت الضرورة ، وفي مقدمة تلك القوى الاسبان والبرتغاليون
الذين كانوا على استعداد للوقوف الى جانب المغرب ، او بأنفسهم امنع امتداد النفوذ العثماني
الى المغرب القريب جدا من اسبانيا والمشرف على طريق ملاحتهم عبر الاطلسي لما في امتداده
اليه من خطر على بلادهم وعلى ملاحتهم .

وانما اتفاقهم في ضم المغرب يعود الى تردد الدولة العثمانية نفسها ، وعدم جديتها في ضمه اليها ، ولذلك التردد اسباب من اهمهـــا : -

- اخذ الدولة العثمانية ماتقدم ذكره في الحسبان .
- انشغالها في حروبها في شرق اوربا وبلاد فارس .
- البعد المكاني للمغرب عن مركز الدولة ، وعدم اطمئنانها تماما الى نوايا حكام الجزائـــر الاقويـــــاء .
- الضعف الذى انتاب الدولة العثمانية بعد سليمان واضطراب احوال الامبراطوريـــة العثمانيـــة في المشرق وحتى في الجزائـــر خاصة في عهد الباشاوات .

٥- ان العلاقات السياسية بين المغرب والجزائر او بالاحرى بين المغرب والدولة العثمانيـــة كانت في الواقع العامل الانهم في الابقاء على القواعد الاسبانية والبرتغالية في البلدين لان تلك العلاقات التي اتسمت طابع العداء تارة والتوتر اخرى ، كانت عائقا في وجه حركة جهادية مشتركة ضد القوى الاوربية الغازية والطامعة على السواء .

الباب الثاني

العلاقات الاقتصادية بين القطرين

الفصل السابع : البنية الاقتصادية في القطرين والعوامل المؤثرة فيها .

الفصل الثامن : عناصر العلاقات الاقتصادية .

الفصـــــل الســــــابع

البنيـة الاقتصـاديـة في البلديـن والعوامـل المؤثـرة فيهـا

قد يجد الباحث نفسه وهو يلج باب العلاقات الاقتصادية ، منساقا نحو نهج النهج ...اء الذي اتبعه في بحث العلاقات السياسية ، اى ان يطرح ملامح الحياة الاقتصادية في ...لا القطرين في هذه المرحلة ثم ، ينطلق الى العلاقات بينهما ، طما بأن صورا متفرقة من ...ك الحياة الاقتصادية قد اشير اليها بطريقة او بأخرى في الحياة السياسية للقطرين وعلاقاتهما. ...يستوجب هذا الانسياق انه من العسير فهم العلاقات الاقتصادية مالم تدرك البنية الاقتصادية ...ي كل من القطرين والتطورات التي طرأت عليها خلال هذه المرحلة . وهذا ماجرى فعلا ، ...لكن تبين من الدراسة المستفيضة والتفصيلية للحياة الاقتصادية في البلدين ،ان هناك تشابها ...بين البنيتين ، والعوامل المؤثره فيهما . ولما لم تأخذ العلاقات الاقتصادية منحى دبلوماسيا ...لا حتى دخلت عنصرا فاعلا وواضحا في علاقات السلم والحرب والتوتر ، اي لم تكن مدار مباحثات ...بين الحكومات ، او اتفاقات ، او معاهدات ، بحسب ماتوافر من الوثائق ، فانه روي ان تطرح ...موازنة بين الحياتين الاقتصاديتين في البلدين في هذه المرحلة ، من خلال موازنة العوامل ...المؤثرة فيهما ، بل ان هذه الموازنة هي في حد ذاتها نوع من العلاقات . وهكذا فان ...المستكشف للعلاقات الاقتصادية بين القطرين ، يتضح له من خلال تتبعه للحياة الاقتصادية ...فيهما ، ان تلك الحياة ، بل وتلك العلاقات نفسها قد تأثرت بعوامل متنوعة ومتشابهة ...على الاغلب بعضها قديم ، وبعضها جديدا . اما العوامل القديمة اى المتوارثة من الماضي ...البعيد ، او الموروثة من الحقبة السابقة لهذه المرحلة مباشرة ، فيمكن تصنيفها بدورها ...الى عوامل داخلية وخارجية :

...ولا : العوامل الداخلية الموروثة ، وتأتي في طليعتها :

١- الجغرافيا الطبيعية للبلدين : فمن المعروف ان الجزائر والمغرب بلدان متجاوران ، لا تفصل بينهما حدود طبيعية . ومن المعروف انهما يقعان في شمال افريقيا ويطلان من الشمال على البحر المتوسط ، وتغوص اقدامهما في الجنوب في رمال الصحراء الافريقية الكبرى . الا ان للمغرب واجهة اخرى من الغرب يطل بها على المحيط الاطلسي ، ولا تملك الجزائر نظيرا لها .

ومن ناظة القول التأكيد ان التضاريس في البلدين تكمل بعضها : فهي في الجزائر امتداد لما هي عليه في المغرب ، مع فروق طفيفة : ففي كل منهما سهول ساحلية على البحر المتوسط ، وتمتد فيهما جبال الاطلس المرتفعة المشهورة من الغرب الى الشرق ، وعلى الساحل وفي الداخل بتفرعاتها التلية والصحراوية ، حاصرة بينها منطقة هضاب عالية . اما المناخ فهو متوسطي في الشمال والوسط ، وصحراوي في الجنوب . ومع ان الواجهة الاطلسية في المغرب ذات امطار اوفى من المناطق الاخرى ، الا ان الانهار في البلدين لا تعدو ان تكون انهارا سيلية متشابهة ، انخفضت غزارتها جدا في موسم الجفاف ، وتطول حتى الفيضان في موسم الامطار .

وقد نتج عن عناصر تلك الجغرافية الطبيعية المشتركة للبلدين ، واولها الموقع الجغرافي بين الصحراء الافريقية وما وراءها من بلدان الغرب الافريقي في الجنوب ذات الانتاج المغاير ، وبين البحر المتوسط في الشمال ، المنفتح على القارات الثلاث ، والذى تصب فيه مختلف انواع السلع ، ان كان البلدان منطقة عبور بين اواسط افريقيا الغربية وهذا البحر ، وبالمقابل ومن ثم ، كانت لهما علاقاتهما ، وبصفة خاصة التجارية والسياسية مع بلاد السودان جنوبهما [1] ، كما ان هذا الموقع وجههما ايضا الى متنفسهما البحرى الشمالي ، وماوراءه ، فكانت لهما صلاتهما السياسية والاقتصادية بل والثقافية مع بلاد اوربا التي تطل على هذا البحر من جنوبها [2] ، ومع كل حوضه الشرقي [3] . ومثلما وجه الموقع الجغرافي سكان البلدين نحو الجنوب والشمال ، فانه كان من الطبيعي ان يوجههما نحو الشرق ايضا . وفي هذا الاتجاه ، كانت الجزائر هي التي تلك الجهة الاهم لانها هي التي تلامس المغرب الشرقي مباشرة [4] ، ومنه المشرق . فاتصال المغرب بهذا البعد كان لا يمكن ان يتم ، ووسائل الانتقال البحرية والبرية على ماكانت عليه آنذاك ، الا عن طريق الجزائر . كما ان اتصال الجزائر بالواجهة الاطلسية كان لا يمكن مبدئيا ان يجرى الا عبر المغرب .

وهكذا رسم الموقع الجغرافي للبلدين خطوط الاتصال التجارى التي تربطهما باوربا شمالا ، وبالسودان وافريقيا الغربية جنوبا ، وبالمغرب الشرقي والمشرق شرقا وبالاطلسي غربا

(1)Devisse (J): Routes de Commerce et Echanges en Afrique Occidentale en Relation avec la Méditerranée, in R.H.E.S., t.50, Paris 1972.
La Fousse(de): Relations du Maroc et du Soudan A Travers les Ages. Paris 1924.
Carette(E.): Du Commerce de l'Algérie avec l'Afrique Centrale et les Etats Barbaresques. Paris 1844.
(2)Mas- Latrie(de): Traités de Paix et de Commerce et Documents Divers. Paris 1872.
Masson(P.): Histoire des Etablissements et du Commerce Francais dans l'Afrique Barbarèsque. t.1 , Paris 1903.

(4)Prax(M.): Commerce de l'Algérie avec la Mèoque et le Soudan. Paris 1849.

ويلاحظ ان هذا ... تلك الفترة ، كما هو واضح تشابه وترابط ، بل تواصل وتداخل .
... ثر الهام للموقع الجغرافي ، ظل مستمرا في هذه المرحلة من القانون ، كما كان عليه في
مرحلة السابقة ، اى ان العلاقات التجارية والسياسية للبلدين كما رأينا كانت نشطة مع
السودان ، وفعالة مع أوربا ، ومتينة مع المغرب الشرقي ومع المشرق وفي الوقت ذاتــه
... ية فيما بينهما ، مع الرغم من التذبذب الذى تركته العلاقات السياسية العالمية والمحلية
خلال بعض الفترات ، في تلك العلاقات كما ســــبق .

ولم يكن الموقع الجغرافي وحده هو الذى ترك اثره في الحياة الاقتصادية ، بل ان
العوامل الطبيعية المتشابهة للاخرى كان لها نتائجها البينة فيها . فالتقارب في التضاريس ،
المناخ ، والمياه ، والتربة ، خلف عبر العصور ، وفي المرحلة المدروسة ايضا ، تماثلا
في الانتاج الزراعي ، والمحاصيل الزراعية (١) . فقد انتج كلا البلدين خلال هذه المرحلة
كما انتج في المرحلة السابقة لها ، القمح ، والشعير ، والبقول من المواد الغذائية ،
والقطن والكتان ، والقنب ، والحلفا من المواد النسيجية ، وزرعا من الاشجار المثمرة ،
الزيتون ، والنخيل ، والتين ، والكروم ، والجوز واللوز ، والحمضيات ، والرمان ،
والعناب والخوخ ، ثم التوت لتربية دود القز ، وان بدا هذا النبات جديدا نسبيا ، اذ ان
الاندلسيين المهاجرين هم الذين زادوا في زراعته (٢) . وفي كلا البلدين ايضا نمت الغابات في
مرتفعات الاطلس المعارة ، كغابات الارز ، والسنديان الفليني ، والسنوبريات وغيرها ،
لتزود البلدين بالخشب اللازم لصناعة السفن ، والاثاث ، وكثير من ادوات المنزل والزراعة ،
وانتاج الفحم ، وغيرها من الصناعات . هذا بالاضافة الى ماكانت تقدمه من عسل بري وشمع .
كما نبتت الاعشاب متماثلة في الهضاب الوسطى ، وعلى حواف الصحراء ، لتكون مرعى لقطعان
الماشية المتنوعة والكثيرة ، في البلدين من : غنم ، وابل ، وابقار ، وخيول ، وغيرها .
فتربية الماشية كانت ، ومازالت خلال المرحلة المدروسة ، من النشاطات الاقتصادية الهامة
في البلدين ، تقوم به على الاغلب ، القبائل البدوية ، وتمثل واحدة من دعامات
الاقتصاد فيهما (٣) ، بما تنتجه تلك الماشية من لحوم ، والبان ، وصوف ، ووبــر
وجلود ، هي عماد بعض السكان في غذائهم ، وملبسهم ، ومسكنهم ، وبصفة خاصــة
القبائل البدوية منهم . وفي الوقت ذاته فان الاصواف والجلود كانت من المواد التي يكثر
الاقبال عليهما في مجال التجارة الخارجية . فالغطاء النباتي والزراعي اذا هو في احــد

(١) انظر عن الانتاج الزراعي والمحاصيل الزراعية المتماثلة وكذا عن الماشية وتربيتها في البلدين : الوزان : المرجع السابق ، (الجزآن الاول والثاني) ، ومارمول المرجع السابق الجزآن الثاني والثالث

(٢) هايدو : الطوبوغرافيا / في / المجلة الافريقية / عدد ٩٠ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ، والوزان المرجع السابق ج١ + ج٢ ومارمول ج٢ في صفحات متفرقة منها 392 وغيرها .

(٣) كاريت : المرجع السابق ص ١٣ - ١٥

البلدين امتداد لما هو عليه في البلد الآخر ، ولكن هذا لا يمنع من توافر بعض المواد المزروعة في احد البلدين ، لا تشير المصادر الى مايماثلها في البلد الآخر كزراعة قصب السكر (١) . والنيلج في المغرب (٢) ، وافتقادهما في الجزائر .

هذا علما انه من البديهي ان تختلف كمية الانتاج في كل مادة ، في كل من البلدين بحسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة . وفي الواقع قد تتحكم بعض الظروف الطبيعية نفسها احيانا في كمية ذلك الانتاج ، بل وفي مجموع الاقتصاد ومنها بالذات العوامل المناخية . فمن المعروف ان اجزاء واسعة من البلدين ، تفتقد الانهار والينابيع والآبار ، وكانت تعاني عبر العصور قلة في الامطار ، وعدم انتظام فيها . فقد تشح السماء ، فيصيب الجفاف تلك البقاع (٣) ، وتزحف الصحراء الى حواف الساحل ، وتصيب البلاد المجاعة ومايتبعها من اوبئة . وقد تهطل في اجزاء اخرى بغزارة تتدفق معها السيول وتفيض الجداول ، وتترك بالتالي آثارها المخربة (٤) .

وخلال المرحلة التي نحن بصددها ، عانت الجزائر والمغرب هذا الامر المزدوج ، فتعرض البلدان لعدد من المجاعات ، ولكثير من الاوبئة ، ولا سيما وباء الطاعون ، الذي اهلك اعدادا كبيرة من الحاطين في جميع الميادين ، وافقد البلدين جزءا كبيرا من قواهما البشرية العاملة ، مما اضعف المجتمع بمجموعه ، واذبل حيويته ، وبصفة خاصة عندما كانت تتلاحق تلك النكبات في فترات زمنية متقاربة .

ومثلما كان للتشابه في العوامل الطبيعية السالفة الذكر اثره المتماثل في الفعاليات الزراعية في البلدين ، فان اطلالة كل من الجزائر والمغرب على البحر المتوسط من الشمال ووجود الجبهة الاطلسية في المغرب ، في الغرب ، وجه سكان السواحل في تلك البقاع الى منتجات البحر ، ومنها بالذات صيد الاسماك . وبالفعل كان صيد الاسماك من الفعاليات الاقتصادية الدائمة في البلدين خلال هذه المرحلة ، كما كانت دائما ، لا نها تقدم الغذاء الرئيسي لسكان بعض المناطق الساحلية في البلدين مثل دلس[6] في الجزائر وبادس في المغرب [7] ، وسلعة تصدرها المغرب بصفة خاصة الى الخارج [8] .

واذا كان صيد السمك من النشاطات الاقتصادية للبلدين ، فان صيد المرجان

---

(١) كانت زراعة قصب السكر من اختصاص اقليم السوس بغربي جنوب المغرب انظر الوزان : المرجع السابق ج١ ص٨٨ و ٩٣

(٢) كانت نبتة النيلج تنبت بكثرة في اقليم درعة بشرقي جنوب المغرب انظر الوزان : المرجع السابق ج٢ ص٤٢

(٣)(٤) نفس المرجع السابق : ج١ ص٢٨٨ و ٢٩٥

(٥) نفسه : ج١ ص [illegible] وبرنشفيك : المرجع السابق

(٦) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤٠٩ - ٤١٠

(٧) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٢٧٥

(٨) نفسه : ج١ ص١٢٦

تفردت به الجزائر دون المغرب ، لتوافره على سواحلها الشرقية . وقد كان له شأن في اقتصادها ، وفي علاقاتها السياسية في هذه المرحلة ، لان استثماره لم يكن بيد اهل البلاد ، وانما اعطي للاوربين الجنويين فالفرنسيين . (1) ومثلما تفردت الجزائر بصيد المرجان فان المغرب اختصت دون الجزائر بجمع العنبر الرمادي من المحيط الاطلسي (٢) .

٢- الافق الاقتصادي المحدود نسبيا ، الذي رسمه الحاكمون في الفعاليات الاقتصادية المتنوعة ، لاتجاههم فهدا مجموع الاقتصاد في هذه المرحلة وكأنه لا هدف له سوى ارضاء حاجة استهلاك السوق المحلية في الدرجة الاولى ، كما كان عليه الامر في المرحلة السابقة، فقد حافظوا في البلدين على الطرائق ، والادوات التقليدية المتوارثة ، التي كانوا يستخدمونها في الانتاج الاقتصادي لمختلف الوانه ، والتي كانت تنتقل على الاغلب من الاب الى الابن دون محاولة جادة للتطوير او الابتكار فيها . ففي الزراعة مثلا ظل المحراث الخشبي ، وادوات الحصاد ، والدرس ، وغيرها من الادوات الزراعية بمواصفاتها السابقة ، وكذلك اساليب الزراعة ، ووسائل الري . والامر نفسه يقال عن ادوات الصناعة وطرائقها ، والنظام التي كانت تتحكم فيها . فالحرفة او الصنعة شبه احتكار اسري ، والنقابات (الطوائف) لها قيودها عليها . ومن ثم فالانتاج الصناعي بمجموعه ، ظل خلال هذه المرحلة في البلدين مشابها في نوعيته ما كان عليه في الماضي ، ماعدا بعض تجديدات قليلة ، اما ادخلها الاندلسيون ، كصناعة الحرير في الجزائر وتطوير انوال نسجها ، وصناعة الشواشي والارتقاء بها ، (٣) ، واما فرضتها ظروف الاحتكاك مع العالم الخارجي ، وبصفة خاصة مع اوربا والدولة العثمانية ، ومثل على ذلك ايجاد صناعة البنادق والمدافع في البلدين ، الى جانب صناعة الاسلحة التقليدية المعروفة كالسيوف والرماح والحراب وغيرها ، وتطوير صناعة السفن والتوسع فيها للاستجابة لمتطلبات الغزو البحري ، وحاجة البلدين لتكوين اسطول تجاري وحربي (٤) .

وهكذا كان مجموع الصناعات في البلدين في هذه المرحلة متماثلا مع الماضي ومتشابها فيما بينهما . فهناك الصناعات الغذائية المعروفة كطحن الحبوب في الارحية المائية ، وصنع الخبز والبسكويت ، وصناعة الالبان وبصفة خاصة منها السمن الذي كان له سوق نافقة في السودان واستانبول وجنوة ، وصناعة الزيت من الزيتون ، والزبيب من العنب،

---

(1) مهمة دفتري : رقم ٢٥ ص ١٢٢ و د وغرامون المرجع السابق ص٤٥ ، مرسي المرجع السابق ج٣ ص ٥٠ - ١٥١
(٢) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٨٨ ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣
(٣) ونور الدين - عبد القادر صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص 140 ومحمد المنوني ملامح ... في مجلة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٦ ص ٨٤٧
(٤) الوزان : المرجع السابق ج١ ص ٢٠٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، وغيرها . عابد والطوبوغرافية عدد ٨٣ في المرجع السابق ص ٤١٤ وعدد ٨٥ ص ٥٦ ومارمول المرجع السابق ج٢ص 56 ٤١٣

وكان يصدر الى اوربا (1) ، والخمر (2) ، ويبدو انها كانت لاستهلاك اليهود بالدرجة الاولى ولاسارى النصارى ، وصناعة السكر التي انفرد بها المغرب دون الجزائر.

وهناك ايضا الصناعات النسيجية ومايتبعها من صباغة وخياطة ، وعلى رأسها الصوفية ثم القطنية والكتانية ، وصناعة الحصر من الحلفا . ثم صناعة دباغة الجلود التي كان للبلدين شهرتهما فيها وبصفة خاصة المغرب ، ومايتفرع عنها من صناعات جلدية متنوعة (3) .

ومن الصناعات القائمة في البلدين على السواء الصناعات الخزفية والفخارية (4) ، والصياغة وسك النقود ، وكانت هاتان الصناعتان في البلدين بيد اليهود (5) .

وكان للبلدين ايضا صناعتهما المعدنية المحدودة اى استخراج المعادن وتصنيعها ، فالحديد (6) والنحاس (7) كانا يستخرجان من جنوب المغرب ، وكذلك الفضة (8) ، كذلك كان يستخرج الحديد بكميات محدودة من داراره (9) وكوكو (10) وبجاية (11) في الجزائر . وعلى هذا الحديد كانت تقوم صناعة الاسلحة كالسيوف والخناجر والحراب والفولاذ . كما كانوا يصنعون من ملح البارود البارود ، ومن النحاس المستخرج من مواقع عديدة في البلدين الاواني النحاسية المتنوعة .

وفي الفترة موضوع الدرس فان الفعاليات الانتاجية لم تستطع تلبية حاجة السوق المحلية من المواد الغذائية ، لما كان يتسبب في غلاء الاسعار والمجاعات . ومن المواد الصناعية ايضا مما جعل البلدين يستوردان بقية حاجتهما من اوربا وغيرها .

اما التجارة فقد كانت دوما احد الانشطة الاقتصادية التي يمارسها الكثيرون في البلدين ، رغم العوامل السلبية العديدة القديمة التي كانت تعاني منها . واهمها انعدام الطرق المعبدة ، والراحة والمعبدة ، وتباعد محطات الاستراحة المجهزة بما يلزم التاجر المسافر ، كالغذاء له ولراحلته ، والفنادق وغير ذلك واستمرار وسائل النقل البدائية ، كما كانت تعتمد اساسا على الابل بالدرجة الاولى ثم على بقية الحيوانات ، اضف الى ذلك الانتاج الزراعي والصناعي المحدود . هذا الى جانب العوامل الاخرى الآتي ذكرها التي كان تأثيرها السلبي ينعكس عليها وعلى بقية الفعاليات الاقتصادية .

---

(1) هايدو : الطبوغرافيا في المرجع السابق عدد 83 ص41 وعدد 84 ص18 وعدد 85 ص14 . التمبروتو : المصدر السابق ص24 — 25 مارمول : المرجع السابق ج3 ص29

(2) الوزان : المرجع السابق ج1 ص303 ، 304 ، وغيرها

(3) نفسه : المرجع السابق ج1 ص131

(4) نفسه : ص131 وبريمودای : التجارة ... ص21 ، المرجع السابق ج1 ص234

(5) هايدو : المرجع السابق عدد 86 ص91 والوزان : ...

(6) يستخرج الحديد من مناطق عديدة في جنوب المغرب وشرقه انظر الوزان المرجع السابق ج1 ص285 ، 115 ، 135 ، 293 وغيرها

(7) نفسه : ج1 ص115 ، ج2 ص421

(8) نفسه : ج1 ص94 — 95

(9)(10)(11) مارمول : المرجع السابق ج2 ص326 ، 413 ، 414

ومن العوامل المتشابهة لخضوع الاقتصاد في معاملاته المختلفة ، وفي ضرائبه في البلدين للاصول الاسلامية السنية المالكية ، التي كانت بدورها عاملا في تثبيت الافق الاقتصادي المحدود وتجميده المشار اليه انفا . واذا كان العثمانيون قد تبنوا الفقه الحنفي في كل امور تشريعهم فانهم تركوا بالتالي لسكان البلاد حرية التعامل بحسب اصول الفقه المالكي السائد لديهم . فالتقيد بتعاليم الدين حول نسبة من الربح يجب الا تتجاوز حتى لا تتحول الى استغلال ، وتحريم الربا ، ودفع الزكاة على الاموال المكدسة مثلا ، امثلة لبعض القيود التي كانت تكبح جماح المغامرات الاقتصادية الشهيرة التي اتخذت اوربا تدخل ميدانها ، في مطلع العصور الحديثة ، وكان لها نتائجها البعيدة في تغيير بنية الاقتصاد فيها .

تجزؤ المغرب والجزائر واضطراب احوالهما السياسية منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي . وحتى تثبيت الحكم السعدي في المغرب ، والحكم العثماني في الجزائر . فقد تبين في بحث الاوضاع السياسية في البلدين انهما كانتا مجزأتين الى وحدات سياسية صغيرة متنافسة ومتناحرة فيما بينها ، هذا بالاضافة الى صراع الاسر الحاكمة الكبرى في كل من الجزائر والمغرب . مما جعل الاقتصاد يتقوقع ضمن تلك الوحدات السياسية المتناحرة أولا ، وثانيا جعل الامن والاستقرار يضطربان ، وكلا الامرين لم يكونا مساعدين على تحسن الاوضاع الاقتصادية التي لا تزدهر عادة الا في اجواء الوحدة السياسية والسلام .

تنمر القبائل البدوية ومنها العربية ، التي كانت تقدم خدماتها العسكرية لمن يطلبها منها من القوى المتنازعة . وقد وجدت هذه القبائل في ضعف السلطة المركزية في كل من المغرب والجزائر ، وعجزها عن قمع المتمردين فرصتها الذهبية كي تقوم بالغارات على الطرق ، والحقول ، والاسواق ، والقرى ، والمدن ، او تهددها بالهجوم اذا لم تستجب لما تفرضه عليها من اتاوات ، مرهقة ، ولا سيما عندما تنحبس الامطار وتفتقد سبل رعي مواشيها .

وقد نجم عن اشاعة هذه القبائل الخوف والتهديد آثار خطيرة على الاقتصاد في البلدين :

آ- هجر كثير من الفلاحين حقولهم وبساتينهم الخصبة ، وتركوها بورا . كما فعل مثلا اهل المناطق المحيطة بمستغانم ، والجزائر (١) ، والمسيلة ، (٢) ومجانة (٣) في بلاد الجزائر ، واهل تينيسه (٤) ، بمقاطعة مراكش ، واهل مدينة مراكش (٥) .

(١)(٢) الوزان ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٤٣ ، ٣٤٢ .
(٣) مارمول : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٢١
(٤) الوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ٩٧
(٥) نفسه : جـ ١ (مراكش)

مما ادى الى تقلص مساحة الارض المزروعة ، وبالتالي الى قلة الانتاج ، وما يتبع ذلك من غلاء الاسعار ، وتزايد الفقر وحلول المجاعات وانتشار الاوبئة .

وقد فر عديد من اولئك الفلاحين الخائفين الى الجبال ، حيث آثروا سكناها على سكنى السهول ، حماية لانفسهم واسرهم ونتاج عملهم ، على الرغم من صعوبة الحياة فيها . وكان من جراء ذلك اكتظاظ الجبال بالسكان ، وتخلخل السهول (١) .

- خراب عديد من المدن ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تخريب الاعراب لمدينة تفوف ، التي كانت كما يقول مارمول عاصمة لمقاطعة درعه ، ومركزا لتجارة مزدهرة مع بلاد السودان واوربا وبلاد البربر (٢) ، وتضييقهم الخناق على مدينة مراكش حتى كادت تصاب بالخراب التام اذ اصبحت خالية من ثلثي سكانها ، والخرائب تملأ طرقاتها (٣) . ولم تكن اصابة الجزائر اقل فداحة ، اذ أن هجمات الاعراب خربت مدن مازونة ، وارزيو ، ومسيله ، وبسكره . (٤)

ولا يخفى ان المدن هي المراكز التي تحتضن الصناعه ، وفيها تزدهر ، وخرابها أو تهديدها يعني خراب مراكز الصناعه ، او الضغط عليها وتقليص نشاطها .

- اضطراب امر التجارة في عديد من المناطق التي تكثر فيها هجمات هؤلاء الاعراب . اذ لم يعد التجار يجرؤون على الانتقال اليها خوفا على انفسهم ، واموالهم . فلم يعودوا يذهبون مثلا الى نواحي تفيفه (٥) ، وتينمل (٦) ، في مقاطعة مراكش ، ولم يعد سكان جبل زيز الواقع جنوب شرقي مملكة فاس يخاطرون في الانتقال الى سجلماسة لبيع محصولهم من الصوف والسمن الا بعد عودة الاعراب الى الصحراء . ومع ذلك كان هؤلاء كثيرا ما يفاجئونهم بهجوم كثيف فيقتلونهم ويسلبون سلعهم (٧) ، والشيء نفسه يقال عن الجزائر فتجار مديه اجبروا على دفع ضرائب للاعراب حتى يسمح لهم بالاستمرار في تجارتهم مع الجنوب الجزائرى (٨) .

وكان الطريق بين اسواق عديدة داخلية في المغرب ، وبين مدينة فاس وتلمسان محفوفا بمخاطر اعتداءاتهم على التجار ، سواء كانوا فرادى او في قافلة ، بحيث لا تكاد تسلم قافلة تجارية من التعرض الى الهجوم والنهب والسلب ، ولا سيما ان هي لم تدفع رسوما

---

(١) انظر حول ظاهرة كثافة السكان في الجبال الجزائرية والمغربية الوزان : ...ي المرجع السابق ج١ + ج٢ ومارمول : المرجع السابق ج٢ (الفقرات المخصصة للجبال)
(٢) مارمول : نفس المصدر ج٢ ص١٢
(٣) الوزان : المرجع السابق ج١ (مدينة مراكش)
(٤) انظر عن هذه المدن الوزان : المرجع السابق ج٢ ومارمول : المرجع السابق ج٢و٣
(٥)(٦) الوزان : المرجع السابق ج١ ص ١١١ - ١١٢
(٧) نفسه : ص ٢١٢ - ٢١٨
(٨) نفسه : ص٢٥١

تة لبقاء مرورها من منطقة الى اخرى (١) . وكذلك كان حال الطريق بين المغرب
د السودان حيث تنتقل القوافل التجارية الهامة ، وحيث كانت مهددة بهجوم عرب
د عمران وغيرهم (٢) .

وامر مماثل كان يجرى في الجزائر ، حيث يشير الوزان الى ان تجار قسنطينـــة
طروا الى استصحاب جنود مسلحين لحماية قافلتهم (٣) ، وورد في وثيقة اسبانية فـــي
عهد العثماني ان قافلة تجارية كانت متجهة الى هنين ، المنفذ البحرى لتلمسان بقصد
جارة مع البنادقة ، قد تعرضت الى هجوم من قبل العرب ، ولولا انها لم تكن محروسة
راد مسلحين لاستولوا عليها (٤) .

فالتأثير السلبي لغزو القبائل البدوية على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية امـــر
ن في المرحلة السابقة للمرحلة المدروسة ، بل وخلال المرحلة نفسها . وبه يفســـر
ض المؤرخين المعاصرين التدهور الذى آلت اليه الجزائر فيقول : عن الجزائر ((فهـــو
المغرب الاوسط) قد اصبح منطقة تجوال تعيث فيه القبائل العربية والمحلية ، وتنتشـــر
الخراب)) (٥) . وهذا ما يجعله موضع طمع البرتغاليين في ناشئة القرن السادس عشـــر
ما غزوا في سنة ١٥٠٥ المرسى الكبير ، وجشع الاسبان ، مستغلين ضعف السياسي
لاقتصادى .

ولكن ليس من الموضوعية ان يفسر كل ما لحق بالحياة الاقتصادية من وهن بغـــزو
قبائل البدوية ، لان في هذا التفسير وحده مغالاة لاشك فيها . فالذى ساعد على أن
ن للقبائل الغازية هذا الاثر السلبي هو الصراعات الداخلية ، والمنازعات بين القوى
سياسية المحلية في كل بلد ، وبين القوى السياسية في البلدين . وانصافا للحقيقـــة ،
بد من الاقرار ان القبائل العربية التي استولت على بعض السهول في الجزائر في الفترة
سابقة لمرحلة دراستنا ، قد اخذت تستقر على الارض ، وتنجذب الى العمل الفلاحـــي .
د أشار الى ذلك الوزان نفسه حين تحدث عن ريف عنابة ، ونشاط قبيلة مرداس العربية
، وذلك الانتاج الوفير الذى كانت تحصل عليه من استغلالها له (٦) ، والذى كان
ل رخاء لهذه المدينة ، لولا ما كانت تتعرض له من تعفير الحكام ، وتهدل الايدى عليها .
ن البدو الرحل في رحلاتهم الصيفية في الجزائر الى الشمال والشتوية الى الصحراء فـــي

---

(١) نفسه : ج١ ص ١٨
(٢) مارمول : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤
(٣) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦٨
(٤) بريمودای : الوثائق المنقلة ص ٥٢
(٥) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ص ١٦
(٦) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧٠

الجنوب ، كانوا يسهمون في التجارة الداخلية ، بما كانوا ينقلونه هم انفسهم من بضائع الشمال الى الجنوب من قمح وصوف ، ومن سلع الجنوب الى الشمال ، من تمر وانسجة صوفية . كما كانوا يسهمون في تنشيط الصناعة النسيجية بتوفير الاصواف لها (١). ويمكن ان يعمم هذا القول على القبائل المتنقلة بين الجزائر والمغرب ايضا . والقبائل المتنقلة بين الجنوب الشرقي للمغرب وشمال شرقه (٢).

اما العوامل الخارجية الموروثة من المرحلة السابقة والتي ظل اثرها قائما في جزء صغير او كبير من المرحلة المدروسة ، والمؤثرة في اقتصاد المغرب والجزائر على السواء ، فانه يمكن ايجازها بالاحداث التالية :

أ- وصول البرتغاليين فيما يسمى بحركة كشوفهم الجغرافية الى خليج غينيا في عام ٨٤٤ / ١٤٤٠ م ، واتصالهم بمصادر الذهب السوداني والعبيد من الزنوج ، ثم انشاؤهم على الساحل مراكز تجارية على امتداد الساحل الاطلسي كمركز آرجين عام ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م ومركز بورتودال عام ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م وكاشو (CACHEU) عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م و لامينا (LA MINA) في ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م ، للقبض بواسطتها على تجارة بلاد السودان وتحويلها اليها . (٣) وقد كانت هذه التجارة - كما اشير سالفا - تتجه شمالا الى بلاد المغرب والجزائر عبر الصحراء الى البحر المتوسط . وبفضلها نشأت وازدهرت مدن شمال الصحراء ، والمدن الواقعة على طرق القوافل من امثال سجلماسه وفاس ومراكش وسبته في المغرب وتلمسان وقسنطينة ، وتوغرت وورجله ووهران في الجزائر . بل كانت تتجه ايضا الى تونس وطرابلس الغرب وبرقه . ونجحت البرتغال بالفعل في تحويل قسم من تلك التجارة ، اذ وصلت القافلة الاولى من العبيد السود الى البرتغال عام ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤م ووصلت النقود الذهبية الاولى المسماة كروزادو فيها سنة ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧ م . وتدفق الذهب عبر الاطلسي الى البرتغال بشكل قوي بين ٨٤٤ هـ/ ٩٥٧هـ/ ١٤٤٠م - ١٥٥٠م (٤) وسعت اسبانيا بدورها الى تكوين لها مراكز على المحيط علّها تفلح في التعويض على ما يفلت من قبضة البرتغاليين ومن هذه المراكز سانتاكروز دو ماريكينا عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م (٥) . ولما لم يتأت لها ذلك ، حولت اسبانيا انظارها الى البحر المتوسط ، الذي كانت تنتهي الى موانئه معظم تجارة السودان فيما مضى لتتهيأ على مالم

---

(١) كاريت : المرجع السابق ص ١٣-١٥

(٢) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٣٠٣

(3)&(4) Ricard(R.): Les Portugais et le Sahara Atlantique, t. 10(٤)(٣) Paris 1930.

Braudel(F.): La Méditerranée. t.1, P.424.

(٥) انظر المجلد الاول من ص٠٠٠ ت ٠٠٠م : البرتغال : الجزء الاول (التسابق البرتغالي الاسباني في جنوب المغرب)

تمكن البرتغاليون من تحويله المهم . فكان الاحتلال الاسباني لكل المراكز التي ترتبط بها تجارة السودان كوهران ومرسى الكبير ، وبجاية ، والجزائر ، وتلمسان ، وهنين ، وعنابة في الجزائر ، وحجر بادس ، ومليله في المغرب ، بل ومدت نفوذها الى تونس حيث التها الدولة الحفصية ، بل واحتلت طرابلس الغرب عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م (١) .

وإذا كان التحويل البرتغالي للتجارة السودانية لم يكن تاما - كما يؤكد بروديل ، ويشهد على ذلك الاحتلال الاسباني لتلك المراكز ، والذهب الذي استمر في الوصول الى شمال الصحراء ، فان الكمية لا شك قد قلت . ويقف دليلا على ذلك النقد الذهبي الذي سكه سلاطين تلمسان والذي كان متداولا في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٢) وربما كان ذلك من الاسباب الخفية وراء حملة صالح رايس الى مدن اطراف الصحراء عام ٩٥٩-٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ، ليس فقط اخضاع بني جلاب ، ولكن للاستيلاء على ما بأيديهم من ذهب ، لندرته في الشمال ، واعادة ربط طريق الذهب المعروف بالجزائر العاصمة الجديدة . ويذكر مارمول انه عاد بخمسة عشر جملا محملا بالذهب (٣) . وإذا كان مارمول صادقا فيما ذكر من حيث الكمية ، فهذا يقف دليلا على استمرار تدفق الذهب الى الحواف الشمالية للصحراء من جهة ، وعلى عدم انتظام وصوله الى قلب الجزائر او المغرب . وهو ما فسر به بروديل حملة صالح رايس الى الجنوب (٤) . وقد يدعم هذا التفسير ايضا قيام السعديين ايضا بمحاولاتهم الحديدة للوصول الى مصادر الذهب وطرقه (٥) .

وإذا كانت التجارة الجزائرية والمغربية مع السودان قد تأثرت بتحويل قسم منها الى المحيط الاطلسي فانها تأثرت ايضا بغلق المنافذ البحرية على المتوسط في وجهها نتيجة الاحتلال الاسباني والبرتغالي لها ، ذلك الاغلاق الذي اثر بدوره على بقية الفعاليات الاقتصادية ولاسيما المرتبطة بها .

٢- غزو البرتغاليين والاسبان للشواطئ المغربية والجزائرية والمناطق الداخلية المجاورة لها ، كما فصل في بحث الاوضاع السياسية في البلدين . فهذا الغزو لم يصب في الصميم تجارة السودان في البلدين فحسب ، كما ذكر آنفا ، وانما التجارة عامة فيهما . ففي المغرب احتل البرتغاليون والاسبان سبتة وطنجة ومليله وغساسة وآنفى وآزمور وتدنست وغيرها ، ففقدت اهميتها التجارية السابقة بالنسبة للمغرب . (٦) ، وحتى عندما استعيدت كان كثيرا منها قد لحق به الخراب . هذا بالاضافة الى ان المدن الساحلية القليلة

---

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر

(٢) الوزان : المرجع السابق جـ٢ ص٣٣٦ ومارمول : المرجع السابق جـ٢ ص٣٣٢

(٣) مارمول : نفس المرجع جـ٢ ص ٤٢٦ وانظر عن الحملة فصل الحياة السياسية في الجزائر

(٤)(٥) بروديل : المرجع السابق جـ١

(٦) Cenival (P. de): La Description de l'Afrique de Ceuta au Sénégal. Par Valantin Fernando 1506-1507, Portugal 1698.

التي بقيت بيد المغاربة ، كسلا ، والعرائش ، وتطوان ، كانت مهددة بالغزو منهم. ثم ان البرتغاليين والاسبان حظروا التجارة في المغرب على التجار الاوربيين الذين كانت لهم صلات معه ، تحت طائلة العقاب الشديد ، وقد القى البرتغاليون القبض على بعض المغامرين منهم ، ممن تعدوا قرار الحظر ذاك ، وساموهم العذاب ، واودعوهم السجن سنين طويلة (١) ، مما هدد التجارة المغربية الاوربية بالخسران . بل حتى عندما استلم السعديون الحكم ، وطردوا البرتغاليين من مراكز احتلالهم ، فان البرتغاليين اشتكوا من تجارة السعديين مع انكلترا وفرنسا وبخاصة في المواد المحرمة كالاسلحة (٢) .

والامر نفسه يشاهد في الجزائر : فاحتلال الاسبان للمرسى الكبير ، وهو احسن ميناء واكبرها في كل افريقيا بحسب قول مارمول (٣) ، ولوهران وهي المنفذ البحري لتلمسان ، قد صوب لتجارة المدينة الأخيرة سهما قاتلا . وحتى عندما رأوا ان تلمسان كانت تتعامل مع التجار المنادقة عن طريق هنين الميناء الصغير ، فانهم احتلوه ودمروه . بل تحولت وهران نفسها ، على حد قول روف الى مجرد " قلعة واسعة تحيط بها اسوار وقلاع تشرف عليها ، وتشكو الجوع قبل العدو " (٤) . واحتلال وهران من قبل الاسبان لم يؤثر فقط على التجارة الخارجية لتلمسان فحسب ، وانما ايضا على التجارة الداخلية لكل اقليم الغرب الجزائري . فلا الاسواق كان يمكنها ان تنعقد ، ولا القوافل التجارية كان يمكنها اجتياز المناطق المجاورة لوهران لتحمل الملح من ارزيو وغيره بسلام ، (٥) اذ ان الرعب من الغارات الاسبانية المفاجئة التي كان يستعان بها بما لهم من اعوان وجواسيس (المغطسين) في المنطقة ، كان يشل تلك النشاطات . بل حتى اهل قناسطل المجاورين لوهران ، والذين كانوا يتاجرون بالحطب تعرضوا للسلب والنهب من الاسبان ، حتى اضطروا الى دفع ضريبة معينة لقاء الاستمرار في اعمالهم .(٦)

واذا كان ذاك حال وهران والمنطقة المجاورة لها ، فان حال بجاية وعنابة لم يكن افضل . فقد فقدت الاولى علاقاتها التجارية الواسعة التي كانت لها منذ عدة قرون ، مع الجمهوريات الايطالية وقطلونيا الاسبانية ومرسيليا (٧) ، وخسرت الثانية تجارتها الداخلية والخارجية النشيطة (٨) .

---

(١) م.م.ت.م : اسبانيا ج١ ص ١٤-١٧ و ٥٧ - ٦٠ ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣٥
(٢) م.م.ت.م : انكلترا : جزء١ ص ٢ وما يليها
(٣) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٣٦
(٤) روف : المرجع السابق ص٧-٩
(٥) نفسه ص١٢٧
(٦) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣٨٤
(٧) بريمودان : التجارة ... ص ١٣١
(٨) الوزان : المرجع السابق ج٢ ص ٣٧ - ٣٧١ و مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤٣٢

وقد يكون ما أصاب هذه المدن عاملا اقتصاديا هاما في زوال كل من الدولة الزيانية في تلمسان ، وانحسار النفوذ الحفصي عن شرقي الجزائر .

ومثلما ترك الغزو الاسباني والبرتغالي اثرا مدمرا على التجارة في المغرب والجزائر، فانه خلف اثارا سيئة في الزراعة والصناعة ، اذ أن المدن التي احتلها كانت مراكز صناعية هامة ، فأغلب سكان وهران كانوا حرفيين ونساجين (1) ، ويكاد سكان هنين كلهم يكونون مختصين في صناعات القطن والحياكة (2) ، واشتهر اهل بجاية بالصناعات النسيجية من الكتان والقنب ، وينسج الزرابي على الطريقة الاندلسية (3) ، وكذلك يمكن القول عن عنابة (4) ، وهذه الحقائق لها ما يماثلها بالنسبة لمدن المغرب المحتلة (5) .

اما في الزراعة فان وجود الاسبان والبرتغاليين المباشر على السواحل الجزائرية والمغربية ، قد جعل آثرهم المخرب لا يقل عن اثر القبائل البدوية . فقد ادت غاراتهم المستمرة على ما جاورهم من المناطق الزراعية ، ونهب محصولها ، او احراقها ، واسر العاملين فيها ، الى خوف السكان ، واهمالهم لارضهم ، وهجرهم لها (6) ، وقد اكد الوزان حالة الذعر هذه التي كان يعيشها الفلاحون في المناطق القريبة من المراكز الاسبانية ليلا نهارا (7) . ولاحظ مارمول ان سهل تسالة القريب من وهران لم يكن يفلح كله على الرغم من جودة اراضيه ، لان اصحابه في خوف دائم من غارات اسبانيي وهران (8) . وكذلك كان شأن أراضي سهل المتيجة الخصيب (9) ، وسهل عنابة (10) ، ويقول بجاية حتى أن شارلكان لما التجأ الى المدينة الاخيرة اثر الكارثة التي حلت بحملته على الجزائر عام 1541م فانها لم تستطع ان توفر الغذاء لقواته الجائعة ، مع ان المنطقة حولها كانت تشتهر بوفرة محصولها (11) .

3- هجرة الاندلسيين الى المغرب :

من المعروف ان هذه الهجرة قد بدأت بأعداد محدودة قبل سقوط آخر امارة اسلامية على الارض الاسبانية وهي غرناطة ، اى قبل عام 897هـ/ 1492م الا ان اعدادهم تزايدت

---

(1) الوزان : المرجع السابق ج2 ص314
(2) نفسه : ص329
(3) مارمول : المرجع السابق ج2 ص414 - 415
(4) الوزان : المرجع السابق ج2 ص37
(5) انظر نشاط المدن المحتلة من قبل الاسبان والبرتغاليين في الوزان : المرجع السابق الجزء الاول ومارمول : المرجع السابق الجزء الثاني
(6) انظر عن حملات النهب والسلب الاسبانية والبرتغالية وهجرة الناس الى الجبال المنيعة واهمالهم لارضهم . الوزان : نفس المرجع السابق ج1 ص274 ، 289 وغيرها . ومارمول : المرجع السابق ج2 ص83 ، 240 وغيرها .
(7) الوزان : نفس المرجع السابق ج2 ص329
(8)(9) مارمول : المرجع السابق ج2 ص358 ، 361
(10) سعيدوني ناصر الدين : الحياة الاقتصادية في عنابة اثناء العهد العثماني / في مجلة الأصالة عدد 34 - 35 ص86 - 101
(11) بريمودای : المرجع السابق ص168

بعد سقوطها ، وبعد اتباع فرديناند وايزابيلا سياسة التنصير القسرى ، والطرد الاجبارى ، في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، والتي تابعها خلفاؤهما خلال القرن السادس عشر كله ، وافضت في نهاية المطاف الى النفي الاكبر للمسلمين من اسبانيا في (١٦٠٩ - ١٦١١) ، بحيث بلغ عدد المهاجرين الكلي ، من سقوط غرناطة حتى هذا الطرد النهائي ثلاثة ملايين . (١) . ومن ثم فان هذا العامل المؤثر في الحياة الاقتصادية في البلدين ليس عاملا قديما فقط وانما هو قديم وجديد .

وقد جاءت هذه الهجرة القسرية بنتائجها الايجابية في الاقتصاد المغربي والجزائرى ، معدلة قليلا من التخريب الذى اسهم فيه البرتغاليون والاسبان ، والقبائل البدوية . فقد حمل الاندلسيون معهم نشاطاتهم الحضارية ، ومعرفتهم الزراعية المشهورة ، وخبرتهم الصناعية ، وحيويتهم في الميدان التجارى . فقد قاموا في الجزائر باستصلاح أراضي شاسعة بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل ، وفي مناطق اخرى كشرشال ، وما حول وهران وتلمسان ، وعنابة ، وغرسوها بالاشجار المثمرة من كروم وتفاح وزيتون وكرز (٢) . واستفادت مستغانم من خبرة فلاحيهم ، الذين انشأوا مزارع واسعة على انقاض الاراضي البور (٣) ، كما اسهموا في ادخال مزروعات جديدة ، كأشجار التوت التي غرسوا اعدادا كبيرة منها لتربية دود القز في شرشال (٤) حيث المناخ والتربة ملائمان ، وكذلك في القليعة التي اثرى سكانها من العمل في هذا الميدان (٥) . وقد زرعوا ايضا اشجار البرتقال في هذه البلدة التي انشئت خصيصا لهم (٦) ، وفي متيجة ، واعطوا مزيدا من العناية لمزروعات اخرى كالقطن والارز بجهات مستغانم ومليانه ، والعناب باقليم عنابة (٧) ، واعتمد الاندلسيون في البلدة التي اقطعهم اياها خير الدين بربروس ، الزراعة المسقية بواسطة قنوات كان لهم خبرتهم في انشائها ، مما زاد المردود نوعا وكما (٨) .

وفي المغرب فانهم قاموا بغرس الاراضي التي اقطعوها في فحص مدينة مراكش بمختلف الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره وحولوها الى بساتين جميلة . وقال الفشتالي في وصفها ((فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات ، وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم ما أنساهم ذكر بلدهم واغناهم عما فاتهم ...)) (٩) .

وكان تأثير الاندلسيين ايجابيا ايضا في الصناعة ، فقد انعكف بعضهم على صناعة

---

(١) المدني : المرجع السابق ص٢٦٥
(٢) سعيدوني : البقية الاندلسية بالجزائر ص١٠
(٣) بريمودای : المرجع السابق ص٢٢٩ - ٢٣٠
(٤) مارمول : المرجع السابق ص٢٨٢
(٥)(٦) نفسه : ص٢٩٩
(٧)(٨) سعيدوني : المرجع السابق ص١٢ وانظر مارمول : المرجع السابق ج٢ ص61
(٩) الفشتالي : مناهل الصفا ص٢٤٩ والوزان : المرجع السابق ج١ (خميس متغره)

الشاشيات الحمراء الحادية والمطرزة بالذهب والفضة المسماة بالصارمة (١) ، كما ادخلوا صناعة الحرير ، واعتمدوا في صناعة السجاد على الانوال الواطئة (٢) ، وكان لهم اسهامهم الكبير في صناعة السفن ، ولاسيما في شرشال ، حيث انتجوا الفرغاطات والبرجنتينات الحاوية على ٨-١٦ صفا من المجدفين ، والتي كانوا يقودونها بأنفسهم (٣) ، ونهضوا بصناعة الاواني المنزلية في شرشال أيضا . (٤)

وقد يكون من اهم الصناعات التي عملوا في ميدانها هي صناعة الاسلحة : حيث كانوا ماهرين بصنع الخناجر والسيوف والحراب والرماح والقسي ، مضافا اليها البنادق ذات الفوهة الواسعة وسبك المدافع ، والبارود (٥) .

وبكلمة موجزة عرفوا بالنشاط والمهارة في مختلف الحرف التي عملوا في ميدانها ، كالحدادة ، والتجارة ، وصناعة الاحذية والخزف وغيرها . ويمكن ان يقال ان الامر نفسه يلاحظ في المغرب ولاسيما في المدن التي تركزوا فيها كسلا ، وتطوان وفاس ومراكش وغيرها . وقد قدموا عونهم الكبير في عهد السعديين في صناعة الاسلحة وفي المصنع الذي بني لهذا الغرض في مراكش (٦) ، وتجاوز نشاط الاندلسيين الزراعة والصناعة الى التجارة ، حتى انهم كانوا يحتكرون هم واليهود ، التجارة الخارجية طيلة عهد البايلربايات ٩٢٥-٩٩٥هـ / ١٥١٩-١٥٨٧م في الجزائر (٧) ، كما اسهمت المدن التي اقاموا فيها بالمغرب ، في النشاط التجاري مع المدن المغربية ، والدول المجاورة ، وبلاد اوربا . وكانوا يتاجرون بصفة خاصة بغنائم الغزو البحري (٨) ، وحقق بعضهم من هذه التجارة في الجزائر ارباحا وفيرة . ولا ينسى انهم بنوا مدنا جديدة او اسهموا في اعادة تعمير مدن سابقة لحقها الخراب عمرانيا وبشريا . ومن تلك المدن : البليدة والقليعة والجزائر وتلمسان ومليانة في الجزائر وتطوان وسلا وغيرها في المغرب . ويرجع اليهم ترويج العملة الاسبانية الفضية في الجزائر ((الريال ، فنشط استخدامها بين الاهالي ، وبين الجزائر والدول الاوربية (٩) . وكذلك الامر في المغرب .

---

(١) نور الدين عبد القادر : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، الجزائر ١٩٦٥ ص ١٤٠

(٢) (2)Bel(A.) & Ricard(P.):Le Travail de la Laine À Tlemcen. Alger 1913, P.53.

(٣) عايدو : الديموغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص١٥

(٤) بيهوداي : التجارة ... ص٢١

(٥) عايدو : المرجع السابق عدد ٨٤ ص ٩٥

(٦) الوزان : المرجع السابق ج١ (فاس) ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٢٧

(٧) (7)Eisemboth(M.):Les Juifs en Algérie et en Tunisie À l'Époque Turque.Alger1952,t.96, P.P. 347- 348.

(٨) عايدو : المرجع السابق عدد ٨٨ ص٤١

(٩) سعيدوني : المرجع السابق ص١٢

وقد واكب هجرة مسلمي الاندلس الى الجزائر والمغرب هجرة اليهود من اسبانيا والجزر
التابعة لها ، وشكلوا في بعض المدن الجزائرية والمغربية كالجزائر ، وتلمسان ، وتطوان ،
وفاس ، ومراكش ، وغيرها فئة اجتماعية متميزة بعاداتها وتقاليدها وفعالياتها الاقتصادية.
ان اختصت الجالية اليهودية في البلدين كما ذكرنا في بعض الصنائع كصناعة المجوهرات وسك
النقود ، ومارست حرفا اخرى كالخياطة وغيرها واشتغلت في التجارة الداخلية للبلدين
والخارجية لهما وحصلت على ارباح كبيرة من التجارة في غنائم الغزو البحري (١). وكان لها
نشاطها التجاري الواسع فيما بينها وبين اوربا وبصفة خاصة مع ميناء ليفورنا في شمال غربي
ايطاليا .

والغزو :

الغزو البحري الجزائري والمغربي :

البحري من النشاطات المغربية القديمة نسبيا في البحر المتوسط . ويرجع ابن خلدون
تنظيمه من قبل سكان البلاد الى منتصف القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد (٢). وقد
يرجع الى ابعد من ذلك . وكان يمارسه المسلمون والنصارى على السواء (٣) . الا ان هذا
النشاط البحري الذي يعرفه ابن خلدون بقوله : ((فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر،
ويصطنعون الاسطول ، وينتخبون له ابطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم،
على حين غفلة فيتخطفون فيها ما قدروا عليه ، ويصارعون ما يلقون من اساطيل الكفرة ، ،
فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور
القريبة من بجاية بأسراهم ... ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه او يكاد ...)) (٤) ،
تضاعف في جميع انحاء المغرب الكبير ، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين /
السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . ووراء ذلك عدة اسباب :
اولها : هجرة الاندلسيين ، وانضمام اعداد منهم اليه ، ودعمهم له بجهودهم واموالهم ،
ومهارتهم في صناعة السفن ، ودرايتهم بشواطئ الاعداء ولا سيما اسبانيا (٥) .
وثانيها : تشجيع حكام الجزائر من الاتراك العثمانيين (٦) ، وكذلك حكام المغرب (٧) .
اذ نظر اليه الاتراك وحكام المغرب على انه نوع من الحرب البحرية غير الرسمية ، الهجومية
والدفاعية في آن واحد ، ضد أعدائهم من الاسبان وغيرهم من مسيحيي اوربا . كما رأوا

(١) هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٦ ص ٩٠ – ٩١ ابن مريم : البستان (ترجمة المفيلي) ص ٢٥٣ – ٢٥٦ ايزنبث : المرجع السابق و مارمول : المرجع السابق ج٢ والوزان : المرجع السابق ودارفيو : مذكرات ج٥ص٢٢٢
(٢) ابن خلدون : ((ع)) كتاب العبر ج٦ص ٣٩٩
(٣) بروديل : الاسبان وافريقيا الشمالية في المجلة الافريقية الجزائر : ١٩٢٨ ص٤٠٧
(٤) ابن خلدون : المرجع السابق
(٥) هايدو : المرجع السابق عدد ٨٣ ص ٤١ وعبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة في مجلة تطوان عدد ٣–٤ ص ٦٥
(٦) المجهول : غزوات عروج وخير الدين . هايدو : ملوك الجزائر ومرسي المرجع السابق ج٣ص٤٧
(٧) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص٥٣

فيه موردا اقتصاديا هاما ومشروعا الى حد كبير ، اذ لا تعدو اسلابه ان تكون غنائم حرب ، فهي حلال على صاحبها .

وثالثها ارتباطه في اذهان كثير من القائمين به ، وبصفة خاصة الاندلسيين ، بمفهوم الجهاد ضد الاسبان الذين انتزعوا من المسلمين ديارهم في الاندلس ، وشردوهم ، وقسوا على اخوانهم الباقين في اسبانيا ، وحولوهم قسرا الى الدين النصراني .

ورابعها وفرة الغنائم التي كانت تكتسب ، لتزايد نشاط النقل التجاري الاوروبي في البحر المتوسط ، بعد اقامة الدول الاوربية علاقات تجارية نشيطة مع الامبراطورية العثمانية وقد رأى برودبل المؤرخ الفرنسي المعاصر لان هذا الغزو ماهو في الواقع الا شكل من أشكال التبادل انما كان يتم بالقوة ، في كل ارجاء البحر المتوسط (١) .

وقد كان لهذا الغزو البحرى اثره المباشر وغير المباشر على الاقتصاد الجزائري والمغربي : فهو من ناحية نهض بصناعة السفن كما اسلفنا القول ، ومن ناحية اخرى دعم ذلك الاقتصاد بما يأتي به من اسلاب متنوعة ، قد يكون من اهمها الاسرى الذين كان يفتدى بعضهم بكميات وافية من الاموال ، ويستفاد من بعضهم الآخر في مختلف الاعمال . وفي الوقت ذاته فانه اوجد حركة تجارية نشيطة في بعض مدن الجزائر والمغرب ، حيث كان يتم بيع تلك الاسلاب او مبادلتها بسلع اخرى ، ولا سيما بتلك التي كان يحطها الاوربيون من السلع المحظورة كالاسلحة والبارود وغيرها . ومن هذه المدن الجزائر التي رأى ماربول بأنها اصبحت اغنى مدينة في كل افريقيا ، في وقت قصير ، بسبب الغزو البحرى ، والتجارة القائمة بها معا (٢) . وسلا ، وتطوان المغربيتين .

الا ان هذا الغزو البحرى ، على الرغم من ايجابياته الاقتصادية ، سلاح ذو حدين . لان الدول الاوربية التي كانت تهاجم سفنها او شواطئها ماكانت لتسكت على اصابتها بل كانت تسعى لترد الصاع صاعين ، او تقوم قراصنتها بمهاجمة السواحل الجزائرية والمغربية بالطريقة نفسها التي كان يتم به الغزو الاسلامي للسواحل الاوربية ، وللسفن الاوربية . ولكن مع ذلك يبقى الغزو البحرى الجزائرى والمغربي ، اقوى اثرا من القرصنة الاوربية (٣) . بدليل تلك الاتاوات التي كانت اضطرت الدول الاوربية لدفعها الى حكومات البلدين بعد اتفاقات ابرمتها معها (٤) .

---

(١) المتوسط . . . ج٢ ص٢٠٥
(٢) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص١٠٤
(٣) دوروطالبي : تاريخ ايالة الجزائر والقرصنة التركية في المتوسط عنوان ؟ والاب دان تاريخ بلاد البربر وقراصنتها و كواندرو : قراصنة سلا و المجهول : غزوات عروج وخير الدين
(٤) مرسي : المرجع السابق ج٣ ص ١٣٦ - ١٣٧

٥ـ المجاعات والاوبئة ، وخاصة منها وباء الطاعون ، والكوارث

الطبيعية من زلازل و سيول ، وقحط وجفاف كانت تجتاح الجزائر والمغرب في الحقبة السابقة

فترة موضوع البحث بين آونة واخرى ، وتتسبب في القضاء على اعداد غير قليلة من سكان

البلدين من مختلف الفئات بما في ذلك فئات الفلاحين والصناع والتجار ، مما كان يضعف

صفوف المشتغلين في مختلف الفعاليات الاقتصادية ، ويؤثر بالتالي في الحياة الاقتصادية

في الجزائر والمغرب تأثيرا سلبيا ، ولاحظ المعاصرون للفترة موضوع الدرس مثل الوزان وهايدو

وغيرهما ان وباء الطاعون كان يظهر في البلدين بين حين وآخر قد لا يزيد الفاصل بينهما

كثيرا عن عشر سنوات ، وقد يبقى منها كما انه قد يستمر سائدا في احد البلدين او في كليهما

سنة اوسنين عديدة ، وذلك لان السكان كانوا يجهلون طرق الوقاية منه ، كما كانوا يجهلون

العلاج الناجع له ، (١) فكان يكون الوباء في البلدين مزمنا وكادت تخلو مدن ، ومناطق من

السكان بسببه .

ولاحظ المعاصرون كذلك ان وباء الطاعون وامراضا اخرى كمرض السفلس كانت تنتقل

ايضا الى البلدين مع الوافدين اليهما من مختلف الدول المجاورة وغير المجاورة (٢) . ومن

جهة اخرى فان المتأمل في سنين الاوبئة في الجزائر والمغرب يجد ان هذه الاوبئة كانت تسبق

في احدهما ثم تنتقل الى البلد الآخر بعد فترة قصيرة مع التجار والحجاج وغيرهم . وأشار

المعاصرون الى مجاعات رهيبة عديدة شهدها البلدان في عهدهم وخلفت خسائر كبيرة في

صفوف السكان ، لان هؤلاء كانوا لا يتخذون احتياطاتهم الضرورية . ولان دور الدولة

في التخفيف منها لا يكاد يذكر ، ولا سيما في الارياف ، حيث تسود الزراعة من اجل الاكتفاء

الذاتي ، والاستهلاك الفردي او الاسري . او حيث لا يكون الاهتمام بالزراعة على نطاق واسع

كما هو الشأن في المناطق القليلة الامطار . ولاحظوا ان المجاعات كانت غالبا ما تكون مسبوقة

بقحط اوجفاف قد يستمر اكثر من سنة او نتيجة لتعرض المحصول الزراعي لآفة من الافات كالجراد

مثلا .

وتطول القائمة لو ذكرنا جميع المجاعات التي شهدها البلدان في الفترة موضوع الدرس

وجميع الاوبئة المختلفة والكوارث والافات التي اصيبا بها في هذه الفترة . ولذلك نكتفي

بالاشارة الى بعضها على سبيل المثال والتوضيح ومنها :

ـ مرض السفلس والزهري الذي نقله اليهود المهاجرون من اسبانيا الى الجزائر والمغرب وهو

المرض الذي عم ، وانتشر وأصاب كثيرا من الاسر في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر

الميلادي (٣) .

(١)(٢) الوزان : المرجع السابق جـ١ ص١ و هايدو الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٠

(٣) الوزان : نفس المصدر ص ٢٤٦ ج٦

- وباء الطاعون الذي فتك بأهل بجاية ونواحيها في ٩١٦هـ/١٥١٠م و (١). ثم بأهل السوس في جنوب المغرب خلال عام ٩١٧-٩١٨ هـ / ١٥١١-١٥١٢م. (٢)

- المجاعة الرهيبة التي تعرض لها المغرب ؟ في ٩٢٧-٩٢٩هـ/١٥٢١-١٥٢٣م في اعقاب جفاف شديد . والتي ظل الناس فترة طويلة يؤرخون بها ، اذ لم يشهدوا مثيلا لها طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . ولشدة هذه المجاعة كان الناس كما يذكر مارمول في معرض حديثه ، ووكاله يعرضون انفسهم واولادهم للبيع على البرتغاليين لقاء لقمة العيش . (٣)

- الطاعون الذي اصاب الجزائر ثم المغرب خلال السنوات الثلاث ٩٦٤ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٥٩م والذي خلف خسائر كبير في صفوف جميع الفئات قدر عدد ضحاياه في المغرب وحده بنحو ٢٠٠,٠٠٠ ضحية ، جعلت بعض كبار الشخصيات البرتغالية تحث الملك البرتغالي على انتهاز ضعف مملكة المغرب لاحتلال المواقع التي استردها المغاربة من البرتغاليين (٤).

- الجفاف الشديد الذي شهدته الجزائر في عامي ٩٨٦ - ٩٨٧ هـ/١٥٧٨-١٥٧٩م والذي اعقبته مجاعة خطيرة مات بسببها خلق كثير (٥).

- والمجاعة المصحوبة بوباء السعال (كحيحه) التي اصابت المغرب في سنة ١٥٨٠ واودت بحياة عدد غير قليل (٦).

- والطواعين التي اصابت الجزائر في اعوام ١٠٠١ - ١٠٠٤ هـ/١٥٩٢ - ١٥٩٥م ثم في اعوام ١٠١٢-١٠١٦هـ/ ١٦٠٣-١٦٠٧م ، واعوام ١٠٤٩ - ١٠٥٢ هـ/١٦٣٩-١٦٤٢م وفي اعوام ١٠٥٧ - ١٠٦٠هـ/١٦٤٧-١٦٥٠م ، وعام ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م ومثلها التي اصابت المغرب في الفترة ١٠٠٦-١٠١٧هـ/ ١٥٩٧-١٦٠٨م ثم في ١٠٣٤ / ١٦٢٤ ثم ١٠٤٥ - ١٠٤٦ هـ/١٦٣٥-١٦٣٦ . وفي الفترة ١٠٦٢ - ١٠٦٢هـ/١٦٥١-١٦٥٢م وكلها كانت رهيبة انتشرت كثيرا وغالبا ماكانت تسبقها مجاعة او تكون مشفوعة بها او تتخللها (٧)

واذا كانت العوامل المذكورة آنفا ، وهي مؤثرات شبه واحدة ، متزايدة او متناقصة ، قد وجدت في المرحلة السابقة لمرحلة هذا البحث ، او كانت موجودة قبلها ،

---

(١) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤١٧
(٢) رونن برجر المرجع السابق ص ١٣٩
(٣) نفسه : و مارمول المرجع السابق ج٢ ص١١١
(٤) رونن برجر المرجع السابق ص١٤٠ ، الابوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٧ ص٢٢٥-٢٢٩ وعدد ٨٨ ص٣٠٩
(٥) هايدو :
(٦) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ١٦٠
(٧) انظر عن المجاعات والاوبئة في المغرب رونن برجر المرجع السابق ص ١٤١ ومايليها وعن المجاعات والاوبئة في الجزائر دغرامون المرجع السابق

...لت هي ونتائجها المتشابهة في البلدين ، خلال حقبة هذه الدراسة ايضا ، هي عوامل ...يدة ومتنوعة ، فان العوامل الجديدة المؤثرة في اقتصاد البلدين ، والخاصة بهذه ...مرحلة ، يمكن حصرها بعاملين اولهما ذو صبغة سياسية ، ولا يتشابه في البلدين ، ...تمثل في نظام الحكم الجديد في كليهما . فمن المعروف كما بينا سابقا انه حكم الجزائر ...ي هذه المرحلة الاتراك العثمانيون الوافدون من المشرق ، وحكم المغرب الاشراف السعديون ...م تكن النتائج الاقتصادية للحكمين في البلدين واحدة . والعامل الثاني هو الثورة الاقتصادية ...التي كانت تعيشها اوربا على اثر الكشوف الجغرافية . وكان اثرها شبه متشابه في القطرين :

أ - السياسة الاقتصادية للاتراك العثمانيين في الجزائر : لا تملك ...معلومات كثيرة عن هذه السياسة في الفترة المدروسة ، وبصفة خاصة اثناء حكم البايلربايات ...لانشغال هؤلاء كما رأينا بسعيهم الى احكام القبضة على كامل التراب الجزائري ، واستخلاصه من ايدي الاسبان ، وبالتالي تقوية الحكم المركزي العثماني في الجزائر ، والقضاء على الانقسامات السياسية الداخلية ، وترويض القبائل المتمردة وتدعيم وجود الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط الا انه يمكن حصر مؤثرات الحكم العثماني في الاقتصاد الجزائري بالنقاط الثلاث الآتية :

١- سعي الدولة لضمان مواردها من الضرائب ، المفروضة على الارض والزراعة ، وتربية المواشي ، والصناعة ، والتجارة ، ومختلف الفعاليات الاقتصادية (1) . ومن ثم اوجدت جهازا ماليا واسعا ودقيقا ، سمح له للنفوذ الى مختلف الفعاليات ، ومعرفة انتاجها لتحصل على نصيبها منها (2) .

... هذا في الوقت الذي لم تعر التفاتا خاصا الى مايلزم من الاجراءات للارتقاء بها أو التجديد في ميادينها لزيادة مردودها . فلم يؤثر عنها مثلا انها أبدت اهتماما بوسائل الري في الزراعة او في تطوير زراعة بعض المنتوجات ، كما فعل السعديون مثلا بقصب السكر في المغرب .

وفي الواقع لقد ترك الحكم العثماني في الجزائر ، جميع الفعاليات الاقتصادية السابقة تتابع سيرها كالماضي - كما أسلفنا القول - الا انه بالمقابل لم يقف في وجه المبادرات الخاصة ، بل يمكن القول انه قد اسهم بطريقة غير مباشرة في بعض التطوير الزراعي عندما أقطع الاندلسيين المهاجرين ارضا ، في البليدة وغيرها وافسح المجال لخبرتهم الزراعية

---

(1) انظر عن موارد حكومة الجزائر العثمانية هايد والطبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٦٩ - ٤٧١ ومرسي المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٦ - ١٣٧

(2) انظر عن الجهاز الاداري والمالي للجزائر في العهد العثماني : دوفولكس : تشريفات الجزائر ١٨٥٢ ص ١٩ - ٢٢ وهايد و المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٦٨ - ٤٧٠ ومرسي المرجع السابق ج٣ ص ١٣٤ - ١٣٦ .

التي تمطي اكلها ، كما اشير سالفا . وكذلك عندما اوجد نظام قبائل المخزن الذي يشبه في بعض سماته النظام الاقطاعي العثماني الذي طبق في بعض البلاد العربية المشرقيـــة كبلاد الشام مثلا . الا ان اغلب الذين اقطعوا الارض هنا ليستغلوها زراعيا كانوا مـــن القبائل الجزائرية المحلية ، لاعناصر غريبة عن البلاد الا مانذر . وقد اناطت الدولة بهؤلاء اعمالا ادارية وعسكرية مقابل استغلالهم الارض ، واعفائهم من الضرائب ، كحفظ الامـن والمشاركة في الحرب . فهذا النظام كان عاملا مما عدا على تثبيت بعض القبائل البدويـة على الارض ، وتحولها الى الزراعة تدريجيا ، مما افسح المجال مدنيا للزيادة الرقعـة الزراعية ، والعاملين فيها . الا ان الاعمال العسكرية التي كلف بها فرسان هذه القبائل كانت في الواقع عائقا امام سرعة ذلك التحول ، وامام تحسين طرق استغلال الارض ، وتطوير المعارف الفلاحية . ومن ثم ، فان هذا النظام لم يعط النتائج الايجابية التي كان مـــن الممكن ان يعطيها لو كان الهدف منه فقط استقرار القبائل على الارض وتوجيهها للعمـل الزراعي ومايرافقه من فعاليات فحسب . ولذا بقيت السهول الوهرانية مثلا التي اقطع ٧٨٪ من مساحتها لعشائر القبائل المخزنية ذات انتاج زراعي ضعيف (١) .

واذا كان هذا النظام قد اوجد في الاساس لتثبيت الحكم العثماني على الارض الجزائرية ، وبسط سيادته على المواقع الاستراتيجية ، وعلى الريف الجزائري عموما ، وضمان الامن والاستقرار ، وهما ضروريان عادة للانتعاش الاقتصادي ، فانه استغل في عهد الباشوات بصفة خاصة لصالحهم على حساب الرعية اي ان عددا من الباشوات استخدم القوة المخزنية العسكرية لتكون اداة ضغط على الاهالي في جباية الضرائب في الارياف ، والتشديد عليهم فيها ، وبأكثر من المقرر ، ليعوض اولئك الباشوات ، وقد اصبحوا يعينون لمـدة ثلاث سنوات فقط ، ماكانوا قد انفقوه ثمنا لمنصبهم .

وفي ميدان الصناعة بقي الوضع كما هو ، كما اشير سابقا مع بعض نشاط في صناعة السفن والاسلحة مضافا الى ماكان الاندلسيون قد جددوا فيه ، وكان لاهم للحكم سوى ان يستوفي من ثمن البلد مايسلمه له امناء نقابات الحرف المختلفة في المدن .

اما في ميدان التجارة فيبدو ان اهتمامها كا _ اكبر بها . وبصفة خاصة الخارجية منها ، اذ ان توارد الجمارك كانت تؤلف قسما هاما من موارد الدولة . واذا صدقنا مارسول فموارد الجمارك كان يعادل موارد كل المملكة ، (٢) فكل البضائع ، وحتى النقد الواردة من البلاد الاسلامية او الاوربية كانت تخضع لدفع رسوم الجمرك ، ويقدرها مارسول وهايدو ١١٪ (٣) . ناهيك عن المكوس وهي الرسوم التي كانت تؤخذ على جميع السلع

---

(١)(سعيدوني) ناصر الدين : دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي في الجزائر / في / مجلة الاصالة الجزائر العدد ٣٢ ١٩٧٦ ص ٤٦ - ٦٢ - و وضعية عشائر المخزن الاجتماعية في المجلة التاريخية المغرب عدد ٧-٨ تونس ١٩٧٧

(٢) مارسول : المرجع السابق ج٢ ص ٤٠١

(٣) هايدو : المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٧١

وهي الرسوم التي كانت تؤخذ على جميع السلع التي تدخل الاسواق الداخلية ، ولا يعفى منها احد سوى الانكشارية وفرسان المخزن الصبائحيين (1) . ولهذا شجع الحكم العثماني التجارة مع الدول الاوربية التي كانت تتردد سفنها على موانئ عنابة وتنس ، ومستغانم وارزيو ، وعامله على شواطئها بحيث اخضع دخول السفن التجارية الى عدولها المسبق على رخصة للدخول وجعل مدينة الجزائر هي المركز الرئيسي لهذه التجارة ليتسنى له مراقبتها ومنح الفرنسيين الذين كانت قد وقعت معهم اتفاقية الامتيازات حق اقامة مراكز تجارية (2) لما تستفيده من الرسوم الجمركية ، ولما يحصل عليه العاملون دون الشعب من ارباح متنوعة . وقد طبق الحكم العثماني عن الجزائر نظامه في عدم السماح بتصدير بعض السلع كالقمح ، والزيت ، والعسل ، والشمع والصوف ، وبخاصة الى البلاد الاوربية ، الا باذن خاص . واذا كان الهدف الاول والاساسي من هذا الحظر ، تأمين الاستهلاك المحلي ولا سيما في الاغذية ، فانه تحول في الواقع الى احتكار السلطات لبيع مثل هذه السلع (3) والاتجار فيها ، والحصول على المكاسب الخاصة دون غيرها ، ولاسيما ان اقبال الدول الاوربية عليها كان كبيرا .

وهكذا استمرت التجارة الداخلية ايام الحكم العثماني تعاني كثيرا من العوائق السابقة كقلة الطرق وتقلص الامن فيها ، وعدم تطور وسائل النقل ، وتدهور العديد من المراكز التجارية القديمة كتلمسان وبسكره وغيرها . وانحصرت التجارة الخارجية للجزائر في العاصمة ، بعد ان كانت كل المدن الساحلية ، وحتى بعض المدن الداخلية كقسنطينة وتلمسان مراكز غنية ونشيطة في ميدانها . وفي الواقع غطى الغزو البحري الذى اهتم به الحكم العثماني بدعمه وتشجيعه ، على النشاط التجاري ، والفعاليات الاخرى .

٢ـ تشجيع الغزو البحري حتى غدا في القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين صنعة قائمة بذاتها ، لها ورشاتها الخاصة ، واختصاصيوها ، وعمالها ، ولم يكن هدف الدولة من هذا التشجيع ، دعم الاقتصاد الجزائري بخصائصه بقدر ما كان حصولها على نصيبها من تلك الغنائم من سلع، ونقود ، واسرى ،

وهذا النصيب كان يتراوح بين الخمس والسبع مدفقها (4) . ويضاف اليه ايضا نصيب آخر

---

(1) هايدو : المرجع السابق عدد 84 ص 502

(2) انظر عن علاقات هذه المدن مع الدول الاوربية : بريمودان التجارة

(3) هايدو : طبوغرافيا عدد ٩٠ ص ٤٧١ وعدد ٨٨ ص ٣١٠ ومحمد خير فارس المرجع السابق ص ١٠١

(4) هايدو : المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٧٠ ، ٤٧١

نتيجة مما سمتها في توفير السفن والتموين بالبسكويت (البقسماط) ، والسمن والعسل والارز والزيتون وتقديم جهاز التجذيف من البشر او جزئين منه اذا كان المجذفون يؤخذون عادة من الاسرى النصارى المودعين في سجن الدولة (1) ،

٣ـ ربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد العثماني ، مما فتح مجالات ارسع للنشاط التجاري الجزائري مع المشرق الاسلامي ، ولاسيما من مصر ، وبلاد الدولة العثمانية في آسيا الصغرى واوربا الشرقية . وقد تزايدت هذه الصلة بصفة خاصة بعد سنة ١٥٧٤ ، اى بعد ضم الدولة العثمانية بتونس ، وطرد اسبانيا منها . لكن بالمقابل كان لهذا الارتباط سلبية ايضا ، اذ ان كل ما كانت تتأثر به الامبراطورية العثمانية في المشرق ظروف مناخية ، اوسياسية ، اواجتماعية ، و[illegible] م[illegible] من تدهور في الاوضاع الاقتصادية ، كان ينعكس بطريقة او باخرى ، [illegible] او بقوة ، على الاقتصاد الجزائري .

وهكذا يتضح أن الحكم العثماني [illegible] جزائر ، [illegible] الحقبة المدروسة ، قد ربط بطريق مباشر وغير مباشر الاقتصاد الجزائري با[illegible]ـاد العثماني وشدد قبضته عليه بالضرائب ، والاحتكار ، ليتنال مبتغاه المادى منه دون أن يقدم له بالمقابل دفعا اوحوافز لتنشيطه فظل متكاملا واقرب الى الضعف ، على الرغم مما قد يتركه بريق النهضة الاقتصادية في الجزائر العاصمة من وهم بأن الاقتصاد الجزائري بمجموعه كان بهذا الازدهار والرخاء . كما استمرت العوامل السلبية المشار اليها آنفا تعمل فعلها .

ب ـ السياسة الاقتصادية للسعديين في المغرب اذا كان الحكم العثماني لم يسع جادا لاخراج الاقتصاد الجزائري من الوهن الذى كان فيه سابقا بوضع حد لتأثير العوامل السلبية في ، فان السعديين حكام المغرب تمكنوا شيئا فشيئا من توفير الشروط الضرورية للارتقاء به ، وفي مقدمتها :

١ـ توفير الامن والاستقرار الضروريين لاى تحسن في الاوضاع الاقتصادية : وقد نجحوا في تحقيق هذا الشرط خلال القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى عن طريق
- العمل على وقف حملات النهب والسلب والقتل ، البرتغالية والاسبانية على المناطق الداخلية ، تلك الحملات التي كانت تصل في مداها الى نحو مئة .. كلم في اعماق المغرب الداخلي (٢)
- العمل على توحيد اجزاء المغرب تحت سلطة مركزية واحدة وعلى اخضاع القبائل التي كانت تهدد امن السكان ، وتعيقهم عن مباشرة نشاطاتهم الاقتصادية بالعنف تارة وباللين والاستمالة اخرى .

(١) هايدو : الطبوغرافيا . عدد ٩٠ ، ص ٤٧٠ - ٤٧١
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .

٢- فك الحصار الاقتصادي الذي فرضه البرتغاليون والاسبان على المغرب . حينما تمكنوا من احتلال بعض شواطئه الساحلية تقريبا ، الاطلسية والمتوسطة ، وحالوا بذلك بينه وبين بقية الدول الاوربية ، وذلك بالعمل على تحرير العديد من المواقع الساحلية مثل اغادير وآسفي وغيرها ، وغدت بعد تحريرها مراكز هامة للمبادلات الاقتصادية بين المغرب والدول الاوربية ...

٣- الاهتمام بالزراعة : ولاسيما زراعة قصب السكر التي اولاها اوائل السعديين اهتماما كبيرا فاستكثروا من زراعته حتى ((عم الاغتراس بالقصب الاوطان)) [١] . وكثر انتاج السكر حتى لم تعد له قيمة في المغرب [٢] ، بينما كثر اقبال التجار الاوربيين على شرائـــــه لجودته ورخصه [٣] ، بحيث اصبح موردا هاما للدولة [٤] ، يشكل ثلث مدخولهـــا [٥] اذ كانت معظم حقول السكر ومعامله في مقاطعتي السوس ومراكش بيد الاشراف السعديين [٦] ولم يقف اهتمام هؤلاء بالزراعة عند هذا الحد فقد حرص اوائلهم على استغلال امكانيات المغرب الزراعية وعلى زراعة أراضيه ، فقاموا باقطاع المهاجرين الاندلسيين أراضـــي فسيحة غرسها هؤلاء بمختلف انواع الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره وحولوها الى بساتين ذات انتاج وفير ((وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهـــم واعتاضهم مما فاتهم به ...)) [٧] كما قاموا بتوزيع الاراضي الزراعية على القبائل لزراعتها والزموا بعض القبائل الرحل في البادية على الاشتغال بالزراعة واجروا لها ما يكفيها ، وهذا على الخصوص في عهد المنصور [٨] ، كما قاموا ايضا بشق المجاري المائية لري الاراضـــي في اماكن مختلفة في المغرب ، في السوس ومراكش وغيرهما من المناطق ، واقاموا علـــى ضفافها الارحية المائية والمعاصر للسكر . [٩]

---

(١) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٠
(٢) الافراني : النزهة ص ٦١
(٣) ويليس : / المرجع السابق ص ١٦٦ و م.م.ت.م انكلترا ج١ (المقدمة ص ٥)
(٤) كان مدخول السكر في عهد محمد الشيخ ٧٥٠٠ مثقال سنويا (ويليس : ص ١٦٦)
اما مدخول المنصور من السكر ف... ألف اونسه انظر م.م.ت.م فرنسا ج١ ص ٣٠٣ وهامش ٥)
(٥) ماريتني وآخرون المرجع السابق ص ١٧٨
(٦) الفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠٣ وحسبه كان الاشراف السعديون يؤجرونها لقاء مبلغ معين عن كل سنة لطائفة من أهل الذمة
(٧) نفسه : ص ٢٠٤
(٨) كريم : المرجع السابق ص ٢٥٤ نقلا عن ابن القاضي : المنتقى المقصور وانظر الفشتالي المرجع السابق ص ١١
(٩) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٨ - ٢٩ ، ٦١

٤ـ الاهتمام بالصناعة : ولا سيما صناعة السكر التي مانفكوا يستكثرون منها ويطورونها (١) ، وفق آخر الاساليب والطرق التي توصل اليها المنافسة (٢)مستخدمين الخبرة المحلية والخارجية من مغاربة واندلسيين واعلاج ، ويهود ونصارى (٣)وصناعة الاسلحة المختلفة من مدافع وبنادق وسيوف ورماح وقسي ، وذخيرة ، لحاجتهم الملحة لها في حروبهم الداخلية والخارجية وقد نشأوا لهذا الغرض عدة مصانع في مراكش وفاس وتارودانت (٤) ، واستخدموا ايضا في ادارة هذه المصانع وانتاج مختلف الاسلحة العنصر المحلي والاندلسي وغيرة بعض الاتراك العثمانيين (٥) ، والاعلاج ، واستخدموا المستعبدين يدا عاملة فيها وانتجوا اول مدافعهم من نحاس منجم تنزيره الذي تم اكتشافه في ١٥٢٩ ، وفي نفس الفترة وانتجوا ايضا اولى الكور المدفعية من حديد جزوله (٦) ، ثم غصت مخازنهم بانتاج المدافع والاسلحة المختلفة والذخيرة ، ومع ذلك كان السعديون لا ينفكون يستوردون الاسلحة والذخيرة من اوربا وكان بعض ملوكهم مثل عبد الملك عارفا بصناعة الاسلحة ويباشر الامور نفسه (٧) . ونالت صناعة السفن ايضا اهتمام السلاطين السعديين الاوائل وخاصة منهم عبد الملك (٨) ، الآنف الذكر واحمد المنصور (٩) ، وكانت المراسي وسلا (١٠) ، من اهم مراكز صناعة السفن في عهد المنصور السعدي بعد ان فقدت بادس مركزها كواحدة من اهم مراكزها بعدما احتل الاسبان صخور بادس في ٩٧٢ هـ/١٥٦٤م

واولى السعديون الاوائل اهتماما غير قليل باستخراج المعادن ، واستغلال قسم منها في صناعة الادوات والاواني ولاسيما في صناعة الاسلحة كما ذكرنا ، وتصدير قسم آخر الى الدول الاوربية. ومن المعادن التي كانوا يستخرجونها عدا النحاس والحديد ، هناك ملح البارود الذي كان يستخرج من مواطن عديدة في المغرب ، ويصنع الكثير منه محليا ، وتصدر كمية منه الى الدول الاوربية المعادية للمغرب كانكلترا (١١) ، وفرنسا ، واحيانا الى الجزائر والدولة العثمانية .

اما صناعة الذهب فقد حظيت باهتمام كبير ، ولا سيما من المنصور الذي كان بباب ((اربعة عشر مئة مطرقة تضرب كل يوم الدينار غير ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي ، وشبه ذلك ...)) (١٢) ، اذ كان يتدفق على المنصور المذكور ذهب كثير من السودان ولا سيما بعد استيلاء قواته عليه في سنة ١٥٩١ م . وجر اهتمام السعديين الاوائل بالصناعة الى الاهتمام بالمخترعات الجديدة والسعي الى استقدام المهرة من الصناع ، مع استغلال خبرة العناصر المختلفة في المغرب . (١٣) .

---

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٢٠٩
(٢) م.م.ت.م : انكلترا : ص٤ (المقدمة)
(٣) مارمول : المرجع السابق جـ٢ ص٣١
(٤) نفسه : ص ٢٦، ٢٧ و اندرزاج الجيش والاسطول في المرجع السابق ص٧١
(٥)(٦) مارمول : المرجع السابق جـ٢ ص٢٧ و ٥٦
(٧)(٨) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص٥٣ و اندرزاج : المرجع السابق ص٩٢ ، والفشتالي : مناهل الصفا ص٢٠٤
(٩) م.م.ت.م : انكلترا جـ ص
(١٠) اندرزاج : المرجع السابق ص٩٣
(١١) م.م.ت.م : انكلترا جـ١ ص٧–٨ (المقدمة)
(١٢) الافراني : النزهة ص٩٥
(١٣) [illegible]

هـ- الاهتمام بالتجارة الداخلية والخارجية : وقد ظهر هذا الاهتمام كما رأينا في حرصهم على توفير الأمن في داخل المغرب ، ومن ثم في طرقه واسواقه ، وفي ايجاد المنافذ البحرية الجديدة في وجه التجارة الخارجية من اوربا ، وظهر كذلك في ترحيب اوائل السعديين بمن كان يأتيهم من التجار الاوربيين ، ومعاملتهم لهم معاملة حسنة . مما كان له الاثر الطيب ، فاقبل التجار الانكليز وغيرهم بكثرة على الاتجار في المغرب . (1) . كما تجلى اهتمامهم بالتجارة الخارجية ، ولا سيما مع بلاد السودان في سعيهم المبكر الى التحكم في محاور التجارة بين هذه الاخيرة والبلدان الواقعة شمال الصحراء عن طريق مد نفوذهم الى توات في ٩٣٢ / ١٥٢٦ التي كانت تتحكم في توجيه محاور التجارة ، وحركة القوافل التجارية بين المنطقتين المذكورتين . ثم في محاربتهم للمنافسة البرتغالية للتجارة المغربية مع بلاد السودان ، فقد نوا بذلك السعديون محطة على ودان في سنة ٩٥٠ / ١٥٤٣م ، التي نجح البرتغاليون في استمالة شيخها الى التجارة معهم عن طريق مركزهم في آرجين ، فاحتلوا المدينة المذكورة في سنة ١٥٤٣ وشكروا منذ ذلك الوقت بجد في احتلال بلاد السودان نفسها للقضاء بصفة جذرية على المنافسة ، ولاستغلال خيرات هذه البلاد الوفيرة . وهو ما تحقق في عهد المنصور في سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ - ١٥٩١م ، فأخذ ذهب السودان وخيراتهم الاخرى في التدفق على المغرب ...

وبفضل هذه الجهود الهامة التي قام بها اوائل السعديين في حقل التجارة ، وتشجيعهم لها نشطت تجارة المغرب الداخلية ، وازدهرت مراكز تجارية عديدة فيه ، مثل تارودانت وفاس ، وتطوان ، ومراكش ، بعد ان كان يصيبها الخراب ، وآسفي ، وسجلماسة وغيرها . كما نشطت تجارة المغرب الخارجية ولا سيما مع الدول الاوربية مثل انكلترا التي اسست في سنة ١٥٨٥م الشركة البربرية خصيصا لتنظيم تجارتها مع المغرب ، بعد ان توسعت هذه التجارة ومنحتها حق الاحتكار لمدة ١٢ سنة ،(2) وفرنسا ، ثم هولندا ، ابتداء من اواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . (3) .

وكانت اهم صادرات المغرب الى الدول الاوربية : السكر والتمر ، والشمع والجلود ، وبعض المعادن ، كالنحاس ، وملح البارود ، والذهب ، الذي كان يهرب تهريبا ، والحبوب والسياه . (4) . بينما كانت اهم وارداته منها : الاسلحة والاقمشة المختلفة ، والحديد المصنع ، وغيرها . وكانت اهم واردات المغرب من بلاد السودان هي الذهب ، والعبيد ، مقابل صادراته التي كانت تتمثل في المنسوجات ، والمصنوعات النحاسية والحديدية ، والخيل والتمر ، والحبوب ، والكتب .

اما اهم صادرات المغرب الى الجزائر ووارداته منها فسيأتي الحديث عنها مفصلا بعد قليل

---

(1) طوريس : المرجع السابق ص ٦٦ و مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩

(2)(3) انظر فصل الحياة السياسية والعلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب .

(4) انظر عن صادرات المغرب الى اوربا ووارداته منها م.م.ت.م : انكلترا ج١ (المقدمة)

وهكذا يمكن القول ان اوائل السعديين قد اجتهدوا في توفير الشروط الضرورية للنهوض بالاقتصاد المغربي وازدهاره وتمكنوا من تحقيقها ، وكان يمكن للحياة الاقتصادية في المغرب ان تمضي قدما الى الامام لو ان اواخر السعديين حافظوا عليها ، ولكنهم لم يفعلوا فعاد المغرب في عهدهم الى التجزؤ والاضطراب وشهد تجدد الاطماع الخارجية فيه ، والمنافسة الدولية له في السودان . كما تجددت الكوارث الطبيعية والاوبئة ، وكادت تتصل وتستمر دون انقطاع وهذه كلها عوامل ليس من شأنها ان تحافظ على ازدهار الاقتصاد المغربي او تطويره . ولم تستطع اى من القوى السياسية التي قامت في المغرب خلال الثلثين الاولين من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ، كالسملاليين في الجنوب المغربي والدلائيين في الشمال والوسط المغربي ، الخروج بالمغرب من المأزق الذى آل اليه في مختلف جوانبه ، الى ان نهض بذلك الاشراف العلويون في الحقبة التالية للفترة موضوع البحث .

وفي هذه الاثناء كانت الدول الاوربية المجاورة للمغرب وغير المجاورة له قد مضت قدما الى الامام في ثورتها الاقتصادية مما كان له الاثر الاتي بيانه .

الثورة الاقتصادية الاوربيـــــــــــــــــة :

لقد أوجدت الكشوف الجغرافية آفاقا جديدة لاوربا ، فاندفعت دولها المكونة حديثا بكل امكاناتها رجالا قاتها التجارية ، لاستكشافها ، واستثمارها لصالحها ، ولم تكن تلـــك الآفاق هي القارة الجديدة فحسب بل سعت الى كل اجزاء العالم المتعدية متفاوتا . ومن كـــل القليل وبالرغم من ضعف القيمة التجارية للبحر المتوسط نتيجة تلك الكشوف فان الوثائق اثبتـــت انه ظل محافظا على قسط كبير من قيمته هذه (1). ولا ادل على ذلك من تهافت الدول الاوربية على الاتجار مع البلاد القائمة على سواطئه الجنوبية والشرقية التي توصلها الى اعماق افريقيا وآسيا (٢) على الرغم من اختلافها معها في الدين ، والسياسة ، وعلى الرغم من العداوات السابقة والراهنـــة . وفي هذا التهافت دخلت دول اوربية جديدة الى ساح التجارة فيه لم تكن سابقا من الدول المتاجرة في عرضه ، ومن هذه الدول انكلترا وهولندا (٣) .

ومع ان اثر هاتين الدولتين قد لا يكون كبيرا في تجارة البلدين الجزائر والمغرب ، ومن ثم في اقتصادهما ، الا انهما وبصفة خاصة انكلترا في المغرب التي كونت الشركة البربرية للاتجار معه في ١٥٨٥ ، ومنحتها حق احتكارها لمدة ١٢ سنة ، كانتا عنصرا جديدا في التجارة ، وابعادها بل يمكن القول بصفة عامة ان التجارة الاوربية باساليبها الحديثة وبمقوماتها المختلفة اخذت تدس انفها في هذين البلدين ، كما فعلت في اجزاء العالم الاخرى ، وتستثمر امكاناتهما

---

(١) بروديل : المتوسط وعالمه المتوسطي
(٢) على الرغم من العداء بين البلدين الجزائر والمغرب من جهة واسبانيا والبرتغال من جهة اخرى فقد كان بين البلدين الاولين والبلدين الاخيرين علاقات تجارية انظر هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص٥٣ و :

Ricard(R.):Le Commerce de la Barbarie et l'Empire Portugais. in A.I.E.O. Paris 1936.

(٣) انظر عن تجارة انكلترا وهولندا مع المغرب : م.م.ت.م انكلترا ج١ (المقدمة) و م.م.ت.م هولندا.

Denice: L'Afrique au 16o.Siècle et le Commerce Anversois. ANVERS 1937.

Caille(R.):Le Commerce de l'Angleterre avec le Maroc;Pendant la Seconde Moitié du 16º Siècle. ALGER 1940. (in R. A.)

الاقتصادية لبلادهما ، وقد يكون من اهمها استيراد المواد الخام كالاصواف والجلود ، والمواد
المعدنية ، وتصدير المواد المصنوعة لهما ، وبذلك وضعت نفسها في موقع المنافس القوى للصناعة
الوطنية (١) ، التي اخذت تفقد مقوماتها من المواد الخام المحلية التي كانت الدول الاوروبية
تحصل عليها بطريقة مشروعة او غير مشروعة ، كما شرعت تفقد تدريجيا سوقها الداخلية ذاتها
بالك بالسوق الخارجية . اذ ان اوربا شرعت تدريجيا تطور صناعتها تطبيقا للنظام المركنتيلي
الذى اتبعته ، وتأتي بالمواد الخام الضرورية لها من كل ركن في العالم .

فالتجارة الاوربية ، اذا كانت قد حملت للبلدين في هذه المرحلة رسوما جمركية سدت
ثغرة في موارد خزينتهما ، وأفادت بعض الفئات المتاجرة مع الاوربيين من الحكام والسكان وبخاصة
اليهود . الا انها في واقعها العميق كانت ذات اثر سلبي في اقتصاد البلدين وبصفة خاصة
عندما شرعت الدول الاوربية تنضب من البلاد النقد الفضي والذهبي عن طريق زيادة صادرها
اليها والاقلال من وارداتها منها ، هذا بالاضافة الى الاتجار بنقدها . فمن المعروف اقبال
السكان في الجزائر بصفة خاصة على النقد الاوربي بانواعه ، وقد ساعد تدهور سعر الأقجة
العثمانية وانخفاضها ، الى ارتفاع سعر النقد الاوربي بالنسبة اليها ، وبذلك كان الاوربيون
يحققون ارباحا كبيرة . وقد يكون منع المنصور السعدى اخراج نقده الذهبي من المغرب نتيجة
لما رآه من افتقاد البلاد نقدها ، وتسربه الى اوربا .

بل انه منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر للميلادى شرعت
بعض الدول ومنها فرنسا لتصدير نقد مزيف . (٢) .

ويجب الا نغفل في هذا المجال سعي بعض الدول الاوربية لاحتكار انتاج بعض السلع
الهامة وقد سعت فرنسا للحصول على امتياز استثمار المرجان في الجزائر . وكانت له سوق هامة
في اوربا وان لا نغفل اثرها السلبي الذى لا يظهر فقط في غزو اسواق الجزائر والمغرب وبلاد
السودان ، بالبضائع المصنعة مما ساهم في جعل الصناعة المحلية فيهما لا تنمو ولا تتطور بشكل
يمكنها من الوقوف امام الصناعة الاوربية والمنافسة التجارية في الداخل والخارج ، ولكن ايضا
في استنزاف العملة الذهبية فيهما اذ كان التجار الاوربيون كما ذكرنا وبصفة خاصة التجار الانكليز ،
والهولنديون ، والفرنسيون يؤثرون البيع نقدا على البيع بالمقايضة ، وتمكنوا عن طريق البيع
والتهريب من تحويل كميات كبيرة من الذهب ، ولا سيما من عملة المغرب التي كانت في عهد المنصور
من الذهب الخالص ، على الرغم من القيود التي وضعها هذا الاخير حول خروج العملة الذهبية
من المغرب .

---

(١) كانت الأقمشة الانكليزية في كل من الجزائر والمغرب مفضلة على الاقمشة المصنوعة محليا في البلدين . وكان علية القوم في المغرب يتخذون لباسهم من الاقمشة الانكليزية ذات اللون الازرق . انظر م. ت. م : انكلترا جـ١ ص ٢٦٧
(٢) انظر حول تزييف النقد وادخاله الى الامبراطورية العثمانية :
Montran(R.):Istanbul dans la Seconde Moitié du 17e Siècle,
Paris 1962, P.P.263-264.
Paris(R.):Histoire du Commerce de Marseille dans le Levant,
Paris 1957 t.5 P.131

الامر الذى كان له اثره السيئ على هذا البلد ، ولاسيما بعد ان قل وصول الذهب اليه من السودان في النصف الاول من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر للميلاد ، فعجز حكامه من تجهيز الجيوش لقلة المال . ومن ثم عجزوا عن توفير الامن والاستقرار في المغرب ، مما من الظروف الضرورية لتحسين الاوضاع الاقتصادية ، في حين مضت اوربا في تطوير اقتصادها وتحسين انتاجها وغزو الاسواق المختلفة به وتحقيق ارباح وفوائد كبيرة ، ولا ادل على الفوائد الكبيرة التي كان يحصل عليها الاوربيون من التجارة في البلدين في انتاجهم الصناعي المتنوع المتزايد من اصرارهم على المضي في التجارة مع الجزائر والمغرب ، على الرغم من الاخطار التي كانت تهدد سفنهم من غزاة البحر الجزائريين والمغاربة الذين كانوا لا يعبؤون كثيرا بالاتفاقيات التجارية التي تعقدها الدول الاوربية مع حكومتي البلدين ، هؤلاء الغزاة الذين كانوا في واقع الامر يعدلون من خسائر الميزان التجاري للبلدين مع الدول الاوربية .

ومما ذكر سابقا عن العوامل المؤثرة في الاقتصادين الجزائري والمغربي .... ن شـ..ـم في العـ....ـلاقات الاقتـ....ـادية بين البلدين خـ.....ـلال مرحلـ.....ـة

..دراسة ، يتبين ان الاقتصادين بقيا ، على الرغم من المؤثرات الجديدة الهامة الطارئة على ..بيتيهما ، وبعضها ايجابي ، لم يستطيعا ان يتخلصا نهائيا من العوامل السلبية وان يصلا الى ازدهار مستقر . فالاقتصاد الجزائري شاهد بعض التحسن خلال الحكم العثماني ، ..زدياد اليد العاملة الفنية لهجرة الاندلسيين ، ولمراقبة الدولة للانتاج ، وتوفير بعض الامن ، وتشجيع الغزو البحرى ، والتجارة الاوربية ، وكذلك في المغرب خلال حكم المنصور السعدى ، ..لا ان هذا التحسن بقي سطحيا ومؤقتا ، لان العوامل المناخية والكوارث الطبيعية وغيرها ، ..الاضطرابات السياسية الداخلية والخارجية ، بقيت عاملا اقوى يشد الاقتصاد نحو الضعف : ..الجفاف يتناوب على البلدين ويحمل معه القحط والمجاعة ، والجراد ، والوباء ، والصراعات ..الداخلية تهلك العاملين في الفعاليات المختلفة ، وتستنزف الطاقات المالية والبشرية ، ..تعرقل النمو الاقتصادى ، ناهيك عن الصراعات الخارجية . وجاءت الدول الاوربية بدورها ..تكون عاملا جديدا مؤثرا في مظهره الخارجي للاقتصادين ، الا انه كما رأينا كان في الواقع ..فقرا لهما .

وقد كان لمجموع العوامل المؤثرة في الحياتين الاقتصاديتين لكل من الجزائر والمغرب انعكاسها على العلاقات الاقتصادية بين البلدين كما سنرى في الفصل التالي :

الفصل الثامن

مظاهر العلاقات الاقتصادية

ا كانت المصادر قد مكنتنا من تقديم صورة عن مجموع العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية
ن من الجزائر والمغرب خلال المرحلة المدروسة،فاننا لا نملك الآ ان نقول منذ البداية
باحث في العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في الفترة ٥١٧ -، ١٦٥ لا تشبع نهمه
در المتوفرة،ولا يجد ضالته فيها ،اذ ان الوثائق الرسمية غير متوافرة في هذا الميدان،
التاريخ والرحلات رغم ما تحتويه بين دفتيها من معلومات ثمينة واشارات عديدة حول الموضوع،
لا تمكن الباحث فيها من ان يكون فكرة كاملة عن مختلف جوانبه ،ولا سيما ان اكتفى بالمصادر
مية،واستغنى عن المصادر الغربية .

كن يمكن القول دون افتئات على الحقيقة،انه بحكم واقع الجوار،والروابط البشرية الواحدة بين
ين ،والصلات التاريخية الماضية ،فقد كانت هنالك دوما علاقات اقتصادية بين البلدين .
ه العلاقات كانت تقوى على الخصوص حين يتمكن حكام المغرب من فرض سيطرتهم على
ين،او مد نفوذهم على الجزائر كلها،او على القطاع الغربي منها فقط،كما حدث في عهد
حدين الذين بسطوا نفوذهم على كل البلاد الجزائرية ،وعهد المرابطين قبلهم الذين
وا نفوذهم على النصف الغربي من الجزائر ، وعهد المرينيين الذين تمكنوا من السيطرة
نا على كل البلاد الجزائرية ،وعلى قسم منها احيانا اخرى .

ت تلك العلاقات تضعف حين تستقل الجزائر من هؤلاء واولئك ،ويكون حكامها في حالة
او عداء مع المغرب . او حين يسود الاضطراب البلدين . الا ان هذه العلاقات
صل ابدا الى القطيعة ،اذ ظلت المصادر تؤكد دوما وجود علاقات اقتصادية
البلدين، في الميدان التجاري على الخصوص، وتشير الى ما كان يجري بين المدن الجزائرية
دن المغربية ،ولا سيما القريبة من بعضها،من مبادلات في السلع كما تشير الى تنقل
جار من بلد الى آخر .

فاذا عدنا الى ما قبل عام ١٥١٧ نرى ان ابن فضل الله العمري، وهو من رجال القرن الثامن الهجري (توفي ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) الرابع عشر الميلادي، يذكر ان اهل سجلماسة كانوا يزرعون القطن والكمون، والكروية والحناء، ويصدرون منتوجاتهم الى كل بلاد المغرب والى جهات اخرى، وكذلك كان اهل درعة يفضلون بمنتوجاتهم من الكمون والكروية والنيلة (١). ونجد ان عبد الباسط بن خليل، صاحب كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، وهو من رجال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يذكر ان قافلة من تجار تلمسان وغيرها ذهبت من مدينة تلمسان الى فاس في العقد السابع من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي للاتجار هناك فيما حملته معها من بضائع، وقد باعت كل ما حملته، ويشير بهذا الصدد الى حالة الامن وانعدامه في الطريق بين الحاضرتين الكبيرتين : تلمسان وفاس، والاخطار الجسيمة التي يواجهها التجار في التنقل من حاضرة الى اخرى، بسبب تربص قطاع الطرق لهم (٢).

واكد الحسن الوزان (المعروف لدى الغربيين بليون الافريقي)، وهو من رجالات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، من جهة استمرارية المبادلات التجارية بين بعض المدن الجزائرية والمغربية في مطلع القرن المذكور كتلمسان ودرعة، وفجيج وغيرها (٣). وتذكر المصادر والمراجع ان اسرة المقري الجزائرية التلمسانية الموطن، حققت نجاحا كبيرا من تجارتها بين البلدين، وبينهما وبلاد السودان واوربا. واسست شركة تتألف من خمسة اخوة كان احدهم وهو رئيس الشركة يقيم في سجلماسة، احد المراكز التجارية الهامة في جنوب المغرب، ومحطة من محطاته الرئيسية على الطريق بين شمال افريقيا وبلاد السودان، بينما كان يقيم اثنان من اخوته في ولاتا ببلاد السودان الغربي، واثنان آخران في الموانئ المغربية، حيث كانا يقومان بتصريف البضائع السودانية، وتوفير البضائع المغربية، والاوربية المطلوبة من قبل السودانيين (٤). ومن المنتظر ان تكون لهذه الشركة فروع بوطنهم في تلمسان، ووهران لنفس الغرض. وتذكر المراجع ايضا ان آل المقري مهد والطريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تتقدم عند المسير (٥).

---

١) انظر ابن فضل الله العمري / مسالك الابصار / من مستلات مغفلة حول المغرب لفانيان ص ٧

(2)Brunschvig:Deux Récits de voyages Inédits en Afrique du Nord au 15e S. Paris 1936 P.58.

٣- الوزان : وصف افريقيا ج ٢ ص ٢٤ : وفيها يقول تباع الاقمشة الصوفية المنسوجة في فجيج باسعار غالية جدا في مدن بلاد البربر مثل تلمسان وفاس.

(4)Bovill:The Golden Trade of the Moors, P.98. ٥) انظر عن هذه الشركة اشارة من شوقي عطا الله الجمل : علاقات المغرب بالاقاليم الصحراوية في / المناهل عدد المغرب ١٩٧٧ ص ١٤٤ - ١٤٥

) الحفناوي / تعريف الخلف ج ٢ ص ١٥٥-١٥٦

وما تقدم يمكن القول بأن العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في المجال التجاري، التي كانت قائمة في عهود الاسر المغربية التي تعاقبت على الحكم في المغرب الجزائر كالمرابطين والموحدين والمرينيين استمرت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ومطلع العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (1) .

اذا ما تابعنا المسيرة في الحقبة المدروسة فقد يتوهم بعد أن تم التعرف بالأحوال السياسية في البلدين وتثبيت الاسبان في بعض المراكز الهامة في المغرب والجزائر، وما ترتب عليها من اعاقة طرق الاتصال بين البلدين، وتقويض لبعض مراكز التبادل التجاري، وبعد ان تم كذلك التعرف على العلاقات السياسية المضطربة بين البلدين، أن العلاقات الاقتصادية قد أصابها الجمود، فطالت تلك الاوضاع المضطربة في كثير من الاحيان دون قيامها أصلا، ولكن ما توافر لدينا من مصادر، وان كانت غير سخية في معلوماتها عن العلاقات الاقتصادية، يؤكد استمرار تلك العلاقات وبصفة خاصة في الميدان التجاري .

لكن اذا ما اردنا ان نتلمس كلية العلاقات الاقتصادية بين البلدين خلال هذه المرحلة فانه لابد من التساؤل عنها في جميع الميادين : الزراعي منها، وما يتصل بها من تربية المواشي، وغيرها، والصناعي، والتجاري، وفي مختلف الحقول الاخرى كصيد الاسماك، والغزو البحري.

1 - العلاقات في الميدان الزراعي : ان الوثائق ضنينة بالمعلومات جدا/ ولو ان تداخل الحدود بين البلدين في الماضي، وانتقال السكان الحر بينهما، والصلات الاجتماعية والتاريخية التي كانت قائمة بينهم تدعو الى التخمين المبدئي بوجود صلات في الميدان الزراعي وتأثير متبادل لوسائل الزراعة ووسائلها، ومنتوجاتها، بالاضافة الى انتقال عمال زراعيين بين البلدين، ولا سيما في مواسم البذار او الحصاد، وقيام ملكيات زراعية لمغاربة في الجزائر ومثلها للجزائريين في المغرب . بل اننا نملك بعض الشواهد التي تؤكد ما ذهبنا اليه نذكر منها :

- ان ابا العباس احمد الونشريسي الذي انتقل الى المغرب في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في ظروف غير عادية، اذ ذهب الى فاس ناجيا بنفسه بعد الوحشة التي وقعت بينه وبين السلطان الزياني ابي عبد الله محمد، ما لبث أن اصبح من اعيان علماء فاس، وغدا يملك في هذه الاخيرة عرصة (2) . الا اننا نجهل مساحة هذه العرصة ويبدو انه كان يشتغل فيها بنفسه اذ كان يذهب اليها كل يوم (3)، وفيها كان يقوم ايضا بتأليف كتاب المعيار (4)
المشهور .

---

(1) مارمول : المرجع السابق ص 30 - 36
(2، 3، 4) ابن عسكر : دوحة الناشر ص 37 - 38 .

٢- ان اللاجئين المغاربة من السعديين واتباعهم ،اقطعتهم الجزائر اقطاعات سخية . وجاء في وثيقة عثمانية ان عبد الملك السعدي رجا السلطان العثماني سليما الثاني منح تمار لبعض اتباعه المهاجرين معه الى الجزائر ،ومنهم احمد بن يوسف ،ومحمد ، وبيرام ،وقاسم ، فمنحهم السلطان تيمارا،قدره ثلاثة آلاف آقجة (١) ،عدا ما منح لعبد الملك واشقائه واولاد شقيقه عبد المومن بعد وفاة هذا الاخير،من التيمارات والاقطاع الخاص (٢) .

٣- اما احمد المنصور ،فقد اقطع الكاتب البارع ابا عبد الله محمدا بن عمر الشاوى المعروف بالجزائري مغارم مستغموه،مكافأة له على الهجرة مع اخيه عبد الملك ،واستثنى من ذلك اعشار الزيت فكتب له ابن عمر ابياتا ليشملها العطاء ،فأعطاها له ايضا ،فكان يجبي بالالوف من العين (٣) .

٤- ومن المنتظر ان تنتقل الخبرة في الميدان الزراعي مع المغاربة الذين كانوا ينتقلون الى الجزائر ،ومع الجزائريين الذين كانوا ينتقلون الى المغرب .

ويقدم الوزان ومارمول من جهتهما بعض الاشارات الى انتقال عمال زراعيين وغير زراعيين الى المغرب من مناطق الجنوب الغربي للجزائر للعمل هناك كبني جومي الذين كانوا ينتقلون الى فاس ونوا حيهما ثم يعودون الى مواطنهم ،برأس مال كانوا يستثمرونه في التجارة كأن يشتروا به الخيول ثم يبيعونها للمتوجهين الى بلاد السودان (٤) .

ولكنه رغم انتقال الخبرة في الميدان الزراعي مع العمال والملاكين من بلد الى آخر،وربما ايضا بعض المزروعات ،فانه يلاحظ ان كل بلد ظل يختص ببعض المنتوجات الزراعية ،فالجزائريون لم يحاولوا نقل زراعة قصب السكر مثلا التي لايشتهر بها اقليم السوس بجنوب المغرب او زراعة النيلة التي كان يشتهر بها اقليم درعه ،فظلت الجزائر بلدا مستوردا لهاتين المادتين من المغرب .

والمغاربة لم ينقلوا فيما يبدو زراعة العناب التي كان يشتهر بها اقليم عنابة في الجزائر .

وقد يكونون حاولوا ،ولكن محاولتهم اخفقت ،علما ان كلا البلدين يتوفر في اقاليمه على المناطق الملائمة لزراعة ما كان ينقصه من المحاصيل النباتية المتوافرة في البلد المجاور .

وفيما يتعلق بميدان تربية المواشي، والصناعات المختلفة،وتربية النحل ودودة القز وغير ذلك من الحقول الاقتصادية المتفرعة او المتصلة بالميدان الزراعي ،فلم نجد في المصادر الموجودة بين ايدينا ما ينفي قيام صلات بين المشتغلين في تلك الحقول الاقتصادية ،ولا ما يؤكدها .
وان كنا نعتقد اعتقادا قويا في قيام صلات واحتكاكات بين المشتغلين في مختلف ميادين النشاط الاقتصادي في كلا البلدين ولا سيما المناطق المتجاورة كبادية تلمسان مع شرق المغرب مثلا

---

١) مهمة دفتري رقم ٢٥ ،ص ٣٤٢ ،حكم رقم ١٣١٣ بتاريخ ٢٧/٨/٩٨٢ هـ
٢) مهمة دفتري رقم ٨ (ص ١٥) حكم رقم ٢٥ بتاريخ ٢٧/١/٩٧٦ هـ
٣) الافراني : النزهة ص ١٢٥ نقلا عن : المنتقى المقصور لابن القاضي
٤) انظر الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٣ ،مارمول : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٦ وغيرها

بحيث نتج عنها ذلك التجانس الكبير في انواع الحيوانات السائدة في كلا البلدين ، كما يستخلص ذلك من اوصاف الوزان ، ومارمول وغيرهما لها، في الانماط والطرائق المتبعة في تربية الماشية ، والنسل ، وزراعة القز والصيد البحري ، يجعلنا نعتقد اعتقادا قويا في قيام صلات واحتكاك بين المشتغلين في الحقول الاقتصادية بالقطرين المذكورين .

اما الغزو البحري الذي كان من الفعاليات الاقتصادية الهامة في كلا البلدين في هذه الفترة موضوع الدرس ، فقد كان التعاون فيه بين غزاة الجزائر وغزاة المغرب قائما ، ومؤكدا : حيث كان غزاة الجزائر وغزاة تطوان في المغرب او غزاة سلا ، في المغرب ايضا يخرجون سوية للغزو البحري، ويتبادلون الخبرة في هذا الصدد . وكان غزاة الجزائر يجدون في موانئ الشمال المغربي، المتوسطية والاطلسية ، ليس فقط المأوى والملجأ ان اضطروا الى ذلك ، ولكن ايضا السوق التجارية لصرف بضائعهم، والسوق التي يتموّنون منها بما يلزمهم من ماء وغذاء وغير ذلك . وكذلك كانت موانئ الجزائر بالنسبة لغزاة المغرب حين يقصدونها (1) .

ب ــ الصناعة :

واذا ما انتقلنا الى الميدان الصناعي فان المعلومات التي لدينا تشير الى ان الصناعات التي كانت قائمة في البلدين، كصناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والصناعات الجلدية والمعدنية وغيرها متشابهة الى حد كبير ، بل ومتطابقة في الانماط والطرائق ، مما يعني ايضا ان الاحتكاك بين المشتغلين في هذا المجال كان كبيرا ، وان خبرة الصناع والحرفيين كانت تنتقل من بلد الى آخر مع الصناع والحرفيين المغاربة الذين كانوا ينتقلون للعمل في الجزائر حاملين معهم اساليب صناعاتهم ، ومع الجزائريين الذين كانوا ينتقلون الى المغرب للعمل هناك . ومن الطبيعي ان يجري تقليد متبادل في نوع الصناعات وطرائق الصنع السائدة في البلدين، ولا سيما المؤثرات التي دخلت اليهما مع الوافدين الجدد من اتراك وغيرهم واحدة . وقد يكون مثلا عن ذلك صنع الزرابي في المغرب على الطريقة التركية (2) .

جـ ــ التجارة : ولكن المصادر الموجودة بين ايدينا ، تقدم لنا معلومات أغزر واوفى عن العلاقات التجارية ، ولو انها مقتضبة اذا ما قيست تلك المعطيات بما تطرحه المصادر الاوربية عن العلاقات التجارية بين اوربا وكل من المغرب والجزائر ، مما يشعر القارئ بأن تلك العلاقات كانت اكثر نشاطا وحيوية مما كانت بين المغرب والجزائر . كما انها تفتقد الاحصاءات الضرورية لتفهم ابعاد تلك العلاقات .

اما تلك المعلومات التي قدمتها المصادر لنا في حقل العلاقات التجارية فيمكن حصرها

(1) مارمول : المرجع السابق جـ 2 ص 243

(2) نفسه : جـ 2 ص 128

سمن الفقرات التاليـــة :

١) طرق المواصلات بين البلدين   ٢) القوافل المتبادلة

٣) المواد التجارية المتبادلة   ٤) مراكز التبادل التجاري .

ـــ طرق المواصلات بين البلدين :

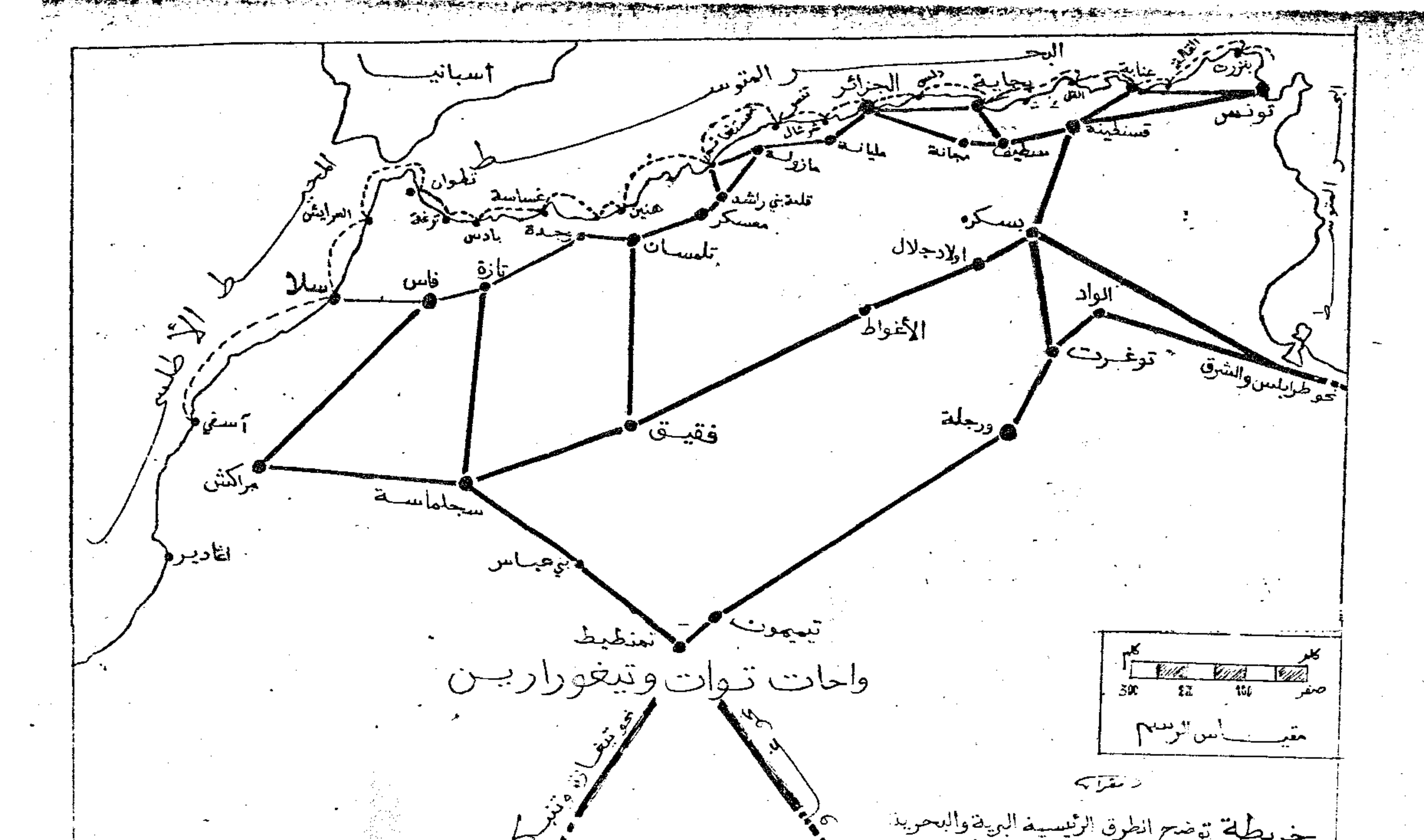
انها في الواقع الوسيلة الكبرى لاقامة علاقات مباشرة بينهما ، وبصفة خاصة علاقات تجارية . وبقدر ما تتوافر فيها الشروط الملائمة من قرب واتساع في المسالـــك ، ومن توافر الماء فيها ، ومحطات الاستراحة، واخيرا استتباب الامن في ارجائها، بقدر ما تكـــــون مؤثرا ايجابيا في العلاقات بين البلدين .

واذا ما استقصي عن طرق الاتصال بين المغرب والجزائر، فانه يتبين وجود ثلاث طـــــرق رئيسية اثنان منها برية، والثالثة بحرية، وهذه الاخيرة تنطلق من موانئ المغرب الشمالية ولا سيما من تطوان بعد ان احتل الاسبان حجر بادس في سنة ٩٧٢ هـ/١٥٦٤م وجعلوا مرسى بادس تحت رحمة مدافعهم . كما كانت تنطلق ايضا من سلا الواقعة على الاطلسي .

وليس خير من يعطينا فكرة واضحة عن مراحل هذه الطرق بين الجزائر والمغرب، هو ابو الحسن علي التمجروتي صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية الذي سلكها بمناسبة سفارتــــه عام ٩٩٧ هـ/١٥٨٩م، وهذه مراحلها كما ذكرها : كان الانطلاق من تطوان في شمال المغـــرب المشرفة على المتوسط، وكانت المحطة الاولى في تارغه على بعد (ثمانية مراحل) اي نحـــو ... كلم تقريبا . اما الثانية فقبل الوصول الى حجر بادس لوقوع هذه الاخيرة تحت الاحتلال الاسباني ، اما الثالثة فمدينة بطوية وهي آخر المحطات المغربية والمحطة التالية هي هنين التي كانت مدينـــة هامة ، ومنفذ تلمسان البحري قبل احتلال الاسبان لها ، ثم تخريبها عام ٩٣١ هـ/١٥٢٤م) .

ولم تكن وهران محطة في الفترة التي سافر فيها التمجروتي ، لكانت المحطة الثانية لا شك مـــن المحطات الهامة في الغرب الجزائري وشملت المحطات التالية علـــى الترتيب : آرزيـــــو فمستغانم ، فتنس ، فشرشال ، فمدينة الجزائر ، فدلس ، فبجاية ، فالقل ، فعنابه ، ومنها الـــى بنزرت اولى المراسي في القطر التونسي(١)، وقد كان من العادة ان تتوقف السفن الحاملة للركـــاب للاستراحة والتجارة في الموانئ المذكورة والتزود بما يلزم المسافرين في المدن الساحليـــــة وقد تستغرق فترة الاستراحة يوما او اكثر .

(١) التمجروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية ص ١٢-٢٧



خريطة توضح الطرق الرئيسية البرية والبحرية

اما الطريقان البريان فأحدهما شمالي، يربط بين اهم المدن الداخلية وبعض المدن الساحلية واهم محطاته من المغرب الى المشرق كانت على النحو التالي :

فمن فاس الى تازه ، فوجده المغربية ، فتلمسان الجزائرية ، فمعسكر ، فمازونه ، فمدينة الجزائر، ومنها الى بجاية فقسنطينة ، فعنابة ، ومنها الى القطر التونسي ، وهو الطريق الذى سلكه الوزان في رحلته نحو المشرق في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م (١) ، والطريق الذى كانت تسلكه تقريبا قافلة سلا التجارية الآتي ذكرها (٢) .

ومن قسنطينة كان يتفرع ايضا طريق يؤدى الى بسكره ، ومنها الى الاراضي التونسية . وهو الطريق الذى كان يسلكه حجاج الجزائر المنطلقون من الشمال، لينضموا الى قافلة حجاج المغرب (٣)، وكان يسلكه ايضا تجار قسنطينة المتوجهون الى الجنوب الجزائرى وبلاد السودان (٤) ، والمغاربة الذين كانوا يعرجون على قسنطينة من بسكره .

والطريق البرى الآخر جنوبي : ومراحله الهامة هي تافيلالت ، (سجلماسه) ، بالجنوب الشرقي للمغرب ، فبوسمغون بالجنوب الجزائرى ، فالغاسول ، فعين ماضي ، فالاغواط ، فالمرن فسيدى خالد فبسكرة ، فسيدى عقبه ، فتوزر بالجنوب التونسي (٥) . ويتصل هذا الطريق في الاراضي المغربية بالطريق بين الشمال المغربي والجنوب المنطلق من تازه الى سجلماسة ، وهذا الطريق هو الطريق الذى تسلكه عادة قافلة الحج المغربية ، الا ان هذه القافلة قد تعرج احيانا على توات لغرض تبديل العملة هناك ، لرخص الذهب فيها - اذ كانت ملتقى تجار شمال الصحراء مع جنوبها بما في ذلك تجار بلاد السودان - كما حدث للقافلة الحج المغربية لسنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م، التي كان العياشي صاحب الرحلة من ضمن افرادها ، فترك لنا سجلا وافيا عن مراحل هذا الطريق، الذى يتوغل جنوبا حتى توات ، ومنها يتجه شمالا الى ورجله فتوغرت ، فسوف ، فالجنوب التونسي (٦) ، ولذلك فان هذا الطريق طويل جدا يستغرق قطعه نحو شهرين من الزمن ، واكثر من ذلك اذا اعتبرنا ايام الاستراحة في المراكز والمحطات ، ومعظم هذه المحطات صحراوية، وقد تقطع القافلة مسافات طويلة دون ان تصادف عمارة أو بئرا منه ترتوى ولذلك كان السالكون لهذا الطريق يشرعون في سفرهم في بداية فصل الشتاء ، وعليهم ان يتزودوا بما يكفيهم من الماء والغذاء لمدة ثلاثة ايام او اكثر احيانا . ومن الاوصاف الكثيرة الحية التي خلفها العياشي عن مختلف مراحل هذا الطريق، ندرك انها صعبة للغاية ، وتفتقر الى التمهيد والمرافق الضرورية لجمل

١) انظر الوزان ، وصف افريقيا ج ٢ (المدن المذكورة كمحطات)

٢) ايمريت : المرجع السابق ص ٤٢

٣) انظر الورتيلاني : نزهة الانظار .

٤) نفسه .

٥) العياشي : المصدر السابق : ج ٢ ص ٤١٣ -

(5)Prax(M.):OP. CIT., P. 3 , et Emerit (E.):Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'afrique du nord, in/ Trav. de l'Inst. de Rech.,t.11,Alger 1954,P.42, note 2.

٦) العياشي : المرجع السابق ج ١ ص ١٣-١٥

السفر مزيحا كمحطات الاستراحة والفنادق وغير ذلك . ومما قاله العياشي بصدد وصفه لبعض مراحل هذا الطريق :

وقد سرنا يومنا الى الليل في طريق حرشة ، وعرة ، لا عشب فيها ولا كلأ ، ولا ماء ..[1] وعن مرحلة اخرى قال " .. ثم ارتحلنا وسلكنا في ارض كأنها المحشر ..[2] " وقال ايضا عن طبيعة الطريق " .. ثم ارتحلنا من هنالك قاصدين وادي ريغ في ارض ذات رمال ، لا يهتدى فيها الا من مارسها كثيرا [3] ". اما عن تباعد المحطات وقلتها ، وافتقارها لما يحتاج اليه المسافر ان وجدت فقال " .. ولم نزل نسير من ذلك الوادي الى ان نزلنا عاشر يومنا على قرية يقال لها واكي والن ، ولم نجد في هذه القرية الا رجلا واحدا ، ومعه نساء من قرابته يعولهن [4] " .

حالة الامن في الطريق: ولكن ما كان يزيد الطرق البرية السالفة الذكر صعوبة هو اضطراب الأمن فيها، وانعدامه احيانا ، وهذا ليس فقط حين يكون المغرب والجزائر في حالة نزاع وحرب ، بل وحين يكون البلدان ايضا في حالة سلام، بسبب انتشار قطاع الطرق ، ولا سيما في المناطق البعيدة عن مركز الدولتين، كالمناطق الصحراوية ، مما يؤثر لا شك تأثيرا سلبيا على حركة التجارة بين البلدين . وقد اكدت المصادر دائما بما في ذلك العياشي، وقبله مارمول والوزان، وعبد الباسط بن خليل، وغيرهم، أن الأمن في الطرق الرابطة بين الجزائر والمغرب كان دائما مضطربا، بل منعدما، بحيث من الصعب جدا على مسافر او مجموعة من المسافرين، ولا سيما ان كانوا تجارا، ان يجتازوا الطريق الشمالي والجنوبي البريين، دون ان يتعرضوا لخطر قطاع الطرق الذين كانوا يتربصون بعابري السبيل لنهبهم وسلبهم، بل وقتلهم ، ولا سيما ان هم حاولوا ابداء المقاومة . ويذكر الحسن الوزان بهذا الصدد انه من النادر ان يفلت التجار من ايدي قطاع الطرق في سهل انجاد[5]، القاطن الواقع قرب تلمسان ، والذي تمر منه الطريق الرابطة بين تلمسان وفاس . ونفس المخاطر كان يتعرض لها السالكون للطريق الرابط بين سجلماسة وبسكرة عبر توات، او عبر الاغواط . وقد اشار العياشي في رحلته الى المخاوف الكبيرة التي كانت تنتاب الحجاج في بعض مراحل الطريق : " فلما تجاوزناها (البئر) حصلت للركب روعة لخبر اخبروه ان بازائهم

(1و2و3و4) العياشي : المرجع السابق ج1 ص 18-45-46-40

5) الوزان : المصدر السابق ج2 ص 226

وم من الغرب يريد من الاغارة ، فشمر الناس للقتال ، واخرجوا عدتهم وآلة حربهم)[1] . وفي مكان آخر قال :(ارتحلنا وسرنا جد خائفين ، ونزلنا ظهرا بالمكان المسمى بالدوسة بينه وبين ولاد جلال نحو من فرسخ ، وهناك تحقق الناس امر العرب وانهم متعرضون للركب ، قاصدون اخذه ، ومعهم نحو ٣٠٠ فارس . . . وتنكبنا المحل الذى فيه اولئك المحاربون ، وارتحلنا نصف الليل . . . وسرنا بقية ليلنا خائفين في ارض حرشة ، مظلمة ، لا تسمع الا همسا باخفاف الابل . .)[2]

وقد كان ملوك تلمسان الذين عجزوا عن القضاء على قطاع الطرق وبالتالي عن توفير الامن للمسافرين والمترددين على تجارة مملكتهم مع المغرب ومع بلاد السودان ايضا ، يدفعون لبعض العرب اتاوات من اجل تأمين الطرق من اخطارهم ، ولكنهم لم يتمكنوا ابدا من ارضائهم جميعا ، ولهذا فان بعضهم كان يهدد دائما الطرق وأمن المسافرين ، ولا سيما حين تسود الفوضى الناتجة عن الحروب الزيانيين في فصل الشتاء[3].

اما السعديون ولا سيما الملوك الاوائل منهم الذين اهتموا اهتماما ملحوظا بالتجارة الخارجية فقد اولوا قضية الامن في الطرق اهتماما كبيرا ، فأنشأوا الحصون في المناطق المخيفة واقاموا حاميات فيها ، وفي المراكز التي يهددها الأعراب، والتي تمر منها القوافل التجارية . وسلطوا عقوبات الشديدة على المخلين بالامن في الطرق ، وشجعوا بعض القبائل في المناطق الموحشة اقطعوها ما يكفيها من الاراضي وحملوها مسؤولية ما يضيع للمسافر في منطقتها[4].

واما اتراك الجزائر العثمانيون الذين ابدوا بعض الاهتمام بتأمين الطريق البري الشمالي الصحراوي فقد اقاموا الابراج والحصون والحاميات في بعض مراحلها كبسكرة وقسنطينة ومجانه ، وسور الغزلان، ومليانه، ومازونه ، ومعسكر ، وتلمسان . وكلفوا القبائل المخزنية بالامن في الاجزاء الاخرى[5] . على أن المتمعن في مصادر الفترة موضوع البحث يجد ان الامن في الطرق كثيرا ما كان مضطربا ، وان الاتراك كثيرا ما فقدوا السيطرة على بعض اجزاء هذا الطريق خاصة بين الجزائر وقسنطينة عبر مجانه بسبب تهديد القبائل التابعة لبني القاضي، او لبني عباس له. ومثل ذلك كان يحدث ايضا بالنسبة للجزء الرابط بين قسنطينة وبسكره الذى كان تحت نفوذ عرب الذواوده .

وازاء الامن الذى كان يكون مضطربا دائما في الطرق ، وعجز السلطة في البلدين عن توفيره بشكل تام ، فقد كان التجار الجزائريون المتوجهون الى المغرب والتجار والحجاج المغاربة ما

---

(1) العياشي : المرجع السابق ج١ ، ص ٤٢
(2) نفسه ج٢ ص ٤١٥-٤١٦
(3) الوزان : المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٦
(4) مارمول : المرجع السابق ج٣ ص١٣ . المجهول : المرجع السابق ص٦٦ الافراني النزهة ص158
(5) وانظر عهد حسن بن خير الدين ، وعهد محمد بن صالح رايس في هايدو : المرجع السابق ومرسي : المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٨
(6) مرسي : المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٣

متوجهون الى الجزائر والمشرق يعتمدون على انفسهم . فكانوا يصطحبون معهم اسلحتهم
د فاعية ، ويستأجرون احيانا بعض الرجال المسلحين لرد اعتداء المغيرين . كما كانت القوافل
صطحب معها احد رجال الدين المرابطين، اذ كان هؤلاء موضع احترام من قبل قطاع الطرق .
ذكر هايد و بهذا الصدد انه يكفي للمسافرين عن طريق جبال جيجيل، حيث يوجد عدد كبير
ن قطاع الطرق الشرسين ان يصطحبوا معهم احد المرابطين لاجتياز الطريق دون اخطار (1)
واما ابن عسكر فقد ذكر من جهته ان حجاج المغرب كانوا يصحبون معهم الشيخ الرحمان،
ا عبد الله محمد الزيتوني، لاتقاء شر قطاع الطرق . وأن عرب انجاد والزاب ، وافريقيا (تونس) ،
ى جرأتهم وتمردهم كانوا لا يتعرضون لركائبه بسوء، لما رأوا من خرق العوائد التي اجراها
له سبحانه على يده (2) . واورد نقلا عن مسافر سبق له السفر مع الشيخ الزيتوني . ان عرب
زابحا جموا ركبه فعلم الاخير من كل الجهات، فأخبروه بذلك ، وقد كان اعمى ، اسود اللون ، فأخذ
قبضة من التراب ورمى بها يمينا واخرى رمى بها يسارا ، وثالثة الى الامام ورابعة الى الخلف،
فخرج من ذلك التراب سيل من النحل فشردت خيل العرب، حتى غابت عن اعين الركب ، ثم
لبث ان عاد العرب في آخر النهار على ارجلهم، بالبقر والغنم، واهلهم واولادهم بين ايديهم،
يبركون بالشيخ ويستعطفونه . وذكروا عظيم الهول من تلك النحل (3) .
وحتى الطريق البحري بين المغرب والجزائر، لم يكن آمنا، اذ كثيرا ما تعرضت السفن المغربية
الجزائرية التي تحمل التجار ، او الحجاج، او البضائع، الى هجومات من القراصنة الاوربيين، انتقاما
ن غزاة البحر المسلمين او طلبا للربح، وهي ذاهبة نحو الجزائر، وآتية منها (4) .
وهكذا فان اخطار السفر على الطريقين البري والبحري، لا غرو من الاغراض كانت كبيرة ،
لامر الذي كان له اثر سلبي على الحياة الاقتصادية في البلدين ، ومن ثم على العلاقات
لاقتصادية بينهما .

ولكن اضطراب الامن في الطرق الداخلية والطرق الرابطة بين الجزائر
المغرب ، ان كان عاملا ذا تأثير سلبي على الحركة التجارية بين البلدين ويتنافر
ي ذلك مع حالة الطرق البرية السيئة، لافتقارها كما ذكرنا الى التمهيد الجيد ، والى المرافق
لتي تجعل السفر فيها مريحا ، فان هذين العاملين الهامين لم يوقفا أبدا حركة القوافل بين البلدين

---

(1) هايدو / الطبوغرافية في المجلة الافريقية عدد 85 / الجزائر 1871 ص 216
(2 و3) ابن عسكر : دوحة الناشر ص 54-55
(4) محمد داود / تاريخ تطوان – المجلد الاول ص 186 ودوفرامون : المرجع السابق ص

ــ القوافل المتبادلـــة :

واذا فتحنا باب الحديث عن القوافل المتبادلة بين الجزائر والمغرب فانه يمكننا الحديث على الاقل على نوعين من القوافل :

ــ القوافل البرية : وهذه يمكن ان نقسمها الى نوعين :

١ــ القوافـل التجارية البحتـه.

٢ــ القوافل ذات الطابع الديني والتجاري .

ب ــ القوافل البحرية المتعددة الاغراض وما يتبعها من نقل الركاب من بلد الى آخر.

ــ واذا تطرقنا بالحديث الى القوافل التجارية البحتة، يمكن ان نقول ان تنظيم هذه القوافـــل، ومواعيد تحركاتها ومسيرتها ، ومدى ضخامتها ومقدار حمولتها ، الى غير ذلك من التفاصيـــل، لا تزال غير معروفة بشكل محدد ودقيق ، على انه يمكن القول من جهة اخرى انه في ظـــل الظروف الا منية في الطرق التي كادت تكون دوما مضطربة بسبب هجومات قطاع الطرق على المسافرين ولا سيما التجار منهم، فقد كان هؤلاء ينتظمون في قافلة او اكثر، ويستأجرون مسلحين خصيصـــا لدفع اذى قطاع الطرق عنهم، وقد يصحبون معهم كما ذكرنا احد المرابطين لنفس الغـــرض، ودليلا عارفا بالطريق، إذ ان بعض اجزاء الطريق مطموسة المعالم ، لا يهتدي فيها الا من سار عليهـــا مرارا، وهذا شأن الطرق الصحراوية على الخصوص . اما وسيلة النقل الرئيسية في القوافل التجارية البرية فكانت الابل بالدرجة الاولى ، ثم الخيل، والبغال، وغيرها من الحيوانات القادرة على حمـــل البضائع الثقيلة، وقطع المسافات البعيدة، وتحمل المشاق . ومن التمعن في قراءة المصـــادر المعاصرة للفترة موضوع البحث نعلم ان تجارا جزائريين كانوا يذهبون الى المغرب بقصد التجارة في مدنه ومراكزه كفاس ، ووجدة ، وسجلماسة ، وغيرها ، وذلك في جماعات او قوافل صغيرة، أو كبيرة ، كانت هذه القوافل تتحرك من مدن الجزائر (١) ، وتلمسان وغيرها محملة بالمواد والسلع الآتي ذكرها ، وكذلك الامر بالنسبة للتجار المغاربة الذين كانوا يتوجهون الى تلمسان وغيرها من المـــدن الجزائرية الشمالية والجنوبية، وقوافل متفاوتة الاهمية.

وفي مذكرة وليم لانكو ما يؤكد استمرار توجه القوافل من احد البلدين الى البلد الآخـــر اذ يشيـــر الى ذهابه من الجزائـــر الـــى المغـــرب رفقة ثلاثين من تجار الجزائر واثنين من الانكشارية وترجمان . ولكن أيا من هذه القوافل البحتة لم تبلغ فيما يبدو اهمية قافلة ســـلا التجارية التي كان نشاطها التجاري يمتد من سلا بالمغرب الى تونس عبر الجزائر (٢) .

(١) انظر مذكرة وليم لانكو / في / مجلة تطوان عدد ٨ ، ص ١٣٨

EMERIT (E.): OP. CIT., P.P. 41 - 42.

(٢) انظر عن هذه القافلة :-

واذ كان غير معروف بالضبط متى ابتدأ انتظام هذه القافلة فانها غدت في الحقبة التالية للفترة موضوع الدرس واحدة من اهم القوافل التجارية التي كان يشمل نشاطها الاقتصادي اقصى بلدان المغرب الكبير . وقد كانت هذه القافلة التي تتألف من نحو مئة جمل تنطلق من سلا محملة ببضائع المغرب، وبضائع بلاد السودان ، من منسوجات صوفية ، وادوات نحاسية ، وبعض العقاقير كالزنجبيل ، والنقد الذهبي ، وغير ذلك ، مارة بتلمسان ، ومعسكر ، والجزائر، وقسنطينة الى ان تبلغ تونس عادة قبيل شهر رمضان وبعد ان تستكمل مبادلاتها التجارية فيها تأخذ في العودة الى المغرب عبر الجزائر .(1) وليس بأيدينا من الاحصاءات ما يسمح لنا بتقدير دقيق لمدى اهمية مبادلات قافلة سلا التجارية او لمدى حجم المبادلات التي كانت تجري بين الجزائر والمغرب ، بفضل القوافل المتبادلة بينهما ، ولكن من المنتظر الا يكون الحجم الاجمالي كبيرا ، وذلك لان وجهة مبادلات البلدين ، كانت على الخصوص في اتجاهي الشمال الى اوربا ، والجنوب الى بلاد السودان .

2- قافلة الحج المغربية :

وهذه القافلة سنوية كانت تتحرك من المغرب نحو البقاع المقدسة في مثل شهر / رجب من كل عام ، تحت قيادة مسؤول مغربي يحمل لقب امير الركب . يكون غالبا من المقربين للاسرة الحاكمة في المغرب او من افرادها ، سالكة احد الطرق التي تقدم ذكرها عبر الاراضي الجزائرية في ذهابها وايابها .

وقد كانت هذه القافلة اكبر من قافلة سلا . واهميتها على صعيد المبادلات التجارية بين البلدين كبيرة . اذ ان اهمية هذه القافلة وان كان طابعها الاساسي دينيا ، وتتألف اساسا من الراغبين في اداء فريضة الحج ، فقد كان يرافقها تجار ، وكان الحجاج انفسهم يتاجرون في طريقهم فيما احضروه معهم من بضائع من المغرب في طريق ذهابهم كالصابون والجلود وغير ذلك ، او ما احضروه من المشرق في طريق عودتهم كالاقمشة الهندية ، والعطور ، والسبحات وغير ذلك . ويشترون ما يلزمهم من المواد الغذائية ولوازم السفر .(2)

فكان لذلك مرور قافلة الحجاج المغاربة مناسبة ثمينة للتبادل التجاري ، تنشط فيها حركة المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب ولا سيما في المراكز التي يمر بها ركب الحاج المغربي اذ كان التجار يهبون اليها بهذه المناسبة حتى من الاطراف المجاورة لمبادلة سلعهم فيها مع المغاربة .

لكننا نفتقر ايضا الى الاحصاءات التي تمكننا من تقدير دقيق لحجم المبادلات التي كانت تتم

(1) نفسه : ص(40-42)

(2) انظر عن قافلة الحج المغربية : العياشي : ماء الموائد ج 2 ص 2(41-22) و :
- Rozet et Carette: Algérie, Tunis 1980, P.P. 129 - 131.

بهذه المناسبة . وليس لنا الا القول بأن هذا الحجم ليس ثابتا ، وانه متقلب تبعا للظروف التي كانت توثر على المراكز التجارية ، التي تقع على خط سير القافلة المغربية كالامن ، والمجاعة ، والوباء ، والظروف التي كانت توثر ايضا في ركب الحج المغربي فتجعله ضخما احيانا يقارب عدد افراده عشرة آلاف ، وتجعله احيانا اخرى يقل عن ذلك بكثير ، وهذه الظروف هي الظروف السياسية والامنية والصحية السائدة في كلا البلدين (1) .

ب - القوافل البحرية : واذا كانت القوافل البرية تعتمد اساسا في حمل البضائع على الابل بالدرجة الاولى ، وبالدرجة الثانية على بقية الحيوانات القادرة على تحمل المشاق والاثقال ، كما سلف القول ، فان وسيلة النقل في القوافل البحرية هي السفن بمختلف احجامها . وقد كانت القوافل البحرية متعددة الاغراض ، اذ كانت تقوم بنقل البضائع والتجار والحجاج والسفراء وغيرهم من المسافرين . وتؤكد المصادر والوثائق المعاصرة ، ان حركة نقل الركاب والبضائع بين الجزائر والمغرب كانت قائمة وقوية ، كما يفهم ذلك من قول المؤلف المجهول : ((وكانت عمارة اهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس . ومسافرو اهل الجزائر لا يركبون الى المشرق او المغرب الا من بادس ، ولا تنقطع منها عمارة الترك في كل اوان (2))) .

ويفهم ذلك من قول هايدو : ((ان تجار الجزائر يرسلون الى فاس عن طريق تطوان بضائعهم المختلفة ... على متن سفن ذات مجاذيف كانت تبحر في كل الفصول ويرافق بضائعهم ابناؤهم او مواليهم الاعلاج او اقاربهم لبيعها هناك واستخلاص اثمانها (3))) .

وتؤكد الوثائق حركة نقل البضائع والمسافرين التي كانت قائمة بين البلدين ، على متن السفن الجزائرية في قوافل . ومن هذه الوثائق رسالة من السفير الانجليزي في اسبانيا والتراسطون سنة 1620 - 1625 ، الى السير كالفرت ورد فيها ما يلي ((وقد علمت من مالقة ان السير روبرت مانسل " امير الاسطول الانجليزي " له علم بمراكب تركية معينة بحمولتها الفنية في وادي تطوان ، وهي الآن في الاستعداد للابحار الى الجزائر ..)) وقد خرجت

---

1) روزي كاريت : نفس المرجع السابق ص 126 - 136
2) المجهول : المرجع السابق ص 36 . ولكن تردد سفن الجزائر على بادس توقف بعد ان احتل الاسبان حجر بادس واقاموا فيها حامية لهم في سنة 1564 م وتحول نشاط السفن الجزائرية الى تطوان وغيرها .
3) هايدو : الطبوغرافية في / المجلة الافريقية عدد 85 ص 55
4) محمد داود : تاريخ تطوان - المجلد الاول 1959 ، ص 86 ، وهو ينقل عن الوثائق الانجليزية .

راكب المذكورة في رسالة السفير من تدوان محملة بالسلع والمسافرين فتعرض لها الامير ال
ذكور واستولى عليها ، وهذا يؤكد ايضا ما ذكرناه من انعدام الامن على الطريق البحري
سا . وقد كان من بين المسافرين اندلسيون باعوا امتعتهم ليهاجروا الى بعض اهلهم
الجزائر (١).

وفي الوثائق الهولندية اشارات عديدة مماثلة لاعتداءات قطع الاسطول الهولندي الحربية
ى السفن الشراعية المغربية المتجهة الى الجزائر او الآتية منها ، وهي محملة بالبضائع
تجارية (٢).

وهذا كله يؤكد ان حركة التجارة بين البلدين عن طريق البحر وبواسطة قوافل السفن
التابعة لهما كانت هامة ، وقد لا تقل اهميتها عن تجارة القوافل البرية إن لم تفقها ،

ولكن اسئلة عديدة لاتزال تفتقر الى تفاصيل الاجابة عنها كتنظيم قوافل السفن ، وعددها ،
حجم حمولتها ، وما اذا كان بعضها مختصا فقط بحمل الركاب واخرى بحمل البضائع فقط ،
نوع هذه السفن .. الخ من التساؤلات التي تلقي اجابتها مزيدا من الاضواء والتي تساعد
ى تحديد حجم المبادلات بين البلدين ، وبالتالي معرفة مدى اهمية المبادلات بينهما والذي
تأكد من كل ما تقدم ان حركة القوافل البرية والبحرية التجارية والدينية والناقلة للركاب ،
م تنقطع بين البلدين في جميع الظروف .

ب- المواد التجارية المتبادلة :

اما المواد التجارية التي كانت تشملها المبادلات التجارية بين
الجزائر والمغرب اعتمادا على ما تذكره المصادر والوثائق المعاصرة فان الجزائر كانت تصدر
الى المغرب عن طريق البحر غالبا السيوف والخناجر والاقمشة الهندية والقسطنطينية والاجواخ
الانجليزية و المواد الصباغية الناتجة عن بعض الحشرات المحمولة من امريكا التي استأنستها اسبانيا
وتنمو عادة على نوع من الشجر النوبي المسماة (COCHENILLES D'ESPAGNE .)
والحرير التونسي وغيرها (٣).

وكانت الجزائر تصدر الى المغرب [illegible] البر وبواسطة القوافل التجارية وقافلة الحج المغربية
ايضا الحرير المجلوب من تونس ، والاقمشة الصوفية المصنوعة في واحات الجزائر كالبرانس والحياك
ود واب الركوب ، والمواد التموينية والماشية ولوازم السفر كالبرادع والحبال ، والملابس والتمر والدروع وغيرها (٤)

---

(١) نفسه ، وهو ينقل عن الوثائق الهولندية
(٢) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٧٨-١٨٨ ، ١٩٥ ، ٢٢٤
(٣) هايدو : الطبوغرافية عدد ٨٥ ، ص ٥٤-٥٥ و م.ت.م. اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤
(٤) كاريت : المرجع السابق ص ٩٣ و براكس تجارة الجزائر مع مكة والسودان ص ٤
والعياشي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦ وغيرها .

اما المغرب فكان يصدر من الطريقين البحري والبري المواد التالية إلى الجزائر: الاسل والصابون، رنوعا من التراب كان يستعمل في التنظيف كالصابون يعرف بالطفل[1]، والذهب والاحجار الكريمة والسكر[2]، والجلود المدبوغة في تافيلالت والمعروفة لذلك بالفيلالية والبلغات المصنوعة من البلد، والحياك الصوفية والسلاح (السيوف والبنادق)، والحديد، والانسجة القطنية والحرارات والامشاط، والشراشي، والاقمشة الحريرية، والخيول، والنقود وتبر الذهب والسرفين، والبخور، والنيلة وغيرها[3].

وقد كان العبيد او بالاحرى المستعبدون من الاسرى النصارى على الخصوص يشكلون مادة تجارية مربحة في كلا البلدين، ومادة للتبادل التجاري بينهما، خاصة حينما يكون لدى غزاة البلد من حرج ما في بيع اسراهم في بلدهم كالخوف من ان ينجم عن ذلك نزاع بين حكومة بلادهم وحكومة البلد الذي ينتمي اليه اولئك الاسرى اذا كانت هذه الحكومة ترتبط باتفاقية سلام مع الجزائر او مع المغرب، ممن تعرض الغزاة الجزائريون او المغاربة لسفنها او شواطئها بالغزو. ولذلك فان غزاة الجزائر في مثل هذه الحالة كانوا يبيعون اسراهم في المغرب[4]، وغزاة المغرب كانوا يبيعون اسراهم في الجزائر[5] فيتفادون بذلك مراقبة قناصل الدول وشكاياتهم عن اعمالهم البحرية ضد بلدانهم.

وكذلك كان غزاة البلدين يفعلون بالنسبة لبقية الغنائم التي كانوا يظفرون بها في السفن والشواطئ الاوربية. فكان غزاة المغرب التطوانيون والسلاويون، يبيعون بعضها في مدينة الجزائر كما ان غزاة الجزائر كانوا يبيعون بعض غنائمهم في المدن الساحلية المغربية[6]، كتطوان وسلا والعرائش وبادس قبل احتلال الاسبان لحجرها في سنة ١٥٦٤م.

واذا تأملنا في المواد المتبادلة بين البلدين وجدنا ان قسما منها، ولا سيما من صادرات الجزائر، هي المواد التي وردت اليهما من بلدان اخرى كما تشير الى ذلك الاوصاف الملحقة بتلك البضائع كالاقمشة الهندية او القسطنطينية، والاجواخ الانجليزية والحرير التونسي، والتبر السوداني .. الخ او من غنائم الغزو البحري، مما يدل على ان الانتاج المحلي ولاسيما انتاج الجزائر كان ضعيفا لا يرقى للوقوف في وجه البضائع الخارجية التي اخذت تغزو البلدين.

(١) هايدو: المرجع السابق ص ٥٤
(٢) بريموداي: التجارة والبحرية الجزائرية ص ١٩٠
(٣) نفسه: ص ٩٩ و كاريت: المرجع السابق ص ٢٣ و: براكس: المرجع السابق ص ٤
(٤) م.م.ت.م: اسبانيا ج ١ ص ٨٨-٨٩
(٥) نفسه: فرانسا ج ١ ص ١٣٧-١٣٨
(٦) نفسه: اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤

واستمر غزوها في الفترة اللاحقة على الخصوص حين بلغت الثورة الصناعية في اوربا اشدها .
وهذا يؤدي الى القول بأن الجزائر كانت احدى اسواق المغرب في بعض السلع التي لاتنتجها
كالسكر والنيلة ، بينما لم تكن المغرب سوقا لانتاج الجزائر .

اما عن حجم المبادلات التجارية بين البلدين ، فان المصادر والوثائق المتعلقة بهذه الفترة
كما بينا مرارا لا تعطي فكرة واضحة تسمح بتحديد أي اللفتين هي الراجحة في ميزان المبادلات ،
ولذلك فاننا لانملك الا ان نظن بأن حجم المبادلات لم يكن كبيرا قياسا مع حجم المبادلات
التجارية للبلدين مع الدول الاوربية . وما يدفع الى هذا الظن هو العوامل السلبية الكثيرة
التي كانت لاتساعد ان هي لم تمنع نشاط المبادلات وتوسعها ، وسيأتي ذكر هذه العوامل
بعد قليل . الا انه بناء على صادرات كلا البلدين ، يمكن ترجيح كفة الميزان التجاري المغربي
على كفة الميزان التجاري الجزائري باعتبار ان بين صادرات المغرب الى الجزائر كثير من المواد
المنتجة في المغرب ، والمصنعة فيه .

ب- وسائل التبادل :

اما وسائل الدفع التي كانت متبعة في المبادلات التجارية فهي الدفع
نقدا ، والمقايضة . والذي يبدو من خلال الوزان ومارمول ان المقايضة كانت رائجة في النصف
الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وذلك لنقص العملة وندرتها في كثير
من المناطق في كلا البلدين (1) . ولكن اسلوب المقايضة تراجع فيما بعد واما الدفع نقدا ، ففي
النصف الثاني من القرن المذكور والفترة التي تهمنا من القرن الحادي عشر الهجري / السابع
عشر الميلادي ، حيث شهدت هذه المدة تدفق الفضة والذهب على اوربا من امريكا ، وتدفق الذهب
على المغرب من بلاد السودان ، وازدهار الغزو البحري في الجزائر ، وكثرة غنائمه ، مع ازدهار
التجارة مع اوربا ، مما اوجد العملة النقدية ، وكثرة تداولها بين الناس واستعمالها في البيع
والشراء .

وقد كانت العملة المتداولة في التجارة بين الجزائر والمغرب هي العملات المسكوكة في
البلدين واهمها : الزياني التلمساني ، وهو من الذهب الخفيف ، ونصفه ، وكان لهذه

(1) الوزان : المرجع السابق ج 1 ص ٧٦ ، ٨٩ ، ١١٢ وغيرها .

العملة رواج كبير في البلدين وخارجهما في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

وقد كانت هذه العملة تسك في تلمسان فقط في عهد سلاطين بني زيان . وهناك ايضا عملة السلطاني ، وهي ايضا من ذهب خفيف ، وكان يضرب فقط في مدينة الجزائر . وكانت قيمته في اواخر القرن العاشر الهجري تساوي / ١٤٠ / آسبر وآسبر او (الآقجة) ، وهي العملة الفضية العثمانية كانت مئة وخمسة وسبعون منها تساوي مثقالا فاسيا واحدا[1] . ولكن انخفاض قيمة الاقجة العثمانية في هذه المرحلة ، بسبب تدفق الفضة الامريكية الى اوربا ووصولها الى الدولة العثمانية ، وبسبب سياسة مراد الثالث العسكرية وما نجم عن ذلك من أزمة مالية دفع جعفر باشا (٩٨٠-١٥٨٢ م) الى رفع قيمة المثقال الفاسي في الجزائر ، بحيث اصبح يساوي ٢٢٥ آسبر[2] . اما الدينار الذهبي الذي كان يسك في المغرب في عهد المنصور ، والذي كان يتراوح وزنه بين ٢٫٥ و ٤ غ ، فلا ندري ما كان يعادله من العملة الجزائرية على وجه الدقة .

وقد كانت العملة النقدية العثمانية الذهبية المسماة بالسلطاني او السكة (SEQUIN) او الشريفي ، وواحدة منها تساوي ٢٢٥ آسبر (آقجة) أو أكثر من العملات التي كان يجري التبادل التجاري بها في الجزائر ، كما كانت العملة الاسبانية ، الإيكو والريال عملة دارجة في مدينة الجزائر . وقد استعمل العياشي الريال[3] في مبادلاته في الجزائر واكد هايدو ان الريال الرباعي وريال الثمانية . كانت عملة مرغوبة جدا في الجزائر ، وذلك لانها كانت عملة قابلة التصريف في مصر ، وحتى في الهند والصين[4] . وقد يكون للاندلسيين المهاجرين الى الجزائر دور في ترويجه ، والتعريف به ، ولا سيما انهم احضروا منه كمية كبيرة لدى هجرتهم[5] .

ويبدو من استخدام النقد المغربي ، والجزائري ، والنقد الاوربي الفضي ، والذهبي في المعاملات التجارية في هذه المرحلة ، انه لم يكن هناك اية قيود على تبادل النقد بين البلدين ، وبينهما وبين اوربا . وهذا ما كان قائما ايضا في الانحاء الاخرى للامبراطورية العثمانية ، ومن المعروف ان الاوربيين اغرقوا الاسواق العثمانية خلال هذه المرحلة ، ولا سيما في القرن الحادي عشر بالنقد المزيف ، مما دفع الدولة العثمانية الى مراقبة النقد والتأكد من صحته لكن المصادر المتوافرة لم تشر الى هذا الامر في الجزائر والمغرب . وان كان من المتوقع ان يكون الامر كذلك فيهما .

(١ و ٢) انظر عن العملة المتداولة هايدو ، طبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٦ ص٩٥-٩٦

(٣) العياشي : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤١٧

(٤) هايدو : المرجع السابق ص٩٥

(٥) سعيدوني : الجالية الاندلسية في الجزائر ص ١٢

6 – مراكز التبادل التجاري :

واذا نظرنا الآن في المراكز التي كان يجري فيها التبادل التجاري بين البلدين خلال الفترة موضوع الدرس وجدنا انها عديدة تؤلف المحطات الرئيسية لقوافل التجارة على الطريقين البري والبحري . واهمها على الطريق البحري : سلا ، تطوان وبادس . ومدينة الجزائر .

اما على الطريق البري الشمالي فأهمها فاس ، تازة ، وتلمسان ، وقسنطينة ، وأهمها على الطريق البري الجنوبي فاهمها سجلماسة ، وتافيلالت وفقيق و الاغواط ، بسكره ، وتوغرت ، ووارجله ، وتوات وغيرها .

1 – مدينة الجزائر : لعل من اهم مراكز المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب ان لم يكن اهمها على الاطلاق مدينة الجزائر هذه المدينة التي اتخذها الاتراك العثمانيون قاعدة لحكمهم فتفوقت على مدن تلمسان وبجاية وقسنطينة ، وتوسعت بسرعة وازداد عدد سكانها حتى اصبحت المدينة الكبرى في شمال افريقيا ((وافضل من جميع بلاد افريقيا واعمر واكثر تجارا وفضلا وانفذ اسواقا واوجد سلعة ومتاعا حتى انهم يسمونها اصطنبول الصغرى (1))).

كان التجار في مدينة الجزائر يشكلون فيها طبقة كبيرة حيث ان كل سكانها كبارا وصغارا بما في ذلك حاكمها الباشا يشتغلون في التجارة (2) . وكان لمدينة الجزائر تجارة استيراد وتصدير مع دول البحر المتوسط من المغرب الى اسطنبول ، مثل اسبانيا ، وفرنسا ، والمدن الايطالية كجنوه ، ونابل ، وصقلية ، والبندقية ، والايالة التونسية ، والقسطنطينية كما كانت لها تجارة مع انجلترا . ومنها كانت تحصل على مواد معدنية كالحديد والنحاس والاقمشة المختلفة وكان يأتيها من فرنسا الفولاذ والخردوات والاقمشة القطنية ومن اسبانيا السوائل العطرية والمواد الصباغية ودودة القرمز ومن المدن الايطالية الاخشاب والصابون والحرير ، ومن تونس الاقمشة الناعمة ، ومن تركيا الاقمشة والسيوف . وكانت صادرات الجزائر الى البلاد الاوربية تتمثل في الاصواف والجلود والشمع والتمر وغنائم الغزو البحري وغيرها (3) . وقد كان يأتيها عدد لا يحصى من التجار المسلمين وغير المسلمين عن طريقي البر والبحر (4) بالسلع والبضائع المختلفة لتأكدهم من الربح من التجارة فيها (5) .

1) التمجروتي : النفحة المسكية ص 139
2) هايدو : الطبوغرافيا في المرجع السابق عدد 88 ص 31
3) نفسه : عدد 85 ص 53–55
4) نفسه : عدد 83 ص 142 و مارمول : المرجع السابق ص 332
5) بروديل : المتوسط ... ج 2 ص 211

وحسب الوثائق والمصادر المعاصرة،فان مدينة الجزائر كان لها مبادلات تجارية مع كثير من المدن المغربية،ولا سيما المدن الساحلية منها ، الواقعة في شمال المغرب كبادس ، وتارغة ، وتطوان ، واصيلا ، والعرائش ، وسلا .

آ ـ مبادلات الجزائر مع بادس : كانت بادس غارة على الساحل المتوسط بشمال المغرب بعد تحرير صخرتها " بنون بادس" من الاسبان في سنة ١٥٢٢ متصيد السفن الجزائرية ، كما ذكرنا حيث (كانت عمارة اهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس ... ولا تقطع منها عمارة الترك في كل اوان (١)) وذلك لاغراض مختلفة كالتزود بما يلزمهم من ماء وغذاء او بيع ما احضروه من سلع ، او ما غنموه منها واسروه من النصارى . او نقل المسافرين منها نحو الشرق . او من الشرق اليها (٢).

وتذكر الوثائق المعاصرة انه في سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م باع الغزاة الاتراك الى ابي حسون امير بادس الاسرى الاسبان الذين وقعوا في قبضتهم لدى هجومهم على جبل طارق ، وذلك بمبلغ ٥٠٠٠ دوكاتو (٣).

وانه في نهاية السنة التالية ٧ رمضان ٩٤٨هـ/ ١٥٤١/١٢/٢٥م ذهب مبعوث حسن آغا الى بادس ومعه ٢٠٠٠٠ دوبل ؟ (دبلونه) لابتياع السفن واشياء اخرى كانت مدينة الجزائر في حاجة اليها لمواجهة تهديدات شارلكان بالهجوم عليها مرة ثانية (٤).

وقد فتحت اتصالات اتراك الجزائر ببادس اعينهم على اهمية حجر بادس ، فلم يلبثوا ان احتلوه وذلك في سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) ومكثوا فيه الى (٩٧١هـ/١٥٦٤م) تاريخ انتزاع الاسبان له منهم (٥).

ب ـ المبادلات مع تارغه : تارغه بلدة صغيرة على الساحل المتوسطي للمغرب تقع الى الشرق من تطوان بنحو ٣٠ كم . وهي محطة من المحطات التي كانت تتوقف عندها السفن الجزائرية الناقلة للمسافرين (٦) ، او سفن الغزاة من اجل التزود بما يلزمها ... وتذكر الوثائق ان قائد تارغه ، وعمر ابن راشد ، امير امارة شفشاون ، ارسل في سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م ، الاسرى النصارى الذين كانوا في تارغه الى الجزائر .. مما يدل على العلاقات السياسية والاقتصادية الطيبة التي كانت بينه وبين اتراك الجزائر . وبين تارغه ومدينة الجزائر (٧).

---

١) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٣٦
٢) نفسه :
٣) م.م.ت.م : اسبانيا ج ١ ص ٨٨-٨٩
٤) بريمودای : الوثائق المغفلة ص ٢٥٢ - ٢٥٣ وبيربروجر : المفاوضات بين حسن آغا والكونت دا الكوديت في المرجع السابق ص ١٣٨
٥) م.م.ت.م : اسبانيا ج ٣ ص ٥٩-٦٠ (تحليل شانتال) ومارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦
٦) التمجروتي : النفحة ص ١٢
٧) م.م.ت.م : فرانسا ج ١ ص ١٢٧ (ارسل ثلاث دفعات من الاسرى كل دفعة تتألف من ١٨ او ٢٠ اسيرا) .

د لا ت الجزائر مع تطـوان :

هذه المدينة المغربية المتوسطية الهامة،الوحيدة التي لم يستطـع
برتغاليون والاسبان احتلالها،بعد تجديد الاندلسيين لبنائها،في اواخر القرن التاسـع
هجري الخامس عشر الميلادي،رغم قربها منهم . فقدت المنفذ البحري المغربي الوحيـد
ى المتوسط،بعد ان احتل البرتغاليون والاسبان مدن سبتة،وطنجة ،والقصر الصغير ، ومليلة،
حجر بادس ،وغساسة .(١)

ومنذ الثلاثينات من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي على الاكثر،توطـدت
علاقات الاقتصادية بين مدينة الجزائر وتطوان . اذ تذكر الوثائق ان خير الدين بربروس توجه
سنة (١٥٣٢م) الى تطوان لشراء الحبوب منها ،ذلك ان مدينة الجزائر كانت آنئذ تعاني
القحط وقلة الزرع(٢) ،مما يدل على ان المغرب والجزائر كانتا تتبادلان القمح وهو الغـذاء
رئيسي للسكان،في حالة القحط في احد البلدين دون الآخر .
ى تطوان صارت سفن الجزائر تذهب في كل وقت،وهي حاملة لتجار الجزائر المتجهيـن الى
غـرب،وقاصدة الى فاس ،وبضائعهم المتنوعـة(٣) . وتجار المغرب وحجاجه ومسافريـه
عائدين الى بلادهم ،ومنها كانت تعود،وعلى متنها المسافرون المغاربة،حجاجا كانوا ،ام سفراء،
تجارا،ام غير ذلك ،وكذا التجار الجزائريون،والبضائع المغربية المستوردة من عسل وسكـر
ابون وجواهر وغير ذلك(٤) .

وفي تطوان كان غزاة البحر الجزائريون يجدون استقبالا لائقا،ويتزودون بما يلزمهم ،
طلقون مع غزاة تطـوان في هجومات مشتركة على السفن والشواطئ الاسبانية،والبرتغاليـة،
يرها(٥) ،وفي تطوان ايضا،كان الغزاة الجزائريون يبيعون احيانا مغانمهم،المسـودة
ى الغزو نسوا(٦) .
ولما كانت تطوان تحقق بدون شك ارباحا من تجارتهـا مع الجزائر وغزاتها،فان السيدة الحرة
كمة تطوان(٧) ،لم تتقيد بأمر سلطان فاس بحظـر دخول السفـن الجزائريـة
ى تطوان(٨) .

) الوزان : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨ و محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول ص ١٢٢٨
) : م.م.ت.م ; اسبانيا ج ١ ص ١ - ٣
) هايدو ; طبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص ٥٥
) نفسـه : ص ٥٤ و برونودان :التجارة ص ١٩٠ و التمجروتي : النفحة .. ص ١١
) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٣ و محمد داود المرجع السابق ص ١٨
) هايدو ; المرجع السابق ص ٤٦
) هي عائشة بنت علي بن موسى بن راشد امير شفشاون كانت زوجة للمنظري الثاني ثم الثالث
للسلطان احمد الوطاسي في سنة (١٥٤١) . آل حكم تطوان اليها بعد وفاة المنظري الثالث
سنة ٩٤٢ هـ ولكن آل النظري مالبثوا ان اطاحوا بها لما تزوجت بالسلطان الوطاسي وذلك
١٥٤٢ انظر محمد داود ال[illegible] السابق ص ٨٦ ، ١٢٠ و م.م.ت.م اسبانيا ج ١ ص ١٠٦-١١٦
) م.م.ت.م ; فرانسا ج ١ [illegible] ١ و ١٣٧ . ومارمول : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤

ولضرب التعاون الذي كان قائما بين اهالي تطوان والجزائريين في مختلف المجالات، ذلك
تعاون الذي عاد باضرار كبيرة على الاسبان والبرتغاليين ، والاحكام نوع من الحصار الاقتصادي
على الجزائر وتطوان ، فان فيليب الثاني امر بسد مدخل نهر تطوان ، لمنع تردد السفن
الجزائرية على تطوان او خروجها منها ، ولكن محاولة الاسبان لتحقيق ذلك في سنة ١٥٦٤ (١) كانت
دون جدوى ، اذ ان التيار جرف الصخور وسائر السفن التي اغرقوها في مدخل النهر ،
استمرت السفن الجزائرية تروح وتغدو الى تطوان لمختلف الاغراض الاقتصادية .

- مبادلات الجزائر مع بقية مدن شمال المغرب : لم يقتصر تردد غزاة الجزائر على بادس وتطوان
في شمال المغرب ، بل كان غزاة الجزائر يذهبون بسفنهم المحملة بالغنائم والاسرى الى شواطئ
سيلا وطنجة والقصر الصغير وسبته ، وهناك كانوا يبيعون للمغاربة البضائع والاسرى (٢) ، كما كان
غزاة الجزائر يتوجهون الى العرائش للغرض نفسه ، وللتزود بما يلزمهم (٣) ، ويبدو ان تردد غزاة
الجزائر على شواطئ شمال المغرب لبيع الاسرى والغنائم كان كثيرا ، الامر الذي يفسر وضع
البرتغاليين لشرط في اتفاقية السلام التي ابرموها مع السلطان احمد الوطاسي
في ٤ مارس سنة ١٥٣٨ (لمدة احد عشر عاما) ينص على حظر شراء رعايا السلطان في مناطق
اصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبته ، الاسرى النصارى من غزاة الجزائر ، ومصادرة البضائع من
الغزاة واعانات ... (٤) ، ولكن هذه الاتفاقية لم تحترم من الطرف الوطاسي حيث استمر غزاة
الجزائر الاتراك يترددون على شواطئ المغرب الشمالية لبيع غنائمهم من البضائع والاسرى .

- مبادلاتها مع سلا : هذه المدينة كتطوان ازدهرت ونمت بعد ان استقر فيها الاندلسيون
لا سيما بعد النفي الاكبر . ونشأ بينها وبين مدينة الجزائر علاقات اقتصادية قوية ، حيث كان
غزاة الجزائر يترددون على سلا لبيع غنائمهم من الغزو البحري ، كما يأتي غزاة سلا لبيع غنائمهم
في الجزائر حين يخشى هؤلاء واولئك من المراقبة في سلا وفي الجزائر (٥) .
كان غزاة سلا والجزائر يخرجون احيانا في عمليات مشتركة للغزو البحري ، قد يصلون الى
شواطئ الانكليزية والارلندية (٦) .

---

(١) مارمول : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤ و أ . بوليه . المرجع السابق ص ٨٥
(٢) م . م . ت . م : اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤ .
(٣) نفسه : فرانسا ج ١ ص ٢٨٣-٢٨٥ واسبانيا ج ١ ص ١-٣ و هايدو : الطبوغرافيا
... ص ٨٥ ص ٤٦
(٤) م . م . ت . م : اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤
(٥) أ . كور : المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤
(٦) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي / في / مجلة تطوان / عدد ١٠ ص ٢٣ ، ٢٦
رسالة طوماس سيلي الى المجلس الاستشاري في افريل ١٦٢٥

وفي العهد الذي خضعت فيه سلا الى الدلائيين ((١٠٥١ - ١٠٧٤هـ / ١٦٤١/١٦٦٤م))
وتولى الامارة فيها الامير الدلائي عبد الله بن محمد الحاج ((١٠٦١-١٠٧٤/١٦١٥-١٦٦١م))
اقام تجارة نشطة مع مدينة الجزائر عن طريق البحر، فكانت السفن التجارية المتوجهة من سلا الى الجزائر، والعائدة من هذه الاخيرة اليها، والمحملة بمختلف السلع، لا تنقطع، مما كان يدر على الدلائيين ارباحا طائلة (١). وقد ادرك الامير الدلائي المذكور، منذ بداية ولايته، اهمية التجارة مع الجزائر ونزاتها، فرفض القبول بمعاهدة مع الهولنديين تنص على أن لا يسمح لغزاة (قراصنة) الجزائر، وتونس، وطرابلس، ان يبيعوا ما يستولون عليه من الاسرى الهولنديين، وبضائعهم، وعلى الا يسمح للاتراك بدخول رسائل اجتياز سلا (٢).

وحسب امريت (E M E R I T) فان سلا كانت لها تجارة واسعة عن طريق البحر ليس فقط مع الجزائر ولكن ايضا مع تونس، بفضل قافلتها التجارية (٣) البرية، التي اشرنا اليها، والتي كانت تتعرض كل سنة مارة بتلمسان ومعسكر، ومدينة الجزائر التي غدا للسلاويين فيها شارع يسمى باسمهم (٤)، وقسنطينة وذلك في طريق ذهابها الى تونس.

المبادلات مع مدينة الجزائر مع فاس : كانت فاس حاضرة المغرب الاولى في عهد المرينيين والوطاسيين احد مراكز التجارة والصناعة في المغرب.

و كانت المبادلات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينة فاس تتم عن طريقي البر والبحر. والمبادلات عن هذا الطريق الاخير كانت تتم عبر ميناء بادس ولا سيما تطوان، فعبر هذه المدينة الاخيرة كان التجار الجزائريون يصدرون الى فاس ما تقدم ذكره من البضاعة كالسيوف والخناجر والاقمشة الهندية والتركية (٥). وبعضهم كانوا يرافقون بضاعتهم الى هناك. ومن بين هؤلاء التجار اليهود في الجزائر (٦). وعن طريق البحر والبر كانت الجزائر تحصل على ما تقدم ذكره من بضائع المغرب كالعسل والصابون وغير ذلك.

وقد يرافق قوافل التجارة بين المدينتين تجار من الدول الاوربية. وكمثال على ذلك نذكر انه في سنة ١٦٠٥ توجه ولهم لانكو والجوهري الفرنسي شاتلمن الى فاس بالمغرب رفقة ثلاثين من تجار الجزائر (٨).

---

(١) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٧٨
(٢) نفسه : ص ١٨٧-١٨٩ وم.م.ت.م : هولندا ج ٥ ص ٢٦٦
(٣) م. ايمريت : المرجع السابق ص ٤١-٤٢.
(٤) نور الدين عبد القادر : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص ١٦٥
(٥) هايدو : طبوغرافيا عدد ٨٥ ص ٥٥ (٧) نفسه عدد ٨٥ ص ٥٤
(٦) نفسه : عدد ٨٦ ص ٦١
(٨) انظر مذكرة ولهم لانكو في مجلة تطوان عدد ٩ ص ١٣٨

لا ت مدينة الجزائر مع بقية المدن المغربية : كانت مدينة الجزائر على اتصال وعلاقة تجارية
ظم مدن المغرب وبيئاته المختلفة وذلك اما عن طريق تجارها اوغزاتها الذين يقصدون تلوان
ن . وغيرهما من المدن في شمال المغرب ، ولا سيما الساحلية منها كما رأينا ، اوعن طريق
ارة والحجاج المغاربة انفسهم الذين يسلكون الطريق البحري ويسافرون على متن السفن
زائرية او الطريق البري التلي ، فبواسطة هذه الطرق كانت مدينة الجزائر على
ال بتادلا، و تافيلالت ، والسوس ، وغيرها من المدن والمناطق ، وتحصل منها على بعض
رساتها كالجلد الفيلالي من تافيلالت (١) ، والصابون الذي يشتهر بصناعته بنو وامود ، وبنو
عيلد م بجبال الريف بشمال المغرب (٢).
ولرواج بعض صادرات المدن المغربية مدينة الجزائر ، وصلة بعض هذه المدن واهاليها
ية بالجزائر ، اشتهرت في هذه الاخيرة اسماء ، التادلي والفاسي والفيلالي والسلاوي وغيرها (٣).

سان : كانت تلمسان قاعدة ملك بني زيان، مركزا تجاريا رئيسيا في الغرب الجزائري للمبادلات
ارية بين الجزائر والمغرب ، ومحطة من محطات التجارة الدولية بين اوربا وبلاد السودان ،
س مدينة فاس المغربية ، وتتفوق عليها احيانا .
وقبل ان تفقد تلمسان مركزها كقاعدة للدولة في الجزائر لصالح مدينة الجزائر، كان لها
لا ت وعلاقات تجارية مع كثير من المراكز التجارية المغربية كتازه ، وفاس وسجلماسة، ودرعة وفجيج،
ا ، تصدر اليها وتستورد منها . فالى تازه ، كان تجار تلمسان يتوجهون ببضائعهم
ختلفة . قال مارمول : ((ان لتجار تلمسان وفاس وغيرهم تجارة قوية فيها . وان مدينة
كانت تمون المناطق المجاورة والتي تبعد عنها بنحو / ٣٠ / مرحلة بما تحتاج اليه من القمح (٤)
الى واهمية تازه الاقتصادية لا تخفى! اذ هي تقع على الطريق الرئيسي بين تلمسان وفاس وسط
خصب عالي لانتاج القمح وتربية الماشية (٥) . ومن المنتظر ان تكون الحبوب والماشية ،
ومنتجاتها كالصوف والالبان من صادرات تازه الى ما جاورها من البلاد الجزائرية، كتلمسان وغيرها.
وقد كانت تلمسان تستورد المنسوجات الصوفية ذات الجودة العالية من فجيج (٦) ، كما
ت تحصل من سجلماسة ودرعه على ما تحتاج اليه من الجلود، والنخلة التي كانت تستعملها

نور الدين عبد القادر : المرجع السابق ص ١٢
الوزان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٨
) نور الدين عبد القادر : المرجع السابق ص ١٤
و ٥) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٠
) نفسه : ج ٣ ص ٢٨

الصناعة وغيرها [1] ، في مقابل صادراتها الى هذه المراكز من المصنوعات والمنسوجات المختلفة .
كانت تلمسان مركزا صناعيا متقدما ، بمقارنتها بغيرها . وقد كان التجار التلمسانيون
يترددون على فاس للبيع والشراء ، وكذلك كان تجار فاس يفعلون .

وبحكم موقع تلمسان الهام الذي جعلها بوابة تنفتح على شرق المغرب وغرب الجزائر ، فقد
كانت القوافل البرية للتجار ، والحجاج الذاهبة من المغرب نحو الشرق [2] ، والآتية اليه تمر
بها وتتزود فيها بما يلزمها ، وتبيع هناك بضائعها . ولذلك فانها كانت مركزا هاما للمبادلات
التجارية على المحور الافقي بين الجزائر والمغرب ، بالاضافة الى انها مركز للمبادلات التجارية
على المحور العمودي بين اوربا وبلاد السودان [3] .

ولكن تلمسان اخذت في التقهقر منذ النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر
الميلادي وذلك اولا : لاستيلاء الاسبان على منافذها البحرية ، وهران والمرسى الكبير وتخريبهم
... نين ، وثانيا : لاضطراب الامور الداخلية فيها ، نتيجة اطماع الاسبان والسعديين فيها ، وتنافس
الامراء الزيانيين قبل ان يخلص امرها للاتراك في اواسط القرن العاشر الهجري / السادس عشر
الميلادي ، وثالثا : لتحويل السعديين لمحور التجارة مع بلاد السودان الى مدنهم الجنوبية ،
مراكش وتازه وتارودانت ، ومنها الى سواحل المغرب الاطلسية فأوربا .

المراكز الاخرى للتبادل التجاري بين الجزائر والمغرب : كانت واحات بسكره ، وتوقرت ، والاغواط ،
وورجلة ، وتوات ، وتيجورارين ، من بين اهم مراكز المبادلات التجارية بين البلدين [3] ، وذلك
بمناسبة مرور قوافل التجار والحجاج المغاربة بها ، اذ تشكل هذه الواحات محطات لها ، فيها
يستريحون ، وتنعقد الاسواق بهذه المناسبة ، فيحصل البيع والشراء بين الجانبين المغربي والجزائري .
وقد كان المغاربة يحضرون معهم للبيع الجلود المغربية المحضرة في تافيلالت ، والاحذية
البلدية (البلاغي او البلغات) ، والجبان ، والصابون ، والفلفل ، والاقمشة الحريرية ، والخيوط
وغير ذلك [5] . ويشترون ما يلزمهم في هذه المراكز من لوازم السفر من طعام ولباس ، ومتاع الركوب .

---

1) الوزان : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٢٤

٢) المجهول : المرجع السابق ص ٣٦

٣) الوزان : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٣٤

٤) نفسه : جـ ٢ ص ٤٣٦ ومارمول : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢-٣٤

٥) كاريت : التجارة ... ص ٢٣

وكانت للمراكز المذكورة صلات تجارية مع واحات المغرب الجنوبية كتافيلالت ، وفجيج ، والمدن الداخلية كفاس ، ومكناسة . والساحلية كتطوان (١) ، وقد ادرك السعديون بعد فترة قصيرة من بداية حكمهم في الجنوب المغربي ، اهمية واحات توات وتجورارين في تنشيط تجارة المغرب ، او التحكم في محاور التجارة بينها وبين شمال الصحراء وجنوبها ، وبالتالي تحويلها نحو المراكز التجارية في الجنوب المغربي ، كتارودانت ومراكش وغيرها ، فمدوا نفوذهم اليها منذ ٩٣٢هـ/١٥٢٦م ثم استولوا عليها في اواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٢) . فانتعشت بذلك التجارة في مراكز الجنوب المغربي، في حين تضررت تلمسان التي كانت تعتمد اساسا على التجارة مع هذه الواحات ، وبلاد السودان ، وهي التي كانت مصدر ثروتها ورخائها ، كما تضررت بالعوامل السابقة الذكر .

ولم تخف ايضا على حكام الجزائر الاتراك اهمية مراكز التجارة الواقعة في اطراف الصحراء واعماقها ولذلك فقد عملوا على مد نفوذهم نحو الجنوب الى بسكره وتوغرت وورجلة ، التي تمر منها القوافل التجارية الذاهبة الى بلاد السودان والآيبة منه ، بحيث يمكن النظر الى توجه كل من حكام الجزائر الاتراك العثمانيين ، وحكام المغرب السعديين على انه تنافس اقتصادي بينهم من اجل التحكم في التجارة مع بلاد السودان ، وفي طرقها . وقد يكون احتلال المنصور السعدي للسودان الى جانب ما استفاده منه ، نوعا من الحرب الاقتصادية ضد الجزائر .

وكما فقدت تلمسان الكثير من اهميتها وحيويتها للاسباب المذكورة ولغيرها من الاسباب ، فقد فقدت مراكز اخرى خضعت للاتراك ، بعض او كل اهميتها ومنها بسكره التي اخذت في التقهقر في بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، كما يستخلص ذلك مما قاله العياشي عنها ودونه في رحلته (٣) .

واما قسنطينة التي كانت مركزا تجاريا هاما في الشرق الجزائري ، فقد كانت مبادلاتها مع تونس اكثر فيما يبدو ، من مبادلاتها مع المغرب ، اذ كانت قافلتها التجارية تتجه الى تونس والى واحات الجنوب (٤) ، ومن خلال هذه الاخيرة كانت تتبادل البضائع مع المغرب .

كما كان لقسنطينة ايضا مبادلاتها التجارية مع المغرب من خلال قافلة سلا الآنفة الذكر التي كانت مدينة قسنطينة احدى محطاتها الرئيسية .

---

(١) نفسه ص ٢٣
(٢) مارتيني وآخرين تاريخ المغرب ص ٢٠٨ ، ٢١٥
(٣) العياشي : المرجع السابق ج ٢ ص ٤١٢
(٤) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦٦

تلك كانت اهم المراكز التجارية ومراكز التبادل التجاري في الجزائر مع المغرب ، اما اهم مراكز التبادل التجاري في المغرب ، فبالاضافة الى التي وردت الاشارة اليها وهي بادس ، وتطوان والعرائش وسلا ، وفاس وتازه وفجيج ، وتافيلالت ودرعه والسوس ، نشير الى مراكش عاصمة الدولة السعدية ، ونلاحظ ان مبادلاتها التجارية مع المراكز التجارية في الجزائر كانت تتم على الخصوص عبر مراكز التجارة المغربية في شرقي جنوب المغرب وشماله . ولا يبدو ان مبادلاتها كانت في مثل اهمية مبادلات فاس.

ج - طبيعة العلاقات والعوامل المؤثرة فيهما :

ومن كل ما تقدم يستخلص ان العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في الفترة موضوع الدرس ، استمرت قائمة ، كما كانت عليه في المراحل السابقة ، ولم تأخذ صبغة سياسية اذ لم يسع الحكم في البلدين الى اخضاعها لاتفاقيات معينة ، في وقت اخذت الرسوم الجمركية بين البلدان تكتسب اهمية اكبر فأكبر . ولعل اعتماد الحكم في البلدين على الاسس الاسلامية السنية المالكية ، الواحدة في مختلف اصول المبايعات والتبادل والمكوس الشرعية ، لم يشعر الحكم في البلدين بضرورة اللجوء الى مثل تلك العلاقات .

ومثلما لم تأخذ تلك العلاقات صبغة اتفاقات ما بين البلدين ، فانها لم تكتس طابع حرب اقتصادية على الرغم من التنافس بينهما على التجارة مع السودان بصفة خاصة ، وان كان من الممكن النظر كما اشير سابقا الى احتلال المنصور للسودان على انه نوع من حرب اقتصادية خفية ضد العثمانيين في الجزائر ، واغلاقه لطريق الذهب البري في وجههم .

كما ان هذه العلاقات على الرغم من تواصلها ، لم تزدهر بالقدر المنتظر ، وذلك لان عوامل عديدة كانت تؤثر فيها تأثيرا سلبيا ، ولا تساعدها على النمو . ومن هذه العوامل :

1 - الاوضاع السياسية في البلدين ، وعلاقاتهما السياسية ببعضهما التي كانت تتميز على الصعيد الداخلي لكلا البلدين بالاضطراب في فترات كثيرة ، الامر الذي لم يكن ليساعد على ازدهار التجارة ، وسائر المبادلات الاقتصادية بين البلدين ، اضف الى ذلك صراعهما العسكري والاقتصادي مع الاسبان والبرتغاليين .

واذا ما اريد النظر الى تلك العلاقات الاقتصادية ضمن اطر المراحل الاربع في العلاقات السياسية يمكن القول :

ان العلاقات الاقتصادية خلال المرحلة الاولى ٩٢٣ - ٩٥٦هـ/١٥١٧-١٥٤٩م التي كانت فيها اوضاع البلدين مضطربة ، والقوى السياسية المتصارعة عديدة استمرت قائمة (1) ، ولكنها كانت تعاني من تلك الاوضاع غير الملائمة لازدهار العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، وصراع

---

(1) المجهول : تاريخ الدولة السعدية (وفيه اشارة الى استمرار توجه التجار المغاربة في عهد عبد الله الغالب بالله الى الجزائر) انظر ص 36

تلك القوى السياسية التي كانت قائمة فيهما ،فيما بينهما . الا ان هذه المرحلة شهدت مع ذلك قيام علاقات اقتصادية بين الحكام العثمانيين ،وحكام المغرب الوطاسيين ،وامراء الامارات التابعين لهم في شمال المغرب .

ولكن هذه العلاقات الاقتصادية لم تخضع في هذه المرحلة لاتفاقات مكتوبة ،تقننها وتحددها . ونتيجة للاوضاع السائدة في البلدين في هذه المرحلة فان المبادلات الاقتصادية بينهما ،كانت قائمة على الخصوص بين المناطق المتجاورة في كلا البلدين ،وفي المراكز التي تمر منها قوافل التجارة مع بلاد السودان والتي تمر منها ركائب الحج المغربية في الجزائر ،وبين الموانئ التي كانت تتردد عليها سفن البلدين .

اما العلاقات الاقتصادية في المرحلة الثانية (٩٥٦-٩٨٢ هـ /١٥٤٩-١٥٧٤م) التي اتسمت من الناحية السياسية كما رأينا بالتوتر والعنف احيانا وسعي حكام البلدين الى السيطرة والتحكم في محاور التجارة عن طريق السيطرة على مراكز التجارة المتحكمة في تلك المحاور ،فلم يكن لتزدهر او تتطور في ظل تلك الاوضاع والظروف . وان كانت تلك الاوضاع والظروف لم تستطع في الوقت نفسه ان تقضي تماما على المبادلات الاقتصادية بين البلدين ،اذ ظلت هذه المبادلات ولا سيما المبادلات التجارية تجري في مجراها[1] سواء في المواد التي تحقق التكامل بينهما ،وبين المناطق المتجاورة ، اوغيرها .

واما في المرحلة الثالثة (٩٨٢-٩٩٥هـ /١٥٧٤ - ١٥٨٧م) التي اتسمت فيها العلاقات السياسية كما رأينا بالتذبذب بين السلام والتهديد ،فقد شهدت فيها العلاقات الاقتصادية نوعاً من التطور والنمو ،كما يستخلص ذلك من المصادر المعاصرة . اذ تحدثت عن مبادلات تجارية نشيطة خاصة بين الجزائر العاصمة الجديدة وتطوان[2] .

واخيرا فان العلاقات الاقتصادية في المرحلة الرابعة (٩٩٥-١٠٦٦ هـ / ١٥٨٧-١٦٥٦م) ، التي تتوافق في الجزائر مع عهد الباشاوات ،وفي المغرب مع شطر من عهد المنصور وعهد ابنائه فقد تميزت بتحويل المنصور لمحاور التجارة مع بلاد السودان نحو المغرب ،ثم الاستيلاء على قسم هام من بلاد السودان نفسها ،مما كان له اثره السلبي على المراكز التجارية في الجزائر . ولكن ذلك لم يستمر في عهد ابنائه ،فمالت محاور التجارة مع بلاد السودان نحو الجزائر والشرق من جديد ،بينما نشطت المبادلات بين مدينة الجزائر وتطوان وسلا[3] ،وضعف شأن فاس وتلمسان لاضطراب الاوضاع فيهما خلال هذه المرحلة .

---

(1) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 36(وفيه اشارة الى استمرار توجه التجار المغاربة في عهد عبد الله الغالب الى الجزائر رغم ان العلاقات بين البلدين لم تكن سلمية دائما ،في عهده .

(2) هايدو : الطبوغرافية في المرجع السابق عدد ٨٥ ص ٥٥

(3) محمد حجي : تاريخ الزاوية الدلائية .

٢ ـ الواقع الجغرافي الذى جعل احد البلدين امتدادا للآخر كما اوضحنا ذلك في المدخل وجعل مواردهما الزراعية والحيوانية والباطنية وفعاليات سكانهما في جميع الحقول الاقتصادية متجانسة الى حد كبير ، وسهل بالمقابل عمليات التواصل والتبادل الاقتصادي ، الا ان هذا التجانس او التشابه الكبير اثر ولا شك في العلاقات الاقتصادية بين البلدين حيث كان وما زال يدفع حكام البلدين الى تحقيق التكامل مع بلدان اوربية وافريقية ، جنوب الصحراء ، وبالتالي الى توسيع مبادلاتهم الاقتصادية معها ، ولكن مع المحافظ على قدر من المبادلات مع البلد المجاور ، وخاصة في المواد القليلة التي ينفرد احد البلدين بانتاجها كالسكر في المغرب على سبيل المثال .

٣ ـ حالة الطرق السيئة واضطراب الامن فيها والاوبئة المتكررة ، كانت كلها عوائق في وجه ازدهار الحياة الاقتصادية في البلدين ، ومن ثم في وجه ازدهار العلاقات الاقتصادية بينهما .

٤ ـ انصراف الحكم في البلدين الى تنمية "التجارة" مع الدول الاوروبية بعقد الاتفاقات التجارية وتشجيع المبادلات مع الدول الاوروبية أكثر فأكثر ، حتى يحصل على المواد والسلع التي كانت تأتي اوروبا من بلاد الهند، او قارة امريكا ، او التي كانت تنتجها اوروبا نفسها ، وبالدرجة الاولى الاسلحة المتطورة فيها . وبالوقت نفسه تربح السلطات الحاكمة ، وبعض فئات السكان مرابح كبيرة من تصدير السلع ، التي كان ينتجها البلدان ، والتي كانت اوروبا بأمس الحاجة اليها للارتقاء بصناعتها المتنوعة ، وهذه المرابح تفوق بالطبع ما كان يتأتى لها من علاقة الجوار المعتادة . ولهذا الغرض احتكر العثمان في المغرب والجزائر الكثير من السلع . فالحكم السعدي احتكر الاتجار بالسكر، والمعادن المختلفة، والقمح ، وكذلك احتكر الحكم العثماني في الجزائر، الاتجار بالشمع والجلود ، والزيت، والاخشاب الصالحة لبناء السفن ، وغيرها ، للاتجار بها مع الدول الاوربية .

٥ ـ عامل الحج : وامام هذه السلسلة من العوامل السلبية التأثير على العلاقات الاقتصادية بين البلدين لا يكاد يجد المرء سوى عامل واحد، يحد من اثرها السلبي واعني به عامل الحج الذى كان يمرر سنويا قافلة من الحجاج، ولكن ايضا من التجار، ما جعل العلاقات الاقتصادية بين البلدين والمبادلات التجارية على الخصوص مستمرة في جميع الاحوال والظروف . .

ولكن الباحث في العلاقات بين البلدين كما ذكرنا منذ البداية يصطدم بعدم توافر الاحصاءات عن المبادلات التجارية التي كانت تتم بين البلدين ، وهي ضرورية ليقدر بشكل دقيق مدى اهمية هذه المبادلات او مدى حجمها . كما يصطدم ايضا بشح المصادر المتوافرة في اعطاء التفاصيل عن الحقول الاقتصادية الاخرى ...

ونظرا للعوامل العديدة الآنفة الذكر ذات التأثير السلبي على العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، فقد بدت هذه الاخيرة بصورتها المشار اليها ضعيفة، بمقارنتها مع علاقات البلدين مع الدول الاوروبية في نفس الفترة، وان ظلت عامل وصل وتلاق بين البلدين، يدعم ايجابيا العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ويتجاوز العلاقات السياسية .

الباب الثالث

العلاقات الاجتماعية والثقافية

الفصل التاسع : العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية .
الفصل العاشر : مظاهر العلاقات الاجتماعية والثقافية .

الفصــــل التاســـع

العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافيـــة

يتضح للباحث في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ،من خلال تأمله فيها ، وفي الحياة الاجتماعية والثقافية في كلا القطرين ،ان هذه العلاقات كانت متأثرة بعوامل قديمــة واخرى جديدة.فأما العوامل القديمة فيمكـن حصرها في :

آ ـ الروابط الجغرافية :

فالبلدان ـ كما سبق وأوضحنا ـ متجاوران ، احدهما امتداد للآخر ،لا فاصــل طبيعي ، وحقيقي ، يفصل بينهما . وبالتالي فلم يكن هناك من الناحية الجغرافية مايحــول دون اتصال سكانهما ، أو احتكاكهم ببعضهم ،وانتقالهم من بلد الى آخر . اومايمنع من تشابه الحياة الاجتماعية والثقافية في البلدين ، تشابه طبيعتهما ، وقيام علاقات قوية بينهما في هذين المجالين على غرار مافي المجالات الاخرى.

ب ـ الروابط التاريخية :

وتقدمت الاشارة ايضا الى ان البلدين كانا خلال فترات طويلة بلدا واحدا ، تحكمهما دولة واحدة ، سواء في العهد الاسلامي ، او في عهد ماقبل الاسلام . وكانت تلك الفترات كافية لتعمق الروابط بين البلدين وترسيخها ، ولو انفصلا عن بعضهما فيما بعد ، وكان بين حكومتي البلدين تنافس ونزاع .

ج ـ الروابط البشـــرية :

فالعناصر الرئيسية التي كان يتألف منها سكان المغرب ،وهي : البربر والعرب كانت هي ذات العناصر التي يتألف منها سكان الجزائر ، واصول بربر المغرب وعربه هي نفســس اصول بربر الجزائر وعربها وحتى العناصر الفرعية : السودانية والاندلسية والاوربية تكاد تكـون واحدة في البلدين : .

وتعود اصول القبائل البربرية في البلدين الى المجموعات البربرية الخمس الكبيرة وهي : زناته ، وصنهاجة ، ومصمودة ، وهوارة ، وغمارة (1) . والظن ان هذه المجموعات تنحدر من سكان شمال افريقيا القدامى ، الذين كان الاغريقيون يسمونهم " الليبيين" . اما ابن خلدون فينسب بعضها كزناته الى عرب شمال الجزيرة العربية ، وينسب بعضها الآخر كصنهاجة الى عرب

---

(1) الوزان : المرجع السابق ج1

الجنوب ، عرب اليمن ، معتمدا في ذلك على ماكان يتردد في عصره من الروايات (١) ، والتي يحتمل ان يكون التحريف قد اعتراها . ويرجع بعضهم اصول البربر الى اقوام شماليةاوربيـــة ، او الى اصول آسوية وافريقية ، تبعا لاختلاف لون بشرة السكان من البياض الى السواد (٢). وهي روايات لا تبعث المرء على اليقين ، خصوصا اذا علمنا ان الانسان المغربي الذى عثر على فكه قرب الرباط ، يحوى صفات بدائية جدا ، قريبه من اقدم البقايا البشرية المعروفة حاليا (٣) .

اما اصول القبائل العربية في الجزائر والمغرب فتعود الى ثلاث قبائل رئيسية هي قبائل بني هلال ، وسليم ، وهؤلاء من عرب الشمال ، وقبائل بني معقل وهؤلاء ينتمون الى عرب اليمن (٤).

وحتـــــى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، كان لا يزال بالامكـان تحديد مواطن القبائل العربية والبربرية في كل من الجزائر والمغرب وارجاعها الى مجموعاتهـــا المذكورة وهو ما يؤكده الحسن الوزان في كتابه وصف افريقيا (٥) . علما أن اندماج بعض القبائل البربرية وذوبانها قد بدأ كما لاحظ ذلك ابن خلدون بالنسبة لزناته منذ القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . ولم تلبث بعد ذلك ان ذابت بعض القبائل المعقلية في صنهاجة .

د ـ الروابط الدينية : يدرك عمق هذه الروابط الدينية اذا علم ان الدين الاسلامي والمذهب السني المالكي كانا ولا يزالان يسودان في كلا البلدين سيادة مطلقة على ماسواهما ، ويشدانهمـا شدا قويا وان الطريقتين الصوفيتين الشاذلية والقادرية وفروعهما كانت قائمة في كلا البلديـــن .

هـ ـ الروابط اللغوية والثقافية : وكما ساد الدين الاسلامي في البلدين سادت فيهما الثقافـة العربية الاسلامية ، وتجانست فيهما اللغة واللهجات ، وطرق التدريس ومواد الدراسة ، والكتب الدراسية مما كان يزيد في قوة الروابط بين افراد المجتمعين الجزائرى والمغربي ، اذ كانـــت مساجد البلدين دوما مفتوحة في وجه طلبتهما .

ونتيجة للروابط العديدة التي تقدم ذكرها والتي كانت تؤلف بين المجتمعين المغربـــــي والجزائرى فقد كانت العلاقات الاجتماعية وكذلك الثقافية كما سيتضح اكثر في هذا البحث قـــــد ادت الى تجانس العادات والتقاليد في البلدين في اللباس ونمط المعيشة والاعيــاد والاحتفالات ، كما أدت الى وحدة ثقافية وفكرية فيهمـــا .

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج٧ ص٣
(٢)(٣) عبد الرحمن حميده : دراسة في الجغرافية المشرقة ص 86 .
(٤) الوزان : المرجع السابق ج١
(٥) عبد الرحمن حميدة : المرجع السابق ص٩٢

ب- الهجرة والتنقـــل :

على ان ماكان يزيد الروابط متانة وعمقا هو تلك الحركة الدائبة والمستمرة المتمثلة فـي الهجرة والتنقل بين البلدين لمختلف الفئات الاجتماعية ، ولمختلف الاغراض ، كالتجارة وطلـب العلم وزيارة الأهل والأقارب ، والأولياء والمشايخ . وأشهر ما نذكر من هذه الفئات ، فئـة المثقفين من الطلبة والعلماء ومن هم على شاكلتهم كالمرابطين ، تلك الفئة التي كان لها تأثيرهـا القوي في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين البلدين مما يجعلنا نركـز عليها اكثر من غيرهـا ، في ابراز العلاقات القائمة بين البلدين في المجالين الاجتماعي والثقافي في الفترة موضوع الدرس، وفعلها.

فمن اسماء اشهر من طلبة المغرب والجزائر الذين تنقلوا من بلد الى آخر قبل الفتـرة موضوع الدرس نذكر على سبيل المثال لا الحصـر :

١- أبا محمد عبد الله الورياجلي (١) . الذى انتقل من المغرب الى تلمسان للأخـذ عن عالمها ابن مرزوق الحفيـد . ثم عاد الى بلاده وتصدر للعطاء في المراكز الثقافيـة المغربية واصبح من اشهر علماء المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى ومطلع القـرن العاشر الهجـرى .

٢- أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي الشهير بزروق (٢) . الذى هاجـر في النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى الى تلمسان وأخذ عـن علمائها أمثال أحمد بن زكرى (٣) (والحافظ التنســي) (٤) . ومحمد بـــــن

---

(١) انظر عنه ابن عسكر : دوحة الناشر ص٥ ٢
(٢) انظر عن زروق ابن عسكر: دوحة الناشر : ص ٣٨-٤٠ ، ابن مريم: البســتان ص٤٥-٤٧
(٣) توفي في سنة ٨٩٩ هـ بتلمسان ، صاحب مؤلفات عديدة منها بغية الطالب ، ومنظومـة يزيد عدد أبياتهـا عن ألف وخمسمئة بيت في علم الكلام . انظر عنه ابن مريم : البســتان ص٣٨-٤١ ، ابن عسكر دوحة الناشر ص٨٨-٨٩ وأحمد بابا : نيل الابتهاج ص٨٤
(٤) محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي توفي سنة ٨٩٦ هـ . صاحب نظم الدر والعقيان في التاريخ والطراز في شرح الخراز في ضبط القراءات . وغيرها . انظر عنه ابن مريم : نفس المرجع ٢٤٨ - ٢٤٩ . أحمد بابا : نفس المرجع ص٢٢٦-٢٣٠ الحفنـاوى : تعريف الخلف ج١ ص١٦١

يوسـف السنوسي (١). وغيرهم ،ثم هاجر الى مدينة الجزائر حيث أخذ عن عالمها وامامها عبد الرحمن الثعالبي (٢) ،فبجاية حيث أخذ عن الشيخ المشدالي (٣). وفي نواحي بجايـة أخذ أيضا عن الشيخ يحي العيدلي (٤)، وبمسجد هذا الأخير في تاموقرا ، ألف زروق بعض تآليفـه .

وزروق هذا هو صاحب الطريقة الزروقية التي كان لها أتباعها في الجزائر والمغرب (٥). أما من الطلبة الجزائريين الذين انتقلوا الى المغرب (طلبا للعلم) في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي فنذكر على سبيل المثال :

ـ محمدا بن محمد العباس التلمساني (٦) ، الذي رحل الى فاس للأخذ عن عالمها الشهير أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي (٧) ،الذي انتهت اليه رئاسة العلم والفتيا بمدينة فاس ، والامامة بجامع القرويين .

---

(١) محمد بن يوسف السنوسي التلمساني : توفي سنة ٨٩٥هـ صاحب العقائد الخمس في التوحيد التي غدت منذ تأليفها موضوع الدرس والتدريس والشرح والحفظ انظر عنه ابن مريم : البستان ص ٢٣٧ - ٢٤٨ وأحمد بابا : نيل الابتهاج ص ٣٢٥ - ٣٢٩ .

(٢) توفي في مدينة الجزائر سنة ٨٧٥ خلف تلاميذ كثيرين وما ينيف عن ٩٠ مؤلفا في التفسير والفقه والحديث والسيرة والتصوف والقراءات وغيرها انظر عنه أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ١٧٣ - ١٧٥ ، والحفناوي : تعريف الخلف بر(ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) محمد بن أبي القاسم بن عبد الصمد المشدالي : توفي في سنة ٨٦٦. صاحب مؤلفات عديدة في الفقه منها مختصر البيان لابن رشد ومختصر أبحاث ابن عرفة وحاشية على المدونة انظر عنه الحفناوي : تعريف الخلف ج١ ص١٠٥ .

(٤) والورثيلاني : نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار تحقيق ابن أبي الشنب الجزائر ١٩٠٨ ص ٦٠٣ .

(٥) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ص ٥٣ وهامش ١٠٧

(٦) ابن مريم : البستان ص ٢٥٩

(٧) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٣٦ - ٣٧

ذكر ابن مريم تاريخ رحلته الى فاس وعودته منها ، الا انه كان حيا في سنة ٩٢٠هـ.
عليا بن موسى بن علي بن هارون المطغري (1) ، من أعمال تلمسان الذي رحل
اس في ([illegible] / [illegible]) ولازم فيها ابن غازي المتقدم ذكره تسعا وعشرين سنة ، وحصل عنه
جما حتى وصف بأنه خزانة علم لكثرة العلوم والفنون التي ألم بها ، وتحصل من استاذه
وعلى اجازة سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م . كما اخذ من الاساتذة عديد من آخرين .

وبينما كان بعض الطلبة الجزائريين والمغاربة ، يعودون الى وطنهم الاصلي بعد
مال الدراسة ، كما فعل ابن العباس المذكور ومحمد الورياجلي وغيره ، كان بعضهم الاخر يؤثر
مة بصفة نهائية مهجرة ، لما وجده فيه من تقدير واحترام أو حظوة أو أمن واستقرار ،
ظيفة مناسبة ، او لغير ذلك . ومن هؤلاء المطغري المتقدم ذكره . فقد تصدر للتدريس
اس بعد تخرجه منها على كبار مشايخها ، ولما انتهت اليه رئاسة العلم فيها بعد موتهم
ت تشد اليه الرحال . وكثر الآخذون عنه ، وحصلت له وجاهة كبيرة لدى بني وطاس
ين عدوه قضاء الجماعة في فاس (2) .
يم التازي الذي أثر استيطان وهران بعقلا دائمة وفيها خلف شيخه محمد الهواري في زاويته وذاع صيته وانتشر (3) .

ويجد الباحث في كتب التراجم اسماء كثير من علماء الجزائر انتقلوا الى المغرب ، قبل
حلة طلبة العلم . لا للأخذ عن علمائه ، ولكن ابتغاء العيش هناك في هدوء واطمئنان
حترام وتقدير . ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر ؛ أبا زيد عبد الرحمن بن محمد
اوي ، الذي وصفه ابن القاضي في درته بالفقيه ، العالم ، وذكر انه كان خطيب المدرسة
وكلية بفاس وفقيهها ، وانه توفي في سنة ٨٩٥هـ / ١٥٠١م (4) . وسكت عن ذكر تاريخ
رته الى فاس ودواعي استيطانه فيها .
محمدا بن المناجي ، نزيل وادي درعة ، الذي كان كما وصفه ابن عسكر ((سيدا
لا ، عالما بغرائب العلوم ، عثر على الحكمة ظاهرا وباطنا .)) (5) . ولا ندري متى هاجر
جنوب المغرب ، الا اننا نعلم انه كان ذا وجاهة لدى السلطان الوطاسي محمد الشيخ
٨٧٦-٩١٠هـ/ ١٤٧١ - ١٥٠٤م)) الذي انتدبه لافتداء اسرى المسلمين في اسبانيا
ـمات غريقا في البحر وهو في طريقه إلى جزيرة الاندلس للغرض المذكور .

---

(1) انظر عنه ابن عسكر الدوحة ص ٤ - ٤١ ، الافراني : النزهة ص٢١ ، الحفناوي : تعريف الخلف ج٢ ص ٢٨١
(2) ابن مريم البستان : ص ٥٨
(3) ج٣ ص٩١
(5) ابن عسكر : الدوحة ص٦٨ - ٦٩

ـ أبا العباس أحمد بن يحي الونشريسي : الذي هاجر الى المغرب في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ، فرارا من اذى السلطان الزياني ابي عبد الله محمد ، بعد وحشة وقعت له معه ، وانتهاب داره ، واستوطن فاس الى ان توفي بها في سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م [(1)].

وقد هاجر احمد الونشريسي وهو كامل العدة كما يقال ، وجاهز للعطاء ، اذ هاجر وهو ممتلئ الوطاب من علم علماء تلمسان الاعلام في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي امثال : ابن مرزوق الكفيف ، والامام محمد بن العباس وابي عبد الله الجلاب ، وغيرهم. ومع ذلك فقد كان يحضر مجلس القاضي المكناسي في فاس .

وقد تصدر احمد الونشريسي في مهجرة لتدريس الفقه واصوله ، وكان واسع الاطلاع فيه محيطا بالمذهب المالكي ، احاطة شهد له بذلك معاصروه حيث قال عنه الشيخ الامام ابن غازي شيخ الجماعة في فاس ، مرة لمن حوله : ((لو ان رجلا حلف بطلاق زوجه ان ابا العباس احاط بمذهب مالك ، اصوله وفروعه لكان بارا في يمينه ، ولا تطلق عليه زوجته)) [(2)] .

وكثر الاخذون عنه ، وتخرجت على يده نخبة من اعيان علماء المغرب في النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابنه عبد الواحد الذي جمع بين الفتيا والخطابة والتدريس في فاس . ومحمدا بن الغرديس قاضي فاس الجديد ، وأبا زكريا يحي السوسي ، ومحمد بن عبد الجبار الورتدغيري والحسن بن عثمان التاملي وعبد السميع المصمودي وغيرهم . [(3)] .

كما تصدى أيضا للتأليف فترك عدة مؤلفات ثمينة في موضوعها عظيمة القدر منها : ((المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب)) في عدة اسفار (١٢ جزءا) وله ايضا الفائق في الوثائق ، " وايضاح المسالك في قواعد مذهب مالك " وغيرها [(4)] .

وكما اعترف للونشريسي بالتفوق والتبحر في الفقه ، اعترف له بفصاحة اللسان والقلم حتى كان من يحضره يقول : ((لو حضر سيبويه لاخذ النحو من فيه)) [(5)] ، الا ان علماء فاس ، قبل ان يعرفوا فضل احمد الونشريسي حق المعرفة ، لم يلتفتوا الى جانبه في النزاع الذي وقع بينه وبين عبد الله الورياجلي في ٨٧٩ هـ وسببه ان الورياجلي أخره عن بعض المدارس وتقدم هو (الونشريسي) مكانه فتنازعا في المرتب من يستحقه منهما فمال علماء فاس الى تأييد الورياجلي ، وقضوا بحرمان المولى فكاد احمد الونشريسي يموت غيظا ، ولا سيما ان فتاوى

(١) ابن القاضي جذوة الاقتباس ص ٨٠ - ٨١
(٢) ابن عسكر : الدوحة ص ٣٧
(٣) انظر تراجمهم في ابن القاضي : درة الحجال ، وجذوة الاقتباس و ابن عسكر دوحة الناشر والافراني : النزهة
(٤) ابن عسكر ، وابن القاضي ، وابن مريم : في مصادرهم السابقة .
(٥) ابن القاضي : الجذوة ، ص ٨١

...بار علماء تلمسان بصدد قضية التي طرحها عليهم أفتت باستحقاق المقدم دون المعزول (1).

وموقف علماء فاس المذكور من الونشريسي ينم عن مقاومتهم لمنافسة العلماء الوافدين ... الى المغرب سواء من الجزائر او غيرها لهم على الوظائف العلمية والدينية ، هذا في الوقت الذي كانت فيه السلطة الحاكمة ترحب بالوافدين وتقربهم بل وتؤثرهم على علماء المغرب احيانا ، ... محمد بن المنابي المتقدم ذكره كان السلطان الوطاسي يدخله الى عقر داره حيث نسوته وجواريه، فوق انه انتدبه للقيام بمهمة افتداء الاسرى مع وجود العلماء في فاس (2).

ومما تقدم يتجلى الاسهام الكبير لعلماء الجزائر في مهجرهم في الحياة الثقافية المغربية ، ودورهم الايجابي في تنشيطها ... الفوائد الكثيرة التي كان من الممكن ان تعود على الحياة الثقافية في الجزائر لو ان هؤلاء المهاجرين ظلوا في مختلف المراكز الثقافية التي هاجروا منها.

كما يتضح بأن الجزائر قد قدمت الى المغرب نخبة عالية المستوى من علمائها الكبار في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، بينما لم يهاجر اليها في هذا القرن الا عدد قليل من الطلبة والعلماء المغاربة . ولم يستوطنها منهم الا القليلون .

والواقع ان المتمعن في كتب التاريخ ولا سيما في كتب التراجم بالنسبة لما قبل سنة ١٥١٦م / ٩٢٢هـ يجد دوما ان حركة العلماء والطلبة والفئة المثقفة بصفة عامة ، وكذلك حركة انتقال القبائل ، كانت اقوى من الجزائر الى المغرب ولا سيما في عهد الموحدين والمرينيين حين كانت الجزائر اقليما تابعا للحكومة المركزية في المغرب وحيث ان كثيرا من الوظائف العلمية والدينية مثل القضاء والخطابة ، والامامة في كثير من حواضر المغرب كمراكش وفاس وسبتة ، وسلا ، وغيرها ، قد شغلها جزائريون ، انتقلوا الى المغرب ، اما من تلمسان او بجاية ، او غيرها . كما شغل بعضهم الكتابة والسفارة (3).

ويمكن رد ذلك الى العوامل التالية :

1- رغبة السلاطين المغاربة في جذب المثقفين الجزائريين الى المغرب ، او اغرائهم بالبقاء فيه ، بل وفي نقل بعض القبائل من منطقة الى اخرى في البلدين . فالسلاطين الموحدون كانوا يدعون المثقفين الى المغرب ، ويسندون اليهم ارفع الوظائف العلمية والدينية ، وكان السلاطين المرينيون بعدهم ، امثال : ابي الحسن المريني ، وابنه ابي عنان ، يصطحبون

---

(1) ابن القاضي : نفس المرجع السابق ص٢٤٩
(2) ابن عسكر : دوحة الناشر ص٢٦
(3) من الجزائريين الذين تولوا القضاء في المغرب قبل سنة ١٥١٢ (ابن ابي جنون التلمساني ، ومحمد بن ابراهيم البجائي ، ومحمد بن علي الصنهاجي . انظر عنهم احمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٠٧ ، ٢٨٨ وعنوان الدراية للغبريني . ومن الذين تولوا السفارة ابن مرزوق) ومحمد بن محمد المقري انظر عنهما ابن مريم : البستان ص١٨٤ و ١٥٤

...عون تهم من الجزائر نخبة من علمائها (١) ، ويغرونهم بالبقاء في بلادهم بمختلف الوظائف
...مية . اما السلاطين الوطاسيون الذين لم تكن لهم اي سلطة اونفوذ على الجزائر فقـد
...يسلونها بتعظيم والتقدير من يفد اليهم من علماء الجزائر ويشرفونه بالوظائف المختلفة ، مما
...ل كثيرا من العلماء الجزائريين يهاجرون الى المغرب ولا يعودون الى مواطنهم في الجزائر(٢)

...ان الجزائر كانت لا تملك معهدا او جامعا في مستوى جامع القرويين في فاس ، ولذلك فقـد
...بعض طلابها يقصدون فاس لاستكمال دراستهم " العالية " في القرويين كما كان بعضهـم
...دون جامع الزيتونة في تونس وجامع الازهر في القاهرة وغيرها من مراكز العلم في المشـرق ،
...صة بعد سقوط المراكز العلمية في الاندلس تماما . وقد كانت هي الاخرى مقصودة من قبـل
...بة الجزائـر .

...ب الظروف السياسية والامنية في الجزائر ، الزيانية والحفصية التي كثيرا ماكانت ماضطـرب
...سبب الافتتان على السلطة بين الحفصيين والزيانيين وبين امراء كل اسرة ، او بسبب الغزو
...سباني الذي نشط مع بداية القرن العاشر الهجري / والسادس عشر الميلادي ، فجعـل
...بعض علماء الجزائر وطلبتها ، وكذلك بعض اسرها يهاجرون الى المغرب او المشرق بحثا
...ن اماكن اكثر هدوءا واستقرارا وامنا .

... اضف الى ذلك الدوافع الشخصية والاسباب الخاصة ، كما تقدم بصدد هجرة أحمـد
...ونشـريسـي .

ولا شك ان وجود جامع القرويين في فاس حيث تقدم فيه دراسات عالية المستوى للطلبـة
المغاربة وغيرهم من المسلمين ، مع وجود حكام مغاربة يؤثـرون العلماء ويعطـون العلـم
...يشجعونه ، قد جعل الكثيرين من العلماء ، والطلبة المغاربة ، لا يهاجرون نحو الجزائـر
...بكثرة ، وحتى الذين كانوا يهاجرون اليها والى المشرق او الى الاندلس كان بعضهم ان لـم
...يكن اكثرهم يعودون الى وطنهم بعد تحقيق غرضهم من وراء الهجرة مما جعل الحياة الثقافية
في المغرب لا تعاني مثل الجزائر من نزيف هجرة المثقفين بشكل كبير نحو الخارج سواء الى المغرب
او المشـرق .

الا ان حركة هجرة العلماء والطلبة الجزائريين نحو المغرب في أواخر القرن التاسع
الهجري قد قلت وخفت نسبيا عما كانت عليه في القرون الثلاثة السابقة (٦٢٦-٨٧٤ هـ) ، ذلك
ان المغرب كان طوال القرن التاسـع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وحتى منتصـف
القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، في غاية الاضطراب ، نتيجة التدخـل

---

(١) استقطب ابو الحسن وابو عنان : ابن مرزوق الجد ، ومحمدا بن محمد المقري ، ومحمدا ابن ابراهيم الابلي ومحمدا الادريسي التلمساني (٢) تولى في عهد الوطاسيين كل من علي المالقري وعبد الواحد الونشريسي القضاء ، والفتيا ، والخطابة والتدريس ، وكانت لهم وجاهة كبيرة لديهم . انظر عنهما ابن عسكر : الدوحة ص ٤ ، ٤١

والغزو الخارجي ، وتجزؤ المغرب بعد سقوط الدولة المرينية بل ان حركة الهجرة اخذت تنشط من المغرب نحو الجزائر في القرن التاسع الهجري الذى كان المغرب فيه مضطربا .

ب- العوامل الجديدة :

اما العوامل الجديدة التي اثرت في العلاقات الاجتماعية والثقافية فيمكن حصرها في :

١- الغزو الخارجي الاسباني والبرتغالي للبلدين .

٢- استمرار تدفق المهاجرين الاندلسيين .

٣- قيام الحكم العثماني في الجزائر والحكم السعدي في المغرب .

آ- اثر الغزو الاسباني والبرتغالي :

ان الغزو الاسباني والبرتغالي لشواطئ البلدين وتجاوزها من المناطق الداخلية الذى بلغ أوجه في المرحلة مدار البحث . على الرغم من انه لم يترك اثرا اجتماعيا وثقافيا ذا بال خلال وجوده فيهما الا انه قد تسبب في خراب كثير من المدن الثغرية الساحلية التي كان بعضها كوهران وبجاية وسبتة وطنجة مراكز اجتماعية وثقافية هامة تتم فيها المبادلات الثقافية بين البلدين ، حيث كان يقصدها طلاب وعلماء من الجزائر والمغرب اما للأخذ عن علمائها ، أو للمساهمة في نشر العلم بها . مما اثر في الحياة الثقافية في كلا البلدين وفي العلاقات الثقافية بينهما .

فنتيجة لخراب الكثير من المدن ، بعد احتلال الاسبان او البرتغاليين لها ، وجلاء سكانها عنها ، لم تنشط فقط حركة الهجرة الداخلية من تلك المدن ، ومن المراكز الاخرى المهددة ، نحو المراكز الداخلية البعيدة عن الشواطئ ، بل نشطت ايضا حركة الهجرة من الجزائر نحو المغرب وبالعكس ، ولا سيما من فئة الطلبة والعلماء .

وفي كتب التراجم المعاصرة لهذه المرحلة نجد اسماء بعض الطلبة والعلماء الذين هاجروا من المراكز الجزائرية التي وقعت تحت الاحتلال الاسباني كوهران ، وبجاية ، كما نجد فيها اسماء بعض الطلبة والعلماء المغاربة ، هاجروا الى الجزائر من المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الاسباني او البرتغالي ، او التي كانت مهددة بالغزو من قبل البرتغاليين أو الاسبان .

ومن بين الطلبة والعلماء الجزائريين الذين هاجروا من المناطق ، المشار اليها ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- أحمد بن ابي جمعه الوهراني المعروف بشقرون الوهراني الذي استوطن فاس الى ان توفي بها في العقد الثالث من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وكان من الفقهاء الاعلام ، تصدر للتدريس في مهجره ، وأخذ عنه الكثيرون (1).
- احمد بن جيدة الديوني الوهراني ، تلميذ محمد بن يوسف السنوسي في العقائد وابن مرزوق الكفيف وغيرهما ، الذي هاجر الى المغرب واستوطن فاس ايضا ، الى ان توفي بها في ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م . وكان يدرس فيها علم الكلام ، واخذ عنه الكثيرون منهم ابو العباس احمد المنصور (2) .
- أبا علي منصور البجائي ، الذي استوطن شمال المغرب وكان التلميذ الكبير لابي عبد الله محمد الشطيبي الاندلسي الاصل نزيل تازغدره بجبل زرهال . كما كان من اصحاب الشيخ سيدي يوسف التليدي صاحب الزاوية والشهرة الكبيرة في اقليم غمارة بشمال المغرب (3) .
- اما قاسم بن عمر الزواوي فقد آثر الهجرة الى المشرق والاستيطان في القاهرة الى ان توفي بها في ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م (4) . كما آثر آخرون الهجرة الى البقاع المقدسة .

ولا يعدم الباحث في تراجم علماء هذه المرحلة اسماء بعض الطلبة والعلماء المغاربة الذين هاجروا من المناطق المجاورة لسبتة ، وطنجة ، المحتلتين من قبل البرتغاليين الى الجزائر والمشرق ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال : (5)
- عبد الله الخياط الذي هاجر الى الجزائر من جبل زرهون بشمال المغرب .
- ومنصورا بن عبد المنعم الصنهاجي من الهبط بشمال المغرب ايضا الذي هاجر الى الشرق بقصد التعلم الا أنّ كليهما عاد الى المغرب في نهاية مطافه (6) .

وقد كان للغزو الاسباني والبرتغالي للبلدين اثره ايضا في تدهور مراكز ثقافية اخرى ، كانت مزدهرة ، ولها اهميتها على مستوى البلدين ، وان لم تقع تحت الاحتلال المباشر للبرتغاليين والاسبان وفي مقدمة هذه المراكز نجد في الجزائر مدينة تلمسان ، وفي المغرب مدينة القصر الكبير وغيرهما .

فتلمسان بعد ان احتل الاسبان وهران في سنة ١٥٠٩ ، باتت مهددة هي الاخرى ورغم ان سلطانها سارع الى اعلان تبعيته لهم في ١٥١٢ م املا في الحفاظ بذلك على ما تبقى

---

(1) ابن عسكر الدوحة ص٩٢ ، ابن القاضي : الجذوه ص ٤٠٢
(2) ابن عسكر : نفس المصدر ص ٩٩ ابن القاضي : نفس المصدر ص ٨١ ، ابن مريم : البستان ص ٥٢ — ٥٣
(3) انظر عن الشطيبي والتليدي والبجائي ابن عسكر: المرجع السابق ص ١٤ — ١٦
(4) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٨ ص ١٥٤ — ١٥٥
(5) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦٣
(6) نفسه : ص ٦٥

وتوفير الاطمئنان لما سعه فان الامر فيها ما انفك متداولا ، ناهيك عن ان سلوك السلطان لم يكن ليرضي علماء تلمسان ، او ليزيل قلقهم ومخاوفهم ولذلك فقد اخذ بعضهم يهاجـــر الى المغرب ، ولا سيما الى فاس ، ومن هولاء :

محمد بن مرزوق (السبط)، الذي وصفه ابن مريم نقلا عن ابي عبد الله الامام بن العباس بأنه آخر علماء قطرنا (مملكة تلمسان)، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الحائز قصب السبق في ذلك ، وخصوصا علم الحديث فانه حصل له بالفرض والتعصيب صدر الحفاظ المبرزين وامام الجهابذة النقاد والمتقنين)) . رحل الى فاس في وقت غير محدد واجاز بها عبد الوهاب الزقاق الذى تولى خطة الفتيا والقضاء بفاس . وكان حيا في ٩١٨ هـ/١٥١٢ م (١) يذكر ابن مريم انه عاد الى تلمسان ، ولعله قد استوطن فاس اذ ما انفككت اوضاع تلمسان في تدهور انطلاقا من النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادى .

محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني الذى هاجر الى المغرب واستوطن فاس في صدر ايام السلطان محمد الشيخ السعدى الذى ولاه الفتيا الى جانب التدريس لعلم الكلام والخطابة والامامة في جامع القرويين (٢) .

أما مدينة القصر الكبير في شمال المغرب التي كانت تحاول ان تخلف طنجة وسبتة ، بفضل نخبة من علمائها امثال عبد الله الورياجلي الذى توفي في مطلع القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى والذى قال له ابن مرزوق عالم تلمسان الشهير : ليس امامك لا في الجزائر ولا في المشرق من هو اعلم منه (٣) . وابراهيم الجرفطلي الذى كان مدرسا ومفتيا بها . وخليفته علي اللخمي (٤) ، لم تستطع تحقيق هدفها نتيجة التهديد البرتغالي المستمر لها الى ان قضي على القوة الضاربة للبرتغاليين في معركة وادي المخازن ١٥٧٨ م ، فكانت بعثت طلبتها الى فاس لاستكمال دراستهم .

تدفق الاندلسيين :

أما تدفق الاندلسيين المستمر الى البلدين طوال المرحلة موضوع البحث تقريبا وما قبلها فاثره على المدركات الاجتماعية والثقافية بلا شك في ان هؤلاء المهاجرين كان لهم الفضل في بعث بعض المدن في البلدين، وتعمير اخرى وتنشيطها ، بحيث اصبحت تلك المدن مراكز ثقافية هامة ، مقصودة من قبل علماء البلدين وطلبتهما اما لطلب العلم او نشره فيهما

---

(١) انظر عن ابن مرزوق السبط : ابن مريم البستان : ص ٢٥٨
(٢) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٩٠-٩١ ، ابن القاضي : الجذوة ص ٢٠٦ ابن مريم : البستان ص ٢٦
(٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٧
(٤) نفسه : ص ٣١-٣٢ توفي سنة ١٩٥٣

ا جعلها بؤرا مشعة للتبادل الفكري وغير ذلك من المجالات الاجتماعية .

فالمهم يعود الفضل في بعث مدينة تطوان الى الوجود بعد ان ظلت خربة قرابة قرن من الزمان اى منذ ان خربها الاسبان في سنة ١٤٠٠ م ، وتولى الدفاع عنها والحيلولة دون سقوطها كما سقطت المدن المجاورة لها بيد الاسبان او البرتغاليين (1) ، فاصبحت تطوان بفضلهم مركزا من المراكز الثقافية النشيطة في شمال المغرب ، التي استقطبت بعض العلماء الجزائريين ، ا ستوطنوها وتصدروا للتدريس فيها ومن هؤلاء :

ابو القاسم بن السلطان القسنطيني (2) واحمد بن يوسف الزياني (3) ، كما انها كانت مركزا للعلماء الاندلسيين يقتبسون ويقتبس منهم .

وفي الجزائر اسس المهاجرون الاندلسيون معهدا علميا يشتمل على مدرسة ومسجد وكتاب قرآني . وكانت المدرسة تقدم تعليما عالي المستوى ، لاشك ان الوافدين من المغاربة الى الجزائر طلبا للعلم قد نهلوا منها .

وقد كان الاندلسيون بصفة عامة بمن فيهم العلماء والأئمة منهم ، كثيري الحركة والتنقل بين البلدين طلبا للعلم ، او ابتغاء العمل والجاه أوجمع الفضل .

وفي كتب التراجم عدد غير قليل من الاندلسيين الذين نزلوا في المغرب وقصدوا الجزائر للاخذ عن علمائها ، ثم عادوا الى مهجرهم الجديد ، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال : ابا عبد الله محمدا بن علي بن احمد الاندلسي المعروف بالحاج الشطيبي (4) . نزيل تازغدره ببني زروال بشمال المغرب الذي قصد الى الجزائر للاخذ عن كبير مشايخ الصوفية فيها ابو العباس احمد بن يوسف الراشدي الملياني .

وابا محمد عبد الله الهبطي نزيل جبل زرهون (5) ، الذي قصد ايضا الى الجزائر للاخذ عن الشيخ احمد بن يوسف المذكور .

اما محمد بن رأس العين الاندلسي الاصل الجزائري الدار فقد انتقل الى بلاط المنصور ومدحه ثم عاد الى الجزائر حيث كان من مستقلي سعيد قدوره (6) .

ولا يخفى ان الاندلسيين قد نقلوا الى البلدين مؤثراتهم في المجالين الاجتماعي والثقافي ومعارفهم واذواقهم فيهما ، كما كانوا في تنقلاتهم بين البلدين ينقلون مؤثرات هذا البلد الى ذاك .

---

(1) انظر عن اعادة بناء تطوان : محمد داود تاريخ تطوان مجلد الاول
(2) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ٢٨٨
(3) محمد حاجي : المراكز الثقافية في المغرب في البحث العلمي عدد ٦ المغرب ١٩٦٥ ص ٩٥
(4) ابن عسكر : الدوحة ص ٤٤
(5) نفسه : ص ٦٣
(6) ابن القاضي : درة الحجال ج ٢ ص ٢٦٣ - سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ ص ٣٤٦

وكمثال على ذلك نذكر ما همة تلاميذ احمد بن يوسف من الاندلسيين في نشر الطريقة اليوسفية في المغرب على نطاق واسع بحيث اصبح اتباعها يشكلون خطرا على السلطة الحاكمة فيه . (1)

ب - اثر قيام الحكم العثماني في الجزائر والحكم السعدي في المغرب :

واما قيام الاتراك العثمانيين حكاما في الجزائر خلفا للزيانيين والحفصيين ، وتنافسهم مع السعديين خلفاء الوطاسيين في المغرب فاثره على العلاقات بين الجزائر والمغرب في المجال الثقافي والاجتماعي يمكن ان نراه في :

1- التأثيرات الحضارية والثقافية التي ادخلها الاتراك العثمانيون معهم الى الجزائر ، وانتقال تلك التأثيرات منها الى المغرب .

2- حركة الهجرة القوية للمثقفين الجزائريين والمغاربة وغير المثقفين التي شهدها عهدهـــم ، ولا سيما من الجزائر الى المغرب .

3- موقف حكام البلدين من حركة الهجرة والمهاجرين

آ- التأثيرات التركية العثمانية في الجزائر والمغرب :

ادخل الاتراك العثمانيون الى الجزائر تأثيرات حضارية وثقافية واجتماعية عديدة منها اللغة التركية العثمانية ، والمذهب الحنفي والتنظيمات الادارية والعسكرية و والعادات والتقاليد الاجتماعية والثقافية .

ورغم ان المغاربة بقيادة السعديين والوطاسيين رفضوا الدخول تحت الحكم العثماني ، والانضواء تحت لواء الدولة العثمانية فانهم اخذوا طواعية عن العثمانيين امورا كثيرة ، ادارية وتنظيمية واجتماعية وثقافية وغير ذلـــك مما ادخله هؤلاء معهم الــى الجزائر ، وكان تأثر المغاربة بأتراك الجزائر العثمانيين ، اقوى مايكون في النواحـــي الادارية والعسكرية ، واقل من ذلك فيما يتعلق باللغة والمذهب والعادات . ففــي النواحي الادارية : جـــارى السعديون جيرانهم الاتراك العثمانيين فاحدثـــوا على غرارهم رتبة المفتي التي كانت من قبل موجودة ، ولكنها لم تكن من الوظائـف الرسمية في الدولة الوطاسية والدول السابقة لها .

وقد بدأ هذا التقليد في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي حيث قلد منصب الافتاء للعالم الجزائـــــــــري محمد بن عبد الرحمن بن جلال المتقدم ذكره ، فهو الذي هاجــر اليه في حدود 958هـ/1551 واستوطن فاس (2) .

كما احدث السعديون على غرار الاتراك العثمانيين في الجزائر مؤسسة استشاريـــــة اسموها ((الديوان)) . ويقول الافراني عن الديوان في عهد المنصور : ((وقد اتخذ يوم الاربعاء

---

(1) انظر عنه ابن عسكر دوحة الناشر ص 91 - 92
(2) نفسه ، ص 90 - 91

للمشاورة وسماه الديوان ، تبحث فيه وجـوه الدولة واعيانها ويتطارحون فيه وجوه الرأى فيما ينوب من جلائل الامور وعظائم النوازل وهنالك تظهر كفاية من لم يجد سبيلا للوصول للامـــــيــر.))(1)

واخذوا عن الاتراك طريقة ختم الرسائل وتوقيعها بالبد والطابع ، وتجديدات اخرى (2) في النواحي العسكرية . عمل السعديون على تنظيم جيشهم على غرار الجيش العثماني ، لذلك اقتبسوا الكثير من الانظمة العسكرية المتبعة لدى الانكشارية لتكوين فرق نظامية من الاعلاج والاندلسيين والسودانيين والاتراك ، واتخاذ نفس الالقاب والرتب العسكرية العثمانية ، وكذلك اللباس (3) ، بل لقد كان الملوك السعديون انفسهم يتزيون بزى الاتراك وهذا ابتداء من عهد عبد الملك الذى ((حمل الناس على السيرة الحجمية (التركية) وجنح اليها في سائر شؤونه لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها .))(4)

ولكن تأثر المغاربة باللغة التركية العثمانية ، والمذهب الحنفي واللباس التركي يكاد يكون مقصورا على بعض المغاربة الذين احتكوا بالاتراك العثمانيين فترة طويلة فتعلموا اللغة التركيـــة العثمانية وفي مقدمة هؤلاء يتبادر الى الذهن عبد الملك السعدى ، الذى ذكر انه كان يتقن عدة لغات ، وتقدمت الاشارة الى انه كان مفرطا في التأثـــر بالاتراك ، حتى كره المغاربة منه ذلك . (5) .

واذا استثنينا ايضا المصطلحات والالفاظ العسكرية والمتعلقة باللباس وبعض العادات والمآكل ، ومعظم تلك المصطلحات مذكور في مناهل الفشتالي ومن نقل عنه كالافراني ، فلا نكاد نجد أى اثر للغة التركية العثمانية في كتابات المغاربة المعاصرة ، مما يلاحظ انها لم تعرف الانتشار بينهم . وليس هنالك مايدل ايضا على انتشار المذهب الحنفي في المغرب ، وتحول المغاربة عن المذهب المالكي . اذ كان في الجزائر نفسها يكاد يكون مقصورا على الاتراك العثمانيين وابنائهم ، وربما بعض الاندلسيين الذين كانوا يأملون في شغل بعض الوظائــف ايضـــا .

والواقع ان الاتراك العثمانيين لم يعملوا على نشر اللغة التركية العثمانية في الجزائر الخاضعة لسلطتهم (6) ما ناهيك عن المغرب الذى كان خارج نفوذهم السياسي ، كما انهم لم يفرضوا المذهب الحنفي في الجزائر على السكان ، ولم يعملوا ايضا على نشره في المغرب ،

---

(1) الافراني : النزهة ص ١٥٧ - ١٥٨ .
(2) انظر عن التأثيرات التركية في الادارة السعدية : محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي / في / مجلة مجمع اللغة العربية ص ٨٤٩ - ٨٥١ .
(3) انظر كل تنظيم جيش المنصور ، الفشتالي ، مناهل الصفا ص ٢٠١ - ٢٠٢ والمنوني نفس المرجع ص ٨٥١ - ٨٥٥ .
(4)(5) الافراني : النزهة ص ٥١ ، والفشتالي : المناهل ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(6) يقول هايدو : ان كل الاتراك الذين يأتون الى الجزائر سرعان ما يتعلمون العربية ، ولم يؤكد على ان كل الجزائريين في المدينة يعرفون التركية . انظر الطبوغرافية في المرجع السابق عدد ٨٦ ص ٩٣ .

الا انهم بحلوله في الجزائر على غرار ما كان عليه الامر في انحاء الامبراطورية العثمانية المذهب الرسمي للحكومة ، بنوا له المساجد العديدة ، وجعلوا المفتي الحنفي فيها مقدما على المفتي المالكي في الحظوة والاعتبار والرأى (1) .

ومع ذلك فقد ظل المذهب المالكي هو المذهب السائد في الجزائر ، كما هو الحال في المغرب ، وظلت اللغة العربية هي لغة الثقافة والانتاج الفكرى في البلدين

ب - حركة الهجرة والتنقل :

1 - الهجرة القسرية : كانت حركة الهجرة والتنقل بين البلدين ظاهرة قائمة كما رأينا قبل سنة ١٥١٧ / ٩٢٣ هـ . ولكن استلام السعديين الحكم في المغرب خلفا للوطاسيين وغيرهم من امراء الوحدات السياسية التي كانت قائمة في المغرب ، واستلام العثمانيين الحكم في الجزائر خلفا للزيانيين والحفصيين . وتنافس حكام الجزائر والمغرب ... قد نجمت عنه حركة هجرة قسرية من بلد الى آخر للافراد والجماعات والقبائل ، من مختلف الفئات الاجتماعية . فالمؤلف المجهول صاحب تاريخ الدولة السعدية يذكر ان محمدا الشيخ السعدى لما دخل ، الى فاس للمرة الثانية في ١٥٥٤ بعد ان قتل أبا حسون الوطاسي ، واستقر فيها ، ((.. تحكم في اهل فاس بالاذلال ، والاهانة وادى مسائله فيهم ، وقهر أهلها بانواع الافضال ، ونفى اكثرهم للمشرق ...)) (2) ، وذلك انتقاما منهم لتأييدهم لابي حسون ، ورغبة في تصفية الحزب الوطاسي في المدينة ، لانه حزب لا يحيد ... التعاون مع اعدائه الاتراك ، ورغبة في التخلص من مؤامراتهم .

ونعلم من الوثائق المعاصرة ان فلول الاسرة الوطاسية التي كانت تحكم في المغرب قد لجأوا الى الجزائر واستقر المطاف بهم هنالك . وان شيوخ فاس ومكناس وتادة نواحي الغرب في مملكة فاس قد هاجروا ايضا الى الجزائر (3) ، هم وعائلاتهم .

وتقدم في بحث العلاقات السياسية ان ثلاثة من الامراء السعديين وعدد من اتباعهم قد هاجروا من المغرب الى الجزائر بعد ان آل الحكم فيه الى اخيهم عبد الله ، ومكثوا فيها سنين عديدة ، وحصلوا من اتراكها على مراتب واقطاعات لهم ولاتباعهم (4) . وهؤلاء الامراء هم عبد الملك واحمد وعبد المؤمن ابناء محمد الشيخ . وقد عاد الاولان الى المغرب بعد وفاة اخيهما ، مما يعني ان الهجرة القسرية قد تكون هجرة موقتة تزول بزوال الدافع اليها .

---

(1) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج١ ص ٢٥٨
(2) ص ٢٢
(3) م.م.ت.م : اسبانيا ج٣ ص ٢٤٠ - ٢٤٨ وانظر فصل العلاقات السياسية الرابع
(4) مهمة دفترى : رقم ١٢ ص ٥٣٦ ورقم ١٨ ص ١

وفي الاتجاه المعاكس نجد ايضا انه لما دخل حسن بن خير الدين الى تلمسان في ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م فر منها الامير احمد الزياني ووزيره المنصور بن ابي غانم الى المغرب مع من انضاف اليهما من امراء تلمسان ووزرائها (١) . ولكن امير " دبدو " اعتقلهم واخذ اموالهم ثم سرحهم بعد ذلك (٢) .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي حصلت هجرة علماء تلمسان الجماعية الى فاس بالمغرب التي تحدث عنها ابن عسكر ، وذلك في اعقاب فتنة وقعت في تلمسان بين أولئك العلماء واتراك الجزائر العثمانيين . وقد حصلت تلك الهجرة في سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م (٣) . ومن بين علماء تلمسان الذين هاجروا في ذلك التاريخ نذكر : أبا العباس احمد بن احمد العبادي الذي وصفه ابن عسكر بالشيخ الفقيه العالم العلامة (٤) ، وأبا عبد الله محمدا بن عبد الله المعروف بالسيد شقرون (٥) ، وأبا العباس احمد بن محمد الونشريسي (٦) . وغيرهم .

ولما استقر امر تلمسان ونواحيها للاتراك العثمانيين في اواسط القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، هاجرت قبائل عرب الشراقة الذين كانوا يستوطنون منطقة تلمسان ووجدة الى المغرب فرارا من سلطة الاتراك عليهم ، ومن دفع الضرائب اليهم ، ودخلوا في خدمة الاشراف السعديين (٧) .

وتشير المراجع الى ان قبائل مديونة - ومواطنها بين وهران وتلمسان - الموالية للاشراف السعديين ارسلت تستحث محمدا الشيخ على المجيء الى المنطقة ، ولما طرد الاتراك السعديين من الغرب الجزائري في منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي واجبروهم على الانسحاب انسحبت هي الاخرى معهم الى المغرب (٨) ، خوفا بدون شك من انتقام الاتراك العثمانيين منها .

والخوف ايضا من الانتقام جعل " بوطريق " يفر الى المغرب بعد فشل ثورته على الاتراك في الاربعينات . وهناك لقي من سلاطين المغرب الاستقبال الحسن ومكث سنين عديدة قبل العودة مع حملة ابناء الشريف السعدي محمد الشيخ في منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٩) وفيما يشبه الهجرة العسكرية نذكر الاتراك والزواويين الذين ابقاهم صالح رايس ورمضان باشا في المغرب الذي عودتهما منه في ١٥٥٤ ، وفي ١٥٧٦ للعمل في صفوف ابي حسون ، وعبد الملك (١٠) .

---

(١) (٢) السلاوي : الاستقصا ج٤ ص١٦٢
(٣) (٤) ابن عسكر : الدوحة ص٨٧
(٥) نفسه : ص٨٦-٨٧ وابن القاضي : الجذوة : ص٢٠٧ والدرة ج٢ ص٢١ وابن مريم
(٦) ابن عسكر : نفس المصدر ص ٩١
(٧) م.م.ت.م : فرنسا ج٢ ص٢١ وهامش ٣ ، والافراني : النزهة ص١٧٤ والسلاوي : الاستقصا ج٥ ص٧٥
(٨) م.م.ت.م : اسبانيا ج١ ص٢٠٨-٢١٠ و : روف : المرجع السابق ص١٣٠ وهامش ٤
(٩) عابدو : ملوك الجزائر ص٧١
(١٠) الفشتالي : المناهل ص٣٤-٣٥ و المجهول : المرجع السابق ص٦٢ ، ص٣٥

2- الهجـرة الطـوعيـة :

والى جانب الهجرة القسرية ، كانت تجرى هجرة اخرى ، ولكنها طوعية ، من المغرب الى الجزائر ، والعكس ، شملت ايضا الافراد والجماعات من فئات مختلفة كالطلبة والعلماء والعمال والتجار والجنود . واذا كان من اهم الدوافع الرئيسية الى الهجرة القسرية هـو شعور المهاجر في موطنه الاصلي بالخطر على نفسه او ماله او عرضه او دينه او عدم الارتياح الـى السلطة الحاكمة في البلد ، او نفي هذه السلطة نفسها للمهاجر، فان من اهم الدوافع الـى الهجرة الطوعية :

1- الهجرة لاستكمال الدراسة وهذا حال كثير من طلبة كلا البلدين . وممن هاجـر من الطلبة المغاربة الى الجزائر لهذا الغرض نذكر :

- محمدا بن احمد الهبطي الفاسي الذى رحل الى تلمسان . واخذ فيها عن كبار مشايخها امثال : ابي عبد الله محمد بن موسى الوجديجي مفتي تلمسان ، وابي عثمان بن سعيد وغيرهما . ثم رحل الى قسنطينة واخذ فيها عن عالمها الكبير بن ابي حفص عمر الانصاري المعروف بالوزان ، وابي عبد الله محمد الخطار وقبل ان يعود الى وطنه عالما من اعلام علمائه ويتبوأ فيه الامامة والخطابة والفتيا بمدينة فاس، رحل ايضا الى تونس ومصر والبقاع المقدسة (1) .
- وسعيد الماغوسي ، ومحمدا بن سليمان الروداني ومحمدا بن مزيان التواتي وغيرهم ممن سيأتي ذكـــــرهـــــم ، في الفصل الآتي بشيء من التفصيل .

ومن الطلبة الجزائريين الذين هاجروا الى المغرب في الفترة موضوع الدرس لغرض استكمال الدراسة ايضا نذكر :

- سعيدا المقري (بن احمد) الذى انتقل الى فاس في النصف الاول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى واخذ هناك عن عبد الواحد الونشريسي ، وعليا بن هارون المطغرى، وكلاهما من اصل جزائرى ، كما اخذ ايضا عن ابي محمد عبد الوهاب الزقاق (2) ، وغيرهم ، ثم عاد الى تلمسان وتولى فيها التدريس والفتوى والخطابة بالجامع الكبيـــر ، فترة طويلة لا تقل عن خمس واربعين سنة (3) .
- واحمد المقـــــــــري ، ومحمدا المـــــرى التلمســـــاني وغيــــــرهم ممـــن سيأتي ذكـــــرهم، في الفصل الآتي، بشيء من التفصيل .
- سعيدا قدورة الجزائرى الدار وربما المولد ايضا التونسي الاصل الذى قصد المغرب للدراسة، وتهنئة استاذه ابن علي بمناسبة استيلائه على سجلماسة ، ثم مالبث ان عاد الى مدينـــة الجزائر حيث تقلد وظائف علمية ودينية عديدة كالفتوى والخطابة والامامة والتدريس وغيرها (4) .

---

(1) ابن عسكر : الدوحة ص 9 ، ص 44 . ابن القاضي : الجذوة ص 152 والدره ج2 ص 201 - 203
(2) ابن عسكر : نفس المصدر السابق ص 43
(3) ابن مريم : البستان ص 259 الحفناوى : تعريف الخلف ج2 ص 155
(4) الحفناوى : المرجع السابق ج1 ص 62 سعد الله : المرجع السابق ج1 ص 364 - 377

٢- الهجرة للعمل : وهذا حال بعض العمال في المناطق الحدودية على الخصوص الذين كانوا ينتقلون للعمل في البلدين في الاعمال الزراعية او الصناعية كبني بوجي على سبيل المثال الذين كانوا ينتقلون الى فاس للعمل في مختلف الاعمال نبوغا مهما كانت ونهضة (١) . وحال بعض الاتراك وبعض الجزائريين الزواويين الذين كانوا ينتقلون من الجزائر الى المغرب للعمل كجنود في صفوف السعديين . وحال كثير من علماء البلدين .

ومن علماء الجزائر الذين انتقلوا الى المغرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا بن عبد الرحمن بن جلال المتقدم ذكره . وهو الذي قلده كما اشرنا السلطان السعدي محمد الشيخ السعدي منصب الافتاء في فاس ، وجمع اليه الخطابة ، والامامة ، والتدريس في جامع القرويين وانتفع الناس بعلمه الغزير بها وفي تارودانت التي مكث فيها سنة مع محمد الشيخ المذكور (١) .

- واحمد بن محمد العبادي التلمساني الذي تولى التدريس في القرويين مع توافر العلماء ، في عهد الوطاسيين ، ولقي منافسة شديدة من نظرائه (٣) .

ومن علماء المغرب الذين انتقلوا الى الجزائر للغرض نفسه نذكر ايضا على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا السوسي الفاسي : الذي انتقل الى الجزائر في وقت غير معلوم، وتولى التدريس في مدينة الجزائر (٤) ، وفيها توفي سنة ١٠٢٣ هـ .

- عيسى ابو سعيد ى الجنتاتي الذي رحل الى تلمسان وتصدر للتدريس فيها (٥) .

- احمد الفاسي الذي استوطن قسنطينة بالجزائر وكان شاعرا يتكسب بشعره (٦) .

- الغربي الفاسي الذي كان يدرس في زواوة (٧) .

- علي بن عبد الواحد الانصاري السجلماسي الذي استقر في مدينة الجزائر وتصدر فيها للتدريس وتخرج على يده الكثيرون وبها كانت وفاته ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ (٨) .

وقد طاب لبعض علماء الجزائر والمغرب المقام في مهجرهم فاستقروا فيه بصفة نهائية . ونال بعضهم وجاهة كبيرة لدى حكام موطنهم الجديد . كما سنرى بشيء من التفصيل .

---

(١) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٦
(٢) انظر عن ابن جلال ، ابن عسكر : المصدر السابق ص ٩٠-٩١ وابن القاضي : الجذورة ص ٢٠٦
(٣) ابن عسكر : نفس المصدر السابق ص٨٨
(٤) سعد الله : المرجع السابق ج١ ص٤٤٩ - ٤٥٠ والمنوني : ملامح في المرجع السابق ص٤٧
(٥) سعد الله : المرجع السابق ج١ ص٢٩٧
(٦) نفسه : ص ٤٤٨ - ٤٤٩
(٧) نفســه : ص٣٢٢
(٨) نفســه : ص ٢٧٧ - ٢٨٣ و العياشي : الرحلة ج٢ ص ١٢٧ الحفناوي : تعريف الخلف ج١ ص٩٦

... ثم طرأت ظروف مناسبة
... الهجرة لجمع الشمل ، وهذا حال الذين ابتلوا بالهجرة القسرية ، ... ثم طرأت ظروف مناسبة
... الهجرة لجمع الشمل ، وهذا حال كثير من الاندلسيين الذين تشتت
... سود تهم كالامراء السعديين السابق ذكره واتباعهم . وحال كثير من الاندلسيين الذين تشتت
... شملهم بين الجزائر والمغرب فكانوا ينتقلون من بلد الى آخر لجمع شملهم(1) وحال بعض علماء تلمسان
... الذين هاجروا في اعقاب فتنة سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م كالمبادي التلمساني (٢) .

... التنقل لدوافع اخرى دينية واجتماعية ودبلوماسيـــــة .

... كان الحج دافعا كبيرا لقيام المغاربة بالرحلة الى البقاع المقدسة لاداء هذا الركن ، القديم المتجدد
... مروا ببلاد الجزائر . واهمية هذا العامل لا تخفى بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والثقافية بيـــن
... البلدين اذ يتيح فرص اللقاء بين الجزائريين والمغاربة بما في ذلك مثقفي البلدين ، والاحتكاك
... بينهم وتلاقح افكارهم ، والتداول في المسائل العلمية المطروحة على العلماء وتبادل الكتـــب
... وتداولها وانشاء الصداقات بينهم وقد كان ركب الحج المغربـــــــــــــــــــــــي ينطلق
... سنويا الى الحج ، فيمر ببلاد الجزائر ومصـــــر في الذهاب والاياب مما كان يتيح فرص اللقاء
... بشكل منتظم ومستمر . ومن المغاربة الذين زاروا بلاد الجزائر بمناسبة الحج وكانت لهـــــــم
... اتصالات مع مثقفي الجزائر في المدن التي مروا بها وربطوا علاقات وطيدة معهم ابو سالم العياشي
... صاحب رحلة ماء الموائد ، التي خلد فيها مشاهداته ، واتصالاته في الجزائر وسينما مرعبـــــــر
... الجزائر بمناسبة حجته الاولى في سنة ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م وحجته الثانية في سنة ١٠٦٤هـ/
... ١٦٥٤م ، ربط علاقات وطيدة مع عبد الكريم الفكون (الحفيد) وابنه محمد ، وكذلـــــك
... مع ابي مهدي عيسى الثعالبي وغيرهم ، وعن هذا الاخير درس كثيرا من الكتب وحصل على الاجازة
... منه . وعن الفكون الحفيد المذكور أخذ الطريقة الزروقية في التصوف (٣) .

والى جانب الحج كانت زيارة كبـــار مشايخ الصوفية والمرابطين واضرحتهـــم دافعا
للتنقل من بلد الى آخر . وفي دوحة الناشر لابن عسكر اشارات كثيرة للاضرحة التي كان
يقصـــدها النــــاس من مشارق الارض ومغاربها كضريح سيدي ابي بكر السريفـــي
بشمال المغرب على سبيل المثال (٤) .

وقد كانت زيارة الاضرحة وكبار مشايخ الصوفية والمرابطين للتبرك ، ظاهرة ملحوظـة ،
ولا تقتصـــر على عامة الناس بل تشمل ايضا الفئة المثقفة منهم . ومن المزارات الكبرى فــــي
الجزائر التي كان يأتيها الجزائريون والمغاربة بكثرة ضريح سيدي ابي مدين شعيب فـــــي
تلمســـان (٥) ، وضريح سيدي خالد (٦) ، بنواحـــي بســـكرة .

---

(١) محمد داود : تاريخ تطوان المجلد الاول ص 36
(٢) ابن عسكر : دوحة الناشـــر ص٨٧
(٣) انظر عن العياشي واتصالاته في الجزائر ، رحلته خاصة الصفحات ٢٢ ، ٤٩ من الجزء الاول ... ، ٢٨٢ ، ٣٩٠ - ٣٩١ من الجزء الثاني
(٤) ابن عسكر المصدر السابق ص ٣٠
(٥) ابن مريم : البستان ص ١٠٨ - ١١٤
(٦) انظر عنه العياشي : في المرجع السابق .

٥- وهنـــالك أخيـــرا ـــــن

كـــان يذهب من مثقفي الجزائر الى المغرب ، ومن يأتي من مثقفي المغرب الى الجزائر ولكن لاداء مهمة معينة كالقيام بسفارة اما لحكومة الجزائر او الدولة العثمانية ، او للدولة المغربيـــة .

وفي هذا الاطار استقبلت الجزائر عددا من علماء المغرب الرسل الموفدين اما الـــى سلاطين بني زيان وبني ابي حفــص قبل سقوط نفوذهم وانهيار سلطتهم ، او الى حكومـــة الجزائر التركية العثمانية او الى السلطان العثماني ولكنهم توقفوا في الجزائر . ومن ابرز هؤلاء السفراء :

- الحسن بن محمد الوزان الزياني المسمي بليون الافريقي لدى الغربيين ، صاحب كتاب وصف افريقيا الشهير ، اوفده السلطان الوطاسي الى ملوك المسلمين في شمال افريقيا والمشـــرق بعد ان اوفده من قبل الى ملوك المسلمين في بلاد السودان وقد وفد على تلمسان في سنة ١٥١٥ ، وتقابل مع السلطان الزياني ، واقام عنده فترة كما تقابل مع علية القوم فيها . واستأنف طريقة نحو تونس ومر بمدينة الجزائر قبل دخول الاتراك اليها ، وتقابل عروج في بجاية حين كان محاصرا لها ، وشهد فشل محاولة تحريرها . ودوّن كل مشاهداته في كتابه المذكور . وقد امتحن الوزان بالاســـر في طريق عودته بعد الحج وزيارة استانبول ، اذ وقع في قبضـــة قراصنة صقلية . ونالتنصـــير بعد ذلك ، ولا تزال نهايته غامضة [1] .

- ابو الحسن علي بن محمد التمجـــروتي الذي زار الجزائر في ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م مع ابـــي عبد الله محمد الفشتالي ، الفقيـــه ، الكاتـــب ، الشـــاعر ، شريكه في الســـفارة الـــــــى استانبول موفدين من قبل السلطان احمد المنصور الى السلطان العثمانـــي مراد الثالث . وقد نقل ابو الآخر مشاهداته واتصالاته بعلمائها وزياراته لمعالمها فـــي الجزائر وغيرها في كتاب سماه ((النفحة المسكية في السفارة التركية)) [2] .

- وزار الجزائر ايضا في اطار السفارة كل من ابي العباس احمد بن يحيى الهوزالي وابي العباس احمد بن ودة في سنة ١٥٨١ [3] ، وغيرهما . ولكنهما لم يخلد اكتالفيهما مشاهداتهما فيهما في كتـــاب .

اما مثقفو الجزائر الذين ذهبوا الى المغرب في اطار السفارة فابرزهم على الاطلاق : محمد بن علي الخروبي نزيل الجزائر ، وأحد علمائها البارزين في القرن العاشر الهجــري ، السادس عشر الميلادي ، ومشايخ الصوفية الاعلام فيها صاحب المؤلفات العديدة وصاحب الوساطة الكبيرة لدى حكامها الذين بعثوه الى المغرب مرتين سفيرا الى السلطان السعدي

---

(1) شوقي عطاالله الجمل : اضواء على حياة الحسن بن محمد الوزان في / المناهل / عدد ٢ المغرب ١٩٧٥ ص ٢٣٧ - ٢٤٨ ودائرة المعارف الاسلامية الطبعة القديمة ص٢٢

(2) انظر عنه محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول ص ١٥٦ - ١٦٢ وانظر عنه ايضا الافراني : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر فاس 1309 هـ ص 196 .

(3) الفشتالي : المناهل ص ٦٢

محمد الشيخ ، لاقامة العلاقات ورسم الحدود بين البلدين ثم لدعوته للدخول تحت لواء الدولة العثمانية ، وذلك في ٩٥٩هـ/١٥٥٢ ثم ٩٦١ هـ/١٥٥٤م وبهذه المناسبة التقى بكثير من مثقفي المغرب وتناقش وتناظر معهم في قضايا فقهية وكلامية وصوفية ، واخذ عنه الكثيرون منهم أبو عبد الله الزرولي . وابو الحسن علي الاغصاوي المعروف بالبقال ، وغيرهما .

واستكمالا للمناقشة التي بدأها مع علماء فاس ومراكش بعث الخروبي برسالتين احداهما الى خواص فاس سماها : ((رسالة ذي الافلاس الى خواص مدينة فاس)) تعرض فيها الى آداب القواعد الخمس للاسلام ، واثار افكارا وآراء ظلت مدار النقاش حوالي قرن من الزمان، والاخرى الى كبير مرابطي مراكش ابي عمرو القسطلي المراكشي ينكر عليه بعض افكاره (1) .

ـ وفي الوقت الذي تطلعنا فيه معلومات اخرى كثيرة عن الخروبي السفير الذي اثار ضجة كبيرة في الاوساط المثقفة بالمغرب لا تطلعنا معلومات كثيرة عن ابي الطيب العسكري الذي توجه الى المغرب سفيرا من قبل السلطان العثماني لتهنئة المنصور بالانتصار في معركة وادي المخازن ، ٩٨٦هـ/١٥٧٨ م ، والجلوس على الملك ، وقد كانت سفارته في صيف ١٥٧٩ .

وحسب الفشتالي فان أبا الطيب العسكري كان مفتي الجزائر ، ووصفه بالشيخ العالم ، والصدر الكبير ، والخطيب الشهير . وذكر ان السلطان العثماني " اختاره لشهرته ومكانته في العلم والرياسة ليحسن أداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما في الضمائر ، وليدل بارساله على علو محله وشرف مقدار المرسل اليه " (٢) .

ـ أما السفيران عبد الله المنزي، ومحمد بن عبد الحضرمي المزغنائي اللذان توجها الى سجلماسة عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م، موفدين من قبل حكام الجزائر ، الباشا ، والديوان مع اثنين آخرين من اركان الديوان الاتراك . لمفاوضة محمد بن الشريف العلوي في الصلح بينه وبين حكومة الجزائر ، فلا نعرف زيادة عما تقدم ذكره سوى انهما فقيهان من فقهاء الجزائر ، وصف المذكور اولا منهما بالفقيه الوجيه والثاني ذكره بالفقيه الابر السيد الحاج (٣) .

وقد بعث كل من السلاطين السعديين وحكام الجزائر سفراء آخرين الى الجانب الآخر ، وحسبنا ان فيمن تقدم ذكرهم ما يفي بالغرض المقصود .

ويستخلص من تناول الخروبي ، في المغرب ، واتصالات الوزان ، والتمجروتي في الجزائر ان السفارات ، ولا سيما حين يقوم بها مثقفون بارزون لها اهمية كبيرة في مجال العلاقات الثقافية ، حيث تتيح فرص الالتقاء ، والاحتكاك بين مثقفي البلدين ، وتلاقح افكارهم ، واخذ بعضهم عن بعض ، وتوطد العلاقات بينهم ، مما يعود بالنفع على الحياة الثقافية والاجتماعية ايضا في البلدين .

---

(1) ابن عسكر : الدوحة ص ٨ ، ابن القاضي الجذوة ص٢٠٤ ، الافراني : النزهة ص ٤١-٤٢
كنون : النبوغ المغربي في الادب العربي ج٢ ص ٢٤
(٢) الفشتالي : المناهل ص ٥٠
(٣) السلاوي : الاستقصا ج٧ ص ٢٥

ومهما كانت الدوافع الى الهجرة ، والتنقل من الجزائر الى المغرب ، او في الاتجاه
المقابل فانه اذا استثنينا ما كانت تتسبب فيه الهجرة القسرية بصفة خاصة من تقسيم شمل العائلات
والقبائل ، وما كانت تساهم فيه من توتر العلاقات السياسية بين البلدين بسبب ايواء كل طرف
مناوئي الطرف الآخر ، فقد كانت انعكاساتها على العلاقات الاجتماعية والثقافية بصفة
عامة ايجابية اذ كانت تساهم في توطيد اواصر الاخوة بين الافراد والفئات الاجتماعية
في المجتمعين الجزائري والمغربي ، بما كان ينشأ بين افرادهما وجماعاتهما من علاقات ثقافية
واجتماعية كالمصاهرات وغيرها كما كانت تساهم في تحقيق مزيد من التجانس في مختلف الجوانب :
في العادات والتقاليد ، وفي الافكار والآراء بين المجتمعين . وسنرى في الفصل الآتي
ان المهاجرين الجزائريين والمغاربة كان لهم نشاط علمي ملحوظ في مهاجرهم .

ج- موقف حكام البلدين من الهجرة والمهاجرين وأثره على العلاقات الاجتماعية والثقافية :

لم تكن ما يعوق حركة الهجرة والتنقل بين الجزائر والمغرب للافراد والجماعات من مختلف
الفئات ، ولمختلف الاغراض قوية ، وأن حكام البلدين لم يضعوا قيودا في وجهها . فكان
التنقل حرا من بلد الى آخر ، بل ان لحكام البلدين اثرا كبيرا في تنشيطها عن طريق
ترحيبهم بالمهاجرين وخاصة بالفئة المثقفة وعلية القوم من امراء والقادة والحكام ، بل
واغراء بعضهم على البقاء بالمال والمناصب والاقطاعات .

أ- موقف حكام الجزائر الاتراك العثمانيين :
- موقفهم من العلم :

لم يكن حكام الجزائر الاتراك العثمانيون في مجموعهم من أهل العلم ولا اصحاب مجالس
علمية بل من رجال الحرب والسياسة ، واكثرهم كانوا لا يفقهون كثيرا في العلوم الدينية ، وقد
لا يعرفون شيئا في علوم اللغة العربية)وهي العلوم التي كانت لها السيادة في ذلك العصر ،
وهذا خلاف لما كان عليه الامراء الزيانيون والحفصيون ، ولكن كثيرين من الحكام الاتراك الذين
بنوا المساجد والزوايا وأوقفوا عليها ارقافا سخية للمنابقتها ومن يشتغل فيها ، ولم تكن
تلك الزوايا والمساجد مجرد اماكن للعبادة ، بل كانت ايضا اماكن التدريس ، بحيث يمكن
القول انهم بفعلهم الخيرية والدينية ، قد شجعوا التعليم وان لم يكن من غرضهم الاصلي
نشر العلم البحت في تلك الزوايا والمساجد التي أسسوها)وانما خدمة الدين ، والتقرب من
الله وربما كانوا يودون ايضا ان يحصلوا من خلالها على الشهرة ، او الحظوة لدى العلماء

موقفهم من المهاجرين اليهم من العلماء : وقد كان اغلب الحكام الاتراك العثمانيين ان لم يكونوا كلهم يقدرون
العلماء ويجلونهم ويرحبون بالوافدين منهم اليهم سواء كانوا من المغرب او المشرق . وقد يكون
ذلك ليس حبا خالصا في العلم والعلماء وانما لاغراض اخرى مقصودة كاستقاء المعلومات الموثوقة
عن المغرب منهم او عن ... ، وتوطيد سلطتهم بواسطتهم ، او بمساعدتهم ، اذ كان
للعلماء والمرابطين في هذه المرحلة تأثير كبير على الرأي العام او على عامة الناس وتوجيههم

ا الى جانب السلطة الحاكمة او ضدها ، اوغير ذلك من الاغراض .

ولا أدل على ترحيبهم وحسن استقبال الوافدين عليهم ، من ان كثيرين من العلماء
م الذين وفدوا الى الجزائر العاصمة وممالكها من المغرب وتونس ، وطرابلس ، وحتى من
مشرق ، وآثروا المقام في كنفهم لما وجدوه من تقدير واحترام لديهم . وقد حصل بعضهم على
كانة مرموقة كمحمد بن علي الخروبي الطرابلسي الذي وفد على الجزائر طالبا للعلم ، ثم
ست وطنها . فقد اختاره حكام الجزائر سفيرا لهم اكثر من مرة الى المغرب . وكانوا وجاهة
ميـــزة لديهـــم .

اما من المغاربة فنشيـــر الى ان عليا بن عبد الواحد السجلماســـي المتقـــدم
ذكره قد كان يتمتع بوجاهة وحظوة كبيرتين لدى الباشا يوسف(1) . والى ان مغاربة آخريـــن
محمد الفاسي وغيره قد زاولوا التدريس في الجزائر ، او في قسنطينة في تلمسان من قبل حكام
الجزائر .

ولكن الاتراك العثمانيين لم يقلدوا احدا من المغاربة فيما اعلم — خططا اخرى كخطة
القضاء او الافتاء او الخطابة او الامامة في الجزائر العاصمة او في غيرها من الحواضر الكبرى
الجزائرية في حين قلد حكام المغرب الكثيرين من علماء الجزائر المهاجرين الى المغرب، مختلف
الخطط .

وقد يكون ذلك من الطبيعي لاختلاف مذهبهم الديني عن المذهب الحنفي ، مذهب
الدولة الرسمي . ولكن الاتراك من جهة اخرى لم يمنعوا تنقل علماء المغرب وطلبته في الجزائر
من مركز الى آخر كما لم يمنعوا من يرغب من الجزائريين في الهجرة الى المغرب من أن يفعـــل
ذلك ولم يطلقوا حرية التنقل فقط وانما حرية التفكير والرأى أيضـــا . ولم يضطهـــدوا
اى عالم او يسجنوه او يقتلوه بسبب آرائه الفكرية او المذهبية كما فعل عبد الله الغالب باللـــه
السعدى وابنه محمد . ان اضطهد الاول اتباع احمد بن يوسف المليانى الجزائرى في المغرب
بدعوى الزندقة والخروج عن جادة الصواب ، والتطرف في اعتقادا تهم في الشيخ المذكور .
وامر الثاني بقتل ابي عبد الله محمد الاندلسي، الذى كثر اتباعه في المغرب وسموا بالمحمديين
في مقابل المالكيين . ونحا نحو المذهب الظاهرى في فهم الامور الدينية ، وقامت بسبب ذلـــك
فتنة كبيرة في المغرب .

ولعل الشرط الوحيد الذى كان الحكام الاتراك العثمانيون حريصين على أن يحترمه
كل الوافدين الى الجزائر من مثقفي المغرب او غيرهم، وشأنهم في ذلك شأن معظم الساســـة،
هو عدم التدخل في الشؤون السياسية على نحو يناوئ حكمهم او يهدده بأى شكل من الاشكال ،
سواء بالدعوة الى السلطان المغربي، او محاولة اثارة الرأى العام في الجزائر على الحكم القائـــم
فيها ، او مساعدة المعارضين للاتراك .

(1) انظر العياشي : ماء الموائد ج 2 ص 12

فاذا حدث من احدهم ان تجاوز هذا القيد، او لم يتقيد به، لم يتورع الحكام الاتراك من تسليط العقوبات الشديدة عليه، التي قد تصل الى حد القتل او السجن، او النفي والاضطهاد. كما حصل للعالم المغربي محمد بن مزيان التواتي على سبيل المثال، الذي امتحنه الاتراك العثمانيون بسبب ابزائه للمعارضين لهم (1)، فوجد نفسه مضطرا للفرار من قسنطينة حيث كان يدرس، ونال شهرة كبيرة، ولجأ الى باجة في القطر التونسي، وهناك توفي بالطاعون في 1031هـ/1621م.

والواقع ان الشرط المذكور لم يكن خاصا بالوافدين الى الجزائر من المغرب بالذات بل كان مفروضا ايضا على علماء الجزائر ومثقفيها. فالعلاقات بين هؤلاء وحكام الجزائر كانت تسوء اذا ما تدخل احدهم في الشؤون السياسية في الجزائر او غيرها، وعلى ذلك نحو مضاد للحكم. وبما ان سلوك الاتراك العثمانيين في الجزائر تجاه رعاياهم الجزائريين وطريقة حكمهم لهم لم تكن دوما محل الرضا والاستحسان لدى هؤلاء المثقفين فقد كان بعض المرابطين او العلماء يتعاطون بين فترة واخرى ضد الحكم، ويتزعمون الثورات لقلبه، كما فعل احمد بن القاضي الزواوي في عهد خير الدين (2)، والشيخ بوطريق العلباني في عهد خليفة حسن آغا (3)، وبني الادراسي في أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وغيرهم.

- موقفهم من المهاجرين من غير العلماء:

وكما رحب حكام الجزائر بالعلماء المغاربة، فقد رحبوا ايضا بالوافدين اليهم من غير العلماء، وفي طليعتهم طبقة القوم من المغاربة: امثال عديد من الامراء والقادة الوطاسيين الذين لجأوا الى الجزائر في اعقاب قضاء محمد الشيخ على الدولة الوطاسية في المرة الاولى 956هـ/1549م، ولاسيما في الثانية 1554م/961هـ في عهد صالح رايس الذي رحب بهم وادناهم منه وزوج ابنته لابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي (5)، وامثال الامراء السعديين الذين لجأوا الى الجزائر في عهد حسن بن خير الدين، فرحب بهم وزوج احدهم، وهو عبد المومن من ابنته، واسند له تلمسان لحكمها، واقطعه اقطاعات سخية، انتقلت بعد وفاته الى اخيه عبد الملك الذي كان هو الآخر يتمتع بحظوة وتقدير لدى حكام الجزائر (6). كما اقطع المهاجرون من الامراء السعديين اقطاعات اخرى. (7)

وخلاصة القول فان موقف حكام الجزائر الاتراك العثمانيين لم يكن معارضا لحركة هجرة المغاربة الى الجزائر، او تنظيم فيها، كما انهم لم يكونوا معارضين لحركة هجرة الجزائريين من

---

(1) عبد الكريم الفكون: منشور الهداية ص 32
(2) المجهول: غزوات عروج وخير الدين ص ص 61-63
(3) هايدو: ملوك الجزائر ص 7-71
(4) الفكون: منشور الهداية ص 27 من المخطوط وسعد الله: المرجع السابق ج1 ص 215-216
(5) انظر فصل العلاقات السياسية: الرابع
(6)(7) انظر فصل العلاقات الاقتصادية: الرابع

من مختلف الفئات الى المغرب . يشهد على ذلك وجود جزائريين كثيرين في المغرب ، ووجود كثيرين من المغاربة من مختلف الفئات في الجزائر . وموقف حكام الجزائر هذا موقف ايجابي الاثر على العلاقات الاجتماعية والثقافية ، حيث كان يسمح باستمرار التبادل الثقافي ، وانتقال المؤثرات المختلفة من بلد الى آخر .

ج- موقف حكام المغرب تجاه الوافدين اليهم : - موقفهم من العلماء

يتميز اغلب حكام المغرب في الفترة موضوع الدرس سواء كانوا وطاسيين ، ام سعديين أم علويين ، بانهم كانوا يحترمون العلماء بل ويؤثرون مجالستهم ، واصطحابهم معهم واستشارتهم ، واتخاذ اعوانهم منهم . ولا عجب فقد كانوا هم انفسهم من العلماء او الآخذين من العلم بنصيب وافر ، فاذا استعرضنا بعض السلاطين السعديين على سبيل المثال وجدنا ان :

- محمدا الشيخ السعدي ((بلغ في العلم درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه (1))) ويذكر انه كان حافظا للقرآن وله حواش على تفسيره ، وانه كان حافظا لديوان المتنبي ، أديبا متفننا (2) .

اما ابنه عبد الله فكان هو ايضا حافظا للقرآن العظيم وآخذا . بطرف واسع من العلم (3) . وكان محمد بن عبد الله المتقدم ذكره فقيها مشاركا في الفنون اديبا مجيدا ، قوي العارضة نظما ونثرا (4) .

وأما احمد المنصور فقد كان " خبيرا بالعلوم متضلعا بالفنون من شعر وتاريخ وسير ولغة وبيان ، ومنطق وتفسير وحديث ، وحساب ، وفرائض ، وهندسة ، وجبر ومقابلة (5) . وله عدة تآليف منها كتاب في السياسة وحاشية على تفسير القرآن . وحاصلا على عدة اجازات من علماء المغرب والمشرق منها اجازتان من كبار علماء مصر احداهما من الشيخ الامام العالم محمد البكري الصديقي والاخرى من بدر الدين القرافي (6) ، قاضي قضاة المالكية بمصر .

وكان ابنه زيدان فقيها مشاركا متطلعا في العلوم وله تفسير على القرآن العظيم (7) .

- مواقف حكام المغرب تجاه المثقفين الجزائريين الوافدين اليهم : سار الوطاسيون والسعديون على تقليد من سبقهم من حكام المغرب ، من ناحية تقريبهم لهم بل وتوسيعهم بمن يفد اليهم منهم ، بل وايثارهم على علماء المغرب باسناد ارفع الوظائف العلمية والدينية اليهم مع

(1) (3) الافراني : النزهة ص 23 ، 24
(2) نفسه : ص 45
(4) نفسه : ص 57
(5) نفسه : ص 129 والفشتالي : المناهل ص 265
(6) انظر نصهما في الفشتالي : المناهل ص 269 - 294
(7) الافراني : النزهة ص 247

كثرة العلماء في المغرب ، الامر الذي لم يكن ليرضي دائما هؤلاء او بعضهم على الاقل ، لما يثيره هذا في نفوسهم من غيرة وحسد وتنافس على المناصب . وكان هؤلاء لا يخفون احيانا استياءهم ، من الوضع . وفي الترجمة التي خصصها ابن عسكر للعالم الجزائري التلمساني احمد بن محمد العبادي التلمساني الذي هاجر الى فاس في عهد الناصر بن الشيخ الوطاسي ما يدل من جهة على توحيب هذا الاخير به وايثاره له على علماء فاس وما يدل من جهة اخرى على عدم الرضى الذي قابل به هؤلاء الاخيرين منافسة عالم تلمسان لهم ، ومحاباة السلطة الحاكمة له اذ يذكر بهذا الصدد ان الناصر الوطاسي قدم العالم التلمساني الوافد الى المدرس في فاس مع توافر العلماء ويضيف قائلا ((ولقي من منافسة نظرائه من فقهاء فاس في ذلك الوقت امورا لو ذكرها لتقدمه عليهم وتوجه ارباب الدولة الى جهته ..)) (1) .

واذا انتقلنا الى عهد الشيخ السعدي وجدنا انه رحب بوفادة محمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني المغربي بدرا يا مفقلده الفتوى بمدينة فاس وتولى التدريس والخطابة والامامة في جامع الاندلس ثم القرويين (2) .

اما عبد الله السعدي فانه قد رحب بنداء علماء تلمسان الذين استغاثوا به في اعقاب الفتنه التي وقعت بينهم وبين الترك التي اشير اليها سابقا ، في سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م ونقلهم الى فاس واحتفى بهم . ووصل كلا منهم على قدر حاله ، وامر لاحمد بن احمد العبادي بالف مثقال ذهبا وكساء واقامة جليلة وقال لاعوانه لا تسوده باحد من الفقهاء كان همته كبيرة (3) .

وقلد عبد الله محمدا بن هبة الله المعروف بشقرون الفتوى ورئاسة العلم بمراكش وسائر اقطار المغرب ، واحتفل الفقهاء لحضوره (4) .

واما عبد الملك فأبى الا ان يصطحب معه في عودته الى المغرب في ٩٨٤ هـ/١٥٧٦م العالم الجزائري يحي بن سليمان الزواوى (5) .

ونأتي الآن الى موقف سلطان العلماء او عالم السلاطين احمد بن احمد المنصور فنجده يؤثر العلماء الجزائريين الذين استوطنوا المغرب قبل ان يتولى الملك كمحمد بن الوقاد ، والذين وفدوا عليه وهو على كرسي الملك كمحمد العري التلمساني واحمد المقرى ومحمد بن لتاروت انت رأس العين .

فكان لابن الوقاد الذي تولى الفتوى والخطابة والامامة في الجامع الكبير منزلة رفيعة ووجاهة كبيرة لديه حتى انه كان يتاحفه بالهدايا والطرف الى منزله ، واذا ما حضر الى مراكش كان يؤثره بالمؤاكلة معه على مائدته (6) .

---

(1) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٨
(2) نفسه : ص ٩٠ - ٩١
(3) نفسه : ص ٨٧
(4) نفسه : ص ٨٦
(5) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ٣٤
(6) الفشتالي : المناهل ص ٢٢٥

واسند الى محمد المرى الفتوى والتدريس بمراكش (1) .

واستقبل المنصور احمد المقرى في بلاطه، وهو لا يزال طالب علم في مراكش (1001 هـ) (2) . ولما اتم دراسته وعاد الى المغرب المرة الثانية كان المنصور قد توفي ، فولي الفتوى في فاس والخطابة بجامع القرويين في عهد حفيده عبد الله بن محمد الشيخ (3) .

ولا شك ان محمدا بن رأس العين الاندلسي الاصل الجزائرى الدار، الذى وفد على المنصور في أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى، وخصه ببعض قصائده المدحية (4) قد نال الحظوة اللائقة به ، واصاب من سخاء المنصور ما كان يخص به الوافدين اليه من الادباء .

ولم يشذ اواخر السلاطين العلويين من اوائل السلاطين السعديين في الترحيب بعلماء الجزائر وادبائها، الذين كانوا يفدون اليهم ، وانزالهم المنازل الرفيعة واكرامهم بسخاء كبير .

فهذا محمد بن الشريف يرحب بالشاعر الجزائرى التلمساني ابي عثمان سعيد الذى وفد اليه وخصه بقصائد مدحية من الشعر الموزون والملحون، واعطاه مكافأة عليها نحو خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب (5) .

اما اخوه مولاى اسماعيل، فرحب بوفادة الفقيه والاديب الجزائرى محمد بن عبد الكريم الجزائرى ، واكرمه واجلسه بجانبه وغمره بكرمه، فاستوطن فاس الى ان توفى بها في سنة 1102 هـ / 1690 م (6) . وكذلك شأنه مع عالم جزائرى آخر وفد اليه من قسنطينة وهو محمد بن احمد (ابن الكماد) الذى استوطن فاس بصفة دائمة ونهائية (7) .

ومن الشواهد المتقدمة يتضح لنا ان حكام المغرب، المحبين اهلا للعلم والعلماء ، كانوا لا يمانعون فقط في دخول الادبة والعلماء الجزائريين الى المغرب بل كانوا يرحبون بهم ويقدمونهم على الادبة والعلماء المغاربة الامر الذى كان له اثره بدون شك على استمرار حركة المبادلات الثقافية بين الجزائر والمغرب ، وميلها لصالح البلد الاخير ، حيث ان الكثيرين من المهاجرين الجزائريين استحسنوا استيطان المغرب بصفة نهائية ودائمة في كنف حكام المغرب .

ولا يخفى ان بقاء الكثيرين منهم في المغرب كان يساعد على تنشيط الحياة الثقافية فيه ، ويحرم في نفس الوقت الجزائر من جهود الكثيرين من ابنائها، ومساهمتهم في حياتها الثقافية ، مما جعلها تبدو في هذه المرحلة اقل حيوية ونشاطا عما هو الحال في المغرب .

---

(1) المقـري : روضة الآس ص 307
(2)(3) الحفناوى : تعريف الخلف جـ 1 ص 54 - 55
(4) ابن القاضي : درة الحجال جـ 2 ص 236
(5) الافرانـي : النزهة ص 302 ، السلاوى : الاستقصاء جـ 7 ص [illegible]
(6) الحفناوى : المرجع السابق جـ 2 ص 420 - 421
(7) نفسه : جـ 2 ص 344 - 347

ولا أغال ان ترحيب حكام المغرب بالعلماء والطلبة الجزائريين الذين كانوا يفدون
يهم ،بل وايثارهم على علماء المغرب ، كان رغبة منهم في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب،
عطائها وماجديد باستمرار ، اوحبا خالصا منهم في اهل العلم ، خاليا من اى غرض آخر
ر من ترويج ذكرهم مثلا في الجزائر ، اواستيقاء المعلومات منهم او عنهم عن الاوضاع فيها
كانت الصلة بين العلماء الجزائريين المهاجرين في المغرب وأهلهم في الجزائر جد مرتفعة حتى
ا ما من لهم خاطر غزوها وجدوا سمعتهم قد تقدمتهم اليها ، والمعلومات عن الوضع فيها متوافرة
بهــــم . وقد يفسر السهولة التي كان الحكام المغاربة السعديون والعلويون، يجدونها
اجتياح تلمسان ونواحيها ، اذ كان لهم فيها موالون ، اكتسبوهم بفضل ايوائهم وايثارهم
علماء الذين وفدوا اليهم بكثرة من تلك الجهات .

ولكن حكام المغرب، السعديين وقبلهم الوطاسيين ، شأن اتراك الجزائر لم يقتصـــر
حيبهم على الفئة المثقفة فقط ، بل كانوا يرحبون ايضا بمن يفد عليهم من الفئات الاجتماعيــة
اخرى من جزائريين واتراك ، ويفسحون لهم باب العمل في المغرب بشأن الزواوين والاتراك
ذين كانوا يعملون في صفوف الجيش السعدي .

وقبائل عرب الشراقة التلمسانية التي انتقلت الى المغرب وقبلها قبائل مليونه (الوهرانية)
يرهـــــا .

وخلاصة القول : فان العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية، في الفترة
ضوع البحث كثيــــرة بعضها قديم موروث، وبعضها جديد ، كان تأثير بعضها سلبيا وكثيرها
يجابي . ويمكن اعتبار تنقل المثقفين الجزائريين والمغاربة وغير المثقفين ، وهجرتهم من بلد
ى آخر هجرة موقتة او دائمة سواء لاسباب سياسية او امنية ، او للتحصيل العلمي او ابتغاء
عمل او لجمع الشمل او لغير ذلك من الاسباب والدوافع ، هذه الهجرة التي كانت تنشـــط
يانا من الجزائر نحو المغرب ، واحيانا قليلة من المغرب نحو الجزائر ، في طليعة العوامل
هامة الايجابية التأثير على العلاقات بين البلدين، في المجالين الاجتماعي والثقافي ، اذ كانت
يح فرص الالتقاء بين افراد وجماعات من مختلف فئات المجتمعين . وكان ينجم عنها تلاقـــح
فكار وتبادل الآراء واستـــــفادة العلم بعضهم من بعض ، وقيام صداقات بينهم .
ا كان ينشأ عنها تبادل التأثيرات المختلفة في العادات والتقاليد . وكل ذلك كان يعـــــود
ى الحياتين الاجتماعية والثقافية في كلا البلدين بالنفع العميم ويقوي اواصر القربى ويســــهم
ي تحقيق وحدة ثقافية وفكرية بين الجزائر والمغرب .

الفصـــل العاشـــــر

مظاهر العلاقـات الاجتماعية والثقافيـة

ان من يتأمل في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ، في الفترة مدار البحث، يجد انها اتخذت صورا ومظاهر متعددة، لعل ابرزها :-

حركة الهجرة والتنقل القوية بين البلدين للجزائريين والمغاربة : من مختلف الفئات الاجتماعية لاسباب ودوافع مختلفة تقدمت الاشارة اليها في الفصل السابق ، تلك الحركة الدائبة التي جعلت الاحتكاك بين شعبي البلدين ، ولا سيما بين افراد الفئات الاجتماعية التي كانت تنتقل بين البلدين ، كفئات المثقفين من العلماء والطلبة ، والتجار ، والعمال ، والجنود ، وغيرها ممكنا وامكانية قيام علاقات وطيدة اجتماعية وثقافية بين الشعبين، متاحة . وبالفعل فقد اتاحت حركة تنقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين ، والاقامة الدائمة لبعضهم في مهجرهم والموقتة لبعضهم الآخر، فرص قيام علاقـــات وطيدة بين الجزائريين والمغاربة ، في المجالين الاجتماعي والثقافي :

1 ـ العلاقـــات في المجال الاجتماعي : وتتجلى اولا في المصاهرات التي تمت بين الجزائريين والمغاربة وهي نوعان :

ـ مصاهرات بين عامة الجزائريين والمغاربة . من مختلف الفئات من غير الحكام ، وهي مصاهـــرات خالية من الاطماع السياسية .

ـ ومصاهرات ذات طابع سياسي بين فئة الحكام في البلدين ، وهي مصاهرات لا تخلو مـــن مصالح واطماع قصد الطرفان الى تحقيقها عن طريق المصاهرة .

وكنموذج عن النوع الاول من المصاهرات بين الجزائريين والمغاربة نذكر : زواج الطالـــب الجزائري ابي مهدي عيسى الثعالبي من ابنة استاذه علي بن عبد الواحد السجلماسي المغربي، الذي وفد الى الجزائر من المغرب ، مع اسرته واستوطنها في اواخر النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وتصدر للتدريس فيها ، كما تقدمت الاشارة . وهناك فـي حجره تعرف على تلميذه ، وتوطدت العلاقات بينهما ، ثم تطورت الى المصاهرة [(1)] .

اما عن النوع الثاني من المصاهرات فنسوق كأمثلة عنه : زواج بعض الامراء الوطاسيين ، والسعديين من بنات حكام الجزائر وعلية القوم فيها ، بعد لجوء اولئك الامراء الى الجزائر في الظروف التـــي سبق توضيحها [(2)] ، من امثال :

---

(1) العياشي : الرحلة ج2 ص127

(2) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر والمغرب .

١ـ الامير الوطاسي ابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي، الذي تزوج بعد لجوئه الى الجزائر من ابنة صالح رايس بايلرباي الجزائر (١٥٥٢ - ١٥٥٦م) ، وتذكر المصادر ان هذا الاخير حاول لدى دخوله الى فاس في سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٤م ان ينصب صهره المذكور على عرش فاس، ولكن الفاسيين رفضوا له ذلك ، والزموه بتنصيب الامير ابي حسون ، فما كان منه الا ان انصاع ، ونصب ابا حسون المذكور الذي كان قد استنجد به (١).

٢ـ عبد المؤمن بن محمد الشيخ السعدي ، الذي تزوج ابنة حسن بن خير الدين بايلرباي الجزائر ، ونال عنده حظوة كبيرة ، ومكانة مرموقة ، فولاه ايضا على تلمسان ، فظل يحكمها الى ان اغتيل فيها (٢).

٣ـ عبد الملك بن محمد الشيخ السعدي الذي تزوج من ابنة حاجي مراد ، الذي كان من علية القوم في الجزائر ، واحد الوجوه السياسية البارزة فيها ، في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

ولا شك ان المصاهرات التي كانت تقوم بين الجزائريين والمغاربة ، كانت تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية ، وتمتين الروابط بين الشعبين ، وتزيدها عمقا وترسيخا اكثر فأكثر ، ولا سيما تلك المصاهرات التي لا تكون وراءها اهداف سياسية ، كاتخاذها مطية لتحقيق اغراض معينة تتعارض مع رغبة الجميع او الاغلبية ، كمحاولة صالح رايس الآنفة الذكر ، التي اصطدمت بمعارضة الفاسيين لانهم ادركوا فيما يبدو ان الهدف البعيد لصالح رايس كان هو العمل على ضم المغرب تحت سلطته، وادخاله تحت لواء الدولة العثمانية .

ثانيـا ـ تملك بعض الجزائريين والمغاربة للاقطاعات في مهجرهم :

واذا كان بعض المهاجرين من الجزائريين، او المغاربة ، قد ارتبطوا في مهجرهم بعلاقات مصاهرة فان بعضا منهم قد سعى ايضا الى تملك الاقطاع في مستقرهم الجديد . وتقدمت الاشارة (٣) الى بعض الجزائريين الذين حصلوا على اقطاعات في المغرب عن طريق المنح او العطاء من حكام المغرب ، او الشراء ، كما تقدمت الاشارة ايضا الى بعض المغاربة ، ولا سيما من الامراء السعديين واتباعهم الذين هاجروا معهم الى الجزائر ، والذين منحهم حكام الجزائر الاتراك تبعات واقطاعا خاصا (٤)، مثل عبد المؤمن وعبد الملك وغيرهما . ولا ريب ان المالكين للاقطاعات من المغاربة في الجزائر ونظرائهم من الجزائريين في المغرب كثيرون . ولكن المعلومات الموثقة عن تلك الملكيات قليلة .

---

١) انظر فصل العلاقات السياسية الرابع .
٢و٣) نفسه ، ومقال شانتال دولا دولافيرون في مجلة الغرب الاسلامي عدد ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٦٦
٤) انظر بحث العلاقات الاقتصادية الفصل السابق

ـ وجود جالية مغربية في الجزائر، وجالية جزائرية في المغرب .

ومواقف حكام البلدين مـن
نتيجة لحرية التنقل بين الجزائر والمغرب للافراد ، والجماعات ، ومواقف حكام البلدين من بلد الى آخر ،
اجرين الى بلدهم ، تلك المواقف التي اتضح انها لم تكن ضد حركة التنقل من بلد الى آخر ، بل ان حكام البلدين كانـوا
تضع قيودا لمنعها او عوائق في وجه المنتقلين من بلد الى آخر ، بل ان حكام البلدين كانوا جاليـة
رأينا يرحبون بالوافدين عليهم من البلد المجاور لبلدهم ، فقد كان هناك دوما جالية
زائرية كبيرة في المغرب ، وجالية مغربية في الجزائر . ولكن كتب التراجم والتاريخ المتوافرة بين
ينا لا تقدم احصاءات عن عدد افراد الجاليتين ولا تفاصيل غنية عن تكوينهما او تنظيمهما او عن
ن سكناهما الخاصة ، ان كانت لهما اصلا اماكن او احياء خاصة بهما ضمن المدينة او المنطقـة
حدة . كما كان حال المغاربة هنا في المشرق . وتكتفي كتب التراجم والتاريخ التي تـم
جوع اليها بالاشارة الى المدن المغربية التي حل بها الجزائريون والمدن الجزائرية التـي
ا المغاربة واستوطنوها بصفة مؤقتة او دائمة ، واهم تلك المدن فاس ومراكش وتطوان وسجلماسة
رودانت في المغرب وتلمسان ، ومدينة الجزائر وقسنطينة في الجزائر .

ولا شك ان وجود جالية جزائرية في المغرب ، واخرى مغربية في الجزائر من شأنه ان يساهـم
توطيد العلاقات بين الشعبين الجزائري والمغربي ، اللذين هما في واقع الامر شعب واحد بحكم
صول الواحدة لعناصر سكانهما ، وفي تحقيق مزيد من التجانس في العادات والتقاليد وغير ذلك
قضاء على كل تمايز عن طريق نقل المهاجرين لمؤثرات بلدهم الى مهجرهم .

ولكن حركة تنقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين ، ومواقف حكام الجزائر والمغرب من تلـك
حركة ، اتاحت ايضا امكانية قيام علاقات ثقافية وطيدة ، او بالاحرى استمرار العلاقات الثقافيـة
تي كانت قائمة بين البلدين ، في الظروف الجديدة التي طرأت على البلدين ، في الفترة مـدار
بحث . ولعل من ابرز مظاهر تلك العلاقات تنقل رجال العلم وطلبته بين البلدين ، والمناقشات
فكرية والدينية التي كانت تجري بين علمائها ، والمراسلات المتبادلة بين مثقفيها .

2ـ العلاقات في المجال الثقافي : وتجلى في : أ ـ تنقل العلماء والطلبة الجزائريين والمغاربة بيـن
سواء للأخذ او العطاء او للغرضين معا ، كان ظاهرة ملحوظـة
البلدين تنقلا طوعيا او قسريا ، سواء للأخذ او العطاء او للغرضين معا ، كان ظاهرة ملحوظة اكثر من الحقبة السابقة لهـا ،
وضوع ، في الفترة مدار البحث ، اذ كانت حركة تنقلهم نشيطة فيها اكثر من الحقبة السابقة لها (1) . وقد تم تقديم نماذج عديدة ،
لظروف التي شهدها البلدان ، السياسية والامنية على الخصوص . وقد تم تقديم نماذج عديدة ويهمنا الآن ان
في الفصل السابق من العلماء والطلبة الذين هاجروا او تنقلوا بين البلدين . ويهمنا الآن ان
نلاحظ ان المثقفين المغاربة الذين هاجروا الى الجزائر ، ساهموا كما يستخلص ذلك من تراجـم
العلماء المغاربة الذين تقدم او سيأتي ذكرهم ، مساهمة ايجابية في تنشيط الحياة الثقافيـة

(1) انظر فصلي الحياة السياسية في الجزائر والمغرب .

في الجزائر ، واعمار مراكزها الثقافية العديدة مثلما ساهم المهاجرون من مثقفي الجزائر الى المغرب في تنشيط الحياة الثقافية فيه واعمار مراكز ثقافية كثيرة فيه . ولعله ليس من المبالغة اطلاقا القول بأن نشاط الحياة الثقافية في المغرب طوال الفترة مدار البحث كان قائما الى حد كبير على جهود عديد من العلماء الجزائريين الذين استوطنوا المغرب ، اذ كان لايخلوا مركز من المراكز الثقافية في المغرب ولا سيما الكبرى منها كفاس ومراكش وتطوان وسجلماسة وتارودانت دون ان يتصدر عالم جزائري بارز او اكثر للتدريس فيه . وقد يجمع ذلك العالم اكثر من خطة كأن يجمع الى التدريس خطة القضاء او الافتاء او الامامة او الخطابة ، كعلي الطفري ، ومحمد شقرون وابن جلال وابن الوقاد الذين تقدم ذكرهم وغيرهم من العلماء الجزائريين الذين تخرج على ايديهم اغلب طلبة المغرب وعلمائه في الفترة مدار البحث .

وقد يكون عسيرا حصر اسمائهم ، كما انه ليس من فرضنا وضع قائمة بها ، وان كان سيرد ذكر بعضهم عند الحديث عن مراكز التبادل الثقافي في المغرب . هذا من جهة ولا نعدو الحقيقة من جهة اخرى ، اذا قلنا ان بعض الانتعاش الذي شهدته الحياة الثقافية في الجزائر في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، ولا سيما في تلمسان وقسنطينة والجزائر يعود في قسم منه على الاقل الى جهود المثقفين المغاربة الذين وفدوا على الجزائر في هذه الفترة بكثرة نسبية ، واستوطنوها ، فدور عيسى البوسعيدي في تلمسان وعلي بن عبد الواحد السجلماسي في الجزائر ، ومحمد بن ومحمد بن مزيان الواتسي في قسنطينة في مجال التعليم لاينكر ، وعلى يديهم تخرج الكثيرون من الطلبة الجزائريين الذين اصبحوا من مشاهير علماء الجزائر في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، وتطول ايضا القائمة لو حاولنا ذكر جميع من نعرفهم منهم ومن تلاميذهم ، ناهيك عمن لانعرفه منهم ، اذ كثر الآخذون عنهم ومن اليهم الطلبة من مختلف جهات الجزائر لما كان لهم من شهرة .

وساهم بعضهم كعلي السجلماسي على الخصوص في دفع حركة التعليم في مدينة الجزائر قدما الى الامام برفع مستوى دروسهم وتنويع مواد الدراسة ، وقد كان يدرس الفقه واصوله ، والبيان والمنطق والسير ، والتصوّف ، والحديث والنحو ، وربما مبادئ الطب ايضا ، حيث وضع فيها منظومة كما وضع منظومات وشروحا في المواد الاخرى التي كان يدرسها (1) .

وقد نال العلماء المغاربة في الجزائر ولا سيما العلماء الجزائريون في المغرب بفضل نشاطهم العلمي ، وجهودهم في المجال الثقافي احتراما وتقديرا عاليا لدى عامة الناس وحظوه ووجاهة

---

1) انظر عن جهود الانصاري ونشاطه التعليمي والتأليفي : المحبي : خلاصة الاثر ج ٣ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، الحفناوي : تعريف الخلف ج ١ ص ٦٩ ، وسعد الله / المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٧ - ١٨٣

بمرة لدى السلطات الحكومية في البلدين وعلية القوم فيهما ،فأسندوا اليهم المناصب العلمية الدينية ،كالتدريس والقضاء والافتاء والامامة والخطابة كما تقدم القول .

ب ـ المناقشات والمناظرات الفكرية والدينية : وكانت المناقشات والمناظرات الفكرية والدينية

مظهرا آخر من مظاهر العلاقات الثقافية بين البلدين ،ذلك ان تطابق وجهات نظر اهل العلم فيهما الى حد كبير بحكم التكوين المتشابه من حيث مواد الدراسة والكتب الدراسية ،وطرق التدريس التي كانت سائدة في البلدين ،لم تمنع اختلاف وجهات نظر بعض علماء البلدين حول بعض القضايا الفكرية والدينية ،وبالتالي قيام مناقشات ومناظرات حولها بينهم .

ونشير هنا الى المناقشات التي دارت بين المبعوث الجزائري الى المغرب ابي عبد الله محمد الخروبي الجزائري الدار ،الذي كان على درجة عالية من العلم والتصوّف ، وبين بعض كبار مرابطي المغرب والمتصوفة فيه من امثال ابي عمر القسطلي واتباعه ،وكان لابي عمر المذكور في مراكش وسائر بلاد المغرب شهرة عظيمة ،وللناس في شأنه اضطراب لانه كانت له دعوة عريضة في مقام الاولياء ، و مكاشفة الغيب ،ودعوى القطبانية ،وانه صاحب الوقت .(1)

وقد شملت تلك المناقشات الامور المتعلقة بالتصوّف ،فأنكر الخروبي على ابي عمر واتباعه مسائل كثيرة ، بما في ذلك قصه لشعر الشارب معتبرا ذلك بدعة ورّد على اتباع ابي عمر الذين حاولوا تبرير عمل شيخهم ولفت نظره الى ان الشيخ الجزولي كان يقصد ذلك ،بأن هذا الاخير قد يكون فعل ذلك باذن ،والاذن للولي لا يعم اتباعه ،في حين ان الاذن للنبي (ص) يعم اتباعه .

ولما عاد من سفارته التي قام بها الى مراكش ،وجه رسالة الى ابي عمر المذكور قال عنها الافراني (انه ابدع له فيها)(2)

وكما اثار الخروبي نقاشا حادا مع المتصوفة من اتباع الطريقة الشاذلية الجزولية في مراكش ، اثار نقاشا آخر مع علماء فاس ،وخواصها برسالته التي وجهها اليهم والتي سماها (رسالة ذوي الافلاس الى خواص مدينة فاس) ،وقد ذكر فيها آدابا على القواعد الخمس ،اثار بعض ما جاء فيها نقاشا كبيرا بين علماء المغرب ،(3) ظل مستمرا فترة طويلة قبل ان يهدأ ،وتركز النقاش على المفسر بن قضية النفي في القاعدة الاولى وهي (لا اله الا الله) واختلفت الآراء حول ما اذا كان النفي بلا في القاعدة المذكورة ، تنتفي به الوهية الصنم وغيره

---

(1) ابن عسكر : الدوحة ص ٨ .
(2) الافراني : النزهة ص ٤٢
(3) ابن عسكر : الدوحة ص ٨

...ـد من دون الله ام لا ، وكان رأي العالم الجزائري في القضية حسب ما ذكره ابن عسكـــــر :
...من الادب الا يتناول نفيه عند النطق بحرف النفي ، الا ما ادعاه المشركون من الآلهة ســوى
... تعالى ، ولكن الحق جل جلاله ثابتا عندك في حال النفي والاثبات ، واضاف قائلا : والى
...ا اشار بعض العلماء حيث قال : النفي لما يستحيل كونه ، والاثبات لما يستحيل عدمـــــه (1)
...ـم الناس عليه هذه العبارة لما يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي .

وقد كان الهسيتني مفتي فاس ، وابو محمد عبد الله الهبطي وغيرهما ممن شاركوا في مناقشـــة
...ور في قضية النفي المذكورة ، وتدخل السلطان السعدي محمد الشيخ حين احتدم الخـــلاف
...ن الهسيتني والهبطي لمعرفة الحقيقة ، وعقد مجلسا للمناظرة ، دعا اليه الطرفين المختلفيــن .
...ن الهبطي آثر الا يتحدث في الموضوع ، دفعا للمزيد من المساحنة بينه وبين خصمه ، الـذي
...ن يعرف بطبعه الميال الى العناد ، والتصميم على اللجاج ، حتى انه اذا قال مثلا (الشمـــس
...طلع من المغرب ، وقال الناس كلهم انها تطلع من المشرق ، لم يرجع عن قوله) (2) . فانفض المجلـــس
...ن غير طائـل .

وكان الهسيتني قد اتهم في هذا المجلس الهبطي بأنه مبتدع ، وحث السلطان على قتلــــه ،
...لا ان محمدا الشيخ أبى ، وتبين له ان الهسيتني كان يتحامل على الهبطي ، اذ حاول ايضـــا
...ن يثير شكوكـــــه حوله ، والايحاء له بأنه يشكل خطرا على ملكه (3) .

وكان لابد من انتظار نحو قرن من الزمان لرؤية عالم مغربي آخر يتصدى لهذه القضيــــة ،
...التي ظلت ملتهبة في المغرب ويفصل فيها القول بما لا يدع مجالا للمزيد ، وهو ابو علي الحســن
...ن مسعود اليوسي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م ، الذي الف في الموضوع كتابا سمـــاه
« مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص . او منهج الخلاص من كلمة الاخلاص » . فاعطى فيـــه
...كما قال « لكل ذي حق حقه ، وللحق حقه ايضا » (4) .

وليس من غرضنا ان نتتبع ما اورده بهذا الصدد مفصلا في كتابه المذكور ، وانما ان نؤكـــد
...ان تبادل الرسائل بين اهل العلم في البلدين ، كان مظهرا من مظاهر الملاقات الثقافيـــة
...بينهما ، مثل تبادل الزيارات واللقاءات بين الطلبة والعلماء ، والمرابطين والمتصوفة .

ج ـ المراسلات : وقد كانت المراسلات بين اهل العلم ، كما يفهم ذلك من رسالتـــي
الخروبي الآنفتي الذكر وغيرهما من الرسائل الآتي ذكرها ، في اغراض متنوعة ، فكرية ودينية وادبية ،

---

1) نفســه : الدوحة ص ٩
2) نفسه : ص ١١
3) نفســه ص ١٠
4) عبد الكريم كنون / النبوغ المغربي في الادب العربي ج ٢ ص ٢٦ واليوسي : منهج الخلاص .
فاس ١٣٢٧ هـ

علماء ، وبين الطلبة واساتذتهم ، وبين كبار مشايخ الصوفية واتباعهم .

في اطار المراسلات التي كان غرضها طلب وتوضيح بعض المسائل الفكرية او الدينية الغامضة ، استيضاح حولها نذكر بالاضافة الى مراسلات محمد بن علي الخروبي مع خواص اهل فاس، ومراكش، لات التي كانت تتم بين احمد الونشريسي التلمساني، المعروف بابن الحاج ، والامام محمد زن، كبير علماء فاس في مسائل مختلفة في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر دى . وقد كان كما يقول ابن مريم - كل واحد يلغز لصاحبه بالمسائل نظما ، ويجيبه بالنظم [1] ، كما نذكر ردود الشيخ الوزان القسنطيني عن المسائل التي كانت تـرد من المغرب [2] .

ونذكر بمراسلات محمد بن عبد الكريم المغيلي ، المتوفى سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م الى علماء حول التعامل مع اليهود ، والسلوك الذي ينبغي ان يتبع معهم . ولو ان هذه المراسلات ت قبيل الفترة موضوع الدرس ، مما يدل على ان المراسلات بين علماء البلدين في هـذه رة كانت استمرارا للمراسلات التي كانت قائمة من قبل .

ولا شك ان مراسلات العياشي معبد الكريم الفكون [3] ، تدخل ايضا في اطار التوضيح والاستيضاح ض المسائل .

واما المراسلات بين الطلبة واساتذتهم ، لطلب الاجازة منهم فنذكـر كمثال عنهـا مراسلات التي كانت بين ابي العباس احمد بن القاضي ، صاحب جذوة الاقتباس ودرة الحجـال وغيرها من المغرب ، وسعيد المقري ، عالم تلمسان الشهير من الجزائر . وفي هذه المراسـلات لب احمد بن القاضي من الاستاذ العالم المذكور الاجازة العامة فيما له من مروي ومقـروء ، جاز ومسموع ، مع ذكر مشايخه الاعلام ، وذلك في سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م ولبى سعيـد مقري طلبه في نفس السنة [4] .

اما ابن عسكر صاحب الدوحة ، فقد انتهز فرصة وجود علماء تلمسان في المغرب ، فأخـذ منهم وحصل منهم على الاجازة . ومن الذين اجازوه منهم : ابو العباس احمد بن محمد العبادي التلمساني [5] ، وابو عبد الله محمد بن هبة الله الوجديجي [6] ، كما حصل احمد المقري من جهتـه ، وهو في المغرب ، على عدة اجازات من علماء المغرب منهم : ابو العباس احمد بن القاضي [7] ، وابو العباس احمد بن ابي القاسم التادلي [8] ، في حين كان حصول العياشي صاحب الرحلـة

( ) ابن مريم : البستان ص ٨ . . . اسئلة عليه بصدد الترجمة لابي عبد الله
٢) عبد الكريم الفكون : منشور الهداية (اشار الى ورود اسئلة عليه بصدد الترجمة لابي عبد الله المطار)
٣) العياشي : ماء الموائد ج ٢ ص ٣٩
٤) انظر استدعاء احمد بن القاضي للاجازه ، واجازة سعيد المقري له في احمد المقري / روضة الآس العاطرة في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس الرباط ١٩٦٤ ص ٢٢٦-٢٦٩ .
٥) انظر نص اجازته في : ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧-٨٨
٦) انظر نص اجازته في / المرجع السابق ص ٨٦-٨٧
٧) احمد المقري المصدر السابق ص ٢٨٩ وما يليها

الاجازة من شيخه ابي مهدي عيسى الثعالبي [1] ، ومن الشيخ عاشور القسنطيني [2] ، في المشرق ،
ؤكد على ان الصلة بين علماء البلدين ، وأخذ بعضهم من بعض قد تتولد خارج المغرب
ئر .

ي كانت بين العياشي وابي مهدي عيسى الثعالبي مراسلات ، حين كان هذا الاخير مقيما في
وكان العياشي في طريقه الى الحج سنة ١٠٦٤ - ١٠٦٥ هـ ، وفي احدى الرسائل التي كتبها
التي اوردها في " رحلته " كان الغرض هو الاستعانة بأبي مهدي في التقرب من كبار
مصر ، للاخذ عنهم [3] .

ما كانت بين ابي العباس احمد المقري ، حين كان مقيما في مصر مراسلات عديدة مع علماء
غرب في اغراض مختلفة ، امثال علي بن عبد الواحد الانصاري ، ومحمد بن ابي بكر الدلائي
هما . وفي رسالة من المقري مؤرخة بربيع الاول سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م الى الدلائي
ذكور ، كان الغرض هو ان يتولى الشيخ الدلائي الاشراف على تزويج ابنته ، التي خلفها في المغرب
شراف على تطليق زوجته . حيث بات من العسير عليه ان يعود الى المغرب ، وليس من اليسير
تلحق هي به [4] ، وهذا يدل على مدى العلاقة الوطيدة التي كانت بين المقري ومحمد بن ابي
ر الدلائي ، وهو نموذج لما يمكن ان تتطور اليه العلاقات بين علماء الجزائر والمغرب .

وقد كان محمد بن ابي بكر الدلائي رجل دين وعلم ، يتمتع بسمعة كبيرة في المغرب والجزائر
كانت الرسائل تأتيه من مختلف جهات المغرب ، ومن الجزائر ايضا ، في اغراض مختلفة ، في مسائل
شخصية كما تقدم ، ودينية ، ووطنية .

وفي الغرض الاخير كتب اليه جماعة من علماء الجزائر ، ومرابطيها ، يحثونه بعد ان اوضحوا
ارتباط الجزائر بما يعيب المغرب ، على أن يعلن الجهاد لتطهير البلاد من الكفار ، واستغلال
كلمته المسموعة . ولا ندري ما كان جوابه المهم [5] . ومن مراسلات المرابطين فيما بينهم حول بعض
القضايا الدينية والتصوفية ، نشير الى مراسلات عبد العزيز القسنطيني مع عبد الله بن عمر المطغري
ومحمد بن علي الدرعي ، التي وصفها ابن عسكر بأنها مراسلات عجيبة ونافعة [6] ، والى مراسلات احمد
بن يوسف الملياني مع اتباعه ، ومريديه ، ومناوئيه في الجزائر والمغرب [7] .

---

١) العياشي : المرجع السابق جـ ٢
٢) نفســه : جـ (ص ٣٨٢
٣) نفسه : جـ ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ ، وانظر جواب الثعالبي في نفس المرجع ص ١٣٠ - ١٣١
٤) انظر الرسالة في كتاب الزاوية الدلائية لمحمد حجي (ملحق ٨) ص ٢٨٢ - ٢٨٤
٥) المهدي البوعبدلي / اضواء على تاريخ الجزائر / في / الاصالة عدد ٨ ص 281 - 282 .
٦) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٤
٧) الورتيلاني / : المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨

والجدير بالملاحظة ان العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ،كما بدا من
اشر المتقدم ذكرها،كانت علاقات عفوية، طبيعية ،لا صفة رسمية لها.. اذ هي لم تكن موضوع
قات او معاهدات رسمية بين البلدين تحددها او تقننها ،وانما فرضتها الروابط المديدة،
ية،التي كانت وما تزال، تربط بين شعبي البلدين،من روابط بشرية ولغوية ،وثقافية ،وجغرافية .
وقد نجم عن استمرار الاحتكاك بين شعبي البلدين في هذه الحقبة ،من خلال مثقفيهما
جهاء وتجارهما،وجنودهما ،وسائر الفئات الاجتماعية الاخرى ،وتبادل الآراء والافكار والمعارف
تأثيرات المختلفة بين افراد تلك الفئات المتعددة . تدعيم تلك الروابط وترسيخها ،بحيث
ن الحديث عن ظواهر : الوحدة الدينية والمذهبية والطرقية والتعليمية والفكرية في البلدين،وان كان
د من الاقرار بأن هذه الوحدة قد تحققت قبل الفترة مدار البحث ،الا انها
انفكت تتدعم وتتعزز خلالها ،على الرغم من بعض الطوارئ
تي طرأت على البلدين كوجود الغزاة الاسبان والبرتغاليين على شواطئ البلدين،بلغتهم
بديانتهم وعاداتهم المختلفة عن لغة المغاربة والجزائريين، وديانتهم وعاداتهم. ودخول
لاتراك العثمانيين بلغتهم المختلفة ومذهبهم الحنفي .
فالاسلام استمر دين الاغلبية الساحقة في البلدين،كما كان الامر قبل
دة قرون .ولا يشكل اليهود والمسيحيون فيهما الا اقلية . والمذهب المالكي السني
ستمر سيدا،بدون منافس في المغرب ،وكان اتباع المذهب الحنفي والاباضي اقلية
ي الجزائر .
والعربية استمرت لغة الثقافة في البلدين ،ولم تكن اللغة العثمانية في
الجزائر سوى لغة ادارة . اما اللغتان الاسبانية والبرتغالية فلم تنتشرا كلغة
حديث فقط ،الا لدى بعض علماء الاسبان والبرتغاليين ،اولدى المهاجرين
الاندلسيين ،واللغة البربرية لم تكن تمثل لغة علم وتعليم،وثقافة،وقد ظلت محصورة
ومحدودة الانتشار .
وتعاليم الطريقة الشاذلية (١) الصوفية المغربية الاصل ،تكاد تكون لها السيادة المطلقة
في البلدين ،رغم الازدهار الذى شهدته الطريقة القادرية (٢) بعد دخول الاتراك العثمانيين
الى الجزائر . والى الطريقة الشاذلية تنتسب معظم الطرق الصوفية الفرعية التي نشأت في
الجزائر والمغرب .

---

(١) نسبة الى ابي الحسن علي الشاذلي : انظر هامش ١ص ٦٩ من فصل الحياة السياسية في المغرب .
(٢) نسبة الى عبد القادر الجيلاني : انظر هامش ٣ ص ٦٩ من نفس الفصل .

- كالطريقة الجازولية الشاذلية ، التي اسسها محمد الجزولي ، الذي ينسب الى جده سليمان ، فيعرف باسم محمد بن سليمان. وقد كان هذا الاخير من اكابر مشايخ الصوفية في المغرب في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ... وكثر اتباع طريقته بعد وفاته (1) ولعبوا دورا هاما في رفع الاسرة السعدية الى الحكم ، والاطاحة بالاسرة الوطاسية .

- والطريقة الزروقية التي تنسب الى موسسها الشهير ابي العباس احمد بن عيسى البرنوسي ، الفاسي (المغربي) ، المتوفي في سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م (٢) ، وقد كان لهذه الطريقة اتباع في الجزائر والمغرب . ومن اشهر اتباعها في الجزائر عبد الكريم الفكون القسنطيني (الجزائري) وعنه اخذ الطريقة نفسها العياشي المغربي ، صاحب الرحلة المشهورة (٣) .

- والطريقة اليوسفية التي تنسب الى موسسها ابي العباس احمد بن يوسف الملياني ، الجزائري ، المتوفي سنة (٩٣١هـ / ١٥٢٤م) (٤) ، الذي كان واحدا من اكابر مشايخ الصوفية في الجزائر . وكان له اتباع كثيرون في الجزائر والمغرب ، افرط بعضهم في الاعتقاد فيه ، وربما نسب له النبوءة ، ومن هؤلاء المدعو ابن عبد الله ، ولكن احمد بن يوسف الذي لاحظ بداية الغلو على اتباعه ، وهو لا يزال على قيد الحياة فاتهم بسبب اعتقاداتهم فيه ، واضطهد من قبل الامراء الزيانيين ، كما اتهم اتباعه من بعده ، واضطهدوا في المغرب ، كان يستنكر التقول بما لم يقله ، ويقول بهذا الصدد " من قال عنا ما لم نقله يبتله الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة " (٥) .

ومع ذلك فان الكثيرين من هم الذين ذهبوا في شأنه مذهب ابن عبد الله فتشكلت منهم طائفة في المغرب عرفت باليوسفية ، ثار ضدها فقهاء المغرب ، واشاروا على السلطان السعدي عبد الله بأن يستأصل شأفتها ، فسجن جماعة من افراد الطائفة ، وقتل آخرين بدعوى انهم ليسوا من إخوان الشيخ احمد بن يوسف في شيء ، وانهم ساروا في اعتقادهم فيه على غرار الشيعة في ائمتهم (٦) .

الا ان تشدد عبد الله تجاه افراد الطائفة المذكورة قد يكون له دافع آخر هو مخاوفه من أن يكون افراد الطائفة اليوسفية موالين للاتراك كأحمد بن يوسف ، وعيونا لهم في مملكته . ولا سيما ان علاقات عبد الله لم تكن دوما على ما يرام مع الاتراك كما رأينا (٧) .

وقد كان لاحمد بن يوسف زاوية في راس الماء بمنطقة مليانة ، كانت مقصودة من قبل الجزائريين والمغاربة على السواء للاخذ عنه ، وممن انتقل من المغاربة لهذا الغرض : ابو محمد عبد الله

---

(١) انظر عن الجازولي : محمد المهدي الفاسي : ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع فاس 1313م

(٢) انظر عنه ابن عسكر : الدوحة ص ٣٠-٤٠ ، وابن مريم : البستان ص ٤٥-٥٠

(٣) العياشي : رحلته ص ٣٩٦ وسعد الله : المرجع السابق ج ١ ص ٥٣٠

(٤) انظر عنه محمد الصباغ القلعي : بستان الازهار في مناقب زمزم الاخيار ومعدن الانوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار . وابن عسكر الدوحة : ص ٩١-٩٢

(٥) ابن عسكر : نفس المصدر ص ٩١

(٦) نفسه :

(٧) انظر بحث العلاقات السياسية الفصل الرابع

الخياط الذي غدا من مشايخ الصوفية في المغرب الذائع الصيت ، وكان مقره في جبل زرهون بشمال المغرب[1] .

وابو عبد الله محمد بن علي المعروف بالشطيبي ، صاحب التآليف العديدة في الفنون، والعلوم المختلفة من تفسير وكيمياء ، وتاريخ وغير ذلك . وخلافا للخياط الذي كان له اتباع كثيرون فان الشطيبي كان زاهدا في الدنيا واهلها[2] .

ـ وعبد الله بن عمر المضغري، الذي وصفه ابن عسكر بأنه " الفقيه الكبير ، العالم النحرير شيخ الاسلام[3] " ، الا انه عاد ولم يأخذ عنه لانه انكر عليه عدم المحافظة على اول الوقت في الصلاة ، وانصرف الى الاخذ عن عبد العزيز القسنطيني[4] .

اما وحدة الكتب والمواد الدراسية في البلدين، فظاهرة تلفت نظر الباحث، الذي يرجع على الخصوص الى الاجازات التي كان طلبة البلدين يحصلون عليها من مشايخهم ، والتي كان هؤلاء يذكرون فيها بعادة العلوم والفنون تلقاها طلبتهم عنهم ، والكتب التي درسوا من خلالها كل علم او فن . فمن خلال الاجازات المذكورة[5] ، نتبين ان الفقه واصول الفقه ، والحديث ، والنحو ، والبلاغة ، والعروض ، والمنطق ، والتوحيد ، والقراءات ، والضبط والحساب وغيرها كانت مواد دراسية يعكف على دراستها الطالب في المغرب ونظيره في الجزائر .

ومنها ايضا نتبين ان هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر :

ـ صحيح البخاري ، وشروح كثيرة عليه في الحديث .

ـ والرسالة لابن ابي زيد ، ومختصر خليل في الفقه .

ـ ومختصر ابن الحاجب ، وجمع الجوامع للسبكي في اصول الفقه .

ـ وعقائد السنوسي في التوحيد ، وحكم ابن عطاء الله في التصوف .

ـ والفية ابن مالك والآجرومية في النحو .

ـ وتلخيص المفتاح لمحمد القزويني، والجوهر المكنون للاخضري في البلاغة ، والخزرجية في العروض .

ـ والجمل للخونجي ، والسلم المرونق للاخضري في المنطق .

ـ والتلمسانية في الفرائض ، ورجز الخراز ، في الرسم ، والضبط لابن بري .

ـ والشاطبيتان الكبرى والصغرى في القراءات .

1) ابن عسكر : الدوحة ، ص ٦٣
2) نفسه : ص ٤١-٥١
3) نفسه ص ٦٥
4) الحسن اليوسي : ص ١٤٤
5) انظر اجازة سعيد المقري : لاحمد بن القاضي في روضة الآس لاحمد المقري ص ٢٦٦-٢٦٩ واجازة احمد العبادي لابن عسكر في الدوحة ص ٨٧-٨٨ واجازة ابي مهدي عيسى الثعالبي لابي سالم العياشي في كتاب رحلة هذا الاخير (ماء الموائد)

ـخيص ابن البناء في الحساب .. الخ

ت متداولة لدى علماء البلدين وطلبتهما ، من كتب اخرى كثيرة في العلوم المذكورة ، وفي
ـرن اخذت الدراسات فيها تنشط كالهندسة والطب ، وعلم الهيئة والفلك والحساب وغيرها .
ـد كانت الكتب والمؤلفات الجديدة التي تصل الى الجزائر من المشرق او تؤلف فيها سـ
ـائها سرعان ما تنتقل الى المغرب ، ومثل ذلك كان يحصل ايضا بالنسبة للكتـب
تؤلف في المغرب او التي يحصل عليها من المشرق او من اي جهة اخرى كبلاد السودان .
طرق انتقال الكتب من بلد الى آخر متعددة ، واحداها الانتقال مع طلبة العلم والعلماء
ـي كانوا ينتقلون من بلد الى آخر ، فمختصر خليل في الفقه الذي وصل الى الجزائر قبـل
ب ، نقله منها الى هذا الاخير عالم جزائري انتقل الى المغرب فعكف الناس على دراسته هناك
فوا على دراسته في الجزائر (١) ، وكذلك الامر بالنسبة لعقائد السنوسي التي الفها العالم
ئري محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ في التوحيد ، فقد نقلها احد الطلبة
ربة من تلمسان الى المغرب ، فأقبل الناس على حفظها وقراءتها (٢) .

ـد عرف علم التوحيد ، بعد تأليف السنوسي لعقائده الثلاث الكبرى والوسطى والصغرى توسعا
في البلدين ، لكثرة الدارسين والحافظين لها ، وتوافق الاقبال على علم التوحيد في البلدين
ـفسان التدخل المسيحي ، الاسباني والبرتغالي فيهما ، الذي كان من بين اهدافه
ـفقط ملاحقة المسلمين الى بلاد المغرب ، ولكن ايضا نشر المسيحية في شمال افريقيا .

ـد كان انتقال الكتب بين البلدين يتم ايضا بمناسبة الحج عن طريق الحجاج المغاربـة
ـن كانوا يأتون معهم بالكتب لمبادلتها ، أو يقومون بنسخ ما يجدونه من الكتب القيمة . وهـو
ـن يفعله العياشي ، فقد ذكر في رحلته ان محمداً بن ابراهيم (الجزائري) ، احد تلاميـذ
ـلانصاري اخذ منه الكراسة التي جمع فيها معاني او الشرطية ، والكراسة التي سماها تنبيـه
ـ الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية ، واعطاه مجموعا فيه عدة تآليف اغتبط بها كثيرا (٣) .

ـال العياشي نفسه يذكر انه قام بتلخيص بعض ما جاء في كتاب "محدد السنان في نحور اخـوان
ـان" لمؤلفه الجزائري عبد الكريم الفكون القسنطيني (الحفيد) حيث لم يكن لديه الوقـت
ـي لنسخه كاملا ، اذ اطلع عليه وهو في طرابلس في طريقه الى الحج ، كما اطلع على كتـب
ـف الجزائري المذكور في المدينة ذاتها ، اعاره اياها محمد بن عبد الكريم ابن المؤلـف المذكور (٤)

ـ ابن مريم : البستان (ترجمة محمد بن عمر الفتوح) ص ٢٦٤ و ص ٩٩
ـ ابن عسكر : الدوحة ص ٢٧
ـ العياشي : ماء الموائد جـ ١ ص ٤٩
ـ نفسه : ص ٣٩٠

لما كانت الكتب المتداولة بين الدارسين في الجزائر هي ذات الكتب المتداولة بين الدارسين
المغرب ، وتنتقل بين البلدين دون قيود ، وتصل الى المتعلمين فيهما بطرق عديدة ، وان
د الدراسية في البلدين ايضا واحدة ، وان كان تدريس بعضها في هذا المركز او ذات يتوقف
جود الاستاذ المختص ، مما كان يدفع الطلبة للانتقال من مركز الى آخر ، ومن بلد الى آخر
عن الاستاذ المختص في مادة معينة او اكثر ، وان طرق التدريس في البلدين كما يستخلص
من عسكر والوزان ايضا واحدة فقد نجم عن ذلك ان وجهات نظر علماء البلدين في قضايا
م الفكرية والاجتماعية والدينية وغيرها واحدة او تكاد ، ومواقفهم منها متقاربة ان لم تكن
قة .

جهات نظر علماء البلدين على سبيل المثال في قضية التبغ التي اثيرت في البلدين في
الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، لما اخذ تدخين التبغ
ي فيهما ، والاقبال على شرائه من الاوربيين بالعملة الذهبية يزداد ، متقاربة الى حد كبير
ن عبد الكريم الفكون القسنطيني (الجزائري) صاحب كتاب محدد السنان في نحور اخوان
ان ، وابي العباس احمد المقري (التلمساني) ، صاحب نفح الطيب الشهير ، وعبد الرحمن
ارتي (المغربي) ، صاحب كتاب الفوائد (؟) ، وعبد الرحمن بن محمد الفاسي ، وغيرهم
ماء البلدين قالوا بتحريمه ، والمتساهلون قليلا في شأنه الذين لم يصرحوا بتحريمه كالعياشي
نوا اباحته كما فعل الكثيرون من علماء المشرق ، وبلاد السودان امثال ابي الحسن الاجهوري
ومحمد بابا التمبكتي وغيرهما (1) .

مواقف وجهات نظر علماء البلدين او وجهات بعضهم على الاقل نلمسه في انتقادهم لكل من
البدع المتصوفة ، وادعياء التصوف المنحط الذين كثروا في الفترة موضوع الدرس كثرة كبيرة ،
اقبال الناس عليهم ، وسلامة اعتقادهم فيهم او كاد .

وضع بعض اولئك العلماء مؤلفات عديدة ما بين مطول ومختصر ، ومنظوم ومنثور ، يحذرون فيها
دع ويردون فيها على ادعياء التصوف ، ويكشفون ادعاءاتهم ، وينبهون عامة الناس وخاصتهم
نبههم الى الطريق الصحيح ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : (2)
ب " الرد على المرابط عرفه وصحبه " لمؤلفه ابي حفص عمر بن محمد الكماد القسنطيني
الجزائري (2) .

نفسه : ج 2 ص ٣٩٦-٤٠٣ ، التامغارتي : الفوائد الجمة ص ٥٣ (الترجمة الفرنسية)
محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ص
٨٧٠- ٨٧٤

الحفناوي : تعريف الخلف ج 1 ص ٧٦

- وارجوزة عبد الرحمن الاخضري (الجزائري) ،المسماة القدسية [1] ، في التصوف والتحذير من البدع ،ومنشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ،(لمؤلفه الجزائري عبد الكريم الفكون (الحفيد) القسنطيني [2] .

- والفية الامام محمد عبدالله الهبطي المسماة (الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الاسلامية .) [3] .

وقد كان الامامان احمد زروق الفاسي ،وابوعبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي ،قد سبقا هؤلاء الى نقد بدع التصوف وادعيائه في كتب قيمة كان لها تأثيرها على من تلاهما . ومن كتبهما في هذا المجال :

- " النصح الانفع والجنة ،للمعتصم من البدع بالسنة " للامام زروق [4] .

- " فتح الوهاب في رد الفكر الى الصواب" و"تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى العارفين " وكلاهما للمغيلي [5] .

اما ابوعبدالله محمد الخروبي الجزائري الذي كان على درجة عالية من العلم والتصوف ،فقد كان جريئا اكثر في انتقاداته الموجهة لادعياء الولاية والتصوف ،والعلم حيث انه كان ينتهز فرصة سفارته الى المغرب ليتصل بعلمائه ومرابطيه ،ويجري مع هؤلاء واولئك مناقشات دينية وعلمية هامة جريئة ،لم يكن يجامل فيها احدا ،وقد تقدمت الاشارة الى المناقشات التي دارت بينه وبين ابي عمر القسطلي واتباعه .

وقد كان الاحتكاك بين الجزائريين والمغاربة ،وتبادل التأثر والتأثير في المجال الاجتماعي ولا سيما في المجال الثقافي يتم في مراكز عديدة في الجزائر والمغرب . ونتساءل الآن عن اهم تلك المراكز ودور او نشاط الجزائريين والمغاربة فيها ، وابرز العلماء والطلاب الجزائريين والمغاربة في تلك المراكز .

---

(1) نفسه : ج 1 ص 63
(2) العياشي : المرجع السابق ج 2 ص 206 ،سعدالله : المرجع السابق ج 1 ص 527
(3) ابن عسكر : الدوحة ص 6 - 13 و .
(4) المنوني : المرجع السابق ص 767 - 768.
(5) ابن عسكر : الدوحة ص 81.

٢ـ مراكز التبادل الثقافي في المغرب والجزائر :

اذا تأملنا المراكز الثقافية التي كان يقصدها المغاربة في الجزائر ، والتي كان يقصدها الجزائريون في المغرب ، سواء لاخذ العلم منها او لنشره فيها ، او للغرضين معا ، او لغيرهما والتي يمكن ان نعتبرها مراكز للتبادل الثقافي بين البلدين وجدنا اهمها هي :

اولا : في المغرب

أ ـ مدينة فاس : هذه المدينة التي ما انفكت تنمو منذ ان وضع ادريس الاول حجرها الاساسي على الارجح في سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م ، حتى تفوقت على ما سواها من المدن المغربية ، وغدت بفضل جامع القرويين ، الذي اسس فيها في العقد الخامس من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وعيشته العلمية التي كانت تتألف دوما من مشاهير علماء المغرب ، والبلاد المجاورة ، مركزا ثقافيا لا ينفأ يزداد اهمية ، حتى بلغ الذروة في عهد المرينيين ، وخلفائهم الوطاسيين ، فصار مقصد العلماء وطلاب العلم من مختلف جهات المغرب ، وكذلك من الجزائر ، ولا سيما من تلمسان والغرب الجزائري عامة .

وعلى الرغم من ان فاس فقدت ابتداء من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، بعض اهميتها لصالح مدينة مراكش ، التي اتخذها السعديون عاصمة لهم ، فان فاس ظلت بفضل جامعها المذكور ، وجوامع ومدارس اخرى كثيرة (١) ، مركزا من مراكز التبادل الثقافي الرئيسية بين الجزائر والمغرب في الفترة موضوع الدرس ، ان لم يكن اهمها على الاطلاق . اذ كانت مدينة فاس ، المدينة التي قصدها علماء الجزائر وطلبتها بكثرة في هذه الفترة كما في الفترة السابقة لها ايضا ، والتي استوطنها الكثيرون منهم حتى كونوا فيها جالية جزائرية كبيرة ، كما ان فاس كانت المدينة التي توجه منها عديد من طلبة المغرب ، وعلمائه الى الجزائر ، بعضهم لاستكمال الدراسة ، وآخرون للمساهمة في نشر العلم في مراكزنا المختلفة .

اما علماء الجزائر وطلبتها الذين أموا فاس في الفترة التي تهمنا ، فمن الكثرة بحيث يطول العد بهم لو حاولنا ذكر بعض من تعرفنا بهم المصادر ، ولا سيما ان ذكرنا كل ما عرف عن كل واحد منهم ، ولذلك نكتفي بالاشارة الى بعضهم مع تعريف مختصر بهم ، ابرز على الخصوص مساهمتهم في الحياة الثقافية في فاس ، ومن خلالها في المغرب كله .

(١) حسب الوزان كان يوجد في فاس قرابة / ٧٠٠ / جامع او مسجد منها خمسون كبيرة اهمها جامع القرويين و / ١١ / معهدا او مدرسة عدا عن المدارس المخصصة للاطفال التي كان يوجد فيها قرابة / ٢٠٠ / مدرسة : انظر وصف افريقيا جـ ١ ص ١٨٣ وما يليها .

الذين اموا فاس على سبيل المثال لا الحصر : محمد بن محمد بن العباس التلمساني ، احمد
بي جمعه الوهراني ، واحمد المعروف بابن سيده ، ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بابـــن
ل ، وابنه محمد الواهل ، وسعيد المقري ، واحمد بن قاسم العقباني ، واحمد بن احمـــد
باد ي ، ويحيى بن سليمان الـــزواوي ، ، واحمد المقري " ، وكـــل هـــــــؤلاء
وا من اعيان الطلبة والعلماء الجزائريين الذين كان لهم نشاطهم في الجزائر والمغرب وقد بد
التعريف ببعضهم ، ونضيف اليهم الان :
محمدا بن مرزوق " السبط" الذي وصف بأنه كان آخر علماء تلمسان الآخذين من كل ـــن
ر نصيب ، وخصوصا علم الحديث ، كان يفسر القرآن ويقرئ الصحيحين ، رحل الى فاس في وقت
معدده المترجمون له ، ولعله بعد غزو الاسبان لوهران سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م ، وليس معروفـــا
(١)
توفي اذ كان حيا في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م .
احمد بن محمد العبادي التلمساني : كان من علماء تلمسا ن الاعلام ، رحل الى فاس في عهد
السلطان العباس احمد الوطاسي سنة ١٥٢٦-١٥٤٦م فقدمه للتدريس في جامع القرويـــــن ،
جود العلماء المغاربة فكثر الآخذون عليه من علماء المغرب وطلبتهم كما كثر المنافسون له مـــن
اء فاس ، والحاسدون له لتقدمه عليهم ، وميل ارباب الدولة اليه ، وتمتعه لديهم بجاه كبيـــر
(٢)
توفي في العقد الرابع من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي دفن في فاس .
موسى بن سعيد الحافظ الزواوي : ترجم له ابن القاضي في " الدرة " و ـه انه كـــان
تاذا مقرئا بفاس ، وذكر أن من تلاميذه ابا مهدي عيسى بن احمد الماواسي ، وانه توفي في سنـــة
(٣)
٩٢هـ/ ١٥٢٤م ، ولكنه لم يذكر متى دخل مدينة فاس .
عليا بن عيسى الراشدي التلمساني : كان من اكابر الاساتذة في فاس وعنه اخذت جماعـــة
نخبة علماء فاس والمغرب ومنهم ابو العباس احمد المنجور وغيره وكان مختصا بتدريس علـــم
قراءات والرسم والتجويد ، وتولى كرسي الشاطبية الكبرى في القراءات بمسجد الشرفاء .. ولم
(٤)
د الى موطنه ، اذ توفي في فاس سنة ٩٨٢هـ
محمدا بن عزوز الدلسي ، الفقيه الحافظ ، الامام المقرئ . رحل الى فاس في اواخر عمره وتوفي
ا ولم يذكر ابن مريم الذي ترجم له تاريخ هجرته ، ولا تاريخ وفاته فيها ، انما هو من طبقة محمد
مقرون بـــن عبة الله الذي رحل مع جماعة من فقهاء تلمسان الى فاس سنة ٩٦٨هـ وكان يدرس
(٥)
الفقه واصوله والفرائض باتقان :

ـ انظر عنه : ابن مريم / البستاني .. ص٢٥٨
ـ انظر عنه : ابن عسكر : الدوحة ص٨٨
ـ انظر عنه : احمد بن القاضي : درة ج٣ ص٢١٧
نفســـــه ج٣ ص٢٥٦
) ابن مريم / البستان ص٢٨٢-٢٨٣

٦- والى جانب من تقدم ذكرهم تجدر الاشارة الى بعض ابناء المهاجرين الى فاس الذين ولدوا ونشأوا في فاس، ولكنهم احتفظوا بنسبهم الى موطنهم الاصلي، ومن هؤلاء عبد الواحد بن احمد الونشريسي، الذي وصفه ابن عسكر بـ (الفقيه، العالم العلامة البحر الفهامة صاحب القلم الفصيح، واللسان العربي الفريد دهره واعجوبة عصره .. انتهت اليه رئاسة العلم وجمع بين الخطط الثلاث الفتيا والقضاء والتدريس.) (١)، واحمد بن محمد المرابط بن محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني، الذي وصفه الآخر بأنه كان من العلماء الاعلام، عارفا بالنحو والفقه اتم معرفة ومشاركا في غيرهما. لم يعد الى موطن ابيه اذ توفي في فاس سنة ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م (٢).

٧- محمد بن عبد الكريم الجزائري، وهو ليس من ابناء المهاجرين الى المغرب وانما من الذين هاجروا الى فاس بعيد الفترة موضوع الدرس. وقد ذكرته من بين مثقفي هذه الفترة لانه رحل بعد ان اتم دراسته في الجزائر على يد سعيد قدورة المتوفي في حدود سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م، ولا يقف دليلا على ان فاس ظلت بعد سنة ١٠٦٩-١٠٧٠هـ/١٦٥٩م تاريخ نهاية الفترة التي تهمنا، تستقطب طلبة الجزائر وعلماءها.

وقد كان محمد بن عبد الكريم فقيها، اديبا، علامة، موضع تقدير واحترام كبيرين من قبل اهل المغرب، والسلطان مولاي اسماعيل العلوي، وتوفي بفاس سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م (٣).

ويؤكد ايضا استمرار توجه علماء الجزائر وطلبتها من مختلف جهاتها الى فاس هجرة محمد بن احمد القسنطيني المعروف بابن الكماد اليها واستيطانه فيها الى ان توفي فيها سنة ١١١٦هـ/١٧٠٤م (٤).

ولعل فيمن تقدم ذكرهم ما يكفي للدلالة على ان مدينة فاس في هذه الفترة استقطبت الكثير من طلبة الجزائر وعلمائها. وفي نشاط هؤلاء في مهجرهم ما يدل على دورهم الايجابي في الحياة الثقافية في فاس، ومن خلالها في المغرب كله.

ولما كان معظم العلماء والطلبة الجزائريين الذين هاجروا الى فاس آثروا الاستقرار فيها بصفة نهائية، فان هجرتهم تلك كانت تترك فراغا كبيرا في المراكز التي هاجروا منها، مثل تلمسان التي هاجرت منها مجموعة كبيرة فضعف نشاطها الثقافي قياسا بما كان عليه في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي

١) ابن عسكر : دوحة الناشر ص٤١
٢) الصفاري : نزهة الحادي ج٢ ص٦١
٣) نفسه ج٢ ص٤٢٠-٤٢١
٤) نفسه ج٢ ص٣٤٤-٣٤٥

القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، بعد ان تلمسان قد حربت النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي الى المركز الثاني من حيث الاهمية الثقافية ، تاركة المركز الاول لمدينة الجزائر العاصمة التي قصدها العلماء من مختلف جهات البلاد الاسلامية ، بما في ذلك المغرب.

- مراكش : انتعشت مراكش بعد ان كاد يعمها الخراب في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (1) ، وازدهرت الحياة الثقافية فيها ، خصوصا في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، حيث اصبحت عاصمة للمغرب ، ونافست فاس في المركز العلمي الاول في المغرب ، وتفوقت عليها بفضل من نزح اليها من علماء فاس نفسها ، وسائر حواضر المغرب ، ومن وفد اليها من علماء البلدان المجاورة للمغرب ومن المشرق وبلاد السودان ، وتصدر للعطاء في مساجدها ومدارسها الكثيرة واهمها جامع الشرفاء والمدرسة المجاورة له (2) ، وقد بلغت مراكش اوجها في عهد السلطان المنصور السعدي ، الذي كان يقرب العلماء ويكرمهم ، ويغدق عليهم ، فاستقطب الكثير منهم ، هذا قبل ان تأخذ في التقهقر بعد وفاة السلطان المذكور ، لما عرفته من اهوال من جراء تنافس ابناء المنصور على السلطة ، وكثرة الثائرين من هؤلاء .

والمهم ان مراكش غدت خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، مركزا ثقافيا هاما قصده كثير من المثقفين الجزائريين ، اما للاخذ عن علمائها او للمساهمة في نشاط الحياة الثقافية فيها بنشر العلم ، او المناقشة والمناظرة مع اهل العلم فيها . وقد حلا المقام لبعضهم هناك فاستوطنها بصفة نهائية ، ذلك ان السلاطين السعديين لم يضنوا عليهم بالطول والوظائف العلمية والدينية الرفيعة ، ومن بين المثقفين الجزائريين الذين اموا شطر مراكش عاصمة السعديين لهذا الغرض او ذاك ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر : ذهب الى مراكش في سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م موفدا من قبل الاتراك العثمانيين الى السلطان السعدي احمد الشيخ ، بشأن اقامة السلام بين الطرفين ، وتحديد الحدود بين البلدين : الجزائر والمغرب ، الا انه انتهز الفرصة ودخل في مناقشات جريئة مع اهالي المغرب وعلمائه في فاس وفي مراكش . وفي الاخيرة

(1) انظر عن مراكش في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي الحسن الوزان المرجع السابق ج1

(2) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٩

ل في مناقشات مع كبير مرابطي مراكش ، ابي عمر المراكشي القسطلي وانكر عليه فيها
ئل كثيرة بما في ذلك حلق شعر الشارب وفي هذه السفارة ، والسفارة الثانية له الى المغرب
سنة ١٥٥٤ م اخذ عن الخروبي الكثيرون من علماء المغرب وطلبته . اذ كان
روبي يجمع بين سعة العلم والقدم الراسخ في التصوف . (١)

ـ محمدا بن هبة الله المعروف بشقرون : رحل الى فاس ، ومنها الى مراكش سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م
بالمدينتين ، وقد تقدمت الاشارة اليه ، ونضيف هنا ان فقهاء مراكش احتفلوا بقدومه (٢)
كان فقيها ، يقوم على ابن الحاجب اتم قيام ، وكان عارفا بالاصلين والبيان والمنطق ، ،
تفع الناس بعلومه الغزيرة ، وكثر الآخذون عنه من الملوك والامراء السعديين وعلية القوم في
مغرب وعلمائه لاسيما منهم الغالب بالله ، والمنصور ، وابن القاضي ، وابن عسكر ،
حمد المنجور وغيرهم ، وكانوا يحضرون الى دروسه الشائعة في الفقه والمنطق والتفسير والبلاغة
فرائض والحساب .
كان ابن هبة الله من الذين استوطنوا المغرب بصفة نهائية و في فاس ، كانت وفاته في سنة
٩٨٣هـ/ ٧٥ ١٥ - ١٥٧٦م قبل يوم واحد من دخول الاتراك العثمانيين الذين كان يكرههم
فيها مع عبد الملك . (٣)

٣ - ابا الطيب البسكري : ذهب الى مراكش في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م سفيرا موفدا من
ل الاتراك العثمانيين لتقديم التهنئة للمنصور بالانتصار في معركة وادي المخازن ، والجلوس
ى كرسي الملك . وكان ابو الطيب من علماء الجزائر البارزين آنذاك ، ووصفه القشتالي
" الشيخ العالم ، الصدر الكبير ، الخطيب الشهير " (٤) وذكر انه كان مفتي الجزائر . ولكنه
م يحدثنا عن نشاطه خارج الاطار الدبلوماسي في الميدان الثقافي ، كما حدثنا غيره عن نشاط
حمد الخروبي ، ولعل ذلك لقصر مدة اقامته في مراكش .
ـ محمدا بن رأس العين الاندلسي الاصل ، الجزائري الموطن ، رحل الى مراكش . ومدح
المنصور ، ثم عاد فيما بعد الى الجزائر ، اذ كان من بين نواب سعيد قدورة في الخطابة
ي الجزائر . قال ابن القاضي الذي ترجم له انه " جواب ، رحاله ، من اهل الجزائر ، له
مدائح في النبي (ص) وديوان شعر ومقامات وغير ذلك ... (٥)

( ) انظر عنه وعن نشاطه في مراكش ـ ابن عسكر ، دوحة الناشر ص٦٣ الافراني : النزهة ص٤٢
(٢) ابن القاضي جذوة الاقتباس ص٢٠٧
(٣) ابن القاضي درة الحجال ج٢ ص ٢١٥ ، ابن مريم / البستان ص٢٦١ ، التامنارتي الفوائد الجمة ص (٣-٣٢)
(٤) القشتالي : مناهل الصفا ص٥٠
(٥) ابن القاضي : درة الحجال ج٢ ص١٦٢ ، وانظر عنه ايضا سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ص٢٩٩

٥- محمد المقري التلمساني : الذي قصد اول مرة فاس لاخذ العلم ، ثم استقر في مراكش حيث قلده المنصور الافتاء وولاه التدريس واخذ عنه كثيرون في الفقه، منهم محمد بن عبد العزيز القشتالي . ولم يعد الى وطنه الاصلي، حيث توفي في مهجره سنة ١٠١٨هـ/١٦١٨ (١) .

٦- احمد المقري التلمساني : قصد مراكش للدراسة ، ثم استقر في فاس حيث اشتهر صيته بها وتولى فيها الفتوى والخطابة قبل ان يهاجر الى المشرق ويستقر في مصر (٢) .

٧- محمد بن محمد التواتي : رحل الى مراكش من توات ، وكان من كبار مشايخ الحديث فيها ، والآخذون عنه فيها كثيرون ، منهم احمد بن القاضي (٣) .

٨- عبد الرحمن العنابي : ورد ذكره في مناهل القشتالي على انه من كتاب المنصور السعدي ، وانه نبيل العلماء الماطين ، وانه الفقيه الأجل (٤) . ولم يذكر القشتالي شيئا عن تاريخ ميلاده ، او مكان ولادته ، ولا تاريخ هجرته الى مراكش ، ويبدو انه من الذين انشأوا على اديم المغرب ، اذ كان والده محمد العنابي (٥) ، او جده على الارجح نزيل درعة ، بجنوب المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / ومطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

ومهما يكن من امره فاحتفاظه بنسبه الى عنابة يدل على انه من ذوي الاصول الجزائرية . وما اكثر امثاله في مختلف المدن المغربية .

ويتضح من التراجم التي تقدمت، ان المثقفين الجزائريين قد كان لهم دور ايجابي في مراكش حيث ساهموا مساهمة فعالة في تنشيط الحياة الثقافية فيها .

وعلى الرغم من العدد الكبير من المثقفين الجزائريين الذين رحلوا الى مراكش ، فان المدينة الاخيرة تاتي في المرتبة الثانية كمركز للمبادلات الثقافية بين الجزائر والمغرب ، ذلك ان عدد المثقفين الجزائريين الذين قصدوا ورحلوا الى فاس ، ولا سيما من استوطنها منهم اكبر كما يتبين للباحث في كتب تراجم العصر موضوع البحث .

اما مركز المبادلات الثقافية الثالث في المغرب فيبدو انه سجلماسة ولكن ليس دون منافسة من تارودانت ، وتلمسان عليها :

---

١) المقري : روضة الآس ص ٢٠٧
٢) المحبي : خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٢ والحفناوي تعريف الخلف ج ١ ص ٥٤-٥٥
٣) عباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٤ ص ١٩٨
٤) لقشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٦ وانظر الافراني : النزهة ص ١٢١
٥) انظر ما سيأتي ص .

- سجلماسة :

اشتهرت سجلماسة على الخصوص بأنها مركز تجاري هام في جنوب المغرب، ومحطة رئيسية بين شمال المغرب وبلاد السودان . على ان سجلماسة يمكن ان ينظر اليها على انها مركز ثقافي ايضا ، بفضل الزوايا العديدة التي كانت تقوم بنشر التعليم في مقاطعتها ، ومقاطعة درعة المجاورة لها ، والتي كان يؤمها الطلبة من مختلف الجهات المجاورة ، ولم يقم احد باحصائها كما فعل المختار السوسي بالنسبة للسوس . ومن اهم هذه الزوايا :

- زاوية تامجروت : التي استمرت نشطة طوال عهد السعديين ، وممن تخرج من علماء المغرب في هذه الزاوية او درس فيها نذكر : (1)

- محمدا بن علي الدرعي وولديه محمدا وعليا :

وقد كان الاول من العلماء العاملين ، كما يصفه ابن عسكر ، وهو من تلاميذ عبد العزيز القسنطيني الآتي ذكره ، وكانت له مع استاذه مراسلات مفيدة في التصوف . اما ولده محمد الذي ذهب في سفارة الى القسطنطينية سنة ٩٨٠ هـ موفدا من قبل السلطان عبد الله الغالب بالله ، فقد كان فقيها كبيرا ايضا لأن والده علي الشهير بالتمجروتي الذي اوفده السلطان احمد المنصور سفيرا منه الى القسطنطينية سنة ٧٩٧ هـ وهو صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية ، كان فقيها اديبا ووصفه المترجمون له ، كالافراني في صفوة من انتشر ، بالشيخ العلامة ، توفي سنة ١٠٠٣ هـ .

- وزاوية مطغرة : التي كان صاحبها عبد الله بن عمر فقيها كبيرا وعالما جليلا ، اخذ عن احمد الونشريسي وعبد العزيز القسنطيني وغيرهما من اكابر علماء القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وكانت له مع استاذه الاخير مراسلات وصفها ابن عسكر بأنها عجيبة . (2) ومن تلاميذه السلطانان محمد الشيخ ، واحمد الاعرج توفي سنة ٩٦٢ هـ . وتخرج من الزاوية ذاتها ابنـاه محمد ، وعبد الرحمن ، وكانا من الآخذين من العلم بطرف واسع ، بل ان ابن عسكر وصف الاخير منهما وكان التقى معه في فاس بالشيخ الفقيه الحافظ النقادة والعلامة .. توفي سنة ٩٧٠ هـ وتوفي اخوه في نفس العقد الثامن .

ومن علماء سجلماسة ودرعة البارزين ايضا في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .. علي بن عبد العزيز السجلماسي ، الفقيه الاستاذ في القراءات توفي ؟ ومحمد بن مهدي الدرعي الذي درس على محمد بن علي الدرعي المتقدم ذكره صاحب زاوية تامجروت تصدر ابن مهدي

---

1) انظر عن محمد الدرعي وولده محمد : ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٦٩ - ٧٠ ، ٨٣ وانظر عن ولده عليا : الافراني : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر ص ١٠٦

2) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦

دريس فأفاد الكثيرين بعلمه . (١)
اما في النصف الاول من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى فبرز في تافيلالت
سجلماسة) الشريف عبد الله بن طاهر ، وعنه اخذ محمد بن سعيد المريغتي (٢)
ونذكر ايضا من علماء سجلماسة ونواحيها في الفترة المذكورة علي بن عبد الواحد السجلماسي ،
ذى انتقل في العقد الخامس من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى الى
جزائر وتصدر للتدريس والافادة فيها . (٣)
ابن ابي محلي : الذى كان فقيها صرفا ، ثم تحول الى طريق التصوف ، ثم السياسة ، وهو
ذى ثار على زيدان وازعجه من مراكش . ومن تلاميذه نذكر سعيدا قدورة الذى اصبح من اشهر (٤)
علماء الجزائر .
ومن العلماء ذوى الاصل السجلماسي نذكر ايضا ابا الحسن السجلماسي عالم
لمغرب ، وامام نحاته في عصره ، واجمع اهل المغرب على تمكنه في العلوم العربية . وهو
نشر العلوم العربية بفاس ، وعلمها لطلبته . وكثر الآخذون عنه في المغرب ، ومن اشهر تلاميذه
محمد بن ابي بكر الدلائي ، والشيخ عبد القادر بن علي الفاسي . توفي بفاس سنة ١٠٣٥ (٥) هـ
ومن علماء درعه الشهيرين نذكر : محمدا بن ناصر الدرعي ، النحوى ، اللغوى ، الناظم
مجدد الطريقة الشاذلية ، المتوفى سنة ١٠٨٥ هـ / ١٦٦٦ م (٦)
وقد كان الجزائريون تجارا ومثقفين ، يقصدون سجلماسة واعمالها ، كل لتحقيق وطره . وبذلك يمكن
اعتبارها مركزا ليس فقط للمبادلات التجارية ، ولكن للمبادلات الثقافية ايضا .
ومن المثقفين الجزائريين الذين قصدوا سجلماسة واعمالها في الفترة التي تهمنا نذكر :
١ - محمدا بن احمد التلمساني المعروف بابن الوقاد الذى ذهب الى سجلماسة قاضيا وخطيبا
معينا من قبل السلطان السعدى (عبد الله بن محمد الشيخ) ، ولا ندرى كم مكث في سجلماسة
قبل ان ينتقل منها الى مكناسة وفاس ، ويستقر نهائيا في تارودانت . (٧)
٢ - سعيدا قدورة : ذهب الى سجلماسة ضمن وفد تلمسان وبني راشد ، لتقديم التهاني لابن
ابي محلي الذى نجح في اسقاط سجلماسة من حكم السلطان زيدان السعدى سنة ١٠١٩ هـ /
١٦١٠ م . وقد كان ابن ابي محلي كما ذكرنا استاذا لسعيد قدورة . ولا يعرف كم مكث هذا
الاخير في سجلماسة ، او ما هو نشاطه الثقافي . (٨) الا انه لا يستبعد ان يكون سعيد قدورة قد اجرى
اتصالات مع الفئة المثقفة هناك . وان تكون هذه الاتصالات هي التي شجعت فيما بعد احد
علماء سجلماسة البارزين ، وهو علي بن عبد الواحد السجلماسي الانصارى على الهجرة الى الجزائر
والاستقرار فيها بصفة نهائية . (٩)

---

١) نفسه ص ٧
٢) انظر عن المريغتي : محمد القادري : نشر المثاني ج 1 ص 228 حتى ، المرجع السابق ص 96
٣) الحفناوى : تعريف الخلف ج ١ ص ٦٩
٤) الافراني : النزهة ص ٢٠٣
٥) المحبي : المرجع السابق ج ١ ص ١١٦ - ١١٧
٦) نفسه ج ٤ ص ٢٢٨
٧) الحفناوى : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥٠ - ٣٥١
٨) نفسه ج (ص ٦ والافراني النزهة ص ٢٠٧
٩) الحفناوى : المرجع السابق ج ١ ص ٦٩

... محمدا المنداسي التلمساني : كان اديبا شاعرا،انتقل الى محمد بن الشريف العلوي،
في قاعدته سجلماسة،ومدحه بأشعاره ، وكافأه عليها باعطائه نحو ٢٥ رطلا من خالص الذهب (١)،
يدل على سخائه وكرمه للادباء . وعلى ان الذهب استمر في الوصول الى سجلماسة من
بلاد السودان .

... محمدا بن علي الحضرمي المزغناني (الجزائري) وعبد الله البنفيزي : لا نعرف عنهما سوى
انهما من فقهاء الجزائر ، وان وفادتهما الى سجلماسة كانت ضمن السفارة التي وجهها حكام
الجزائر الى محمد بن الشريف العلوي للتفاوض معه في اقامة السلام بين الطرفين في
صيف ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م ، وانهما ربما في سفارة ثانية لاستكمال المهمة السابقة (٢) ونجهل ما اذا
كان لهما نشاط ثقافي في سجلماسة بهاتين المناسبتين على غرار نشاط محمد الخروبي في
فاس ومراكش ، ونشاط التمبروتي في الجزائر وغيرهم من السفراء المثقفين ، ولذلك لا نملك الا
ان نتوقع ان يكونا قد اجريا اتصالات مع الفئة المثقفة في البلدة ، واحتكا بها ، وتبادلا
الاراء في المسائل الفقهية تمشيا مع صفتهم كفقهين .

٥- عبد العزيز القسنطيني : وصفه ابن عسكر بانه " من اكابر الاولياء واعلام الصوفية ، ويقال
انه بلغ مقام الافراد، فنازل الاقطاب، " الا انه لم يذكر متى هاجر الى المغرب ، ولم يحدد ابن (٣)
نزل فيه ، ويفهم من سياق تراجمه لاهل الجنوب المغربي انه نزل سجلماسة واعمالها . وكانت له
مراسلاته الشهيرة مع اشهر تلاميذه الشيخين عبد الله بن عمر المظفري (٤) ، ومحمد بن علي الدرعي
التمبروتي (٥).
وكانت وفاة عبد العزيز القسنطيني في العقد الرابع من القرن العاشر الهجري / السادس عشر
الميلادي (٦).

٦- محمدا بن الحنابي : لا نعرف بالضبط متى هاجر الى المغرب واستقر في جنوبه . ومن
ترجمة ابن عسكر له (٧) ، نعلم انه نزيل وادي درعة احد ما يلي اعمال سجلماسة حسب بعض
التقسيمات الادارية ومن اعمالها حسب اخرى ، وانه من اهل القرن التاسع الهجري / الخامس
عشر الميلادي وواكب بداية الدولة السعدية في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري /
السادس عشر الميلادي ، حيث كان على صلة بمؤسسها ابي عبد الله محمد الملقب بالقائم
بأمر الله ، في حين كان يتمتع بوجاهة كبيرة ايضا لدى الوطاسيين الذين كانوا يدخلونه الى

---

١) الافراني : النزهة ص ٣٠٢ و السلاوي الاستقصاء جـ ٧ ص ٣١
٢) السلاوي : المرجع السابق ص ٢٥-٢٦
٣) ابن عسكر : الدوحة ص ٩٧
٤) نفسه : ص ٦٥
٥) نفسه : ص ٦٦
٦) نفسه : ص ٩٧
٧) نفسه : ص ٦٠-٦٩

ر ارتدم حيث نساؤهم وجواريهم . ويندبونه لافتداء الاسرى المسلمين ،وقد مات غريقا وهو
طريقه الى جزيرة الاندلس لافتداء الاسرى المسلمين .
وصفه ابن عسكر بأنه «كان سيدا فاضلا عالما بغرائب العلوم عثر على الحكمة ظاهرا وباطنا ،
رفا حتى بعلم الزبر والكيمياء» ولكنه لم يذكر احدا من تلاميذه . ولعل عبد الرحمن
مناجي كاتب المنصور المتقدم ذكره، ابنه او حفيده ، اذ ذكر انه من نجب العلماء العاملين
سلالة الصالحين .(1)

ومما تقدم يتبين ان سجلماسة استقطبت هي الاخرى مثقفين جزائريين من مختلف جهات ومقاطعتها
الجزائر من قسنطينة ،وعنابة والجزائر وتلمسان وغيرها . وكما كان للمثقفين الجزائريين
ي فاس ومراكش دورهم الايجابي ، ومساهمتهم في تنشيط الحياة الثقافية في المركز الثقافي
الذي توجهوا اليه ابتداء وعطاء ،كذلك كان حال غالبية من توجه الى سجلماسة واعمالها .

ــ تطوان : لم تبرز تطوان مركزا ثقافيا في شمال المغرب ومركزا للمبادلات الثقافية
بين المغرب والجزائر الا في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، بعد ان اعاد
الاندلسيون بناء المدينة في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ،(2) وبعد
ان اصبحت المراكز الثقافية التي كانت نشيطة في الماضي كسبتة وطنجة تحت الاحتلال البرتغالي
والاسباني .

الا ان تطوان لم تبلغ ما بلغته سبتة وطنجة في سالف عهودهما ،ولا ما بلغته فاس او مراكش ،
اذ كان اهتمام اهلها واكثرهم من الاندلسيين موجها لمقارعة الغزو البرتغالي والاسباني ،
والمجاهدة ضد الاسبان والبرتغاليين. ولذلك فان الجزائريين الذين قصدوا تطوان واستوطنوها ،
كانوا على الخصوص من المثقفين الذين اتموا دراستهم في الجزائر او في فاس بالمغرب ، او في
المشرق ، وجاؤوا اليها للمساهمة في نشر العلم بها ، ومن هؤلاء :
1 ــ ابو القاسم بن سلطان القسنطيني ، الذي استقر في تطوان بعد ان تخرج في فاس على يد
احمد المنجور ، واخذ عن علماء كثيرين في المشرق ، كالتاجوري وابي الحسن البكري الصديقي .
وكان فيها خطيبا ومدرسا للفقه والمعقولات . وصفه معاصره ابن القاضي بأنه الفقيه المشاور ،
وبأنه الرجل الزاهد ، الورع المحافظ على دينه ، واثنى عليه وعلى مؤلفه ، الذي رد فيه على
الطائفة الاندلسية التي نحت نحو المذهب الظاهري واطلعه عليه سنة 995هـ/1587م ، (3)
2 ــ احمد بن يوسف الزياني : تصدر هو الآخر لنشر العلم في تطوان سنين طويلة . بعد

(1) الفشتالي : المناهل ص 216
(2) ضرب الاسبان تطوان سنة 1400 م واعاد المهاجرون الاندلسيون بناءها قبيل سقوط غرناطة
سنة 1492 م - انظر محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول .
(3) ابن القاضي درة الحجال ج 3 ص 288

ن نهل من معاصريه فاس . وكما تدل نسبته فهو سليل بني زيان سلاطين تلمسان ، استوطنت
سرته شمال المغرب على الارجح بعد القضاء على الدولة الزيانية في تلمسان سنة ١٥٥١م

٣- ابو علي الحاج منصور البجائي : لم ينزل في تطوان، وانما في المنطقة المجاورة لهـــا ،
المسماة تازغدره من احواز ورغه . ذكره ابن عسكر على انه التلميذ الكبير للشيخ ابن عبد اللــه
محمد المعروف بالحاج الشطيبي الاندلسي الاصل ، ولم يذكر تاريخ وفاته على شمال المغرب ،
واستقراره به ، ولعل ذلك بعد احتلال الاسبان لبجاية سنة ١٥١٠ .
وكان الحاج منصور صاحبا لرجال التصوف في شمال المغرب امثال يوسف التليدي ، واستاذه
الشطيبي وغيره ، وممن اخذ عنه ابن عسكر صاحب الدوحة ، ولم يذكر له غيره من التلاميـــذ (1) .
ويبدو انه لم يعد الى بجاية بعد تحريرها سنة ٩٦٣هـ/١٥٧٥م .
ولا شك ان تطوان كانت مركزا احتكاك ، والتقاء بين عدد آخر كبير من الجزائريين، والمغاربـــة ،
والاندلسيين، تجارا كانوا ام مثقفين ام غزاة، و بؤرة مشعة لتبادل الافكار والتأثيرات المختلفـــة ،
الفكرية والحضارية والاقتصادية والسياسية . اذ كانت السفن الجزائرية الناقلة للمسافريـــن
المغاربة والجزائريين من تجار ، وعلماء ، وسفراء وحجاج، لا تنفك عن الغدو والرواح اليها .

هـ- تارودانت : برزت تارودانت كمركز ثقافي له اهميته في جنوب المغرب في عهـــد
السعديين، الذين اتخذوها قاعدة لهم قبل مراكش ، ورغم بعد تارودانت عاصمة بلاد السـوس
عن الجزائر، ووجود مراكز ثقافية كثيرة في المغرب تحول دون تفكير الجزائريين في الهجـرة
اليها كفاس ومراكش وسجلماسة وغيرها، لانها اهم منها ، فان بعض المثقفين الجزائريين هاجــروا
اليها وآثروها عن غيرها كمستقر دائم لهم في مهجرهم، وفي مقدمة هؤلاء يتبادر الى الذهن .
١- الشيخ العلامة الامام ابو عبد الله محمد بن احمد التلمساني المعروف بابن الوقاد المتقدم ذكره ،
فقد قصد تارودانت بعد هجرته من تلمسان سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٦١م، واستقر فيها بصفة نهائيـــة
بعد ان تردد في اول الامر حيث غادرها الى سجلماسة بعد ستة اشهر فقط من الاقامـــة
فيها اول مرة ، ولما عاد اليها للمرة الثانية بعد الطواف على سجلماسة ومكناسة وفاس، طـاب
له المقام، وعلا له القرار فيها ما سرته . وفيها جمع بين الفتوى والخطابة والامامة والتدريـــس
في جامعها الكبير .
وكان فضله كبيرا في تحبيب اهلها البربر بالعربية او نشر العلوم الدينية واللغوية المختلفـــة
فيها، من حديث وتفسير، وفقه وقواعد اللغة ، وغير ذلك ، فتخرج على يده خلق كثير .

(1) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ١٥-١٦

وكانت له وجاهة وشهرة عند الملوك السعديين ، فكان المنصور يتاحفه ويؤثره بالمواكلة معه ويزوره الى بيته ويقول : ليس عندنا اخطب من الوقاد الا ان الله اختاره لتارودانت وان لم يكن كرسي الخلافة . (١)

ولما توفي ابن الوقاد سنة (١٠٠١هـ/١٥٩٢-١٥٩٣م) خلفه ابنه ابو زيد عبد الرحمن في كثير من الخطط التي كان يتولاها كالخطابة والامامة والتدريس ، ولم يكن ذلك دون بعض المنافسة بينه وبين القاضي السكتاني ، وعبد الرحمن التامنارتي صاحب الفوائد الجمة . (٢) وقد حظيت تارودانت قبل ان يستقر فيها ابن الوقاد واسرته بزيارة عالم جزائري جليل من تلمسان ، صحبه السلطان السعدي ابي عبد الله محمد الشيخ ، مكث فيها نحو سنة يحاضر بجامعها الكبير في العلوم الدينية واللغوية والادبية ، من فقه وحديث وتفسير وعقائد ، وبيان ، وغيرها ، الا وهو محمد بن عبد الرحمن بن جلال الومزاني التلمساني ، الفقيه ، العارف بالمنطق والعقائد والبيان وغير ذلك ، الذي تقلد الفتوى والخطابة والامامة والتدريس في القرويين ، بعد ان هاجر اليها من تلمسان ، كما تقدم في صدر ايام السلطان محمد الشيخ . (٣)

* * *

وهكذا تعددت المراكز الثقافية التي كان يقصدها المثقفون الجزائريون ، الطلبة منهم للاخذ واستكمال دراستهم ، والعلماء منهم لنشر علومهم فيها ، والسفراء والزوار منهم للمناقشة والتعارف والمناظرة . فمنها ما هو في الشمال كتطاوان وفاس ، ومنها ما هو في الجنوب كمراكش وفاس الجنوب المغربي ، كتارودانت وسجلماسة واعمالها . ولو حاولنا تتبع كل المراكز التي كانوا يترددون عليها ، لأضفنا الى ما ذكرنا زوايا كثيرة وفي طليعتها الزاوية الدلائية التي كان موقعها في اقليم تادلا بوسط المغرب ، والتي قصدها احمد المقري التلمساني للدراسة فيها عن الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي . فهذه الزاوية ازدهرت كثيرا في العقود الثمانية الاولى من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، قبل ان يخربها السلطان الرشيد العلوي في سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م ، اذ استفادت من اضطراب الاوضاع في فاس وهجرة الكثير من الطلبة والعلماء اليها وقد تخرج منها كثير من مشاهير علماء المغرب . (٤)

ومن يتأمل موطن الجزائريين الذين ترددوا على المغرب واستقروا فيه يجد ان المغرب استقبل مثقفين جزائريين من مختلف جهات الجزائر ، فهناك من جاء من عنابة وقسنطينة وبجاية في

---

١) التامنارتي الفوائد الجمة ص١٣ و الحفناوي تعريف الخلف ج٢ ص ٣٥٠-٣٥١

٢) التامنارتي : المصدر السابق ص٤٥ (الترجمة الفرنسية) والحفناوي تعريف الخلف ج٢ ص٤١٦

٣) ابن مريم : البستان ص٢٦٠-٢٦١ ، التامنارتي : المصدر السابق ص١٣ ابن القاضي : الجذوة ص٢٠٦ و ابن عسكر : الدوحة ص١٠-١١

٤) انظر عن الزاوية الدلائية وعلاقة المقرى بشيخها محمد حجي : الزاوية الدلائية ص١٠٨ وغيرها

الجزائر ،ومن جاءه من زواوه ومدينة الجزائر في وسطها ،ومن جاءه من مغراوة والونشريس
ان وتلمسان ومظفره في الغرب الجزائري . ومن جاءه من بسكره وتوات بالجنوب الجزائري .
وكثيرون منهم كما تبين-هم الذين آثروا البقاء في المغرب لما لقوه لدى اخوانهم المغاربة
معظيم وتقدير لدى الحكام المغاربة من حظوه وترحيب .

واذا كانت تلك هي اهم مراكزالتبادل الثقافي التي كان يقصدها الجزائريون في المغرب
في ياترى اهم مراكز التبادل الثقافي التي كان يقصدها المثقفون المغاربة في الجزائر وما دورهم
؟ وهل وجدوا لدى اخوانهم الجزائريين وحكام الجزائر من التقدير والحظوه ،ما وجده
فقون الجزائريون في المغرب ؟

: مراكز التبادل الثقافي في الجزائر :

كما هو الحال في المغرب فان في الجزائر مراكز عديدة للتبادل الثقافي ،كان المثقفون
مغاربة يقصدونها اما لاخذ العلم منها ،او نشره فيها ،او لمجرد الزيارة بمناسبة الحج
سفارة للتعرف بعلمائها ،وتبادل الآراء والافكار والكتب معهم ،او الوقوف على معالمها
رة اوليائها او مدافنها ،او لغير ذلك من الاغراض ،ومن اهم مراكز التبادل الثقافي في
جزائر نذكر :

آ - مدينة تلمسان : التي كانت من اهم المراكز العلمية في الجزائر ،ان لم تكن اهمها على
طلاق خلال عدة قرون ،قبل ان تضطرب الاوضاع السياسية فيها ،اضطرابا شديدا طوال النصف
ول من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي وينتهي الامر في منتصفه بسقوط الاسرة
يانية من الحكم ،ويفقدان تلمسان لمركزها كعاصمة لصالح مدينة الجزائر لكثير من اهميتها
ذلك في جميع المجالات ،بما في ذلك المجال الثقافي ،حيث هجرها الكثير من علمائها
المغرب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

كانت تلمسان ،ولا سيما قبل ان يؤول امرها الى ما ذكرنا ،مقصد الكثيرين من المثقفين
مغاربة ،الطلبة منهم ،وحتى العلماء ،يأتون اليها للاخذ عن علمائها الذين طبقت شهرة بعضهم
فاق ، ومن ابرز المثقفين المغاربة الذين قصدوا تلمسان لغرض من الاغراض :
ابو عبدالله محمد بن احمد اليسيتني : المتوفى سنة ٩٥٦هـ ،جاء الى تلمسان للاخذ
علمائها ،ومنهم ابو عبدالله محمد بن موسى الوجديجي ،مفتي تلمسان واحد كبار علمائها ،
ي عثمان سعيد المنوفي ،وغيرهما ،ثم انتقل للاخذ عن آخرين في المراكز الثقافية الاخرى في
جزائر ،والمشرق . ليعود الى بلده فقيها ،علامه ،في كثير من العلوم والفنون ،تولى الافتاء
خطابة والتدريس في فاس(1) .

- الحسن الوزان : اما الحسن بن محمد الزياتي المسمى عند الغربيين بـ (ليون الافريقي ،
يوحنا الاسد) ،فقد جاء تلمسان مرارا ،موفدا فيما يبدو من قبل السلطان الوطاسي محمد
برتغالي ،للتشاور معه . وكان قد اوفده قبل ذلك لنفس الغرض الى ملوك بلاد السودان .
كث الوزان في تلمسان في كنف السلطان الزياني فترة سمحت له بمعرفة الاوضاع التي كانت عليها
مسان ومملكتها ،السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما يتجلى ذلك من خلال كتابه
شمين المسمى " وصف افريقيا " . وفيه ذكر فيما يتعلق بالناحية الثقافية ان في تلمسان بضعة
وامع جميلة ،تتمتع بعناية كبيرة ،وفيها أئمة وخطباء ،وخمس مدارس جيدة البناء ،مزخرفة ،وان فئة
متعلمين (الطلبة) تشكل احدى الفئات الاجتماعية الاربع وهي : الصناع ،والتجار ،والطلبة
الجنود . وقد لاحظ الوزان ان حياة الطلاب في مدارسهم تلك

---

(1) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٩-١٠ (٥٤) ،وابن القاضي جذوة الاقتباس ص١٥٢ .
درة الحجال لنفس المؤلف جـ ٢ ص (٢٠١ - ٢٠٢

كانت حياة بائسة ولكن وضعهم كان يتحسن بعد التخرج والحصول على وظيفة من الوظائف الدينية او التعليمية او الادارية كأستاذ او امام او كاتب (1).

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي لم تعد تلمسان مركزا ثقافيا جذابا للطلبة المغاربة، اذ لم يكن فيه من العلماء البارزين غير سعيد المقري، في حين كانت المراكز الثقافية المغربية تعج بأمثاله، من علماء المغرب، والعلماء الوافدين عليه من تلمسان وتونس وغيرهما.

اما العلماء المغاربة فأخذوا يتوجهون الى العاصمة الجديدة للجزائر والى عاصمة بايلك الشرق " قسنطينة ".

ولكن النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي الذي شهد اضطراب المغرب بعد موت المنصور سنة ١٦٠٣ م / ١٠١٢ هـ. جعل كثيرا من مثقفي المغرب طلبة وعلماء يغادرونه بحثا عن الهدوء، والعمل، او الدراسة في الجزائر، فقصد تلمسان الشيخ عيسى البوسعيدي قادما اليها من فاس، واستقر بها، وتصدى للتدريس فيها، فأفاد خلقا كثيرا (2).

وجاء تلمسان ولكن بعيد نهاية الفترة موضوع الدراسة مجموعة من الدلائيين يتقدمهم محمد الحاج، السلطان الدلائي بعد ان خرب السلطان الرشيد العلوي زاويتهم، وقوض ملكهم في سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م، ونزلوا بحرم العباد، حيث ضريح الشيخ ابي مدين شعيب، ومكثوا فيها بضع سنوات مات خلالها محمد الحاج، ودفن بالعباد (3).

وخلاصة القول فان تلمسان في الفترة التي تهمنا قد فقدت الكثير من حيويتها، ونشاطها كمركز للمبادلات الثقافية، حيث قل الوافدون اليها من طلبة المغرب وعلمائه، وكثر المهاجرون منها من الطلبة والعلماء الى مختلف المراكز الثقافية في المغرب.

ب - مدينة الجزائر: غدت مركزا ثقافيا مقصودا من قبل علماء المغرب والمشرق بشكل ملموس في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، بعد ان استقر امرها للاتراك وغدت عاصمة للبلاد الجزائرية كلها، ومركز نشاط اقتصادي كبير. ومن مثقفي المغرب الذين قصدوها في الفترة التي تهمنا:

---

1) انظر الوزان: وصف افريقيا ج 2 (تلمسان)
2) سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص 297 هامش 165
3) محمد حجي: الزاوية الدلائية ص 225

المثماني بقليل ... دخلها قبل ان تصبح تحت الحكم التركي العثماني بقليل

... الحسن الوزان ، والمتقدم ذكره ، ونزل ضيفا على بعض اهل المدينة

... فيها فترة قصيرة ، اتصل خلالها بعلية القوم فيها ، ونزل ضيفا على بعوث اهل المدينة من ... ذكره ان هذا السفير عاد من

... اسبانيا بشأن ابرام السلام مع الاسبان وذكر في كتابه المتقدم ذكره ان هذا السفير عاد من

... يانيا بحوالي ٣٠٠٠ مخطوط اشتراها من شاطبة (١).

... ذكر معلومات مهمة عن اوضاع مدينة الجزائر في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري /

... سادس عشر الميلادي .

... عبد الواحد بن محمد اللملي الميموني المكناسي : هاجر الى الجزائر واستقر بها

... ان مات في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م . كان فقيها . قال ابن القاضي عنه : كان يستظهر ابن

... حاجب الفرعي ، وله معرفة بالنحو والفرائض (٢) وسكت عن ذكر دواعي هجرته الى الجزائر ونشاطه

... لثقافي فيها وتاريخ هجرته اليها .

٣- محمد السوسي الناسي : هاجر الى الجزائر من فاس ايضا ، ونزل اول الامر في قسنطينة

... على الارجح في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، ثم انتقل الى مدينة

الجزائر ، واستوطن بها الى ان توفي في سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م (٣)

كان الداعي لهجرته في اول الامر الرغبة في الاخذ عن العلماء في الجزائر ثم طمع الى احتلال

المناصب العلمية السامية ومدح باشا الجزائر ومن دونه ، ولكنه لم يحصل الا على خطة التدريس (٤)

٤- علي بن عبد الواحد السجلماسي : هاجر الى الجزائر ، وهو كامل العدة وجاهز للعطاء .

بعد ان نهل العلم من معاهد المغرب واخذ عن كثير من مشايخ مصر كالاجهوري الذي اجازه

وغيره . وتصدر للتدريس فيها ونشر العلم فأقبل الناس للاخذ عنه ، وتخرج على يده الكثيرون

منهم ابو مهدي عيسى الثعالبي ، ويحي الشاوي وغيرهما ، وساهم مساهمة ايجابية في تنشيط

الحياة الثقافية في الجزائر ، ورفع مستوى التعليم فيها ، بحسن دروسه وتآليفه المتعددة في المواد الدراسية

التي كان يدرسها وحتى في غيرها . في التفسير والفقه والنحو والحديث والبيان

والمنطق والفرائض والطب . فاستحق تقدير الحكام والاهالي على السواء . واذا كان لا يعرف

بالضبط تاريخ هجرته الى الجزائر واستقراره فيها بصفة نهائية ، فان وفاته كانت في سنة ١٠٥٧هـ /

١٦٤٧م بالوباء الذي كان سائدا في مدينة الجزائر في تلك السنة فترك فراغا كبيرا في المدينة (٥)

---

١) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ١

٢) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ١٤٠

٣) المنوني : ملامح .. في المرجع السابق

٤) سعد الله : المرجع السابق ج ١ ص ٤٤٩-٤٥٠

٥) العياشي : الرحلة ج ٢ ص ١٢٧ ، الحفناوي في تعريف الخلف ج ١ ص ٦٦
وسعد الله في المرجع السابق ص ٣٧٧-٣٨٣ ، والمحبي : خلاصة الاثر ج ٣ ص ٢٤٠

- Joachim de Gonzalez: Essaie chronologique sur les musulmans célebres de la ville d'Alger. ALGER 1886, P.9.

ل ١ ـ محمد بن سليمان الروداني :
قصد الو الجزائر للاخذ عن عالمها الشهير سعيد بن ابراهيم قدورة وغيره
بعد ان اخذ على كبار العلماء في المغرب امثال السكتاني ومحمد بن ابي بكر الدلائي وغيرهما .
ومكث فيها فترة تلقن خلالها الذكر ولبس الخرقة من اجل مشايخه سعيد قدوره المذكور . ثم
قصد المشرق واخذ ايضا على مشايخه بمصر وجاور ، وبلغ درجة عالية من العلم والمعرفة وفي علوم
وفنون كثيرة والف في بعضها . وكانت وفاته في الشام سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م(١) .

٦ـ التمجروتي : وقد توجه في الفترة التي تمنينا عدد غير قليل من علماء المغرب وادبائه
الى الجزائر موفدين من قبل السلاطين السعديين الى حكامها ، وتوقف آخرون فيها ، وهم في
طريقهم الى اسطانبول موفدين الى السلاطين العثمانيين ، ولكننا سنقتصر على ذكر واحد منهم
فقط على سبيل المثال وهو التمجروتي الذي توقف في الجزائر في طريقه الى اسطانبول سنة
١٥٨٩/٩٩٨م ، وانتهز الفرصة ، فقابل بعض علمائها ، وزار معالمها وكتب في رحلته المسماة
بالنفحة المسكية(١) في السفارة التركية يقول : ((وطلبة العلم بها <اى بالجزائر> ولا بأس بهم ،
الا ان حب الدنيا وايثار العاجلة والافتتان بها غلبهم كثيرا ، والكتب فيها أوجد من غيرها من
بلاد افريقيا وتوجد فيها كتب الاندلس كثيرا(٢))) .

وقد كان يرافق التمجروتي في سفارته الاديب الشاعر المفقه محمد بن علي الفشتالي .

وخلاصة القول ان مدينة الجزائر قد برزت في هذه الفترة موضوع الدرس مركزا نشيطا للمبادلات
الثقافية بين الجزائر والمغرب وبصفة خاصة في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري /
القرن السابع عشر الميلادي بفضل مساهمة المغاربة كعلي الانصاري ومحمد السوسي الفاسي
الوافدين اليه .

جـ ـ قسنطينة : على الرغم من كل الظروف السياسية التي عرفتها قسنطينة في الفترة موضوع
الدرس من فتن واضطرابات ظلت مركزا مقصودا من قبل المثقفين المغاربة وربما اكثر من المراكز الاخرى

---

١) المحبي : خلاصة الاثر جـ ٤ ص ٢٠٤ . العياشي (رحلته) جـ ٢ ص ٣٠ الحفناوي
التعريف جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٥ ٢
٢) التمجروتي / النفحة المسكية . . ص ١٣٩

ذلك ان الهيئة العلمية التي كانت تتألف من عمر الوزان ومحمد العطار، وعبد اللطيف المسبح، واحمد المسبح، وابو محمد بركات، وعبد الكريم الفكون كانت هيئة علمية قوية جذابة[1]، اذ كان كل واحد من افرادها باعه في علوم كثيرة وشهرته الواسعة. فشهرة عمر الوزان على سبيل المثال كانت تتجاوز حدود الجزائر الغربية والشرقية، حيث كانت تأتيه الاسئلة والمسائل من فاس وغيرها، وتحمل ذلك ما جعل عددا غير قليل من المغاربة يقصدون قسنطينة للاخذ عن علمائها امثال:

1 - محمد بن احمد اليسيتني المتقدم ذكره الذي قصد قسنطينة بعد تلمسان فأخذ عن عمر الوزان الاصلين والبيان وغيرهما، كما اخذ عن محمد العطار[2]

2 - سعيد الطاغوسي الصنهاجي الشهير بالحاج ابي جمعه، وهو من اهل مراكش قصد قسنطينة للاخذ عن الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد) وقرأ عليه مختصر السعد، ومختصر ابن الحاجب الاصلي، وحصل منه على الاجازة[3]

3 - محمد السوسي الفاسي: تقدمت الاشارة اليه انه قد رحل اليها من فاس للاخذ عن علمائها، ثم انتقل منها الى الجزائر حيث صار مدرسا الا ان العقد التاسع من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كان عقد شؤم على الهيئة العلمية في قسنطينة اذ قضى نحبه فيه معظم من تقدم ذكرهم، فعبد اللطيف توفي في سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م، واحمد المسبح توفي في (٩٨١ / ١٥٧٣)، وابو محمد بركات سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، وعبد الكريم الفكون (الجد) في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م وكان عمر الوزان قد توفي في سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م والعطار في سنة 943

4 - ابو عبد الله محمد بن مزيان التواتي:

اصله من المغرب من قبيلة الرواشد[4]، جاء الى قسنطينة وتصدر للتدريس فيها وذاع صيته فجاءه الطلبة من كل جهات الجزائر، واراد العودة الى زواوه للاستزادة عن علمائها، وكان قد قصدها من قبل واخذ عنهم فتشبث به أهل قسنطينة وحالوا بينه وبين ذلك الان التواتي اضطر الى الانتقال بعد ذلك الى باجه بتونس هربا فيما يبدو من ملاحقة الاتراك له بسبب بعض من لاذ به ممن كانوا موضع سخطهم، وهناك توفي في سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م.

5 - احمد الفاسي: لم يقصد فيما يبدو الجزائر وقسنطينة بالذات طلبا للعلم او لنشره، وانما بحثا عن الحظوة لدى علية القوم في الجزائر عن طريق مدحهم بشعره، وطلب المتعة مهما كانت مجاورة. ولذلك فليس غريبا ان يكون موقف علماء الجزائر في قسنطينة وفي مقدمتهم

---

1) انظر عن افراد الهيئة العلمية في قسنطينة المتقدم ذكرهم: الحفناوي تعريف الخلف ج2و2

2) انظر عن اليسيتني: ابن القاضي: الجذوة ص ١٥٢

3) انظر عنه المقرى روضة الآس ص ٢٢٦ - ٢٢٧

4) انظر عن محمد التواتي: عبد الكريم فكون منشور الهداية و سعد الله المرجع السابق ج1 ص ٢٦٧

الكريم الفكون (الحفيد) موقف المندد ، الساخط عليه .(1)

وهناك نموذج آخر من المغاربة ليس افضل من نموذج احمد الفاسي اذ كان يستترخلف غطاء الولاية وادعاء البركة لارتكاب أعمال شنيعة. وقد اورد هايدو صورة عن احمد هذا جاء الى الجزائر في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م(2) فاس، وكان ان اصدر الباشا قرارا تجاهه بالخروج من مملكته كلها خلال ثلاثة ايام.

اما احمد الفاسي فيبدو ان اعماله لم تكن تزعج كثيرا الحكام ، ولذلك فقد استمر في سلوكه المذكور .

وخلاصة القول فان قسنطينة التي هاجر منها بعض مثقفيها الى المغرب واستوطنوه استقبلت من المغاربة المثقفين ولكنهم لم يكونوا جميعا من مثل محمد بن مزيان التواتي الذي كان بدور كبير في تنشيط الحياة الثقافية فيها .

- زواوه ، وطليانه ، وبسكره: ان بروز زواوه وبسكرة ولا سيما طليانه كمراكز ثقافية على مستوى البلدين الجزائر والمغرب لم يكن ثابتا ذلك الفترة موضوع الدرس ، فطليانه برزت على الخصوص مركزا مقصودا من قبل طلبة الجزائر والمغرب وعلمائها المرابطين في عهد ابي العباس احمد بن يوسف لكنها لم تحتفظ بنفس الاهمية التي كانت في عهد الصدر الأخير وقصده من المغرب لاخذ التصوف عنه كل من محمد الشطيبي(3) ، وعبد الله الخياط(4) .

اما زواوه التي كانت تشتهر بزواياها الكثيرة في الفترة التي تهمنا ، فقد كان بعض العلماء فيها يبرزون من حين لآخر فيهرع الطلبة اليهم من مختلف جهات الجزائر ويأتيهم الوافدون من المغرب وتونس . وفي القرن العاشر الهجري/السابع عشر الميلادي كانت شهرة ابي محمد عبد الله بن صباح . وابي محمد عبد العزيز الفراز قد طبقت الآفاق فيهرع محمد بن مزيان التواتي المغربي للاخذ عنهما الفقه والنحو والقراءات السبع(5) .

ويبدو ان بعض المغاربة الوافدين على زواوه قد آثروا الاستقرار فيها كالمدعو الغربي الفاسي الذي تصدر للتدريس في زواوه(6) .

اما بسكره فقد كانت دوما مقصد المثقفين المغاربة ولا سيما بمناسبة الحج اذ كانت محطة هامة من محطاتهم ما يتيح فرص الاحتكاك والاخذ والعطاء بين مثقفي البلدين . وفي رحلة

---

(1) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ص ٤٤٨-٤٤٩ .
(2) هايدو : طبوغرافية / في / المجلة الافريقية عدد ٨٧ ص ٢٢٣ - ٢٢٤
(3) ابن عسكر : الدوحة ص ١٤-١٥
(4) نفسه : ص ٦٣
(5) الفكون : منشور الهداية ص ٣٠ من المخطوط
(6) سعد الله : المرجع السابق : ص ج 1 ٣٢٨

العياشي نماذج كثيرة لما يحصل بمناسبة الحج من تبادل للافكار والآراء ، ومناقشة للمسائل العلمية والدينية .(1)

ـ المشـــرق :

وهناك مراكز آخر لا يقل اهمية عن مراكز التبادل الثقافي المذكورة في كلا البلدين كان يلتقي فيه مثقفو الجزائر والمغرب ، ويتبادلون الافكار والآراء ، ويأخذون بعضهم عن بعض ، الا وهو البقاع المقدسة التي كان علماء البلدين كثيرا ما يجاورون فيها ، كما فعل ابو مهدي عيسى الثعالبي ، ومحمد بن سليمان الروداني وغيرهما . فيأتي طلبة العلم من البلدين ، الجزائر والمغرب ، للاخذ عنهم هناك ، كما فعل العياشي على سبيل المثال حيث اعتكف هناك يأخذ وينهل من فيض علم ابي مهدي عيسى . بيد انه في المشرق كانت تنمحي الهوية الخاصة للمغربي والجزائري وتنعدم الفوارق المتانية لينعت الوافد اليه من تلك البقاع " مغربيا " فقط . ومن المؤكد ان لقاء الطرفين في المشرق بعلماء مسلمين من مختلف الجنسيات ، من الفرس والعثمانيين والاكراد ، كان عاملا بدوره في نقل متشابهة للمؤثرات المشرقية على اختلاف الوانها الى بلديهما وساعدا هاما على تمتين الاواصر الثقافية بينهما .

وخلاصة القول ، ان العلاقات الاجتماعية والثقافية ، بين المغرب والجزائر ، اتخذت صورا متعددة من تنقل لرجال العلم وطلبته ، والتجار ، والعمال وغيرهم بينهما ، و اعمار متبادل بالعلماء والطلبة للمراكز الثقافية المتعددة في البلدين ، و قيام مصاهرات عديدة بين الجزائريين والمغاربة ، ومناقشات فكرية ودينية متواصلة بين المثقفين منهم . وكل هذه الصور صور لا صبغة رسمية لها ، ولا معاهدات تحددها ، وانما اتت طبيعية وعفوية ، فرضتها عناصر الترابط الاصيلة بين البلدين ، من وحدة في العنصر والدين ولغة الثقافة والقرب الجغرافي ، والصلة الواحدة المنفتحة على اجزاء العالم الاسلامي ، وبذلك تجاوزت هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية الاطر السياسية ، على الرغم من كل تبدلاتها وآثارها ، وكانت هي المؤثر الاقوى والاكثر ديمومة في الصلات بين شعبي البلدين .

---

1) العياشي : ماء الموائد ج ٢ ص ٤١١ على سبيل المثال

2) نفسه : ج ٢

(((الخاتمـــــــــة)))

بعد هذا السير الطويل في تفاصيل العلاقات بين المغرب والجزائر خلال الحقبة الممتدة ما بين ٩٢٣–١٠٦٩هـ / ١٥١٧–١٦٥٩م يتضح ان تلك العلاقات في مجموعها كانت على نوعين :

- علاقات بين الشعبين ، وهي علاقات ذات طابع عفوي ، لم تتحكم فيها السلطات السياسية بشكل مباشر ، ولم تخضع لمفاوضات ومعاهدات واتفاقات ، كما انها كانت موروثة من ازمان ، وتتمثل بصفة خاصة في الصلات الاقتصادية والفكرية بل والاجتماعية بين المجتمعين .

- علاقات بين الحكومات المتتالية بين البلدين ، وهي على الخصوص العلاقات السياسية التي تم التعرف خلالها بأهداف تلك الحكومات ، ومصالحها السياسية ، كالبحث عن امنها وسلامتها او تدعيم قوتها ومد سيطرتها ، او الحفاظ على نفوذها وهيبتها ، او الحصول على مكاسب اقتصادية تبتغيها ، كما اتضح فيها بشكل بارز دور اولئك الافراد القابضين على السلطة ، والذين مارسوا ذلك العمل السياسي ونواياهم ، وتحركاتهم المباشرة ، او عبر البعثات المتبادلة بينهم ، والمفاوضات الجارية ، والنتائج التي تم التوصل اليها ، من معاهدات ، او اتفاقات ، او مشروعات اتفاقات ، او على العكس مانجم من صدامات عسكرية وحروب ، وهذه العلاقات بين الحكومات بصورتها تلك هي التي تكون جزءا مما يطلق عليه عادة اسم " التاريخ الدبلوماسي " للبلدين .

واذا ما أجريت موازنة بين هؤلاء النوعين من العلاقات خلال الحقبة المدروسة من ناحية مدى ديمومتها ، يلاحظ ان الاولى كانت اطول عمرا واكثر ثباتا ، بينما الثانية كثيرة التغير والتذبذب من مرحلة زمنية الى اخرى ، ومن حاكم الى حاكم ، بل وتتقلب في ظل الحاكم الواحد وفي فترة زمنية قصيرة خاضعة في ~~تقلبها~~ ذلك لعديد من الظروف الطارئـــة .

واذا ماسعي الى تحديد المحركات لتلك العلاقات سواء منها الدائمة والعفوية ، او المتذبذبة وهي تتراوح بين حرب ضروس تارة ، وسلم قلق تارة ، وائتلاف وتوافق مرة ، وحرب باردة اخرى ، وتتشابك مع العلاقات الدولية في المشرق الاسلامي ، والعالم المسيحي الاوربي اتضح ان وراء تلك العلاقات عوامل موروثة وشبه ثابتة ، منبثقة من البنى العميقة للمجتمعين ، وعوامل جديدة طارئة على تلك البنـــى .

اما البنى الموروثة وشبه الثابتة التي ولدت العوامل الاولى فيأتي في طليعتها دون شك البنية الجغرافية للبلدين ، المتمثلة في موقعهما ، وتجاورهما دون عوائق طبيعية ، وفي طبيعتهما المتشابهة ، وقد شوهد انه كان لتلك الامور آثارها الكبيرة في مختلف العلاقات ، وان كانت اكثر وضوحا في العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ولا سيما ان البنية البشرية والثقافيـــة المتشابهة في البلدين ، والموروثة من زمن بعيد هي الاخرى ، كانت تدعم تلك المؤشرات الطبيعية كما كانت الاخيرة تمكّـن بدورها للأولى ، فالعناصر السكانية التي يتألف منها سكان الجزائـــر والمغرب هي من اصول امازيغية وعربية واحدة ، وهذه الاصول البشرية على الرغم من عصبياتهم ـــ ـــا القبلية الاستقلالية ، تمازجت خلال الحكم الاسلامي الطويل ، وصهرها الدين الاسلامي ، ووحد بينهما المذهب السني المالكي الواحد ، وانتشرت بينهما ثقافة واحدة هي الثقافة العربية الاسلامية

لغتها العربية التي هي لغة القرآن الكريم ، على الرغم من بقاء بعض جيوب للغة الامازيغية . وهكذا كان من الطبيعي ان تكون الروابط الاجتماعية بين سابقة بمميزاتها المتعددة . والتنقل والتمازج ، والتزاوج ، والاستقرار المجتمعين القطرين وطيدة ، فالجوار وعدم وجود عوائق في وجه التنقل ، من كل من المجتمعين كانت عوامل اساسية في تعميق العلاقات البشرية والثقافية بل والاقتصادية بين البلديـــن .

الا انه يجب الا ينسى في غمرة الادراك العام لتلك الحقائق ، ان تحول المجتمعيـــن الجزائري والمغربي الى مجتمعين يغلب عليهما النظام الحضري كان بطيئا . فالنظام القبلي البدوي ظل قائما بقبائله وزعاماته ، وعصبياته ، وكان له من ثم تاثيراته الكبيرة في الاحداث السياسية في المجتمعين ، فالقبائل كانت تتحالف او تتصارع ، ولو كانت احيانا من اصالة واحدة ، وعندما كان الحكام تستميلها ، او عندما تدخل هي نفسها في تحالف مع القوى السياسية الحاكمة او الخارجة عن الحكم . فهذه البنية القبلية في البلدين كانت في الواقع وراء الانقسامات السياسية التي شاهدها قبل مرحلة البحث ، كما كانت وراء كثير من الظاهرات الاجتماعية والاقتصادية السلبية في البلدين بصراعاتها الكثيرة حول المرعى ، والنفوذ ، والسلطة ، كما كانت خلف تطور العلاقات بين القطرين سلبا او ايجابا بدعمها هذا او ذاك ، او بتاليبها هذا على ذاك . وهذه البنية القبلية لم تتبدل خلال هذه المرحلة ، فالقبائل بقيت هي هي بتركيبها بل وبمواقعها المكانية ، على الرغم مما فعله الاتراك العثمانيون لتثبيت بعضها على الارض ، وتحويلها الى عناصر اقرب الى الحضرية . ومما فعله السعديون ايضا ، وقد راينا في مناسبات عديدة دور هذه القبائل في الصراعات السياسية ، وتاييدها في الجزائر والمغرب لهذا او ذاك من السلاطين في المغرب او منافسيهم له او موالاة اخرى في البلدين للاتراك العثمانيين او معاداتها لهم ، وهكذا فالبنية السياسية في المغرب والجزائر كانت خلال هذه المرحلة ، كما كانت قبلها ، بنية قبلية ، الى حد كبير ، بمعنى ان الراس الحاكمة كانت تبقى على راس الحكم مادام وراءها عصبية من القبائل تؤيدها .. واذا كان هذا قد بدا جليا في السلطة الحاكمة المغربية لانها من اهل البلاد ، فانه يظهر صحيحا الى حد ما في حكم الاتراك العثمانيين الغرباء عن الاصالة البشرية لسكان الجزائر والمغرب على السواء ، لان الاتراك كانوا قلة ، ولم يكن ليزيد عددهم في احسن الاحوال عن (٦٠٠٠) ، فسيطرتهم على البلاد اعتمدت على القبائل المخزنية التي استمالوها اليهم واقطعوها الارض . ولكن حتى هذه القبائل الموالية مبدئيا ، كانت مستعدة لبيع ولائها لمن تراه ، ناهيك عن بنيتها الاستقلاليـــة التي اعتادت عليها . ومن هنا كانت تلك التحركات الثورية شبه الدائمة في الجزائر والمغرب بقيادة زعاماتها المحلية ، وما لعبته من دور في العلاقات السياسية بين البلدين بترجيحها كفة احدى السلطتين السياسيتين الحاكمتين في البلدين على حساب الاخرى ، فقد تقلب تلك العلاقات من صورة الى اخرى .

وكما كان لتلك البنية القبلية للمجتمعين تاثيراتها في تذبذب تلك العلاقات السياسية ، فانه كان لها خلال هذه المرحلة ، كما كان لها في الماضي ، آثارها السلبية في العلاقات الاقتصادية ، فحياة الغزو التي كانت تعيشها كثرة من القبائل بل جلها ، كان لها نتائجها المضرة في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة كما راينا ، كما كانت العامل الاكبر في انعدام الامن في الطرقـــات .

ومن ثم في اعاقة التواصل الاقتصادي بين البلدين ، هذا بالاضافة الى ان حياتها المحدودة المتطلبات الاقتصادية ، جعلت معالم الاقتصاد في البلدين لتأمين حاجات ذلك المجتمع ، التي لم تتغير منذ زمن بعيد ، اذ ان حاجات المجتمع المغربي القليل العدد نسبيا كانت محدودة الكم ، وان كانت متنوعة الكيف ، وتشابه هذه المتطلبات الاقتصادية في مجتمعي البلدين ، وتشابه الانتاج بالتالي لتشابه الظروف الطبيعية ، بعض العلاقات الاقتصادية ، على الرغم من وجود نشاطها احيانا ، لاتجد المجال الواسع لتبادل الانتاج المحلي ، وانما تعتمد على العلاقات الاقتصادية الخاصة لكل من المجتمعين مع المشرق ، وأوربا ، والسودان ، اى ان العلاقات الاقتصادية بين البلدين كانت اشبه بعلاقات وسيط بوسيط اكثرمنها علاقات منتج بمنتج .

ومن ثم يمكن القول ان العلاقات بين البلدين والسياسية منها بصفة خاصة ، لم تكن متأثرة فقط بشخصية هذا الحاكم او ذاك ، واهدافه ، وقراراته ، وانما بما وراء ذلك الحاكم من قوى وهذه القوى الداخلية لم تكن طبقات اجتماعية تسيرها مصالح اقتصادية معينة ، بقدر ماكانت جماعات او زعامات قبلية ، تكون مراكز قوى في البلدين ، ولكن يجب الا يغفل ابدا في هذا المجال دور قوى اخرى في المجتمع غير البنية الاجتماعية القبلية ، ومنها البنى الفكرية ، وتتمثل في هذه المرحلة بالفرق الصوفية ، التي تضاعف نشاطها منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادى/ في كل من البلدين ، لتقف في وجه اخطار الغزو الاوربي الخارجي ، فقد انتشر مريدو كل طريقة في انحاء القطرين ، وتغلغلوا في ثنايا المجتمع القبلي والريفي ، وكان ذلك عاملا من عوامل اضعاف العصبية القبلية ، وتدعيم الصلات الفكرية والاجتماعية بين المجتمعين ، مؤيدة بالطبع بالعوامل الثقافية الاصيلة الواحدة ، ومع ان هذه الطرق الصوفية ساعدت على طمس بعض العصبية القبلية الا انها بالمقابل تأثرت بها فكونت هي نفسها اشبه مايكون بالطبقات الاجتماعية التي كان لها تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة في السلطة السياسية ، بل وفي العلاقات بين البلدين ، من سلام وحرب ، وتوتر وصراع ، اذ لعبت دورا مماثلا للمجتمعات القبلية في ترجيح احدى كفتي السلطة السياسية في البلدين على حساب الاخرى .

ولم تكن فئة العلماء ولا سيما انها امتزجت في هذه الفترة مع فئة المتصوفة ، اقل اثرا في تلك العلاقات ، لا الثقافية فحسب كما يتبادر الى الذهن ، وانما السياسية ايضا . وقد يكون ابرز مظاهر تأثيرها ، دورها في الشؤون الادارية ، وتأثيرها في السلطة السياسية ، واخيرا في السفارات التي كانت تتزعمها . وقد رأينا بعض نماذج من تلك السفارات ، والمهمات التي ادتها ولا سيما في الدفاع عن آرائها التي هي آراء الحاكم السياسي الذى تمثله ، والمبنية على نظريات سياسية اسلامية كان لها اهميتها الكبيرة في العلاقات بين البلدين وتطورها ، ويخص بالذكر دورها في تأييد نظرية (الخلافة الاسلامية القرشية) التي كانت تدعم موقف المغرب ، تجاه نظرية الخلافة الاسلامية للزعامة الاسلامية الاقوى التي كانت تمكن لها الدولة العثمانية .

واذا كانت هذه البنى العميقة في البلدين ، والموروثة عوامل خفية او ظاهرة في تسيير العلاقات بين البلدين ، فان العوامل الطارئة على تلك البنى كان لها هي الاخرى اثارها البينة في هذه المرحلة ضمن هذه الامور الجديدة الطارئة على البنية الاجتماعية مثلا دخول جماعات الاندلسيين مهاجرين الى البلدين للأسباب المعروفة وتجمعهم في اماكن محدودة كتطاوين وسلا والرباط

فهذه الجماعات كما رأينا بثت الحيوية في البنية
المغرب وشرشال والجزائر في الجزائر، وبصفة خاصة في الخزو
الاقتصادية للبلدين، كان في الميدان الزراعي او الصناعي أو التجاري
البحري، وبالتالي كان لها آثارها المباشرة وغير المباشرة في تنشيط العلاقات الاقتصادية بصفة
زيادة عدد القوة العاملة الفنيـة في القطرين، ويدعم التواصل بينهما في مجالات الاقتصـاد
التي دخلوها، ومع ان الاندلسيين في اصل اكثرهم البشرية والثقافية يختلفون عن سكان البلديـن
الا انهم من الوجهة الاجتماعية كانوا عنصرا حضريا، وبذلك دعموا سكان المدن وزادوا في ثقلهم
وتأثيرهم، فعدلوا ولو قليلا اثر العنصر القبلي، الا انهم بالمقابل للظروف المختلفة التي اكتوبها
والتي كانوا يعيشونها في بلادهم، لم يمتزجوا مباشرة مع السكان بل كونوا جاليات متمايزة فسي
البلدين كان لها حتما صلات مع بعضها، وتحولت هذه الجاليات الى قوى سياسية، بل ود ولات
وبالتالي لم تبق بعيدة عن التدخلات السياسية والعلاقات بين البلدين لحماية مصالحهمـا
في كليهما. ويبدو اثرهم واضحا في العلاقات الاقتصادية والسياسية التي اقاموها مع غـزاة
البحـر في المجتمعين، وفي انضمامهم الى جهود الطرفين، وفي تكوينهم مراكز قوى ترجح احدى
الكفتين وبخاصة كفة الحكم العثماني في الجزائر لشعورهم بأنهم مدينون للأتراك الذين انتشلوهم
من الاضطهاد، علما بأنه كان اهم امانيهم السياسية في تحرير وطنهم اسبانيا مما كان لهـا
انعكاساتها على الحياة السياسية في البلدين والعلاقات بينهما، وقد رأينا بعض ادوارهـم
واضحـة في تقلبهم بين معسكر الجزائر والمغرب اثناء الصدام المسلح بين الطرفين، كمـا
حدث على سبيل المثال بمناسبة حملة رمضان باشا على فاس في سنة ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م، حيـث
انحازوا الى صفوف باشا الجزائر وجروا الهزيمة على محمد المتوكل على الله بما احدثوه من فـراغ
في صفوف جيشـه، هم وغيرهم من القبائل العربية. وقبل ذلك كانوا قد شجعوا محمدا الشيخ
على التدخل في تلمسان، ووعدوه بمساندته.

ومن الامور الطارئة على البنية الاجتماعية ايضا هجرة اليهود مع الاندلسيين. فبالاضافة
الى من كان موجودا منهم سابقا في كل من الجزائر والمغرب في المرحلة المدروسة جاءت جماعات
منهم اليها من اسبانيا والبرتغال فزاد عددهم. وقد حمل هؤلاء معهم كما حمل الاندلسيون
فعالياتهم المختلفة، وكان لهم صلاتهم مع بعضهم في القطرين ومع سكان اليهود، ولا سـيما
في الميادين الاقتصادية كما هي عادتهم. وكان لهم هم الآخرين تجمعاتهم في المـدن
وتأثيرهـم في مختلف العلاقات، وان لم تبد بارزة، وبخاصة عندما كانوا يعملون مترجمين او
وسطاء تجاريين للأوربيين، او تجارا، او في الوظائف الحكومية او وراءهـا.

ومن العناصر البشرية التي تزايدت في هذه المرحلة في القطرين: السودانيون، وفي الواقع
انهم كانوا موجودين من السابق، الا ان عددهم تزايد عندما ادخل بعضهم في الجيش، ولا سيما
في الدولة السعدية، ومن ثم كانوا من المدعمين للقوة العسكرية المغربية، تلك القوة التي لعبت
دورا هاما في علاقات السلم والحرب على السـواء.

ومن الجماعات الدخيلة ايضا على البنية الاجتماعية الاصيلة للسكان في هذه المرحلة،
الاوربيون النصارى، وهؤلاء كانوا من اصول مختلفة، وكان بعضهم مستعبدين اي من اسـرى

الغزو البحري في البلدين ، وقد اسلم بعضهم وكوّن مايسميه هايدو في الجزائر" اتراكا بالمهنة"
وقد استخدم هؤلاء في اعمال مختلفة وأسهم عدد منهم في الغزو البحري ، وفي الجهاد في البلدين
وبعضهم كان من الاحرار وهم التجار الاوربيون الموزعون في عدد من المدن الجزائرية والمغربية ،
والطرفان كان لهما دور في تحريك العلاقات بين البلدين ، اما الاول بصفتهم سلعة متبادلة
او سلعة يتفاوض عليها سياسيا لصالح احد البلدين او لبلد اوربي او بصفتهم عاملين في مجالات
مختلفة ، ومنها الترجمة او حاملين خبرات متنوعة تفيد احد البلدين على حساب الآخر ، واخيرا
بما كانوا يحملون من مال نتيجة افتدائهم يدعمون به ثروة مالية للقطرين . كما يجب الا ننسى
تأثيراتهم الثقافية وان بدت محدودة ، ولا سيما في مجال اللغة ، وفي المدن التي كان عددهم
كبيرا فيها كالجزائر مثــلا .

واخيرا هناك الاتراك العاملون في الجزائر ، وهؤلاء هم الذين كونوا الطبقة الحاكمة
فيها ، وتزاوج بعضهم مع سكان البلاد ، وانجبوا فئة اجتماعية جديدة من هذا التزاوج هم الكراغلة .
ومع ان هؤلاء الاتراك كانوا يمثلون الدولة العثمانية الحاكمة ، ويتكلمون اللغة التركية ، ويدينون
بالاسلام ، الا انهم في اصالتهم لم يكونوا كلهم من اصالة تركيــة ، اذ كانت فئة منهم من اصالة
اوربيــة ، ومن الواضح ان هؤلاء الاتراك بصفتهم الطبقة الحاكمة ، كان لهم دورهم السياســي
الفعال في العلاقات بين البلدين ، أكانوا من البايلربايات أو الباشوات ، او من الموظفين الآخرين
او من الانكشارية ، بل كان لهؤلاء الاخيرين دور كبير في تلك العلاقات ولا سيما في عهد الباشوات
حينما غدت السلطة الفعلية بيدهم ، وقد رأينا موقفهم من حملة علي علج ورفضهم لها ، كما كان لهم
تأثيرهم غير المباشر في تلك العلاقات ، لما ولدوه من اضطرابات وضعف في الاحوال السياسية فــي
الجزائـــــــر .

ولم يكن للاتراك اثرهم في العلاقات بين الجزائر والمغرب لمجرد قبضهم على السلطــــة
السياسية في الجزائر ، وتدخلهم الواسع في الغزو البحري ، بل لوجودهم في المغرب ايضا . فقــد
انتقل اعداد منهم ليعملوا جنودا في جيش الوطاسيين والسعديين ، وخبراء عسكريين . وقــد
حملوا كما اشير سابقا من التأثيرات الى الهيئة الادارية السياسية في المغرب ، ناهيك عن العادات
في اللباس ، والطعام ، وقد تدعم هذا الاثر بالصلات الحرة بين البلدين من تنقل لاعائق امامه ،
وتبادل تجاري ، ودين مشترك ، وكان لهؤلاء الاتراك على الرغم من قلة عددهم النسبي اثرهم
كذلك في دعم القوة الدفاعية والهجومية في المغرب ، مما كان له حساب في العلاقات السياسية بين
البلديـــــــن .

واذا كانت تلك الامور قد طرأت على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية في القطرين ، وكانت
مؤثرا كبيرا او صغيرا خفيا او ظاهرا في العلاقات بين البلدين ، فان الغزو الاسباني والبرتغالي
لهما وتوضعه في عدد من دواخلهما ، كان من الاحداث الكبرى التي زعزعت الترتيب السياســـي
والاقتصادي في البلدين .

وقد تبين جليا من خلال العلاقات السياسية بين البلدين ان الدولتين المحتلتين البرتغال
واسبانيا كان لهما دائما دور حاسم في تلك العلاقات ، فهما اولا محور اساسي في حل قضايا
التحالف والتحالف بين المغرب والجزائر وذلك لرغبة القطرين العميقة في التخلص من قواعد الدولتين

على ترابطهما ، والتحرر من احتلالهما . وثانيهما محور فعال في علاقات الافتراق والتوتر للجوء السلطة السياسية الحاكمة في المغرب في معظم الاحوال للتحالف معها التحافظ على استقلاليته عن الحكم العثماني ، ولابعاد هذا الحكم عن الجزائر ، كان ذلك لمجرد التهديد ، او لعمل جاد وفعلي . او لانضواء القوى السياسية المتمردة على السلطة الحاكمة في البلدين اليهما ، لتجد سندا يعينها في الوصول الى السلطة الفعلية ، وطرد الحكم العثماني . وبالفعل كانت هاتان الدولتان لاتنفكان عن التدخل في الشؤون الداخلية للقطرين بطريقة او بأخرى ، وبعث الفرقة بينهما ، او بالاحرى في تمزيق وحدة السلطة السياسية فيهما كضرب افراد الاسرة الحاكمة في المغرب ببعضهم ، وتشجيع بعضهم على شق عصا الطاعة ، وفتح بلادهما ملجأ لهم ، ثم استخدام وسائل ضغط للحصول على مآربهما بعد تحقيق بقائها على الارض التي احتلتها ، بل والحصول على مراكز اخرى تحتمي بها ، ومنع وصول الدولة العثمانية الى قربها ، والشيء نفسه كانت تفعله في الجزائر بتأليب مراكز القوة السياسية الوطنية ضد الحكم العثماني ، لتشغل هذا الحكم بالأوضاع الداخلية المضطربة فينصرف عن السعي لوضع معاقل ودخلها على تلك الارض .

ومثلما كانت الدولتان الايبيريتان انه تشكلان محورا فعالا في العلاقات بين البلدين ولاسيما السياسية ، فان الدول الاوربية المتاجرة مع البلدين والتي تزايد عددها في هذه المرحلة ، واتسع اهتمامها بخيراتهما وموقعهما الاستراتيجي ، وتأثرت سلبيا بحركات الغزو البحري فيهما ، كانت هي الاخرى محورا من المحاور التي تتعرض عليه تلك العلاقات السياسية والاقتصادية . فحتى تحقق هذه الدول نواياها الاقتصادية والسياسية ، كانت تدعم مراكز القوة في البلدين التي ترى بانها قادرة على تنفيذ رغباتها . وقد اتخذ ذلك الدعم صورا عسكرية وسياسية او الاثنتين معا . وقد تكون انكلترا وهولندة مثالا على ذلك في دعمهما للسعديين في المغرب . ومن ثم كان لهذه الدول بشكل عام دور سلبي ومفكك للعلاقات بين القطرين لانها كانت توجهها لصالحها ، والى الانفصال لا الى التحالف والترابط . وهكذا فمع الدول الاوربية الغازية والمتاجرة ، وعلى الرغم من بعض مظاهر الود التي كانت تبديها بين حين وآخر للقطرين او لاحدهما ، او للدولة العثمانية ، فانها كانت تسعى لدعم الفرقة بين البلدين او بين الدولة العثمانية والمغرب قطعا لدابر الوحدة الاسلامية العثمانية ، والوحدة المغربية الجزائرية ، او الوحدة المغربية الكبرى ، تلك الوحدة التي لو تمت لهددت العالم الاوربي المسيحي بخطر جسيم ، في وقت شرع فيه هذا العالم يبني قدمه الغازية في بعض انحاء العالم ، وتحقيق مكاسب اقتصادية هائلة .

وفي هذه العلاقات بدت الدولة العثمانية في استانبول ، لا الدولة العثمانية في الجزائر طرفا هي الاخرى وذلك في بعض المواطن ، ولا سيما ايام المنصور السعدي واولاده من بعده ، اي عندما اضطرب الحكم العثماني في الجزائر في عهد الباشوات ، ويبدو ان اعتداد المنصور بسلطاته وبشخصيته ، وقوته العسكرية وحنكته السياسية جعلته يبحث عن السلطة الحقيقية وراء الحكم في الجزائر ، تلك السلطة التي يمكنها معه ان تقرر العلاقات بين البلدين .. ولا سيما انه اراد ان يثبت لهذه الدولة انه ند لسلطانها ، ان لم يكن يفوقه ، وانه يمثل دولة ذات كيان مستقل كان لها يوما امتدادها الواسع ، وليست هي ولاية من ولايات الامبراطورية كالجزائر . وقد سار اولاده واحفاده من بعده على هذه الخطة ، على الرغم من انهم كانوا بعيدين في قوتهم عن قوة المنصور

الا انهم شعروا انهم باتخاذهم هذا الخط السياسي ، يدعم موقفهم كسلاطين مستقلين ويحقق انسجامهم مع المنصور في علاقاته مع الدولة العثمانية .

ويبدو من مجمل تلك الامور الجديدة الطارئة على البنى العميقة المتوارثة التي كان لهما اثارها المستمرة في العلاقات بين القطرين ، انها لم تبق على السطح ، بل تغلغلت الى جذور تلك البنى لتمكن او تقتلع ما يمكن ان يخدم مصالحهما فيهما .

ومثلما كان للبنى العميقة نتائجها الموروثة في العلاقات بين الطرفين ، وللامور الطارئة اثارها الكبيرة او الصغيرة في تلك العلاقات ، فان العلاقات نفسها بسلمها وحربها ، وتوترها وتراخيها كان لها نتائجها في تلك البنى .

فاذا ما بدىء بالبحث عن اثرها في البنية الطبيعية للقطرين يلاحظ ان تلك العلاقات اذا لم تؤد الى تغيير في معالم الطبيعة المشتركة ، كشق طرق جديدة مثلا بين البلدين ، او ازالة عوائق طبيعية يمكن ان تسهل سبل التواصل والتعاون على نطاق اوسع بينهما ، او على العكس لتحصر سير العمليات العسكرية ، او لتقيم حواجز تمنع الانتقال وتوقف التلاقي ، فانها كانت العامل الوحيد والمباشر في تحديد الحدود بين البلدين . ومع ان تلك الحدود لم تكن سدودا مانعة غيرت البنية الطبيعية في اعاقة الاتصال بين القطرين ، الا انها ولدت على الاقل شعورا بوجود حواجز بينهما ، ونمت في البلدين الشعور بالاستقلالية ، او بالقومية المحلية ، جزائرية ام مغربية .

ان تلاصق البلدين ، وانعدام العوائق الطبيعية بينهما ، والبنية البشرية والثقافية والاجتماعية الواحدة اوجدت مع الزمن لدى البلدين ولاسيما في ظل الحكم الاسلامي الواحد ، شعورا خفيا عاما ، انهما ليسا مجتمعين متغايرين ، وانما مجتمع واحد ، وولد لدى القوى السياسية الفاعلة فيهما انهما يجب ان يحكما بقوة سياسية واحدة . وهذا الهدف سعى لتحقيقه قبل المرحلة المدروسة المرابطون فالموحدون ، ولاحقه بعدهم كما رأينا المرينيون ، والزيانيون ، والحفصيون . ويبدا المغرب هو المتحمس الاكبر لهذا التيار السياسي ، او القادر الاكبر على قيادته ، لاعتقاده انه الوريث الوحيد للزعامة السياسية للمغرب الكبير ، لأن المرابطين والموحدين انبثقوا منه ، وقد شوهد اثناء تتبع العلاقات بين البلدين ان هذا التيار اصطدم دائما بنزعات الحكام الاستقلالية ورغباتهم في السيادة والنفوذ ، والانفراد بالحكم ، وبالزعامات القبلية . الا انه مع ذلك ظل تيارا سياسيا قويا له مؤيدوه في الاقطار المغربية الثلاثة ، وفي المغرب والجزائر بصفة خاصة . ولم يمت هذا التيار او يتقلص خلال المرحلة المدروسة على الرغم من ان اصالة الحكام في البلدين لم تعد واحدة ، فمع ان الحكام الاتراك في الجزائر كانوا متباينين في العرق والمذهب الديني عن مثائلة البلدين ، ومن حكام المغرب ، فانهم تقبلوا هذا التيار ، لانه يخدم مصلحتهم في الامتداد والتوسع والمكاسب الاقتصادية ، والزعامة الاسلامية العامة . ومع انهم جاؤوا في نظر الكثيرين من سكان البلدين ، مخلصين للجزائر من غزوات النصرانية الاوربية ، الا انهم بقوا في نظر كثيرين ايضا من اهل البلاد من الزعامات القبلية ، ومن المتصوفة ، والعلماء ، عنصرا دخيلا ، وربما لبعضهم كالمحتل الاوربي نفسه يجب مقاومته بشتى السبل واخراجه مع كل ما يمكن ان يحققه البلدان مبدئيا في ظل الحكم الاسلامي المشترك من امن وسلام ، وتحرير من القوى الاوربية المحتلة ، وتوحيد بين المغرب

بالذات تنظر الى هؤلاء الاتراك ، لا نظرته الى اعاجم غرباء فحسب عن البنية البشرية للبلدين ،
وانما ايضا نظرته الى قوم بعيدين عن اصالة الشرف العربي المحمدي الذي كان حكامه من الاشراف
السعديين ينتمون اليه ، ولذا فانه لاحق لهؤلاء ان ينتزعوا من المغرب ، القائد الاول لأول عملية
توحيد للمغرب الكبير ، هذه المهمة التي انبثقت من الاصالة الواحدة للشعبين ، كما لا يمكن ان
يدعوا سيادة العالم الاسلامي كله على الرغم من ان القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية التي
كانت تتمتع بها الدولة العثمانية آنذاك تخولها تلك الزعامة . وقد ظهر هذا الصراع النفسي
في العلاقات بين المنصور السعدي والسلطان العثماني ، وفي اقوال سفيره التمكروتي في كتابه
(النفحة المسكية) في السفارة التركية من الخلافة والامامة ، بل بدا المغرب في عهد بعض سلاطينه
الكبار بأنه لا يطمح في ضم الجزائر ، والمغرب الأدنى فحسب ، وتحقيق امبراطورية الموحدين
السابقة فحسب ، وانما بدا ايضا في بعث تيار تاريخي اسلامي واحد وعميق ، مرتبط بتطلعات
الاصول الشريفية للدولة السعدية ، وهو الامتداد شرقا حتى مصر ، وربما ابعد كما فعل الفاطميون
المماثلون في نسبهم الشريفي للسعديين ، واحياء مفهوم الخلافة العربية الاسلامية فيهم . فوجود
الحكم العثماني في الجزائر ، الـ[illegible] مغايرته للبنية البشرية العميقة للسكان وللبنية السياسية ،
ولاختلافه حتى في المذهب الديني ، والمطامع والاهداف انتصب في الحقيقة سدا عاليا امام حكام
المغرب ، وقطع عليهم طريقهم الى الشرق القريب والمشرق البعيد . ومع كل قوة هذا العائق ، فان
الحكام السعديين لم يهابوه ، بل عملوا على اختراقه عدة مرات بالعنف ، وشجعهم على ذلك توحيد
العسكرية المتنامية ، وانعدام الحدود الطبيعية العائقة بين البلدين ، والروابط البشرية والاجتماعية
والثقافية بينهما . الا انهم اخفقوا ، وانتهى بهم الامر الى الانزواء في الزاوية الشمالية الغربية من
افريقيا ، والتقالي في صلاتهم مع العالم حولهم اكثر فأكثر الى العالم الاوربي المجاور لهم من
الشمال والغرب ، الذي اخذ بدوره يستغل هذا الاخفاق ، وهذه العزلة النسبية ، لتحقيق
مطامعه الاقتصادية والسياسية ، التي تفاقمت بشكل واضح بعد الثورة الاقتصادية الاوربية
اي منذ كشف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، وكشف امريكا . بل انه سعى ايضا الى الجنوب
الى السودان وهو باب من الابواب المفتوحة امامه ، يمكن من طريقه ان يدعم هيبته وقواه الاقتصادية
بالحصول على خيراته ، وبصفة خاصة الذهب ، كما يمكنه بذلك ان يقطع على الحكم العثماني في
الجزائر طرق التجارة مع هذا الجنوب ، ويحولها لصالحه . ومع ان المنصور السعدي نجح في هذا
الميدان الاخير ، الا ان هذا لم يدم ، ولم يكن المغرب من عزلته السياسية عن الشرق المغربي
والمشرق عموما ، تلك العزلة التي زادت من تشبث المغرب باستقلاليته ، ودعمت الشعور القومي
بالقومية المحلية ، ولا سيما ان ذلك الشعور قد تمكن بجهاده ضد البرتغاليين والاسبان ، وبصراعه
ضد الاتراك العثمانيين الاعاجم .

وان كانت هذه نتيجة موقف المغرب من تيار وحدة البلدين ، فان الحكام الاتراك كما اسلفنا
الذي تبنوه هم الآخرون وسعوا عبره لاحتواء المغرب ضمن دولتهم ، وتحقيق وحدة العالم الاسلامي
كله ، كما كان عليه الامر ربما ايام الامويين . ومما لا شك فيه انه كان هناك وراء هذه الرغبة في
الضم عوامل اقتصادية ، منها الرغبة في المكاسب المجتناة من المغرب نفسه ، والسيطرة ثانية على
طريق الذهب ، والوصول الى المحيط الاطلسي حيث شرعت اوربا المسيحية التي كانت الدولة
العثمانية في صراع عنيف معها ، تلتقي بثقلها الاقتصادي والسياسي ، وتطويق البرتغال التي كانت

حيث نجدها لا في المغرب فحسب وانما في الشرق الافريقي العربي ، وشرقي الجزيرة العربية والبحر العربي والمحيط الهندي ، وتسعى لقطع تجارة الشرق الاقصى عن المشرق والمغرب الاسلاميين . الا ان محاولات العثمانيين العديدة ، العسكرية والسياسية لضم المغرب لم تنجح حتى ولا بتحقيق نفوذ اسمي فيه ، وذلك لعدم استجابة المغرب المطلقة للأسباب المذكورة آنفا ، التردد الدولة العثمانية نفسها في قيادة تيار التوحيد هذا . اما اسباب التردد فتبدو كثيرة منها : تخوفها من الاوضاع الداخلية والخارجية التي عاشتها المغرب خلال هذه الحقبة من الزمن .

فالاوضاع الداخلية ، ممثلة اولا في الصراعات السياسية المختلفة فيها قبل عهد السعديين في الوقت الذي لم تكن قدم الدولة العثمانية قد ثبتت في الجزائر نفسها ، وثانيا ، قوة الدولة السعدية الشريفية نفسها المؤيدة بقوى كثيرة دينية وسياسية لا في المغرب والجزائر فحسب بل في كل العالم الاسلامي ، والمدعمة بقوة عسكرية برية وبحرية ، منظمة تنظيما حديثا مقتبسا من التنظيم العثماني نفسه ، والاوربي ، والمستندة الى قوى اوربية معادية او مسالمة للدولة العثمانية يمكن ان تأتي لنجدتها ، وان تمولها بالمدافع والمال والرجال ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، ولا سيما في عهد المنصور الذي كان كما رأينا ذا رؤية سياسية جديدة للوحدة الاسلامية ، بدا فيها موقف الدولة العثمانية هو الأضعف .

اما الاوضاع الخارجية ، فهي الاحتلال البرتغالي والاسباني لعدد من موانيء المغرب وما قد يترتب على ذلك من واجبات جهاد جاد ومباشر من قبلها ضد البرتغال واسبانيا اللتين بدتا في القرن السادس عشر الميلادي انهما من اقوى الدول الاوربية ، وما ينجم عن ذلك من تبلبل في علاقاتها مع مختلف الدول الاوربية ، ومن فتحها جبهة ساخنة في المغرب بالاضافة الى الجبهة الحارة في شرقي اوربا ، وهذا كله مع عدم ضمانها داخلية البلاد الى جانبها . ولابد انها ادخلت في حسابها البعد المكاني عن مركزها على الرغم من ان وجودها في الجزائر يجعلها بتماس معها !

ومن عوامل تردد الدولة العثمانية ايضا في اتخاذ خطوة حاسمة تجاه المغرب هو انشغالاتها الحربية المتعددة في المشرق كحرب الصفويين ، والحرب في شرقي اوربا كما ألمحنا الى ذلك سابقا ، وحملاتها البحرية الى الهند ، وتعدد قدمها في كل اجزاء المشرق العربي ، والضعف الذي انتاب النظم الادارية والسياسية والاقتصادية فيها بعد عهد سليمان القانوني ، واحوال الامبراطورية من ثورات عسكرية في العاصمة والولايات ، واستئساد الدول الاوربية عليها . واخيرا خشية الامبراطورية من تكوين المغرب والجزائر تكتلا ضدها اذا ما تحقق توحيدهما في وقت مالت الدولة العثمانية فيه الى نحو الضعف .

وهكذا اخفقت الدولة العثمانية في قيادة تيار التوحيد بين البلدين ، وفي سيطرتها على المغرب الاقصى ، ولم تستطع بالتالي ان تمد يد العون القوية للأندلسيين في اسبانيا الذين كانوا يرجعون لها النداء تلو النداء لانقاذهم مما هم فيه ، ولا حتى عندما قاموا بثورتهم الكبيرة عام ١٥٦٩ ، والتي دامت قرابة سنتين ضد الحكم الاسباني ، وكانوا ينتظرون منها عونا اكبر مما قدمه لهم العلج علي في الجزائر ، ولا حتى عندما قررت اسبانيا اخيرا طردهم بين عامي ١٦٠٩ - ١٦١١ ، كما اخفقت ايضا حتى في طرد الاسبان من الجزائر التي كانت تحتلها مباشرة ، وكذلك

السيارة على الحوض الغربي للبحر المتوسط . ومن ثم يحق للباحث ان يقول : ان العلاقات بين المغرب والجزائر ، او بالاحرى بين المغرب والدولة العثمانية ، كانت في الواقع العامل الاكبر في الابقاء على القواعد الاسبانية والبرتغالية في البلدين . لأن تلك العلاقات التي اتسمت بالطابع العدائي تارة ، والتوتر تارة اخرى ، والحذر مرة ، والقلق اخرى ، كانت عائقا في وجه حركة جهادية مشتركة ضد القوى الاوربية الغازية ، والطامعة على السواء . وبانتقال الحكم العثماني في الجزائر الى تحقيق التوحيد بين المغرب والجزائر اتجهت الجزائر بدورها الى علاقات اكثر فعالية مع المغرب الادنى والمشرق بحكم صلاتها الاقوى في هذا الاتجاه ، والى اوربا التي شغلتها في هذه المرحلة بحماتها العسكرية عليها ، وبسفاراتها ومصالحها التجارية ، وهكذا يتضح ان اقامة الحدود بين البلدين - على الرغم من بقاء سير العلاقات الاقتصادية والثقافية في مجراها - كان في واقعه تعبيرا فعليا من اخفاق التيار التوحيدي بين البلدين ، كما غدت تكريسا لاستقلالية القطرين ولنمو تيار القومية المحلية فيهما ، ومثارا للصراعات بينهما ، تبدت جليا في الحقبة المعاصرة .

واذا كانت تلك بعض نتائج العلاقات على البنية الطبيعية المشتركة بين القطرين ، وبالتالي على البنية السياسية فيهما ، فانها كانت دائما لها آثارها البينة في تغيير الرأي العام في القطرين . فالقوة السياسية الاقوى في احدهما كانت تعمل دائما في تكوين السلطة السياسية القائمة في القطر الآخر موالية لها او محالفة ما امكن . وقد يظهر هذا بشكل اوضح في المغرب ، حيث استطاع حكام الجزائر من الاتراك ان يتدخلوا بطريقة او باخرى ، بالشؤون الداخلية للمغرب ، فيستميلون من القوى ، ما يمكنهم بها ان يبدلوا الحكم السياسي او يغيروه اذا رأوا انه ليس لصالحهم ، كما يبعثوا اليهم الامراء الطامعين بالسلطة ، ويقيموا معهم صلات مصاهرة احيانا ، ليوصلوهم الى سدة الحكم عندما يجدون الفرصة مواتية ، او ان يضموا الى صفهم القوى القبلية والصوفية ليوازنوا بها قوتهم . فالعلاقات بين البلدين كانت مسؤولة اذن الى حد كبير عن تدهور الاوضاع السياسية فيهما ، كمسؤولية تلك الاوضاع بدورها من صفات تلك العلاقات من سلم وتوتر وخصام ، وقلق .

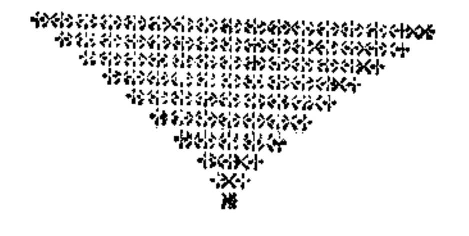
واذا ما نظر في نتائج تلك العلاقات على الاحوال الاقتصادية في البلدين ، فمن الضروري الاشارة الى ان تلك العلاقات لم تؤد بحسب المصادر المتوافرة بين ايدينا الى اتفاقات اقتصادية بين القطرين ، او الى تحديد الرسوم الجمركية مثلا ، كما انه قد لا يتبين لأول وهلة اية حروب اقتصادية ضد بعضهما ، الا ان اتجاه الحكم العثماني الى دعم نفوذه في الجنوب الجزائري واحتلال المغرب السودان ، يؤكد التنافس وسيطرته على المراكز التجارية مع السودان والاستحواذ على التجارة من الجنوب منبع الذهب والعبيد من الزنوج ، بل يمكن ان يرى في احتلال المنصور للسودان حربا واضحة ، اذ استطاع ان يحول محور التجارة مع السودان من الجزائر وتونس وليبيا الى المغرب بصفة عامة ، ولكن البقاء القوى للمغرب في السودان لم يعش اكثر من حياة المنصور . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان من الواضح انه كان للعلاقات السياسية بين البلدين ، بما اوجدته من سلم او حرب نتائجها الدائمة او الجزئية على صلات التبادل المختلفة ، وان كان يبدو ان حماية الغزو البحري بالذات ، لم تتأثر كثيرا بنوعية تلك العلاقات

الا انها كانت تتاثر
تاثر التجارة البرية ، اذ ظلت تجرى في الصادر والمغرب على سياق واحد ، الا انها كانت تتاثر
كما رأينا بصلات كل قطر من الدول التي كان يجيبها لذلك الغزو .
ويضاف الى تلك النتائج ان تلك العلاقات كانت عاملا في تحالف الدول الاوربية على القطرين
وسياسيا الاقتصادية لتثال ماتبغيه من سلع واتفاقات مستقلة العلاقات السياسية السلمية او المتوترة
بين القطرين لتثبيت دعائمها الاقتصادية في المغرب والجزائر ، وانتزاع اتفاقات اقتصادية منهما .
وعامة اخرى ، كانت العلاقات السياسية المتذبذبة بين البلدين عاملا مساعدا على اتفاقات كل منهما
الى تقوية علاقاته الاقتصادية بل والسياسية مع الدول الاوربية ، لما قد يعود عليهما من دعم
اقوى ما السياسية ، وبصفة خاصة المغرب الذي استغل تلك العلاقات التجارية لدعم قوته العسكرية .
بل ان مراقبة القطرين لبعضهما لتجاوزهما وصلاتهما ، قد يكون عاملا موثرا في سعي كل واحد
لمجاراة الآخر ، في توعية علاقاته الاقتصادية مع الدول الاوربية وغيرها ، اذا كانت تعود عليه
بالنفع ، او في تقليد الواحد الآخر في فعالياته .
وبالنظر في نتائج العلاقات السياسية وانعكاسها على العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب ،
يبدو ان هذه الاخيرة لم تتاثر بالعلاقات السياسية المتوترة في معظم الاحيان بين القطرين ، او
بتعبير آخر فان قيام حكم الاتراك العثمانيين في الجزائر ، وحكم الاشراف السعديين في المغرب
لم يمنع العلاقات الثقافية بين البلدين من ان تستمر في مجراها السابق المتميز بالعفوية وحرية
انتقال من بلد الى آخر لفئة المثقفين من العلماء والطلبة في بعض الظروف للاخذ او العطاء
او المتوطنين معا . ولايبدو من المصادر المتوافرة بين ايدينا وهي كثيرة ان العلاقات الثقافية
بين البلدين كانت موضوع اتفاقات خاصة لضبط عملية التبادل الثقافي . الا ان هذا لا ينفي
من القول بأن بعض حكام المغرب بصفة خاصة كانوا يستقدمون بعض العلماء من الجزائر او يقومون
بنقلهم معهم الى بلادهم ، او يوصون ببعضهم حكام الجزائر . واذا كانت المصادر المتوافرة بين
ايدينا تزخر بتراجم اولئك العلماء والطلبة الذين انتقلوا من بلد الى آخر للاخذ او العطاء في
المراكز العلمية للبلدين ، او حتى اهم الدعوات الفكرية والسياسية التي تخدم الحكم القائم في
بلدهم والمؤيدة له ، فان تلك المصادر لاتمدنا بالمقابل معلومات عن اوقاف متبادلة لصالح
المؤسسات الدينية والتعليمية ، مما يستدعي مزيدا من البحث للكشف عن خفايا هذا الامر وحقيقته
اما نتائج العلاقات المتعلقة في العلاقات الاجتماعية بين القطرين ، فمن الجلي انها
لم تتاثر تاثيرا سلبيا . فقد ظلت تلك العلاقات تجرى هي الاخرى بمجراها ، وتتمثل بصفة
خاصة بحركة انتقال نشيطة خلال هذه المرحلة بين البلدين للافراد والجماعات ، واستقرار بعضهم
لفترة طويلة او قصيرة في احد القطرين . ويدخل فيها انتقال الافراد للتجارة او العمل الزراعي
او الصناعي ، او للارتزاق بالجندية كالاتراك والزواويين ، او بتسنم المناصب العلمية كالتدريس
والفتوى والقضاء والخطابة ، او للتعليم والتعلم ، او للهرب من العمل وكان هذا حال من ابتلوا بالهجرة
القسرية ، ثم دارت ظروف مناسبة لعودتهم كالامراء السعديين اللاجئين الى الجزائر واتباعهم وحال
كثير من الاندلسيين الذين تشتت شملهم بين الجزائر والمغرب ، او لزيارة مدافن الاولياء ، او ضحة
الزوايا والمرابطين ، او القيام بالسفارة ، وانحصرا الانتقال مع قافلة الحج . ولا يخفى ما كان لهذه
التنقلات والهجرات الطوعية والقسرية من نتائج ايجابية على العلاقات الاجتماعية بين الشعبين

اذ كانت تسهم في توطيد اواصر الأخوة بين الافراد والفئات الاجتماعية في المجتمعين ، وفي تحقيق مزيد من التجانس في مختلف الجوانب ، وفي العادات ، والتقاليد ، والافكار والآراء ، مما كان ينشأ عن تلك الاتصالات التي يقوم بها هؤلاء المتنقلون من فئات مختلفة بأفراد الفئات الاجتماعية المتنقلة اليها ، من علاقات ، وتأثر وتأثير من الجانبين ، ومصاهرات وروابط عمل . وبفضل هذه التنقلات استمر التجانس بين عادات المجتمعين الجزائري والمغربي وتقاليدهما القديمة والوافدة حديثا على ايدي الاتراك والاندلسيين والسودانيين والاوربيين . الا انه كان لهذه التنقلات المفتوحة آثارها ايضا السلبية في نقل بعض الآفات الاجتماعية كالامراض والاوبئة الخاصة بالانسان والحيوان والنبات .

* * * * *

واخيرا من كل مظاهر العلاقات بين البلدين ، السياسية والاقتصادية ، والثقافية والاجتماعية ، ومن كل نتائجها في البنى المختلفة في البلدين خلال هذه المرحلة ، يخلص الباحث الى ان العلاقات المنبثقة من البنى العميقة للمجتمعين الطبيعية والبشرية والثقافية والاجتماعية ، او ما اسميناه بعلاقات الشعبين الاصيلة ، كانت هي الاقوى والاثبت من العلاقات الدبلوماسية بين الحكومات ، وما نشأ عنها من صدامات ، وحروب ، اذ ظلت هذه العلاقات على الرغم مما تيل عنها من تعدد مفهومات القومية المحلية في القطرين ، وعدم تمكنها من الارتقاء بالعلاقات السياسية الى مستوى التوحيد ، بل وعدم التضامن امام المشكلات الصعبة الواحدة ، واهمها الغزو الخارجي ، ظلت تجري بمجرى الترابط والتلاقي وتدفع حكام البلدين مهما كانت اصالتهم الى التواصل بعد الافتراق ، والى السلام والتودد بعد الحروب .



ملحق رقم (1)

رسالة السلطان العثماني مراد الثالث الى السلطان السعدي احمد المنصور التي يعترف فيها الخلافة لهذا الاخير .

×=×=×=×=×=×=×=×=×

هو المعين . هذا كتابنا الشريف العالي ، السلطاني ، وخطابنا المنيف ، المتسامي
خاقاني ، لازال نافذا ، مصونا من التحريف بالعون الرباني . اصدرناه وأرسلناه منطويا على
تحيف ما أسلف أسلافنا عن اتحاف تحق تحية زكية في بحر الوداد ، واهداء هدية
نفيسة ثمينة من بحر الاتحاد الى جناب العالي ، الاميري ، الكبيري ، المولوي ، الهمامي
الحسني النسبي ، نسل السلالة الهاشمية ، فرع الشجرة الزكية ، النبوية ، طراز العصابة العلوية
امير جيوش المسلمين ، ظهير جيوش المجاهدين ، المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين ، سيد
الملوك والسلاطين ، بن خاتم النبيين ، الشريف مولاى احمد ، بن الشريف ، مولاى الحاكم يومئذ
بآفاق وفاس ، دام سعده وعلاه مصونا بعون ملك الناس .

وهو ينهي اليه ويوضح مضمون ما اندرج فيه ، ويعرف ويفصح مكنون ما اندرج في مطاويه
ان الله - تعالى ، عز شأنه عما يقولون - لما أظهر ، بمقتضى حكمته البالغة ، ما أضمر في مكامن
امره المكنون ، وخص بنوع الانسان من بين سائر الانواع ، ان يكون مدنيا بالطبع ، محتاجا في
التعايش الى التعاون والاجتماع ، وجعل نظام التعاون بينهم مربوطا بالتعادل الذى اتفق
عليه جميع الاوضاع ، ليندفع الشارع فيما تشتهي انفسهم وينزع النزاع .

ارسل من عنده عبده ورسوله سيد الانبياء والرسل ليبين لهم مناهج الدين وأقوام السبيل .
ثم استخلف عنه خلفاء ، الراشدين ، رضوان الله - تعالى - عليهم اجمعين . ثم جعل كلا ممن
سلاطين اهل الاسلام والمسلمين ، عضد الملة والدين . فتسلسلت سلسلة الانتظام الى هذا الحين .
أيد الله ذلك النظام أبد الآبدين ، [illegible] دنا ، واياكم من تلك الزمرة ، وأتانا من لدنه سلطانا
نصيرا ومشرفا بذكرنا وذكر اسمكم الشريف في كل قطر جهيرا وسريرا . وسلم الينا من عنده التسليم ،
يكفي لدافه الحميم مقاليد جمهور الامور ، وأجرى احكامنا واحكامكم من محل كرمه الجسيم ، متضمنة
الامور الجمهور .

فتبع بأمره الى مبايعتنا بالسلطانة الزاهرة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة جمع من ائمة الدين
والعلماء العلامة ، وجماهير ارباب العقد والحل ، من الولاة والحكام ، وكل من سار وداره وتوطن
في المدائن والامصار ، من ممالك الشرق والغرب ، وممالك السلم والحرب .

فتحنا ابوابنا العالية الاعتاب ، من جهة المعاهدات والمصادقات ، على وجوه الاعادى والاحباب
واثرنا متابعة اسلافنا الطاهرة ، الذين جمعوا باصلاح ذات البين ، بين خيرى الدنيا والآخرة
في حسب من يكن على الرشد والسواد ، خصوصا من التقى اليه اذا مات العبد . ومن مؤمن
نسل الشجر التي تنال الركع والسجد .

فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية العلية ، مهر السلطانية تشتمله موالاة تحتوى على
سلطانة يرتقل اوكاد ، وانه جعل اهله في الاقاليل والاصفاد وانه لكم جاره وعدو مضراره مركبها

ـية الاسلامية ، والمعرفة الاولية ، في النشأة الجنودية لاظهار الالفة الازلية ، في العوالم ـورية ، اذا صارت قلوب الملوك جنود المجندة التعارف ، والتناصر والائتلاف ، انعقد الاجماع ـلوب المودة وارتفاع الاختلاف .

فخلاصة الكلام بهذه التقدمة ، ونتيجة المرام من تلك المقدمة ، هو ان نتخذ عهدا وثيق ـيان ، ومحبة خالصة بين الاخوان ، بين الاولاد والاحفاد الى آخر الدوار ، مع مملكتنا ـاسخة الاقتدار ، ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب والاطراف ، من سوء الشقاق ـلا اختلاف ، ومحفوظتا الارجاء ، بالوفاق والائتلاف ، ونعلق العهد بالكعبة المنورة والروضة ـمطهـرة .

فاذا تم هذا الشأن ، واسس هذا البنيان ، صفى ما بين الاخوان ، نوجه لكم ثلثمائة غرابا ـسلطانية ونمشي عز ونصر ، وغزاة عثمانية ، تستفتح بها ـ ان شاء الله ـ بلاد الاندلس ـيكون على ايديهم انقاذها من الاعداء .

والله ـ تعالى ـ لا يخلي افق المملكتين من اقمار الغيرة ، ويجعل ثغور الثغور ببقائها ضاحكة مستبشرة ، ان شاء الله ـ تعالى ـ .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، تحريرا بأوائل رجب الفرد من عام ثمانية وثمانين وتسعمائة . المقام بقسطنطينية المحروسة (1)

---

(1) نقل نص هذه الرسالة عن مجلة الدراسات العربية واليهودية جزء ٦ سنة ١٩٥٧ وهو ملحق لمقال : داريو كابانيلاس (أو . ف . م) . وانظر النص الاصلي في المكتبة الوطنية لمدريد ، مخطوط رقم (٧٤٥٣) .

ملحق رقم (2) :

رسالة السلطان أحمد المنصور الى العلج علي وزير البحرية العثمانية وبايلرباي الجزائـر.

المثابة التي لها في تدبير الأساطيل الجهادية الخاقانية الأثر المشهور ، والمكانة التـي قد رسا في الأبواب العثمانية التنويه المضمون والصيت المذكور ، العلم الذي لا ينفك متلاعبا بغاية الفلك متون البحور ، والأمين الذي له في إيثار الجهاد السند المروي والخبر المأثـور ، نهاية الأبطال المصادم ، الماجد الفخم ، الأمين الأفضل ، الأصفى الأخلص ، الأثير الأحظى ، الأصيل الأرضى الأزكى الأسمى ، الهمام الأنمى ، الأرقى الأصعد ، الأنوه الأمجد ، الظاهر النزيه المعتبر الوجيه ، الأود الأحب ، الأنجد الأنجب ، الأنبه الأوجد ، الأسنى الأسعد ، أبو الحسـن علي باشا أبقاه الله ودمته محروسة الى الاعتناء بتجديد التالي والشراني ، ولا زال رفيع المكانة بذلك الجناب المؤيد العثماني ، كريم النفحة ، رائق الصفحة ، يعتمد جانبكم برحمة الله وبركاتـه.

أما بعد حمد الله الذي باسمه الحكيم تفتتح المبادي ، وبقدرته تم التصرف في كل رائح وغادي ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والرسـل ، والذخيرة العظمى التي هي للجنات غاية التوسل ، وعلى آله بدور كماله ، وصحابة فخره وجلاله ، وأصحابه الذيـن أوضحوا الشرائع وأرهفوا للمكافحة حده الصيوف الروائع ، فانا نكتبه اليكم كتب الله لكم من صالح الأعمال ما تحمد عاقبته في المآب ، وسنى لكم من المساعي الجميلة ما يؤكد حظوتكم بذلك الجناب ، من حضرتنا العلية ، ومن معسكرنا المحروسة بالله ، ولا ناشئ بفضل الله الا ما نود من الحسنى ، المثابة الحسنية من المواهب الجزيلة النعماء ، والموارد المستوجبة لأجزاء النعمـاء لهـــذه الله المتعـــة.

هذا وقد كانت تتدفق الينا على البعد أحوال الجهاد ، وحرف ولائكم ما زالت تهديه القلوب على شحط الدار ، ونسمات الأسحار ، وعقائد اخلاصكم بلسان الاشتهار هنا وهناك فـي القديم تتلى ، وعقائل مما قاتم على منصات الوفاء تجلى ، والاعتقاد الجميل بجنابكم صار لنــا قبل دأبا وديدنا ، وعلى دعائمه الشواهد لنا أسسنا عهدنا ، والاستمرار بموالاتكم كان أمره مستفيضا والاعتناء في الله على الدوام يلوح لنا من تلقائكم وعينا ، الى أن ورد خبر التحرك الذي كـــان لهذه الناحية ، والاحتفال الذي استنهضتم له ممالك الخاقانية ، من أهل الحاضرة والبادية ، فتأدى الينا عنكم أولا على وجه كان الذنب بكم خلافه ، وعلى تأويل ما كنا نعتقد بكم فيه اتبـــاع الهوى وإسعافه ، وما زلنا ونحن نجد غيره الغافلتم ، ذلك داعيه وسببه ، وتجردكم للعدوان لا لأمر اقتضاه وأوجبه ، وغاية التفكر في استحالة ودادكم الى ضده ، وانتقال الحب في اللـــه الراسخ من عهده ، وتكدير منهل الاخلاص بعد صفاء ورده ، وانتقاض حكم الولاء بعد تعديل شهوده وتسجيل عقده ، اذ ورد على بابنا رسولنا الآتي من تلكم الأبواب العثمانية ، والمؤدي لفضيلة الوقوف بتلكم العتبات الكريمة الخاقانية فاذن فأنهى الينا بما تلقاه منكم ، وصحت به روايتـــه الثابتة عنكم أن تحركتم ذلك على ما نفيتم ما كان منكم لباعث نفسي ، ولا لغرض كان لكم فيه محنوى ولا مسعى ، وانتم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار ، معولين في أمره من هنالك على حكم التعسـف

والانحدار ، ومجبورين على ارتكابه جبرا ما أغنى عنكم فيه الاعتذار ، وانكم او تركتم ومرادكم ، وغايتم واستنادكم ، ما كنتم تضرمون ابدا لهذه الجهة نار فتنة ولا محن ولا تركبون بقصدها الى امر تهيج ، ولا الامر راسالة تمشي على هون ، فعندما قررنا عنكم هذا النبأ المتأول ، والعذر الواضح لمن تأمل ، زال عن النفوس ذلك الامتعاض ، واستحالت الى المحبة القديمة الجواهر والأعراض ، وبقي الود في الله اذ ذاك مصون المروءة والاعراض ، فأنهينا اليكم مع الهنا هذا صحبة رسولينا الموجهين لتلكم الابواب العثمانية ، والعتبات العلائية ، الشيخ الامام ، العالم الذى له على صهوات المعارف المنزل والالمام ، الفقيه العلامة ، المحقق الفهامة ، المحدث المشارك البارع ، الاعرف الادرى البارع ، المرتدى من العفة والديانة رداء ، والعامل من النزاهة والمروءة لواء ، قاضي قضاة آفاقنا المغربية وحاضرتنا المظفرة العلوية ، السيد ابي الفضل قاسم بن علي الشادلي ورفيقه القائد الارضى ، والاوجه الاحظى ، الازكى الاسنى الاجمل الاسمى ، الارفع الارقى ، الابر الاتقى ، الانزه ، الانقى ، الانبه الاثير ، الافضل ، الخاير ، المعتبر المرعي ، الاصيل العمرى ابي زيد عبد الرحمن بن القائد الامجد الافضل ، الانمى ، الأحمى ، الانبه الاحظى ، الاصيل الاثير ، الوجيه النزيه ، المعتبر النبيه الاحمى الاسمى ، الاعلى الاسنى ابي علي منصور بن سعيد المرودى وصل الله سعادتهما ، وانجح بمنه وفادتهما ، اتعلموا منهما ان شاء الله ان ربع الوداد في الله مازالت تمد اره من ادوائنا عوارض الحوادث ، وتجوده من ولائنا سحائب تروضه ذلك الجناب الماحل ، وتتعرفوا منهما ان داعي المحبة منا الداعي الجفاء على الدوام مناضل ، وسيف التواصل بيننا لحبل القاطعة باتر ، ورسم التجمل عندنا ليس بداثر ، وعهده كل حين لدينا غير عاثر ، وحبكم في الله لا زال يدعوكم داعيه بعون الله الى الاعتناء بمن يرد من قبل هذه الابواب ، على سنن ذاتكم الجناب ، فجريا على دابكم الجميل المعتاد ، واعتناء منكم بهذا الجناب الاعتناء الواضح الاشهاد ، والله الذي يصل علاءكم ويديم بمنه بقاءكم ، والسلام الاتم الاعطر عليكم (1)

---

(1) انظر نص هذه الرسالة في رسائل سعدية لعبد الله كنون ، تطوان (المغرب) 1954 ص 68 – 72 .

ملحق رقم (3)

الرسالة الجوابية من السلطان العثماني "احمد" الى السلطان السعدي "زيدان"

الحمد لله الذي اعلى معالم الاسلام وبشر المجاهدين في سبيله بالنعيم المقيم في دار السلام وامر المؤمنين بتوفيق المجاهدين غاية الاكرام وجعل عبدة الاصنام وعبدة المشركيــــن وبردة الملحدين مدعوسة الرؤوس ومنكوسة الاعلام والصلوة والسلام على مارق الحق من الباطل وخارق شرك الشرك بشرعة المبشر بالدوام سيدنا ونبينا محمد المبعوث بسيف الجهاد وحسام الانتقام على قاصدي حصين حصن الايمان والاسلام وعلى آله العظام وأصحابه الكرام الذيــــن سعوا في ميادين الدين بأقدام الاقدام صلوة وسلاما دائمين الى قيام الساعة وساعة القيام .
اما بعد نسلم على ذلك المقام الجليل سلام اكرام وتبجيل ونثني الى ذلك المجد الجزيـل أعنة الثناء الجميل فننهي الى المقر العزيز والمحل العزيز لأحب احبابنا وأصدق اصدقاء ابوابنا عضد دولتنا الباهرة الزاهرة عضد عضد دولتنا القاهرة حارس الحصون الغربية لممالك الاسلام فارس مضمار اركان كل مرام مشيد اركان الانتقام مؤيد أس الاعتصام بالعروة الوثقى التي مالها من انفصام مبدد فرق البغي والاختصام اليفنا المبجل العلي الشان حليفنا المتمكن السمي المكان صاحب العز والمجد والسيادة رفيع الشأن المولى زيدان حفظه الله الملك المنان عن تطرق مكايد الزمان وانظره على الكفرة واهل الطغيان انه قد وصل الينا من مقامكم الشريف مع بالداسـاف الملك المداهف كتابان كريمان وبدرالاعلام كانهما الذات يتعطر بروائح انفاسهما النفيسـة مشام الآفاق وتفوح من مضامينهما فوائح تأكد الميثاق ويحسن الوفاق المبعوثان مع العالم العابد الورع الزاهد العارف جامع المعاهد والآداب والمعارف مفخر أرباب التمييز الشيخ عبد العزيـــز احدهما اجتمع فيه مواد المحبة والوداد وبرز انوار بدر المراد من افق الفؤاد (كذا) وذكر فيه معاهد والدنا المرحوم السلطان الماجد وتمام اجدادنا الأنام الأماجــد السلاطين العثمانية والخواقين الايمانية الذين كانوا خلفاء الله تعالى في ارضه واقطاره ، ولو كانت المعاهد ومـا لكانوا اقرها ولو كانت العميه بدرا لكانوا نوره وسناه ولو كانت الشجاعة غصنا لكانوا نوره وثمراه وسار فيه ما كان بين آباؤكم الكرام واسلافنا الفخام الذين حصل لهم تمام الصيت وعظيم الفخار والذكر الجميل الذي عم زوايا الآفاق والاقطار من العجب الذي لايقدر جياد القلم ان يحيط نظام بيانه (كذا) بجبات النقاط وشبكات الحروف من الانخراط سلك الوفاق والالتيام الذي يفال به في احياء الدين واعزازه كل مرام وما أوجب ارسال اذيال التأخير والامهال من الاشتغال بقتال الكفار الطاغين ومحاربة اعداء الدين واحزاب الشياطين والمجاهدة في رفع آفتهم والاستقصاء في استيصال شأفتهم (كذا) وبين فيه توجهكم بعد ما انمحت تلك الاقطار وآمنة الاطراف وصارت بكفاية مجاهدتكم سالمة الاكناف الى اظهار ما ادخرتم في البال من ارسال الكتاب وتجهيز رسلكم (كذا) ليبينوا ماعندكم من جميل الموالات والمخالصة والمشافهة ويقرروا ما انتم عليه من حسن عهود الآباء والاجداد مراعية والمكم الحسن معاودتكم من ديارنا وانصرافهم من اقطارنا بما يكون

سببا لاعزاز اهل الهدى واذلال الكفرة المترددين في هاوية الردى وباعثا لما يشد به من الاسلام العضد وتشد بمزيته دعامة من كفر وجحد واما المكتوب الآخر فهو ايضا مخصوص بالمبالغة في تنويه المحبة المغروسة وتروية المودة المؤسسة المحروسة ويشتمل على ذكر ما خصه الله تعالى بالسلاطين العثمانية والخواقين الايمانية من الخصائل التي يتقاصر عن عدها طوق المحصي ويتقاصر دون حصرها باع المستقصي ومنهما انقراضهم في البحر من اساطيل العدو وإباطيل اهل الطغيان والعتو حتى ارتسب انتقابهم ما اقتضى قفولهم وإيابهم وعن مبادلة ارسالهم على بلاد بعد ما تعذر السفر من جهة الجزائر لمانع وقع هناك ومنها حسن ابتداء الكفرة وعهدهم الصلح بين طوائفهم الفجرة وعن قصدهم والعياذ بالله على البلاد الاسلامية والديار الايمانية أذلهم الله تعالى وخذلهم وصرف وجوه التعسف قبلهم ، وعن استمدادكم منا صرف همتنا العليه الى ابطال طريق المعد الذي يتقوى به اعتضادهم ويتمشى استنادهم واعتمادهم وعنايتنا باعانة ولي الهداية مصروفة في كل حين الى نصرة اولياء الدين وعناية اعداء الله الكافرين حتى لا يمس المسلمين شر العدو ومضرته ولا يصدم المؤمنين فساد اهل الشرك ومضرته ، ولا يخفى عن علمكم ان من عادتنا الجميلة الموروثة من آبائنا واجدادنا اصحاب المآثر الجليلة ان نتلقى من يرد علينا ويرغب الينا من البلاد الشاسعة بالترحيب والترحيب باسداء له بما امل الانس ليفوز من سفره بنصيب وسرور في دفع مايرجونه من ساق الجد ونستفرغ في تحصيل مايطلبونه اقصى الوسع والجهد فلما قرأت (كذا) علينا آيات اخلاصكم واستقرت الينا مواد ودادكم واختصاصكم واحضر رسلكم في حضرتنا العلية في مقام المثول وعرض علينا هدايا الجبية المتلقاة بالقبول اثنينا على تلك الاخلاق الطاهرة والاخرات الزاهدة ثناء متأمل النفحات متين الصفحات فما دمتم في مراعاة الحقوق ساعين ولدولتنا الاسلامية راعين لاتلقون من سدة العز والاقبال سوى النظار بعين الاعزاز والاجلال وصدود النواد عن التضاد والابطال عن الاختلال ونرجو من الله ذي الرحمة والرأفة ان لا ينسخ بعد زمان المؤالفة بطوله ارض بعد المسافة بيننا واباكم من مسافته ومخافة وما ما ادى في ذلك الدين الجليل من المساعة بالسعي الجميل في ابطال اعمال اهل التضليل فنحن باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بادائه راجين منه تعالى عونه واحسانه ونرسل الاوامر الشريفة الى امرائنا المحافظين في حدود البصرة ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة ثم لا يخفى عن علمكم انه وصل عندنا واتضح لدينا شر الكفار وبعض الاعراب الاشرار قبحهم الله القهار وانزلهم دار البوار في بعض ديار تلك الاقطار مثل البحرين (كذا) والمعمورة وما يجاورهما من القلاع المشهورة وعزمكم من اخذهما وانتزاعهما وتطهير تلك الاراضي وبقاعها ، فكان اللائق بكم والواجب على ذمتكم ان تستمدوا بنا وتستعينوا باعتابنا قبل ان يتصادم الصفوف وتتزاحم الزحوف فنحن بعون الله وطوله قادرون على ايصال عسكر يضيق عليهم الطريق والمسالك ويلجئهم الى المضايق والمهالك ونخلص المسلمين من بوائق مكرهم وعوائق غدرهم وتكون اعانتنا هذه مرغمة لانوف الكافرين ومكسرة لبعض اهواء الفاسقين المتجاسرين حتى ينقطع اطماع اعدائكم من تلك البلاد وينتفي عنها اسباب الشر ومواد الفساد ولا يشغلنا عن الامداد بعون رب العباد اشتغالنا بما نحن عليه من اعداد لوازم الجهاد لاستئصال اهل الرفض والالحاد وازالة شوكة اهل الضلال والفساد وتجهيز العمارتين العظامتين الى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة حفظهم الله مما يورثوا الشين في الدارين ونحمد الله على ما اسبغ علينا من جزايل آلائه ونستزيده سبحانه جلائل نعمائه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، حرر هذا السفر المبارك في اوائل صفر الخير في سنة ست وعشرين والف المهجرة من الهالمعزو الخرة عليها الصلوة والسلام ما ختمت الصلوة بالسلام .

المصادر والمراجع

أ ـ الوثائق المخطوطة والمطبوعة والمصورة :
المغربية والعثمانية والاوربية

1 ـ مهمة دفتري (وثائق مركز الدراسات التاريخية ، مصورة من أرشيف رئاسة الوزراء التركية) .

2 ـ منشآت السلاطين (لفريدون بك) ، جزآن . 1264 هـ .

3 ـ رسائل سعدية (عبد الله كنون) . تطوان 1954 .

4 ـ الوثائق المنشورة في المصادر والمجلات المغربية والعثمانية والاوربية ، كمجلة الوثائق وتطوان ، وارشيف ماروكان ، والاندلس ، والمجلة التاريخية المغربية وغيرها .

5 ـ مجموعة الوثائق المنشورة تحت عنوان Sources Inedites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.) اي المصادر المغفلة لتاريخ المغرب ، جمع وتحقيق هنري دو كاستري وآخرين ، 21 مجلدا عن الدولة السعدية .

6 ـ مجموعة من وثائق مصورة من أرشيف سيمانكاس العام .

7 ـ الوثائق المغفلة لبرينيودان Documents Inedits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506 - 1574), ALGER 1875.

ب ـ المصادر والمراجع العربية

1 ـ الكتب المخطوطة والمطبوعة :

* ابن ابي دينار : (ابوعبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني) :
المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، ط 3 تونس 1967 .

* ابن ابي الضياف (احمد) :
اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ج 2 تونس 1963 .

* ابن ابراهيم (عباس) :
الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ، 5 اجزاء فاس 1937 .

* احمد بابا (التنبكتي) :
نيل الابتهاج بتطريز الديباج . فاس 1313 هـ .

* الاخضري (عبد الرحمن) :
شرح السلم المرونق في علم المنطق دمشق مخطوط .

* الافراني (او الوفراني : محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي) :
ـ نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي ، (تصحيح هوداس) آنجي 1888 م .
ـ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر . فاس 1309 هـ .

* بازمنة (محمد مصطفى) : ليبيا في عشرين سنة من حكم الاسبان . طرابلس 1965 م .
* بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية . (ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي) ، ط 5 بيروت 1968 م .
* البوريني (الحسن بن محمد) : تراجم الاعيان من ابناء الزمان . جزءان، دمشق 1963 م .
* التامنارتي (عبد الرحمن) : الفوائد الجمة في علوم الامة . (ترجمه الى الفرنسية : جوستينار) فرنسا 1953 م .
* التمجروتي (ابو الحسن علي) : النفحة المسكية في السفارة التركية . (ترجمة المتقدم / دوكاستري) المغرب 1929 م .
* التنسي (عبد الجليل) : نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان . باريس 1852 م .
* الجنابي (مصطفى بن حسين) : البحر الزخار والعلم الدليار . (في مستلات مخفلة لفانيان) الجزائر 1924 م .
* جودت (احمد) : تاريخ جودت (ترجمة عبد القادر افندي) بيروت 1308 هـ .
* الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجزائر العام . ج 2، الجزائر 1955 م .
* حجي (محمد) : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي . الرباط 1964 م .
* حسون (علي) : تاريخ الدولة العثمانية . دمشق 1980 م .
* الحفناوي (ابو القاسم) : تعريف الخلف برجال السلف . جزءان، الجزائر 1906 م .
* حميده (عبد الرحمن) : المملكة المغربية . (دراسة في الجغرافية البشرية) . القاهرة 1972 م .
* ابن خلدون : كتاب العبر . ج 7، بيروت 1977 م .
* داود (محمد) : تاريخ تطوان . مجلد 1، ج 8 . تطوان 1959 م .
* ابن زاكور : نشر ازاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان .
* زادية (عبد القادر) : مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493 - 1591 ، الجزائر 1971 م .
* الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . ج 1 .
* الزركلي (خير الدين) : الاعلام . 9 مجلدات وثلاثة مستدركات بيروت الطبعة الثالثة .
* الزياني (ابو القاسم احمد) : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب . ج 1 باريس 1886 م . (ترجمة هوداس)
* ابن زيدان (عبد الرحمن) : اتحاف اعلام الناس . ط 1 ، ج 1 الرباط 1929 م .
* سامح (عزيز) : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية (ترجمة عبد السلام ادهم) ط 1 ، بيروت 1969 م .
* سعد الله (ابو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن 10 الى القرن 14 هـ) الجزائر 1981 م
* السعدي (عبد الرحمن) : تاريخ السودان (تحقيق هوداس) . باريس 1964 م .
* السفياني (ابو العباس محمد بن محمد) : صناعة تسفير الكتب وحل الذهب . ط 2 . باريس 1925 م .

* السلاوي (ابو العباس احمد بن خالد الناصري) : كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (تحقيق وتعليق ولدى المؤلف : جعفر ومحمد) الدار البيضاء 1955م .
* السوسي (محمد المختار) : سوس العالمة . ط.1 الرباط 1379 هـ .
* عبد القادر (نور الدين) : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر . قسنطينة 1965م .
* ابن عسكر (محمد بن علي) : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. فاس 1309 هـ (ط حجرية)
* العقاد (صلاح) : المغرب العربي . ط. 3 مصر 1969م .
* ابن العماد (الحنبلي) : شذرة الذهب في اخبار من ذهب . ج . 8 مصر 1351 هـ .
* عنان (محمد عبد الله) : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . ط. 3 ، مصر 1966م .
* العياشي (ابو سالم) : ماء الموائد (رحلة) . جزءان . فاس 1316 هـ . (طبعة حجرية) .
* غيث (فتحي) : الاسلام والحبشة عبر التاريخ . بدون تاريخ الطبع ومكانه .
* فارس (محمد خير) : تاريخ الجزائر الحديث . دمشق 1969م .
— تاريخ المغرب الحديث والمعاصر دمشق 1982م .
* فريد (محمد) : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ط.2 مصر 1896م .
* الفشتالي (عبد العزيز) : مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفاء . (تحقيق عبد الله كنون) ق. 2 الرباط
— مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء (تحقيق عبد الكريم كريم) الرباط 1972م .
* ابن فضل الله (العمري) : مسالك الابصار .... (في مستخلصات مخطلة لفانييان) (الترجمة الفرنسية) الجزائر 1924م .
* ابن القاضون (عبد الكريم القسنطيني) : منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية (مخطوط)
فاس 1304 هـ .
* القادري (عبد السلام) : قصر العثماني .
* ابن القاضي (ابو العباس احمد المكناسي) :
— جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس . فاس 1309 هـ .
— درة الحجال في اسماء الرجال . ط. 1 ، 3 اجزاء القاهرة وتونس 70/ 1971م .
— المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور . (مخطوط) .
فاس 1313 هـ .
* الكتاني (محمد) : سلوة الانفاس . 3 اجزاء .
* الكراسي (محمد) : عروسة المسائل في تاريخ تطوان ، لمحمد داود ، المجلد الاول ، تطوان 1959م .
* كرد علي (محمد) : الاسلام والحضارة العربية . جزءان القاهرة 1968م .
* كريم (عبد الكريم) : المغرب في عهد الدولة السعدية . الرباط 1977م .
* كنون (عبد الله) : النبوغ المغربي في الادب العربي . جزءان . تطوان 1964م .
* ابن المبارك (احمد) : تاريخ قسنطينة . (تحقيق بونار رابح) ، ط.1 . الجزائر 1971م .

قانون الدولة المحمدية التامدارتية . (تصحيح جورج كولان) . الرباط 1934م.

* المجهول : – غزوات عروج وخير الدين . (تصحيح وتعليق عبد القادر نور الدين) . الجزائر 1934م.

* المحبي (محمد) : خلاصة الاثر . (4 مجلدات) مصر 1284م.

* المدني (احمد توفيق) : حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 – 1792) ط 1 . الجزائر 1968م.

* ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . (تحقيق ابن شنب، محمد) الجزائر 1908م.

* المقري (احمد ابو العباس) :
– روضة الآس العاطرة الانفاس . الرباط 1964م.
– نفح الطيب . (تحقيق الدكتور احسان عباس) . 7 اجزاء بيروت 1968م.

* المهدي (محمد الفاسي) : ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع . فاس 1313هـ.

تسنديلينة 1980م.

* المهدي (محمد) : أم الحواضر في الماضي والحاضر . القاهرة 1938م.

* مؤنس (حسين) : الشرق الاسلامي في العصر الحديث . (ط . 2) .

* الورثيلاني (الحسين بن محمد) : نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار . (تحقيق محمد بن شنب) الجزائر 1908م.

* الوزان (الحسن بن محمد ، المدعو : ليون الافريقي) : وصف افريقيا . (تحقيق عبد الرحمن حميده) السعودية 1399هـ.

* اليوسي (الحسن بن مسعود) : المحاضرات . فاس 1317هـ . (طبعة حجرية) .

2 – المجلات العربية

* مجلة الاصالة : تصدرها وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية . الجزائر

البوعبدلي (المهدي) : اضواء على تاريخ الجزائر في العهد العثماني من خلال مخطوط الناشر الجمناني . عدد 8 1972م.
– مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ . عدد 7 1972م.

التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني . عدد 23 1975م.

الصباغ (ليلى) : ثورة مسلمي الاندلس . عدد 27 1975م.

ابن آشنهو (عبد الحميد) : الايام الاخيرة لملوك بني زيان عدد 27 1975م.

* مجلة البحث العلمي : تصدر في الرباط بالمغرب .

ابن تاويت : سبتة الاسيرة . عدد 27 1977م.

التمتي (العلوي) : اسطول المغاربة . عدد 23 1974م.

حجي (محمد) : المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني . العددان 6 ، 7 ، 65/ 1966م.

اللوه (امينة) : قضية العرايش من خلال كتاب : L'ARACHE لمؤلفيه : Carlos (R.) & Tomas (G.) عدد 27 1977م.

* مجلة تاريخ وحضارة المغرب تصدر في الجزائر . عدد 3 1967

الرقية (محمد التلمساني) : الزهرة النيرة .

* مجلة التاريخ : تصدر في الجزائر عن مركز الدراسات التاريخية . عدد 4 1977

سعيدوني (ناصرالدين) . ندوة حول الوثائق العثمانية بالجزائر .

* المجلة التاريخية المغربية — تونس . عدد 10/ 11 1978

حجي (محمد) : النشاط الثقافي في المغرب في عهد الدولة السعدية . عدد 2 1974

الساحلي (خليل) : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر سنة 1552 . عدد 10/ 11 1978

التميمي (عبد الجليل) : الخلفية الدينية للصراع الاسباني — العثماني في القرن السادس والسابع عشر . عدد 5 1976

— رسالة من اهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الاول سنة 1519 عدد 12 1978

الساحلي : سنوات الازدهار او ازمات الامبراطورية العثمانية تعريب وتقديم التيمي .

* مجلة تطوان : تطوان المغرب . عدد 3/ 4 958/ 1959

ابن عبد الله (عبد العزيز) : البحرية المغربية والقرصنة . عدد 3/ 4/ 5/ 6/ 7/ 8/ 9/ 10 958—1965

ابن تاريست : من زوايا التاريخ المغربي . عدد 6 1961

[illegible] : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا . عدد 6 1961

حكيم محمد ابن عزوز : سفارة بدروفنيد الى المغرب (1579— 1581)

* مجلة دعوة الحق : المغرب . 1965

الكتاني (محمد عبد المالك) : مدخل الى دراسة الحضارة المغربية . 1964

الخطيب : (عبد اللطيف) : تاريخ حملة البرتغال على المغرب في العصاد والبرتغالية . عدد 6/ 7 1965

المنوني : — علاقات المغرب بالشرق في عصر المريني الثاني . عدد 2 1965

— اساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي . 1965

حركات (ابراهيم) : جمهورية ابي رقراق .

* مجلة كلية الآداب — بغداد . عدد 16 1973

القيسي (حبيب) : نظرات في بعض الملامح للحياة الروحية والفكرية في المغرب .

* مجلة مجمع اللغة العربية — دمشق . المجلد 51 1976

محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة .

* مجلة المناهل : — المغرب . عدد 7 1976

الجمل (شوقي عطا الله) : الحضارة الاسلامية في غرب افريقيا . عدد 2 1975

— الحسن بن محمد الوزان . عدد 8 1977

— علاقة المغرب بالاقاليم الصحراوية الواقعة جنوبه . عدد 9 1977

— محمد العياشي وجهاده ضد الاسبان والبرتغال . عدد 3 1975

— العلاقات الانجليزية المغربية . عدد 9 1977

التازي (عبد الهادي) : سفارة انطوني شيرلي وعلاقتها بالتدخل الاوربي في الخليج

ب - المصادر والمراجع الأجنبية

A - OUVRAGES:-

1- ARVIEUX: Mémoires de chevalier d'Arvieux, t.5, Paris 1735.

2- BARGÈS (l'ABBE): Complément de l'histoire des Beni Zéyan. Paris 1887.

3- " " : Histoire des Beni Zeyan. Paris 1852.

4- " " : Relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan sous les Beni Zéyan, 1vol., Paris 1853.

5- BEL (A.) et RICARD (P.): Le travail de la laine à Tlemcen. Alger 1913.

6- BERTHIER: Les anciennes sucreries du Maroc. Système hydrolique. Etude archiologique et d'histoire économique. Rabat 1966.

7- BOULET (l'Abbé): Histoire de l'empire des Chérifs en afrique. Paris 1733.

8- BRAUDEL (F.): La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de PHILIPPE 2, 2vol., Paris 1966.

9- BRUNSCHVIG: Deux récits de voyage inédits en afrique du nord au 15e siècle, Paris 1936.

10- CARETTE (E.): Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états Barbaresques, Paris 1844.

11- CENIVAL (P. DE): Description de l'Afrique de Séuta au Sénégal, par Valentin Fernando (1506-1507). Portugal 1698.

12- CHENIER (DE): Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire de Maroc, 3 vol., Paris 1787.

13- COINDREAU (R.): Les corsaires de Salé. Paris 1948.

14- COLOMB (M.): Le passé de l'Algérie, in Initiation à l'Algérie.

15- COUR (A.): Les établissements des dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.

16- DAN (R.P.): Histoire de la Barbarie et ses corsaires. Paris 1649.

17- DENICE: L'Afrique au 16e siècle et le commerce Anversois. Anvers 1937.

18- DEPONT(O.)et COPPOLANI(X.): Les confreries religieuses Musulmanes. Alger 1897.

19- ESTHERHAZI (W.): La régence d'Alger sous la domination Turque. 1 vol., Paris 1840.

20- FAGNAN: Extraits inédits relatifs au Maghreb. Alger 1924.

21- FEY (H.L.): Histoire d'Oran avant,pendant et après la domination Espagnole. Oran 1858.

22- GODARD (l'Abbe): Histoire du Maroc, 2vol., Paris 1860.

23- GONZALEZ (J.DE): Essais chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger 1886.

24- GRAMMONT (H.DE): Histoire d'Alger sous la domination Turque, 1515 - 1830 , 1 vol., Paris 1887.

25- HAEDO (F. DIEGO DE): Histoire des Rois d'Alger.(trad. H. DE GRAMMONT), Alger 1881.

26- HAMMER (J.): Histoire de l'empire Ottoman (trad.,J.J. Hellert) Paris 1837.

27- HAUSSER: La préponderance Espagnole (1559 - 1660), Paris 1946.

28- JULIEN (C.A.): Histoire de l'afrique du nord. Paris 1966.

29- JUSTINARD: Un petit royaume Berbère le"TAZEROUALT". Paris 1954.

30- LAFOUSSE (DE): Relation du Maroc et du Soudan à travers les âges. Paris 1924.

31- LAROUI (ABDELLAH): Histoire du Maghrib, t. 2. Paris 1975.

32- LAVOIX (H.): Catalogues des monnaies musulmanes, t. 1. Paris 189

33- LEON L'AFRICAIN(ou:Hassen Ibn Med Al-Wazan): Description de l'Afrique,(trad. de l'Italien par A. EPAULARD), 2 vol., Paris 1956.

34- MARMOL (L. DE CARAVAJAL): Description générale de l'Afrique. (trad. PERROT D'ABLANCOURT). Paris 1667.

35- MAS-LATRIE (DE):Traité de paix et de commerce et documents divers. Paris 1872.

35 bis- MARTINET & Autres :Histoire du Maroc, Casablanca 1967.

36- MASSON (P.): Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique Barbarèsque. Paris 1903.

37- MERCIER (E.): Histoire de l'Afrique septentrionale, 3 vol., Paris 1891.

38- MICHAUX (B.): Villes et tribus du Maroc. Région de Doukala. Paris 1932.

39- MONCHICOURT (CH.): Etudes Kairaouannaises (1450 - 1592), Paris 1909.

40- " " " : L'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba. Paris 1913.

41- MONROY: Du commerce des peuples de l'Afrique septentrionale. Paris 1845.

42- " " : Précis de l'histoire du commerce de l'Afrique septentrionale. Paris 1852.

43- MONTAGNE (RO.): Les Berbères et le makhzen dans le Maroc. Paris 1930.

44- MONTRAN (R.): Istambul dans la seconde moitié du 17ᵉ siècle. Paris 1962.

45- PARIS (R.): Histoire du commerce de Marseille dans le Levant. Paris 1957, t. 5.

46- PIERROT DESELLIGNY (I.): Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

47- PIQUET (V.): La civilisation de l'Afrique du nord, Paris 1917.

48- PRAX (M.): Commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan. Paris 1849.

49- PRIMAUDAIE(ELIE DE): Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française. Paris 1861.

50- PROVENCAL (E. LEVIE): Les historiens des Chorfa au Maroc. Paris 1922.

51- RICARD (P.): Les arts et industries indigènes du nord de l'Afrique (Arts Ruraux). Fez 1918.

52- ROTALIER (DE): Histoire de la régence d'Alger et de la piratrie des Turcs dans la méditerranée, 2 vol.,Paris 1841.

53- ROZET et CARETTE: Algérie. Tunis 1980.

36- MASSON (P.): Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique Barbarèsque. Paris 1903.

37- MERCIER (E.): Histoire de l'Afrique septentrionale, 3 vol., Paris 1891.

38- MICHAUX (B.): Villes et tribus du Maroc. Région de Doukala. Paris 1932.

39- MONCHICOURT (CH.): Etudes Kairaouannaises (1450 - 1592), Paris 1909.

40- " " " : L'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba. Paris 1913.

41- MONROY: Du commerce des peuples de l'Afrique septentrionale. Paris 1845.

42- " " : Précis de l'histoire du commerce de l'Afrique septentrionale. Paris 1852.

43- MONTAGNE (RO.): Les Berbères et le makhzen dans le Maroc. Paris 1930.

44- MONTRAN (R.): Istambul dans la seconde moitié du 17e siècle. Paris 1962.

45- PARIS (R.): Histoire du commerce de Marseille dans le Levant. Paris 1957, t. 5.

46- PIERROT DESELLIGNY (I.): Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

47- PIQUET (V.): La civilisation de l'Afrique du nord, Paris 1917.

48- PRAX (M.): Commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan. Paris 1849.

49- PRIMAUDAIE(ELIE DE): Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française. Paris 1861.

50- PROVENCAL (E. LEVIE): Les historiens des Chorfa au Maroc. Paris 1922.

51- RICARD (P.): Les arts et industries indigènes du nord de l'Afrique (Arts Ruraux). Fez 1918.

52- ROTALIER (DE): Histoire de la régence d'Alger et de la piratrie des Turcs dans la méditerranée, 2 vol., Paris 1841.

53- ROZET et CARETTE: Algérie. Tunis 1980.

54- RUFF (P.): La domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte D'ALCAUDÈTE (1534-1558). Paris 1900.

55- SOUSA(LUIZ DE): Les Portugais et l'Afrique du Nord, (trad., R. RICARD). Lisbone 1940.

56- TERRASSE (H.): Histoire du Maroc, t. 1,2. Paris 1950.

57- TORRES (DIEGO DE): Relation de l'origine et succès des Chérifs. Paris 1636.

58- VAYSSETTES : Recueil. Constantine 1867.

59- VOULX (DE): Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger. Alger 1853.

B- PERIODIQUES :-

* A.A. (Al Andalus), GRANADA España.

1- CABANELAS (R.): Cartas del Sultan de Marrucos a Filipe 2. t. 23, 1958.

* A.F.L. (Annales de la Faculte des Lettres), Aix-En-Provence.

2- LE TOURNEAU (R.): Decadence Sâdienne et anarchie Marocaine au 17e siècle, t. 32, 1958.

* A.I.E.O. (Annales de l'Institut d'Etudes Orientales), PARIS.

3- RICARD (R.): Le commerce de la Barbarie et l'Empire Portugais. 1936.

4- " " " : Le commerce Génois au Maroc. (1415 - 1550), t. 3, 1937.

* A.M. (Archives Marocains), PARIS.

5- JUSTINARD : Carnet d'El-Mansour, t. 29, 1933.

6- MICHAUX- BELLAIRE(E.): Les musulmans de l'Algérie au Maroc t.11, 1907.

* B.H.F.A.N. (Bulletins Historiques de la France en Afrique Noire), DAKAR.

7- MAUNY (R.): L'Expédition Marocaine d'Oudan(vers 1543- 1544) t. janvier, avril, 1949.

* B.S.G.A. (Bulletins de la Société Géographique et Archiologique)

8- BASSET(R.): Documents musulmans sur le siège d'Alger, par Charles-Quint 1541. ALGER 1890.

9- CUEVA(F. de la): Les guerres de Tlemcen, trad., BRUNEL. t., 10,11,12,13. ORAN 1890.

* C.T. (Cahier de Tunisie), TUNIS.

10- EMERIT(M.): Trois notes d'histoire Tunisienne, l'apropos de la caravane de Salé, t. 3, 1955.

* H. (Hesperis), PARIS.

11- CASTRIES(H. DE): La conquête du Soudan par AL-MANSOUR (1591), 1923.

12- " " " " : Les septs patrons de Marakech 1924.

13- CENIVAL(P. DE): La légende du juif Ibn Machâl, t.5, 1925.

14- CHAPPELLE(F. DE LA): Esquisse au sahara occidental, t. 10, 1930.

15- MICHAUX BELLAIRE : Les terres collectives du Maroc et la tradition. 1924.

16- RICARD(P.): Le Maroc à la fin du 16^{e} siècle. 1957.

17- RICARD(R.): Les Portugais et le sahara atlantique, t. 10, 1930.

* H.T. (Hesperis Tamuda), RABAT.

18- CAILLE(J.): Consuls Hollandais au Maroc à l'époque des Sultans Sa'diens, t. 11, 1970.

19- DZIUBINSKI(A.): L'Armée et la flotte de guerre Marocaine à l'époque des Sultans de la dynastie Sa'dienne, t. 13, 1972.

20- ROSEMBERGER et TRIKI HAMID : Famine et épidémie au Maroc au 16^{e} et 17^{e} siècles, t. 14. 1973.

* J.A. (Journal Asiatique), PARIS.

21- DELPHIN : Histoire des Pachas d'Alger.(1515-1745). 1922.

* M.E.A.H. (Miscelanea de Estudios Arabes,y,Hebraicos), ESPAÑA.

22-DARIO CABANELAS O.F.M.,:Proyecto de Alianza Entre Los Sultanes de Marruecos Y Tuquia contra FELIPE 2. vol. 9, 1957.

23- VERRONNE(CH. DE): Politica de Españã,de Marruecos y de los Turcos en los Reinos de Fez, y Tremecen a medidos del siglo 16, t. 3 1954.

24- " " " " : Séjour en Andalousie de deux princes Sa'diens après la bataille d'El-Kasr El-Kébir (1589-1595),t. 16,17.1967/68.

* R.A. (Revue Africaine), ALGER.

25- BOURAS : Gharaib al asfar, trad. ARNAULD, ts.22 a 27

26- BERBRUGGER : Cannes à sucre, t. 32. 1862.

27- " " " : Les époques militaires de la grande Kabylie. 1847.

28- " " " : Les frontières de l'Algérie, t. 24. 1860.

29- " " " : Négociations Hassan Agha et D'Alcaudète, 1865.

30- " " " : Le pignon d'Alger. 1866.

31- BRAUDEL: Les Espagnoles et l'afrique du nord(de1492 a 1577). 1928.

33- CAILLE(R.): Le commerce de l'Angleterre avec le Maroc pendant la secônde moitié du 16e siècle, 1940.

34- EISEMBETH(M.): Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque, (1516-1830), t. 96. 1952.

35- ERNEST WATBLED :Etablissement de la domination turque en Algérie . 1873.

36- FERAUD : Les Beni - Djellab, t. 136.

37- " " : Lettres Arabes de l'époque de l'occupation Espagnole en Algérie, t. 18. 1886.

38- HAEDO(F. D. DE): Topographia historia general de ARGEL. trad. Berbrugger et Monnereau 1870/71.

39- PLAYFAIR : Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les états Barbaresques avant la conquête Française, ts. 22,23,24. 1878/79/80

40- TERRASSE(H.): Réfléxions sur une frontière, t.100. 1956.

41- WATBLED et MONNEREAU :Négociations de Charles-Quint avec Kheir Edine, t.15.

* R.H.C.M. (Revue d'histoire et de la Civilisation du Maghreb), "ALGER"

42- GRILLON(P.): En marge d'un manuscrit du 16e siècle. Le registre de la chancellerie du consulat de France à Alger (1579 - 1582), t.1. 1966.

* R.H.D. (Revue Historique et Diplomatique), PARIS.

43- CAILLE(J.): Ambassades et chefs de missions Marocaines aux Pays-Bas, t. 4. 1963.

* R.H.E.S. (Revue d'Histoire Economique et Sociale) "PARIS".

44- DEVISSE(J.): Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée. t. 50. 1972.

* R.H.M. (Revue d'Histoire Maghrebine), "TUNIS".

45- TEMIMI(ABDELMADJID): Lettre de la population Algéroise au Sultan SALIM 1er en 1519, t. 5. 1976.

* R.M. (Revue Maritime), "ALGER".

46- LACOSTE(E.): La marine Algérienne sous les Turcs. 1931.

* R.M.M. (Revue du Monde Musulman), "PARIS".

47- GRAULLE : La mort et le tombeau de BABA AROUDJ, t.24, 1913.

48- " " " : Notice historique sur KALAT BENI RACHED, t. 24. 1913.

* R.O.M.M. (Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée), "AIX - EN - PROVENCE".

49- BOYER(P.): Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger, (du 16e S. au 19e Siècle), t. 1. 1966.

50- " " " : Espagne et Kouko, les négociations (de 1598 à 1610), t. 8. 1970.

51- " " " : Histoire des Beni Ameur, t. 24. 1977.

52- " " " : La revolution des Aghas, ts. 13, 14. 1973.

53- " " " : Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger 2e Congrès Int. et Nord Africain. 1970.

54- LE TOURNEAU(R.): Histoire de la dinastie SA'DIDE, t. 23. 1973.

55- GANDIN(G.M.): La remise de l'Arache aux Espagnoles en 1610, t. 7. 1970.

56- HARAKAT(Ib.): Le makhzane SA'DIEN, ts. 15, 16. 1973.

57- LAWLESS(R.I.): Tlemcen capitale du Maghreb central. Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, t. 20. 1975.

58- MOUGIN(L.): Remarques sur les débuts du marabout El-Ayachi (1563 - 1641). 1974.

59- VERONNE(CH.DE LA): Séjour en Andalousie des deux princes SA'DIENS(1580-1595),T.7, 1970.

60- " " " " " : Les relations entre le Maroc et la Turquie du 16ᵉ S. au début du 17ᵉ S. (1554 - 1616), t. 1. 1973.

* T.I.R.S. (Travaux de l'Institut de Recherches Saharienne),"ALGER"

61- EMERIT(M.): Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord. 1954.

المحتويــــــــــات